غوزال ياخينا

Гузель Яхина

زليخة تفتح عينيها

Зулейха открывает глаза

رواية

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

غوزال ياخينا

Гузель Яхина

زليخة تفتح عينيها

Зулейха открывает глаза

رواية

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

طرق على النافذة

المحْتويَات

الجزء الأول الدجاجة ـ المبلولة

في يوم واحد 9
طرق على النافذة 41
اللقاء 63

الجزء الثاني
إلى أين؟

في الطريق امرأة جميلة 89
القهوة 107
قازان 129
لحين الطلب 151
الهرب 177
البارجة 201

الجزء الثالث
العيش في التايغا

ثلاثون 229
الولادة 245
الشتاء الأوّل 267
البلدة 309
إنسان جيد 347
الطائر الملك 373
الملائكة الأربعة 391
الخيمة السوداء 413

الجزء الرابع
العودة

الحرب 441
يوسف وزليخة 459

الجُزء الأول

الدجاجة - المبلولة

في يوم واحد

تفتح زليخة عينيها. ظلام كسواد القبر يسود المكان. وطيور الإوز تتنهد ناعسة خلف الستارة الرقيقة، والمهر الذي بلغ عمره الشهر، يطقطق بشفتيه، باحثاً عن ثدي أمه. وراء النافذة عند رأسها- تئن ريح كانون الثاني أنيناً أصم، لكن الهواء لا يتسرب من الشقوق- الفضل في ذلك لمرتضى الذي سدّ الشقوق كلها قبل حلول البرد.

مرتضى رب بيت جيد، وزوج جيد. إنه يشخر شخيراً متدحرجاً دسماً في الشق الذكوري من البيت. نم عميقاً يا مرتضى، فأعمق النوم يكون ساعة السحر.

لقد حان الوقت. يا اللـه القادر على كل شيء! امنحني القدرة على إنهاء أعمالي كلها قبل أن يستيقظ الجميع.

في سكون تنزل زليخة رجلاً حافية على الأرض، ثم تنزل الثانية، وتتكئ على حافة الموقد، وتنهض. الموقد برد في أثناء الليل، ذهبت حرارته، والأرض الباردة تلسع قدميها. هي لا تستطيع انتعال حذاءها- فالحذاء المنزلي المصنوع من اللباد لن يمكّنها من السير دون صوت، إذ لا بد أن ترسل إحدى فردتيه صريراً مفاجئاً. لا بأس. زليخة تتحمل المشي حافية. مشت، مستندة إلى جدار الموقد الخشن، نحو باب الشق النسائي من البيت. المكان هنا ضيق ومزدحم، لكنها تعرف كل زاوية وكل ثنية فيه- فقد قضت نصف حياتها وهي تروح وتجيء أياماً بطولها من هنا إلى هناك، كالنواس؛ من القدر إلى النصف الرجالي من البيت بطاسات مملوءة بالطعام الحار، وتعود من هناك إلى القدر بطاسات فارغة باردة.

ترى كم عاماً مضى على زواجها؟ أخمسة عشر عاماً من أعوامها الثلاثين؟ إن هذا أكثر حتى من نصف عمرها على الأرجح. يجب أن تسأل عن ذلك مرتضى حين

يكون معتدل المزاج، وتطلب منه أن يحسب سني زواجها.

حذارِ أن تتعثر بالبساط، أو ترتطم رجلها الحافية بحرف الصندوق الموضوع إلى يمينها بمحاذاة الجدار، عليها أن لا تدوس فوق اللوح الخشبي عند زاوية الموقد، فهو يرسل صريراً، يجب أن تنزلق دون صوت عبر الشرشف (الشيت) الذي يفصل القسم الرجالي عن القسم النسائي في الكوخ... ها هو ذا الباب صار قريباً.

شخير مرتضى يقترب. نم، نم، بحق اللـه. لا يجب على المرأة أن تخفي عن زوجها شيئاً، لكن ما باليد حيلة، فثمة ما يضطرها إلى ذلك أحياناً.

المهم الآن ألاّ توقظ الحيوانات. الحيوانات تنام عادة في الإصطبل، لكن حين يشتد البرد يأمر مرتضى بإدخال المهر والطيور إلى المنزل. الإوزات تقف ساكنة، أما المهر فيدق الأرض بحافره، ويهز رأسه- لقد استيقظ هذا الشيطان الصغير. سيكون حصاناً جميلاً وحساساً. مدّت يدها عبر الستارة تتلمس سحنته المخملية: اهدأ. هذه أنا. فينفخ ذاك ممتناً في كفها،- لقد عرفها. تمسح زليخة أصابعها المبللة بطرف ثوبها، وتدفع الباب بكتفها برفق. الباب الثقيل الملفوف باللباد استقبالاً للشتاء، يستجيب بصعوبة، فتندفع من فتحته إلى الداخل غمامة صقيعية تتلوّى. تمشي زليخة إلى الأمام، تجتاز العتبة العالية،- ما عاد ينقصها غير أن تدوس عليها الآن فتوقظ الأرواح الشريرة، تفو!- تفو!- اجتازت العتبة ووصلت إلى المدخل. فتحت الباب وأسندت إليه ظهرها.

الحمد للـه، لقد انتهى هذا القسم من جولتها بنجاح.

الجو في المدخل بارد كما في الشارع،- يلسع البرد جلدها فالثوب لا يدفئ. جداول من الهواء الصقيعي تلسع قدميها الحافيتين متسربة من شقوق الأرضية. لكن هذا ليس مخيفاً.

المخيف هو ما وراء الباب المقابل.

حماتها العجوز الدموية الشيطانية الشمطاء- أوبيريخا،- هكذا كانت زليخة تسميها في سرها،- تلطّف اللـه العلي القدير فجعلها تقيم في منزل آخر. لقد كان بيت مرتضى واسعاً، يتألف من كوخين يربط بينهما مدخل واحد. ويوم جاء مرتضى ابن الخامسة والأربعين، بزليخة بنت الخامسة عشرة إلى المنزل، راحت أوبيريخا وقد ارتسمت على وجهها علائم الألم، تنقل بنفسها صناديقها الكثيرة، وصررها، والأواني إلى كوخ الضيوف فشغلته كله. «لا تلمس شيئاً!»- صاحت بغضب في وجه ابنها حين حاول مساعدتها في الانتقال وقاطعته شهرين كاملين. في ذلك العام بدأت تفقد بصرها بسرعة، وبعد فترة قصيرة شرعت تصاب بالصمم، ولم ينقض عامان حتى صارت عمياء، صماء كالحجر. غير أنها الآن صارت تتكلم كثيراً إلى حد يصعب معه إيقافها عن الكلام.

لا أحد يعرف كم هو عمرها حقيقة. هي تؤكد أن عمرها مئة عام. ومرتضى جلس قبل أيام يحسب، جلس طويلاً، ثم أعلن أن أمه محقة، وأن عمرها نحو المئة، فقد أنجبته متأخراً، وهو نفسه يكاد يكون الآن عجوزاً.

تستيقظ أوبيريخا، عادة قبل الجميع، وتحمل إلى المدخل بعناية فائقة كنزها الثمين- مبولة ليلية من القيشاني الأبيض الحليبي بمقبضين بلون أزرق فاتح على الجانبين وغطاء طريف المظهر (مرتضى جلبها لأمه هدية من قازان). والمفترض بزليخة أن تسرع لتلبية نداء حماتها فتفرغ المبولة من محتوياتها، وتغسل بعناية هذا الإناء الثمين أولاً، قبل أن تشعل الموقد، وتحضر العجين، ثم ترسل البقرة مع القطيع إلى المرعى، والويل لها إذا تأخرت في النوم ولم تقم بهذه الجولة الصباحية.

في الأعوام الخمسة عشر الماضية تأخرت في النوم مرتين- وقد منعت نفسها عن تذكّر ما حدث بعد ذلك.

الجو، وراء الباب، ما زال هادئاً. هيا يا زليخة، أيتها الدجاجة المبللة، أسرعي. كانت أوبيريخا أول من أطلق عليها هذا الاسم- «جيبيفيان تافيك». ولم تلحظ زليخة متى وكيف أطلقته هي نفسها على نفسها.

تتسلل في عمق المدخل وتصعد السلّم إلى السقيفة، تتلمس الدرجات الخشبية الملساء المثبتة بقوة. الدرجات مائلة قليلاً وخشبها المتجمد برداً يرسل أنيناً يكاد لا يسمع. ومن الأعلى تفوح رائحة الخشب البارد، والغبار المتجمد، والقش الجاف، ورائحة مالحة للحم الإوز المقدد تكاد لا تلحظ. تصعد زليخة- ضجة العاصفة الثلجية تصبح أقرب، والريح تضرب السقف وتعوي في زوايا المكان.

قررت أن تمشي في السقيفة مستعينة بأطرافها الأربعة، لأن ألواح الأرضية إذا مشت على قدميها، سترسل صريراً مباشرة فوق رأس مرتضى النائم. أما إذا زحفت فستجتاز المسافة لأنها خفيفة الوزن، فمرتضى يستطيع أن يحملها بإحدى يديه كحمل صغير. شدت قميص نومها على صدرها كي لا يتسخ بالغبار، وعقدت ذيله وعضت على العقدة بأسنانها- ثم راحت تتقدم بين الصناديق والعلب والأدوات الخشبية، وتزحف بحذر بين الجذوع التي تعترض طريقها. فترتطم جبهتها أخيراً بالجدار.

تنهض واقفة وتنظر عبر نافذة السقيفة الضيقة. في ضباب السحر الرمادي الداكن تلوح المنازل التي غمرها الثلج غائمة في بلدة يولباش موطن مرتضى. ذات يوم عدّ في هذه البلدة أكثر من مئة دار. إنها قرية كبيرة، لا مجال للإنكار. الطريق الريفية تنساب متلوية كنهر وتغيب وراء الأفق. لقد بدأ الضوء يشع من بعض النوافذ وعليك أن تسرعي يا زليخة.

تقف وتشد جسدها إلى أعلى، في كفها يستقر شيء ما ثقيل، أملس، إنه إوزة مقددة محزّزة حزوزاً عريضة. معدة زليخة ارتعشت في الحال وأصدرت أصواتاً

تطالب بالطعام. لا، لا يجوز أن آخذ الإوزة. تترك الإوزة المقددة، وتتابع البحث. هو ذا المطلوب! إلى اليسار من نافذة السقيفة عُلّقت مسطحات كبيرة ثقيلة تصلبت بفعل الصقيع تفوح منها رائحة فاكهة ضعيفة. إنها ألواح مد عليها القمردين الذي طبخ جيداً في فرن الموقد ثم مد بعناية فوق الألواح الخشبية العريضة، وجُفف بعناية على السطح متشبعاً بأشعة شمس آب ورياح أيلول ذات البرودة المنعشة. يستطيع المرء أن يقضم منه قطعة صغيرة ويظل يمصها فترة طويلة منقلاً القطعة الحامضة قليلاً تحت سقف حلقه، ويستطيع إذا شاء أن يملأ فمه بقطعة منه ويلوك، يلوك هذه القطعة المرنة باصقاً في راحة يده البذور النادرة فيها...

امتلأ فم زليخة باللعاب فور تخيلها ذلك.

أخذت عن حبل القمردين الممدود قطعتين ولفتهما بقوة ثم دستهما تحت إبطها. ومرّت بيدها على ما تبقى عالقاً بالحبل. ما زال هناك الكثير، الكثير منه- يجب ألاّ يعرف مرتضى بذلك.

والآن حان وقت العودة.

تقف على ركبتيها وتزحف نحو السلم. كتلة القمردين تمنعها من التحرك بسرعة. إنها بالفعل دجاجة مبللة، لم تفكّر في أن تحضر معها وعاء ما. تنزل على السلم ببطء: هي لا تشعر بساقيها- ساقاها مخدرتان، لا بد من وضع قدميها المتجمدتين بشكل عرضاني على درجات السلم. وحين تبلغ الدرجة الأخيرة ينفتح باب مسكن أوبيريخا بصخب، وتظهر قامة في الفراغ المعتم، ويرتطم بالأرض رأس عكاز ثقيل.

- من هناك؟- تسأل أوبيريخا الظلام بصوت ذكوري منخفض. تجمد زليخة. قلبها يتألم، ومعدتها تتقلص في كتلة باردة. لم أنجح... والقمردين لين ويذوب تحت الإبط.

تخطو أوبيريخا إلى الأمام. لقد تعلّمت في خمسة عشر عاماً من العمى السير في زوايا البيت كلها، وهي تتحرك فيه بحرية وثقة.

تطير زليخة صاعدة درجتين إلى أعلى وهي تضغط بمرفقها بشدة إلى جسدها قطعة القمردين اللينة.

تدير العجوز ذقنها إلى جهة ثم إلى أخرى. إنها لا تسمع شيئاً، ولا ترى شيئاً، لكنها تشعر بوجود شيء. يا لها من غولة عجوز. إنها، قولاً واحداً، أوبيريخا. تقرع الأرض برأس عكازها بصوت يعلو ويقترب أكثر فأكثر. أوه، إنها ستوقظ مرتضى...

تقفز زليخة من جديد صاعدة عدة درجات من السلم، وتلتصق بإفريزه وتبلل شفتيها اللتين جفتا بلعابها.

تتوقف القامة البيضاء عند أسفل السلّم. ويتناهى إلى سمع زليخة صوت تنفسها وهي تنشق الهواء بصخب وقد اتسع خيشوماها. تقرب زليخة كفها من وجهها- هذا ما خمنته. إنها رائحة لحم الإوز المقدد والمشمش. وفجأة تقوم أوبيريخا بهجمة رشيقة إلى الأمام وتضرب بكل قوتها درجات السلّم بعكازها الطويل، وكأنها تقطع تلك الدرجات إلى نصفين بضربة سيف. وأخيراً تصفر العصا في مكان قريب جداً وتنغرس مرسلة رنيناً في إحدى الدرجات على بعد أقل من نصف إصبع عن القدم الحافية لزليخة التي ضعف جسدها، وسالت قطعة القمردين الذائبة على درجات السلم. ترى ماذا سيحدث لو ضربت الغولة العجوز السلم بعكازها مرة أخرى؟... لكن أوبيريخا تدمدم بكلمات غير مفهومة وتسحب عكازها، ويُسمع الصوت الأصم لارتطام مبولة الليل بالأرض في العتمة.

- زليخة!- تصرخ أوبيريخا بصوت حاد موجهة نداءها نحو نصف الكوخ الذي يسكنه ابنها.

هكذا يبدأ النهار عادة في البيت.

تبتلع حنجرة زليخة الجافة كتلة اللعاب الكثيف التي تجمعت في فمها.

هل انتهى كل شيء حقاً؟ تضع قدميها بحذر على درجات السلم هابطة. ثم تنتظر برهة.

- زليخة- آ-آ!

حان الوقت الآن. حماتي لا تحب تكرار النداء مرة ثالثة. قفزت زليخة نحو أوبيريخا- «قادمة طيارة، طيارة!»- وأخذت من يديها المبولة الليلية، المغلقة، الدافئة الممتلئة بسائل لزج يتصاعد بخاره، كما تفعل كل يوم.

- أتيت أيتها الدجاجة المبلولة،- تقول متذمرة.- أنت تحبين النوم، وتحبين الكسل أكثر من النوم بكثير.

من المرجح أن الضجة أيقظت مرتضى، الذي قد يخرج إلى المدخل. زليخة تضغط تحت إبطها قطعة القمردين (هي لا تريد إضاعتها في الخارج!)، تتلمس بقدميها حذاء منزلياً لأحدهم وتسرع خارجاً. العاصفة الثلجية تلطم صدرها، تلطمها بقبضة قوية محاولة اقتلاعها من مكانها. قميصها يرتفع إلى أعلى كفوهة ناقوس. الشرفة أمام المدخل تتحول إلى تلة من الثلج،- تنزل زليخة إلى أسفل، تتلمس بقدميها الدرجات بصعوبة. وتندفع نحو المرحاض وساقاها تغوصان في الثلج حتى ركبتيها. تصارع باب المرحاض وهي تفتحه في اتجاه يعاكس اتجاه الريح. تقذف محتويات المبولة الليلية في الفتحة المتجمدة. وحين تعود إلى المنزل لا تجد أوبيريخا التي دخلت إلى مسكنها في هذه الأثناء.

يستقبلها مرتضى على عتبة الباب وهو ما يزال يغالب النعاس، وفي يده مصباح كيروسين نقال. حاجباه الكثيفان متقاربان فوق أنفه، والتجاعيد عميقة على خديه اللذين ما يزالان مدعوكين نتيجة النوم، وكأن أحدهم قد حفرها بسكين.

- هل جننت يا امرأة؟ تخرجين في العاصفة- شبه عارية!

- أنا أفرغت مبولة الماما فقط،- ثم عدت...

- هل تريدين أن ترقدي مرة جديدة مريضة نصف الشتاء؟ ويقع عبء البيت كله على عاتقي؟

- ماذا تقول يا مرتضى! أنا لا أشعر بالبرد مطلقاً. انظر!- تمد زليخة كفيها المحمرين بوضوح إلى الأمام وهي تضغط خصرها بمرفقيها ضغطاً شديداً.- انتفخت قطعة القمردين تحت إبطها. أتراها ظاهرة تحت قميصها؟ قماش القميص بلله الثلج فالتصق بجسدها.

لكن مرتضى غاضب، حتى إنه لا ينظر إليها. يبصق جانباً، ويمسح بكفه المنتفخ رأسه الحليق، ثم يمسد لحيته المشعثة.

- هيا نأكل! وبعد أن تنظفي أرض الدار استعدي- سنذهب لجمع الحطب.

تحني زليخة رأسها، وتقفز مختفية وراء الستارة. لقد نجحت! لقد نجحت! مرحى يا زليخة، مرحى أيتها الدجاجة المبلولة! ها هي ذي الغنيمة: قطعتان مجدولتان من ألذّ أنواع الفواكه المجففة ملتصقتان بقطعة القماش التي تلفهما. أتراها تستطيع أن توصلهما اليوم؟ وأين ستخفي هذه الثروة الآن؟ يجب ألاّ تتركها في البيت، فأوبيريخا تفتش البيت في غيابهما، وتعبث بالأشياء. لا بد، إذن من حملها معها. هذا خطر طبعاً، غير أن اللـه، على ما يبدو، في صفها اليوم- وستنجح حتماً.

تلف زليخة غنيمتها جيداً بقطعة طويلة من القماش تحزم بها وسطها، ثم تسدل فوقها قميصها وترتدي ثوبها وسراويلها الطويلة. يعد ذلك تجدّل شعرها وتضع المنديل على رأسها.

الظلمة الكثيفة وراء النافذة خلفها، باتت أقل كثافة، يخترقها الضوء الضعيف لصباح يوم شتوي عابس. تزيح زليخة الستارة عن النافذة- كل شيء أفضل من أن تعمل في الظلام. مصباح الكيروسين الموضوع على زاوية الموقد يلقي ضوءاً شحيحاً مائلاً على الشق النسائي من المنزل، لكن مرتضى، المدبّر بطبعه، أنزل فتيله كثيراً ولم يترك غير جزء صغير يشتعل بضوء يكاد لا يرى. هذا لا يهمّ، فهي تستطيع أن تقوم بأعمالها كلها وهي مغمضة العينين.

ويبدأ يوم جديد.

هدأت العاصفة الثلجية قبيل منتصف النهار، فأطلت الشمس على السماء الساطعة بزرقة خفيفة. وانطلقت هي وزوجها لجمع الحطب.

جلست زليخة على المقعد الخلفي في العربة مديرة ظهرها إلى مرتضى، تتأمل بيوت يولباش الآخذة في الابتعاد.

بيوت خضراء وصفراء وزرقاء داكنة تبدو كفطور لامعة تحت أكوام الثلج. وأعمدة عالية من الدخان الأبيض تذوب في زرقة السماء. ويطقطق الثلج طقطقة لذيذة عالية تحت عجلات العربة. وترتجف الفرس ساندوغاش بين الفينة والأخرى، تهز غرتها وقد أنعشها الصقيع. فروة الغنم القديمة التي تجلس زليخة فوقها تدفئها. وتسخن غنيمتها الملفوفة فوق بطنها، فتبعث فيها الدفء أيضاً. كل همها هو أن تنجح في إيصالها اليوم...

يداها تؤلمانها وكذلك ظهرها- في الليل هطل ثلج كثير، وظلت زليخة طويلاً تزيح الثلج المتراكم بالرفش، فاتحة في الفناء دروباً عريضة من الفسحة أمام الباب إلى العنبر الكبير، ثم إلى العنبر الصغير، وبعد ذلك إلى المرحاض، ثم إلى الحظيرة الشتوية، وإلى الفناء الخلفي. ما ألذ أن يقضي المرء بعد العمل وقته جالساً في وضع مريح وفي عربة تهتز برتابة، منحشراً عميقاً في معطف شتوي

سميك فوّاح الرائحة، داسّاً يديه اللتين خدّرهما البرد في كميه، مسنداً ذقنه إلى صدره، ومغمضاً عينيه...

- استيقظي يا امرأة، فقد وصلنا.

مرّت العربة أمام أشجار ضخمة، وفوق وسائد من الثلج الأبيض على راحات أشجار السرو وتحت تيجان أشجار الصنوبر البري الفضفاضة، وعلى أغصان أشجار البتولا تجمد الجليد خيوطاً رفيعة وطويلة كشعر البنات، وساد الصمت على جوانب تلال الثلج الضخمة ممتداً فراسخ كثيرة في المنطقة.

يشد مرتضى إلى حذائه اللبادي الزلاجات، ويقفز من العربة، يعلّق البندقية على كتفه، ويصلح وضع البلطة الكبيرة المعلقة بحزامه، ثم يأخذ بيديه عصوي التزلج، وينطلق واثقاً يشق طريقه في لجة الثلج من دون أن يلتفت حوله. تتبعه زليخة.

الغابة قرب يولباش جيدة، غنية، تطعم أهل القرية في الصيف كرزاً برياً كبير الحبة، وحبّات الديس الصغيرة الحلوة المذاق. وفي الخريف تطعمهم الفطور الفواحة، وفيها الكثير من طرائد الصيد البري. ومن أعماق الغابة يجري نهر تشيشما الذي يكون عادة ودوداً، ضحلاً، ممتلئاً بأسماك سريعة الحركة وسلطعانات بطيئة الحركة، لكنه في الربيع يتحول إلى الجريان السريع حاملاً معه كتلاً منتفخة من الثلج والأوساخ. لولا الغابة والنهر لما نجا الناس من الموت في أعوام المجاعة الكبرى- ولولا رحمة اللـه طبعاً.

مرتضى مضى اليوم بعيداً، حتى نهاية طريق الغابة تقريباً. لقد شُقّت هذه الطريق منذ زمن بعيد، وهي تقود إلى حدود ذلك الجزء من الغابة الذي لا تخترقه الشمس، ثم تنفتح على فسحة متطرفة محاطة بتسع أشجار من السرو معوجة السيقان، وتنتهي هناك. بعد الفسحة لا توجد طرق، تنتهي الغابة، ويبدأ دغل كثيف لا تخترقه العواصف، تسكنه الوحوش وأرواح الغابة وشتى أنواع الشياطين.

أشجار الصنوبر البري المعمرة قروناً، التي تنتصب كرماح مدببة الرؤوس تنمو بكثرة في الدغل إلى حد يجعل حتى الخيول عاجزة عن اجتيازها. أما الأشجار ذات الألوان الفاتحة- أشجار السرو ذات الجذوع الحمراء، وأشجار البتولا، وأشجار السنديان الرمادية فلم يكن لها أي وجود أبداً.

يقولون إننا نستطيع أن نصل إلى أراضي الماريين إذا سرنا من دون شمس أياماً كثيرة متتالية. لكن هل يقدم أي شخص عاقل على مثل هذه المغامرة؟! لم يجرؤ أهل القرية حتى في أيام زمن المجاعة الكبرى أن يتجاوزوا حدود الفسحة المتطرفة: كانوا يأكلون لحاء الشجر ويطحنون العفص، وينبشون جحور الفئران بحثاً عن الحبوب- لكنهم لم يدخلوا إلى الدغل. أما الذين دخلوه فلم يرهم أحد يعودون.

توقفت زليخة لحظة، وضعت سلتها الكبيرة فوق الثلج. وراحت تتلفت حولها بقلق- ما كان على مرتضى أن يقطع هذه المسافة الطويلة على كل حال.

- هل ما زال المكان بعيداً يا مرتضى؟ أنا لم أعد أرى ساندوغاش عبر الأشجار.

لا يجيبها زوجها- يستمر في السير إلى أمام، يغمره الثلج حتى الخصر في الأرض البكر، مستعيناً على الثلج المتراكم بعصويه الطويلتين، مزيحاً الثلج الطري بمغرفتي ثلج عريضتين، فتعلو فوق رأسه بين الفينة والفينة غيمة من البخار الصقيعي.. يتوقف أخيراً قرب شجرة بتولا عالية، مستقيمة الساق، كثيرة الأغصان، يربت على جذعها باستحسان ويعلن: سنقطع هذه.

يمهد مرتضى الثلج حولها في البداية، ثم يخلع معطفه السميك، يمسك بقوة بلطته الكبيرة المعقوفة الرأس، ويشير بها إلى فسحة صغيرة بين الأشجار قائلاً: «سنجعلها تسقط في هذا الاتجاه»- ثم يبدأ بقطعها.

حدّ البلطة يلتمع في ضوء الشمس ثم ينغرس في خاصرة الشجرة محدثاً صوتاً أصم «تشاخ». «آخ! آخ!»- يتردد صدى ذلك الصوت. تخترق البلطة لحاء الشجرة السميك المزنر بخطوط سوداء جميلة، ثم تنغرس في لب الساق ذي اللون الوردي اللطيف، فتتطاير منه النثرات كأنها الدموع، ويملأ الصدى الغابة.

«إن هذا الصوت مسموع حتى في الدغل»- تقول زليخة في سرها قلقة. هي تقف مبتعدة قليلاً، يغمرها الثلج حتى الخصر، تحمل السلة في يدها- وتنظر كيف يقطع مرتضى الشجرة. يطوّح بيده بعيداً ملوّحاً بالبلطة ثم يحني قامته المرنة ويهوي بالبلطة بدقة على الشق الأبيض المتعرج الأطراف في خاصرة الشجرة. إنه رجل قوي، وكبير، يعمل بمهارة. لقد حصلت على زوج جيد، حرامٌ عليها أن تشكو منه. أما هي، فهي ضئيلة تكاد لا تصل بقامتها إلى كتف مرتضى.

سرعان ما تشرع شجرة البتولا في الاهتزاز بقوة متزايدة، وتئن بصوت أعلى. الجرح الذي أحدثته البلطة في جذعها يشبه فماً فاغراً يطلق صراخاً أخرس. يلقي مرتضى المطرقة جانباً، وينفض عن كتفيه نثار الخشب والعيدان الصغيرة، ثم يدعو زوجته بحركة من رأسه: تعالي، ساعديني. يضغط الاثنان بأكتافهما جذع الشجرة الخشن ويدفعانه أقوى، فأقوى. تعلو طقطقة عالية متقطعة، ثم تسقط شجرة البتولا على الأرض مرسلة أنيناً وداعياً عالياً، ومثيرة نحو السماء غيمة من غبار ثلجي.

يجلس الزوج على جذع الشجرة المهزومة، فيقطع أغصانه الثخينة. أما الزوجة فتجمع الأغصان الصغيرة في السلة إلى جانب الأعشاب اليابسة. يقضيان وقتاً طويلاً في العمل. يؤلمها ظهرها، كتفاها ينوءان بالإرهاق، يداها متجمدتان رغم ارتدائها قفازاتها السميكة.

- مرتضى، هل صحيح أن أمك في شبابها زارت الدغل عدة أيام وعادت سليمة؟- جلّست زليخة ظهرها وحرّكت خصرها كي ترتاح.- لقد أخبرتني بذلك

زوجة الشيخ، أما هي فسمعت الخبر من جدتها.

هو لا يجيبها، يتأمل بلطته ويفكر كيف يقطع بها غصناً معوجاً على ساق الشجرة.

- لو كنت مكانها لمت من الخوف. لو كنت هناك لانشلّت ساقاي، على الأرجح، ولرقدت على الأرض مغمضة العينين، أصلي دون توقف ما دام لساني يتحرك. يضرب مرتضى الجذع ببلطته فيطير الغصن كالنابض جانباً وهو يرتعش ويصفر.

- لكنهم يقولون إن الأدعية تفقد قدرتها في الدغل. صلّ أو لا تصلّ، فالنتيجة واحدة- ستموت... ما رأيك...- زليخة تخفض صوتها:-... هل يوجد مكان على الأرض لا تراه عين اللـه؟

يلوّح مرتضى بالبلطة ثم يغرسها عميقاً في جذع الشجرة الذي يرن في الصقيع. يخلع غطاء رأسه ويمسح براحة يده جمجمته المحمرة العارية من الشعر، التي تشع حرارة، ثم يبصق بصقة سميكة بين قدميه. ويعودان إلى العمل من جديد.

تمتلئ سلة القش اليابس بسرعة- هي لن تحملها، ستجرها خلفها جراً. شجرة البتولا منظفة من الأغصان، ومقطعة إلى عدة قطع كبيرة من الحطب. أما الأغصان الطويلة فترقد منضدة بعناية في رزم فوق كومات الثلج من حولها.

لم يلاحظا كيف حلّ الظلام. حين رفعت زليخة عينيها نحو السماء، كانت الشمس مختفية وراء نتف السحب. تهب ريح قوية، تصفر فتثير دوامات من الثلج.

- هيا نذهب إلى البيت يا مرتضى، العاصفة الثلجية تعود من جديد.

لا يجيب الزوج، بل يواصل حزم الرزم المنضدة بالحبال. وحين ينتهي من حزم آخر رزمة تعوي العاصفة الثلجية بين الأشجار عواء شرساً.

يشير بقفازه المصنوع من الفراء إلى قطع الحطب: في البداية سننقلها. أربع قطع من الحطب المقطع الذي كان جذعاً. كل قطعة منها بطول زليخة. يصرخ مرتضى، ويرفع طرف القطعة الأثخن عن الأرض. زليخة ترفع طرف القطعة الثانية، لا تستطيع حملها على الفور، تحاول طويلاً التغلب على القطعة الثخينة الخشنة الملمس.

- هيا!- يصرخ مرتضى بنفاد صبر.- هيا يا امرأة!

تنجح أخيراً، تحضن القطعة بكلتي يديها ملصقة صدرها ببياض الخشب الطري المشوب بالحمرة، الذي يخز بشرتها بنتوءاته القصيرة الحادة. يتجهان نحو العربة. يسيران ببطء. أيديهما ترتجف. يخشيان سقوط الحطب الذي يحملانه. يا إله السموات نجني من سقوط الحمل. إذا سقطت هذه القطعة على ساقي سأبقى عاجزة طول العمر. ترتفع حرارتها، جداول ساخنة تسيل على ظهرها وبطنها. اللفافة التي تحت ثدييها، تبللت كلها- طعم القمردين الحلو سيشوبه طعم مالح. لا يهم. المهم هو فقط أن أستطيع إيصال اللفافة اليوم...

ساندوغاش ما تزال تقف مطيعة في المكان ننفسه، تحرّك قوائمها بكسل. الذئاب في هذا الشتاء قليلة والحمد للـه، لذلك لا يخاف مرتضى أن يترك الفرس وحيدة فترة طويلة.

بعد نقل الحملين إلى العربة، ترتمي زليخة إلى جانب حملها، تخلع قفازها، تحلّ ربطة منديل رأسها المعقود على عنقها. يؤلمها التنفس وكأنها ركضت دون توقف من أول القرية إلى آخرها.

يمشي مرتضى عائداً إلى حيث الحطب من دون أن ينطق بكلمة. تنزلق زليخة من العربة وتتبعه. ينقلان القطع الكبيرة المتبقية، ثم رزم الأغصان الثخينة، ثم رزم الأغصان الرفيعة.

حين انتهيا من وضع الحطب في العربة كانت عتمة المساء الشتوية الكثيفة تغطي الغابة. لم يبق عند قرمة شجرة البتولا المقطوعة قبل قليل إلا سلة زليخة.

- سلة القش ستجلبينها أنت،- قال مرتضى وشرع في شد الأحزمة فوق الحطب لتثبيته.

هبت الرياح هبة غير مازحة، ناثرة بغضب الغيوم الثلجية في كل الجهات، جارفة الآثار التي تركتها أقدام المارة فوق الثلج. تضم زليخة قفازيها إلى صدرها وتنطلق في الدرب التي تكاد لا تلحظ في عتمة الغابة.

حين وصلت إلى مكان القرمة التي تعرفها كان الثلج قد جرف السلة وغمرها. تقطع غصناً من إحدى الشجيرات وتشرع تبحث من حولها. غارسة العود الذي قطعته في الثلج. ستسوء حالها إذا فقدت السلة. سيوبخها مرتضى ثم يهدأ، أما أوبيريخا فستشتمها حتى تشبع، ستصب عليها كل سمّها، وستتذكر هذه السلة حتى تموت.

ها هي ذي، حبيبتي ترقد هنا! تنتشل زليخة السلة الثقيلة من تحت كومة ثلج سميكة، وتتنهد بارتياح. تستطيع الآن أن تعود، لكن أين الطريق؟ العاصفة الثلجية ترقص حولها بوحشية. سيول الثلج البيضاء تندفع كالسهام إلى أعلى وإلى أسفل في الهواء، مغطية زليخة، مرغية، مزبدة. وتتعلق السماء بين الذرا الحادة لأشجار السرو كتلة ضخمة من القطن الرمادي، وتغمر الظلمة الأشجار من حولها فتصير متشابهة كأنها ظلال بعضها بعضاً.

الدرب- غير موجودة.

- مرتضى!- تنادي زليخة، فتملأ العاصفة فمها ثلجاً- مرتضى آ-آ-آ... العاصفة تغني، ترنّ، تصفر مجيبة نداءها.

يضعف جسدها، ترتخي ساقاها وكأنهما من الثلج. تتهالك زليخة، على القرمة مديرة ظهرها للريح، ممسكة السلة بإحدى يديها، وفتحة معطفها السميك باليد الثانية. يجب ألّا تغادر مكانها- ستضيع إذا فعلت ذلك. الأفضل أن تنتظر هنا. أيمكن أن يتركها مرتضى في الغابة؟ لو فعل لفرحت أوبيريخا كثيراً... ترى ماذا سيحلّ بلفافة القمردين؟ هل ضاع كل ما بذلت من جهد عبثاً؟

- مرتضى- آ-آ!

من قلب الغيمة تظهر قامة كبيرة داكنة ترتدي معطفاً سميكاً بلا أكمام. يمسك مرتضى كمّ زوجته بقوة ويجرها خلفه عبر الدوامة الثلجية.

- لا مجال للركوب في العربة- الحطب كثير، والحصان لن يقوى على الجر، لذلك سيعودان ماشيين: مرتضى يمشي في المقدمة، يقود ساندوغاش ممسكاً بعنانها، تتبعه زليخة ممسكة بطرف العربة الخلفي، تنقّل قدميها المتعثرتين بصعوبة بالغة. لقد امتلأ حذاؤها اللباد بالثلج، لكنها لا تجد القوة اللازمة لإفراغه. يجب عليها الآن أن تمشي، أن تنقّل قدميها: يمنى، يسرى، يمنى، يسرى... هيا يا زليخة، أيتها الدجاجة المبلولة. أنت، نفسك، تعرفين أنك ستموتين إذا ابتعدت عن العربة، فمرتضى لن يلاحظ ذلك، وستتجمدين في الغابة.

إنه، على كل حال، إنسان جيد- عاد لإنقاذها. لقد كان باستطاعته أن يتركها هناك، في قلب العاصفة،- ولن يهتم أحد بكونها حية أو ميتة. أما هو فسيقول: ضاعت في الغابة ولم أجدها- وبعد موتها بيوم لن يتذكرها أحد...

يبدو أن المرء يستطيع أن يمشي مغمض العينين، بل إن ذلك أفضل- الساقان تعملان، والعينان ترتاحان. المهم أن تظل ممسكة طرف العربة بقوة، وألاّ تفرد أصابعها...

الثلج يضرب وجهها ضرباً مؤلماً، ينحشر في أنفها وفمها. ترفع زليخة رأسها، تنفض عنه الثلج. تجد نفسها راقدة على الأرض، وفي الأمام ترى طرف العربة الخلفي يبتعد، وحولها دوامة من الثلج الأبيض. تنهض، تلحق بالعربة، تمسك طرفها بقوة، وتقرر ألاّ تغمض عينيها حتى تصل إلى الدار.

حين دخلا الفناء كان الظلام سائداً. ينزلان الحطب قرب المخزن المخصص له (مرتضى سيقطّعه غداً)، يحرران ساندوغاش، ويغطيان العربة.

نوافذ مسكن أوبيريخا التي تغطي زجاجها طبقة كثيفة من الجليد، مظلمة، لكن زليخة تعرف أن حماتها تشعر بعودتهما، وأنها تقف الآن وراء النافذة تصغي إلى صوت حركة ألواح الأرضية الخشبية: تنتظر أولاً أن تهتز بسبب اصطفاق الباب الخارجي ثم ترتعش بعد ذلك كالنابض على وقع خطوات رب البيت الثقيلة. سيخلع مرتضى ملابسه ويغتسل بعد وعكة الطريق،- ثم ينتقل إلى مسكن أمه. هو يسمي ذلك «زيارة سمر مسائية». ترى ما الحديث الذي يمكن أن يدور بينه وبين عجوز صماء؟ زليخة لا تفهم ذلك. غير أن تلك الأحاديث كانت تدور طويلاً، تستمر ساعات في بعض الأحيان. وكان مرتضى يخرج بعد ذلك من عند أمه هادئاً، معتدل المزاج، يستطيع حتى أن يبتسم أو يمزح.

هذا الموعد المسائي هو اليوم في صالح زليخة. فما إن يرتدي قميصاً نظيفاً، ويذهب لزيارة أوبيريخا، حتى تسرع زليخة فتضع على كتفيها معطفها السميك الذي لم يجف بعد، وتقفز خارجة من الكوخ.

الإعصار يضرب يولباش بثلج صلب كبير الندف: زليخة تندفع في الدرب في مواجهة الريح، حانية جذعها كثيراً إلى الأمام، كما لو كانت تصلي. نوافذ البيت الصغيرة التي يشع منها ضوء مصابيح الكيروسين الأصفر المريح تكاد لا ترى في العتمة.

ها هي ذي الضاحية. هنا، تحت سور آخر بيت، يعيش «باسو كوبكا إياسي» أنفه متجه إلى الأرض، وذيله متجه نحو يولباش- إنه روح الضاحية: زليخة نفسها لم تره من قبل، لكنهم يقولون إنه سريع الغضب جداً، كثير التأفف. وكيف لا؟ إنه يقوم بعمل صعب: يطرد الأرواح الشريرة ويبعدها عن القرية، لا يتركها تمر عبر الضاحية، ويساعد أهل القرية إذا كانت لديهم حاجة ما عند أرواح الغابة، ويشفع لهم عندها. إن عمله جاد لا مجال فيه للمرح.

تفتح زليخة معطفها، وتبحث طويلاً في ثنيات حزامها، مخرجة اللفافة القماشية الرطبة، المخبأة فيه.

- سامحني على إقلاقي لك مرات كثيرة،- تقول في وجه العاصفة.- ساعدني هذه المرة أيضاً، لا ترفض طلبي.

إرضاء الأرواح ليس أمراً سهلاً. يجب أن يعرف المرء ما الذي تحبه كل روح. الروح الضئيلة الشأن التي تقيم في الحظيرة «بيتشورا» مثلاً، لا تطلب الكثير. تضع لها صحنين متسخين فيهما بقايا حبوب مطبوخة أو بقايا حساء، تلحسهما في الليل وتقرّ عيناً. أما «بيتشورا» التي تعيش في الحمام فأكثر تطلباً- يجب عليك أن تضع لها بعض الجوز أو البذر المحمص. أما الروح التي تقطن في الاصطبل فتحب المعجنات، وروح مدخل البيت- تحب قشر البيض المسحوق. وأما روح الضاحية فتحب الحلويات. هكذا علمتها أمها.

حين جاءت زليخة أول مرة تطلب من «باسو كابكا إياسي» أن يطلب من «زيران إياسي»، روح المقبرة، أن يعتني بقبور بناتها، ويغطيهن بطبقة سميكة من الثلج كي لا تشعر البنات بالبرد، ويطرد عنهن الأرواح الشريرة «شورالي»، حملت إليه السكاكر، ثم حملت إليه الجوز المغطس بالعسل، والفواكه المجففة، أما القمردين فتحمله إليه لأول مرة، فهل سيعجبه؟

تفصل رقاقات القمردين المتلاصقة عن بعضها بعضاً، وترميها واحدة بعد أخرى أمامها، فتجرها الريح إلى مكان ما في الحقل- تدور بها، تفتّلها ثم تحملها إلى جحر «باسو كابكا إياسي».

لم تعد أية رقاقة مرتدة إلى زليخة- روح الضاحية قبل الضيافة وإذن، فهو سيلبي الطلب: سيتحدث على طريقته مع روح المقبرة، ويقنعه. وسترقد البنات في دفء وهدوء حتى حلول الربيع. زليخة كانت تخاف أن تكلم روح المقبرة مباشرة- فهي، على كل حال، ليست امرأة وقحة، ليست «أوشكيروتشي».

تشكر «باسو كابكا إياسي»- تنحني انحناءة كبيرة في العتمة- ثم تسرع عائدة إلى البيت قبل أن يعود مرتضى من عند أوبيريخا. حين وصلت إلى مدخل البيت، لم يكن زوجها قد عاد من عند أمه. شكرت إله السماوات- مسحت وجهها بكفيها- نعم، لقد كان اللـه اليوم إلى جانبها فعلاً.

في الدفء يستولي عليها التعب. اليدان والساقان كالحديد الصب. والرأس كالقطن. الجسد يطلب شيئاً واحداً- الهدوء. تقوم بسرعة بإشعال الموقد الذي برد منذ الصباح. تضع فوق الديوانة العريضة صينية الطعام لمرتضى. تسرع إلى الاصطبل الشتوي، تشعل الموقد هناك أيضاً. تضع العلف للحيوانات، وتنظف الاصطبل من برازها، تأخذ المهر إلى ساندوغاش لرضعة المساء. تحلب البقرة (كوبيليك)، ترقّد الحليب، تنزل من اليوك العلوي وسادات زوجها، تنفشها (مرتضى يحب الوسادات العالية). إنها، أخيراً، تستطيع أن تذهب إلى مرقدها خلف الموقد.

الأولاد ينامون عادة فوق الصناديق، أما النساء فيُترك لهن مكان فوق الديوانة العريضة، منفصل عن القسم الذكوري منها بستارة سميكة. غير أن زليخة ابنة الخامسة عشرة كانت قصيرة القامة حين جيء بها إلى بيت مرتضى، الأمر الذي سمح لأوبيريخا أن تقول في اليوم الأول، وهي تغرس نظرة عينيها اللتين كانتا

آنذاك عسليتين في جسد العروس: «هذه قصيرة القامة ولن تسقط من فوق الصندوق»، فحددوا مكان إقامة زليخة فوق صندوق قديم تزنّره أشرطة معدنية مثبتة بمسامير لامعة مدعبلة الرؤوس. قامة زليخة لم تنمُ منذ ذلك الحين، لذلك لم تكن هناك ضرورة لنقلها إلى أي مكان آخر، وهكذا شغل مرتضى الديوانة كلها.

تمدّ زليخة الفرشة واللحاف على الصندوق، وتخلع قميصها عبر رأسها، وتبدأ في تسبيل ضفائرها. أصابعها لا تطاوعها، ورأسها يتدلى على صدرها. وتسمع نصف نائمة صوت الباب ينصفق: لقد عاد مرتضى.

- أأنت هنا يا امرأة؟- يسألها من النصف الذكوري.- أوقدي الحمام. ماما تريد أن تستحم.

تدس زليخة وجهها بين كفيها. تحضير الحمام يستغرق وقتاً. زد على ذلك أن عليها أن تحمم أوبيريخا... فمن أين ستستمد القوة؟ ليتها تستطيع أن تجلس ساكنة بضع لحظات أخرى، عند ذلك ستأتيها القوة... فتنهض... وتوقد الحمام...

- ما بالك تنوين النوم؟! في العربة تنامين، وفي البيت تنامين. لقد صدقت ماما: أنت كسولة!

تقفز زليخة واقفة.

مرتضى يقف أمام صندوقها، حاملاً في يده مصباح الكيروسين الذي يرسل ضوءاً راعشاً، ذقنه العريضة ذات الغمّازة العميقة في وسطها، متوترة، غاضبة، وظله يغطي نصف الموقد.

- أنا آتية، آتية فوراً يا مرتضى،- تقول بصوت متحشرج، وتنطلق ركضاً.

تنظف في البداية الطريق إلى الحمام من الثلج (هي لم تنظفه في الصباح- لم تكن تعرف أنها ستضطر إلى إيقاده). تنقل الماء من البئر- عشرين دلواً. أوبيريخا

تحب اللهو في الماء، ثم تشعل النار في موقد الحمام، وتنثر الجوز لروح الحمام بيشورا) خلف المقعد، كي لا يقوم بمشاكسات ولا يطفئ الموقد، ولا يسمح بتصاعد الدخان منه، ولا يعيق الاستحمام، بعد ذلك تغسل أرض الحمام، وتنقع مقشّات التدليك، ثم تحضر الأعشاب الجافة من السقيفة: أعشاب لتنظيف وتعطير الأماكن السرية من جسد الذكر والأنثى ونعناع تغليه لتطييب رائحة البخار. ثم تفرش بساطاً نظيفاً في عتبة الحمام، وتحضر ملابس داخلية نظيفة لأوبيريخا ومرتضى، ولها هي أيضاً. وعليها ألاّ تنسى الوسائد وإبريق الماء البارد الصالح للشرب.

بنى مرتضى الحمام في زاوية الفناء خلف العنبر والإصطبل. عمّر الموقد «بطريقة حديثة»، انشغل طويلاً بالرسوم في مجلة أحضرها من قازان، كان يحرّك شفتيه من دون صوت، وهو يمرر ظفره العريض على الصفحات الصفراء، ثم ينضد قطع القرميد ويقارنها بالصور. يوصي في معمل الصناعي البروسي ديزيه في قازان بصنع مرجل وفق مقاييس محددة- يضعه بدقة في المكان المخصص له، ويكسوه بقشرة ملساء من الطين الفخاري. أوقدت زليخة هذا الموقد، فأدفأ الحمام، وسخّن الماء بسرعة، وكان المهم في كل ذلك تلقيمه بالحطب في الوقت المناسب،- إنه ليس موقداً بل تحفة تسرّ النظر، فقد جاء حضرة الملا نفسه لمشاهدته ثم بنى مثله في منزله.

في أثناء أداء زليخة لأعمالها، اختبأ تعبها عميقاً في مكان ما، تجمّع كتلة واختفى إما في نقرتها، وإما في عمودها الفقري، كتلة ستنبثق سريعاً موجة كثيفة، تُسقطها على الأرض، وتغرقها. لكن هذا لن يحدث قريباً. أما الآن فقد بات الحمّام جاهزاً، وباتت دعوة أوبيريخا للاستحمام أمراً ممكناً.

دخل مرتضى على أمه دون أن يطرق الباب. أما زليخة فظلت طويلاً تطرق بقدميها الأرض بقوة أمام الباب كي تستعد العجوز لاستقبالها، إنها ستشعر

بارتجاج الأرض الخشبية إذا كانت مستيقظة، فتستقبل كنتها بنظرة صارمة من عينيها العمياوين الواسعتين. أما إذا كانت نائمة فعلى زليخة أن تخرج فوراً، وتعود في وقت آخر.

«ليتها تكون نائمة»- تتمنى زليخة وهي تدق الأرض بحرص عند مدخل كوخ حماتها، ثم تفتح الباب مواراباً وتمدّ رأسها من الفتحة.

ثلاثة مصابيح كيروسين على قواعد معدنية حمراء تضيء الغرفة الفسيحة (أوبيريخا تشعل هذه المصابيح دائماً في المساء قبيل زيارة مرتضى)، وأرضية منظفة بسكين حادة، ومحفوفة بالرمل النهري، تلمع لمعان النحاس (في الصيف تمزّق جلد أصابع زليخة كلها وهي تنظفها): وستائر مطرزة من التول على النوافذ- ستائر منشّاة يمكن للمرء أن يجرح بحدها يده، وعلى الجدار منشفة مستطيلة ملونة بالأخضر والأحمر، ومرآة بيضاوية الشكل، ضخمة، لو وقفت أمامها زليخة لانعكست صورتها فيها من الرأس حتى القدم، وساعة جدارية كبيرة يلتمع إطارها بلون الكهرمان الأصفر، ونواسها المعدني يدق محدداً الوقت، ببطء ولكن من دون توقف. ونار صفراء تهسهس في موقد مرتفع (كان مرتضى يوقده بنفسه، ولم يكن مسموحاً لزليخة حتى أن تلمسه)، وشريط من الحرير الرقيق كخيوط العنكبوت تحت السقف، يحيط بالغرفة كإطار ثمين.

في صدر الغرفة على سرير معدني ضخم بظهر مصقول مزين بالرسوم، تجلس العجوز غارقة في تلال من الوسائد، قدماها على الأرض في جوربين ناعمين بلون الحليب، مطرزين بخيوط ملونة، وعلى رأسها منديل أبيض طويل معقود على طريقة العجائز، ينعقد فوق حاجبيها الكثين، ويلتف باستقامة وثبات على الرقبة المتهدلة ككيس، وعضلات وجهها البارزة العريضة تلتصق بشقيّ عينيها الضيقين المثلثيي الشكل بسبب ميلان جفونها المتدلية على جانبيهما.

- قد يموت المرء وهو ينتظر أن توقدي الحمّام،- قالت الحماة بهدوء.

فمها مسترخ ومجعّد كرقبة إوزة عجوز، وخال من الأسنان تقريباً، لكن لفظها للكلمات واضح ومفهوم.

«لا يعقل أن تموتي،- تقول زليخة وهي تتأمل الغرفة،- أنت ستحضرين جنازتي، وتصفينني بأبشع الصفات».

- لا تحلمي بذلك، أنا سأعيش طويلاً،- تتابع الحماة كلامها. تضع الفرشاة جانباً، وتتلمس رأس العكاز المعقوف، الذي اسودّ بفعل الزمن.- سنعيش أنا ومرتضى، بعدكم جميعاً، نحن جذرنا قويّ والشجرة التي ننمو منها شجرة طيبة.

«ستتكلم الآن على جذري المتعفن» تقول زليخة في سرها وتتنهد بحسرة، وهي تقدم للعجوز فروة طويلة لها شكل ثوب منزلي، وقبعة عالية من الفراء، وحذاء من اللباد.

- نحن لسنا مثلك يا ذات الدم المائع.- تمد العجوز ساقها النحيلة إلى الأمام، فتنزع زليخة بحذر عنها الجورب الناعم كالفراء، وتضع القدم في الحذاء- اللباد الخشن.- لقد نشأتِ بلا قامة وبلا وجه. قد يكون ما بين ساقيك مدهون بعسل الشباب، لكن هذا المكان ليس سليماً تماماً، أليس كذلك؟ أنت لم تأتِ إلى الدنيا إلا بالبنات- وحتى هؤلاء لم يبق منهن واحدة على قيد الحياة.

تشد زليخة الجورب الثاني بقوة زائدة، فتصرخ العجوز من الألم.

- على مهلك يا بنت! أنا أقول الحقيقة. أنت تعرفين ذلك. سينقرض جنسك أيتها النحيلة البارزة العظام، سيتشوه. وهذا حق: فالجذر المتعفن يتعفن، والجذر الصحيح- يحيا.

تستند أوبيريخا إلى عكازيها وتنهض عن السرير فتصبح، على الفور أطول من زليخة بمقدار طول رأس كامل، تشمخ بذقنها العريضة التي تشبه حافر فرس، وتشخص بعينيها البيضاوين إلى السقف:

- لقد شاء الرب القدير أن أرى في الليلة الماضية حلماً حول ذلك.

تضع زليخة الفروة على كتفي أوبيريخا، وتلبس قدميها الحذاء اللباد، وتلف رقبة العجوز بشال ناعم الملمس.

يا إلهي القادر على كل شيء، أحلم مرة أخرى؟! حماتها لا ترى الأحلام إلا نادراً، لكن الأحلام التي تراها وازنة: إنها غريبة، وقاسية أحياناً، وممتلئة بالتلميحات والإشارات الغامضة، ينعكس فيها مقبل الأيام غائماً ومشوهاً، كما لو كانت تظهر في مرآة عكرة وغير مصقولة. حتى أوبيريخا نفسها لم تكن تستطيع معرفة معانيها دائماً. لكن بعد مرور أسابيع أو عدة أشهر تنكشف أسرارها حتماً- يحدث شيء ما كثيراً ما يكون سيئاً، ونادراً ما يكون جيداً، لكنه مهم دائماً، يكرر بدقة مشوهة صورة الحلم الذي بات نصف منسي.

لم تخطئ الغولة أبداً. ففي عام ألف وتسع مئة وخمسة عشر بعد عرس ابنها مباشرة حلمت بأن مرتضى غارق بين أنوار حمراء. لم يستطيعوا تفسير الحلم، لكن سرعان ما حدث حريق في المزرعة، و، وظل العنبر والحمام القديم مشتعلين فترة طويلة- وهكذا انكشف المعنى المخبأ في الحلم. وبعد نحو شهرين رأت العجوز في المنام جبلاً من الجماجم الصفراء لها قرون قرميدية، فتنبأت بانتشار الطاعون الذي حصد كل المواشي في يولباش. في السنوات العشر التالية كانت الأحلام كلها حزينة ومخيفة: قمصان أطفال تعوم خالية، وحيدة في النهر، وأسرة أطفال مقسومة نصفين، وصيصان غارقة في الدم... أما زليخة فكانت في هذه الأثناء قد دفنت أربع بنات: لقد كان مخيفاً منامها حول المجاعة الكبرى عام واحد وعشرين حيث رأت حماتها الهواء أسود كالهباب،- الناس يعومون فيه وكأنهم في الماء، ثم يذوبون ببطء وبالتدريج، فاقدين أيديهم، ثم سيقانهم، ثم رؤوسهم.

- هل سنظل نتعرّق طويلاً هنا؟- دقت العجوز الأرض بعكازها نافدة الصبر. ثم تتوجه نحو الباب قبل الجميع.- أتريدينني أن أسخن، كي أصاب بنزلة صدرية عند

الخروج إلى الشارع؟

تطفئ زليخة فتائل مصابيح الكيروسين بسرعة وتتبعها. تتوقف أوبيريخا في المدخل. لا تخرج منفردة. تمسك زليخة بمرفق حماتها، فتغرس تلك أصابعها ذوات العقد في يدها غرساً مؤلماً- وينطلقان إلى الحمام. تمشيان ببطء وحذر، تنقّلان أقدامهما فوق سطح الثلج الزلق، العاصفة الثلجية تهدأ، والثلج محا نصف ملامح الطريق.

- هل نظفت الفناء من الثلج؟- تقول أوبيريخا بلهجة ساخرة، وتسمح لها بأخذ الفروة عن كتفيها في مدخل الحمام متابعة:- هذا واضح! تردّ رأسها إلى الخلف وترمي القبعة العالية على الأرض (زليخة تسرع لالتقاطها)، تتلمس الباب ثم تدخل وحدها إلى غرفة الملابس.

تفوح رائحة أوراق شجر البتولا التي غمرها البخار، ورائحة الخشب الطريّ. تجلس أوبيريخا على مقعد عريض، طويل، بمحاذاة الجدار ساكنة، صامتة.

تسمح العجوز بخلع ملابسها. تنزع زليخة عنها المنديل الأبيض أولاً، والعقد الثقيل الذي يطوقه والمكون من خرزات كبيرة، بعد ذلك تنزع عنها الصدرية الفضفاضة التي تنغلق ببكلة فوق بطنها. والأطواق- طوقاً من الكريستال، وطوقاً من المجوهرات، وطوقاً زجاجياً، وحلية ثقيلة اسودت بفعل الزمن، ثم القميص الخارجي السميك، فالقميص الداخلي الرقيق، والحذاء اللباد، بعد ذلك نزعت عنها السراويل- الأول، ثم الثاني، ثم الجوارب القطنية، فالصوفية، فجوارب قماشية. تحاول زليخة أن تنزع من بين ثنيات عنق حماتها السمينة، قرطين كبيرين على شكل هلالين، لكن الأخيرة تصرخ:- «لا تلمسيهما! فقد تضيعينهما... أو تزعمين أنك أضعتهما...» أما خواتم المعدن الأصفر الغامق التي تزين أصابع العجوز المتجمدة، غير المستوية، فقررت زليخة ألاّ تلمسها.

ملابس أوبيريخا منضدة بعناية بحسب نظام دقيق على المقعد كله، من الجدار إلى الجدار، تتلمس الحماة بيديها كل أشيائها باهتمام، ثم تزم شفتيها مستاءة، وتقوم بتصحيح وضع بعضها، وتمسّده. ترمي زليخة ملابسها بسرعة في سلة الغسيل قرب مدخل الحمّام، وتقود العجوز إلى غرفة البخار.

يستقبلهما فور انفتاح الباب هواء حار تفوح منه رائحة الحجارة الساخنة والبخور، فتشرع الحرارة تسري في ظهريهما وتلفح وجهيهما.

- تكاسلت فلم تحضري الحمام في الوقت المناسب، إنه يكاد يكون بارداً...- تفحّ العجوز وهي تحكّ خاصرتها. تصعد إلى أعلى مرتبة، ترقد فوقها ووجهها نحو السقف، تغمض عينيها وتستسلم للتعرق.

زليخة تجلس بالقرب من أواني التدليك، وتشرع في تحضير المقشات المبللة.

- أنت تدلكينني بشكل سيئ،- تستمر أوبيريخا في تأففها.- صحيح أني لا أرى، لكني أعرف: تدليك رديء. أنت تمرّغين المقشات في الإناء يمنة ويسرة، كالملعقة في الحساء، بينما الواجب كان أن تحرّكيها وكأنك تقسّمين بها قطعة من العجين... أنا لا اعرف لماذا اختارك مرتضى أيتها البائسة؟ العسل بين الساقين ليس كافياً لإشباع الرجل مدى الحياة...

تجثو زليخة على ركبتيها وتشرع في تحريك المقشات، فيسخن الجسد في الحال، ويتبلل الوجه والصدر بالعرق.

- ها هي ذي أنت،- يتناهى من الأعلى صوت له صرير.- لقد أردت ضربي بالمقشات الخشنة يا عاطلة. أنا لن أدعك تقهرينني، ولن أدعك تقهرين ابني مرتضى أيضاً. إن اللـه أعطاني هذه الحياة المديدة كي أحميه منك... فمن غيري سيدافع عن ولدي؟ أنت لا تحبينه، ولا تحترمينه- تتظاهرين بذلك فقط، أيتها

المنافقة، الباردة القلب، التي لا روح لها،- هذه هي أنت. أنا أشعر بك، أواه، كم أشعر...

لكنها لم تقل أي كلمة عن حلمها. ستظل العجوز الشريرة تتأوه المساء كله. وهي تعرف أن زليخة تتلهف لسماع شيء ما عنه. إنها تعذبها.

تأخذ زليخة مقشتين مشبعتين بالماء المشوب بالخضرة وتصعد إلى حيث أوبيريخا. رأسها يغوص في طبقة كثيفة من الهواء الحارق تحت السقف، تشعر بالدوار، وتتلامح أمام عينيها حبيبات صغيرة ملونة، وتتطاير ثم تندفع أمواجاً.

ها هي ذي أوبيريخا قريبة جداً، تتمدد من الجدار إلى الجدار كحقل فسيح. عظامها الناتئة العجوز تشرئب إلى أعلى، وجسدها ذو المئة عام يتهدل بينها تلالاً غريبة المنظر، وجلدها هامد مجعد. وكل هذه الكتلة غير المتعرجة التي تبدو أحياناً كوديان عميقة، وأحياناً كمنحدرات حادة، تغرق في جداول لامعة من العرق...

من المفترض أن تدلك زليخة أوبيريخا بدءاً من ذراعيها وبطنها. في البداية تمرر المقشة على جلدها، تهيئه، ثم تشرع بتدليكه بالمقشتين بالتناوب، فتظهر على جسد العجوز فوراً نقاط حمراء، ويتناثر الرذاذ عن أوراق المقشة في جميع الجهات.

- أنت حتى لا تجيدين التدليك. كم من الأعوام قضيت وأنا أعلمك...- ترفع أوبيريخا صوتها كي يتفوق على صوت ضربات المقشات.- اضربي أقوى! هيا اضربي! هيا، أيتها الدجاجة المبلولة! دفّئي عظمي العجوز!... اعملي بقوة أكبر يا عاطلة! حرّكي دمك المائع لعله يزداد كثافة!... كيف تمارسين الحب مع زوجك في الليل ما دمت ضعيفة إلى هذا الحد، ها؟ سيتركك، سيتركك مرتضى ويذهب إلى امرأة تدلّكه بشكل أقوى، وتحبه بشكل أقوى! حتى أنا أستطيع التدليك أفضل منك. ادعكي أفضل وإلا ضربتك! سأشدك من شعرك وأريك كيف يجب أن

تفعلي! أنا لست مرتضى ولن أدعك ترتاحين!... أين اختفت قوتك يا دجاجة؟ كيف لم تموتي حتى الآن؟! أم أنك ميتة؟!- تصرخ العجوز بملء حنجرتها رافعة نحو السقف وجهها الذي شوهه الغضب.

تطوح زليخة يدها بأقصى قوتها، وتهوي بالمقشتين، كالمطرقة، على الجسد الذي يلفه البخار. أوراق المقشتين تصفر وهي تقطع الهواء،- ترتعد العجوز بشدة، وترتسم على بطنها وصدرها خطوط حمراء عريضة، تنتفخ عليها حبيبات من دم داكن.

- وأخيرا،- تقول أوبيريخا بصوت أجش وهي تسند رأسها من جديد إلى ظهر المقعد.

تظلم الدنيا أمام عيني زليخة وهي تنزل على الدرج، إلى الأرضية الباردة الزلقة. أنفاسها تتقطع، ويداها ترتجفان.

- دعي البخار يتدفق أكثر- وابدئي بتدليك ظهري،- تأمرها أوبيريخا بلهجة هادئة وعملية.

الحمد للـه على أن العجوز تحب الاستحمام في الأسفل. تجلس في طست خشبي مملوء حتى حوافه بالماء، تدلي فيه ثدييها المتطاولين ككيسين يلامسان صرتها، وتشرع تمد لزليخة بدلال يداً بعد يد، وساقاً بعد ساق، فتدلكها الأخيرة بليفة ساخنة، تقشط عنها فتائل الوسخ الطويلة وترميها على الأرض.

ثم يجيء دور الرأس. ضفيرتان من الشعر الأشيب تتدليان حتى الخصر، على زليخة أن تفردهما وتغسلهما بالماء والصابون، من دون أن تلمس القرطين الكبيرين المتدليين كهلالين، ومن دون أن تغمر العينين العمياوين بالماء.

تغتسل أوبيريخا بعدة دلاء من الماء البارد، وتصبح جاهزة. تقودها زليخة إلى غرفة الملابس وتشرع تجففها بالمناشف، متوقعة أن تكشف لها العجوز منامها

الذي أخفته عنها، فقد كانت زليخة متأكدة من أنها روته لابنها اليوم.

تغزّها أوبيريخا فجأة غزة مؤلمة في خاصرتها، بإصبعها المعوج الذي مدته إلى الأمام. تصرخ زليخة وتبتعد عنها. لكن العجوز تكرر فعلتها مرة ثانية، وثالثة، ورابعة... ماذا أصابها؟ أتراها أصيبت بلوثة بسبب البخار؟ تقفز زليخة محتمية بالجدار.

بعد لحظة تهدأ الحماة، تمد يدها بحركة معتادة وتحرك أصابعها آمرة بنفاد صبر،- فتضع زليخة بين يديها إبريق ماء الشرب المعد سلفاً. تشرب العجوز بلهفة، وتتراكض نقط الماء في ثنيّات فمها العميقة نحو ذقنها. بعد ذلك تطوح يدها وتقذف الإناء بقوة نحو الجدار. يرنّ فخار الإبريق ويتطاير قطعاً، وتسيل على ألواح خشب الجدار بقعة ماء داكنة.

تحرك زليخة شفتيها في صلاة صامتة قصيرة. يا إلهي القدير، ماذا دهى أوبيريخا اليوم؟ أتراها فقدت عقلها بسبب الشيخوخة؟ تنتظر زليخة.

- تظلين صامتة،- تقول لها العجوز بلهجة لائمة، وهي تسمح لها بإلباسها قميصاً داخلياً نظيفاً وسراويل،- أنت دائماً صامتة. خرس كامل... لو أن أحداً عاملني كما أعاملك لقتلته.

تتوقف زليخة عن العمل.

- أما أنت فلا تستطيعين، لا تستطيعين أن تضربي، ولا أن تقتلي، ولا أن تحبي. غضبك ينام عميقاً ولن يستيقظ، ما قيمة الحياة من دون غضب؟ لا، أنت لن تعيشي حياة حقيقية أبداً. أنت، قولاً واحداً، دجاجة...

... حياتك أيضاً حياة دجاج،- تتابع أوبيريخا وهي تتنهد بارتياح مسندة ظهرها إلى الجدار.- أنا حياتي حقيقية. لقد أصبت بالعمى والصمم- ورغم ذلك أعيش، وهذا يعجبني. أما أنت فلا تعيشين ولذلك لا أسف عليك.

زليخة تستمع واقفة وقد ضمت إلى صدرها حذاء العجوز اللباد.

- ستموتين قريباً، أنا رأيت ذلك في المنام. سنبقى أنا ومرتضى في المنزل، أما أنت فسيطير إليك ثلاثة من ملائكة النار ويحملونك مباشرة إلى جهنم. لقد رأيت ذلك كما أراك: رأيت كيف أمسكوا بك من تحت إبطيك، وكيف رموك في العربة، وكيف نقلوك إلى الهاوية. أنا كنت أقف في الشرفة، أما أنت فكنت حتى آنذاك صامتة،- كنت تخورين وكأنك بقرة «كيوبيليك»، وقد جحظت عيناك الخضراوان الواسعتان، تحملقين فيّ كالمجنونة. الملائكة يقهقهون ويمسكونك بقوة. يضربون الأرض بالسوط فتنشق، ويتصاعد من الشق الدخان والشرر. يضربون بالسوط ثانية فتطيرون جميعاً إلى هناك، وتختفون في الدخان...

تشعر زليخة بضعف في ساقيها، ترمي من يديها الحذاء اللباد وتستند إلى الجدار، وتهبط، مستندة إليه، على البساط الرقيق الذي يكاد لا يحجب برودة الأرض.

- قد لا يتحقق هذا الحلم قريباً،- تتثاءب أوبيريخا مستمتعة تثاؤبة عريضة.- أنت نفسك تعرفين أي الأحلام يتحقق بسرعة، وأيها- بعد شهور، أنا بدأت أنسى ذلك كله...

تُلبس زليخة العجوز ثيابها بصعوبة- يداها لا تطيعانها. أوبيريخا تلاحظ ذلك، فتضحك ضحكة ساخرة تفتقر إلى الطيبة. بعد ذلك تجلس على المقعد مستندة بحزم إلى عكازها:

- أنا اليوم لن أخرج من الحمام برفقتك. أخشى أن يكون عقلك قد اضطرب بسبب ما سمعته. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يدور في رأسك، وأنا ما زلت أرغب في العيش طويلاً، لذلك نادي مرتضى كي يأخذني إلى البيت ويضعني في السرير.

تضم زليخة طرفيّ معطفها السميك بقوة على جسدها العاري، وتهيم في البيت باحثة عن زوجها. يهرع الأخير إلى غرفة الملابس من دون قبعة، ومن دون أن ينفض الثلج العالق بحذائه.

- ماذا حدث يا ماما؟- يندفع نحو أمه ويمسك يدها.

- لا أستطيع...- تهمس أوبيريخا فجأة بصوت ضعيف، مسندة رأسها إلى صدر ابنها- لا أستطيع تحمل المزيد...

- ماذا؟! ماذا تقولين؟!- يركع مرتضى على ركبتيه ويشرع يتلمس رأسها، وعنقها، وكتفيها.

تفكّ العجوز بصعوبة بكلة القميص على صدرها بيد راعشة وتكشفه، فتظهر في الفتحة على المثلث الفاتح اللون من بشرتها بقع حمراء داكنة فيها حبيبات كبيرة من الدم المتخثر، ويظهر خيط دم يسيل مجتازاً الفتحة نحو الأسفل، نحو بطنها.

- بأي ذنب أضرب هكذا؟- أوبيريخا تلوي فمها بشدة، وتسيل من عينيها دمعتان كبيرتان لامعتان، تضيعان في مكان ما في تجاعيد خديها الصغيرة، وترتمي في أحضان ابنها مرتعشة في صمت.- أنا لم أسئ إليها بشيء...

يقفز مرتضى واقفاً.

- أنتِ؟!- يجأر بصوت أصم، وهو يخترق بعينيه، ويتلمس، بيده الجدار إلى جانبه.

تقع تحت يده كمشة من العشب المجفف، وربطة من الليف- يقطّعها ويرميها بعيداً. وتمسك كفه أخيراً يد مقشة التدليك الثقيلة، يمسكها بقوة ويلوّح بها.

- أنا لم أضربها!- تهمس زليخة بصوت مخنوق وتقفز نحو النافذة- أنا لم ألمسها حتى بإصبعي في أي يوم! هي نفسها طلبت ذلك...

- مرتضى، لا تضربها يا بني، ارحمها،- يعلو في الزاوية صوت أوبيريخا الراعش.- هي لم ترحمني، أما أنت فارحـ...

يقذف مرتضى المقشة فترتطم بكتف زليخة ارتطاماً مؤلماً. ينزلق المعطف السميك عن كتفيها ويسقط على الأرض، ترمي من يدها الحذاء اللباد، وتفرّ إلى غرفة البخار. ينغلق الباب وراءها بصخب، ويعلو صوت إقفاله بالمزلاج،- زوجها أوصد باب غرفة البخار من الخارج.

تلصق زليخة وجهها بزجاج الطاقة الصغيرة المتعرق وتنظر عبر غمامة الثلج المتراقصة كيف ينساب ظلّا حماتها وزوجها الطويلين نحو البيت، وكيف يشع ويخبو الضوء في نوافذ مسكن أوبيريخا، وكيف يمشي مرتضى بخطا ثقيلة عائداً إلى الحمام.

تلتقط زليخة قطعة حطب محترقة كبيرة، تغطّسها في طست الماء فوق الموقد فتتصاعد منه كتل كثيفة من البخار.

يعلو صوت المزلاج ثانية: يظهر مرتضى في فتحة الباب عارياً إلا من قميصه الداخلي، وفي يده المقشة نفسها. يمشي خطوة إلى الأمام ثم يغلق الباب خلف ظهره.

«ارشقيه بالماء الذي يغلي! الآن فوراً! لا تنتظري!» تتسارع أنفاس زليخة، تمد ذراعيها محتمية بقطعة الحطب المحترقة، وتتراجع فيلتصق ظهرها بالجدار، ويتحسس كتفاها انحناء ألواحه الخشبية.

يمشي مرتضى خطوة أخرى إلى الأمام، ويُسقط بضربة من قبضة المقشة قطعة الحطب من يد زليخة. يقترب منها قفزاً، ويرميها على المقعد السفلي في غرفة البخار- تصطدم ركبتا زليخة اصطداماً مؤلماً بخشب المقعد وهي تتمدد فوقه.

- ارقدي بهدوء يا امرأة، يقول لها مرتضى. ويشرع بضربها. يضربها بعصا المقشة على ظهرها- الضربات غير مؤلمة، تشبه التدليك. زليخة ترقد هادئة كما أمرها زوجها، لكنها ترتجف وتغرس أظافرها في خشب المقعد، تخدشه عند كل ضربة،- لذلك لا يستمر مرتضى في الضرب. يهدأ غضبه سريعاً. زوجها زوج طيّب رغم كل شيء.

تنهض بعد ذلك فتدلك جسد زوجها، تبخره وتغسله، وحين يخرج مرتضى إلى غرفة الملابس، تسرع، فتغسل الملابس الداخلية. هي نفسها لم تعد قادرة على الاستحمام، فقد خارت قواها- استيقظ التعب فأثقل جفنيها وصدّع رأسها،- تمرّ بالليفة على جانبيها كيفما اتفق، وتغسل شعرها على عجل. لم يبق عليها إلا أن تغسل أرض الحمام ثم تذهب وتنام، تنام...

لقد تعلمت منذ طفولتها أن تغسل الأرض جاثية على ركبتيها. الانحناء أو جلوس القرفصاء عند غسل الأرض، أمر لا تفعله إلا النساء الكسلانات، وزليخة لا تعدّ نفسها كسولة، لذا فهي الآن تحف ألواح الأرضية الداكنة، الزلقة، زاحفة فوقها، بطنها وثدياها يلامسان الأرضية تقريباً، رأسها مائل إلى أسفل، ومؤخرتها مرتفعة إلى الأعلى. تشعر بالدوار.

غسلت زليخة غرفة البخار بسرعة وانتقلت إلى غرفة الملابس، تعلّق البسط الصغيرة المبللة على حبل مشدود تحت السقف كي تجفّ، وتجمع قطع الإبريق الذي حطمته أوبيريخا، وتشرع تحفّ الأرضية.

مرتضى مايزال راقداً على المقعد، عارياً، يرتاح ملتفاً بشرشف أبيض. نظرة الزوج تدفع زليخة دائماً للعمل بشكل أكبر، وسرعة أكبر، وعناية أكبر،- كي تريه أنها ليست زوجة سيئة رغم أنها ليست طويلة القامة. وها هي الآن، وهي تستجمع بقايا قوتها، جاثية على ركبتيها فوق الأرض، تمرر الممسحة برقة فوق ألواح

الأرضية التي نظفتها- تروح بها وتجيء، تروح وتجيء، وخصلات شعرها المبلول تترجح بانسجام مع حركتها، وثدياها يكادان ينزلقان خارج حمالة صدرها العاري.

- زليخة،- ينادي مرتضى زوجته بصوت خافت وهو ينظر إلى جسدها العاري.

تجلّس جذعها واقفة على ركبتيها والممسحة بين يديها، لكنها لا تستطيع رفع عينيها اللتين تغالبان النعاس نحوه. يمسك بها زوجها من الخلف ويمددها على بطنها فوق المقعد، يهوي فوقها بكل جسده، وهو يتنفس بصعوبة ويشخر، ويضغطها فوق ألواح المقعد الصلبة. إنه يريد أن يحب زوجته، لكن جسده لا يريد ذلك، لا يستجيب لرغبته...أخيراً، ينهض مرتضى عنها ويبدأ في ارتداء ملابسه. «حتى جسدي يرفضك»،- يقذف عبارته في وجهها من دون أن ينظر إليها، ثم يخرج من الحمام.

تنهض زليخة ببطء عن المقعد والممسحة ما تزال في يدها. تتم مسح الأرضية. تعلق الملابس والمناشف المبتلة على الحبل. ترتدي ملابسها وتمضي إلى البيت. إنها لا تقوى حتى على الاكتئاب بسبب ما حدث مع مرتضى. نبوءة أوبيريخا المخيفة هي ما ستفكّر به، لكن ذلك سيكون غداً... حين تستيقظ...

انطفأ الضوء في المنزل... مرتضى ما يزال مستيقظاً، يتنفس في القسم الخاص به بنشاط وصوت مرتفع، وألواح المرتبة تصرّ تحت ثقله.

تمضي زليخة إلى زاويتها متلمسة الطريق تلمساً، ممررة يدها على الجانب الدافئ الخشن من الموقد، وترتمي فوق صندوقها من دون أن تخلع ملابسها.

- زليخة،- يناديها مرتضى بصوت مرتفع مشوب بالرضا والودّ. تريد أن تنهض- لكنها لا تستطيع. جسدها يتهالك كالهلام فوق الصندوق.

- زليخة!

تزحف إلى الأرض، تقف على ركبتيها أمام الصندوق، لكنها لا تستطيع أن ترفع رأسها عنه.

- زليخة، أيتها الدجاجة المبلولة. أسرعي!

تنهض ببطء. تمشي مترنحة تلبي نداء زوجها، وتصعد زحفاً إلى فراشه. ينزع مرتضى عنها سروالها بنفاد صبر (يدمدم لائماً- يا لك من كسولة!- كيف لم تتعري حتى الآن؟!) يمددها على ظهرها، ويخلع عنها قميصها.

أنفاسه الرتيبة تصبح أقرب. زليخة تشعر كيف تغطي لحية زوجها الطويلة التي ما تزال تفوح منها رائحة الحمّام والصقيع، وتؤلمها تحت ثقله الجروح التي خلّفها الضرب على ظهرها. وأخيراً يستجيب جسد مرتضى لرغباته فيسارع إلى تلبيتها، يستمر في ذلك طويلاً، بشره، وقوة، وشعور بالظفر...

كانت زليخة في أثناء أدائها لواجب الزوجية، تقارن نفسها عادة بالخفاقة التي تخفق بها ربة المنزل بيديها القويتين الزبدة فتحولها إلى كتلة سميكة متماسكة. لكن هذه الفكرة لم تستطع اليوم اختراق لحاف الإرهاق الثقيل. إنها تكاد تعجز عن سماع شخير زوجها المكتوم عبر غمامة النعاس، واندفاعات جسده تزيدها رغبة في النوم، كأنها الاهتزازات الرتيبة لعربة نقل الحطب..

ينزل مرتضى من فوق زوجته وهو يمسح بكفه نقرته المتعرّقة، ويهدئ أنفاسه المتلاحقة المعبرة عن التعب والرضا.

- اذهبي إلى مكانك يا امرأة،- يقول لها وهو يدفع عنه جسدها الهامد.

إنه لا يحب أن ينام أحد إلى جانبه في الفراش.

تستلقي زليخة مغمضة العينين على صندوقها فاقدة وعيها، غارقة في نوم عميق.

قازان

طرق على النافذة

- هل سأموت؟

خلف النافذة تدوي عاصفة زرقاء داكنة. وزليخة تجثو على ركبتيها، تنظف قفطان مرتضى بفرشاة كثيفة الشعر. القفطان هو الزينة الرئيسة في البيت: إنه محشو باللباد المغطى بوجه من المخمل، تفوح منه رائحة ذكورية قوية، وهو ضخم كصاحبه، معلّق على الجدار بمسمار ثخين من النحاس، يتدلى على جانبيه كمّاه المنتفخان، ويسمح بأريحية لأصابع زليخة الزاحفة على ركبتيها أن تنظف بقع الوحل العالقة بأذياله.

هل سأموت قريباً؟

الوحل في قازان سميك، دسم. زليخة لم تزر المدينة- هي لم تغادر يولباش أبداً، إلا إلى الغابة أو المقبرة. هي تتمنى أن تزور المدينة، وقد وعدها مرتضى أن يصطحبها معه في يوم من الأيام. كانت تخاف أن تذكّره بوعده، وتكتفي في كل مرة بالنظر طويلاً إليه من تحت حاجبيها وهو يستعد للسفر، أما هو فكان يشغل نفسه بشد وثاق ساندوغاش إلى العربة ودق عجلاتها المتراخية بكعب حذائه.

أتراني أموت من دون أن أرى قازان؟ تثبت زليخة نظراتها على مرتضى الذي يجلس على المقعد الطويل يصلح لجام الفرس. أصابعه ذوات الأظافر الرمادية الصلبة القوية كجذوع أشجار السنديان الفتية، تلف اللجام الجلدي المرن بمهارة على القوس الخشبي. لقد عاد لتوه من المدينة وانخرط في العمل على الفور. إنه زوج جيد، لا شك في ذلك.

- أتراه، إذا مت، سيتزوج أخرى سريعاً؟

يصيح مرتضى مسروراً: كل شيء جاهز! يضع القوس الخشبي حول رقبته القوية ليتثبت من متانة الجزء الذي أصلحه، فتنتفخ حول القوس عضلات رقبته. لا شك في أن رجلاً مثله سيتزوج، سيتزوج سريعاً جداً.

ماذا لو اتضح فجأة أن أوبيريخا مخطئة؟

فرشاة زليخة تخشخش. شورخ. شورخ. شورخ. شمسية- فيروزة. خالدة- زبيدة. البنتان الأولى والثانية، فالثالثة والرابعة. إنها تذكر كثيراً هذه الأسماء، وكأنها تقلّب حبات مسبحة. أوبيريخا تنبأت لها بوفيات بناتها الأربع، وكانت زليخة تعرف من حماتها بالحمل ووفاة الجنين في وقت واحد. لقد حملت الأجنة في رحمها أربع مرات، وحملت في الوقت نفسه الأمل في أن تكون أوبيريخا مخطئة. لكن العجوز كانت محقة في كل مرة. أيمكن أن تكون على حق في هذه المرة أيضاً؟

اعملي يا زليخة! اعملي! أتذكرين ما كانت تقول ماما؟ العمل يطرد الحزن. أواه يا ماما، حزني لا يهتم بأقوالك المأثورة...

ثمة طرق مرمّز على النافذة: ثلاث طرقات سريعة، ثم دقتان بطيئتان. ارتعدت. هل ذلك يهيأ لها؟ لكن الطرقات تجددت: ثلاث طرقات سريعة واثنتان بطيئتان. لا، هذا ليس وهماً، ولا مجال للخطأ، فالطرقات نفسها. تسقط الفرشاة من يدها، وتتدحرج على الأرض. ترفع زليخة عينيها- تلتقيان بنظرة زوجها الثقيلة. ليحمنا اللـه يا مرتضى! أتراهم عادوا ثانية؟!

يخلع عن رقبته الطوق ببطء، ويضع المعطف السميك على كتفيه، يدس قدميه في حذائه اللباد، ثم يخرج ويصفق الباب خلفه.

تهرع زليخة إلى النافذة، تذيب بإصبعها ما رسمه الجليد على الزجاج، وتضع عينها في الثقب الصغير الذي أحدثته فيه. ها هو ذا مرتضى يفتح البوابة وهو

يصارع الإعصار الذي بدأ يتشكل. وتطلّ من دوامة ندف الثلج البيضاء سحنة حصان اسود، وعلى سرجه خيّال غطى الثلج ملابسه، ينحني على مرتضى ويهمس في أذنه بكلام ما، ثم يختفي بعد لحظة، يذوب كأنه لم يكن. أما مرتضى فيقفل عائداً إلى البيت.

تسرع زليخة فتلتقط عن الأرض الفرشاة التي سقطت من يدها، وتدس أنفها في ذيل القفطان- يجب على المرأة ألاّ تظهر فضولاً زائداً حتى في مثل هذه الحالات. يرسل الباب عويلاً طويلاً سامحاً لروح الصقيع الطازج بالدخول إلى البيت. وينساب إلى سمعها صوت خطوات زوجها بطيئة، مخيفة. إنها خطوات تنذر بشر- بطيئة، متعبة، تنم على يأس.

صدرها يلامس الأرض الباردة، وقد أسندت وجهها إلى القفطان الناعم الملمس. أنفاسها قصيرة لا صوت لها. أما طقطقة الجمر في الموقد فعالية ومسموعة. تنتظر لحظة ثم تدير رأسها قليلاً نحو زوجها: مرتضى يجلس على المقعد الطويل ومعطفه السميك على كتفيه، وفوقه العباءة التي تراكم عليها الثلج، حاجباه الكثان مقطبان فوق أرنبة أنفه، وقد شرعت تذوب عنهما ندف الثلج البيضاء. وتجعيدة عميقة كندبة جرح، تمتد خطاً عرضانياً في جبينه، نظرته- جامدة، لا تنم على حياة. من كل ذلك تفهم زليخة: نعم، هم عادوا من جديد.

يا اللـه! ما الذي سيحدث هذه المرة؟ تغمض عينيها، تهوي على الفور بجبينها المتعرق على الأرضية الباردة. تشعر برطوبة الأرض- من أين جاء الماء؟ إنه الثلج يذوب عن حذاء مرتضى ويسيل على الأرض في جداول متعرجة.

تمسك زليخة الممسحة وتزحف على ركبتيها، تجمع الماء. ترتطم بساقي زوجها الصلبتين كالحديد. تلملم بالممسحة الماء من حولهما من دون أن تجرؤ على رفع رأسها. يدوس على يدها اليمنى الحذاء اللباد الكبير الخشن. زليخة تريد أن تسحب يدها، لكن الحذاء اللباد يضغط كالحجر أصابعها. ترفع بصرها. عينا

مرتضى الصفراوان قريبتان جداً. في حدقتيه الكبيرتين كحبتي خوخ تلمع انعكاسات لهب النار.

- لن أعطيهم،- يهمس بصوت خافت،- في هذه المرة لن أعطيهم شيئاً.

أنفاسه الحامضية تلسع يدها اليسرى. المهم ألاّ يسحق أصابعها، فالعمل من دون أصابع مستحيل.

- ماذا سيحدث يا مرتضى؟- تتمتم بأسى،- هل أخبروك؟ هل سنعطيهم قمحاً؟ أم ماشية؟

- وما شأنك أنت يا امرأة؟- يدمدم مجيباً عن سؤالها.

يمسك بضفيرتيها ويلفهما حول قبضته. عينا زليخة بالقرب من فمه الساخن. ومن الشقوق ذات اللون البني الكثيف بين أسنانه تلتمع كتل من اللعاب.

- هل تفتقر السلطة الجديدة إلى النساء؟ لقد أخذوا القمح، وأخذوا الماشية أيضاً. وسيأخذون الأرض إذا أرادوا. أما النساء- فمصيبة.- لعاب مرتضى يتطاير في وجه زليخة.- هؤلاء القوميسارات الحمر بحاجة إلى من يدوسهم بالأقدام.

يعصر رأسها بين ركبتيه. آه، ما أقوى ساقي زوجها! عبثاً يملأ الشيب رأسه.

- لقد أمروا بجمع النساء وتسليمهن لرئيس المجلس البلدي. وسيكافئون من يطيع أمرهم بتسجيل اسمه عضواً أبدياً في الكولخوز.

تفهم زليخة أخيراً أن زوجها يمزح. لكنها لا تعرف إن كان يجب عليها أن تبتسم أم لا. إنها تفهم من أنفاسه الثقيلة أن عليها ألاّ تفعل.

يترك مرتضى رأس زليخة. ويرفع حذاءه عن أصابعها. ينهض ويلف معطفه حول جسده بقوة أكبر.

- خبئي الأطعمة، كما نفعل دائماً.- يقول جملته الآمرة باختصار.

يأخذ القوس الخشبي عن المقعد ويخرج.

تنزع عن المسمار رزمة مفاتيح، وتحمل مصباح الكيروسين وتخرج إلى باحة المنزل.

منذ فترة طويلة لم يكن هناك ما يثير القلق، وكثيرون صاروا يحتفظون بمؤونتهم كما في الماضي، في الأقبية والعنابر، ولا يحرصون على إخفائها، لكن يبدو أن ذلك كان خطأ.

العنبر كان مقفلاً بقفل كبير منتفخ الوسط وقد علقت عليه كرة زلقة من الثلج. تتلمس زليخة بالمفتاح ثقب القفل. تدير المفتاح مرة، فثانية- يستجيب القفل من دون رغبة، ويفتح فمه.

تضيء أشعة مصباح الكيروسين الشحيحة الجدران الخشبية الصفراء المصقولة النظيفة والسقف المرتفع (ثمة مربع أسود يحدد الممر إلى مخزن القش)، لكنها لا تصل إلى الزوايا البعيدة المظلمة- العنبر فسيح، متين، بني ليعيش قروناً، ككل شيء في مزرعة مرتضى. وقد علّقت على الجدران أدوات كثيرة: مناجل تبعث الرهبة، ومقصات حادة لقطع العشب، ومناشير مسننة، ورفوش، وفؤوس ثقيلة، وبلطات ومطارق، وقداديم خشبية مفلطحة الرأس، وشوكات حادة الرؤوس، وكمّاشات. وتوجد هنا أيضاً- أعنة خيول، وأقواس خشبية توضع في أعناق الخيل لشد العربات، وألجمة خيل جلدية، وسيور جلدية قديمة يلتمع عليها زيت طريّ، وحدوات، وعدد من العجلات الخشبية، ووعاء خشبي كبير تلتمع أطرافه المحدّبة، ولقن نحاسي جديد (الشكر لمرتضى الذي جلبه من المدينة قبل نحو عامين). ومن السقف يتدلى سرير أطفال متشقق. وتفوح هنا رائحة قمح تصلّب بفعل الصقيع، ورائحة لحم بارد حادة.

زليخة تذكر أوقاتاً كانت فيها أكياس القمح المدموغة ترتفع هنا حتى السقف، وكان مرتضى يسير بينها مسروراً، يبتسم بطيبة- ويحصيها دون كلل واضعاً يده برقة على كل كيس، وكأنه يضعه على جسد أنثوي جميل. غير أن الحال تغير الآن...

تضع مصباح الكيروسين على الأرض. عدد الأكياس أقل من عدد أصابع اليدين؟ وكل كيس نحيل ومتهدل الجانبين. لقد تعلموا توزيع قمح الكيس الواحد على عدة أكياس منذ العام (اثني عشر) حين قدمت إلى يولباش لجان مصادرة فائض الحبوب المخزّن التي لم تكن معروفة من قبل، لكنها راحت تزداد قبحاً من عام إلى عام كزوجة الشيخ، وتزداد شرهاً كمارد شيطان، ولا تعرف الشبع كغولة. الكيس الممتلئ بالحب يصعب إخفاؤه، وإذا وجده مفتشو اللجان يضيع الحب كله دفعة واحدة. أما الأكياس النحيلة غير الممتلئة، فإخفاؤها أسهل (يمكن توزيعها كيساً، كيساً في أماكن مختلفة)، وضياع بعضها لا يحزن كثيراً، أضف إلى ذلك أن زليخة كانت تستطيع نقل الأكياس النحيلة من دون مساعدة مرتضى: تستطيع أن تحمل كل كيس بمفرده، وتخبئه، بينما يطوف زوجها على الجيران مستفسراً عما يجري.

لولا الإعصار لذهب مساء اليوم كثيرون من أهل القرية إلى الغابة وهناك، تحت غطاء أذرعة الصنوبر المنقذة وأوراق الأشجار اليابسة المخشخشة التي تغطي الأرض، يوجد لكل مزارع بعيد النظر مخبؤه السري. مرتضى كان له هناك مخبأ أيضاً. لكن إلى أين تذهب في العاصفة الثلجية؟ لا أمل إلا في رحمة السماوات. فلا يأتي أحد منهم قبل الصباح إن شاء اللـه.

تشرع زليخة في تخبئة الحب والمؤن الأخرى.

خبأت كيسين هنا، في العنبر (هناك حفرة في الأرض قرب الجدار كانت مخبأ أميناً في السنوات العشر الأخيرة). خافت أن تنقل شيئاً إلى مستودع القش،

فكثيرون يخبئون مؤنهم هناك. ووضعت الأكياس الثمينة ذات الدمغة البيضاء، التي تحتوي الحبوب المعدّة للبذار، في القاع السري لإناء الماء الفولاذي في الحمّام.

الآن جاء دور لحم الحصان. أمعاء الحصان الطويلة شبيهة بالأصابع المتجعدة، محشوة حتى الامتلاء باللحم المفروم الأحمر الداكن، متدلية من السقف كالعناقيد. آه، ما ألذ رائحتها! ملأت زليخة خيشوميها برائحة مرتديلا لحم الحصان المالحة الحارة. الأفضل أن تخبئ المرتديلا في مكان لا تفوح منه رائحتها. لو كان الوقت صيفاً لأمكنها أن تصعد إلى السطح، فتضعها في صفوف مستوية فوق قرميدات في داخل المدخنة- هذا لن يصيب اللحم بسوء، كل ما هنالك أنه سيتشرب برائحة الدخان فبصبح أطيب مذاقاً. لكنها الآن لا تستطيع الصعود إلى السطح، فالسطح يغطيه الجليد.. هي ستضطر إلى إخفاء المرتديلا في البيت، تحت أرضية الغرفة، تضعها في صناديق حديدية تقفلها بإحكام، حماية لها من الجرذان.

بعد ذلك تلتفت إلى الجوز. كرات صلبة يدقّ لبّها في داخل القشرة كآلاف المطارق الخشبية الصغيرة حين تتدحرج وهي تنقلها في أكياس متطاولة رفيعة من العنبر إلى الإصطبل الشتوي، فتضعها في قاع سرير الأطفال وتغطيها بالقش. البقرة والحصان ينظران بلا مبالاة إلى الجلبة قرب معلفيهما. ويلقي المهر من تحت بطن ساندوغاش بطرف عينه نظرة فضولية على ربة المنزل.

تخرج زليخة الملح والبازلاء ودقيق الجزر من تحت أرضية الغرفة، وتضع ذلك كله على لوح عريض تحت سطح المرحاض، ثم تغطيه بألواح خشبية.

أما العسل المعبأ في علب خشبية كبيرة والملفوف بقطع رقيقة من القماش، فترفعه إلى (العرزال)، وتخبئه تحت ألواح خشب السقف، وهناك تخبئ أيضاً الإوزة وأوراق الريحان التي تصلبت بفعل الصقيع.

بقي عليها أن تخبئ نحو خمسين بيضة كبيرة الحجم يلمع بياضها برقة من أعماق إناء مفروش بقش طريّ.

- أليس من المحتمل ألاّ يأتوا؟

هؤلاء الضيوف المنفلتون يتصرفون في كل بيت وكأنهم أصحابه يأخذون من دون إذن أهل البيت آخر ما عندهم من مؤونة، وأثمن ما يأخذونه، الحبوب المنتقاة بدقة والمحفوظة بعناية لتكون بذاراً في الربيع المقبل، وهم مستعدون بلمح البصر إلى ضرب من يقف في طريقهم، أو طعنه، أو إطلاق النار عليه.

أربعة عشر عاماً مقلقة مضت قضتها زليخة في القسم النسائي من المنزل مختبئة من هؤلاء الضيوف غير المدعوين، تراقب من وراء ثنايا الستارة وجوهاً كثيرة: حليقة وغير حليقة، مسمرّة حتى السواد، وشاحبة شحوباً أرستقراطياً، وجوهاً ذوات ابتسامات تكشف عن أسنان حديدية، وسحناً صارمة جامدة، وجوهاً تتحدث بطلاقة باللغة التترية، أو الروسية، أو الأوكرانية وأخرى تصمت عن تلك الحقائق المرسومة بحروف مستوية، مربعة، وتكاد تنمحي عند ثنيات أوراقهم التي يدسونها تحت أنف مرتضى مرة بعد مرة.

لدى هذه الوجوه أسماء كثيرة، كل اسم منها يفوق الآخر غموضاً وإثارة للخوف. احتكار القمح، التفتيش، التقنين، الضريبة، البلاشفة، فصائل التموين، الجيش الأحمر، السلطة السوفييتية، لجان الطوارئ، الكومسومول، الشيوعيون، المفوضون...

كانت زليخة تجد صعوبة في نطق الكلمات الروسية الطويلة التي لا تعرف معناها، لذلك كانت تسمى في سرها كل هؤلاء الناس- الفصائل الحمراء.

لقد حدثها والدها كثيراً عن الفصيل الذهبي الذي ظل قادته القساة، ضيقو العيون، يجمعون طول قرون الأتاوات في هذه المناطق ويحملونها إلى قائدهم

الذي لا يرحم- جينكيزخان، وإلى أبنائه، وأحفاده، وأبناء أحفاده. الفصائل الحمراء كانت تجمع الأتاوات أيضاً- لكن زليخة لم تكن تعرف لمن يحملونها.

كانوا في البداية يأخذون القمح، فيما بعد أخذوا البطاطا واللحم، وفي زمن المجاعة الكبرى في عام واحد وعشرين، بدؤوا يأخذون كل ما يؤكل، لا يتركون شيئاً، ويأخذون الطيور والماشية أيضاً، وكل ما يجدونه في البيت. آنذاك تعلمت زليخة أن توزع كيس القمح على عدة أكياس.

ظلوا لا يظهرون فترة طويلة، فاطمأنت يولباش. وفي زمن التسمية المضحكة «السياسة الاقتصادية الجديدة» تركوا الفلاحين يعملون في أراضيهم باطمئنان، وسمحوا لهم باستخدام العمال الزراعيين، وبدا أن الحياة التي انحدرت انحداراً مخيفاً، استردت توازنها، ففي العام الماضي اتخذت السلطة السوفييتية صورة مألوفة لجميع أهل القرية ولذا لم تكن مخيفة: منصور شهابوالدينوف الذي كان عاملاً زراعياً عازباً جاء منذ زمن من المنطقة المجاورة مصطحباً معه أمه العجوز، صار رئيساً لمجلس القرية- أصحاب الألسنة الشريرة انتقدوه لأنه لم يستطع طول حياته أن يجمع مهر عروس بنت حلال، وكانوا يلقبونه في غيبته منصوركا- الفجلة. اجتذب منصوركا عدداً من الفلاحين إلى «خليته»، وكان يلتقي بهم في الأماسي، يناقش معهم أشياء شتى، وينظّم اجتماعات يدعو فيها بحرارة أهالي القرية إلى زمالة تحمل اسماً غريباً مخيفاً- كولخوز، لكن من استجابوا لنداءاته كانوا قلة- فلم يكن يحضر الاجتماعات التي يدعو إليها إلا الفقراء أمثاله.

وها هو ذا الآن هذا الطرق المرمّز يعود من جديد ليلاً، وكأنه نبض عصبي لقلب مريض. تنظر زليخة من النافذة: الضوء يشع في النوافذ المجاورة- يولباش ليست نائمة، إنها تستعد لاستقبال الضيوف غير المدعوين...

- أين ستخفي هذا البيض؟! إنه سيتشقق ويتكسر بفعل الصقيع، لذلك لا يمكن أن تخبئه في (العرزال) أو في المدخل، أو الحمام. يجب أن تضعه في مكان

دافئ. هي لا تستطيع أن تضعه في القسم الذكوري من المنزل، فالقادمون ينبشون كل شيء فيه، وقد فعلوا ذلك أكثر من مرة. أتخبئه في قسم النساء؟ إن هؤلاء الأوغاد لن يتورعوا عن تفتيش كل زاوية هناك أيضاً. أتخبئه عند أوبيريخا؟ الضيوف غير المرحب بهم كثيراً ما كانوا يفقدون السيطرة على أعصابهم بسبب النظرة الصارمة التي تلقيها عليهم العجوز العمياء، الأمر الذي كان يجعلهم عادة يختصرون التفتيش في بيت الحماة وينهونه على عجل.

تحمل زليخة وعاء البيض بحذر وتسرع إلى المدخل. ليس لديها وقت كثير تضيعه في دق الأرض بقدميها عند المدخل استئذاناً بالدخول،- تفتح الباب وتنظر: أوبيريخا نائمة، تشخر شخيراً عالياً، وذقنها المكوّن من طبقتين شاخص نحو السقف الذي ارتسمت عليه ثلاث وردات بيضاء غريبة الشكل من الدانتيل- ومصابيح الكيروسين مضاءة لاستقبال مرتضى إذا رغب في زيارة أمه هذا المساء. اجتازت زليخة حافة العتبة الخشبية الثخينة واختفت وراء الموقد.

ما أجمل هذا الموقد المعدّ أصلاً لغرفة الضيوف! موقد ضخم كبيت، مغطى بألواح مصقولة كأنها من زجاج، (حتى من الجانب النسوي)، فيه قدران عميقان لم يستخدما أبداً،- أحدهما لطهي الطعام، والثاني لغلي الماء- ليت عند زليخة مثلهما! إنها، طول عمرها، تعاني لأنها لا تملك غير قدر وحيد. تضع صحن البيض على حافة الموقد، سترفع غطاء أحد القدرين. وتضع فيه البيض، ثم تغطيه بالقش- وتسرع عائدة إلى مكانها، من دون أن يراها أحد.

انفتح الباب مرسلاً صريراً بينما كانت زليخة تضع آخر بيضة في القدر. أحدهم يجتاز العتبة بخطى ثقيلة فتئن الأرضية بصوت مكتوم. إنه مرتضى! يدها تتقلص بفعل المفاجأة- تنكسر قشرة البيضة بصوت يكاد لا يسمع، وينسرب من بين أصابعها ببطء السائل البارد اللزج. قلبها يتحول إلى هلام لزج كالبيضة التي

انكسرت في يدها، ويسيل بين ضلوعها إلى مكان ما في أسفل بطنها الذي اعتراه البرد.

هل تخرج الآن؟ هل تعترف بأنها دخلت إلى مسكن حماتها دون إذن؟ هل تقرّ بذنبها في انكسار البيضة؟

- ماما،- يتردد صوت مرتضى الخافت.- ماما.

شخير الأم يضطرب في الحال، ثم ينقطع. السرير يرسل أنيناً طويلاً- أوبيريخا تنهض بجسدها الضخم وكأنها سمعت نداء ابنها.

- جانيم،- تقول بصوت خافت، متحشرج، ناعس.- أهذا أنت يا روحي؟

يعلق في الهدوء الذي يستمر طويلاً صوت سقوط جسد العجوز في السرير مجدداً، وزفرة مرتضى العميقة.

زليخة تحبس أنفاسها وتمسح بحافة القدر السائل اللزج عن يدها. تعانق الموقد وتحسب حساب كل حركة ستقوم بها، ستمشي جانباً عدة خطوات ملصقة خدها بألواح الموقد الدافئة، ثم تزيح ثنيات الستارة قليلاً بسبابتها. إنها تستطيع الآن أن ترى بوضوح، من خلال الشق في الستارة الأم وابنها: أوبيريخا تجلس في السرير مستقيمة الجذع كعادتها دائماً، مدلية ساقيها إلى الأرض، ومرتضى جاثياً على ركبتيه، داساً رأسه الحليق الذي يلوح فيه بعض الشيب، في ثنيات بطن أمه، مطوقاً بذراعيه جسدها الكبير. لم يسبق لزليخة أن رأت مرتضى جاثياً على ركبتيه. وهو لن يسامحها إذا خرجت ورأته على هذه الحال.

- أنا أشعر بأن شيئاً ما قد حدث يا بني.- تقول أوبيريخا مبددة الصمت.

- نعم يا أمي، حدث.- يجيب مرتضى من دون أن يرفع رأسه عن بطن أمه، لذلك جاء صوته خافتاً وكأنه يتكلم عبر وسادة.- ومنذ زمن بعيد. ليتك تعرفين ما يحدث عندنا...

- أخبر أمك بكل شيء يا مرتضى، يا بني. صحيح أنني لا أسمع ولا أرى لكني أشعر بكل شيء- وأستطيع أن أواسيك- تمسد أوبيريخا رأس ابنها وظهره بحركات عريضة، واسعة، كما يمسّدون الخيل المنفعلة لتهدئتها بعد السباق.

- كيف نعيش يا ماما؟ كيف نعيش؟!- يقول مرتضى وهو يمرّغ جبينه بركبة أمه ويزيد من التصاقه بها.- إنهم ينهبوننا، ينهبوننا، ينهبوننا. يأخذون كل شيء. «وحين لا يبقى لديك شيء- التحق بأجدادك!- يعطونك مهلة لالتقاط أنفاسك. وحين تتمالك نفسك، وترفع رأسك- ينهبونك من جديد. لم أعد قادراً على الاحتمال،- وقلبي- نفد صبره.»

- الحياة طريق معقدة يا حبيبي. معقدة وطويلة. تود أحياناً لو تجلس على الرصيف وتمدّ ساقيك- وليحدث كل شيء بعيداً عني،- اجلس يا بني، ومدّ ساقيك، أنت من أجل هذا جئت. اجلس معي، استرح، التقط أنفاسك.- العجوز تتكلم ببطء، وتنغّم الكلمات وكأنها تغني، أو ترتل صلاة على إيقاع ناقوس الساعة الجدارية.- بعد ذلك ستنهض وتتابع مسيرة حياتك. أما الآن- فأنا أشعر كم أنت مرهق يا قلبي، أنت مرهق جداً.

- اليوم أسرّوا لي بأنهم يعدّون شيئاً، وأنهم قد يأتون في الصباح الذي أتمنى ألاّ يأتي. الناس يعتقدون أنهم سيشرعون في مصادرة الأرض، أو الماشية، أو الأرض والماشية معاً. لقد خبأنا القمح المعدّ للبذار، لكن ما فائدة ذلك إذا أخذوا الأرض؟ أين سنزرعه- أفي حاكورة البطاطا؟! سأموت، سأعض على أشيائي بأسناني- ولن أعطيهم شيئاً! فليعدّوني إقطاعياً (كولاك)- لن أعطيهم ما هو ملكي!- يضرب بقبضته حافة السرير- فتردّ عليه بأنين رفيع معدني.

- أنا أعرف أنك ستجد حلّاً ما. ستجلس الآن وتتكلم معي، وتفكّر. أنت قوي يا مرتضى، يا فتاي. قويّ وذكي، كما كنت أنا،- صوت العجوز يصبح أكثر دفئاً وشباباً.- أووه، كيف كنت أنا... أبوك حين رآني سال لعابه حتى خصره، ونسي أن يمسحه،-

لقد كان راغباً بي إلى هذا الحد. أنتم الرجال كالغنم- ما إن يشعر أحدكم ببعض القوة حتى تتملكه الرغبة في أن ينطح، يرفس، وينتصر على الآخرين. يا لكم من أغبياء!

تبتسم، فتهتز شبكة التجاعيد على وجهها، وتتراقص في ضوء مصباح الكيروسين الأصفر صفرة خفيفة، ويصبح تنفس مرتضى أكثر هدوءاً واتزاناً.

- قلت له: احذر وأنت تقضم التفاحة يا نحيل الساقين، كيلا تنكسر أسنانك! فأجابني أن أسنانه كثيرة. فقلت له: الحياة طويلة وقد لا يكفيك ما عندك من أسنان- حاذر! لكن هيهات- ما قلته لم يزده إلا هياجاً...- ضحكت أوبيريخا ضحكة جافة كالسعال.

- في ذلك الصيف، حين تسابقنا في لعبة «الحقْ بالفتاة» (كيز- كوو) صار شكيرزان يلاحقني كما يلاحق كلب كلبة راغبة في الإنجاب. ثوبي الخاص بلعبة (الكيز- كوو) كان أجمل ثوب في يولباش- محيك من المخمل الأسود ومطرّز بزهور من الخرز (قضيت الشتاء كله في تطريزه!). وعلى الصدر...- تضع العجوز على صدرها المتهدل يدها المعروقة ذات الأصابع الطويلة،-... طوق مزدوج. أعطاني أبي حصانه ذا الثلاثة أعوام: قفزت ممتطية سرجه، فرنّ العقد رنيناً رقيقاً، مثيراً- حين رآني الشباب صاحوا: أوي-يا- آ-آ-آ... وراح شكيرزان يعدو ويعدو بحصانه، تعرّق الحصان، أما هو فاحمرّ وجهه غضباً، لكنه لم يستطع اللحاق بي.

ها أنذا أرى من بعيد حرج أشجار الجوز- أبّطئ عدو حصاني وكأني أستسلم. أبوك يبتهج ويعدو بحصانه نحوي كالمسعور، معتقداً أنه سيلحق بي. أما أنا، فلكزت حصاني بكعبي حين بلغت الحرج، فطار الحصان كالسهم إلى الأمام. ولم يلحق شكيرزان إلا بالغبار الذي غطى وجهه. يعطس- أما أنا فانعطفت حول الحرج، التقطت السوط من الجزمة: الآن جاء دوري! السوط كان متيناً، مجدولاً، وقد عقدت رأسه كي يصير أشد إيلاماً. ألحق به طبعاً، وأسوطه بكل قوة: أنت

عجزت عن اللحاق بالفتاة، وعليك أن تدفع الثمن، هاك! كنت أصرخ وأضحك... أما هو فلم يستطع اللحاق بي لو مرة واحدة!

تمسح أوبيريخا بقفا كفها الدموع التي تجمعت في زوايا عينيها.

- آه، كم مرة لاقى مني ذلك الصيف! لقد ظل يتذكر ذلك طول ما تبقى من حياته: صار يضربني بقوة، وكثيراً، وبالسوط أيضاً. يعقد رأس السوط كقبضة، ويضربني به كأنه عصا،- أما أنا فكنت أضحك في وجهه وأقول له: ما بالك تقلّدني؟ أيعجز عقلك عن ابتكار طريقة خاصة بك؟، هو يزداد غضباً، ويضربني بقوة أكبر، تكاد تنقطع أنفاسه، يضع يده على قلبه... لكنه لم يستطع كسر إرادتي. طيّب، أين هو الآن؟ إنه، منذ نصف قرن، يغذي الديدان. أما أنا فقد عشت ضعف حياته، وبدأت أعيش الضعف الثالث. إن القوة تُمنح من السماء.

تغمض أوبيريخا بياض عينيها.

- أنت- القلب بالنسبة إليّ يا ولدي. في عروقك يجري دمي. وتحت لحمك عظامي.- تمسّد الخصلات الشيباء في رأسه الحليق.- وقوتك هي قوتي: قوة شرسة لا تقهر.

- ماما، ماما... يضغط مرتضى جسد أمه ويشده إليه، كما يشد المصارع جسد خصمه، والعاشق جسد المرأة التي يحبها.

- ما إن رأيتك أول مرة- جسد جنين أحمر، أصابع مجعدة، وعينان ما تزالان عمياوين،- حتى أدركت فوراً أنك لي، ولست لأي أحد آخر- لي أنا فقط. أنجبت عشرة لزوجي، أما الأخير فلي. ليس عبثاً أن كانت صرّتك بسماكة اليد، ولم تستطع جدتك قطعها بالسكين إلا بصعوبة، وهي تقول: هذا الولد لا يريد أن ينفصل عنك. أنت حقاً لم ترد الانفصال عني- كنت ترضع ثديي، غارساً فيه أظافرك كالكماشة. لقد ظللت هكذا متشبثاً بي- رضعتني ثلاث سنوات كالعجل،

ولم تترك ثدييّ إلا كيسين فارغين متهدلين. كنت تنام معي، حتى بعد أن صرت كبيراً، ثقيل الوزن، تتمدد على الديوانة كنجم واضعاً يدك على صدري كي لا أتركك وأبتعد عنك إلى أي مكان. ولم تكن تسمح لشكيرزان بالاقتراب مني- تصرخ كالمذبوح. وكان هو يطلق شتائم فظيعة ويغار منك. ترى ماذا كان سيطعمك في زمن الجوع، لو لم يكن في ثدييَّ حليب؟!

- ماما، ماما... يكرر مرتضى بصوت أصم.

- كان الوقت مخيفاً. عمرك صار ثلاث سنوات، وأنت تريد أن تأكل كالكبار. ترضع ثديي حتى لا يبقى فيه شيء،- ترضع كل ما فيه من حليب سائل؟ هذا لا يشبعك! تدعك ثديي بعصبية، تخدشه بأسنانك: تريد المزيد، المزيد. لكنه فارغ. تطلب خبزاً: أعطني! من أين آتيك بالخبز! لقد التهمنا في أثناء الصيف كل ما كان على السطح من قش، واصطدنا كل ما كان قابلاً للصيد في المنطقة، الأعشاب البرية- طعام لذيذ. لكن أين تلك الأعشاب؟ لقد جنّ الناس، هاموا على وجوههم، في الغابة أكلوا لحاء الشجر. شكيرزان ذهب منذ الربيع إلى المدينة بحثاً عن دخل، وبقيت وحدي معكم أنتم الأربعة. أنت كنت تحصل على حليب ثديي، أما الأكبر منك فلم يحصلوا على شيء...

مرتضى يدمدم بكلام غير مفهوم ملتصقاً بأمه. أوبيريخا تمسك رأسه بكفيها، تنهضه، وتلقي نظرة صارمة على وجه ابنها بعينيها اللتين لا تبصران.

- إياك حتى أن تفكّر بذلك، أتسمع؟ لقد قلت لك ألف مرة، وأقول للمرة الأولى بعد الألف: أنا لم أقتلهم. ماتوا بسبب الجوع.

يظل صامتاً، يتنفس فقط- يرافق أنفاسه صخب وصفير.

- أنا لم أرضعهم حليباً- هذا صحيح. كل ما كان فيّ حتى آخر قطرة، كنت أتركه لك. حاولوا في البداية الشجار- أرادوا أن ينتزعوا ثديي منك بالقوة. كانوا أقوى

منك. لكني كنت أقوى منهم، ولم أتركهم يتغلبون عليك. فيما بعد خارت قواهم، وأصبحت أنت أقوى منهم. وهكذا ماتوا. وهذا كل شيء. لم يحدث شيء غير ذلك.

تمطّ أوبيريخا ذقنها نحو أنفها داعكة تجاعيد وجهها، وتغمض عينيها بيدها الراعشة- فيلتمع على الخواتم الذهبية ضوء مصابيح الكيروسين.

- هل تسمعني يا بني؟ نحن لم نأكلهم. دفنّاهم. قمنا بذلك بأنفسنا من دون شيخ في الليل. أنت، ببساطة، كنت صغيراً ونسيت كل شيء. أما السبب في عدم وجود قبور لهم، فقد جفّ لساني وأنا أقول لك إنهم في ذلك كانوا يدفنون الجميع من دون قبور. آكلة لحوم البشر كانوا يطوفون جماعات في المقابر، وحين يرون قبراً حديثاً ينبشونه ويأكلون الميت. لذلك صدقني، صدقني أخيراً، فقد انقضى على الأمر نصف قرن. إن أولئك الذين روجوا تلك الإشاعات المقرفة عنا صاروا تراباً منذ زمن بعيد. أما أنا وأنت فما زلنا من الأحياء. يبدو أن اللـه لا يمنّ علينا بهذه النعمة عبثاً، أليس كذلك؟

- ماما، ماما،- مرتضى يلتقط يدها المرفوعة ويشرع يقبلها.

- ها هوذا، -تنحني أوبيريخا نحو ابنها وتغطيه بجسدها، ورأسها، ويديها. ضفيرتاها البيضاوان الشائبتان الرفيعتان تنسدلان على ظهر مرتضى، وتتدليان على الأرض.- أنت الأقوى يا مرتضى. ما من أحد يستطيع الانتصار عليك، ما من أحد يستطيع كسر إرادتك. لقد كان ما حلمت به البارحة حول هذا الموضوع، أنت تعرف ذلك. وإذا كان مقدراً لأحدهم أن يغادر هذا البيت، أو هذا العالم، فهو ليس أنت. زوجتك الصغيرة الأسنان لم تستطع أن تنجب لك ولداً، وهي ستفارق هذا العالم سريعاً. أما أنت، فما زلت صغير السن- تستطيع أن تنجب من يحفظ جنسك. سيكون لك ولد. لا تخف شيئاً. سنبقى أنا وأنت في هذا المنزل يا قلبي، وسنعيش طويلاً، أنت- لأنك فتيّ، وأنا لأني لا أستطيع أن أتركك وحيداً.

يغدو مسموعاً بوضوح صوت الساعة الجدارية الضخمة، القلب الآلي الضخم الذي يرسل صريراً، وهي تدق ببطء من دون توقف.

- شكراً لك يا ماما،- ينهض مرتضى على ركبتيه متثاقلاً.- سأذهب الآن.

يربت على وجه أمه، ويمسد شعرها. يمدها في السرير، ويصحح وضع وسادتها، ثم يغطيها باللحاف. يقبل يديها الاثنتين- ثم رسغيها، فذراعيها. يدير فتيل المصابيح إلى أسفل، فيسود الظلام ويخرج ويغلق الباب خلفه.

قريباً سيعلو صوت شخير العجوز الراقدة فوق سرير وثير من الريش الناعم والأغطية، عائدة إلى عالم أحلامها الشفاف.

تضغط زليخة على جسدها يدها القابضة على قشر البيضة الجاف، وتتسلل دون صوت إلى المدخل، وتخرج.

مرتضى يجلس القرفصاء قرب الموقد يحرك جمراته عابساً. التماعات اللهب الأصفر تتراقص على حد البلطة: أعلى - أسفل، أعلى- أسفل: زليخة تتمايل في مشيتها كإوزة، تمشي فوق ألواح الأرضية التي خبأت تحتها المؤونة: أتراها ترسل صريراً قوياً؟

قفي!- صوت زوجها متحشرج كما لو كان لوحاً يتشقق.

تستند زليخة خائفة إلى صندوقين متقابلين قرب النافذة، وهي تصلح بيدها على عجل غطاءهما المطرّز (على هذا الغطاء يسمح بالجلوس للضيوف فقط، وللزوج طبعاً). أوه، إنه غاضب جداً اليوم، سيء المزاج- كأن جنياً سكنه. لقد زار أمه لكنه لم يهدأ. إنه ينتظر الفصائل الحمراء. ويخاف.

- لقد حفظوا عن ظهر قلب مخابئنا كلها في الأعوام الأحد عشر الماضية- ببلطة مرتضى تقطع بسهولة إحدى الجمرات وكأنها قطعة زبدة.-يستطيعون إذا أرادوا، أن يقلبوا البيت لوحاً، لوحاً، ويجدوا ما يبحثون عنه.

كومة قطع الحطب الصغيرة كبيرة إلى جانب مرتضى. ما حاجته إلى كل هذه القطع؟! إنها تكفي لأكثر من أسبوع.

- لا يبقى له إلا التخمين: هل سيأخذون البقرة، أم الحصان.- يطوح مرتضى بيده أخيراً ويدس البلطة في النار بكل قوة.

- قريباً سنفلح الأرض، تقول زليخة متنهدة، مترددة.- الأفضل أن يأخذوا البقرة.

- البقرة؟! يصرخ زوجها في الحال، كمن لسعته نار.

أنفاسه عادت، كثيفة، يرافقها صفير. هكذا يتنفس الثور قبل أن ينقض على خصمه. ينقض مرتضى على زليخة وهو جاث على ركبتيه. ترتد خائفة. رحمتك يا اللـه. يزيح مرتضى الصندوق بكتفه القوي، بسهولة، وكأنه صندوق من كرتون. ينزع بأظافره الغطاء عنه. يدس يده حتى المرفق في الثقب الأسود الذي يتنفس برداً- يخرج درجاً معدنياً مسطحاً. يصر غطاء الدرج الذي داهمه الصقيع. يضع مرتضى في فمه على عجل قطعة طويلة من مرتديلا لحم الحصان، ويلوكها بعصبية.

- لن أعطيهم،- يدمدم بفم ملآن.- في هذه المرة لن أعطيهم شيئاً. أنا قوي.

رائحة مرتديلا لحم الحصان تفوح في الغرفة. وتشعر زليخة كيف امتلأ فمها بلعاب حلو المذاق. آخر مرة أكلت فيها مرتديلا لحم الحصان كانت في العام الماضي. تأخذ عن حافة الموقد قطعة خبز طازجة، تمد يدها بها إلى زوجها: كل المرتديلا مع الخبز. يهز زوجها رأسه بالنفي. فكاه يعملان بسرعة وقوة، كرحى طاحون. يتناهى إلى السمع صرير لحم الحصان المرن تحت أسنانه القوية. خيوط اللعاب اللامعة تتساقط من فمه المفتوح على ياقة ثوبه.

مرتضى لا يخرج المرتديلا من فمه، يبحث بيديه في بقايا الدرج. يخرج قطعة من السكر يلوح بياضها رقيقاً في الظلمة الخفيفة، يضربها بكل قوة بسطح البلطة

الجانبي- تنكسر وتلتمع نثرات زرقاء حادة في مكان الكسر، وينفصل عنها جزء كبير،- يمد يده ثانية إلى أحد الصندوقين فيجد زجاجة مضلعة الحواف: إنه سم الفئران، أحضره في العام الماضي من قازان. يصب قليلاً منه على قطعة السكر.

- هل فهمت يا امرأة؟- يقول مقهقهاً.

تلتصق زليخة بالجدار خائفة. يضع مرتضى قطعة السكر التي راحت تمتص نقاط السائل، على حافة النافذة، ويمسح يده المبللة ببطنه. يتأملها، ويردّ رأسه إلى الخلف وقد برز من فمه طرف قطعة المرتديلا.

- إذا جاؤوا يطلبون الماشية في أثناء غيابي عن البيت، أطعمي البقرة والحصان من هذا السكر. هل فهمت؟

تهز زليخة رأسها هزة خفيفة وهي تضغط ظهرها على نتوء خشبي بارز في الجدار.

- هل فهمت؟!- يكرر مرتضى الذي لم يسمع جواباً، ثم يمسك بضفائرها ويضغط وجهها بحافة النافذة حيث تجف قطعة السكر التي تشبه قطعة جليد كبيرة تذوب في الدفء، تفوح منها رائحة حادة.

- فهمت يا مرتضى، فهمت!

يتركها، يضحك راضياً. يقطع بالبلطة، وهو جالس على الأرض، مرتديلا لحم الحصان، ويدس القطع في فمه.

- لا شيء...- يتمتم وهو يمضغ قطع المرتديلا،- لن أعطيهم شيئاً... أنا قوي... ما من أحد ينتصر عليّ، ما من أحد يكسر إرادتي...

يا اللـه، ما أشد تأثير الخوف في زوجي... تتلفت زليخة حذرة، تبعد الزجاجة المضلعة الي تحوي الموت السائل. تلمّ البساط الممدود، وتزيح الصندوقين. وحين تقوم بتصحيح وضع الغطاء المطرّز فوق هرم الصناديق الذي أعيد ترتيبه

بعناية في مكانه المعتاد (وكأن شيئاً لم يكن)، ينفجر زجاج النافذة ويتناثر مئات من الشظايا الصغيرة. ثمة شيء صغير، ثقيل الوزن يطير من الشارع ويرتطم بالأرض بصوت أصم.

زليخة تلتفت. في النافذة يسودّ ثقب كبير له شكل نجمة كثيرة الأضلاع، تطير عبره إلى الغرفة ندف الثلج المنفوشة طيراناً بطيئاً. وتستمر قطع الزجاج الصغيرة بالتناثر على الأرض مرسلة رنيناً لطيفاً.

مرتضى يجلس على الأرض بفم محشو بالطعام. بين قدميه المفتوحتين- حجر ملفوف بورقة بيضاء سميكة. يقلّب الحجر ويواصل علك الطعام منفعلاً. إنه منشور: جرار عملاق يسحق بعجلاته ذوات الأسنان الكبيرة أعداء أقزاماً يزحفون، كالصراصير، في كل الاتجاهات. أحدهم يشبه مرتضى كثيراً، يقف خائفاً وقد أسند إلى آلة الجرار الفولاذية مذراة خشبية. وتتساقط من الأعلى حروف ثقيلة مربعة: «سندمر (الكولاك) كطبقة!» زليخة لا تقرأ، لا سيما بالروسية. لكنها تفهم أن الجرار الأسود سيسحق بعد قليل مرتضى ومذراته المضحكة.

يبصق مرتضى قطعة مرتديلا على المقعد، ويمسح بعناية يديه وشفتيه بورقة المنشور المدعوكة، ثم يرميها في الموقد- فينكمش ويحترق الجرار والأناس الضئيلو الحجم المقرفون في ألسنة اللهب البرتقالية، ويتحول كل ذلك إلى رماد في لحظة،- بعد ذلك يحمل البلطة ويسرع خارجاً من المنزل.

أيها الرب المتعالي، القادر على كل شيء! تسرع زليخة إلى النافذة فتقلص وجهها بشبكة شقوق الزجاج. مرتضى يقفز إلى الشارع، قميصه مفتوح يكشف عن صدره، ورأسه عار بلا قبعة. يتلفت حوله، يهدد بالبلطة التي تلتمع في دوامة الثلج. المكان حوله خال، والحمد للـه، وإلا لكان قتل أحدهم، وحملت روحه ذنب فعلته.

تجلس زليخة على المقعد، واضعة وجهها الساخن في مواجهة الريح التي تهب عبر النافذة. من المؤكد أن هذا من فعل منصوركا- الفجلة ورفاقه الفقراء في (الخلية). لقد طافوا أكثر من مرة على الدور، حضوا الناس على الدخول في الكولخوز، وتبادلوا الشتائم معهم. علّقوا المناشير في كل مكان في يولباش. لكنهم، قبل الآن، لم يجرؤوا على تحطيم النوافذ. أما الآن فقد عشنا حتى نرى ذلك. يبدو أنهم يعرفون ما الذي يجري إعداده. ليأخذهم الشيطان. يجب السفر إلى البلدة المجاورة لتبديل زجاج النافذة المكسور. النفقات كبيرة. البيت سيبرد في الليل... ومرتضى ليس هنا. سيتجمد في العاصفة الثلجية من دون معطفه السميك. لا شك في أن الجنّ سكنوا المكان...

ترتعد زليخة إذ فاجأتها هذه الفكرة المخيفة، فتندفع راكضة من البيت إلى المدخل، وتفتح الباب على مصراعيه وتطل على الشارع.

مرتضى والبقرة (كوبيليك) يقفان في الفناء وجهاً لوجه. هو يمسد برقة البقرة المجعدة التي تلامس وجهه بطمأنينة. ثم يسحب بلطته من وراء ظهره، يرفعها ويهوي بها ضارباً كوبيليك بين عينيها الكبيرتين الرطبتين، الطويلتي الرموش، فتسقط البقرة على الأرض مطلقة أنيناً عميقاً خافتاً، مثيرة سحابة ثلجية كثيفة من حولها.

تطلق زليخة صرخة عالية، وتندفع ركضاً على درجات المدخل نحو مرتضى الذي يضربها بقبضة يده من دون أن ينظر إليها، فتقع على ظهرها، وتصطدم أضلاعها بدرجات المدخل.

ترسل البلطة صفيراً. وتصيب وجه زليخة رشقة من سائل حار- إنه الدم. مرتضى يعمل بالبلطة بسرعة، وقوة، ومن دون توقف. نصل البلطة ينغرس في الجسد الساخن يرافقه أنين رتيب. زفير كوبيليك الخارج حاراً من رئتيها يلسع

الوجه، ويندفع الدم بجيشان وبقبقة من فوهات عروقها. ويحيط بخار كثيف زهري اللون بجثة البقرة التي تتحول بسرعة إلى قطع من اللحم.

- هاكم- التفتيش في عام ستة عشر!- مرتضى يكسر العظام بسهولة وكأنها أغصان صغيرة يابسة.- جيش التموين في عام ثمانية عشر! تسعة عشر! عشرين! هاكم هذه الدفعة! هاكم ضريبة التموين! هاكم فائض القمح! خذوه! خذوه! إذا استطعتم!

عند باب الاصطبل تقف ساندوغاش على قائمتيها الخلفيتين قلقة تصهل، تضرب الهواء بحوافرها الثقيلة، وبياض عينيها يدور في محجريهما. والمهر يركض جيئة وذهاباً بين قوائم أمه.

يلتفت مرتضى نحو الفرس: قميصه أحمر وياقته مفتوحة- صدره يتصاعد منه البخار بكثافة، وفي يده البلطة وقد اسودت بفعل الدم.

تنهض زليخة على مرفقيها، وألم أضلاعها يسري في ظهرها. ويمر مرتضى من فوق سحنة البقرة التي أطبقت فكيها، وتدلت نهاية لسانها الرفيعة زرقاء كالحجر- متجهاً نحو ساندوغاش.

- والفلاحة؟ من سيجر المحراث؟- تصرخ زليخة وهي تمسك بظهر مرتضى.- الربيع على الأبواب! سنموت من الجوع!

هو يحاول أن يشدها من شعرها، يطوح بيديه- تصفر البلطة التي يمسكها بيده اليمنى. تغرس زليخة أسنانها في كتف زوجها. يصرخ، يرفعها ويرميها من فوق رأسه- تطير. الأرض والسماء تتبادلان الأماكن مرة بعد مرة. شيء ما، كبير وصلب، زواياه كبيرة وحادة، يدفعها في ظهرها- أهو درج المدخل؟ تنقلب على بطنها، وتزحف بسرعة من دون أن تنهض، معتمدة على يديها وساقيها. تصعد

درجات المدخل، وتنزلق إلى داخل البيت. زوجها يخطو في إثرها مسرعاً. تصطفق الأبواب، تفرقع كضربات سوط الراعي،- ضربة، اثنتان...

زليخة كانت تركض في أرجاء الغرفة- تحت قدميها ترن شظايا زجاج النافذة المكسور،- تقفز فوق الديوانة، تنكمش في زاوية البيت، وتحمي نفسها بوسادة وقعت في يدها. مرتضى صار بقربها. لحيته تقطر عرقاً، عيناه- جاحظتان. يرفع يده بالبلطة. البلطة تصفر وهي تقطع وجه الوسادة وكيس الريش- الوسادة تنفجر غيمة من ريش الطير وزغبه. الزغب الخفيف الأبيض يملأ الغرفة، ويعلق في الهواء.

يطلق مرتضى آهة مديدة ويرمي البلطة من يده- لا يرميها على زليخة بل جانباً. حدّها يلتمع في الهواء وينغرس في غطاء مطرّز.

ذرات الزغب الدافئة تتساقط من الأعلى بطيئة كذرات الثلج. ومرتضى يتنفس بصعوبة ويمسح الزغب الأبيض العالق برأسه الأصلع. ينزع البلطة المنغرسة في الغطاء ويخرج من دون أن ينظر إلى زليخة. يصرّ تحت وقع خطاه الثقيلة الزجاج بصوت مرتفع كصوت مطر شباط.

ندف الثلج تدخل إلى الغرفة عبر الزجاج المكسور، وتختلط بالزغب المتطاير، فتتشكل في البيت دوّامة بيضاء احتفالية، بهية المنظر. تسدّ زليخة الثقب في النافذة بالوسادة الممزقة، محاذرة أن تجرح يدها. ترى على المقعد قطعة مرتديلا لحم الحصان، تأكلها. طعمها لذيذ. تحمد اللـه، فلا أحد يدري متى ستأكل مرتديلا لحم الحصان مرة أخرى. تلعق الدهن عن أصابعها وتخرج إلى الفناء.

الثلج الذي عند المدخل كله بلون الكرز المسحوق مع السكر.

في الزاوية البعيدة على طاولة خشبية قرب الحمام، مرتضى يقطع اللحم. لكن ساندوغاش والمهر ليسا في الفناء.

تذهب زليخة إلى الاصطبل. ها هما ذان هنا. ساندوغاش تلحس ولدها بلسانها الخشن الطويل. الحمد للـه أنهما على قيد الحياة. تربت على سحنة الفرس المخملية الدافئة، وتدغدغ رقبة المهر.

وفي الفناء- آلاف الندف البيضاء تهطل فوق الثلج الأحمر، تغطيه وتعيده ثلجاً أبيض من جديد.

الهرب

اللقاء

المخبأ السري في مكان أمين. إن كل ما ابتكره مرتضى وشيده بيديه كان جيداً ومتيناً- يصمد ويحيا حياة مضاعفة.

استيقظا اليوم قبل الفجر. تناولا فطوراً بارداً، وخرجا معاً من الدار والقمر ما يزال يرسل ضوءه الشفاف، ومثله آخر نجوم ما قبل الفجر. في الفجر وصلا. السماء تحولت من سوداء إلى زرقاء ساطعة، أما الأشجار التي جللها البياض فغمرها الضوء والتمعت كالماس.

الهدوء يسود في الغابة عند الصباح، والثلج يطقطق تحت حذاء مرتضى طقطقة تثير الشهية، كأنه الملفوف الطري حين تقطعه زليخة في الحاكورة ببلطتها الصغيرة. يخوض الرجل وزوجته في أكوام الثلج الكثيف حتى الركب، يحملان على لوحين من الخشب، يشبهان نقّالتي إسعاف، حملاً ثميناً: أكياس القمح المعدّ للبذار، وقد ربطت بعناية إلى اللوحين الخشبيين بالحبال. إنهما يحملان اللوحين بحذر، ويتحاشيان اصطدامهما بالأغصان وجذوع الشجر الحادة، فزليخة ستكون في وضع لا تحسد عليه إذا تمزق أي كيس.

لقد صار مرتضى الذي أرهقه انتظار الفصائل الحمراء مسعوراً- سيقطّعها كما قطّع كوبيليك البارحة، دون أن يرف له جفن.

أمامهما، بين أشجار السرو التي غطى أغصانها الثلج المتجمد، بدأ يلوح ضوء تشوبه الزرقة. تنفرج المسافات بين أشجار البتولا، ترنّ نوازل الجليد الصغيرة على أغصانها الصغيرة، وتنكشف فسحة عريضة مغطاة بطبقة سميكة من الثلج. ها هي ذي الشجرة المعوجة ذات الشق الطويل الضيق في جذعها، وإلى جانبها شجيرة كرز بري متجمدة- لقد وصلا.

على غصن الشجرة يقف طائر أزرق- صدره أزرق كقطعة من السماء، وعيناه خرزتان سوداوان. الطائر لم يخف، راح يتأمل زليخة باهتمام ويزقزق.

- شمسة!- تبتسم زليخة وتمد يدها بقفازها الفرو السميك إليه.

- لا تثرثري يا امرأة!- يرمي مرتضى حفنة من الثلج، فيقفز الطائر جانباً، ويطير.- لقد جئنا لنعمل.

تمسك زليخة الرفش خائفة.

يبدآن إزاحة الثلج من تحت الشجرة- وستظهر تحته سريعاً ملامح تلة صغيرة داكنة اللون. تخلع زليخة القفاز، وتشرع تنظف تلك التلة بيديها المحمرتين من البرد، غير عابئة ببرودة الثلج والحجر. أظافرها تقشر الثلج عن كتابة عربية، حرارة أصابعها تذيب الجليد وتحوله إلى برك ضحلة فوق موجة طويلة من الحروف. زليخة لا تقرأ، لكنها تعرف أن المحفور هنا هو: شمسة، بنت مرتضى فالييف. والتاريخ: عام 1917.

في أثناء تنظيف مرتضى لقبر ابنته الكبرى، تخطو زليخة جانباً، تركع على ركبتيها وتتلمس تحت الثلج تلة أخرى، مزيحة الثلج بمرفقيها. أصابعها المتجمدة تجد الحجر تلقائياً، تنزلق فوق الحروف المتجمدة: فيروزة بنت مرتضى فالييف. عام 1920.

التلة التالية: زبيدة 1924

التالية: خالدة. عام 1926.

- ما بالك تضيعين الوقت؟!- قال مرتضى الذي انتهى من تنظيف القبر الأول، وهو يقف الآن مستنداً إلى الذراع الخشبي لرفشه، غارساً بصره في زليخة: حدقتاه صفراوان، باردتان، وبياض عينيه أحمر داكن، عكر. والتجعيدة التي وسط جبينه تتحرك كما لو كانت حية.

- لقد سلّمت عليهن جميعاً،- قالت زليخة بلهجة من ارتكب ذنباً، وقد خفضت عينيها.

أربع شاهدات حجرية تقف مائلة قليلاً في نسق واحد، ناظرة إليها- شاهدات واطئة، طول كل واحدة منها لا يتجاوز طول قامة طفل عمره سنة.

- ساعديني، ذلك أفضل!- يصرخ مرتضى ويغرس الرفش بكل قوته في الأرض المتجمدة.

- ياالله، انتظر!- زليخة ترتمي على قبر شمسة وتحيطه بذراعيها. مرتضى يتنفس بصخب غاضباً، لكنه يترك الرفش وينتظر.

- سامحنا يا روح المقبرة زيرات ياسي. لم نكن نريد إزعاجك قبل الربيع- لكننا مضطرون- تهمس زليخة في وجوه الحروف المستديرة الخطوط.- وأنت، سامحينا يا ابنتي. أعرف أنك لست غاضبة. فأنت نفسك يبهجك أن تساعدي والديك.

تنهض زليخة، تحني رأسها تحية: يمكنك الآن أن تتابع. يحفر مرتضى الأرض قرب القبر، محاولاً أن يغرس الرفش في شق متجمد يكاد لا يرى. أما زليخة فكانت تنبش الجليد بعصا. الشق يعرض تدريجياً، ويكبر، ويصبح أكثر مطاوعة.- وأخيراً ينفتح مرسلاً صريراً طويلاً، كاشفاً عن صندوق خشبي طويل، تفوح منه رائحة الأرض المتجمدة. يصب فيه مرتضى بحرص حبات القمح الرنانة الصفراء كأشعة الشمس في الصقيع. وتضع زليخة يديها تحت جداول الحب المتساقطة الثقيلة.

إنه القمح.

سينام هنا بين شمسة وفيروزة في تابوت خشبي عميق- ينتظر الربيع. وحين تفوح رائحة الدفء في الهواء، حين تتعرى الحقول وتسخن، سينام من جديد في الأرض، كي ينمو وينهض غرسات خضراء على خطوط الأرض المفلوحة.

تجهيز مخبأ سري في مقبرة القرية من ابتكار مرتضى. زليخة خافت في البداية من أن يقلق الأمر الموتى- أليس ذلك إثماً؟ أليس الأفضل أن نطلب الإذن من حضرة الملا؟ ألن يغضب هذا الأمر روح المقبرة؟ لكنها وافقت فيما بعد- فلتساعد البنات والديهن في تدبير بعض الأمور. وقد ساعدتهما البنات على أكمل وجه- فليس هذا العام العام الأول الذي يحرسن فيه بذاراً أعده الأبوان حتى حلول الربيع.

ينطبق غطاء الصندوق. ويرش مرتضى الثلج على القبر المفتوح، ثم يلف الأكياس الفارغة حول ذراعي الرفشين، ويحملهما على ظهره متجهاً نحو الغابة.

غطت زليخة القبور المكشوفة بالثلج- وكأنها تغطي البنات بالأغطية في الليل قبل النوم. وداعاً يا بنات! سنلتقي في الربيع إذا لم تتحقق نبوءة أوبيريخا قبل ذلك.

- مرتضى،- تناديه زليخة بصوت خافت.- ادفني هنا، مع البنات، إذا مت، هناك مكان خال إلى اليمين من خالدة. أنا لا أحتاج إلى مكان كبير، أنت تعرف ذلك.

الزوج لا يتوقف، قامته الطويلة تتلامح بين جذوع الأشجار. تتمتم زليخة بصوت خافت مخاطبة الحجارة بشيء ما، مودعة، وهي تدس يديها المتجمدتين في قفازها.

تعلو الزقزقة من جديد على غصن الشجرة، فقد عاد الطائر ذو الصدر الأزرق إلى مكانه. تلوح له زليخة بفرح- «شمسة، أنا أعرف أنك هي!» ثم تنطلق لاحقة بزوجها.

العربة تسير ببطء في الطريق عبر الغابة. ساندوغاش تزفر بصخب محاولة إبعاد مهرها، أما هو فيقفز بمرح إلى جانبها، غائصاً تارة بساقيه النحيلتين في كومات

الثلج التي في الطريق، وتارة يدس سحنته ذات الأنف الأفطس في خاصرة أمه. إنه يرافقهم اليوم، لا بأس، فليعتد على الرحلات إلى الغابة.

العمل انتهى قبل أن تتجاوز الشمس منتصف النهار. لقد أتما العمل دون أن يلحظهما أحد والحمد للـه. واليوم، أو غداً، ستزيل العاصفة كل أثر في المقبرة- وكأن شيئاً لم يكن.

زليخة تجلس في العربة مديرة ظهرها إلى مرتضى، كما تفعل دائماً. إنها تشعر في نقرتها، بثقل وسواد الأفكار التي تجول في رأسه.

كانت تأمل أن يهدأ زوجها قليلاً وأن تختفي التجعيدة الكبيرة التي على جبينه، الشبيهة بندبة جرح، بعد النجاح في إخفاء القمح. لكن لا، التجعيدة لم تختف بل أصبحت أكثر عمقاً.

- سأذهب ليلاً إلى الغابة.- يقول ناظراً إلى مكان ما في الأمام، موجهاً كلامه إما إلى النير الذي يطوق عنق ساندوغاش، أو إلى ذيل الفرس.

- كيف؟- تلتفت زليخة ملقية نظرة شاكية على ظهر زوجها العنيد،- نحن في كانون الثاني...

- هناك سنكون كثيرين ولن نتجمد من البرد.

مرتضى لم يذهب قبلاً أبداً للإقامة في الغابة. الرجال الآخرون ذهبوا- في العام عشرين، وفي العام أربعة وعشرين. توزعوا على مجموعات، واختبؤوا هرباً من السلطة الجديدة. ذبحوا الماشية أو اقتادوها معهم. الزوجات والأبناء بقوا في المنازل- ينتظرون ويأملون أن يعود الرجال. وقد حدث أن عاد بعضهم، لكن أغلبيتهم لم تعد. بعضهم قتلته الفصائل الحمراء، وبعضهم اختفى من تلقاء نفسه دون أن يترك أثراً...

- لا تنتظريني في الربيع،- يتابع مرتضى كلامه.- اعتني بأمي.

تنظر زليخة إلى فروة الغنم الخشنة المشدودة على كتفي زوجها القويين.

- سآخذ الفرس.- يحض مرتضى ساندوغاش على الإسراع فتطيعه وتسرع الخطو- تستطيعون ذبح المهر وأكل لحمه.

الصغير يسرع وراء أمه، يدفع لاهياً قوائمه تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف.

- إنها لن تستطيع العيش- تقول زليخة موجهة الكلام لظهر زوجها- أنا أقول: أمك لن تستطيع العيش.

ظهر الزوج يظل عابساً، صامتاً. حدوة ساندوغاش تدق الثلج بصوت أصم. وفي مكان ما في الغابة ترسل الحدآت أصواتاً ساخرة. يخلع مرتضى غطاء رأسه المدعوك، ويمسح جمجمته الصلعاء المحمرة- فيتصاعد من بشرتها الوردية بخار يكاد لا يرى.

انتهى الحديث. تستدير زليخة مبتعدة. إنها لم تكن وحيدة في أي يوم من حياتها. من سيقول لها ماذا تفعل، وماذا لا تفعل؟ من سيوبخها إذا كان عملها رديئاً؟ ومن سيحميها من الفصائل الحمراء؟ من سيطعمها في نهاية المطاف؟ ترى، هل أخطأت أوبيريخا؟ وهل ستبقى العجوز في بيت ليس فيه ابنها الحبيب، بل كنتها الحقيرة؟ يا اللـه! كيف سيكون ذلك كله؟

يتناهى إلى سمعها غناء فجأة، غناء كأنه صوت الريح، دوى في آذانهما كأنين حزين، لكنه الآن صار صوتاً رجالياً واثقاً، صوتاً جميلاً عميقاً يأتي من مكان بعيد في الغابة. الكلمات روسية، واللحن غريب. زليخة تريد أن تسمع. لكن مرتضى بدا مضطرباً لسبب ما، وراح يحض الفرس على الإسراع.

لا أحد يمنحنا الخلاص،

لا الرب، ولا القيصر، ولا الزعيم البطل

نحن سنحقق حريتنا

سنحققها بأيدينا.

زليخة تعرف الروسية معرفة مقبولة. إنها تفهم أن كلمات الأغنية جيدة- وأنها عن الحرية والخلاص.

- خبئي الرفشين،- يقول لها مرتضى عبر أسنانه المطبقة. تلف زليخة الرفشين بالأكياس وتغطي ذلك بأذيال ثوبها.

ساندوغاش تسرع في العدو، لكن عدوها يظل بطيئاً- إنها تراعي عدو مهرها غير المتوازن. والصوت يقترب أكثر، يلحق بالعربة.

كي نهدم الظلم بيد قديرة

وننزع حقنا

أشعلوا النار، وأضربوا بجرأة

ما دام الحديد ساخناً

إنها أغنية رجل شغّيل، تقول زليخة في سرها، حدّاد أو عامل في صهر الحديد. لقد صار واضحاً أن هذا الرجل يمشي في إثرهما، في الطريق الذي يجتاز الغابة، وأنه سيظهر لهما قريباً من وراء الأشجار. ترى كم عمره؟ إنه، على الأرجح، في سن الشباب- في صوته الكثير من القوة، والكثير من الأمل.

هذه معركتنا الأخيرة

معركتنا الأخيرة الحاسمة

بالأممية

يُبعث الجنس الإنساني

في البعيد بين الأشجار، تتلامح قامات داكنة سريعاً. وها هو ذا فصيل صغير من الفرسان يظهر على الطريق. في المقدمة رجل- جلسته على الفرس رشيقة،

مستقيمة، وواضح من بعيد أنه ليس حداداً، وليس عامل صهر- إنه مقاتل. حين يقترب أكثر، ستتضح الأشرطة الخضراء المثبتة على معطفه الرمادي. كانت على رأسه- قبعة قماشية ذات أطراف حادة، وعليها نجمة الفصيل الأحمر، وكان يغني:

نحن فقط، نحن العاملين

في جيش العمل العالمي العظيم،

يحق لنا أن نملك الأرض

أما الطفيليون- فلا يحق لهم ذلك أبداً

لقد وهب اللـه زليخة نظراً ممتازاً. إنها تستطيع في ضوء الشمس الساطع أن تميز وجه عنصر الفصيل الأحمر الناعم نعومة غير عادية (لا شوارب، ولا لحية، إنه، قولاً واحداً، كوجه فتاة). عيناه تحت القبعة تبدوان داكنتين، أما أسنانه البيضاء المستوية فكأنها مصنوعة من السكر.

إذا قصف الرعد العظيم

قطعان الكلاب والجلادين

فإن الشمس ستظل ترسل لنا

نار أشعتها الساطعة

عنصر الفصيل الأحمر صار قريباً جداً. يزم عينيه متحاشياً ضوء الشمس، وتتراكض التجاعيد من زوايا عينيه إلى أذنيه اللتين تغطيهما البوديونوفكا1. يبتسم الوقح لزليخة. تغض بصرها، كما يجب على المرأة المتزوجة، وتخفي بشكل أعمق ذقنها تحت الشال.

- هيه، يا سيد، هل ما زالت يولباش بعيدة؟- عنصر الفصيل الأحمر لا يحيد بعينيه الجريئتين عن زليخة، يقترب تماماً من العربة- تشعر زليخة برائحة حصانه

الحارة المالحة.

يستمر مرتضى في استعجال ساندوغاش دون أن يلتفت.

- هل أنت أطرش؟- يلكز الفارس برفق حصانه بكعبيه ويلحق بالعربة بوثبتين.

يسوط مرتضى فجأة ظهر الفرس فتندفع إلى الأمام بحدة ويصطدم صدرها بحصان العسكري. يصهل الحصان بعصبية، ويرجع إلى الوراء- فتغوص قائمتاه الخلفيتان في كومة ثلج على جانب الطريق ويتناثر الثلج.

- أم أنك أعمى؟!- صوت الفارس الأحمر يرن غضباً.

- الرجل الصغير خائف، إنه يسرع للاختباء تحت تنورة أمه،- يقول فلاح أسمر يلتمع في فمه سن ذهبي تحت شفته العليا المرتفعة كما لو كانت تسخر. لحق الفرسان بالعربة- إنهم جنس شجاع. ترى، كم عددهم هنا؟ إنهم بعدد أصابع اليدين، ليس أكثر: رجال أقوياء، أصحاء، بعضهم يرتدي معطفاً عسكرياً طويلاً، وبعضهم- معطفاً عادياً سميكاً مشدوداً على الخصر بحزام عريض بني فاتح. على ظهر كل منهم بندقية، حرابها تلتمع في ضوء الشمس بين حين وآخر لمعاناً يعشى له البصر.

بينهم امرأة واحدة. شفتاها- حبتا كرز بري، خدّاها- تفاحتان، تجلس في السرج مستقيمة الظهر، رافعة الرأس، صدرها بارز لمن يريد أن يتأمله، فقد كان واضحاً، حتى تحت المعطف السميك، أن هذا الصدر يكفي لثلاث نساء. إنه، بكلمة واحدة، دم وحليب.

يعود أخيراً حصان الفارس الأحمر إلى الطريق الصلبة، فيمسك الفارس بلجام ساندوغاش. تتوقف العربة، ويرمي مرتضى عنان الفرس من يده. هو لا ينظر إلى الفرسان، يحاول إخفاء وجهه المتجهم.

- وماذا بعد؟- يسأل الفارس الأحمر بلهجة تهديد.

- إنهم هنا لا يعرفون الروسية يا رفيق إيغناتوف،- يقول مقاتل متوسط العمر في وجهه ندبه طويلة تقسمه إلى نصفين. الندبة بيضاء وملساء تماماً كحبل مشدود. هذه ضربة سيف، تقول زليخة في سرها.

- لا يعرفون الروسية إذن!...- الفارس الأحمر إيغناتوف يتأمل باهتمام الفرس، والمهر الذي اختبأ تحت بطنها، ومرتضى نفسه.

مرتضى يظل صامتاً، قبعته منكّسة فوق جبينه، وعيناه غير ظاهرتين. خيوط متعرجة من البخار السميك تخرج من خيشوميه المبيضين، فتغطي شاربيه بذرات متجمدة من الجليد.

- يبدو أنك منزعج، سيء المزاج يا صاحبي،- يقول إيغناتوف متفكّراً.

- لعل زوجته وبّخته!- يلتمع السن الذهبي في وجه الأسمر، وهو يغمز لزليخة، بعين واحدة في البداية، ثم بالاثنتين- بياض عينيه عكر كغبار الحب المطحون، وحدقتاه ككرتين صغيرتين- ويسود الضحك في الفصيل.- يا لهؤلاء التتريات!- إنهن صارمات! والإفلات من قبضتهن مستحيل! أليس كذلك يا خضراء العينين؟

خضراء العينين، كان يسميها أبوها في طفولتها. كان ذلك منذ زمن بعيد، لقد نسيت زليخة بمرور الوقت لون عينيها.

يزداد الضحك في الفصيل ويعلو. عشرة أزواج من العيون الجريئة الساخرة تلقي عليها نظرات نفّاذة، فتغطي على الفور خدّيها المتوهجين بطرف شالها.

- إنهن صارمات- لكنهن لسن جميلات،- تقول بتكاسل المرأة ذات الصدر البارز وهي تدير ظهرها.

- من أين لهنّ جمالك! - يقول الفرسان يسترضونها.

زليخة تسمع كيف يتنفس زوجها بصخب وصعوبة وراء ظهرها.

- كفّ عن ذلك!- يتابع إيغناتوف كلامه وهو ينظر إلى مرتضى نظرة تهديد- إلى أين ذهبت في هذا الصباح المبكر يا صاحبي؟ اصطحبت معك زوجتك أيضاً؟ أنا لا أرى أنك كنت تحتطب. أتراك أضعت شيئاً ما في الغابة؟ كفى! لا تخف عينيك. أنا أرى أنك تفهم كل ما أقوله.

تنفخ الخيول الهواء بصخب في الهدوء السائد، وتنبش الأرض بحوافرها. زليخة لا ترى، لكنها تحس كيف أن التجعيدة التي على جبين مرتضى تتعمق، تنغرس في جمجمته، والحفرة الصغيرة التي في ذقنه ترتعش ارتعاشات خفيفة، كما ترتعش فوّاشة سنارة علقت في طعمها سمكة.

- كانوا يبحثون عن الفطور تحت الثلج- يزيح الأسمر بحربته طرف تنورة زليخة- فيظهر تحت الأكياس رأسا الرفشين.- يبدو أنهما لم يجدا الكثير،- يقول وهو يرفع أحد الأكياس على رأس حربته ويلوح به في الهواء.

تتنامى العبارات الساخرة في الفصيل، وينهمر الضحك. بعض حبات القمح الصفراء الكبيرة تسقط من الكيس على تنورة زليخة- فيتوقف الضحك وكأنه قطع بسكين.

زليخة تخلع قفازها، وهي تنظر إلى ذيل ثوبها، وتجمع الحبات في قبضتها على عجل. الفرسان يطوفون صامتين حول العربة ويحيطون بها. ويحرك مرتضى يده ببطء نحو البلطة المثبتة على خصره.

يرمي إيغناتوف لجام حصانه إلى عسكري هرع إليه، ثم يقفز إلى الأرض. يقترب من زليخة، يمسك قبضتها بيديه ويفتحها بالقوة. عن كثب يتضح أن عينيه ليستا غامقتين أبداً، بل هما رماديتان فاتحتان كمياه النهر. عيناه جميلتان، أما أصابعه فجافة، وساخنة على غير توقع، وقوية جداً. تطاوعه قبضة زليخة وتنفتح. في كفها

حبات طويلة ملساء، تشع كالعسل في ضوء الشمس. إنها حبات من القمح منقّى ومعدّ للبذار.

- الفطور إذن...- قال إيغناتوف بصوت منخفض.- ألا يمكن أن تكون أيها الكولاك السافل، تبحث عن شيء آخر في الغابة؟

مرتضى الجالس جامداً، يستدير بحدة فجأة نحو العربة ناظراً بحقد إلى عيني إيغناتوف مباشرة. نفسه المكبوت يتكوم في حنجرته، وذقنه ترتجف بشدة. يفك إيغناتوف المحفظة التي على خصره ويخرج منها مسدساً أسود بسبطانة وحشية طويلة، يصوبه نحو مرتضى ويرفع مسمار الأمان.

- لن أعطيَ شيئاً- يقول مرتضى بصوت أجش،- لن أعطي شيئاً في هذه المرة!

يلوّح بالبلطة، فتقعقع البنادق جماعة، ويضغط إيغناتوف زناد المسدس، تدوّي الطلقة، ويتردد صداها في الغابة. تصهل ساندوغاش مذعورة. وتتساقط من فوق أشجار السرو الحدآت وتنطلق جماعة إلى قلب الغابة وهي تصرخ صراخاً عالياً. جسد مرتضى يتكوم في العربة: ساقاه تتجهان نحو الغرس، ووجهه إلى أسفل. وتهتز العربة بشدة.

دزينة من البنادق تنظر إلى زليخة: الفوهات السوداء للسبطانات تلتمع تحت أسنة الحراب. ويتصاعد من المسدس دخان أزرق. وتفوح رائحة البارود المرة.

ينظر إيغناتوف مذهولاً إلى الجثة الممددة في العربة بلا حراك. يمسح بيده التي تحمل المسدس شفته العليا، ويعيد السلاح إلى جرابه. يأخذ البلطة من يد مرتضى ويغرسها بضربة قوية في مؤخرة العربة، على بعد إصبع من رأس الضحية، ثم يمتطي سرج حصانه ويلكزه، فينطلق بكل قوة في الطريق إلى أمام وغبار الثلج يتطاير من تحت قوائمه.

- أيها الرفيق إيغناتوف!- يناديه المقاتل ذو الندبة.- ماذا نفعل بالمرأة؟

إيغناتوف يكتفي بالتلويح بيده: اتركوها!

- ها هي ذي الفطور التي كنت تبحثين عنها يا خضراء العينين،-يحرك الأسمر أخيراً شفته العليا.

الفرسان يسرعون وراء قائدهم. الفصيل يحيط بالعربة كأنه الأمواج حول جزيرة. معاطف سميكة بقبات عالية، قبعات فراء مشعثة، معاطف عسكرية رمادية، وشارات وأشرطة حمراء تنساب بالقرب منها وتمضي مسرعة في إثر قائدها الذي يعتمر الـ (بوديونوفكا). يهدأ صوت حوافر الخيل سريعاً. وتبقى زليخة وحيدة في قلب صمت الغابة.

إنها تجلس بلا حراك، عاقدة يديها حول ركبتيها، وقابضة في كفها على حبات القمح. أمامها يتمدد جسد مرتضى الضخم، وقد بسط ذراعيه على امتدادهما، وكذلك ساقيه، وأسند رأسه على جنبه بشكل مريح، ناشراً لحيته الطويلة على ألواح أرضية العربة. إنه يشغل المكان كله وكأنه ينام على ديوانة، ولا يترك لزليخة مكاناً تتمدد فيه إلى جانبه.

الريح تعبث بذؤابات الأشجار. وفي مكان ما في الغابة يرسل الصنوبر البري صريراً. بعد ساعتين سيجوع المهر فيجد بشفتيه ضرع أمه ويرضع حليبها، بينما تميل ساندوغاش رأسها في استسلام.

الشمس تتحرك ببطء في قبة السماء، ثم تغرق على مهل في الغيوم الثلجية الكبيرة الزاحفة من الشرق. المساء يحل، والسماء تقذف الأرض بندف الثلج.

تقوم ساندوغاش بخطوة مترددة إلى الأمام دون أن تنتظر صرخة صاحبها المعتادة، أو فرقعة السوط في الهواء، ثم تقوم بخطوة ثانية، فثالثة. فتتحرك العربة من مكانها محدثة صريراً عالياً. تمشي الفرس في الطريق إلى يولباش، إلى جانبها يتقافز مهرها شبعان مرحاً. مقعد الحوذي خالٍ، والعنان متروك على

العارضة الأمامية. زليخة تجلس في العربة مديرة ظهرها للفرس، تنظر بعينين لا تريان شيئاً، إلى الغابة التي تتركها خلفها.

في الطريق التي ظلت العربة فيها اليوم بطوله، تلوح بقعة صغيرة بحجم رغيف خبز لونه أحمر كثيف، يتساقط الثلج فوقها فيغمرها بسرعة.

فيما بعد ستعجز زليخة مهما بذلت من جهد، عن أن تتذكر كيف وصلت إلى البيت، وكيف تركت الفرس مسرجة إلى العربة في الفناء، وكيف حملت مرتضى من تحت إبطيه، وجرّته إلى الداخل، وكم كان جسد زوجها ثقيلاً وضخماً وجامداً، وكم كان عالياً صوت ارتطام كعبيه بدرجات المدخل.

تنفش له الوسادات (لتصبح عالية كما يحبها)، ثم تنزع عنه ملابسه، وترقده على الديوانة، وترقد إلى جانبه. يظلّان راقدين هكذا فترة طويلة، طول الليل. الحطب الذي وضعه مرتضى في الموقد صباحاً ترمد منذ زمن، وطقطقت ألواح الجدران الخشبية التي بردت، وتشقق ثم تشظى الشبّاك الذي تحطم البارحة، مرسلاً رنيناً زجاجياً، وهبت في المربع العاري ريح شرسة ممزوجة بذرات الثلج الصلبة. أما هما، فرقدا كتفاً إلى كتف، ينظران بعيون مفتوحة على اتساعها إلى السقف- الذي كان في البداية معتماً، ثم غارقاً بضوء القمر الكثيف، ثم عاد مظلماً من جديد. لقد كان ذلك مدهشاً تماماً. وسيظل شعور الدهشة الذي لا حدود له الشعور الوحيد الباقي في ذاكرة زليخة عن تلك الليلة.

حين احمرت حافة السماء احمراراً مقلقاً منذراً بفجر صقيعي، علا طرق على الباب. طرق كان عالياً، غاضباً، ملحاحاً. هكذا يطرق صاحب الدار الباب بغضب حين يكون متعباً، عائداً إلى بيته فيجد أن أحدهم أغلق الباب من الداخل.

زليخة تسمع الضجة- بعيدةً، غير واضحة، وكأنها تصلها من خلال كيس من الريش، لكنها لا تجد في نفسها القوة كي تتوقف عن النظر إلى السقف. لينهض

مرتضى ويفتح الباب. فليس من عمل النساء فتح الأبواب في الليل.

يتحطم مزلاج البوابة مفسحاً الطريق للضيوف غير المدعوين. يمتلئ الفناء بالأصوات وصهيل الخيل. عدة قامات طويلة تسرح في الفناء الذي ما يزال معتماً. يصطفق الباب في المدخل، ثم باب البيت.

- ما أشد هذا البرد! هل مات الجميع هنا؟

- أشعلوا الموقد! وإلا تجمدنا وذهبت أرواحنا إلى الشيطان.

حذوات الجزمات تطقطق فوق ألواح الأرضية المتجمدة، والباب يرسل صريراً حاداً عالياً. ويتناهى إلى السمع صوت انفتاح باب الموقد، وتفوح رائحة الكبريت الحادة ويسمع صوت اشتعال الثقاب. وهسسهسة النار المشتعلة فيه.

- أين أصحاب البيت؟

- سنجدهم، لا تقلق. تفقد المكان أولاً.

يرتعش فتيل المصباح وهو يشتعل،- وتتراقص على الجدران خيالات سوداء معوجة،- ثم ينداح ضوء ناعم دافئ يملأ الغرفة. وينحني فوق زليخة وجه مفلطح الأنف تشوهه حفر خلفتها حبوب الجدري.

رئيس المجلس البلدي- منصوركا- الفجلة، يمسك بمصباح الكيروسين، مقرباً إياه كثيراً إلى وجهه، وهذا ما جعل الحفر التي خلفها الجدري تبدو عميقة وكأنها حفرت بملعقة. إنه يلقي نظرة على زليخة، ثم ينقل نظره إلى وجه مرتضى الغائر، ويتأمل متسائلاً حائراً البقعة السوداء المتخثرة على صدره، وهو يطلق صفيراً حادّاً.

- لقد جئنا يا زليخة للقاء زوجك...

تتجمع قرب منصوركا غمامة صقيعية جعداء. هو يتكلم اللغة الروسية بلكنة شديدة، لكنه يتكلمها بطلاقة وانسجام. يتكلمها أفضل من زليخة، فقد تحسنت

معرفته بها من خلال محادثته مع عناصر الفصائل الحمر.

- انهضي، لنا حديث معك.

زليخة لا تعرف أهي في حلم أم يقظة. لماذا يتسبب الضوء بحرقة في عينيها- إذا كان ما تراه حلماً؟ ولماذا تأتيها الروائح والأصوات من بعيد، وكأنها تأتي من تحت الأرض- إذا كان ما تراه يقظة؟

- زليخة!- يهز رئيس المجلس كتفها، هزاً خفيفاً في البداية، ثم بقوة أكبر- انهضي يا امرأة!-يصرخ أخيراً باللغة التترية بصوت مرتفع غاضب.

جسدها يستجيب للكلمات المألوفة، كما يستجيب الفرس لفرقعة السوط. تدلّي زليخة ساقيها إلى الأرض وتظل جالسة على الديوانة.

- هذا جيد،- يقول منصوركا في رضىً وقد عاد إلى التكلم بالروسية.- نحن جاهزون أيها الرفيق المفوض!

في وسط الغرفة يقف إيغناتوف داساً يديه تحت حزام خصره، مباعداً بين ساقيه. يخرج من غلاف جلدي صلب ورقة مدعوكة وقلم رصاص يتلفت متوتراً:

- ما هذا؟!- ما هذا البيت الذي ليس فيه طاولة أو رفٌّ أستند إليه في كتابة المحضر؟

يدق رئيس المجلس سريعاً براحته على غطاء الصندوق العلوي قرب النافذة:

- هنا، تستطيع أن تستند إلى غطاء هذا الصندوق.

يجلس إيغناتوف إلى الصندوق بصعوبة، فتنضغط الطراحة تحت جسمه الضخم وتزداد التصاقاً بالأرض. يدفئ بأنفاسه يديه. ويبلل رأس القلم الرصاص بلعابه ويخربش به على الورقة.

- ما زالوا لا يعيشون حياة اشتراكية- يتمتم منصوركا بلهجة اعتذار، وهو يثبت الصناديق التي تتزحلق في اتجاهات مختلفة.- إنهم وثنيون- فلا تنتظر منهم الكثير.

فجأة علت في القسم النسوي من البيت قرقعة جرار، ورنين أوان نحاسية، ويوقوق الدجاج في صخب. أحدهم يشتم الشيطان بصوت مديد مرتفع، وهو يتعثر بثنيات الستارة،- ويقفز من ورائها المقاتل الأسمر تحيط به غيمة من زغب الطيور وريشها، وتحت كل إبط من إبطيه دجاجة تزعق مذعورة.

- يا لها من مصادفة يا خضراء العينين!- يصيح مبتهجاً حين يرى زليخة.- اسمحوا لي - من فضلكم!- يقول وهو يقوم، من دون أن يفلت الدجاجتين المذعورتين من تحت إبطيه، وبحركة سريعة متقنة كحركات المشعوذين، يسحب من تحت إيغناتوف الطراحة المطرزة.- أما الصناديق فسآتي لأخذها فيما بعد...- لكنه يهدأ أخيراً وهو يواجه نظرة إيغناتوف الغاضبة، ويتراجع نحو الباب ثم يختفي تاركاً خلفه غيمة عالية من الريش.

ينتهي إيغناتوف من الكتابة ويرمي القلم فوق المحضر المكتوب فيحدث صوتاً:

- دعها توقع على المحضر.

الورقة على الصندوق تبدو بيضاء كمنشفة طويلة.

- ما هذه؟- زليخة تنقل بصرها ببطء إلى رئيس المجلس.- ما الحاجة إلى هذا يا منصوركا؟

- كم مرة طلبت منك أن تناديني: أيها الرفيق رئيس المجلس! هل هذا مفهوم؟- يشمخ منصوركا بذقنه التي تلوح من خلال لحيته الشقراء الخفيفة الشعر، في حركة تنم على التهديد.- يعلمهم المرء الحياة الجديدة... دون جدوى... سنهجّركم من هنا...- ينظر مستاء إلى الديوانة التي يتمدد عليها جسد مرتضى

الضخم.- سنهجّرك أنت، كعنصر كولاكي2 من الدرجة الأولى، وناشط معاد للثورة. هذا ما أقره الاجتماع الحزبي.- يشير منصوركا بإصبعه القصير إلى الورقة التي على الصندوق.- أما المنزل فسنأخذه لنجعله مقراً للمجلس البلدي.

- لا تضيّعني بالكلمات الجديدة يا رفيق منصوركا،- قل لي بكلام مفهوم ماذا حدث؟

- قولي لي أنت: لماذا تظل أملاك مرتضاك غير جماعية حتى اليوم؟ هل أنتم ضد السلطة؟ تدعون للملكية الفردية؟ لقد جفّ لساني وأنا أدعوكم إلى الجماعية. لماذا لم تلحقوا البقرة بالكولخوز؟

- ليس لدينا بقرة.

- والفرس؟!- منصوركا يشير برأسه إلى خارج النافذة حيث ما تزال ساندوغاش تقف مسرجة وبين قوائمها يتكور مهرها. حصانان.

- إنهما ملكنا.

- ملكنا...- يقلّدها ساخراً.- والجاروشة؟

- كيف يمكن تدبّر أمور البيت من دونها؟ تذكّر كم مرة استعرتها أنت من عندنا.

- هذه هي المسألة- يضيق عينيه الضيقتين أساساً.- تأجير أدوات العمل. إن ذلك دليل أكيد على أنكم كولاك رجعيون، متجذرون لا يمكن إصلاحكم!- يقول ذلك وهو يمسك يدها الصغيرة في قبضته الغاضبة البارزة العضلات.

- اسمحوا لي.- من فضلكم،- يقول الأسمر العائد، وهو يسحب من تحت رأس مرتضى كومة الوسائد والأغطية المطرزة (يسقط الرأس على الديوانة مصدراً صوتاً)، ثم ينزع الستائر عن النوافذ، والمناشف والسجاجيد الصغيرة عن الجدران، ويحمل من البيت على ذراعيه الممدودتين هذه الكومة الكبيرة من الملابس

والأغطية والستائر والوسائد. مشى تحجب الكومة عنه الرؤية، وحين وصل إلى البوابة فتحها برفسة من رجله، فأرسلت أنيناً حزيناً.

- حاذر- أنت لست في بيتك!- يصرخ منصوركا في إثره. يمسّد برقة أعمدة الجدران المحدّبة المزينة بأشكال حفرت عليها. يتلمس حفرة عميقة خلفتها ضربة البلطة ويطقطق بلسانه، ثم يقول بلهجة يشوبها الحزن:-مدي يدك يا زليخة، لا تضيعي الوقت،- يتنهد بودّ وحنان، من دون أن يحيد ببصره عن ألواح الأرضية الثخينة المصقولة المغطاة بسجادة وثيرة ذات وبر.

يطل رأس الأسمر من جديد وعيناه مهتاجتان لامعتان:

- أيها الرفيق إيغناتوف، كل ما بقي من البقرة... اللحم فقط، هل نأخذه؟

- سجّله قبل أن تأخذه،- يقول إيغناتوف وهو ينهض عن الصندوق.- هل سنبقى هنا طويلاً... نمارس التثقيف السياسي؟

- هيا يا زليخة،- يقول منصوركا لائماً، وهو يقطب حاجبيه النادري الشعر فوق أرنبة أنفه.- الرفاق جاؤوا لأجلك من قازان نفسها. وأنت تماطلين.

- لن أوقّع.- تقولها مطرقة الرأس.- لن أذهب إلى أي مكان.

يقترب إيغناتوف من النافذة، ينقر الزجاج بأطراف أصابعه، ويشير برأسه إلى أحدهم في الخارج. الأرض تئن طويلاً بصوت رفيع تحت جزمته. إنه يقف فوق المرتديلا ولا يعرف ذلك، تقول زليخة في سرها.

يندفع المقاتل ذو الندبة سريعاً إلى داخل البيت، وقد اصطبغ وجهه بحمرة داكنة بسبب وقوفه الطويل في الصقيع، أما الندبة فصارت بيضاء تماماً.

- التجمع -بعد خمس دقائق،- قال إيغناتوف وهو يشير بذقنه إلى زليخة.

يلقي الأسمر الذي لا يهدأ نظرة أخيرة على البيت العاري الذي يبدو مهجوراً، بحثاً عن غنيمة غفل عنها، ثم يغرس أخيراً نصل حربته في سجادة جدارية معلقة فوق المدخل- يحاول أن يقتلع الحروف العربية المطرّزة عليها بالتول، فتنشد وتتجمع حول النصل الفولاذي.

- هذه عندهم في محل الأيقونة- يقول المقاتل ذو الندبة بهدوء مشيحاً بوجهه.

- هل تنوي الصلاة؟- يقول إيغناتوف وهو يلقي نظرة نفّاذة على الأسمر، وترتعش حواف أنفه قرفاً، ثم يغادر.

- هو ذا! أما أنت فزعمت أنهم وثنيون...- يقول الأسمر وهو ينشق بأنفه ثم يلحق بالقائد مسرعاً.

السجادة الممزقة تبقى معلقة في مكانها. ذات يوم شرح حضرة الملا معنى المكتوب عليها لزليخة: «لا تموت نفس إلا بإذن اللـه، فالموت قدر من اللـه، والأجل محتوم».

- سترّحلين- ما دمت لا توقّعين،- يقول منصوركا لزليخة.

ثم يشير بحركة ذات مغزى إلى قامة المقاتل الطويلة وهو يتمشى في البيت يتفحصه ويدس بالحربة الرفوف العالية الخالية تحت السقف.

تركع زليخة على ركبتيها فوق الديوانة وتضع جبينها على يد مرتضى الباردة المتصلبة. يا زوجي الذي وهبني إياه اللـه كي يوجهني، ويطعمني، ويحميني، ماذا أفعل الان؟

- أما مرتضى فسندفنه بالشكل اللائق على الطريقة السوفييتية،- يقول رئيس المجلس محاولاً تهدئتها، وهو يتلمس بودّ جوانب الموقد المحبحبة المطروشة بعناية.- لقد كان ربّ بيت جيد، رغم كل شيء...

الحربة الفولاذية تلامس زليخة. زليخة تقاوم بيديها ورجليها كطفل مشاكس يحمله رجل، وتلتمع سراويلها من تحت تنورتها- لكن المقاتل يمسك بها بقوة تؤلمها.

- لا تلمسني!- تصرخ زليخة من تحت السقف.- هذا حرام!

- هل ستذهبين من تلقاء نفسك؟ أم أتركهم يحملونك؟- يسأل من مكان ما في الأسفل صوت منصوركا الودود.

- سأذهب بنفسي.

ينزلها المقاتل بهدوء، فتستقر قدماها على الأرض.

- اللـه سينتقم منك،- تقذف عباراتها بوجه منصوركا.- إنه سينتقم منكم جميعاً.

وتشرع في جمع أشيائها.

- ارتدي ملابس سميكة،- ينصحها منصوركا، وهو يلقم الموقد قطعاً من الحطب، ويحرّك النار في الموقد وكأنه صاحب البيت- وحاذري أن تصابي بالبرد.

تجمع زليخة بسرعة متاعها في صرة، وتلف رأسها بشال وترتدي المعطف السميك. ثم تأخذ عن حافة الموقد بقايا رغيف الخبز الملفوف بقطعة من القماش وتضعها في جيب، وتأخذ عن حافة النافذة السكر المسموم ثم تضعه في الجيب الآخر. وتبقى نثرة صغيرة من لحم البقر- سيتلذذ بأكلها في الليل فأر صغير.

صارت جاهزة للانطلاق.

تتوقف عند الباب وتلقي نظرة على البيت المنهوب. الجدران عارية، والنوافذ غير مغلقة، وعلى الأرض المتسخة- زوج من البسط المهترئة. مرتضى يرقد على

الديوانة وقد شمخت ذقنه الحادة نحو السقف. عيناه لا تنظران إلى زليخة. سامحني يا زوجي. أنا لا أتركك بإرادتي.

يرتفع صوت تمزيق قماش- منصوركا ينزع الستارة التي تفصل القسم النسائي عن القسم الرجالي في البيت، وينفض الغبار عن يديه في رضا.

جرار مكسورة، وصناديق منبوشة، وبقايا توافه مطبخية، كل ذلك ينكشف بوقاحة لنظر أي قادم. يا للعار!

يصطبغ وجه زليخة بالحمرة خجلاً، فتغض بصرها، وتمضي نحو المدخل قفزاً.

في السماء يتوهج الفجر.

في وسط الفناء كومة من الأشياء: صناديق، وسلال، وأوان، وأدوات... ويجر الأسمر وهو يلهث سرير الأطفال الثقيل من العنبر.

- أيها الرفيق إيغناتوف! انظر- هل نأخذه؟

- غبي.

- أنا فكرت أن نسجله...- يقول الأسمر مستاء، ثم يقرر أن يضع السرير فوق الكومة.- لقد حصلنا على الكثير من الخيرات- فلا تحزني يا أماه!

- المهم الآن أن هذا كله ملك للكولخوز،- يقول منصوركا وهو يتفحص محتوى سلة سقطت من الكومة ثم يعيدها بعناية إلى مكانها.

- نعم، إنه ملكنا، ملك الشعب،- يبتسم الأسمر ابتسامة عريضة، ويتسلل بشكل غير ملحوظ فيدس في جيبه قطعة من القماش صغيرة مطرزة.

تنزل زليخة درجات المدخل، وتجلس، كعادتها، مديرة ظهرها إلى الفرس، فتهتز ساندوغاش، التي قضت الليل واقفة في مكانها، رأسها.

- زليخا-آ-آ-ينادي من المنزل فجأة صوت منخفض أجش.

يلتفت الجميع نحو الباب.

- الميت عاش!- يهمس الأسمر بصوت مسموع في الهدوء السائد، ويرسم سرّاً شارة صليب صغيرة على صدره وهو يتراجع نحو العنبر.

- زليخا-آ-آ-!- يعلو الصوت من جديد.

يشهر إيغناتوف المسدس، ينفصل سرير الأطفال عن الكومة ويسقط على الأرض محدثاً صوتاً، ومتناثراً عدة قطع. ينفتح باب المنزل مرسلاً صريراً مديداً فتظهر في فتحته- أوبيريخا، قميص نومها ينفخه الهواء، وشفتاها ترتجفان غضباً، وعيناها الزجاجيتان، البيضاوان، المستديرتان تحملقان في الضيوف، في إحدى يديها عكاز، وفي الأخرى- مبولة ليلية.

- إلى أين يأخذك الشيطان أيتها الدجاجة المبلولة؟!

- يا لها من مفاجأة،- يقول الأسمر وهو يلتقط أنفاسه.- لقد كاد رأسي يشيب خوفاً.

- انظر- هذه الغولة العجوز ما تزال حية،- يقول منصوركا وهو يمسح براحته العرق عن جبينه.

- ومن هذه؟- يسأل إيغناتوف وهو يعيد المسدس إلى جرابه.

- إنها أمه،- يتأمل منصوركا العجوز وهو يصفّر بإعجاب.- عمرها لا يقل عن مئة عام.

- لماذا لا أجد اسمها في القوائم؟

- ومن كان يدري أنها ما تزال...

- زليخا-آ-آ! ستنالين عقابك- مرتضى سيؤدبك!- ذقن أوبيريخا ترتجف بغضب، وهي تدق الأرض بعكازها، ثم تقذف بحركة عريضة من يدها محتويات المبولة،

فتلتمع الأجراس الصغيرة الزرقاء التي تزين ذلك الإناء الفخاري الحليبي اللون، ويندفع السائل العكر بصقة كبيرة سالت على معطف إيغناتوف مشكّلة بقعة كبيرة.

يهيئ مقاتل بندقيته، لكن إيغناتوف يشير إليه بيده: اتركها! يفتح منصوركا البوابة على عجل، فيمتطي إيغناتوف سرج حصانه ويغادر الفناء.

- هل نأخذها معنا؟- يصرخ المقاتل في إثره.

- لا ينقصنا إلّا حمل الأموات الأحياء معنا!- يتناهى إلى الأسماع صوت من خارج الدار.

- ما بالك تجلسين بلا عمل؟- يقول مقاتل وهو يمتطي فرسه، وينظر إلى زليخة بنفاد صبر.- هيا بنا!

تنظر زليخة في حيرة وهي تجلس في مقعد قيادة العربة، ثم تأخذ عنان الفرس الثقيل بيدها، وتلتفت نحو حماتها.

- مرتضاي سيسلخ جلدك! تقول أوبيريخا الواقفة في المدخل، والريح تطيّر ضفائرها الشيباء الرفيعة كالحبال.- زليخا-آ-آ-آ!

تتحرك ساندوغاش من مكانها، يتبعها المهر، وتغادر زليخة الفناء.

الأسمر هو آخر من يغادر. يرفع رأسه فيرى على دفتيّ البوابة رسوم جمجمة صفراء يغطيها الجليد: أسنان حصان نادرة طويلة، ومحجري عيني ثور أسودين يحملقان بعناد، وكبشاً قرناه يلتويان كموجتين.

- لا، إنهم وثنيون حقاً،- يقرر، ثم ينطلق مسرعاً ليلحق بالآخرين.

يضحك منصوركا - الفجلة- ساخراً، يغلق البوابة من الخارج يربّت برقة بكفه على دفتي البوابة المتينتين المتقنتي الصنع (لا، يجب وضع مزاليج أمتن من

هذه!) ويسرع عائداً إلى بيته- إنه بحاجة إلى النوم. ليس سهلاً أن تطوف على ستة عشر داراً في ليلة واحدة. هو لا يعرف بعد أن كميناً ينتظره قرب بيته- سيضغطونه إلى السور، ويزفرون في وجهه أنفاسهم الحارة ويختفون، أما هو فيبقى كتلة بلا حراك، معلقاً على خشب السور، مثبتاً بمنجلين معقوفين، ناظراً بعينين زجاجيتين مندهشتين إلى سماء الصباح...

تندمج عربة زليخة في قافلة طويلة من عربات الكولاك الذين تمت مصادرة أملاكهم. سيل من العربات يجري في شارع قرية يولباش والمنطقة المحيطة بها، وفرسان يحملون بنادق يحيطون بجانبيه. وبين هؤلاء المرأة ذات الصدر البارز التي رأتها زليخة صباحاً في الغابة.

- ما هذا يا رفيق إيغناتوف؟ تصيح المرأة بصوت مستفزّ، وهي تنظر إلى زليخة، يبدو أن انتزاع إقطاعات النساء أسهل من انتزاع إقطاعات الرجال؟

إيغناتوف يعدو إلى أمام من دون أن يلتفت إليها.

بوابة بيتها تبتعد، وتصغر وتذوب في ظلمة الطريق. أما زليخة فتدير عنقها إلى الوراء، تنظر وتنظر إلى البوابة غير قادرة على أن تحيد ببصرها عنها.

- زليخا-آ-آ-آ!- يناديها صوت من مكان ما.

من نوافذ البيوت على جانبي الطريق تطل وجوه الجيران الشاحبة، تنظر بعيون اتسعت دهشة.

ها هي ذي الضاحية.

لقد غادروا يولباش.

- زليخا-آ-آ-آ! يتناهى إلى سمعها صوت يكاد لا يسمع. قافلة العربات تصعد فوق التلة. وتغرق في الظلمة بيوت يولباش.

- زليخا-آ-آ-آ!- تعوي الريح في أذنيها- زليحا-آ-آ-آ!

تدير رأسها إلى الأمام، من ذروة التلة يبدو لها الحقل المنبسط في الأسفل بساطاً أبيض عملاقاً نثرت فوقه يد الخالق خرزاً من الأشجار وأشرطة من الطرقات. وتمتد قافلة الكولاك الذين انتزعت إقطاعاتهم شريطاً حريرياً إلى ما وراء الأفق الذي أشرقت فيه شمس حمراء منتصرة.

الجزء الثاني

إلى أين؟

في الطريق امرأة جميلة

إيغناتوف يسير على رأس القافلة. يتوقف أحياناً ويترك الفصيل يتقدمه، يتفحص كل فرد فيه بنظرة نفاذة- الكولاك العابسين الجالسين في العربات، وفرسانه الذين احمرّت وجوههم من شدة الصقيع. ثم يعود فيسبقهم من جديد- إنه يحب أن يكون في المقدمة، وألاّ يكون أمامه غير الريح في فضاء شاسع يناديه.

هو يحرص على عدم النظر إلى المرأة كي لا يفكّر بأمور لا تخطر في باله.

لكن كيف يمكنه ألاّ ينظر إليها إذا كانت تقاطيعها تجعل العيون تقفز نحوها من تلقاء نفسها؟ إنه يجلس على ظهر حصانه وكأنه يجلس على عرش، يتمايل في السرج عند كل خطوة، يحني جذعه بشدة، ثم يدفع صدره المتدثر بمعطف أبيض، إلى الأمام، وكأنه يهز رأسه ويقول: نعم، الرفيق إيغناتوف، نعم، فانيا، نعم...

يقف وهو على ظهر حصانه، داساً قدميه في مهمازيه، متأملاً القافلة المنسابة بجانبه من تحت كفه التي يبدو وكأنه يحمي بها عينيه من ضوء الشمس، في حين أنه في الحقيقة، كان يخفي بها نظراته العالقة، رغماً عنه، بنستاسيا. هكذا كان اسمها.

تمرّ العربات به منسابة وعجلاتها ترسل صريراً عالياً فوق الثلج. الخيول تصهل متأففة بين حين وآخر، فتتشكل حول سحنها المتقلصة برداً غمامات بخار لها أشكال زهور عجيبة.

رجل مهتاج بلحية سوداء مدببة يقود حصان عربته بعصبية وغضب. في العربة خلف ظهره زوجته المختمرة بمنديل شفاف لا يكشف غير عينيها، وبين يديها

لفافة، وسرب منوع من الأولاد. «سأقتلكم!»- صرخ الرجل حين قدموا إلى بيته، وراح يهاجم إيغناتوف بشوكة حديدية. وجّه العناصر بنادقهم نحو زوجته وأولاده- فأعاد النظر في سلوكه وهدأ. لا، أنت لا تستطع أن تهزم إيغناتوف بشوكة...

الملا المتقدم في السن يمسك بعنان الفرس بطريقة تنم على عدم الخبرة، لقد كان ظاهراً أنه لم يحمل بيديه طول حياته ما هو أثقل من الكتاب. لفافات الوبر المرنة على معطفه المخيط من جلد الحملان، تلتمع في ضوء الشمس. هو لا يمكن أن يحتفظ بهذا المعطف حتى الوصول إلى المكان المقصود، يقول إيغناتوف في سره بلا مبالاة: سينتزعونه منه إما في نقطة التجمع، وإما في مكان ما على الطريق. هو لم يكن بحاجة إلى هذا التأنق، فنحن لسنا ذاهبين إلى عرس... زوجة الملا تجلس كومة ثقيلة، حزينة في الخلف، وفي يديها قفص جميل ملفوف ببطانية صغيرة: إنها تأخذ معها قطتها المحبوبة. يا لها من غبية!

النظر إلى العربة التالية أربك إيغناتوف. طيّب: هو قتل الرجل، وترك المرأة بلا زوج. حدث هذا معه أكثر من مرة. الزوج نفسه هو المذنب- هجم عليه بالبلطة كالمجنون. لقد كانوا في البداية يريدون فقط أن يسألوه عن الطريق... غير أن شعوراً آخر مناقضاً، ظل يلازم إيغناتوف ويؤلمه. أهو الإشفاق؟ إن هذه المرأة ضئيلة الحجم جداً، نحيلة، وجهها شاحب رقيق كأنه من ورق. من الواضح أنها لن تحتمل مشقة الطريق. لعلها كانت ستظل حية لو بقي زوجها معها، أما الآن... فالظاهر أن إيغناتوف لم يقتل زوجها فقط، بل قتلها هي نفسها أيضاً.

أنت بدأت تشفق على الكولاك. بدأت تنهار.

المرأة الضئيلة الحجم تمر بقربه، ترفع بصرها. آه، أماه، ما أجمل خضرة عينيها! الحصان يضرب الأرض بحوافره، يتراقص في مكانه، يلتفت إيغناتوف وهو على سرج حصانه كي يرى المشهد بشكل أفضل. غير أن العربة تجاوزته، وفي مؤخرتها بقعة سوداء- إنها الحفرة التي خلفها إيغناتوف حين ضربها البارحة بالبلطة.

كان وهو ينظر إلى هذا الأثر يشعر بمؤخرة رأسه باقتراب الفرس الحمراء التي ينحني ويلامس رقبتها بين الفينة والأخرى صدر وثير يندفع. محاولاً التخلص من قماش الثوب. إنها نستاسيا، التي كل حركة من حركاتها تدوي في السهل كله: نعم، يا فانيا، نعم، نعم...

لقد لفتت هذه النستاسيا نظره مذ كان في مركز التطوع.

كان المتطوعون الجدد يجتمعون عادة في الفناء، تحت نوافذ البناء مباشرة: يقضون يومين يستمعون فيهما إلى خطابات حماسية ويتدربون على استخدام البنادق، وفي اليوم الثالث يعضون بأسنانهم على أمر المهمة وينطلقون إلى الأمام، إلى الالتحاق بأجهزة المهمات الخاصة، لتلقي الأوامر. وفي صباح اليوم التالي تتجمع في الفناء مجموعة جديدة. لقد كان متطوعون كثيرون يأتون راغبين في المشاركة في القضية المحقّة. وكانت بين المتطوعين نساء، غير أنهن في أغلب الحالات كن يتطوعن للعمل في أجهزة الشرطة. وهذا صحيح، فالعمل في أجهزة المهمات الخاصة- عمل رجالي، خطير.

لنأخذ نستاسيا مثالاً: حين جاءت اختل العمل في الفناء كله. عيون المتطوعين الجدد اتجهت ناظرة إليها، ورقابهم استدارت نحوها وصاروا كالصيصان المرضى يستمعون للمدرب نصف استماع. والمدرب نفسه اضطرب، وتعرّق جسده كله وهو يشرح لها بنية البندقية (كان إيغناتوف يرى المشهد جيداً من مكانه في المكتب). أنهوا تدريب المجموعة كيفما اتفق، وأرسلوا للالتحاق بالعمل، ثم تنهدوا بارتياح. وبقيت ذكرياتهم عن المرأة الجميلة رعشة باردة حلوة في دواخلهم.

لم يذهب إيغناتوف في تلك الليلة إلى إيلونا، إنها فتاة لا عيب فيها- هي ليست فتية جداً (عركتها الحياة فعلمتها التواضع)، وهي ليست كبيرة السن جداً (ما زال منظرها يمتع البصر)، وجسدها ممتلئ (هناك ما يمكن الإمساك به)،

وغرفتها في الشقة الجماعية واسعة، تسعة عشر متراً. الحياة في هذه الحال مقبولة. لقد قالت له: عش معي يا إيفان! وها هو ذا جوابه: لا أريد!

حين عاد إلى سريره غير المريح في السكن الجماعي، راح يستمع إلى شخير جيرانه في الغرفة ويفكر بأمور حياته: أليس نذالة أن يفكّر بامرأة جديدة في حين أن السابقة ما زالت تأمل وتنتظره، أتراها الآن تنفش الوسائد استعداداً لاستقباله؟ لا، ليس في الأمر نذالة، قال لنفسه. المشاعر أعطيت للإنسان كي يشتعل. لكن ما الذي يُبقي المرء، إذا انعدمت المشاعر وخمدت، إلى جانب الفحم المنطفئ؟

إيغناتوف لم يكن في يوم من الأيام زير نساء. كان رجلاً مكتمل البنيان لافتاً للنظر، صاحب أفكار- النساء كنّ يلاحقنه بنظراتهن ويسعين إلى الفوز بإعجابه. أما هو فلم يكن يسارع إلى الالتقاء بأي منهن، ولم تكن روحه تتلهف لذلك أيضاً. مجموع ما عرفه منهن طوال حياته يعدّ على أصابع اليد الواحدة. كان ذلك يبدو له دائماً أمراً غير مهم. تطوّع في الثامنة عشرة من عمره في الجيش الأحمر وسرحت الأمور تلقائياً: في البداية خاض الحرب الأهلية، بعد ذلك قاتل المتطرفين في آسيا الوسطى... وكان من الممكن أن يبقى هناك حتى الآن، في محلّ ما في الجبال، لولا باكييف الذي صار في ذلك الوقت رجلاً مهماً في قازان، متحولاً من ميشكا الأحمر المضجر إلى تختاميش مورادوفيتش المحترم ذي الرأس الحليقة، والنظارة الذهبية المعلقة بجيب على صدره. إنه هو الذي أعاد إيغناتوف إلى موطنه تتاريا. قال له: عد يا فانيا، أنا بحاجة ماسة إلى أنصار لي. من دونك- لا يستقيم الأمر. لقد عرف المحتال كيف يقنعه، وهو انخدع واقتنع وانطلق على الفور إلى الوطن لنجدة صديقه.

وهكذا بدأ عمله في إدارة المهمات الخاصة في قازان، وهو عمل لا يمتاز بالتشويق (إنه كباقي الأعمال، أوراق شتى، اجتماعات، وكذا. ومذا)، لكن الندم لا

ينفع الآن... تعرّف سريعاً على ضاربة آلة كاتبة في مكتب في (بولشايا برولومنايا). كان لها كتفان ممتلئان واسم يوحي بالحزن- إيلونا. الآن فقط، وبعد أن بلغ الثلاثين، عرف إيغناتوف بهجة معايشة شخص واحد فترة طويلة- ظل يصادق إيلونا أربعة أشهر كاملة. لا يمكن القول إنه كان عاشقاً، لا. كان يستمتع بلقائها، يجده لطيفاً- هذا صحيح. أما القول إنه يحبها...

إيغناتوف لم يفهم كيف يمكن أن يحب امرأة. المرء يمكن أن يحب أشياء عظيمة: الثورة، الحزب، وطنه. لكن كيف يحب امرأة؟! بل كيف عموماً يمكن أن نعبر بالكلمة نفسها عن موقفنا من أشياء متباينة كل التباين كأن نضع في إحدى كفتي الميزان امرأة. ونضع الثورة في كفته الأخرى؟ إن ذلك غباء شديد. حتى نستاسيا- هي جذابة، رنانة، لكنها امرأة على كل حال. يمكن أن يقضي معها ليلة، اثنتين، نصف عام كحد أقصى، يرضي ذكورته- وهذا كل شيء. إن هذا ليس حباً. إنه شعور، نار من العواطف؛ تشتعل، تشعر بالمتعة، تنطفئ- تنفخ الرماد وتتابع حياتك. إيغناتوف لم يكن يستخدم كلمة حب في كلامه كي لا يدنسها.

فجأة استدعاه باكييف في الصباح. قال له: ها قد حان الوقت الذي كنت تنتظره، ستقوم بمهمة حقيقية. ستذهب إلى القرية لتحارب أعداء الثورة، فما زال هناك عدد غير قليل منهم. فخفق قلب إيغناتوف بهجة عند سماع ذلك: إنه سيمتطي الجواد مرة أخرى، وسيخوض المعارك من جديد! وضعوا تحت إمرته بعضاً من عناصر الجيش الأحمر المسرحين. ومن بينهم هي بمعطفها القصير الأبيض وجوادها الأحمر، هي الحبيبة... إنها إرادة القدر تجمعهما، لا شيء غير ذلك.

عشية الرحيل زار إيلونا، ودّعها بجفاف. أحست ببرودة وداعه في عينيه فانخرطت بالبكاء فوراً: «أنت لا تحبني يا إيفان، أليس كذلك؟» غضب، وصرّ على أسنانه قائلاً: «المامات، يحببن أطفالهن!»- وغادرها مسرعاً. أما هي فصاحت في

إثره: «سأنتظرك يا إيفان، اسمعني! سأنتظرك!» ثم أحيت ما يمكن أن نسميه بإيجاز «مسرحية باكية».

الأمر يختلف مع نستاسيا. إنها لن تعقد يديها على صدرها وتتنهد. إنها تعرف ما الذي يحتاجه الرجال من النساء، وما الذي تحتاجه النساء من الرجال...

ها هي ذي تمر بقربه: تبتسم ابتسامة عريضة من دون خجل، تنظر إلى عينيه مباشرة. تنزع بأسنانها الصغيرة الحادة القفاز السميك عن يدها وتداعب بحنان الشعر الناعم على رقبة جوادها، تمسّد خصلات شعره، تدلّله.

يشعر إيغناتوف كيف تسري فجأة رعشات ساخنة من نقرته إلى رقبته، وتمضي إلى أسفل ياقة قميصه وتنساب على طول عموده الفقري. يشيح ببصره ويعبس: لا يليق بعنصر الجيش الأحمر أن يفكّر بالنساء وهو على رأس عمله. هي لن منه إلى أي مكان آخر. يسوط جواده وينطلق إلى مقدمة القافلة.

ساروا طويلاً. ورأوا أذيال قوافل أخرى كانت تسير مثلهم ببطء وإصرار منتشرة فوق الروابي الشاسعة لما كان يسمى مقاطعة قازان، وصار اسمه الآن تتاريا الحمراء، متجهة إلى العاصمة- قازان ذات الحجارة البيضاء. يبدو أن ذيل قافلتهم كان يلوح أيضاً لقوافل خلفهم. لكن إيغناتوف لا يلحظ ذلك- إنه لا يحب أن ينظر إلى الخلف. كانوا يمرون أحياناً ببعض القرى، فيخرج ساكنوها من بيوتهم، يدسّون الخبز في أيدي الكولاك الجالسين عبوساً في العربات بعد أن جردوا من أملاكهم. هو لم يكن يمنع ذلك: دعهم يفعلون، فذلك سيجعلهم يأكلون كميات أقل من طعام الدولة في قازان.

لقد تركوا وراءهم إحدى التلال (إيغناتوف تعب من عدّ التلال فكفّ عن ذلك). وفجأة خرقت صرير العربات الرتيب صرخة عالية من الأسمر بروكو بينكو: «أيها الرفيق إيغناتوف! تعال إلى هنا!»

يلتفت إيغناتوف. شريط القافلة المستقيم مقسوم في منتصفه وكأنه قطع بسكين. القسم الأمامي مستمر في حركته البطيئة إلى الأمام، أما القسم الخلفي فواقف في مكانه. وقامات الفرسان الداكنة تروح وتجيء في المكان، يتصايحون بعصبية ويلوّحون بأيديهم.

يقترب أكثر، فيدرك السبب،- إنّه عربة المرأة الصغيرة ذات العينين الخضراوين الواسعتين. الفرس التي تجر تلك العربة تقف خافضة رأسها، وتحت بطنها مهرها يرضع بسرعة ضرع أمه ويئن- لا بد أنه جاع كثيراً.

والعربات التي تليها، لا تستطيع تجاوزها- الطريق ضيقة لا تسمح بمرور عربتين معاً.

- حرنت الفرس،- يشكو بروكوبينكو مضطرباً، عاقداً حاجبيه كقبة بيت.- لقد حاولت معها كل الطرق...

يشد عنان الفرس بعزم، فتهز رقبتها وتصهل- إنها لا تريد أن تسير.

- لا بد من الانتظار حتى تطعم ولدها،- تقول المرأة التي في العربة بصوت خافت والّجام يستقرّ على ركبتيها

- النساء ينتظرن أزواجهن في البيوت،- يجيب إيغناتوف بقسوة.- أما نحن فيجب أن نواصل السير...»

ينزل عن ظهر الحصان قفزاً. يخرج من جيب معطفه قطع خبز يحتفظ بها لإطعام حصانه، عليها حبيبات كبيرة من ملح رمادي، ويقدمها للفرس العنيدة، تلتقطها بشفتيها المسودتين اللامعتين- تأكلها. هكذا إذن، انظري إليّ... يمسّد وجهها الطويل الذي نما عليه شعر رمادي قاس.

- بالحنان- تسيطر على الفرس أيضاً،- تقول نستاسيا التي تمر بجانبه بابتسامتها الواسعة التي تجمع في غمازتين خديها نصف المستديرين.

يشد إيغناتوف عنان الفرس: هيا يا عزيزتي! تلوك الفرس آخر قطعة خبز، وتحني رأسها نحو الأرض بعناد: لن أسير.

- أنت لن تستطيع تحريكها الآن- يرفع سلافوتسكي الصموت صوته وهو يمسّد ساهماً الندبة الطويلة التي على وجهه.- هي لن تتحرك قبل أن تطعم طفلها.

- تقول لن تتحرك...- إيغناتوف يشد اللجام بشكل أقوى، ثم يشده بعنف.

تصهل الفرس شاكية، مظهرة أسنانها الصفراء المعوجة، وترفس بقوائمها. المهر يرضع ضرعها بسرعة، وهو ينظر إلى إيغناتوف بطرف عينه السوداء التي تشبه حب الخوخ. يرفع إيغناتوف يده عالياً ثم يهوي بها على مؤخرة الفرس ويصيح بها: هيا، سيري! يضربها ثانية ويصرخ: هيا، سيري أقول لك! سيري، يضربها على ساقها! الخيول الواقفة بجوارها تهتاج، تطلق أصواتاً قلقة، تقف على قوائمها الخلفية.

- لن تسير،- يكرر سلافوتسكي قوله بعناد.- حتى لو ضربتها حتى الموت. الأمر يتعلق هنا بالأمومة.

ها هو ذا يحشر نفسه، هذا الرجل ذو السحنة الضباطية. لقد قضى عشر سنوات في الجيش الأحمر، ومع ذلك ما زال أسلوب تفكيره غريباً عنا، ما زال غير سوفييتي.

لا بد من الخضوع لرغبة الفرس، أليس كذلك يا رفيق إيغناتوف؟- نستاسيا ترفع حاجبيها متسائلة، وهي تمسّد رقبة جوادها، تهدئه.

يمسك إيغناتوف المهر من ذيله ويشده محاولاً فصله عن ضرع أمه، لكن المهر يحرك قوائمه كالجرادة، ويقفز تحت بطن الفرس إلى الجهة الأخرى. فيسقط

إيغناتوف على ظهره في الثلج- أما المهر فيتابع رضاعته للضرع. تغرق نستاسيا بالضحك باطحة صدرها على رقبة حصانها، فيشيح سلافوتسكي بنظره خجلاً.

ينهض إيغناتوف على قدميه وهو يطلق الشتائم وينفض الثلج عن قبعته البوديونية، ومعطفه وسراويله، ثم يشير بيده إلى العربات السائرة في الأمام:

- توقفوا!

وفي الحال يسرع الفرسان للحاق بمقدمة المجموعة: قفو ووا! بأمر القيادة- استارح!

ينزع إيغناتوف البوديونوفكا عن رأسه، يجفف وجهه المصطبغ بالحمرة، وينظر نظرة سريعة غاضبة إلى زليخة.

- حتى الخيل عندكم- عناصر معادية للثورة!

القافلة تستريح في انتظار أن يشبع المهر البالغ من العمر شهراً ونصف الشهر، من حليب أمه.

حين بدأ المساء يهبط بزرقته الكثيفة على الحقول، كانت تفصلهم عن قازان مسيرة نصف يوم. وقد اضطرهم ذلك إلى المبيت في تجمع سكني مجاور.

رئيس مجلس السوفييت المحلي دينيسوف- وهو رجل معقوف الأنف، ثابت الخطوة كبحار مجرّب- استقبلهم بحفاوة، بل بفرح أيضاً.

- سأوفر لكم ضيافة بأعلى مستوى، «آستوريا»! بل أعلى من ذلك- «إنغليستر»!- وعدهم بذلك معرّياً بسخاء في ابتسامته أسنانه الكبيرة الحجم.

وسرعان ما علا ثغاء خواريف تتدافع، يتقافز بعضها فوق بعض، وهي تهز آذانها الطويلة المتدلية إلى أسفل، وتترافس بقوائمها الرفيعة السوداء. أما دينيسوف فبسط كفيه وراح يدفعها جميعاً إلى ما وراء ستارة طويلة من القماش (الشيت)

تقسم المكان إلى نصفين. خروف أخير كان شديد الحركة ظل يروح ويجيء ويدق بقوة الأرض الخشبية بحوافره. غير أن رئيس المجلس يمسك به في نهاية المطاف، يجرّه من صوفه الأجعد، ويرميه حيث بقية الخرفان، يتلفت راضياً، ويرفس بجزمته البعرات التي تفوح منها رائحة الغنم، ثم يفتح ذراعيه مرحباً (وتلتمع في فضاء المدخل خطوط من الأضواء).

- ألم أقل لكم؟!

يردّ إيغناتوف رأسه إلى الخلف- يتأمل المكان. أشعة مصباح الكيروسين الساطع تضيء السقف الخشبي المرتفع. النوافذ المستطيلة الضيقة- رتل يحيط القبة الدائرية. وعلى الجدران الداكنة المشبعة بالبخور- أمواج صغيرة من الكتابات العربية نصف الممحية. وثمة تجاويف كالكهوف تلوح فيها أشكال مربعات فاتحة اللون هي آثار تكاد لا تلحظ لألواح انتزعت منذ زمن غير بعيد.

رفض إيغناتوف، في البداية، أن ينام في مكان كان مسجداً- ليذهب إلى الشيطان وكر العفاريت هذا. لكنه الآن يتساءل بينه وبين نفسه عن السبب الذي يجعله يرفض ذلك؟ دينيسوف إنسان رائع، فهيم. لماذا يترك هذا المكان قائماً من دون فائدة؟

- المكان يتسع للجميع،- يتابع رئيس المجلس التفاخر وهو يسدل الستارة الملونة،- الخواريف في القسم النسائي، والناس في القسم الذكوري. هذا التقسيم تقليد قديم طبعاً. لكنه مريح- هذه حقيقة! لقد أردنا في البداية أن ننزع الستارة، لكننا قررنا فيما بعد إبقائها. يمكنك القول إن عندنا، هنا، ضيوفاً في كل مساء.

لقد سلّموا المسجد للكولخوز منذ عهد قريب. ولم تستطع حتى رائحة بعر الغنم أن تطمس رائحته الخاصة المعششة في زواياه- المنبعثة إما من

السجاجيد القديمة، وإما من الكتب التي غطاها الغبار.

تجمع المهجرون الجدد الذين جمّدهم البرد، في المدخل، ينظرون في خوف إلى الستارة التي ما زالت الخرفان تثغو خلفها وتتدافع.

- تفضلوا أيها المواطنون الكولاك الذين صودرت أملاكهم،- يفتح دينيسوف بوابة الموقد ويلقي فيه عدة قطع من الحطب.- حتى نساء الكولوخوز خفن في البداية من الدخول إلى القسم الذكوري،- يهمس في أذن إيغناتوف بلهجة تآمرية.- كنّ يقلن: هذا حرام، لكنهن اعتدن على ذلك فيما بعد.

الملا الملتف بمعطفه الفرو يدخل المسجد أولاً. يمشي إلى مصطبة عالية عند المحراب، يجثو على ركبتيه. يتبعه عدد من الرجال. النساء يبقين محتشدات عند المدخل.

-أيتها المواطنات!- يصيح بمرح رئيس المجلس الواقف قرب الموقد، يلتمع في عينيه السوداوين ضوء النار.- ها هي ذي الأغنام لا تخاف، فاقتدين بها.

يرتفع من وراء الستارة، ردّاً على كلامه، ثغاء حاد.

ينهض الملا، يلتفت إلى المهجرين، ويدعوهم إلى الدخول بإشارة من يديه. يدخل الناس مترددين، ويتوزعون بمحاذاة الجدران.

جلس بروكو بينكو بقرب أكوام العفش في إحدى الزوايا، أمسك كتاباً، وراح ينكش بظفره غلافه القماشي الجميل المطرز بخيوط معدنية- لقد كان يظهر بذلك حبه للمعرفة.

- أرجوكم لا تأخذوا الكتب،- يقول رئيس المجلس.- إنها جيدة جداً لإشعال النار في الموقد.

- لن نلمس شيئاً.- قال إيغناتوف وهو يلقي نظرة صارمة على بروكو بينكو، فيرمي ذاك الكتاب في كومة العفش بلا مبالاة. وهو يهز كتفه، وكأنه يقول: أنا

لست متلهفاً لاقتنائه.

- اسمع، أيها المفوض،- يقول رئيس المجلس مخاطباً إيغناتوف،- ألن يلتهم عسكرك خروفاً على العشاء؟ في كل مرة تجيئني فيها قافلة كولاك مهجرين، أكتشف في الصباح نقصاً في عدد الخواريف. فقدت نصف القطيع في شهر كانون الثاني وحده- صدقني! هذه حقيقة.

- يأكلون مال الكولخوز! كيف تسمح بذلك؟!

- رويدك...- يبتسم دينيسوف ويهدد إيغناتوف مازحاً بإصبعه القوية المغطاة ببقع سوداء- فالمرء لا يستطيع، أحياناً، متابعة الأمور كلها...

يربت إيغناتوف على كتف دينيسوف مهدئاً: لا تقلق يا رفيق! يا إلهي: بحار من بطرسبورغ (بلطيقي)، وعامل لينينغرادي (بطل عمل!)، وهو الآن (الرومانتيكي!) رقم خمسة وعشرين ألفاً الذي جاء ملبياً نداء الحزب للنهوض بالقرية السوفييتية،- إنه باختصار رجل منا بكل المقاييس- ومع ذلك يظن بجماعته ظناً سيئاً...

نستاسيا تمشي بخطا ممدودة كسولة في أرجاء المسجد، تتأمل المهجّرين الملتصقين بالزوايا. تنزع عن رأسها قبعتها المدعوكة، فتنساب ضفيرتها الثقيلة القمحية اللون على ظهرها حتى تلامس ساقيها. تتأوه النساء (ويحها، تقف في المسجد بحضور الرجال، وحضور الملا نفسه، مكشوفة الرأس!). ويغلق الأطفال أعينهم بأيديهم. تقترب نستاسيا من الموقد الساخن وتلقي فوقه معطفها السميك. ثنيات سترتها أوتار مشدودة تمتدّ من صدرها المرتفع البارز إلى ما تحت الحزام العريض المشدود على خصرها بشكل يوحي بأنه سيطقطق سريعاً وينقطع.

- هنا سينام الأطفال،- يقول إيغناتوف من دون أن ينظر إليها. «ها أنذا أشفق عليهم من جديد»- يقول في سره غاضباً، ثم يهدئ نفسه في الحال: هم أبناء كولاك حقاً، لكنهم أطفال على كل حال.

- أوي، أنا بردانة- تتنهد نستاسيا بمرح وتأخذ معطفها.

- تعالي، أحضر لك فراشاً من القش، أيتها الجميلة،- يقول دينيسوف، ويغمز لها بعينه.

بصخب وصيحات مكبوتة تمدد الأولاد كيفما اتفق فوق الموقد العريض: بعضهم فوقه، وبعضهم بجانبه. أما الأمهات فرقدن على الأرض حولهم مشكلات حلقة عريضة متلاحمة. وراحت البقية تبحث لنفسها عن أماكن بمحاذاة الجدران على أغصان مكومة في الزوايا، وعلى ألواح خزائن الكتب والمقاعد المحطمة.

تجد زليخة قطعة بساط نصف دافئة، فتتجمد فوقها، مسندة ظهرها إلى الجدار. الأفكار في رأسها ما تزال حتى الآن ثقيلة، بطيئة الحركة كالعجين. عيناها تريان، لكن كما لو كانت تنظر من وراء ستارة، وأذناها تسمعان، لكن كما لو كانت تسمع من بعيد، وجسدها يتحرك ويتنفس لكنها لا تشعر بأنه جسدها.

ظلت زليخة تفكّر طول النهار بنبوءة أوبيريخا التي تحققت، لكن بشكل فظيع جداً. الملائكة الثلاثة الناريون- هم العناصر الثلاثة في الفصائل الحمراء الذين أخرجوها من دار زوجها في العربة الصغيرة، وتركوا العجوز مع ابنها المعبود في البيت، وها هو ذا ما كان يفرح أوبيريخا وما أرادته هي نفسها، يتحقق.

ترى هل سيخطر في بال منصوركا أن يدفن مرتضى إلى جانب بناته؟ وماذا عن أوبيريخا؟ إنها لن تعيش طويلاً بعد موت ابنها: زليخة لم تكن تشك في ذلك. إنها إرادتك يا اللـه العليّ القدير.

إنها للمرة الأولى في حياتها تجلس في المسجد، بل في النصف الرئيسي الذكوري قرب المحراب. يبدو أن هذا أيضاً ما شاء له رب السماوات أن يحدث.

كان الرجال يسمحون لنسائهم بالذهاب إلى المسجد من دون حماسة، في العيدين الكبيرين: عيد الفطر، والعيد الأضحى. وكان مرتضى يستحم بالبخار جيداً في كل يوم جمعة، ويسرع بوجهه المصطبغ بالحمرة وذقنه المسرحة بعناية، إلى جامع يولباش لأداء صلاة الجماعة، واضعاً على رأسه الحليق الذي يلتمع ورديا، طاقية مخملية خضراء. يقع النصف النسائي من المسجد في زاويته، خلف ستارة سميكة- كان عادة يخلو من النساء، في أيام الجمعة، فقد أمر حضرة الملا الأزواج بنقل محتوى خطب يوم الجمعة إلى زوجاتهم الباقيات في البيت لإدارة شؤونه، كي لا يقعن في الإثم، وكي تزداد قوة إيمانهن بالدين الصحيح. مرتضى كان ينفذ توجيه الملا بدقة: يأتي إلى البيت، يجلس على الديوانة وينتظر حتى يهدأ في النصف النسائي صوت المطحنة أو قرقعة الأواني، ثم يلقي عبر الستارة عبارته التي لا تتغير: «اليوم قابلت الملا في المسجد». وزليخة كانت تنتظر هذه العبارة في كل يوم جمعة، فهي تعني لها أكثر من معاني كلماتها بكثير: إنها تعني أن كل شيء في هذا العالم يجري في مساره، وأن نظام الكون- ثابت. غداً يوم الجمعة. وغداً لن يذهب مرتضى إلى الجامع.

تلتقط نظرة زليخة الملا. إنه مستمر في صلاته، جالساً في مواجهة المحراب.

- ليشغل المناوبون أماكنهم، يأمر إيغناتوف.- أما الآخرون فإلى النوم.

- وإذا كان بعضهم لا يريد ذلك أيها الرفيق إيغناتوف؟- تقول المرأة ذات الصدر الممتلئ التي كشفت عن رأسها في المسجد من دون خجل، وهي تقف حاملة بين ذراعيها رزمة من القش.

- الاستيقاظ- في الفجر-،- يجيبها إيغناتوف بجفاف، فتسر زليخة لكون القائد صارماً إلى هذا الحد مع المرأة الوقحة.

تتنهد المرأة بصوت مسموع، رافعة إلى أعلى صدرها المرتفع أصلاً، ثم تلقي رزمة القش على الأرض بالقرب من زليخة.

يأخذ المناوبون أماكنهم عند المدخل، يجلسون على خزانة كتب مقلوبة وحراب بنادقهم تلتمع في الظلام.» عيون البحارة تظل يقظة في المحرس من الفجر إلى الفجر»- يحيي رئيس المجلس الحراس بهذه العبارة ويتمنى للمهجرين والخواريف ليلة هادئة. وبإشارة من يد إيغناتوف يُنزل أحدهم فتيل مصباح الكيروسين المشتعل بلون برتقالي، فلا يترك منه غير ذؤابة قصيرة تشع بضوء خافت يكاد لا يلحظ.

تتلمس زليخة الخبز في جيبها، تقسم قطعة وتشرع تلوكها.

- إلى أين تأخذنا يا قوميسار؟- علا صوت الملا الرنان، المنغم في الظلمة.

- إلى حيث أمر الحزب بإرسالكم- أجابه إيغناتوف بصوت مرتفع أيضاً.

- وإلى أين أمر حزبكم بإرسالنا؟

- اسأل اللـه الذي يعرف كل شيء، دعه يهمس في أذنك إلى أين.

- لن يستطيع الجميع احتمال مشقات الرحلة. أنت تقودنا إلى الموت يا قوميسار.

- احرص، أنت، على أن تبقى حياً. أو اطلب من اللـه أن يميتك سريعاً كي لا يطول عذابك.

المهجرون يتهامسون متسائلين بقلق: إلى أين؟ إلى أين؟ إنهم سيأخذوننا إلى سيبيريا حقاً؟- إذا لم يكن إلى هناك، فإلى أين؟ إنهم دائماً يرسلون المنفيين إلى

هناك- ترى هل سيبيريا بعيدة؟- لقد قال حضرة الملا إنها بعيدة لن يستطيع الجميع تحمّل مشقة الطريق إليها.- يا اللـه! المهم أن نصل- صح. من يصل سيعيش...

المناوبون يلقمون بنادقهم قبل النوم فتصدر صوتاً. ثم يهدأ الهمس، ويزحف دفء الموقد إلى أرجاء المسجد، وتمتلئ الجفون بالتعب فينغلق بعضها على بعض- تغفو زليخة، أما زوجة الملا فتخرج القطة الرمادية المحبوبة من القفص وتطعمها بيدها، والدموع تتساقط كبيرة من عينيها على ظهر القطة المقلّم الناعم.

- زليخا-آ -آ -آ!- صوت أوبيريخا يُسمع من بعيد، وكأنه يخرج من تحت الأرض. -زليخا- آ- آ- آ!

- سآتي حالاً، سأطير أليك يا ماما طيراناً...

تفتح زليخة عينيها، من حولها، في نصف العتمة الكثيف الذي لا يبدده الضوء الراعش لمصباح الكيروسين، ينام المهجرون. وتهسهس النار في الموقد. وتثغو الخرفان بين وقت وآخر خلف الستارة. المناوبون ينامون هانئين مستندين إلى الجدار مسندين رؤوسهم إلى أكتافهم الخالية.

في الأفق ظهرت مدينة أوفا.

فجأة علت خشخشة- قريبة جداً. همس متقطع- أتراه همس ذكور أم إناث؟- همس سريع، ملتبس، يختلط بأنفاس عالية متسارعة: في ذلك المكان الذي جلست فيه المرأة الوقحة فوق رزمة القش، تهتز الظلمة، ترتعش، تتنفس، تتحرك- ببطء في البداية، ثم أسرع، فأكثر حدة، وأكثر اندفاعاً. لا، ما يهتز ليس الظلمة، بل جسدان يلفهما الظل، يرتجفان، يشخران، يتنهدان تنهدات عميقة وطويلة، ثم ضحك أنثوي مكبوت: «على مهلك يا مجنون! لقد سحقتني تماماً».

الصوت معروف- إنها هي السمينة الخدين، العائبة. يبدو لزليخة أنها ترى في العتمة الشعر الأشقر المنسدل سنابل ممتلئة. المرأة تتنفس بفم مفتوح على اتساعه، وصوت مرتاح مرتفع، وكأنها لا تخاف أن يسمعها الآخرون، وتسند رأسها على صدر أحدهم، ثم يجمد الاثنان ويهدآن.

تحدّق زليخة أكثر، محاولة أن ترى وجه الرجل. تميّز عينين اثنتين تنظران إليها من الظلمة: إنه إيغناتوف ينظر إليها منذ زمن.

- صلاح الدين!- تعلو صرخة حادة فجأة في مكان ما في عمق المسجد.- يا زوجي!

يرتفع ضوء الصباح بحدة، يقفز الناس من رقادهم، يتلفتون، يبكي طفل وهو يغالب النوم، وتموء الهرة وقد داستها جزمة أحدهم من دون قصد.

- صلاح الدين!- تتابع زوجة الملا الصراخ.

يتحرر إيغناتوف من شباك شعر نستاسيا الشبيه بشعر جنيات البحر، وهو يطلق الشتائم، يزرّر حزام خصره بسرعة، وينتعل جزمته على عجل، ثم يهرع إلى هناك، حيث تجمع حشد من المهجرين.

يفسح الناس له الطريق. على الأرض يرقد حضرة الملا متجهاً برأسه الأشيب نحو المحراب ماداً ساقيه من تحت معطفه الأجعد، وبقربه تبكي زوجته الضخمة جاثية على ركبتيها وجبينها يلامس الأرض. عينا الملا المفتوحتان جامدتان تنظران إلى أعلى، وعضلاته المتقلصة شدت بشرته، والتجاعيد الراكضة من الأنف إلى الذقن رسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة جافة. يرفع إيغناتوف بصره. ضوء أزرق رجراج يملأ النوافذ الضيقة الصغيرة. إنه الصباح.

- ليجتمع الجميع،- يقول مخاطباً الوجوه الجامدة من حوله.- سنغادر.

ويتجه نحو باب الخروج.

تودعه نستاسيا بنظرة وهي تجدل شعرها المنفوش في ضفيرة ثخينة وثيرة.

اجتمعوا سريعاً. وتقرر أن يتركوا جثة الملا في التجمّع السكني لدفنها.

أما معطف الفراء فبإصرار من إيغناتوف وضعته زوجة حضرته التي تورمت عيناها من شدة البكاء، على كتفيها. وساعدها الأولاد في الإمساك بالقطة التي اختبأت خوفاً وراء الموقد، وأعادوها إلى القفص.

حين جلست زليخة في مقعد قيادة العربة وأمسكت عنان الفرس بيدها- كانوا ينتظرون الأمر بالتحرك- اقترب الأسمر منها متسللاً ورمى على عجل في العربة شيئاً ثقيلاً، أشعث الشعر، أبيض- إنه خروف. غطاه بقماش الأكياس وضغط بإصبعه المعوجة شفتيه: هس-س-س...

تدوي صيحة «انطلق!» في الفناء كله. تتحرك الخيول، وتصيح الفرسان. وتنسحب العربات خارجة من الفناء ببطء، وكأنها سرب من الأسماك الكبيرة يعوم ببطء.

رئيس المجلس دينيسوف يقف مودعاً عند البوابة.

- حسناً،- يقول له إيغناتوف بمودة وهو يضغط على كفه الخشنة كجلد النعل،- اصمد يا أخي!

- اسمع يا إيغناتوف،- يحرّك حاجبيه مرتبكاً قليلاً ويخفض صوته.- ما رأيك في أن نرفع علماً فوق المسجد؟

ينظر إيغناتوف إلى مئذنة المسجد العالية المنغرسة ذروتها الرفيعة في السماء التي شرع يغيب فيها القمر الهلال.

- العلم سيرى من بعيد- يقول مؤيداً.- هذا جميل!

- ومع ذلك، فالمسجد دار عبادة. الأمر يبدو لي خليطاً كالسَلَطَة.

- سَلَطَة في رأسك،- يقول له إيغناتوف وهو يربت على رقبة حصانه الذي راح يتراقص بنفاد صبر.- إن هذا المبنى ملك حقيقي للكولخوز. هل فهمت يا بطل العمل؟

يبتسم دينيسوف ويلوح له بيده قائلاً: وكيف لا أفهم!

يترك إيغناتوف آخر عربة تتقدمه ثم يلقي نظرة على الفناء الخالي ويعدو بحصانه يلحق بالقافلة، فيتناثر ثلج الصباح رناناً تحت حوافر الحصان.

حين تصبح القرية بعيدة خلف القافلة تلتفت زليخة فترى علماً أحمر يتوهج فوق مئذنة المسجد الرفيعة.

رئيس المسجد البلدي دينيسوف سيعمل في القرية نصف عام بعد هذا اليوم. سينظم في الربيع الكولخوز وسيرفع جيداً وبإخلاص نسبة الجماعية في القطاع المأهول الموضوع تحت إشرافه.

إنه سيحارب الفكر الديني بكل قوته، على الطريق البلطيقية. وينظم في شهر رمضان المقدس حملة دعائية حول المسجد، ويخوض شخصياً نقاشاً علنياً مع ثلاثة من رجال الدين حول سؤال مفاده: «هل ثمة حاجة للتفكير الديني في المجتمع السوفييتي؟» ويجمع ويحرق الكتب المقدسة كلها.

وسيتوج نجاحه في القرية بالحصول على جرار ماركة «كامونار» لصالح الكلوخوز- وسيثير هذ حسد جميع القرى المجاورة التي لا تملك آلات زراعية. وسيكون الجرار الأثمن والأكثر حماية في قرية دينيسوف.

سيتقدم بمبادرة مبتكرة: تغيير اسم العيد الوثني سابان- توي- عيد المحراث، الذي يحتفى به في القرى التترية في أواخر الربيع،- ليصبح «الجرار- توي». وسيدعم المركز هذه المبادرة، ويأتي للاحتفال به وفد من اللجنة المركزية من قازان، ومجموعة من مراسلي الصحف. غير أن الاحتفال سيلغى بسبب عطل في

الجرار نفسه. وسيتبين فيما بعد أن العجوز المحلية أبيستاي أرادت بحسن نية أن تستميل روح الجرار فأطعمت محركه سراً كمية من البيض والخبز، الأمر الذي تسبب بعطله. وسيغادر الرفاق المستاؤون أعضاء اللجنة المركزية وكذلك المراسلون، إلى قازان خاليي الوفاض، أما مكانة دينيسوف فستتجه إلى الانحدار السريع.

سيستدعونه من القرية ويعيدونه إلى بلده. وعند عودته إلى لينينغراد سيجد أن غرفته في الشقة الجماعية مشغولة إلى الأبد بالجيران الذين توالدوا كثيراً. وبعد صراع طويل يائس مع إدارات المساكن بحثاً عن مسكن، يبدأ الإدمان على الكحول، ثم بعد نحو عامين سيطردونه من المسكن الجماعي بسبب السكر. في عام ثلاثة وثلاثين، في أثناء توزيع بطاقات الهوية سيرسلون دينيسوف بوصفه سكيراً ليس لديه عنوان إقامة في لينينغراد- في البداية إلى ما بعد الكيلو 101، ثم إلى أوست تسيلمو، وبعد ذلك ينفونه إلى ضواحي دوشكاتشان، حيث سيضيع أثره إلى الأبد بين قرى البلطيق.

الشتاء الأوّل

القهوة

منذا الذي لا يحب شرب القهوة في فناجين صغيرة من البورسلان؟!

وولف كارلوفيتش يخفي وجهه تحت اللحاف مستمراً في الإحساس بملامسة شعاع الشمس الدافئ لجبهته... إنه سينهض بعد لحظة أو لحظتين، فالأعمال لا تنتظر.

وسرعان ما تندفع غرونيا داخلة إلى المكتب بصخب، حاملة على ذراعيها الممدودتين بحرص صينية عليها فنجانان صغيران يتصاعد منهما البخار. في الصباح لا شيء سوى القهوة وقطعة صغيرة من الشوكولا، لا طعام آخر، فالطعام يسبب الثقل في الأفكار والأعضاء. هو نفسه سينهض ويزيح بحركة عريضة الستارة السميكة تاركاً ضوء الشمس يغمر الغرفة. أما غرونيا فتلقي نظرة نفّاذة على الزي الأزرق الجاهز المعلق على المشجب، ترفع عن كم سترته ذرة غبار لا وجود لها (إعجابها الخجول بزيه الرسمي كأستاذ يزداد قوة مع الأعوام)، ثم يبدأ يوم جديد: محاضرات، وامتحانات، والوجوه المتوترة لآلاف الطلبة...

يرمي وولف كارلوفيتش اللحاف على الأرض بحركة نشطة، تتلمس أصابع قدميه الجلد البارد لحذائه المنزلي. الستارة السميكة تنزاح جانباً مرسلة حفيفاً، فينكشف منظر يعرفه منذ طفولته. شرفة مستديرة بثلاث نوافذ تشبه مشتلاً حيّاً تحضّر فيه منذ أعوام عديدة شجيرات معمرة كثيرة الأغصان، وتزهر، يلتفّ بعضها حول بعض، ويغطيها الثلج المتجمد، ثم تزهر من جديد، فتنعكس صورتها في مرآة البحيرة السوداء.

الآن، ذاب الجليد على زجاج الشرفة مشكّلاً رسوماً صقيعية بخطوط رفيعة. إنه كانون الثاني، Januar، كما كان سيقول أبوه وهو يلقي نظرة صباحية تتسم

بالعظمة على ما وراء النافذة، وكأنه يلقي تحية ودّ على الشهر الشتوي.

لقد كانت هذه الغرفة من قبل مكتب أبيه، ولم يكن يسمح لوولف الصغير أن يدخلها. هو كان يتسلل إليها سراً، فيختبئ خلف ثنيات الستارة السميكة ملصقاً أنفه بالزجاج البارد، ويتأمل البحيرة.

أما الآن فهو من يعمل هنا، بل إنه يفضل أن ينام هنا أيضاً، على الديوانة الصلبة قرب طاولة مكتب أبيه القديمة. على الطاولة قلم حبر وورق جاهز للاستخدام- الأفكار الجيدة تأتي عادة في الليل. لقد نسي متى كانت آخر مرة زار فيها غرفة نومه. لا بد أن ذلك كان قبل البدء في عملية ترميم البيت.

كانت غرونيا تدير عملية الترميم، كما تدير كل الشؤون الأخرى في شقة الأستاذ القديمة، كانت تلف شعرها حول رأسها في ضفيرة كبيرة خشنة، بسمك اليد، وكانت يداها سمينتين سمنة ساقيها، دخلت هذا المنزل بخطوة عسكرية ثقيلة قبل عشرين عاماً، فاستسلم وولف كارلوفيتش لها على الفور، وببهجة مستكينة سلمها مفاتيح إدارة مسكنه الصغير كي يغوص حتى رأسه في أحاجي عالم الجسد الإنساني الجذابة.

كان وولف كارلوفيتش ليبييه ابن الجيل الثالث من أساتذة جامعة قازان، جرّاحاً تطبيقياً، يمارس الجراحة التطبيقية على نطاق واسع، وكان الناس ينتظرون شهوراً دورهم لإجراء عملياتهم. وفي كل مرة، كان يشعر حين يحمل المبضع فوق جسد المريض اللين الشاحب، بقلق بارد في أعماق بطنه: «هل لي الحق في ذلك؟» تلمس السكين الجلد- فتتحول البرودة إلى سخونة تسري في أعضائه: «لا يحق لي أن أتخلى عن المحاولة». وكان يحاول: يجري حواراً ذهنياً مع طبقات الجلد، والأنسجة العضلية والأربطة، التي سيمرّ بها في طريقه إلى هدفه، ويحيي باحترام أجهزة الجسد الداخلية ويتهامس مع عروقه. كان يخاطب أجساد المرضى

بالمبضع، فتجيبه. ولم يكن يتحدث عن مرضاه مع أحد- لقد كانت حالته شبيهة بحالة مريض نفسياً.

ثمة سرّ آخر في حياة وولف كارلوفيتش، هو أن سرّ ولادة الإنسان كان يهيجه إلى حد المستحيل، ويثير الحكة في أطراف أصابعه.

في شبابه، تشبّع بمحاضرات الأستاذ الأسطوري فينومينوف، حتى إنه أراد أن يبقى يعمل في قسم التوليد والأمراض النسائية. أثناه أبوه عن ذلك «أتريد أن تظل حياتك كلها تولد الفلاحات؟». أطاعه وولف الشاب والتحق بقسم الجراحة العامة.

حين صار جراحاً يقطّع في مشرحة الجامعة أجساد الفقراء والعاهرات التي لا يطالب بها أحد، فيأتون بها من أقسام الشرطة بوصفها جثثاً يتدرب الطلبة على التشريح بواسطتها، صار يجد أحياناً في أرحام النساء أجساماً صغيرة. وكانت هذه اللقى تجعله كل مرة في حالة من الهياج الغامض، فيتساءل بينه وبين نفسه: ماذا لو أن هذا الوحش الصغير ذا الوجه الممتلئ بالتجاعيد، والأطراف الصغيرة الكاريكاتورية، ما يزال حياً؟

Hic Locus Est Ubi Mors Gaudet Succurrere Vitae

هذا ما كتب في العبارة التي فوق المبنى الدائري للمشرحة الجامعية. إن هذا المبنى الذي فيه الموت، يسره أن يساعد الحياة. وهذا ما كان. الأجنة التي لم تولد، التي ذبحت في الأرحام بسبب الغيرة بين النساء، أو التي قتلت مصادفة في أثناء تبادل إطلاق النار بين العصابات، كانت تتشوق لأن تكشف أسرارها الصغيرة لوولف كارلوفيتش- أصواتها الرفيعة كانت تدوي دائماً في رأسه، تهمس، تتمتم، وأحياناً تصرخ.

أما هو فاستسلم. في عام ألف وتسعمئة، على الحد الفاصل بين قرنين، وله من العمر خمسة وعشرون عاماً، أجرى أول عملية قيصرية. كان، قبل هذا التاريخ، قد قام بعشرات عمليات الاستئصال، لذلك لم تكن هذه العملية القيصرية عملية معقدة بالنسبة إليه. لكن الشعور الذي انتابه بعد إجرائها كان متميزاً جداً، فالأمر مختلف بين أن تستأصل من بطن المريض ورماً لزجاً مدمّى وترميه في النفايات، وبين أن تخرج منه جنيناً حياً يتحرك.

نجحت العملية نجاحاً باهراً، وتلتها أخرى، وأخرى. شهرة الجراح الشاب ذاعت «بإرادة اللـه» في مقاطعة قازان. وهكذا عاش: يعمل في الجراحة العامة إرضاء لوالده، وفي طب النساء (كان ذلك يخجله إلى حد ما، لذلك كان يمارسه دون إعلان)- إرضاء لنفسه.

بالمناسبة، متى أجرى آخر عملية؟ تساءل وولف كارلوفيتش في سره. هو يشعر أنه أجراها منذ زمن قريب جداً، لكنه نسي التاريخ الدقيق، ونسي موضوع العملية، ومن الصعب أن يتذكر ذلك الآن، فالتدريس يستهلك الكثير من قدراته ومن وقته، الأمر الذي يجعل بعض الأحداث تنمحي من ذاكرته. يجب أن يسأل غرونيا عن هذا.

يأخذ وولف كارلوفيتش رشاش الماء عن حافة النافذة ويسقي نخلته التزيينية. إن هذا هو الأمر الوحيد الذي لا يُسمح لغرونيا أن تقوم به. لهذه السقاية طقس خاص. حين يسقي البروفيسور نخلته ترتاح نفسه. إن هذه الشجرة الضخمة ذات الأوراق اللامعة السمينة المغروسة في برميل خشبي على الأرض في مثل عمره تماماً. ففي يوم مولده، قبل خمسة وخمسين عاماً، غرس والده بذرتها في البرميل ونسيها- وبعد شهر، وجدها لدهشته، غرسة عنيدة معوجة. نمت النخلة تدريجياً لكنها تحولت إلى شجرة عالية قوية، صحيح أنها لم تزهر أبداً، لكن اليوم الذي تزهر فيه سيكون عيداً لوولف كارلوفيتش.

ينفتح الباب فيرسل صريراً- وتندفع غرونيا إلى داخل الغرفة بصخب وتصميم، كقاطرة على السكة. «صباح الخير»،- تلفظ شفتاها المنتفختان المدهونتان بأحمر شفاه فاقع. هذا يعني أن الصباح خير حقاً، وكذلك اليوم كله.

يمتلئ جو الغرفة برائحة الحبوب المسلوقة مع البصل.

تضع غرونيا على حرف الطاولة الصينية الفضية وفيها الفنجانان الصغيران.

- أرجوك، اطلبي من العمال أن يتأخروا ببدء عملهم،- يبتسم وولف كارلوفيتش ابتسامة رجاء وهو يقف بالقرب من النخلة.- أنا أريد أن أعمل في هدوء.

غرونيا تحني في صمت تسريحتها العالية المضفورة من جدائل لها شكل الزوارق.

- ومتى...- يقلب وولف كارلوفيتش بعناية الأوراق الباردة الملساء.-... متى سينتهي هذا الترميم الذي لا نهاية له؟

- قريباً،- تقول غرونيا بصوت منخفض، ثم تتوجه نحو الباب،- لن يطول الانتظار.

- هناك أمر آخر يا غرونيا...

تتوقف قرب الباب وتلتفت.

- ألا تذكرين تاريخ آخر عملية جراحية؟ لقد نسيت ذلك تماماً...

- وما حاجتك إليه؟

ينكمش وولف كارلو فيتش تحت وطأة نظرتها المهدّدة.

- أنا أشعر بعدم الارتياح حين لا أستطيع تذكّر واقعة بسيطة كهذه في حياتي.

- سأذهب لأتذكر،- غرونيا تحني رأسها بحزم وكأنها تنطح الهواء أمامها، ثم تغادر.

تسمع في الغرفة عبر فتحة الباب قرقعة أوان وأصوات نساء منفعلات وبكاء أطفال.

- لقد رجوتكم الهدوء!- يقول وولف كارلوفيتش وهو يضع كفه على جبينه متألماً.

غرونيا تذهب إلى المطبخ لتحضر طعام الإفطار لها ولستيبان.

نوافذ ثلاث بلا ستائر. وحبال الغسيل تقسم الفضاء إلى مثلثين غير متساويين. ستة أعمدة كفرفة رقص جماعي على الجدران، وستة مصابيح كيروسين- على الموائد. ست خزائن صغيرة محدبة. الغرف في الشقة كلها ثمان، لكن ليس فيها طاولة خاصة لوولف كارلوفيتش، هذا يعني أيضاً عدم وجود مصباح كيروسين خاص به.

النساء حاسدات غرونيا، اللواتي كن يناقشن موضوعاً ما بحماسة، يهدأن، ويتوزعن على زوايا المكان، ويصبح مسموعاً بوضوح صوت البيض يقليه أحدهم. تمسك غرونيا حبل الغسيل، تجمّع بعناية الشراشف المنشورة عليه، وتحملها وكأنها غارموشكا3.

- لقد قلت ألاّ تشغلن النصف الخاص بي،- توجه كلامها نحو السقف.

- لكن، لا غسيل لديك اليوم،- تجيب إحدى النسوة واضعة يديها على خصرها وقد تدلى كماهما.

تفك غرونيا في صمت المريول المعقود على خصرها، وتعلقه على حبل الغسيل الخالي: والآن، عندي! بعد ذلك تفتح خزانة الأطعمة، تخرج الخبز، ثم تغلق الخزانة بالمفتاح. ترفع عن (بابور الكاز) قدر الحبوب المطبوخة وتتجه نحو الباب، تودعها النسوة بنظراتهن. الغسيل يغلي في الطست، والحليب يفور فيرسل فحيحاً.

في الممر عتمة، الأسرجة الغازية لا تعمل منذ عشر سنوات تقريباً. والخزن والصناديق تملأ الممر الذي كان في الماضي واسعاً- المرور صار صعباً الآن. هي ذي الحياة الجماعية- ظلام، وضيق في المكان، ورائحة بصل مقلى. واحسرتاه على الماضي...

تدفع غرونيا الباب بمؤخرتها الضخمة وتدخل إلى غرفتها.

- لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟- ستيبان يجلس إلى الطاولة عارياً إلا من قميصه الداخلي، وهو يعالج قفلاً كبيراً بمفك براغٍ، وعلى يديه تلتمع بقع زيت سوداء.

- هو يريد أن يتذكر تاريخ آخر عملية أجراها.- تضع غرونيا القدر على الطاولة وتتأمل شاردة الذهن، الرسوم على غطاء الطاولة.

يضع ستيبان مفك البراغي جانباً ويحمل القفل بيديه. كلاتس!- يصرّ القفل بوحشية. يأخذ المفتاح الذي بجانبه ويديره بحركة آلية- يستجيب القفل وينفتح.

- القفل جاهز،- يقول معرّياً بابتسامته أسنانه المصفرة من التدخين، المتراقصة جماعة في فمه.

- إنه يريد أن يتذكر آخر مرة قام فيها بعمل جراحي،- تكرر غرونيا بصوت مرتفع.- ماذا لو أراد أن يتذكر شيئاً آخر إضافياً؟

- أتظنين أنه أراد ذلك هكذا ببساطة؟ عشر سنوات لم يسأل عن ذلك، ثم تذكره فجأة؟- مسح ستيبان يديه بقميصه، ثم أخذ قطعة من الخبز وبدأ يأكل.

- ومن أين لي أن أعرف؟!- تأخذ غرونيا ملعقة السكب الكبيرة، فتغرف كمية سميكة من الحبوب المطبوخة التي يتصاعد البخار منها، وتصبها في الصحن.

- متى أرسلت الرسالة؟- ستيبان يأكل الحبوب الساخنة بملعقة كبيرة من دون أن يشعر بحرارتها.

- منذ شهر تقريباً.

- سيصلون قريباً إذن. لن نضطر إلى الانتظار طويلاً. الناس هناك عمّال أيضاً، ويجب أن يعرفوا الوقت.- يخرج ستيبان بخنصره حبة علقت في أعلى فكه، ثم يمسح إصبعه بغطاء الطاولة.- واجبنا- ألاّ نغفل عن ذلك... فهمت!- ينهض عن الطاولة، يهز القفل الضخم في الهواء، ثم يعلقه على مسمار قرب الباب: شاست! وتضعين القفل فوق الورقة. وإذا اعترض أحد، قولي له: إن مدير المسكن أمر بذلك.

تهز غرونيا الجالسة على مقعد صغير رأسها موافقة.

- ألن يغير مدير المسكن رأيه؟- تنظر من تحت حاجبيها كيف يعود ستيبان فيجلس إلى الطاولة ويستمر في تشغيل الملعقة، بينما تتناوب عضلات كتفيه البروز كالقباب الصغيرة.

- لا تخافي.- يبتسم ستيبان ابتسامة عريضة، فتظهر بين شقوق أسنانه الحبات المطبوخة السوداء. حين تكونين معي لا تخافي شيئاً. ستشربين القهوة في الصباح في غرفة البروخفيسور، وفي فناجين البروخسيفور.

شفتاها السمينتان ترتجفان في ابتسامة خجولة، ثم تعودان إلى الانفراج في قلق.

- أنا أشفق عليه على كل حال، لقد كان إنساناً...

يلعق ستيبان الملعقة بعناية. بعد ذلك يقترب من غرونيا من الخلف ويضع يديه البدينتين على استدارتي كتفيها. يرتعش ثدياها الكبيران تحت قماش ثوبها المغسول، ثم يرتفعان في تنهيدة عميقة كما يرتفع العجين المختمر فوق الموقد.

- ولماذا تشفقين عليه؟- يهمس ستيبان في أذن غرونيا بشفتيه من دون صوت.- كان- وانتهى.

تفوح من ستيبان أنفاس ذكورية مشوبة برائحة الحبوب المطبوخة والزيت المعدني. وتضغط غرونيا ركبتيها بأصابعها فيتجعد قماش ثوبها.

- أنت قمت بعملك. خدمته... أكثر من عشرين عاماً. وها أنت ما زلت تطعمينه وتسقينه، وتغسلين ملابسه. لاحظي أنك تفعلين ذلك كله من دون مقابل. ما قيمة أن يكون طائراً مهماً؟! لولاك لمات بروخفيسورك منذ زمن بعيد، إن من واجبه أن يشكرك على بقائه حياً حتى الآن.

كفّا ستيبان كماشتان على كتفيّ غرونيا، وصوت دقات الساعة الجدارية مسموع.

- نحن، أنا وأنت، سنوسّع سكننا فيما بعد، فمن غير المعقول أن نقضي حياتنا كلها في غرفتين صغيرتين!

تغمض عينيها وتلصق أذنها بكفه المشعرة الخشنة. أصابعه تتسلل إلى أسفل عنقها، ثم إلى أبعد من ذلك، إلى فتحة ثوبها.

- حسناً يا غروشينكا،- يهمس بصوت خافت.- حسناً يا تفاحتي...

يرن جرس الباب الصغير رنيناً حاداً. رنة واحدة- هذا يعني أن القادم جاء لزيارة البروفيسور. في الأعوام الخمسة- الستة الأخيرة صار يتردد عليه عجوز بخيل وهو في طريقه من موسكو إلى سيبيريا (كان يدعو البروفيسور للعمل في تومسك، لكن ليبييه رفض ذلك).

تقفز غرونيا. تلتقي عيناها بنظرة ستيبان المتوترة، تغلق فمها بكفها: أتراهم وصلوا؟ ستيبان يشير بذقنه غاضباً: افتحي الباب، لا تجمدي في مكانك. تركض في الممر، وهي تزرر في أثناء ركضها ياقة فستانها المفتوحة. تشعر بنظرة ستيبان

الثقيلة تخترق ظهرها ونقرتها عبر الباب الموارب. تقرقع طويلاً بالأقفال والسلاسل، ثم يهدأ أخيراً اضطراب أصابعها. تزفر غرونيا زفرة متقطعة ثم تدفع باب الدار الثقيل بيدها.

إيلونا تقف في الباب، تنقل جذعها من رجل إلى رجل فوق كعبين عاليين، وقد خفضت كثيراً حافة قبعتها مخفية عينيها. هذا مخجل، يا إلهي كم هو مخجل...

المرأة- الجبل تفتح الباب. تتنفس تنفساً عميقاً، رهيباً كالتنين. تنظر بعينيها الصغيرتين كالخرز إلى إيلونا في صمت.

- أنا جئت لزيارة البروفيسور ليبييه،- تقول إيلونا بلهجة العاجز.

تنطح المرأة- الجبل، الهواء بذقنها، مشيرة إلى الباب الأبيض في الممر نصف المظلم، لكنها لا تتحرك- تظل واقفة في مكانها، مغلقة الممر. تضغط إيلونا حقيبتها الرقيقة إلى صدرها كالدرع، وهي تكاد تختنق برائحة البصل والحبوب المطبوخة التي تفوح حارة وكثيفة من المرأة، وتندفع كتلة واحدة محاولة الدخول إلى الشقة، والوصول إلى الباب الأبيض، لكن حامية المدخل الرهيبة تغلق أمامها الطريق بيدها. «سأبلّغه»،- تقول لها بصوت غليظ حاقد وتمضي إلى الغرفة. إيلونا تبقى وحيدة في الظلمة الخانقة في المدخل.

في الأمام، في مكان بعيد- المدخل المضيء المثلثي الشكل للمطبخ الذي تفوح منه رائحة الغسيل والطعام، ويسمع دوي الأصوات النسائية، وضحك الأطفال، ورنين دراجة راعش. وعلى طول الممر- تمتد أبواب الغرف المرتفعة التي تكاد لا تُميز، المدهونة بلون أبيض يكاد ينمحي. إيلونا تشعر أن هناك من يختبئ خلف تلك الأبواب ويراقب. وحين ينفتح أخيراً باب غرفة البروفيسور يدعوها صوت أنثوي خافت غليظ للدخول، تنسل داخلة وهي تشعر بالامتنان والراحة.

«وولف كارلوفيتش ليبييه، أستاذ في العلوم الطبية النسائية، موهوب من اللـه!» هذا ما قرأته إيلونا في دفتر مذكرات أمها وهي تجمع أشياءها بعد دفنها. تحت عبارة «موهوب من اللـه» خطان. اصطبغ وجه إيلونا بالحمرة وهي تحاول أن تخمن السبب الذي جعل أمها تحتاج إلى «أستاذ في الطب النسائي»، جمعت أوراق دفتر الملاحظات التي تناثرت في السقيفة. لم تتذكر ذلك إلا بعد عدة أعوام، وهي تتقلب مسهدة على فراشها البارد بعد أن هجرها إيفان، تؤلمها التساؤلات، أنها عاشت حتى الخامسة والعشرين من دون أن تشعر لو مرة واحدة؟... ترى كيف يمكنها أن تقول ذلك بعبارات لا تخدش الحياء...

صديقاتها عشن حياة كومسومولية غنية: عشقن، صادقن شباباً من الكومسومول، (وأحياناً حزبيين- أبطال عمل)، وغيّرنهن، تزوّجن، وطُلّقن، وأجهضن مرات عديدة. بعضهن أنجبن أطفالاً صغاراً، ورديي اللون يصرخون بأصوات منفّرة.

إيلونا كانت تراقب من بعيد كل هذه الحلقات والتشابكات في مصائر النساء في الفرص التي تتوقف فيها عن النقر على مفاتيح آلتها الطابعة (الأندروود) الطيبة القديمة حيث كانت تختبئ ببراعة في مكتبها الصغير وراءها.

الساعون إلى صداقتها كانوا قلة. ولم يدعها أحد للزواج. لا، لماذا تقول كانوا قلة؟ كانوا طبعاً، وأشعروها بالسعادة كامرأة بقدر ما يستطيعون. كانت تتشرب هذه السعادة بلهفة حتى آخر نقطة. لكنها لم تحبل (ما أفظع هذه الكلمة!) كان عالمها وعاء بلا قرار، يستوعب كل شيء يقع فيه، لكنه لا يستطيع أن يعطي شيئاً لهذا العالم. الشرطي فيدورتشوك، رجل متين جذاب- أسمر، أجعد الشعر، أسود العينين و- متزوج لا ينوي الطلاق؛ والمحاسب زيلدوفيتش الذي شاب وأصيب بالصلع مبكراً، كان يحب أن ينام داسّاً أنفه في صدرها؛ والطالب الذي يدرس الكيمياء ذو الكنية المضحكة (أوبيذا)4وآثار التوجع الأبدية على الوجه... كل هؤلاء

انسابوا عبر سريرها الحديدي ذي الطابات الحديدية اللامعة عند الرأس، عبروا حياتها، دون أن يتركوا أثراً، غير أن هذا لم يكن يثير قلقها أبداً.

وفجأة- يظهر إيفان. فانيا.

أية ريح مفاجئة هبت فحملت هذا الجميل، ذا القامة الطويلة، والكتفين العريضين، والنظرة المتعالية، والهيئة الصارمة، إلى حياتها المغبرّة، المحمية جيداً بآلتها الطابعة؟ تمسكت إيلونا به بشدة، بكل ما في أصابعها الشاحبة، التي أرهقها النقر على مفاتيح الآلة الكاتبة من قوة. كانت تقهقه في السينما، وتردّ رأسها عالياً إلى الخلف، تلتهب خجلاً وترتدي لنزهة المساء بلوزة أمها المخيطة من الشيفون الشفاف الفاقع اللون، وتحرص على أن تكون في الليالي شهوانية ونشيطة، وقد خاطت على سترته رزّين كي تثبت علاقته بها حسب المعتقد الشائع، بل إنها تعلمت طريقة إعداد الرقائق في أيام الأحد.

لقد ألقى في وجهها في وطيس الشجار الأخير كلمات لم تفهمها جيداً عن حب الأطفال فشعرت كأنه يصفعها. هل صحيح أن هذا المحارب الصارم ذا العينين الباردتين، يريد هدوءاً أسرياً، يريد أطفالاً؟

صورة أمها التي على الطاولة الصغيرة تنظر إليها، تدعوها إلى عدم الاستسلام! عثرت إيلونا في قاع السقيفة المغبرّة على دفتر المذكرات ووجدت بإصبعها الراعش من شدة الانفعال في ثنيات ورقة مصفرة، العنوان المنشود وتوجهت إلى مكتب «بروفيسور الطب النسائي». فانيا يريد أولاداً- وهي ستنجبهم له، إذا استطاعت طبعاً.

لقد كان بمقدور «الموهوب من اللـه» أن يغلق عيادته في الأعوام الماضية، أو يغيّر عنوانه، أو ببساطة- يهرم ويموت. لكن- يا لسعادتها العظيمة غير

المعقولة!- «الموهوب من اللـه» ما زال يعيش هنا، ترعاه ككلب يقظ امرأة- جبل، لها نظرة دبة جائعة.

وها هي ذي إيلونا تقف مطرقة في وسط الغرفة، ويسير البروفيسور الغريب الأطوار لملاقاتها، ذيلا معطفه الأطلس المنزلي ينفتحان وينغلقان، وخصلات شعره معقوفة في نصف دائرة كأنها هالة حول جبينه اللامع العالي الذي ينتهي بنقرة ناعمة لامعة أيضاً. ينحني على يدها التي اصطبغت بالحمرة في الحال خجلاً (لم يسبق أن قبّل أحد في أي يوم أصابع إيلونا، حتى ولا المحب جداً الشرطي فيدورتشوك، ناهيك عن الغرباء).

- شكراً يا غرونيا،- يقول البروفيسور بصوت منغّم.

المرأة- الدبة تفرغ صدرها الضخم من الهواء وهي تشعر بخيبة أمل، ثم تستدير ببطء حاملة جسدها البدين إلى خارج الغرفة.

يشير البروفيسور بلطف بكفه الجافة إلى كرسي ذي قوائم خشبية معوجة، وذراعين مدهونتين بلون يذكّر بالكاتو في مخزن غورزينا. إيلونا التي ما زالت عاجزة عن فتح رموشها المدهونة بكحل أسود، تجلس على حافة المقعد المغطى بغطاء من الأطلس المزهر. شيء ما صغير حاد ينغرس في ساقها: أتراه مسمار؟! تصبر وتقرر تجاهل الأمر.

- اعذريني على مظهري غير المناسب،- يدمدم ليبييه.- أنا عادة، أستقبل الزبائن بعد الظهر. لكن، ما دمت قد جئت- وهذا يسرني، صدقيني!- سنتحادث حول...هم- هم- هم... مشكلتك.

الأمر مخجل، يا إلهي، كم هو مخجل... تبتلع إيلونا كومة لعاب تجمعت في حلقها، ثم ترفع عينيها.. «الموهوب من اللـه» يجلس في وضع مريح خلف طاولة المكتب الكبيرة، ويضع يديه على غطائها المخملي الرمادي الفاتح.

- استمع إليك بكل ما أستطيع من اهتمام.

عينا البروفيسور الزرقاوان الرقيقتان تنظران بحنان. وتظهر تحت المعطف المنزلي على الصدر فتحة تتوزع منها أشعة الشمس في اتجاه أضلاعه الرفيعة. تخفض إيلونا بصرها. أشياء كثيرة مسموح بها «للموهوب من عند اللـه»، ومنها بعض الحركات الغريبة، واستقبال الزبائن بهذا الزي الاستثنائي.

- إم- إم- إم؟- يشجعها ليبييه.

- أنا بحاجة إلى إنجاب طفل،- تقول متنهدة.- مهما كان الثمن.

يأخذ البروفيسور من الصينية الموضوعة على الطاولة، ملعقة فضية، وينقر بها الفنجان شارد الذهن- فنجان القهوة الأنيق المصنوع من البورسلان الأبيض الحليبي الرقيق، ذا الخصر الضامر الرشيق والقبضة المغناج. يعلو الرنين أصم ومبتذلاً على غير توقع: لياتس- لياتس... لياتس- لياتس...

- منذ متى بدأت ترغبين في ذلك؟

- منذ زمن غير بعيد... لكني كنت أستطيع ذلك منذ زمن... أعني: نظرياً... بل تطبيقياً أيضاً...-يختلط عليها الأمر تماماً، فتدسُّ ذقنها في ياقة بلوزتها المكوية فوق صدرها.- منذ سبع سنوات.

- أنت، إذن، على علاقة مع الرجال طوال سبع سنوات، لكنك لم تحبلي، أهذا ما أردت قوله؟

تدس إيلونا رأسها بين كتفيها: نعم، هذا بالضبط. المسمار الذي في إطار الكرسي يخز ساقها بشدة وإلحاح. لكن إيلونا تخاف أن تتحرك، فقد يؤدي ذلك إلى تمزق ثوبها!

- حسناً، لا بد من فحصك في البداية، وملء استمارة المعلومات الطبية. بعد ذلك سيتضح إن كنت أستطيع مساعدتك، أو محاولة مساعدتك على الأقل.

- أنا مستعدة للفحص،- تهمس إيلونا في قماش البلوزة على صدرها.

لكن يا عزيزتي، أنا لست مستعداً!- يقول البروفيسور ضاحكاً- أين تريدينني أن أفحصك- أعلى هذه الطاولة؟! صحيح أنني أعالج مرضاي في البيت، لكنهم يقومون الآن بترميم الشقة. يا للترميم الفظيع الذي لا ينتهي! غرف الطعام، والضيوف، والنوم، والمكتبة، والشرفة، والاستقبال- كلها يشغلها هؤلاء العمال الذين لا يطاقون ويضجون فيها أياماً بطولها. إنهم يحرمونني من التفكير، والعمل، ومن العيش في نهاية المطاف! ولا يبقى لي إلا أن أسترق ساعات هدوء في الليل، حين يتوقفون عن ضجيجهم الذي لا ينتهي. أنا مضطر في بيتي إلى العمل ليلاً، في ضوء المصباح كفأر!- يشير برأسه إلى الورقة التي أمامه- من حسن الحظ أن هذه الحال ستنتهي سريعاً. لقد وعدتني غرونيا بذلك، وقالت إن الانتظار لن يطول.

- غرونيا؟- إيلونا لا تستطيع أن تفهم ما يحدث: «هل الموهوب من اللـه» يرفض أن يساعدها؟

المسمار انغرس في جسدها إلى عمق لا يحتمل، فكأنها تجلس على سيخ حاد.

- غرونيا تعرف كل شيء،- يأخذ البروفيسور الفنجان عن الطاولة، يقرّبه من فمه وهو يتلمّظ متوقعاً مذاق القهوة.- إنها ملاكي الحارس، لولاها لضعت. تستطيعين أن تعرفي منها متى ستنتهي هذه الحالة،- بعد أسبوع، بعد شهر،- وستأتين إليّ بعد أن تنتهي.

أخيراً ترفع إيلونا التي أرهقها الخجل وعدم الفهم، عينيها.

- أنا لا أستطيع الانتظار يا بروفيسور.

- في هذه الحال... يحرك فنجانه في حيرة،-... تعالي إليّ في المستوصف. أنا أستقبل المرضى هناك في أيام الخميس... أو الجمعة... تأكدي من الموعد عن

طريق غرونيا.

تنهض إيلونا عن الكرسي بحدة (الأدق: تنهض عن المسمار) وتجثو على ركبتيها أمام طاولة البروفيسور.

- لا تؤجلني يا بروفيسور! ساعدني! أنت أملي الأخير!

- لا، لا! يصرخ ليبييه، بصوت رفيع غير متوقع.- أنا لا أعرف شيئاً! غرونيا تعرف! اذهبي إلى غرونيا!

- أنت الوحيد الذي يستطيع أن ينقذني! أنت عبقري! «موهوب من اللـه»!

تزحف إيلونا على ركبتيها نحو الطاولة، تسقط يديها على غطاء الطاولة. عمود غبار رمادي- فاتح يتصاعد من تحتهما- ويظهر بوضوح تحت طبقة الغبار أن غطاء الطاولة ذو لون أخضر كثيف. الغبار يغطي كل شيء: غطاء الطاولة، وأدوات المكتب، ودواة الحبر المفتوحة التي جف الحبر في قاعها، والورقة البيضاء بياضاً عذرياً، وريشة الكتابة ذات الرأس المكسور، الموضوعة فوقها.

وضع البروفيسور الذي ارتد خائفاً، فنجان القهوة أمامه وكأنه يحتمي بهذا الفنجان المشروخ شرخاً واسعاً، والفارغ تماماً.

- سامحني بحق اللـه،- تزحف إيلونا على ركبتيها ببطء عائدة إلى مكانها.

الشمس تخترق فتحات النوافذ الثلاث القذرة، والهالة الجعداء المنفوشة حول صلعة البروفيسور، وتنصب ذهباً ساطعاً. هو يضع الفنجان على الصينية، ويعيد تنظيم أنفاسه المتسارعة، ثم ينهض عن الطاولة وهو ما يزال ينظر بحذر إلى إيلونا، يحمل بيده رشّاش الماء المعدني، فيسيل الماء من ثقوب الرشاش جداول على البرميل الخشبي الذي تنتصب فيه عصاة معوجة جافة خالية من أية فروع- إنها الهيكل العظمي للشجرة التي ماتت منذ زمن بعيد.

- سامحني بحق اللـه، سامحني،- تهمس إيلونا وهي تنهض واقفة، تنفض ثوبها.- سامحني، سامحني...

- أهي جميلة؟- يبتسم البروفيسور مرتبكاً ويمر بإصبعه ذي الظفر المكسور على العصا الجافة. يرتد إلى الخلف يتأملها، ويمسّد بكفيه أوراقها التي لا وجود لها.

- وداعاً، إيلونا تتراجع نحو الباب.

- أنتظرك في المستوصف،- يقول ليبييه وهو يحني رأسه مودعاً، من دون أن يرفع عينيه عن النخلة العصا.

ينفتح الباب قبل ثانية من وصول إيلونا إليه، في فتحته يظهر جسد غرونيا العملاق، تناول إيلونا معطفها وقبعتها، فتفهم إيلونا أنها كانت تسترق السمع وراء الباب.

- هل صحيح أن البروفيسور ليبييه يستقبل المرضى في مستوصفه أيام الخميس؟- تسألها وهي تمشي في الممر المعتم.

- وولف كارلوفيتش لم يخرج من غرفته منذ عشر سنوات،- تجيب غرونيا.

عبقري.

وولف كارلوفيتش يهز رأسه بالنفي. كان يشعر بالارتباك في كل مرة يسمع فيها هذا الوصف المتحمس من مرضاه، وطلابه.

«الموهوب من الرب».

أي موهوب هو!... إنه يشعر بنفسه طفلاً صغيراً يقف على شاطئ المحيط. هكذا يرى نفسه في دنيا العلم. ولم يكن يخجل من الاعتراف بذلك من على المنبر وهو ينظر إلى عيون طلابه المفتوحة على اتساعها.

لا أحد غيرك يمكن أن ينقذني.

أواه، إن هذا ليس صحيحاً. جسم المريض هو الذي ينقذ المريض. أما الطبيب فيساعده فقط، يوجه قواه في الاتجاه الصحيح، وأحياناً، يخلصه من الزوائد، غير الضرورية، الميتة. الطريق إلى الشفاء يقطعه الطبيب والمريض معاً يداً بيد، لكن جزأه الأكبر، الخطوة الحاسمة، دائماً بيد المريض، بمدى إرادة الحياة عنده. بقواه الجسدية. طلاب الصفوف العليا، الذين تعاملوا مع أسرار الأدوية، وأجروا عملية أو عمليتين جراحيتين بسيطتين، كانوا يقدمون أحياناً على مناقشته في هذا الأمر. إنهم فراخه اللطفاء...

ألم يحن وقت الذهاب إلى الجامعة؟ زيارة الفتاة أخرجت وولف كارلوفيتش من دائرة حياته المعتادة، فشعر بالضياع، واختلطت عليه الأمور. ترى متى موعد محاضرته اليوم؟ الأمر يتوقف على اسم هذا اليوم من أيام الأسبوع.

طيّب، وما اسم هذا اليوم؟

ليبييه ينظر إلى الساعة- عقاربها تقف جامدة على مينائها.

يأخذ عن ظهر الكرسي زيّ الأستاذية- وهو يفهم أن هذا ليس إلا معطف أبيه المنزلي القديم. أين الزيّ إذن؟ أين ذلك الزي المخيط من قماش سميك لونه أزرق غامق، وعلى سترته أزرار خاصة، مرسوم على كل زر منها جناحا نسر صارم برأسين؟ الزي يلتمع على صدره مستطيل ضيّق أبيض هو رمز الأستاذية في جامعة قازان؟ الزي الذي تنفض عنه غرونيا ذرات الغبار كل يوم؟ لا بد أنها أخذته للتنظيف.

يخطو وولف كارلوفيتش نحو الباب. تغرق قبضة الباب المطواعة في كفه. يداعبها طويلاً ويضغط عليها بود- بعد ذلك يشدها بحدة إلى أسفل، ثم يمشي في عتمة الممر اللانهائية...

غرونيا تحف بهمة خاصرة القدر التي يغطيها الهباب، بقطعة قماش مشبعة برغوة الصابون، فتنتفخ الرغوة البيضاء فوق هباب الكيروسين ثم تسود. لقد تملكت غرونيا منذ أن ظهر ستيبان، رغبة في أن تحف الأواني إلى درجة نظافة مرآتية لا تطاق، فصارت طاسات البروفيسور، والمقالي تلتمع بين يديها القويتين لمعاناً لا مثيل له، يعشى له البصر.

تشعر بظهرها كيف تنغرس بين كتفيها نظرات الجارات غير الودية. فلتنظر هؤلاء العاهرات. في الشقة الجماعية لا يحببنها كثيراً- لأنها تتصرف وكأنها ربة البيت. ولكن من هي؟ إنها ربة البيت فعلاً، فهنا، كل جدار، وكل لوح في أرضية الغرف، وكل بلاطة، وكل خدش على الأبواب البيضاء يعرف يديها- فهاتان اليدان مسحته ونظفته، وغسلته، وحفّته مئات المرات.

حين صاروا في عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين، يرسلون سكاناً إلى شقة الأستاذ، شغلت بقوة موقعاً دفاعياً، جمعت بدقة أثمن الأشياء، وأخذتها إلى غرفتها (أطقم صحون الطعام وفناجين القهوة، وأدوات طاولة الطعام الفضية، والمشاجب الثقيلة، والستائر المخملية- إذ هل من المعقول أن تترك هذه الأشياء للساكنين الريفيين، أنصاف الأميين؟) وشغلت أفضل طاولة في المطبخ، أما في الممر فشغلت أكبر خزانة، أضف إلى ذلك أنها استولت أيضاً على السقيفات، وحملت ذات مساء معتم أزرق، إلى مدير المسكن محبرة من الفضة ضخمة كالوسادة، ثقيلة كالحجر، عليها إهداء «إلى الأستاذ في علوم الطب و. ك. ليبييه مع الاحترام العميق، من رئيس جامعة قازان الإمبراطورية غ.ف. دورميدونوف»- لم تبخل بذلك (إذ لا بد من الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع مدراء المساكن. هذا أمر يدركه حتى أغبى الناس).

في هذه الأثناء، حطمت التغيرات التي جرت في البلاد البروفيسور، فعانى بشدة من التشيكيين البيض، وغضب عليه رؤساء الجامعة الجدد (تعاقب الكثيرون

منهم على هذا المنصب في الأعوام الأولى للحرب الأهلية). أغلق المستوصف... وفي صباح أحد الأيام لم يخرج وولف كارلوفيتش من الغرفة. لم يشعر بغيابه أحد، إلا غرونيا التي حملت إليه في طعام الإفطار فنجاناً من منقوع الأعشاب، الذي أحب البروفيسور أن يشربه في الصباحات بدلاً من القهوة المعتادة. نظرت إلى عينيه الزرقاوين العميقتين المبتهجتين غير المعكّرتين بأحزان الدنيا وتأوهت بصوت خافت. انتابها الخوف في البداية، لكنها فهمت بعد ذلك أن الوقت الذي ستكون فيه ربة البيت قد حان.

كانت تعامل الساكنين بصلابة وكأنهم حشرات، لكنها، ببساطة، لا تعرف كيف تسممها... أما ستيبان الذي نبق في حياتها منذ نحو شهرين فكان يعرف، وقد قرر أن يبدأ بالأسهل- بالبروفيسور.

انتاب الشك غرونيا فترة قصيرة. لقد أضجرتها حتى الموت رعاية نصف المجنون الذي كان ربّ بيتها. وأحبت حتى الموت أيضاً، أن تكون بالنسبة إلى ستيبان إجاصته وتفاحته، خوخته، ونادراً (سامحني يا رب فأنا آثمة...) مشمشته. وها هي الرسالة قد كتبت وأرسلت بالبريد (غرونيا آنذاك تعرقت بغزارة كما تتعرق الجياد، وهي تكتب ما يمليه عليها ستبان من كلمات طويلة، صعبة النطق، لا تفهم معناها: هل كلمة بورجوازي تكتب بواو أو من دون واو؟ وكلمة ألماني- بهمزة أم من دون همزة؟ والثورة المضادة بكلمتين منفصلتين أم بكلمة واحدة؟...) إذا كان ستيبان محقاً، سيأتون سريعاً كي يحرروا مكتب الأستاذية ذا النوافذ الغريبة الشكل التي تطل على حديقة قديمة، وتفوح منه رائحة دهان الأرض، والموبيليا الثقيلة المصنوعة من خشب الجوز. سيحررونه من أجل غرونيا التي تنتظر دورها في السعادة منذ عشر سنوات. وبعد ذلك...- ماذا قال ستيبان في الصباح؟- قال إنه لا يجوز أن يقضيا العمر في غرفتين...

تغسل غرونيا القدر في الطست. فيسود الهدوء الشديد في المطبخ فجأة. لم تكن الجارات يتحادثن في حضورها، بل يكتفين بتبادل النظرات. لكن الهدوء الآن خلف غرونيا- طويل، وثقيل على غير العادة، ويهسهس كأن أحدهم يشرب حساء ما.

تلتفت غرونيا.

في المطبخ الجماعي يقف البروفيسور ليبييه.

ابنة الجيران التي تتعثر بها أقدامهم دائماً، على دراجتها ذات الثلاث عجلات، ترن جرسها خائفة- دزين!- وتسأل بهدوء: «ماما من هذا؟»

جمدت النساء. بعضهن يحمل مقلاة، وبعضهن يحمل مكواة. وبعضهن يحمل ممسحة بيده وينظر إلى عيني ليبييه. أما هو فلا ينظر إلا إلى غرونيا.

- أين بزتي، بزة الأستاذية الرسمية؟- يسأل بصوت مرتفع من شدة الانفعال.

تضغط الممسحة في يدها فتتسرب رغوة الصابون من بين أصابعها، وتسقط في الطست محدثة صوتاً.

- هيا نبحث عنها في الغرفة يا بروفيسور،- تقول فجأة بصوت محبط. هيا بنا إلى الغرفة!

- لقد بحثت عنها هناك،- يجيب ليبييه معانداً. أعطني زيي الرسمي فوراً.

أنا تأخرت.

تتلمس الجارات بعيونهن المتسعة بسبب الفضول، قامة البروفيسور الضامرة، وينقلنها إلى غرونيا، ثم يعدن بها إليه من جديد.

أحقاً يحدث هذا؟!- عشر سنوات لا يتذكر ذلك، ثم... الآن بالذات، حين يجب أن يصلوا اليوم أو غداً... ليت غرونيا لم تشرب القهوة بفناجين البروفيسور، أواه،

ليتها لم تشرب... ستيبان لا يحتاجها وهي هكذا- في غرفة صغيرة وحيدة في بيت نمل جماعي... تبرد أصابع غرونيا الغليظة المغطاة رغوة الصابون البيضاء المتناثرة في الهواء.

- هل ستعطينني الزي الرسمي أم لا؟

تصعد، تحت تصويبات عيون الجارات اليقظة، على طاولة صغيرة، وتسحب من السقيفة حقيبة ضخمة من الخشب المضغوط. تبحث فيها، فتخرج من قاعها الزي الرسمي مدعوكاً مطرزاً بخيوط العث، وأبيض بفعل الغبار.

يضحك ليبييه بفرح ويرتديه وهو يمسّده بحنان، ينفتق الكم، ويزحف الخيط متعرجاً فيتسع الفتق. وينقطع الزر المسود ثم يسقط على الأرض محدثاً صوتاً ويتدحرج إلى مكان ما في الزاوية.

- هذا ما خمّنته، أنت أخذته للتنظيف،- يقول البروفيسور وهو يبتسم راضياً، ويصلح على صدره وضع الشعار الذي بهت لونه، ثم يلتفت.

- إلى أين؟- تسأله غرونيا والشعور بقرب حدوث كارثة يكاد يقتلها.

- إلى الجامعة، عندي محاضرة،- يهز كتفيه مندهشاً ويخرج بحذائه المنزلي من دون كعب.

- ليته انتعل حذاء،- تقول إحدى الجارات وقد استعادت أخيراً القدرة على الكلام.- سيصاب بنزلة برد...

لحسن الحظ لم يصب وولف لوكاروفيتش بنزلة برد، لم يتسع له الوقت لذلك، فقد أخذوه بعد دقيقة بالضبط- وهو ما يزال في المدخل. وعلى مرأى نصف سكان البناء الذين كانوا يتأملون خروج الجار الغريب إلى ضوء النهار. إنه، ما إن بدأ يهبط الدرج ركضاً- ساقاه ركضتا تلقائياً وبسهولة وكأنه ما يزال شاباً،- حتى لاقته على الدرجات نفسها سيقان أخرى راكضة إلى أعلى، وقد انتعلت جزمات سوداء.

- وولف كارلوفيتش ليبييه؟- سألوه؟

- نعم!- قال معجباً بجوابه.- هل جئتم من أجلي؟ من الجامعة؟

- من هناك،- قالوا يطمئنونه.- هيا بنا إلى السيارة.

- منذ متى صاروا يرسلون لإحضار الأساتذة مثل هذه السيارات الفارهة؟!- قال وولف كارلوفيتش بلهجة تنم على الإعجاب، وهو يجلس على المقعد الخلفي، ويتلمس بفضول طفلي غلاف مقاعد صالون السيارة الجلدي الناعم كالحرير.

جلس إلى جانبه أناس يرتدون زياً رسمياً ملصقين به أكتافهم المتينة. ابتسم ليبييه، وهو يحاول أن يشد على أيديهم. انغلقت أبواب «الفورد» السوداء، فطوح البروفيسور بيده مبتهجاً مشيراً إلى السائق بكفه: هيا بنا!

في اللحظة التي حملت فيها السيارة السوداء وولف كارلوفيتش، واختفت وراء المنعطف ناثرة الثلج من تحت عجلاتها في الوداع، تعلّق على باب الغرفة التي كانت مكتب البروفيسور مخلب قفل كبير ثقيل. ودس ستيبان في جيبه الزجاجة المفلطحة ذات اللون الغامق، ومضى لزيارة مدير المسكن، وطافت عينا غرونيا بنظرة قيصرية على الجيران الذين احتشدوا قرب الباب المغلق (لقد أراد هؤلاء «الجقلان» الاستيلاء على موبيليا مكتب الأستاذ!) ثم ذهبت إلى غرفتها من دون أن تقول شيئاً.

هم لم يأخذوا البروفيسور ليبييه بعيداً - سيأخذونه مباشرة إلى مبنى الإدارة المحلية، حيث سيظل المحقق بوتيلكن يعذب هذا الجاسوس الألماني المتخفي بنجاح في هيئة مجنون، لكنه سيستسلم أخيراً ويقرر إرساله إلى مصح نفسي في سهب أراسك- ليتأكدوا أنه جاسوس، أو أنه مجنون حقاً. لكن الوقت لن يسعفه.

في منتصف شباط عام ألف وتسعمئة وثلاثة عشرين، ستتخذ اللجنة المركزية واللجنة القومية التترية في الجمهورية السوفييتية الاشتراكية ذات الحكم الذاتي،

قراراً «بالقضاء في تتاريا على الكولاك كطبقة». وبعد أسبوع، في اجتماع عملياتي في اللجنة المركزية سيتضح أن وتائر العمل الجماعي والقضاء على طبقة الكولاك منخفضة انخفاضاً فظيعاً في الجمهورية.

وبشكل تلقائي، ومن دون علم القادة الحزبيين وكبار أعضاء الحكومة سيحال بعض ضيوف الإدارة المحلية غير الضروريين للتحقيق بوصفهم من الكولاك، وستضيع قضاياهم، يغطيها الغبار في الخزائن والصناديق الحديدية، وتحترق في النيران. أما هم فسينقلون من الزنزانات الفردية، إلى العزل على ذمة التحقيق في زنزانات سجن المهجرين. وستصبح تاتاريا الحمراء في منتصف آذار في المرتبة الثالثة في البلاد من حيث وتائر نمو العمل الجماعي.

سيكون وولف كارلوفيتش ليبييه من بين الذين يقيمون في سكن المهجّرين الأسطوري. لن يدهش أبداً، بل الأصح أنه فرح- فهو أصيب بالضجر في السنوات العشر الماضية واشتاق للناس. سيقلقه قليلاً سؤال وحيد فقط هو: هل أمور غرونيا على ما يرام؟

أما حياة غرونيا فستجري كما تريد. ستشرب القهوة صباحاً في فناجين البروفيسور. صحيح أن هذه الفناجين لن تكون مريحة أبداً- فهي رقيقة وضحلة، مزعجة ولا شيء غير ذلك. بعد عام سيحرر ستيبان غرفة أخرى يستخدمها، وبعد عامين ستنتقل الإدارة المحلية إلى بيت مجاور قرب البحيرة السوداء. سيفكر ستيبان قليلاً ثم يلتحق بالعمل هناك. سيرتقي في عمله سريعاً، ولن يحتاج إلى الأسلوب الذي يتقنه من أجل أن يستولي على غرفة أخرى، لأنهم سيعطونه سكناً فاخراً مستقلاً في منطقة بوشتامتسكويه.

ستضجر غرونيا حين تصبح ربة البيت المطلقة الصلاحية في الشقة الجديدة الكبيرة: فهي لن تجد من تتعارك معه، فستيبان يظل في العمل ليلاً ونهاراً. لذلك ستقرر حين تكتشف أنها حامل وهي في السادسة والأربعين من عمرها، أن

تحتفظ بالجنين، وستموت عند الولادة. ولن يستطيع الدكاترة في مستوصف الجامعة غير أن يبسطوا أذرعتهم في يأس، قائلين: إنه حادث مأسوي ثقيل.

إنسان جيد

قازان

السحنة المشعثة الشعر تصرّ على أسنانها الصفراء، تجعر هازة شفتيها الكبيرتين المقلوبتين. زليخة تضغط بقوة أكبر على لجام الفرس. أنقذنا يا اللـه! ما هذا الوحش الجهنمي؟

- إنه جمل!- يصيح أحدهم وراءها.- جمل حقيقي!

الوحش الفظيع يهز الرجل الجالس بين سناميه في معطف سميك مزرّر، ويمرّ بجانبها مخلفاً رائحة حادة.

تمضي العربات في الشارع الرئيسي، القافلة تتجمع وتمتد- الأحمال تمضي متلاصقة، حملاً بعد حمل. البيوت حجرية زرقاء، ووردية، وبيضاء تشبه علباً مزركشة ضخمة، على سطوحها تتكدس أبراج، بعضها أصغر من بعض، تتفتح تارة كزهور معدنية، وتارة كقواقع ملونة تلتمع فوق أكوام الثلج. وثمة أغصان ناتئة صغيرة تتسلل من جانبي الطّريق فتدغدغ الكعوب العارية للنساء والرجال. (يا اللـه! ما هذا العار!)، الذين يحملون على أكتافهم البارزة العضلات سلالاً ثقيلة، ويسيرون بين الأسوار المعدنية المتعرجة.

إنها قازان.

سيدات ينتعلن أحذية بكعوب عالية (عجباً كيف لا يقعن من فوقها!)، وجنود في معاطف طويلة بلون فأري (تماماً كلون معطف عضو الفصائل الحمراء إيغناتوف)، وموظفون يرتجفون برداً في سترات مهترئة، ونسوة يبعن الفطائر، ينتعلن جزمات واسعة من اللباد (ورائحة طريفة، تفوح، رائحة...)، ومربيات ممتلئات الأجسام يحملن أطفالاً ملفوفين بشالات من الصوف في عربات

خشبية... وفي أيدي الناس مغلفات، وحقائب، وأكياس، وحقائب نسائية، وباقات زهر، وقوالب حلوى...

تقتلع الريح من يد فتى نحيلٍ بنظارة، رزمة من الأوراق وتنثرها على سحنة بقرة تمر بجانبه يقودها من رسنها فلاح نحيل.

تضج العجلات الست الثقيلة لجرار دعاية ضخم يجر خلفه ناقوساً ضخماً مشروخاً حوله إعلان مكتوب على شريط قماشي يلتف كالحية: «لنصهر النواقيس ونحولها إلى جرارات!»

الثلج المتسخ ينفجر على الطريق ينابيع صغيرة- تارة تحت حوافر خيل فصيل في الشرطة الفرسان، وتارة تحت عجلات السيارات السوداء اللامعة القادمة نحوه من الجهة المقابلة.

يطير الترامواي وهو يرن رنيناً يصم الآذان، تلتمع أطره المغطاة بالنيكل بلون ناري أحمر، وتطل من نوافذه التي بلا زجاج كومة من الوجوه. يندفع سرب من الأطفال المشردين من جانب الطّريق نحو الترامواي ويتعلقون به، فيهز الجابي الغاضب قبضتيه وهو يطلق الشتائم، بينما يقطع الشرطي الطريق من الجهة الأخرى مطلقاً لصفارته العنان.

تزم زليخة عينيها. البيوت كثيرة. والناس كثيرون. وكل شيء مرتفع الصوت، ساطع، سريع، فواح الرائحة. وهذا مفهوم- إنها العاصمة. قازان تعرض بسخاء كنوزها أمام عيون المهجرين المذهولين، من دون أن تنتظر حتى يلتقطوا أنفاسهم.

مسلّة كنيسة القديسة بربارا الحمراء- البيضاء تنتصب مهيبة، أما الفجوة التي كان فيها الناقوس فتطل يتيمة خالية، وفوق مدخل الكنيسة عبارة مكتوبة بلون أصفر: «أهلاً وسهلاً بالعاملين في أول مرآب للتراموايات!» ويبدو البيت الذي كان

يقيم فيه الجنرال المحافظ، مزيناً كقالب حلوى، وقد تحول الآن إلى مشفى لمرضى السل. ساحة التزلج على سطح البحيرة السوداء ترن بضحك الأطفال. وتظهر بيضاء رقيقة أعمدة جامعة قازان التي يضاهي كل منها بثخنه ثخن شجرة سنديان.

رؤوس أبراج، دير الكرملين تشبه رؤوس قطع السكر. من الفتحة المستديرة لميناء ساعة برج سباسكايا، ينظر إلى زليخة، بدلاً من أرقام الساعة، وجه صارم، ذكي، زام عينيه تحت حاجبن كحاجبي الصقر، وتحت أنفه موجة من الشوارب. من هذا؟ إنه لا يشبه معبود المسيحيين الذي شاهدته زليخة ذات يوم في لوحة أراها لها حضرة الملا.

تعلو فجأة صيحة: «وصلنا!» كيف؟ إلى اين وصلنا؟ تتلفت زليخة مضطربة. أمامها مبنى واطئ، أبيض متسخ، نوافذه مربعة ضيقة- على جداره سلسلة حديدية، يحيط به سور حجري ارتفاعه ثلاثة أضعاف طول قامتها.

- انزلي، هيا، يا خضراء العينين!- يتجعد خدا الأسمر في ابتسامة وهو يغمز بعينه، ويتلمس بنظره الخروف الذي خبأه في العربة تحت الأكياس، أتراه لا يزال حياً؟

تضغط زليخة صرّة متاعها إلى صدرها وتقفز إلى الأرض، تقابها حراب مشهرة- ممر من الجنود الفتيان يقود إلى باب حديدي مفتوح على مصراعيه. هذا يعني أنها يجب أن تتجه إلى هناك.

يمسك الأسمر بعنان ساندوغاش، فتصهل الفرس صهيلاً حاداً، وترتعد لملامسة اليد الغريبة. ترمي زليخة الصرّة، وتهرع نحو الفرس، تلصق وجهها بوجه الفرس الحبيب.

- هذا ممنوع!- تعلو صيحة مهتاجة خلفها، وينغرس في ظهرها جسم حاد- رأس حربة.

- رويدك،- يقول الأسمر بصوت ضاحك.- دعها تودّعها، هل يسوءك ذلك؟

- سأعدّ حتى ثلاثة!- يقول الصوت بصرامة.- واحد!

تفوح من ساندوغاش رائحة عرق صحي، وقش، وعلف، وحليب- إنها رائحة البيت. تلتصق الفرس بصاحبتها، وتتنفس بفرح، فترقد رطوبة خيشومها الدافئة الرقيقة على خد زليخة، فتدس الأخيرة يدها في جيبها وتخرج السكر المسموم. القطعة الكبيرة الثقيلة تضغط كفها كحجر. لقد فكّر مرتضى في كل شيء، هو الآن ملتحق بأسلافه، أما أفكاره فما زالت توجه سلوك زوجته.

- اثنان!

تفتح زليخة يدها المتعرقة وترفعها إلى وجه ساندوغاش. تحني الفرس رأسها ممتنة، مبتهجة، ويقفز المهر من بين قوائمها، يدفع أمه جانباً، ويمد رقبته الطويلة بلهفة، يشخر، يحاول بشفتيه الممطوطتين التقاط الطعام اللذيذ على عجل.

- ثلاثة!- ينغرس رأس الحربة بين كتفيها فيؤلمها.

زليخة تضم أصابعها وتدخل يدها التي تحمل السكر في جيبها. تحرج من الجيب الآخر رغيف الخبز، وتدس قطعة بين شفاه ساندوغاش ومهرها، الممطوطة بثقة.

سامحني يا مرتضى على عدم تنفيذ أوامرك. أنا لم أستطع. إنها المرة الأولى التي أعصي فيها لك أمراً.

يعلو من الخلف صوت إيغناتوف الغاضب: «ما الأمر؟ لماذا هذا التوقف؟» تلتقط زليخة الصرة عن الأرض وتجتاز الباب المفتوح.

تمشي طويلاً في الفناء الأجرد المتجمد، ثم في الممر الطويل- وراء جندي صغير الحجم يمشي أمامها مضيئاً بمصباح كيروسين الجدران الحجرية الخشنة مخترقاً رطوبة الجو. جندي آخر تصدر جزمته أصواتاً خلفها. يرتجف كتفا زليخة من البرد- حتى البرد يبدو هنا مختلفاً: إنه جامد، رطب، لزج. وتتناهى من وراء الأبواب الثقيلة والنوافذ الضيقة ذات الشباك على شكل صلبان، أصوات بلغات روسية، وتترية، وماريبيسكية، وتشوفاشية: أغان وشتائم وبكاء أطفال...

- أريد ماءً أيها الرئيس! أريد أن أشرب...

- أنا أطلب بإصرار، لا، أريد محامياً! المحكمة السوفييتية ملزَمة...

- أريد امرأة أيها القائد. هات لنا امرأة، ما رأيك؟

- أرجوك بشدة: رقم الهاتف اثنان- خمس وثلاثون. قل لهم فقط: المتصل بافلوشا سيميونيتش...

- لقد تذكرت! تذكرت كل شيء! استدعوا لي المحقق إيغانوف! قولوا له: سيدورتشوك سيوقع الإقرار...

- لتحترقوا في جهنم الحمراء حتى نهاية العصور...

- أتوسل إليكم- أعطوني إسبرين! حرارة الطفل مرتفعة...

- في منطقة ديريبسكايا افتتحوا مشرب بيرة، هناك تلتقي مجموعة من الفاسدين...

- اتركوني يا أبناء الكلب! يا سفلة! يا أوغاد! آه- آ- آ- آ...

يرسل الباب صريراً ثقيلاً، وهو ينزاح جانباً. الجندي يشير برأسه: إلى هنا. زليخة تخطو في عتمة كالحبر، تفوح فيها رائحة أجساد لم تغتسل منذ زمن، وحديد الباب يدفعها في ظهرها. ينغلق الباب من الخارج بالمزلاج. تنتظر زليخة إلى أن

تعتاد عيناها العتمة، فتسمع أصوات تنفس أفواه كثيرة. ويتسلل من بين شباك النافذة المربعة ضوء خافت- وتألف عيناها الظلام فتبدأ تميز قامات الناس والأشياء.

الأسرّة ممدودة في طابقين، وهي تعج بالناس. وهناك من يجلس على بعض الصناديق، أو على أكوام من الملابس، أو، ببساطة، على الأرض. الناس كثيرون جداً. بحيث لا يجد المرء موطئ قدم. منهم من يحك جلده بصوت مسموع، ومنهم من يتكلم بصوت منخفض. وثمة أم تروي لابنها قصة همساً. ويهمس بعضهم في إحدى الزوايا: «يا سيدي يسوع، ارحمنا نحن الخاطئين». «أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم»، -يعلو صوت من زاوية أخرى.

لا أحد يلتفت إلى زليخة، وهي تشق طريقها إلى العمق محاولة ألاّ تدوس على أيدي أو أرجل الآخرين. حين وصلت إلى أحد الأسرة وقفت وهي لا تدري كيف تجد لنفسها مكاناً: ظهور الناس، وبطونهم، ورؤوسهم تتكدس هنا بكثافة وكأنها تتألف من عدة طبقات. وفجأة يزيح أحدهم (لا يتضح في الحال أهو رجل أم امرأة) نفسه جانباً، مفسحاً قطعة من سرير تعادل في مساحتها راحة اليد. تجلس زليخة وتهمس في الظلمة كلمة «شكراً». يستدير الرجل نحوها بوجهه- خصلات شعر أشقر، وجبين عال، وأنف صغير معقوف- ويقول لها بلهجة أبوية:

- سآمر بأن يعطوك أغطية نظيفة وحذاء.

تحني زليخة رأسها بحماسة موافقة، فقد شعرت من خلال الصوت أن الرجل محترم وليس صغير السن. لكن من يدري ما هي الأنظمة عندهم هنا...

أنت لا تعرف إلى أين يأخذوننا، أليس كذلك؟- تسأله باحترام.

- غداً- تعالي إلى المقابلة الأولى،- يتابع الرجل.- من دون أن تتناولي أي طعام. زليخة لم تكن تعرف ماذا تعني المقابلة الأولى، لكنها، على كل حال، تحني رأسها

بالموافقة مرة ثانية. تشعر بمغص مقرف في بطنها- هي لم تأكل شيئاً منذ أمس. تخرج من جيبها بقايا رغيف الخبز. جارها الغريب الأطوار ينشق الهواء بخيشومية في صخب، يدير رأسه ويغرس نظراته في الرغيف. زليخة تقسم قطعة الخبز إلى نصفين تقدم له أحدهما. يدسّ الجار القطعة في فمه بلمح البصر، ويبتلعها حتى قبل أن يمضغها.

- أكرر، من دون أن تتناولي أي طعام!- يهدر بصرامة، وهو يمسك بأصابعه فتات الخبز الذي يكاد يسقط من فمه.

هكذا أسس الرغيف الجاف بداية صداقة غير عادية، فقد صار وولف كارلوفيتش ليبييه وزليخة، رغم غرابة ذلك، صديقين يتسامران. هو كان في لحظات نادرة من التماعات وعيه يحدّثها- تتناثر من فمه مصطلحات طبية غير مترابطة، ويتذكّر ويدقق تشخيصه لعلل من كانوا مرضاه، ويطرح أسئلة مهنية لا تتطلب جواباً، أما هي فكانت تسمعه بامتنان، من دون أن تفهم حتى القليل من هذا الخليط من الكلمات الروسية واللاتينية الذكية، شاعرة، في الوقت نفسه، بما يختفي وراءها من معنى مهم، وفرحة بالتواصل مع هذا الرجل العالم. كانا يقضيان جزءاً كبيراً من الوقت صامتين لكن هذا الصمت لم يكن مضجراً لها أو له.

سرعان ما جاؤوا إلى الزنزانة بأناس من أهل قريتها يولباش، زوجة الملا وفي يدها القفص المعهود وفيه القطة، والفلاح العابس ذو اللحية السوداء ترافقه ذريته الكثيرة العدد. بعد أسبوع انتزع القادمون من فورونيج الذين حُشروا مع المهجرين القطة وأكلوها، أما المعطف الفرو فقد استولى عليه رئيس الدورية المناوبة، مرغماً زوجة الملا على التوقيع على محضر تسليم الأثاث. هي لم تلحظ تقريباً فقدها لأشيائها، فقد كانت تقضي الأيام بطولها في البكاء إما على زوجها وإما على قطتها.

كان الموت في كل مكان، هذا أمر فهمته زليخة منذ طفولتها! الصيصان الرقيقة- الراعشة، المغطاة بزغب أرق من أشعة الشمس الصفراء، والحملان المكسوة بفراء أجعد، تفوح منه رائحة التبن والحليب، وفراشات الربيع الأولى، والتفاحات المحمرات المشبعات بعصير سكري- كل ذلك يحمل علائم الموت القادم. يكفي أن يحدث شيء ما، واضح أحياناً، وأحياناً مصادف، ولحظي، لا تراه العين- حتى يتوقف نبض الحياة في الجسد الحي، مفسحاً المجال للانهيار والتعفن: أجساد الصيصان تسقط كتلاً هامدة على عشب الفناء الأخضر النضر. وتنفتح أحشاء الحملان الحمراء الشاحبة المصابة بمرض الدجاج، وتتساقط من السماء الفراشات التي لا تعيش إلا يوماً واحداً، مع الثلج الدافئ الكثيف الذي يطمر ثمار التفاح الساقطة على الأرض وقد ظهرت على جانبي كل منها كدمات بنفسجية.

مصير بناتها نفسه يؤكد ذلك. أربع بنات لم يولدن إلا ليمتن. في كل مرة، كانت زليخة تقرّب بعد الولادة إلى شفتيها وجه وليدتها الصغير المجعد على أمل أن ترى في العينين نصف العمياوين اللتين ما يزال الحاجبان المنتفخان يغطيانهما، وفي فتحتي الأنف، وفي الشفتين المنفرجتين كشفتي الدمية، وفي الزغب الذي يكاد لا يلحظ على البشرة المحمرة احمراراً خفيفاً، وفي الشعيرات القليلة التي تكسو الرأس، علائم الحياة، لكنها سرعان ما كانت تكتشف أنها إنما ترى الموت.

لقد ألفت هذه الفكرة كما يألف الثور النير، والحصان صوت سيده.

- بعضهم وُهب من الحياة لحظة مثل بناتها، وبعضهم وُهب منها فترة، وبعضهم وُهب الحياة بسخاء لا حدود له- أكياساً ملأى وعنابر. مثل حماتها. لكن الموت كان ينتظر كلّاً منهم- يختبئ فيه هو نفسه، أو يسير بقربه تماماً، هرّةً تداعب قدميه، أو غباراً يعلق بثيابه، أو هواء ينفذ إلى رئتيه. لقد كان الموت

موجوداً في كل مكان- كان أكثر احتيالاً، وأذكى، وأقدر من الحياة الغبية التي تخسر كل صراع بينهما.

جاء الموت فأخذ مرتضى الذي ولد قوياً قوة تكفي لأن يعيش مئة عام. ويبدو أنه أخذ سريعاً أوبيريخا المتعجرفة. حتى القمح الذي أخفياه، هي وزوجها، بين قبور بناتهما أملاً في إنقاذه للموسم القادم- حتى هذا سيتعفن في الربيع مسجوناً في صندوق خشبي ضيق، ويقع غنيمة في يد الموت.

لقد بدا لزليخة أن أجلها قد حان أيضاً، ففي تلك الليلة التي قضتها راقدة على الديوانة إلى جانب مرتضى الميت، استعدت لاستقبال الموت- وأدهشها أنها ظلت حية. حين اقتحم عناصر الفصائل الحمراء المنزل ونهبوه انتظرت الموت. وحين اقتادوها في ربوع وطنها التي يغطيها الثلج، انتظرت الموت. وحين قضت الليل في المسجد الذي دنّسوه بين ثغاء الخواريف الناعسة، وصيحات المرأة العائبة ذات الشعر الأشقر التي لا تعرف الخجل، انتظرت الموت. وهي تنتظره الآن في هذا الكيس الصخري الرطب، وفي رأسها تدور لأول مرة في حياتها هذه السلسلة الطويلة من الأفكار.

هل سيحمل لها الموت ذلك الجندي ذو الوجه الفتي بحربته الطويلة الحادة؟ أم أن من سيفعل هو ذلك اللص، نزيل الزنزانة، ذو الابتسامة الوحشية الحذرة، الذي يخفي في جزمته سكيناً من صنع يدوي، ويتفحص بطمع معطفها السميك المحيك من فراء الغنم؟ أم أن الموت يأتي من الداخل، يتزيّا بالمرض،- يلهب الرئتين، يغرق الجبهة بعرق حار، لزج، يملأ الحلق ببلغم أخضر كثيف، وأخيراً، يقلّص القلب ويجعله قبضة باردة، ويمنعه من الخفقان؟ زليخة لم تكن تعرف كيف تجيب عن هذه الأسئلة.

الجهل كان عبئاً، والانتظار الطويل عذاباً. كان يتهيّأ لها أحياناً أنها ميتة. وتتساءل ترى من هؤلاء الناس الذين حولها؟ من هؤلاء النحيلون، الشاحبون،

الذين يقضون أياماً بطولها يتهامسون ويبكون بصوت منخفض؟ وهل هذا المكان البارد الضيق ذو الجدران الحجرية المبللة بالرطوبة، المدفون عميقاً تحت الأرض، والذي لا يرى أي شعاع شمس، شيء آخر غير القبر؟ لم تكن زليخة تشعر بأنها ما تزال حية إلا حين كانت تنتقل إلى المرحاض، وهو عبارة عن دلو كبير في زاوية الزنزانة، فتحس بوجنتيها تسخنان خجلاً: عند ذلك فقط، تقتنع بأنها ما تزال حية، فالأموات لا يشعرون بالخجل.

مبنى المهجّرين في قازان- مكان أسطوري له تاريخ، مرّ من خلاله الكثير من العقول المشرقة، والأرواح المعتمة. وليس من قبيل العبث أن يكون مجاوراً للدير، ملاصقاً له. (أوفر المعتقلين حظاً كان باستطاعتهم أن يتفرجوا من زنازينهم، على قبة الكاتدرائية الزرقاء المزينة بالنجوم الذهبية، وعلى المسلة الخضراء الداكنة لبرج الحراسة في داخل الساحة). كان مبنى المهجّرين يعمل كقلب كامل الصحة، لا يعرف التعب، يعمل من دون توقف منذ قرن ونصف القرن- ضاخّاً دم البلاد الشاسعة من الغرب إلى الشرق.

في تلك الزنزانة التي تسمع فيها زليخة الآن مونولوج البروفيسور ليبييه نصف المجنون، وهي تلتقط تحت إبطها أول قملة، كان يجلس قبل أربعين عاماً بالضبط، طالب شاب من طلاب جامعة قازان الإمبراطورية. خصلات شعره عنيدة كثيرة الحركة، كما هي عادة عند الشباب، ونظراته جادة وعابسة. هذا الطالب سجن لتنظيمه مظاهرة مضادة للحكومة. حين أدخلوه إلى الزنزانة، راح في البداية يطرق الباب الحديدي بقبضتيه غاضباً وهو يطلق صرخات جريئة مجنونة، ويغني نشيد «المارسيليز» بشفتيه المزرقتين اللتين لا تطاوعانه. ثم صار يمارس التمارين الرياضية بنشاط، محاولاً تدفئة جسمه بهذه الطريقة. ثم جلس على الأرض واضعاً تحته معطف المدرسة المضموم في كومة، والملطخ نهائياً بوسخ

السجن المدهن، ضاماً ركبتيه المخدرتين برداً بيديه، وباكياً بدموع ساخنة، غاضبة. اسم ذلك الطالب كان فلاديمير أوليانوف.

لم يتغير شيء في المكان منذ ذلك الحين. توارث الأباطرة الحكم، توارثه الزعماء الثوريون- وكان مبنى المهجّرين يخدم السلطة بإخلاص، كما يفترض في السجون القديمة الطيّبة. كانوا هنا يسجنون المنفيين قبل إرسالهم إلى سجون سيبيريا والشرق الأقصى، وإلى سجون كازاخستان فيما بعد. وكانوا في البداية يفصلون المجرمين عن السياسيين تجنباً للخلط بين مسجوني الفكر، والمجرمين العاديين. لكنهم في الفترة الأخيرة صاروا يخرقون هذا النظام الذي ترسخ قروناً.

في أواخر عام ألف وتسعمئة وثمانية وعشرون امتد جدول الكولاك الذين نزعت ملكيتهم من أنحاء مقاطعة قازان التي كانت شاسعة آنذاك، فوصل إلى العاصمة. كان المطلوب أن يجمعوا المهجّرين ويحمّلوهم في القطارات ويرسلوهم إلى حيث يجب. وقد تقرر أن تحتجز هذه المجموعة التي لا تمت إلى المجرمين بصلة، لكنها مع ذلك تحتاج إلى حراسة، هنا، في سجن المنفيين، لا سيما وأنهم كانوا يرسلون الكولاك الذين نزعت أملاكهم في الاتجاهات المعروفة نفسها (كوليما، ينيسي، ما وراء البايكال، سخالين...)، وكانوا يرسلون معهم في أحيان كثيرة، المهجّرين من فورونيج- في عربات مجاورة.

الجدول امتلأ تدريجياً، وصار أقوى، ونما. وفي شتاء عام ثلاثين تحول إلى نهر جبار لم يغرق السجن فقط، بل أيضاً كل الأقبية المجاورة للمحطة، والأبنية الإدارية والأمكنة غير المأهولة- لقد أقام الآن في كل مكان فلاحون جائعون، غاضبون، لا يفهمون شيئاً مما يحدث، ينتظرون مصيرهم، آملين وخائفين في الوقت نفسه من حلول هذا المصير سريعاً. لقد كنس هذا النهر في طريقه كل شيء- انهارت نظم السجون المعمرة قروناً (جمعوا في الزنازين الكولاك المنزوعة أملاكهم مع المجرمين، وفيما بعد، جمعوهم مع السياسيين)، واختلطت

صناديق كاملة (قل: قرى ومجمعات سكنية) وضاعت وثائق، فصار أي إحصاء للموجودات مستحيلاً، وفيما بعد- صار مستحيلاً تحديد الهويات، وطار عدد من رؤساء المناطق وإدارات المواصلات، عن مختلف العيارات، من مناصبهم.

قضت زليخة ورفاقها في بيت المهجّرين شهراً كاملاً، حتى أول يوم من أيام ربيع عام ألف وتسعمئة وثلاثين. وكانت الزنازين قد غصت حتى ذلك الوقت بالكولاك الذين نزعت أملاكهم، الأمر الذي دفع رئيس السجن إلى أن يقوم بمحاولات يائسة للتخلص من هذا الجمع الفلاحي المفروض عليه، فأصيب بنوبة قلبية. وقد كان من حسن حظ زليخة ورفاقها أن رحّلوهم من السجن قبل أن ينتشر فيه الطاعون الذي حصد أكثر من نصف المساجين، فحرر بشكل طبيعي الأماكن مسهّلاً مهمة الرئيس الآخذ في التعافي في مشفى شاموفسكي.

محصول شهر شباط عام ثلاثين كان وفيراً، فقد جلب إيغناتوف إلى قازان أربع نقلات من الكولاك الذين نزعت أملاكهم. وكان في كل مرة يتنهد بارتياح وهو يراقب كيف يختفي الكولاك وراء أبواب سجن المهجرين المتينة، وتغمر أعماقه فرحة هادئة: ها هو ذا عمل مفيد آخر قد تمّ، إنه حبة رمل جديدة توضع في كفة ميزان التاريخ. هكذا، حبة بعد أخرى، يبني الشعب مستقبل بلاده جزءاً جزءاً. إنه المستقبل الذي سيتحول حتماً إلى انتصار عالمي، إلى انتصار مؤكد للثورة- وهو حتماً انتصار له، هو إيغناتوف، وللملايين من إخوته السوفييت، أمثال ذي الرقم خمسة وعشرين ألفاً، دينيسوف الذي لا يستسلم للتعب، أو المثقف الذكي باكييف.

التنقلات الدائمة جنّبت إيغناتوف ضرورة توضيح العلاقة بينه وبين إيلونا. مرّ بها على عجل ذات مرة («مشاغل، مشاغل...»)- وهو يستحق الشكر على ذلك. لم يبق للمبيت عندها. هي نفسها ستفهم الأمر. فأي حياة شخصية يمكن أن تكون ما دام الوضع على هذه الحال؟!

مئات، بل آلاف الأسر تنساب في قوافل لا نهاية لها في ربوع تتاريا الحمراء الشاسعة. ثمة رحلة بعيدة تنتظرها. إلى أين؟- المهجّرون أنفسهم لا يعرفون، وحرّاسهم لا يعرفون أيضاً. أمر واحد معروف- هو أن الرحلة طويلة.

إيغناتوف لم يكن يفكر بالمصير اللاحق لمن ينقلهم. مهمته هي أن يوصلهم فقط. حين سألته إيلونا إلى أين سيرسلون هؤلاء الفلاحين المرهقين، الملتحين، الذين تنتشر عرباتهم أياماً كاملة في شوارع قازان، قال بلهجة قاطعة: إلى حيث يستطيع مصاصو الدماء، هؤلاء المستغلون، أن يمحوا أخيراً بالعمل الشريف حتى آخر قطرة عرق، تاريخهم الأسود، ويستحقوا- يستحقوا!- العيش في المستقبل الوضاء. نقطة على السطر.

نستاسيا ما كانت لتسأل أبداً عن شيء كهذا. نستاسيا... ثمرة ناضجة، مشبعة بالعصير. لقد كان شهر شباط كله حاراً بالنسبة لإيغناتوف، وكأنه شهر أيار،- كان مجرد التفكير فيها يدفئه. وقد أراد أن يعتقد أن هذه الحملات على القرى «لنزع ملكية الكولاك»- هذه الرحلات المصحوبة بالغناء والدعابات، في الغابات الهادئة المغمورة بالثلج، والنقاشات المسائية الحادة مع الهيئات الحزبية المحلية في مجالس سوفيتات القرى المترافقة مع هسهسة النار في المواقد ورنين كؤوس الساماغون، والليالي الممتلئة بحرارة جسد نستاسيا في المساجد القديمة والعنابر- ستستمر دائماً. فجأة تسقط عبارة كضربة على الرأس: أنت سترافق الرتل. كيف أنا؟ ولماذا؟!، سمعاً وطاعةً طبعاً، أيّها الرفيق القائد، لكن افهمني أيّها الصديق باكييف: أنا لم أنزل عن ظهر جوادي، أنا أحارب الكولاك طول الوقت. إن هؤلاء الأعداء لا يدركون أن الوقت الآن وقت سلام- إنهم يحاربون بالمناجل والبلطات والسلاح. هؤلاء جبهة حقيقية! أنا ضروري هنا! ومع ذلك أنت ترسلني كي أرافق الرتل، ترسلني إلى الخطوط الخلفية...

نظرة باكييف الثقيلة ثقلاً غير عادي، تطل من داخل أطر نظارته الذهبية. إن هذا العمل يحتاج إلى أناس موثوقين مثلك يا إيغناتوف. أنت تخطئ حين تظن أن العمل في الخطوط الخلفية أكثر سهولة. ثم، عن أية خطوط خلفية تتكلم؟! الرتل عشرون عربة تغص عن آخرها بحيوات إنسانية. وكل واحد من هؤلاء- كولاك حاقد قد يخفي حقداً على السلطة بحجم خنزير، وربما، بحجم بقرة. فلتحاول أن تنقلهم عبر نصف البلاد- أوصلهم إلى المكان المحدد من دون أن يتشاجروا فيما بينهم، أو يفرّوا إلى جهات مختلفة. عندي لك سؤال أخير:- هل ستنجح في ذلك؟

وكيف لا أنجح يا باكييف؟! ألا تعرفني؟ الشغل واضح: حراسة أشد صرامة، وأقفال على أبواب العربات أشد متانة. وحربة تنغرس في عين كل من يحاول الالتفات جانباً.

أحقاً؟ باكييف يزم عينيه- يظهر واضحاً كم نال منه الهرم في هذا النصف عام. هذا ما يفعله بالرفاق المقاتلين المكتب الدافئ، والطاولة من خشب السنديان، والشاي المحلى في الكؤوس المزينة بالرسوم. إن باكييف في الثلاثين من عمره الآن، مثله مثل إيغناتوف تماماً.

سيصلون، لن يختفوا في أي مكان. أنا أعرف ما أقول. صدقني، فقد نقلت الكثيرين من مصاصي الدماء هؤلاء في هذا العام. لكن فكّر يا صديقي باكييف مرة أخرى، ثم قل لي قرارك النهائي- ألا تستطيع أن ترسل غيري في هذه المهمة؟ أنا، يخجلني أن أعمل مربية في عربة قطار...

مربية؟! أنت ترى، إذن أن قائد الرتل- مربية؟! ورؤوس ألف من البشر مجرد خشاخيش؟! ترى، متى ستنضج يا إيفان! أنت لا تريد سوى أن تمتطي حصاناً، وتحمل بيدك سيفاً مجرداً من غمده، وتنطلق فيشتد صفير الريح في أذنيك! أما إلى أين تعدو بفرسك، ولماذا- فأمر لا يهمك! وفجأة تضرب قبضة هذا الباكييف الهادئ الطاولة- جاخ!

فيجيب إيغناتوف على ذلك أيضاً بضربة من قبضته على الطاولة- جاخ! قائلاً: رويدك! كيف لا يهمني؟! أنا أذهب إلى حيث يرسلني الحزب!

الحزب يأمرك- دعك من الديماغوجية! اليوم ستستلم مهمة مرافقة الرتل رقم K- 2437، وغداً الانطلاق!

حاضر...

التقطا أنفاسهما. صمتا. أشعلا سيجارتين.

افهم يا باكييف، يا صديقي: قلبي لا يتعاطف مع الحزب، بل يحترق حباً له. إن قلب كل إنسان يجب أن يشتعل حباً للحزب، أما إذا كان القلب جمرة منطفئة، وإذا كانت العين لا نور فيها، فما حاجة بلادنا إلينا، ها؟

نعم، أنا أفهمك يا فانيا، وأنت حاول أن تفهمني. قد تفهم مستقبلاً، وعندها ستقول شكراً. أنا أحاول أيها السنديانة الغبية... ليأخذك... يصمت باكييف ويمسح بمنديله بقوة زجاج نظارته، وكأنه يريد أن يسحقه- فيصر الزجاج. إنه اليوم غريب الأطوار.

إلى أين سأقود رتلك هذا؟ يطلق إيغناتوف دخان سيجارته نحو الأرض.

حالياً إلى سفيردلوفسك. هناك ستتوقف في مكان مخصص، وتنتظر الأوامر. نحن الآن نرسل الجميع هكذا ليكونوا تحت الطلب.

حاضر.- يقول إيغناتوف وهو يسأل نفسه عما إذا كان الوقت سيتسع له ليودّع المرأتين. سيذهب في البداية إلى نستاسيا حتماً. وفيما بعد، سيذهب إلى إيلونا إذا وجد الوقت الكافي، فيقطع علاقته بها نهائياً،

يتصافح الرجلان. ولسبب ما يفتح باكييف ذراعيه الكبيرين فجأة، ويضم إيغناتوف إلى صدره. إنه، حقاً غريب الأطوار اليوم.

سأمر بك غداً لأودعك قبل أن أغادر.- لا داعي لذلك يا فانيا. تستطيع أن تقول أنّنا تودّعنا منذ الآن.

يضع باكييف نظارته على أرنبة أنفه ويتابع تفقد الوثائق في الحقائب. ما أكثر ما عنده من هذه الأوراق- إنها تلة كاملة.

يغادر إيغناتوف، يلتفت حين يصل إلى الباب: باكييف يجلس بلا حراك، وهو غائص إلى رقبته بين الأوراق. عيناه يكبّرهما زجاج النظارة المحدب، وهما مغمضتان إغماضة تعب.

إيغناتوف لم يذهب إلى إيلونا طبعاً، لم يتسع له الوقت، لتذهب إلى الشيطان، ستفهم من تلقاء نفسها، أنه ذهب في مهمة عاجلة. هو من قبل أيضاً كان يغيب أسبوعاً أو أسبوعين من دون سابق إنذار. سيطول غيابه هذه المرة شهراً أو شهراً ونصف الشهر. ترى كم سيقضي من الوقت متنقلاً على السكك الحديدية؟ طيّب، لقد أُمر أن يكون قومينداناتاً- سيكون قومينداناتاً. سيأكل طعاماً على حساب الدولة، وسيشبع نوماً- فالطريق طويلة. سينقل هذا الرتل الشيطاني، ما دام باكييف يحتاج ذلك احتياجاً شديداً. لكنه سيقول بعد ذلك: انتهى كل شيء يا صديقي، أعدني إلى عملي الحقيقي، روحي تتألم، تريد عملاً...

في الصباح الباكر من أحد أيام ربيع عام ألف وتسعمئة وثلاثين يركض إيغناتوف إلى المحطة وهو يبلع الهواء الصقيعي المخرش. التراموايات لا تسير في هذا الوقت المبكر، ولا يستحق الأمر إضاعة خمس روبلات أجراً للحوذي. لكن المسافة بين سكن النساء حيث تقيم نستاسيا وبين المحطة ليست صغيرة، وهذا ما اضطره إلى الاستيقاظ مبكراً، قبل انطلاق صفارات الفبارك.

تقرقع الكأس التي يشرب بها مرتطمة بجوانب حقيبته. وحذاؤه ينغرس محدثاً صوتاً في الدرب الممتدة كسهم طويل يخترق المدينة بمحاذاة بحيرة بولاق.

والمدينة التي تغالب النعاس تشعل أضواءها الأولى، وتطلق في الشارع المارة الأوائل النادرين الذين لم يأخذوا كفايتهم من النوم، ويعلو نباح الكلاب أجش وهي تستيقظ، ويرن في مكان ما، في البعيد، جرس الترامواي الأول.

أضواء المآذن تنداح ذائبة في غمام الصباح الأزرق- مسجد النبي يونس، ومسجد أبانيف، ومسجد علييف. لقد أحسن دافيدوف بابتكاره الثوري- فرفع العلم الأحمر على مئذنة مسجد القرية. ترى، لماذا لم يتوصلوا هنا، في العاصمة، إلى مثل هذا القرار حتى الآن؟ لقد تركوا مآذن قازان ترتفع كمسلّات لا معنى لها، تخترق السماء عبثاً.

ينعطف إيغناتوف نحو البازار. فوق تلة صغيرة تظهر فجأة مسننات دير الكرملين البيضاء بياض الورق. وعلى مثلثات الأبراج تضيء النجوم الخماسية الرؤوس بأشعة ذهبية. هوذا الجمال الحقيقي، الصحيح، جمالنا...

بناء المحطة مثل كعكة مطبوعة: لونه بلون الشوكولا المشوبة بالحمرة، أبراجه صغيرة لذيذة الطعم، ونوافذه صغيرة مزينة بالشعارات والمزهريات، جدرانه ألواح إسمنتية مغطاة ببقع مضيئة، وتنغرس فيها مسلّات وأعلام معدنية. يقطب إيغناتوف حاجبيه: محطة قازان- نافذة روسيا كلها إلى سيبيريا تبدو كقصر ثقافة أو متحف. تفو!

في الساحة أمام المحطة ازدحام، وتدافع، وشتائم حمالين نشطة. ينتقل إيغناتوف من الركض إلى المشي، ويهدّئ تنفسه (لا يجوز أن يلهث قوميندانت الرتل نفسه وكأنه محرك قاطرة). يتأمل في طريقه بصرامة سائقي العربات المتشاتمين- فيهدأ هؤلاء وهم ينظرون بأطراف أعينهم إلى معطفه الرمادي والربطة الحمراء على كمه الأيسر- إنها السلطة!

يدفع إيغناتوف باب المحطة الثقيل كخزانة، فتصدم أنفه رائحة عرق أجساد الناس، والخبز، وزيت تنظيف الأسلحة، والبارود، وجلد الغنم، والشعر المتسخ، وجزمات الجنود، والكلاب الضالة، والنشادر، والحطب، والأدوية. الهواء سميك يمكنك أن تقطعه بسكين، يضج بصيحات الكلاب، والصهيل، والصرير، والتقيؤ، والقعقعة. ويطغى للحظة على جميع الأصوات صفير حاد لقاطرة في الخارج. هنا- لا يوجد صباح. هنا لا يوجد نهار. هنا دائماً- فوضى لا تنتهي. ينغرس إيغناتوف في الحشد وهو يشق طريقه بكوعيه، ماداً رقبته بحثاً عن المكتب الذي يقصده.

- ورائي! لا تتفرقوا! ابقوا في مجموعة واحدة! في مجموعة يا أبناء الملعونة!- مجموعة من المجندين في ثياب مدنية، على أذرعهم ربطات حمراء وبنادقهم مشرعة، يقودون جماعة من الفلاحين ذوي العيون الضيقة، الخائفين، المتلفتين حولهم، المرتدين ملابس صيفية، قمصان ملونة وقبعات صغيرة. قائد المجموعة يكاد يشقّ حنجرته بالصراخ وإصدار الأوامر، ثم يهدأ ويدمدم بصوت كالفحيح:- هؤلاء الأغنام الأوزبيك، بلوة نزلت على رأسي...

- الزموا أماكنكم! كلٌّ يلزم مكانه! من يحاول الهرب- يقتل فوراً!- يصيح جندي (نحيل) ضئيل الحجم يقف في الطرف الآخر وهو يلوح بمسدس، ويحاول أن يصفّ عدداً من النساء في رتل أحادي: لقد كنّ قبل قليل يجلسن مستسلمات فوق صررهن، لكنهن حين رأين الفلاحين قفزن من أماكنهن ورحن يصرخن ويتكلمن إما باللغة الماريسية وإما بالشوفاشية.

- أفسحوا لنا الطريق!- يصيح الحمالون وهم يدهمون الحشد المتحرك بالعربات المحملة التي تهتز فوقها مهددة بالسقوط جبال عالية من الصناديق تفوح منها رائحة برتقال حادة، ورائحة لحم عجل مقليّ.- جاؤوا بها مؤونة للقطار السريع التالي! أفسحوا لنا الطريق!

يجد إيغناتوف بعينيه، من ارتفاع قامته العملاق فوق العباءات المتدافعة وأغطية الرؤوس، والقبعات التي تتدلى منها واقيات آذان، وقبعات الرأس الصغيرة، والكوفيات، الباب الذي يبحث عنه- مكتب رئيس عقدة مواصلات «قازان». الباب يصطفق باستمرار بصوت مرتفع، مفسحاً المجال لخروج ودخول السيول البشرية،- إنه قلب المحطة النابض.

يسير إيغناتوف نحو الداخل، يشتم تارة، ويعتذر تارة، يدوس على أقدام بعضهم، وعلى حقائب آخرين، يتشبث بطاولة خشبية تكاد تنخلع من كثرة الشد، وقد تشبث بها من الجانبين أمثاله الذين جاؤوا يعرضون مطالبهم.

يخرج إيغناتوف وثائق من الحقيبة- مصنف رمادي تصر ثنياته صريراً لذيذاً، يحمل عنواناً صارماً: كلمة «القضية» كتب إلى جانبها بحروف بارزة: «K-2437» (في داخل المصنف ورقتان رقيقتان كتبت عليهما بخط دقيق أسماء الكولاك الذين نزعت أملاكهم، وهم أكثر قليلاً من ثمانمئة شخص) ويمدّ يده بها إلى رجل صغير الحجم ذي عينين حمراوين بسبب إرهاق لا نهاية له.

الرجل الصغير لا يلاحظه- في المكتب صراخ لا ينتهي، تخترقه أحياناً رنات لجهاز الهاتف.

- نعم، نعم، يصيح الرجل الصغير في السماعة.- سيّر القطار إلى تايشيت! رقم سبعة عشر- مغلق! وسيّر قطار تشيتا إلى هناك أيضاً- فلتنهشهم الكلاب والخنازير!

- ماذا عن العاشر- إلى أرينبورغ؟- يعلو صوت من مكان ما فوق بقية الأصوات.

- أما زلت هنا؟! عن أي أرينبورغ تتحدث؟! أنت إلى طشقند، فلتنهش الكلاب والخنازير أمك!- يقول الرئيس بصوت كالنباح.

يتجاوز إيغناتوف الطاولة ويدس المصنف كالسيف في صاحب الزي الأخضر. ينظر الرئيس إليه نظرة سريعة ثم يغرف من كومة وثائق على الطاولة ورقة مدعوكة مكتوب عليها بحبر بنفسجي «لينينغراد- بقايا» ويعطيها لإيغناتوف:

- وستأخذ معك هؤلاء أيضاً. وقّع!

- أين سأضعهم؟...- لم يكمل إيغناتوف كلامه...

علا رنين التلفون المزعج- يمسك الرئيس السماعة وكأنه يريد أن يعضها.

- ما معنى قولك إن العربات ليست من مطاط؟!- يسيل لعابه على فتحة السماعة.- لقد قلت لك: ضع ستين في العربة! الأسرّة واسعة- سيتدبرون أمورهم!

إيغناتوف يمسك الرئيس من كمه:

- أين سأضع المزيد من الناس؟! ما هذه اللينينغراد... إن عندي، من دون هؤلاء، رتل كامل- هذا يكفي وزيادة.

- يكفي وزيادة؟!- يصرخ الرئيس، ويغدو صوته شبيهاً شبهاً مدهشاً برنين التلفون.-أنت تقول: خمسون في كل عربة رقم كبير! ما رأيك بستين، كما في العربات المرسلة إلى سمرقند؟ وسبعين، كما في عربات قطار تشيتا؟ نحن سريعاً سنضع في العربة تسعين! سيسافرون وقوفاً كالخيول! عند ذلك سيكون العدد أكبر من المعقول فعلاً!- يلتقط عن الطاولة كومة من المصنفات المنتفخة بالأوراق، يرفعها، ويضرب بها الطاولة ثانية.- الكولاك الذين نزعت أملاكهم، وحدهم، ثمانية آلاف رأس! وجميعهم يجب أن نرحّلهم في موعد لا يتجاوز الأسبوع! ما رأيك بهذا؟ وفي كل يوم، في كل يوم- عدد جديد منهم! سريعاً سنضطر إلى توزيعهم على السكة. وأنت- ترفض أن تأخذ دستة أفواه، كيف ترى ذلك؟

- طيب،- يقول إيغناتوف مستسلماً، عابساً، يوقع على ورقة الاستلام- هات جماعتك... بقايا اللينينغراديين.

- لا تقلق هكذا،- يقول الرئيس فجأة بهدوء، ثم ينفخ بقوة على كعب ختم أزرق كبير ويدفع المصنف بعبارة زرقاء بارزة «إدارة مواصلات قازان».- بعد أسبوعين سيقل عددهم، سيتوزعون، وستتابع رحلتك مرتاحاً.

بعد ذلك يضع التاريخ «الأول من آذار عام 1930».

قرر إيغناتوف أن يمرّ، قبل المغادرة، على باكييف. حين دخل إلى المبنى في فوزفيجينسكايا أحس بالقلق. كل شيء يبدو كالمعتاد: الجندي الضئيل الحجم، الثقيل الظل يتأكد من البطاقة عند المدخل، وأبواب المكاتب تصطفق، والسكرتيرات يطقطقن بكعوبهن صعوداً وهبوطاً على درجات السلّم المرمري. لكنه يشعر بأن شيئاً ما معلق في الهواء.

ما هذا الشيء؟

يبطئ إيغناتوف في مشيه. فتاة من القسم الثالث تمر بقربه مسرعة وعيناها تبدوان من تحت رموشها المطلية بكحل كثيف، خائفتين وحمراوين كعيني أرنب صغير. وجنود عدة يجرون، باذلين قصارى جهدهم، صناديق ثقيلة ممتلئة بالوثائق. وأحدهم يقف وراء عمود ملقياً بطرف عينه نظرة حذرة على ما حوله.

هل حدث شيء ما؟ باكييف يعرف بالتأكيد.

لم يدخل إيغناتوف إلى مكتبه، بل أسرع إلى الطابق الثالث، إلى مكتب باكييف. ممر طويل كالمصران يقود إلى هناك، وعلى جانبيه تمتد الأبواب بزواياها القائمة وتلتمع قبضاتها المعدنية المدعبلة. المكان هنا يكون مزدحماً بالناس ودخان السجائر، أما الآن، فكل الأبواب مغلقة بإحكام وكأنها مقفولة.

لقد حصل شيء ما بالتأكيد.

يمشي إيغناتوف فوق الأرضية المتشققة، التي أسبغ عليها الزمن لوناً رمادياً غامقاً، فتصرّ الألواح الخشبية صريراً حاداً تحت وطأة جزمته. يلاحظ في سيره أن قبضة أحد الأبواب تحركت ببطء وصمت، ثم جمدت، وبعد ذلك عادت إلى وضعها السابق (وكأن أحدهم في الداخل أراد أن يخرج ثم غيّر رأيه)

- ما هذا بحق الشيطان؟!

باب مكتب باكييف مفتوح على مصراعيه. وعلى جانبيه جنديان لا يعرفهما، يحملان بندقيتين، وينظران إلى إيغناتوف باهتمام دون أن يرف لهما جفن.

أمن من الممكن أن يكون باكييف قد أصيب بمكروه؟

هذا مستحيل.

مستحيل- ولكنه حصل.

يخفض إيغناتوف بصره من دون أن يتوقف. ساقاه تقودانه بالقرب من المكتب. الجنديان يفسحان له الطريق، فيلاحظ بطرف عينه عدداً من الكراسي المقلوبة في عمق المكتب فوق أوراق مرمية على الأرض، وخزانة حديدية بابها مفتوح عن آخره، وقامة رمادية تقف قرب النافذة غارقة في قراءة الوثائق.

لا تنظر، لا تسرع في المشي، في نهاية الممر مخرج إلى الدرج الاحتياطي. تنزل على الدرج إلى أسفل، وتغادر المكان. إلى المحطة! يخطو إيغناتوف في الممر.

- هيه!- تعلو صرخة خلفه.

يتوقف ويلتفت. القامة الرمادية الداكنة خرجت من المكتب وراحت تلاحقه بنظرها.

- هل أنت قادم إلى باكييف؟

- لا، أبداً.

- من أي قسم أنت؟

- من الخامس،- يكذب إيغناتوف دون أن يعرف لذلك سبباً.

أتراه يهرب إذا كان مطلوباً لأمر ما؟ أيهرب من جماعته؟ سيقتلونه كالكلب إن فعل ذلك... ولماذا يهرب ما دام ليس مذنباً؟ سيحققون في الأمر، ثم يتركونه. وماذا يفعل إذا لم يتركوه؟ ما قراره في نهاية الأمر؟- هل يهرب؟...

تعود القامة الرمادية في صمت إلى المكتب، ويفتح إيغناتوف الباب على الدرج الاحتياطي وينزل إلى الطابق الأول، ثم يخرج من المبنى دون أن ينظر إلى أحد. يمشي إلى المحطة عاري الرأس دون أن يشعر بالبرد.

تنتابه موجة من الخجل تصهر أذنيه. ما الذي خفت منه يا غبي؟ هؤلاء رفاقك يؤدون عملهم بإخلاص. لا بد أن باكييف ضحية خطأ ما. هذا مؤكد. خطأ فظيع، وغير معقول، ومضحك. من المحتمل أن يكون ذلك نتيجة افتراء. ألا يمكن، ببساطة، أن يكون نتيجة خطأ مطبعي، أو حدث سخيف؟ يحدث مثل ذلك، يخلطون بين كنيتين ويأخذون الرجل الخطأ، بسبب إهمالهم.

لماذا تهرب كالجبناء، كفأر تافه؟ لماذا لا تعود؟ لم لا تقتحم المكتب المنبوش؟ لم لا تصرخ في وجه القامة الرمادية- الغامقة: «باكييف ليس مذنباً في شيء! وأنا مسؤول عن كلامي هذا!»؟

يتوقف إيغناتوف ويضغط أمر الرحلة في يده. هل يترك الرتل من دون قوميندانت؟ الرحلة ستنطلق بعد ساعة. يمكنهم أن يعدّوا الغياب عن مكان الخدمة فراراً، وعقوبة ذلك الإعدام في المكان. هو نفسه نفّذ أحكاماً من هذا النوع. يضع القبعة على رأسه ويسرع إلى المحطة.

الجميع يعرفون ميشكا باكييف- الرجل الذكي، الحزبي المخلص، الثوري. إنه واحد منا حتى آخر قطرة من دمه، حتى آخر نفس. هم سيعرفون كل ذلك حتماً

ويطلقون سراحه. لا يمكن إلا أن ينطلقوا سراحه. سيطلقون سراحه، ويعتذرون منه أمام الجميع. وسيعاقبون المذنبين بحقه.

هذا مؤكد.

الملائكة الأربعة

لحين الطلب

- زليخة فالييفا!

- أنا.

هي لم تنطق طول حياتها كلمة «أنا» بقدر ما نطقتها في الشهر ونصف الشهر اللذين قضتهما في السجن. التواضع زينة- ولا يليق بامرأة محترمة أن تكرر «أنا» و«أنا» من دون سبب. حتى اللغة التترية نفسها مبنية على نحو يستطيع معه المرء أن يعيش عمره كله من دون أن يقول كلمة «أنا»، فأياً كان الزمن الذي تتحدث فيه عن نفسك، يمكنك أن تضع الفعل في الصيغة المناسبة بتغيير نهايته، فيصبح من غير الضروري استخدام كلمة «أنا» الصغيرة المتعالية. الأمر في اللغة الروسية غير ذلك، ففيها يسعى كل متكلم إلى وضع كلمة «أنا» و«لي أنا»، ثم «أنا» من جديد...

الجندي الذي عند المدخل ينادي المساجين بكنياتهم بصوت مرتفع وواضح. هي تراه للمرة الأولى. أهو جديد يا ترى؟

- وولف ليـ... ليبييه!

- لقد طلبت مرات كثيرة من أعضاء الفريق الطبي أن ينادوني باسمي واسم أبي!

- يكرر وولف كارلوفيتش هذه العبارة كلمة، كلمة، في الصباح عند التفقد. الحرس في المجموعة حفظوها. أما هو فقالها وراح يحملق في الظلمة. وفجأة:

- اخرجا، واحملا معكما أمتعتكما!

تقفز زليخة وكأن أحدهم ضربها بسوط. تضمّ صرتها إلى صدرها. تدبّ الحركة في الكتلة البشرية، تهيج وتنفتح أفواهها، وتمدّ أذرعتها.

- إلى أين؟ إلى أين تأخذونهما؟ ونحن؟ نحن إلى أين؟

- ليبق الآخرون في أماكنهم!

ينهض وولف كارلوفيتش برزانة، ينفض عن ملابسه الغبار، يفسح المجال لزليخة كي تمرّ أولاً. يسيران نحو المخرج، وهما يتجاوزان الأجساد، والرؤوس، والأكياس، والحقائب، والأيدي، والصرر، والأطفال في اللفافات... ويضم الجندي الجديد إليهما من الزنزانة الثانية زوجة الملا، وأسرة الفلاح العابس وذريته الكثيرة العدد.

بعد ظلمة أيام كثيرة بدا لهما ضوء مصباح الكيروسين ساطعاً، كأنه قطعة من الشمس. هواء الممر البارد بعد الرائحة الحادة في الزنزانة أسكرهما. سيقانهما أفرحتهما الحركة. ترى كم قضوا في الزنازين؟ الجيران يؤكدون أنهم قضوا عدة أسابيع- كانوا يحسبون ذلك بعدد التفقدات.

كانوا يسيرون في الممر، يمشي الحراس أمامهم وخلفهم. يتوقفون أحياناً ويضمون إليهم أناساً من الزنازين الأخرى. وعند بلوغهم باب السجن صار عددهم كبيراً يصعب إحصاؤه. إنهم قرويون، تقول زليخة في سرها، وهي تنظر في أثناء مشيها، إلى وجوه رفاق طريقها وملابسهم. بعضهم، وجوههم نضرة ومتوردة (لا بد أنهم جاؤوا بهم منذ فترة قريبة). وبعضهم، كأبناء قريتها- يكادون لا يقوون على السير. زوجة الملا هرمت وشحب لونها، لكنها تجرّ بعناد القفص الفارغ الذي بقي بعد القطة. أما زوجة الفلاح فجفّت واصفرّ لونها، وظلّت، كما في السابق، تضم إلى صدرها طفليها الوليدين بلفافتيهما.

- وأخيراً!- يهمس ليبييه في أذنها مباشرة بصوت راعش مبتهج،- سينقلون المستشفى إلى الخطوط الخلفية.

تحني زليخة رأسها موافقة، إلى الخطوط الخلفية- فليكن إلى الخطوط الخلفية.

هي ترى ليبييه في ضوء النهار للمرة الأولى: قسمات وجهه جميلة كقسمات وجه شاب.- خصلات شعره الأشيب- ساطعة اللون فضية، حتى تجاعيد وجهه- رفيعة، ذكية. لحيته التي نمت أسابيع كثيرة، طويلة تغطي خديه، وتوحي بالنبل. هو ليس ذاك العجوز الهرم جداً، كما رأته في البداية، إنه، أغلب الظن، أصغر سناً من مرتضى، لكنه يرتدي ملابس غريبة، كأنها ملابس شحاذ،-قديمة جداً، أكلها العث، وهي ممزقة في عدة أماكن، زي رسمي قديم جداً أزرق اللون، وأقمطة قماشية تلف الساقين، وحذاء منزلي مفتوح من الخلف.

- تراصفوا! إلى الأمام عدواً- سر!- يأمرهم الجندي الواقف في المقدمة، ثم يفتح الباب المؤدي إلى الشارع.

ضوء النهار يضرب الوجه كأنه رفش، والعينان تنفجران بالحمرة تحت الحاجبين اللذين يقطّبان في لحظة. تمسك زليخة بالجدار المائل، وترقد فوقه. الجدار يريد أن يرمي زليخة، لكنها تنزلق عنه انزلاقاً إلى الأرض. تسترد وعيها على صرخة:

- انهضوا! انهضوا جميعاً أيها السفلة! هل تريدون العودة إلى الزنزانة؟!

هي ترقد على الأرض الحجرية عند مدخل إلى السجن. في الفتحة الموارية للباب سماء آذارية زرقاء زرقة مؤلمة، وصحن فناء السجن الكبير، المستوى، المصقول تغطيه بحيرات من الماء كأنها المرايا، وإلى جانبها يفترش الأرض عدد من الأشخاص كيفما اتفق، يتأوهون ويضغطون عيونهم بأيديهم. بعضهم استند إلى الجدار، وبعضهم جلس القرفصاء، أو ركع على ركبتيه وهو يئن...

- لقد قلت: إلى الأمام! عدواً! سر!

يخرج الناس إلى الشارع واحداً واحداً، مغمضين عيونهم كالخلدان. يسكرهم الهواء الطازج فيترنحون، ويمسكون أيدي بعضهم بعضاً، ويتعثرون بكومات رخوة، عرجاء تظهر زاحفة في الطريق بين فينة وأخرى، وهم يهرولون هرولة غير منتظمة في شارع تاشاياك نحو المحطة. الحراس اليقظون يحيطون بهم من الجهات كلها. والبنادق مشهرة وجاهزة للإطلاق- في تطابق تام مع الفقرة السابعة من التعليمات رقم (مئة واثنين وعشرين على أربعة) الصادرة في السابع عشر من شباط عام ألف وتسع مئة وثلاثين «تاريخ دخول نظام حراسة الكولاك المنزوعة أملاكهم والمجرمين وغيرهم من العناصر المعادية للسلطة السوفييتية».

تعتاد العيون سريعاً على ضوء النهار فتتأمل زليخة ما حولها. على الجانبين تمتد كالحيات أرتال من عشرات عربات القطارات. وتحت أقدامها أشرطة لا تنتهي من قضبان السكة الحديد وعوارضها التي تخطو فوقها على عجل الأحذية اللباد التي بللها الثلج اللزج، والأحذية المهترئة، والجزمات الملطخة بالطين وغيرها من نعال المهجّرين. يعبق الجو برائحة المازوت، ويتردد صوت صافرة في مكان ما في الأمام- ثمة قطار يقترب. «سنتركه يمر!»- يصدر أمر في مقدمة الرتل.

يتوقف الحراس، مشيرين ببنادقهم إلى المجموعة بالابتعاد عن الطريق. ويسرع نحوهم من الطرف المقابل قطار ضخم ينفث بخاراً حاراً مشوشاً. تنورة حمراء بلون النار في المقدمة تخترق الفضاء، تشقّ الهواء. والعجلات تدور كرحى مطحنة مجنونة. قعقعة وصرير- أصوات مخيفة. إنها المرة الأولى التي ترى فيها زليخة القطار. تلوح على جوانب العربات حروف كتبت بلون أبيض: «إلى الأمام- نحو السعادة!»، الهواء الكثيف يلطم الوجوه،- والقطار يبتعد جارّاً خلفه سلسلة طويلة من العربات التي يعلو ضجيجها.

أحد أبناء الفلاح الكثير الأولاد، وهو فتى طويل القامة في الحادية عشرة من عمره، ينهض فجأة من مكانه ويقفز، يتعلق بإحدى العربات، يتأرجح كقط على

غصن شجرة، ويغادر مع الرتل. أحد الحراس يسدد بندقيته، يختلط صوت إطلاق النار بصوت صفارة القطار، وتحيط غيمة من البخار المنفوش بعرباته. ضجة القطار تبتعد بسرعة، وكذلك يتبدد البخار، ولا يبقى يرقد على السكة غير جسد صغير ملفوف في معطف سميك ليس على مقاسه.

لم تستطع الأم أن تفعل شيئاً غير أن تفتح فمها من دون صوت- أما ذراعاها فتدليا كحبلين. الطفلان اللذان في اللفافتين كادا يسقطان على الأرض، لولا أن التقطت زليخة أحدهما، والتقط الفلاح الطفل الآخر. أما الأولاد الأكبر سناً فالتصقوا خائفين بساقي أبيهم.

- هيا إلى الأمام! يجب ألاّ نتأخر!

أصابع الحراب الفولاذية تشير إلى الطريق. أحدهم يخز المرأة في كتفها: ألم نقل إلى الأمام! يمسك الفلاح بكتفي زوجته فلا تقاومه: رأسها مندار إلى الخلف، كرأس دجاجة ميتة، وعيناها تنظران دون انقطاع إلى جسد طفلها الصغير المرمي بين قضبان السكة الحديدية، وهي تمشي مع الجميع طائعة وفمها ما يزال مفتوحاً، تنقّل قدميها فوق عوارض السكة الحديدية، وتمشي طويلاً.

لكنها، فجأة، تصرخ بصوت منخفض، ترتمي بين يدي زوجها، تحرك يديها وساقيها حركات يائسة،- إنها تريد أن تعود. لكن يطغى على صوتها تماماً وفي اللحظة نفسها صوت قطار جديد يطير هادراً، فتغرق صرختها في أصوات الجوقة الحديدية لأذرعة القاطرة والمطارق، والعربات، وقضبان السكة والعجلات.

زليخة تضغط الطفل اللين الدافئ إلى صدرها. إنه طفل غريب، هو ليس طفلها- لونه وردي كلون دمية، خداه بارزان، له أنف صغير كزر صغير، وانتفاخ لطيف بدلاً من الحاجبين. يبلع ريقه في نومه ويتلمظ، وعمره لا يتجاوز الشهرين. إن أياً من بنات زليخة لم تعش حتى تبلغ هذا العمر.

المهجّرون يسيلون جدولاً عريضاً، طويلاً على السكة الحديد. يركض قبالتهم قادماً من المحطة جدول آخر، صغير من أناس يتجمدون برداً، يرتدون ملابس لا تناسب الطقس البارد، وعبر الطريق تمشي مسرعة بشكل عرضاني قامة وحيدة تعتمر قبعة حادة الطرفين وتحمل في يدها مصنفاً رمادياً. الجميع يلتقون عند عربة كبيرة مبنية من ألواح معوجّة ومقصوصة بشكل رديء ومصبوغة بلون أشقر تشوبه الحمرة.

- قف!- يقول الرجل ذو المصنف بصوت هادئ.

زليخة تعرف صاحب الصوت. إنه عنصر الفصيل الأحمر إيغناتوف- قاتل مرتضى.

يركض نحوه قائد الحرس ويهمس له بشيء في أذنه، مشيراً إلى زوجة الفلاح المستمرة في العويل. إيغناتوف يسمعه ويهز رأسه بالإيجاب أحياناً وهو ينظر عابساً إلى الحشد الذي يتزاحم أمامه. تلتقي نظراته بنظرات زليخة. أتراه عرفها؟ أم أنها تتخيل ذلك؟

- اسمعوني بانتباه!- يقول أخيراً.- أنا قومينداتكم...

هي لا تعرف ما معنى قومينداتت. لقد قال «قومينداتكم» فهل هذا يعني أنه سيكون معهم فترة طويلة.

- أنا سأقودكم أيها المواطنون الكولاك الذين نزعت أملاكهم، وأنتم، أيها المواطنون الذين كانوا بشراً، إلى الحياة الجديدة...

كانوا بشراً؟ زليخة لا تفهم: الذين كانوا بشراً هم الأموات. تنظر حولها إلى حفنة من الناس انضمت إليهم قبل قليل. وجوه متعبة شاحبة، أناس يرتجفون، يلتصق بعضهم ببعض، يرتدون ملابس خريفية، ومعاطف خفيفة مقلمة، وأحذية رقيقة غبية. يلتمع كالذهب الإطار المكسور لنظارة أحدهم، وتتوهج كبقعة زمرّد ساطعة

قبعة سخيفة بفوال، تعتمرها إحداهن- من الظاهر على الفور. أنهم من سكان المدن. لكنهم ليسوا أمواتاً، لا، ليسوا أمواتاً.

- ... إلى حياة صعبة، ممتلئة بالحرمان والنكبات، لكنها غنية أيضاً بالعمل الشريف لخير وطننا الذي نحبه بحرارة...

- وإلى أين؟ إلى أين ستأخذنا أيها القائد؟- يقاطعه فجأة صوت وقح من الحشد.

إيغناتوف يوجه سهام بصره إلى وجوه الحضور باحثاً عن السائل الوقح. لم يجده.

- حين تصل ستعرف،- يقول بحزم فوق الرؤوس.- وهكذا...

- وماذا إذا لم نصل؟- يعلو من جديد الصوت الجريء مستفزاً.

يلتقط إيغناتوف أنفاسه. ثم يخرج من عبه قطعة من قلم رصاص يبللها بريقه بعناية:

- ما كنية المقتول أثناء محاولته الهرب؟- يسأل بصوت مرتفع.

يسمع الجواب فيفتح المصنف ويشطب أحد الأسماء التي في القائمة.

- هذا واحد لم يصل.- يرفع المصنف ويلوّح به في الهواء: هل رأيتموه جميعاً؟

الخط الأعوج الثخين على الورقة المهترئة المطبوعة على الآلة الكاتبة، يمرّ فوق الحشد.

يسعل إيغناتوف.

- ... لقد مصصتم طويلاً دم الفلاحين الشغيلة، والآن حان الوقت لتدفعوا ثمن ذنبكم وتبرهنوا أنكم تستحقون الحياة في حاضرنا الصعب، وكذلك في المستقبل المشرق الرائع القادم قريباً جداً جداً دون أدنى شك.

الكلمات طويلة ومعقدة. وزليخة لا تفهم إلا القليل منها- لا تفهم إلّا وعد إيغناتوف بأن كل شيء سينتهي على خير.

- ... مهمتي هي أن أوصلكم إلى تلك الحياة الجديدة سالمين، أصحاء، ومهمتكم هي أن تساعدوني في ذلك. هل هناك أسئلة؟

- نعم!- يقول على عجل وبلهجة تنم على الاعتذار، رجل من مجموعة «الذين كانوا بشراً»، محني الظهر، بعينين حزينتين انتفخت البشرة تحتهما في كيسين يشبهان بقايا شمعة (هذا سكير، تقول زليخة في سرها).- قل لي من فضلك، هل فكرتم بإطعامنا في الطريق؟ فنحن، كما تعلمون، مضى علينا الآن أسابيع...

- تريد طعاماً إذن...- يقول إيغناتوف بلهجة حاقدة جداً، وهو يقترب من الرجل المحني الظهر، وخيشوماه اللذان شحبا في الحال يرتعشان.-قل شكراً للسلطة السوفييتية التي لم تقتلك! والتي ما زالت تفكّر فيك وترعاك! وتنقلك مع أهلك في عربات دافئة!

- شكراً،- يقول الرجل وهو ينظر خائفاً إلى الأشرطة الحمراء على صدر إيغناتوف.- شكراً.

- أنتم تسافرون للتحرر من قيود العالم القديم، لملاقاة الحرية الجديدة. إذا جاز القول!- يتابع إيغناتوف بصوت راعد، وهو يمشي بمحاذاة الصف غير المستوي من الناس الذين دفنوا رؤوسهم بين أكتافهم.- وأنتم لا تفكّرون إلا بحشو بطونكم! سنقدم لكم... الحلوى والشمبانيا، والفواكه المغطسة بالشوكولا!

يشير بحدة إلى حارس قريب من العربة: هيا! يشد الباب فيرسل صريراً وينزاح جانباً. وتفتح العربة شدقها الأسود القائم الزوايا.

- أهلاً وسهلاً في فندق غراند- أوتيل! يقول الحارس ساخراً.

- بكل سرور أيها المواطن الرئيس!- يقول رجل كثير الحركة، كالكلاب، ونظراته نفاذة، ويقفز قبل الجميع إلى العربة. يقذف بكل قوة ساقه في فتحة العربة المرتفعة (فتظهر بوضوح أطراف بنطاله المبطن الواسع) ويختفي في الداخل.

لا بد أنه إنسان خطر، نزيل سجون، تقول زليخة في سرها، يجب الابتعاد عن أمثاله.

وهكذا يشرع المهجّرون في الصعود إلى العربة وهم يتدافعون بمرافقهم، كي يجدوا مكاناً لهم فيها. الرجال يستعدون، يدفعون سيقانهم بحركة كحركة النابض، ويقفزون إلى العربة ركضاً. النسوة يتوخوخن، يضعن أحذيتهن اللباد فوق كومة التنورات ويصعدن كيفما اتفق، ويسحبن خلفهن أولادهن الذين يصرخون.

- هل ستحملون على أذرعكم أولئك الذين لا يستطيعون التسلق كالقرود؟

يُسمع صوت هادئ بين ضجة الأصوات.

سيدة ممتلئة الجسم بتسريحة شعر عالية فوق برج حلزوني من الشعر نصف الأشيب- إنها ذات السيدة التي كانت ترتدي قبعة بفوال، خضراء فاتحة اللون. كانت تقف رافعة يديها على جانبيها- وكأنها تنادي لرفعها على الأيدي. مثل هذه لا يمكن رفعها- تقرر زليخة في سرها، إنها ثقيلة جداً.

ينظر إيغناتوف إلى السيدة مباشرة- فلا تحيد الأخيرة ببصرها، مكتفية برفع حاجبها متسائلة: أهكذا، أم كيف؟ يهز كتفها العجوز ذو النظارة المكسورة الإطار خائفاً، فتزيح يده عنها بحدة. ويشير إيغناتوف بذقنه- فيخرج أحد الحراس من جيب في باب العربة لوح خشب سميكاً ويضعه ممراً من العربة إلى الأرض. تحيّي السيدة إيغناتوف بحركة من قبعتها وتتوجه نحو العربة. قدماها الكبيرتان في حذائها المشدود الأشرطة، تخطوان بحزم وعناد- فينحني اللوح ويهتز.

- *Votre Grand Hotel m›impressionne, mon ami,*5

تقول للحارس، فيجمد الأخير عند سماعه كلاماً لا يعرفه.

زليخة تصعد في إثرها،- في إحدى يديها صرة أمتعة صغيرة، وعلى ذراع يدها الأخرى الطفل. يا إلهي، كيف يحدث مثل هذا: تناقش رجلاً، بل رجلاً عسكرياً، ورئيساً أيضاً... إنها سيدة عجوز، لكنها شجاعة. أم تراها شجاعة لأنها عجوز؟ لكن الصعود بواسطة اللوح الخشبي أكثر سهولة فعلاً.

يتحرك الباب على سكته خلفها محدثاً صريراً. يحل الظلام من جديد كما في الزنزانة. ويسمع صرير ثقيل لأحد المزاليج، ثم صرير مزلاج ثان.

انتهى العمل: عربة نقل العجول (أو «الحاضنة» كما يسمونها شعبياً) رقم K O 310048، التي حمولتها عشرون طناً، وسعتها النظرية تكفي لاستيعاب أربعين شخصاً أو عشرة رؤوس من الخيل، تم تحميلها باثنين وخمسين مهجّراً، وباتت جاهزة للانطلاق. زيادة اثني عشر شخصاً على سعة العربة الافتراضية فيمكن إهمالها- يقول بذكاء رئيس إدارة مواصلات «قازان».- ما دمنا سنضطر قريباً إلى أن ننقلهم وقوفاً كالخيول فنضع في العربة الواحدة تسعين شخصاً.

وضعت الطفلين بلفافتيهما على السرير بشكل مريح إلى حد ما ثم راحت تساعد الفلاح البائس على الجلوس في وضع مريح هو وزوجته التي خدّرها الألم، (كان أسفها شديداً لمفارقة اللفافة الدافئة التي تفوح منها رائحة طفلية)، وأفسحت مكاناً لأولادهما الأكبر سناً.- وفي هذه الأثناء امتلأت الأماكن، ولم يبق محلات: ملأ الناس أسرة العربة المكونة من طابقين بكثافة، ولم يبق أي فراغ يدس المرء نفسه فيه. وهنا، كما في المرة السابقة، ساعدها ليبييه. تدلّى من مكان ما، وسحبها في الظلمة من يدها إلى أعلى نحو السقف،- إلى الطابق الثاني من الأسرّة.

- أرجو المحافظة على توزيع الأماكن في الخيمة،- دمدم بلهجة غاضبة. زليخة توافقه ممتنة، وهي تدس نفسها بين الحائط البارد كالثلج والبروفيسور، حانية رأسها قليلاً كي لا يلتصق بعمود في السقف يغطيه الجليد. تسحب الشال عن رأسها وتفرده بين ساقها وردف ليبييه القاسي- حرام على المرأة أن تقترب إلى هذا الحد من رجل غريب.- عار يلحق بالأسلاف حتى ثالث جد،- هذا ما كانت ستقوله ماما. نعم، يا ماما، أعرف ذلك. لكن قواعدك كانت جيدة في الحياة القديمة. أما الحياة عندنا- فكما قال إيغناتوف- حياة جديدة. آه، من الحياة عندنا الآن...

نزيل السجون، ذو الحركات الكلبية، يخرج من ثقب غير ملحوظ في الجدار علبة ثقاب مخبأة هناك عميقاً. يشحذ عود كبريت بكعب حذائه وينحني فوق المدفأة المنتفخة البطن. يشتعل الفحم ويطقطق في المدفأة ملتهباً يسكب على ما حوله النار الحارة ضوءاً راعشاً دافئاً.

تتلفت زليخة حولها: الجدران ألواح خشب، والأرضية ألواح خشب، السقف ألواح خشب. وفي وسط العربة قلب حار،- مدفأة معوجة، يغطي الصدأ بعض أقسامها. وعلى جوانبها أسرّة كمد لونها بفعل الزمن، وصقلتها آلاف الأيدي والأرجل حتى التمعت بلون رمادي ضعيف.

- ما بالكم همدتم يا فلاحون؟ -يقول نزيل السجون مكشراً عن أسنانه الرمادية الضخمة.- لا تحزنوا، أنا سأكون المشرف عليكم. سأحميكم من كل أذى، أنا مشرّد نزيه. الجميع يعرفون غوريلوف.

شعر غوريلوف- طويل، مشوش، كشعر النساء. الخصلات المزيتة الثقيلة تسقط على وجهه أحياناً، وهذا يضفي على نظراته وحشية وعدوانية. هو يمشي بمحاذاة الأسرّة مشية مغناج كما لو كان يرقص، ويحملق في الوجوه العابسة.

- من دون مشرف ستكونون هنا «آمبا» يا يماماتي. رحلتنا طويلة.- وفجأة رفع صوته وراح يغني وهو يمطّ كلماته.

- ومن أين لك أن تعرف؟- يسأله الرجل السكير ذو العينين الحزينتين («إيكونيكوف إيليا بتروفيتش، رسام» بحسب تقديمه نفسه لجيرانه فيما بعد) الذي جلس قرب المدفأة المتوهجة وراح يدفئ يديه.- قد ينقلوننا إلى الأورال، وينزلوننا هناك.

يقترب غوريلوف من المدفأة. يلقي نظرة متفحصة على القامة الحدباء لإيكونيكوف: المعطف- كالكيس، والشال على الرقبة- كطوق للشنق. يخلع من قدميه الحذاء المتسخ الذي تفتتت أجزاؤه، ويقدمه له: أمسكه لحظة. يستغرق وقتاً طويلاً وهو يفك الأقماط عن ساقيه، ثم يخرج أخيراً عقب سيجارة مخبأً بين أصابع قدميه، يضعه في فمه، ويعيد لف الأقماط على ساقه بودّ، ثم ينتعل حذاءه. يشعل عقب السيجارة من المدفأة، وينفث الدخان في وجه إيكونيكوف.

- من أين لي أن أعرف،- قال وهو يتابع وكأن الحديث لم ينقطع،- أنا إنسان مجرب. لقد قمت برحلتين: في سخالين تغوّطت، وفي سولوفكي تبوّلت.

يسعل الرسام ويدير وجهه مبتعداً عن الدخان، أما غوريلوف فينهض ويلقي نظرة مهدّدة على العربة الصامتة: هل يشك أحد منكم في ذلك؟

- ليست الحرية هنا بلا حدود. يجب عليك التقيد بالنظام،- يقول بلهجة الموجه.- وأنا سأحرص على ألاّ يتصرف أي منكم بغباء.

يلتقط غوريلوف بحركة حادة قملة خلف أذنه، يسحقها بظفره، ويرميها في النار.

- الفرسان أخذوهم جميعاً في هجمة واحدة...- راح يغني وسنه الذهبية الكبيرة تلتمع في فمه الواسع- وزّعوا المذاري على الرجال، لا تقترب من المرأة. لا مكان تختبئان فيه، فالناس كثيرون في كل مكان. المحاكمة والسجن والمشنقة

في انتظارك...- كان يقف في وسط العربة واضعاً يديه في جيبه رادّاً كتفيه إلى الخلف كأنهما جناحان.- أم أن بينكم من لا يطيق الشنق؟

الوجوه الحذرة تنظر إليه من فوق الأسرة. يخطو غوريلوف خطوة خلف المدفأة، ويرفع بقدمه الغطاء الخشبي. يتلفت بعدوانية، ثم يفك أزرار سرواله، ويطلق جدولاً رناناً يجري مندفعاً في الثقب المفتوح في أرضية العربة. كان الجدول الطويل اللماع يبدو في ضوء الشموع، قوساً من الكريستال. تتأوه بعض النساء، وتنظرن بانفعال من دون أن يطرف لهن جفن، فيلكزهن الأزواج ويشدون أكمامهن، فيشحن بأبصارهن، ويغمضن عيون أطفالهن.

زليخة تفيق أيضاً من ذهولها فتدير ظهرها. صوت الماء المتدفق يرن في أذنيها، مرغماً وجهها على الاحمرار خجلاً. هل هذا هو المرحاض؟ كيف ستتصرف النساء؟ في الزنزانة كانوا يقضون حاجاتهم في الدلو، لكن المكان هناك كان مظلماً، أما هنا...

غوريلوف يبتسم ابتسامة ظفر، ينفض آخر قطرات البول، لكنه لا يستعجل إعادة فخر الذكورة إلى سرواله.

- Herpes genitales، إذا لم أكن مخطئاً،- يقول ليبييه الجالس قرب زليخة بصوت هادئ- وينظر البروفيسور متفكّراً إلى عضو غوريلوف العاري.- ثلاث مقادير من الزيت الأثيري اللاوندي، ومقدار من الكبريت. يمسح العضو ثلاث مرات في اليوم. يمنع أي تواصل جنسي- حتى الشفاء التام- يهز رأسه بحزم موافقاً تماماً على ما قاله هو نفسه، ثم يدير ظهره بلا مبالاة.

يسرع غوريلوف وقد تبدّل وجهه، فيدس عضوه المنكمش على عجل في سرواله، ثم يقفز إلى ليبييه على الرف الثاني، كالقرد.

- احفظ سحنتك يا سافل،- يقول بصوت كالفحيح أمام الوجه اللامبالي، ويمسح أطراف أصابعه بزي البروفيسور الرسمي كما لو كان منديلاً- واشكر ربك أني أنا المشرف، فلو كان المشرف غيري لملأ وجهك بالكدمات... يصرخ- وخز يده الشعار الصغير المشكول بطرف سترة البروفيسور بشكل مائل.

تتحرك العربة بحدة من مكانها محدثة ضجيجاً.

- انطلقنا! انطلقنا!- تغلي الأسرة بهمس منفعل.

يلقي أوركا نظرة حاقدة على ليبييه ويشق طريقه إلى مكانه.

قريباً من زليخة، تحت السقف مباشرة هناك نافذة صغيرة بحجم مقلاة صغيرة مغطاة بقضبان معدنية مستقيمة مغمورة بجليد رمادي مخملي. وخلف شباك النافذة يلوح مهيباً الرصيف المركزي وبناء المحطة الأحمر الضخم المزدان بأحرف مرسومة فنياً- «قازان». الناس يسرعون إلى مكان ما، محاطين بأنصال الحراب اللامعة. ويصهل حصانان يمتطيهما شرطيان وتنادي بائعات الفطائر الزبائن بأعلى ما يستطعن.

- نسافر من موسكو إلى سيبيريا،- يقول أحدهم.

- وإلى أين أردتنا أن نسافر؟ أ إلى البحر الأسود؟

تصفر القاطرة صفيراً عالياً ممتداً يخدش السمع. وغيمة سميكة من بخار حليبي يلفّ كل شيء، وينفذ إلى العينين والفم، وحين يتبدد، تتلامح هياكل الأشجار السوداء وكأنها تطير على خلفية من الحقول البيضاء.

تضع زليخة إصبعها على الشباك- فتذوب على الإصبع حبيبات الجليد،

وتبدأ نقاط الماء تدلف من السقف الذي ذوّبت جليده المدفأة، وأنفاس الناس...

اعتادوا العيش في العربة بسرعة، فالعيش فيها خال من التعقيد- الأمتعة قليلة، والمكان قليل أيضاً. تكوّم الفلاحون في أحد طرفي العربة، واللينينغراديون- «الذين كانوا»- في الطرف الآخر. ووجدت زليخة والبروفيسور نفسيهما في النصف الذي يشغله أبناء المدينة.

تعارفتا. السيدة الطويلة ذات القبعة الخضراء حملت اسماً (على الموضة) إيزابيلا. ولها اسم أب طويل وكنية مزدوجة معقدة، لكن زليخة لم تتذكّرهما. كانت إيزابيلا ترتب في كل صباح خصلات شعرها الأشيب في تسريحة عالية. وكانت أحياناً تقرأ بصوت مسموع أشعاراً ذكية، غير مفهومة، جميلة جداً، تارة باللغة الروسية، وتارة بلغة فرنسية صاخبة صخب عجلات القطار. لم تكن تكرر نفسها أبداً. وكانت العربة تصغي إلى أشعارها. زليخة لم تكن تفهم كيف يمكن أن يجتمع في رأس واحد، كل هذا القدر من السطور الشعرية المعقدة والطويلة جداً، ولا سيما في رأس امرأة. كان وجه إيزابيلا يظل هادئاً ويوحي بالعظمة حتى حين تذهب إلى المرحاض الذي تحجبه ستارة من القماش، أو تمسك بقملتين تحت إبطها.

كان زوجها قسطنطين أرنولدوفيتش، وهو عجوز نحيل ضئيل الحجم، ذو لحية شيباء مثلثة الشكل، خفيفة، صموتاً في أغلب الأحيان. يستيقظ باكراً في الصباح، فيشغل مكاناً قريباً من شق في الباب- ينتظر أشعة الشمس، فيضع تحتها كتابه الوحيد، يفتحه ويقرأ. كان يبتسم وهو يقرأ بعض الصفحات، ويهز رأسه مؤيداً حين يقرأ بعضها الآخر- ويهدد بإصبعه هازاً رأسه الصغير لائماً، بل كان يخوض نقاشاً مع بعضها الثالث. وكان حين يبلغ الصفحة الأخيرة يغلق الكتاب وينظر ساهماً إلى غلافه الرمادي ثم يفتحه من جديد. كان أحياناً يتحادث مع زوجته طويلاً، لكنهما كانا يستخدمان كلمات متحذلقة فلا تفهم زليخة أية عبارة من

أحاديثهما رغم أنها كانت تدور أمامها وباللغة الروسية. إنه إنسان غريب، وزليخة كانت تخافه إلى حد ما.

أما إيكونيكوف المحني الظهر فلم تكن تحبه. فكل شيء فيه- الكيسان المجعدان الرجراجان تحت عينيه، والرعشة الخفيفة في أصابعه الطويلة المتوترة، وحركاته الفوضوية بعض الشيء، وحتى ابتلاع إيليا بتروفيتش الطويل لريقه عبر حنجرته الكبيرة الحادة،- كل ذلك كان يؤكد لها أنه سكير. وماما كانت تقول دائماً: الرجل السكير- أسوأ من الوحش.

لكن زليخة كانت تكره غوريلوف أكثر من الجميع. هذا الرجل لم يحبه أحد. لقد كان هذا المشرف على العربة يمسك بأعناق الجميع بقوة، بنفسه يوزع الطعام دائماً: ملعقة كبيرة من الحبوب المطبوخة، وصحن من حساء بسمك السيلد، يحدد كميته بكأسه الخاصة، وخبز يقطعه رقيقاً بصرامة، يضرب بالملعقة دون رحمة أصابع الآخرين إذا امتدت إلى الطعام قائلاً: لا تتدخل في عمل المشرف. كان يشرف حتى على توزيع ماء الشرب، المحفوظ في دلو نصف صدئ وتغطيه طبقة من الجليد، فيأخذ لنفسه حصة مضاعفة- لقاء عمله. أما الرجال فينظرون إليه بأطراف عيونهم، ويصمتون. كان غوريلوف أول من يقفز من السرير حين ينفتح الباب للتفتيش اليومي. يدخل إيغناتوف الرزين المهيب ذو النظرة الصارمة المتعالية إلى العربة محاطاً بالجنود، فيقف غوريلوف المشرف أمام القومينداتت مشدود القامة، ملصقاً أصابع كفه الخمسة بصدغه ويشرع يقدم بصوت مرتفع وحرص شديد تقريره مؤكداً «عدم وقوع أية أحداث».

كان إيغناتوف يقف متجهاً نحوه بنصف جسده فقط، ولم يكن يصغي إليه برغبة. وكانت زليخة تشعر لسبب لا تدريه، بالمتعة، لأن خيشوميه الرقيقين كانا في هذه الأثناء يرتعشان ارتعاشاً يكاد لا يلحظ. في بعض الأحيان كانوا يستدعون

غوريلوف إلى عربة القومينداتت، فيعود من هناك هادئاً، غامضاً، بل حتى حالماً- من المحتمل أنهم كانوا يطعمونه هناك.

المرء هنا جائع دائماً. البطن يئن، يطالب. ينكمش تارة كقبضة، وينفرد وينتفخ تارة أخرى. الطعام في الرحلة كان شحيحاً- لم يكن يشبع البطن، بل كان يثيره فقط. تذكرت زليخة حكاية أمها عن العملاقة التي لا تشبع «جلماويز» التي تأكل كل ما يقع في طريقها. وها هي ذي زليخة نفسها صارت مثلها، شرهة كالجراد، بخيلة كديك الحبش. هي حتى لم تكن تعرف أن مثل هذا الجوع يحدث. إنه جوع تظلم الدنيا أمام عينيها بسببه. حين يصرّ مكبح العربة- تقرقع معدتها، تتهيج: أتراهم جاؤوا بالطعام؟ في أغلب الأحيان- لا يكون ذلك، بل يكون مجرد تفتيش دوري، أو تعداد للرؤوس، أو كشف صحي يقوم به مسرعاً، قرفاً، طبيب المحطة.

في الطريق يكون الحال أفضل. زليخة تتأمل من خلال المستطيل الصغير في النافذة المغطاة بالشبك. كيف تمرق كالطير حياة أخرى بجانبها- أحراج صغيرة، وقرى تزحف على سفوح التلال، وأشرطة متعرجة من الجداول، والسهوب الممتدة كالبساط، والغابات- فتنسى الجوع، لكنها تعود فتتذكره حين يتوقف القطار.

كانت تلتقط في بعض الأحيان نظرات جارها إليها. كان ليبيبيه ينظر إليها طويلاً، بثبات، دون أن يطرف له جفن، وهي تلحس بلسانها الصحن النظيف حتى اللمعان، ثم يعطيها، فجأة قطعة خبزه التي أكل نصفها، أو بقايا الحبوب المسلوقة في صحنه. كانت زليخة ترفض في البداية، لكنها كفّت عن ذلك فيما بعد. غير أنها كانت تشكره وتستمع، تستمع إلى أحاديثه المشوشة التي لا تنتهي. حكاياته عن الطب تارة، ولقطات عن تشخيص الأمراض تارة أخرى. وقد لاحظت بعد فترة وجيزة أن محب الكتب الصموت قسطنطين أرنولدوفيتش يستمع أيضاً إلى أحاديثهما الطريفة، فقالت في سرها وهي تشعر بالغيرة: لن يجديه هذا نفعاً، فالبروفيسور لن يتقاسم طعامه مع هذا (الكتبجي) أيضاً!

هي لم تستطع أن تفهم هل للعربة روح خاص بها يرعاها أم لا. يجب أن يكون لها روح، فمن دون ذلك لا تستقيم الأمور. لكن ماذا سيأكل هذا الروح إن وجد؟ هنا لن يجد حتى القمل الميت (بعضهم كان يأكله، وبعضهم يحرقه في المدفأة)، ناهيك عن فتات الخبز. كانت في الليالي تصغي علّها تسمع صريراً ما، أو صوتاً غريباً، لكن دون جدوى. الهدوء سائد، والعربة بلا روح، العربة ميتة.

الجو في العربة بارد جداً، فكمية الفحم الي كانوا يعطونها قليلة، ونادراً ما كانوا يعطونهم شمعتين لإنارة مصباحين متسخي الزجاج، فينتشر الضوء آنذاك في العربة لفترة قصيرة.

كانت تتناثر في كل مكان في العربة آثار سابقيهم- وكأنها رسائل تحية من الماضي. لقد وجد غوريلوف الذي فتش كل الشقوق والثقوب التي في ألواح الجدران، في نصف الساعة الأولى من الرحلة، سيجارة كاملة. وعلى المدفأة تحت طبقة من الصدأ والوسخ وجدوا عبارة مثيرة محفورة بمسمار: «أحرقوا العاهرات!». وكانت المقاعد مغطاة بالرسائل المحفورة على سطوحها: أسماء الأحبة، والتواريخ، والأيمان بعدم النسيان وعدم التسامح، والأشعار، والإهداءات، والتهديدات، والصلوات، والشتائم المقذعة، وصورة جانبية لوجه أنثوي رقيق، ومقتطفات من الإنجيل، وكتابات بالعربية. ووجد أبناء الفلاح الكثير الذرية، في أثناء لعبهم تحت المقاعد فردة حذاء طفل بلون (كريمي لطيف)، وبكعب رشيق، ونعل رقيق من الجلد. إنها على ما يبدو، فردة حذاء لبنت في الخامسة أو السادسة من العمر. وقد أراد غوريلوف أن يأخذ شريطها الحريري (فكل شيء يلزم في الحياة)، لكنه تأخر- فقد قام إيكونيكوف، الحذر عادة بإلقاء فردة الحذاء في المدفأة. وبعد ذلك فاحت في العربة طويلاً رائحة الجلد المحترق المنفرة...

كان طريقهم طويلاً، وبدا كأنه بلا نهاية. أسماء المدن والبلدات والمحطات تتالى بعضها خلف بعض كالخرز المشكوك في خيط.

كينديري، فيسوكايا غورا، بيريولي، آرسك...

كان القطار يندفع تارة كالسهم فوق السكة مخترقاً الرياح والعواصف الثلجية، وتارة يجر نفسه في كسل عبر امتدادات وفروع جانبية باحثاً عن المكان المخصص له للوقوف والانتظار، ويقف، في تارة ثالثة، أسابيع ساكناً لا يتحرك في مكان الانتظار، تغطيه كتل الثلج، ويغطي الجليد عجلاته فوق السكة.

شيموردان، كوكمور، كيزنير...

أحياناً، في المحطات الصغيرة، كانوا يلمحون من خلال الشقوق في باب العربة، قطاراً آخر يسير بقربهم.

- لايش!- يصيح حينها الفلاحون الهادئون في اعادة.

ماما ديش! سفياجسك! شوباشكار!

- نحن من ليبيتسك!- يأتيهم الجواب.

- فورونيج! تاغاناروغ! شاختي!

- من ضواحي أرزاماس!

- من سيزران!

- من فولوغدا!

ساركوز، موجتا، بيتشاز...

ذات يوم، وبعد توقف دوري، راحوا بشكل مفاجئ يقودون القطار في الاتجاه المعاكس: بيتشاز، موجتا، ساركوز...ضحك الفلاحون فرحاً وصلّوا دون توقف: عائدون إلى الوطن، الحمد للـه، إلى الوطن! قادوا القطار يوماً تقريباً. ثم فطنوا- أداروه، وانطلقوا به إلى الشرق من جديد: ساركوز، موجتا، بيتشاز...

- نحن لا يحتاجنا أحد،- قال آنذاك إيكونيكوف.-يأخذوننا ويعيدوننا كالـ... وصمت.

- نعم، نعم!- قالت إيزابيلا تشجعه.- أنت محق تماماً: يخضّوننا كالخراء في جرة. هكذا بالضبط.

يتابع القطار مساره.

أغريز، بوتريش، سارابول...

الأطفال كانوا أول من ماتوا. ماتوا واحداً بعد آخر كما في لعبة الداما، «هربوا إلى الجانب الآخر» جميع أطفال الفلاح البائس الكثير الذرية- في البداية الطفلان الصغيران (دفعة واحدة في يوم واحد)، ثم تلاهما الأكبر سناً. ثم لحقت بهم زوجته التي كانت قد وصلت إلى حالة لم تعد تميز فيها الحدّ الفاصل بين ذلك العالم وعالمنا. أما الفلاح نفسه فلطم برأسه في اليوم نفسه جدار العربة- كان يريد أن يحطم جمجمته. سحبوه، وقيّدوه، وأمسكوا به حتى هدأ.

يا ناؤول، باراك، تورون...

كانوا يدفنون الموتى بمحاذاة السكة، في حفر جماعية، يحفرونها بأنفسهم برفوش خشبية، تحت فوهات بنادق الحرس. وكان الوقت لا يكفيهم أحياناً لحفر القبر، أو لتغطية الجثث بالتراب- يدوّي الأمر «إلى العربات!» فيتركون الأجساد مكشوفة- آملين أن يوجد في القطار القادم أناس طيبون، يقومون بالمهمة. هم أنفسهم كانوا دائماً حين يقفون بالقرب من قبور مكشوفة، يردمونها.

بيسيرت، تشيبوتا، ريفدا...

إيغناتوف لم يعتد استخدام حامل الكأس عند شرب الشاي. كان يشرب مغلي الشاي من كأسه الألومينيوم القديمة الطيبة، أما حامل الكأس المنتفخ اللامع بالخطوط الفولاذية على بطنه، وقبضته المصقولة المستفزة، فظل على الطاولة،

الكأس المضلع الموضوع فيه يرتعش ارتعاشاً خفيفاً حين يسير القطار، وأحياناً يقفز في مكانه مذكّراً بوجوده. وقد بدا لإيغناتوف أن الشرب باستخدام هذا الشيء السخيف أمر غبي ومخجل، بل، وبكل بساطة، مستحيل. بعد اجتياز سارابول أعطاه إيغناتوف للحرس المقيمين في القمرة المجاورة- ليلهوا به. وأراد أن يعطيهم أيضاً الفرشة المقلمة اللينة المقززة، المغلفة بقماش ناعم نعومة غير عادية (أهو غلاف حريري؟)، لكنه غيّر رأيه: سيخربها هؤلاء الأغبياء. طواها على شكل أسطوانة ودسها كيفما اتفق على الرف الأعلى تحت السقف، فالنوم على المقعد الخشبي كان بالنسبة إليه مألوفاً وأكثر عذوبة.

كثيرة هي الأشياء التي لم تكن تعجبه في قمرة القبطان، ولم يكن يعجبه انزلاق الباب بصمت وتذلل (يميناً ويساراً، يميناً ويساراً...)، والستائر الفاخرة المقلمة بخطوط تكاد لا تلحظ (لنفترض أن بقاء النوافذ عارية لا يجوز، ولكن لماذا هذا التطريز؟)، والمرآة الكبيرة النظيفة جداً فوق المغسلة ذات الجرن الواسع (لم يكن ينظر إلى المرآة إلا عند الضرورة- صباحاً حين يحلق ذقنه). إن كل هذه الأشاء التي لا يحبها تحيط به، يضاف إليها حامل الكأس المزركش.

قيادة الرتل ليست عملاً سهلاً كما تصوره في البداية. ها هم يسافرون طول شهرين. كلمة «يسافرون» ليست مناسبة هنا، فقد قضوا القسم الأكبر من وقتهم متوقفين. كانوا يهاجمونه تارة كالمجانين طالبين منه الانطلاق إلى أمام («هل جننت أيها القوميندانت! ألا ترى أن كل الطرق مسدودة! هات أوراقك، وانصرف من هنا بسرعة- حرّر لي الخط رقم خمسة!») وتارة يلزمونه بالتوقف أسبوعاً في الانتظار («لم نتلق أية تعليمات بشأنكم يا رفيق. إنهم يأمرون بالانتظار- فانتظر. ولا تأت إليّ كل ساعة! نحن سنجدك إذا احتاج الأمر»).

كان يحب تلك الدقائق حين يتحرك الرتل الطويل الممتد كمصران بني، يهدر هديراً ثقيلاً، ثم يطير مسرعاً فوق السكة، مرتجفاً وكأنما نفد صبره. وكان يود كثيراً

لو يشد نافذة العربة إلى أسفل، ويمد رأسه واضعاً وجهه في مواجهة الريح: أما أيام الانتظار الطويلة الثقيلة على مدخل إحدى المحطات الصغيرة المكتوب اسمها بخط مائل على الخريطة، فكان يتحملها بصعوبة.

وها هو ذا الآن ينظر عبر الغبار السميك العكر الذي تكدس على زجاج النافذة التي انبسطت خلفها الحقول سوداء ساكنة تتخللها نقاط بيضاء صغيرة- بقايا الثلج، وهو ينقر سطح الطاولة المدهون بأصابع متوترة.

في خلال ثمانية أيام من الانتظار- خمس عشرة وفاة.

لقد لاحظ منذ زمن أن الناس يموتون في فترات التوقف. ومن المحتمل أن تكون طرقات العجلات العالية على السكة تحرض القلوب المتعبة على الحركة، أو أن اهتزاز العربة يهدئ من قلق الناس. غير أن الحقيقة- تبقى حقيقة، ففي كل توقف ينضاف اسمان إلى الأسماء المشطوبة في المصنف المكتوب عليه كلمة «القضية».

أحد عشر عجوزاً، وأربعة أطفال.

حين تنقل نحو ألف نفس، لن يكون مدهشاً أن يموت بعضهم هكذا، أليس كذلك؟ كبار السن يموتون بسبب الشيخوخة والمرض. لكن ماذا عن الأطفال؟ لا بد أنهم يموتون بسبب الضعف. أنت لا تستطع أن تكتب شيئاً في تفسير سبب الوفاة غير كلمة- الطريق.

- أيها الرفيق القومينداننت،-يقرع الباب بغنج بولييف المسؤول عن التموين،- ما رأيك بالغداء؟ هل آتيك به؟

تنداح في القمرة رائحة الحبوب المطبوخة مع قطع كبيرة من دهن الخنزير، وعلى هذه القطع الطويلة الماسية تلتمع كالكريستال حبات الملح. وإلى جانبها قطعة ثخينة من الخبز الناضج.

يأخذ إيغناتوف الطبق من الصينية. ويقف بولييف في وضع الاستعداد ويداه مسبلتان على جنبيه. لقد حاول في البداية أن يساعد القوميندانت- أن يسوّي وضع المنديل القماشي على الطاولة، ويضع الطبق في وسط الطاولة كي يبدو أجمل، ويضع إلى جانبه أدوات الطعام بشكل صحيح (الملعقة والسكين- إلى اليمين، والشوكة- إلى اليسار)، والمملحة، وزجاجة الفلفل، و...

لكن هذا ليس قوميندانتاً- إنه وحش: إذا رأيتك، تقول، تمارس هذه الخزعبلات مرة ثانية... طيّب، أنت تريد أن تلتهم الطعام من دون إتيكيت- التهمه، كل حبوبك بالملعقة.

- أيها الرفيق إيغناتوف،- بولييبييف يحمل الصينية الفارغة كدرع أمام صدره،- ماذا سنفعل بلحم الغنم؟

إيغناتوف يرفع نحوه نظرة ثقيلة ويظل صامتاً.

- نيسان يقترب- أخشى أن نغفل عن ذلك. الصقيع- جيد، طبعاً، ولكنك لا تستطيع أن تخالف الطقس.- ما رأيك في أن نضع لحم الغنم في الاستهلاك؟ أنا أستطيع أن أصنع منه أطباقاً مختلفة: حساء الملفوف، ومعكرونة البحارة، وفطائر... أستطيع أن أحضر منه الشوربة والطبق الرئيسي، وأصنع الجيليه بالثوم من عظامه- سيكفينا ذلك مدة أسبوع. إننا منذ غادرنا قازان حتى اليوم لا نأكل غير الحبوب المطبوخة. عساكرك ينظرون إليّ بعيون حاقدة، وقد هددوا بأن يأكلوني شخصياً إذا لم أقدم لهم اللحم.

- لن يأكلوا اللحم من دون أمر.- يقضم إيغناتوف قطعة من الخبز ويلوكها بانفعال، ثم يأخذ بيده الملعقة.- وإذا كان اللحم سيفسد حتماً فأنا نفسي من سيتصرف.

يطلق بوليبييف ضحكة قصيرة غير محددة- يمكن أن تفهم على أنها ابتسامة، أو على أنها موافقة واستسلام.

- ها أنتذا!- يخز إيغناتوف صدره بالملعقة.- هل تستطيع أن تخبرني كم سيطول سفرنا؟ هل سيطول أسبوعاً؟ شهراً؟ أم شهرين؟ أم نصف عام؟ ماذا سأطعمك أنت شخصياً إذا أكلنا كل ما لدينا؟

- كما تشاء- الصقيع هو الصقيع،- يقول بوليبييف متنهداً ثم يختفي وراء الباب.

إيغناتوف يرمي الملعقة من يده.

لحم الغنم!

ولحم العجل المطبوخ، والحليب المكثف، والزبدة- براد عربة القومينداانت يغص بالمأكولات المتنوعة. كل هذه الثروة مخصصة لعناصر مجموعة الحراسة وللوقّادين الاثنين والميكانيكي، والقومينداانت طبعاً.

أما المهجرون فقد كان من المفترض أن يأكلوا في المحطات. ففي التعليمات الخاصة بأجهزة إدارة المواصلات مكتوب بالأسود على الأبيض: «تزويد المهجّرين باستمرار بالماء المغلي في كل مراحل رحلة القطار، وإنشاء مراكز إطعام في المحطات، وتقديم طعام ساخن مرة واحدة على الأقل في كل يومين». ترى أين هي مراكز الإطعام هذه؟

لقد أدرك إيغناتوف في أول محطة أن هذا الأمر صعب التحقيق. القطارات المحملة بالكولاك الذين نزعت أملاكهم، كانت تسير على طول السكة الحديدية بكثافة، قطاراً بعد آخر، وكان بعضها يعلق طويلاً في موقفه المؤقت في انتظار الأوامر.» من أين آتيك بكل هذا العدد من أطباق الطعام؟- سأله رئيس المحطة

بمودة.- قل شكراً على الماء المغلي الذي أقدمه». فقال إيغناتوف: نعم، إنهم يقدمون الماء المغلي بانتظام.

لكن الطعام المقدم للمهجّرين لم يكن كافياً. لقد فرح إيغناتوف حين استطاع أن يحصل على الحبوب (القمح، والذرة، والبيرلوفكا وغيرها). هذه الحبوب لا تحتاج الكثير من الماء. كانوا يضيفون الماء إلى الحساء بسخاء، يزيدونه بالماء عدة مرات، وكانوا يصبون فيه ماء الجليد المذاب أحياناً. وقد حاول إيغناتوف أن يوبخهم- لم ينجح في ذلك. بل إنهم عدّوه هو نفسه مذنباً: «أتراك تشفق عليهم؟» يسألونه. «أنا مسؤول عنهم، يجيبهم،- فمن هم الذين سأسلمهم حين نصل؟»- «طيّب، وأين هي تلك النقطة التي ستصل إليها؟!» يسألونه فيطوح بيده بدلاً من الجواب.

أين هي حقاً؟ إنه لا يعرف. يبدو أنه ما من أحد يعرف. ففي المحطة التالية وبعد انتظار دام أسبوعاً أو أسبوعين، تلقى الأمر الذي يتلقاه في كل مرة: «سر حتى النقطة (كذا) وهناك انتظر لحين الطلب». انطلق، ووصل، وأسرع يقدم تقريره لرئيس المحطة. ومن جديد بقي في الانتظار لحين الطلب.

كان يعزي نفسه بأنه ليس الوحيد في هذه الحال، فقد التقى بقوميندانات آخرين أكثر خبرة، وتبادل معهم بعض الأحاديث. نعم، قالوا له، نحن أيضاً نسافر لحين الطلب. نعم، الناس يموتون في العربات. نعم، الموتى كثيرون. المهم ألاّ يقع عندك حادث طارئ. الخسارة الطبيعية- موجودة دائماً، ولا أحد يسأل عنها.

كل هذا مقبول- لكن هذه الجولات اليومية... لقد أدرك فجأة أنه بدأ يتذكّر الوجوه، ففي كل مرة يجلس فيها في قمرته ويغمس الملعقة في صحن الحبوب المطبوخة الساخن يتذكر، من دون سبب، تارة ذلك الفتى الطويل الأبيض- الأحمر، ذا العينين الساذجتين الحمراوين من ركاب العربة الثالثة، وتارة تلك المرأة البدينة ذات الوجه المنمش وعلى خدها شامة حمراء كبيرة، من ركاب

العربة السادسة، («أيها الرئيس! ضيّفني شيئاً ما- أكاد أموت...»)، وتارة تلك الضئيلة الحجم، الشاحبة الوجه ذات العينين الخضراوين اللتين تشغلان نصف وجهها من ركاب العربة الثامنة.

وها هو ذا الآن- في باله الفكرة التالية: هؤلاء الناس كلهم أكلوا ماء مغلياً في الغداء. هؤلاء ليسوا ناساً، يقول لنفسه مصححاً. إنهم أعداء. الأعداء أكلوا ماء مغلياً على الغداء- وهذا هو السبب الذي يجعله يرى صحن الحبوب بلا طعم.

يتذكّر كيف كان وهو طفل في الثالثة من عمره يجلس في الأماسي على حافة نافذة منزله نصف القبو، ويبحث بين سيقان الراكضين في الشارع عن حذاء أمه المربع. أمه كانت تعود عند حلول الظلام. تخبئ عينيها وتسقيه الماء المغلي دون أية إضافات، ثم تضعه في السرير لينام.

غبي. ممسحة. مبولة. لو سمعه باكييف لسخر منه، وهو محق تماماً في ذلك...

ينهض ويحمل الصحن الذي لم يمسّ إلى المطبخ، حيث بوليبييف. ليختنق بوليبييف نفسه بالحبوب التي طبخها.

في مساء ذلك اليوم سلّم بولييف، الذي انتابه إحساس بوقوع شر، كل ما في براد عربة القومينداانت من لحم الغنم، اختفت اللحمة الحمراء الداكنة التي تظهر عليها عروق صغيرة بيضاء، في السلة المجدولة الواسعة، وانسربت من حياة بوليبييف إلى الأبد (كما سبق أن هجر البراد من قبل أكثر من خمسة كيلو غرامات من الزبدة الحيوانية، ودستة علب من ألطف أنواع الحليب المكثف). جرى تسليم اللحم في وقت متأخر من المساء، في العتمة، وبناء على أمر شفوي من قومينداانت الرتل، من دون أية إيصالات أو تواقيع، وهذا ما أشعر المسؤول عن المؤونة اليقظ، بقلق غامض.

بعد نحو نصف ساعة جاؤوا إلى القطار بدست من الحبوب لإطعام المهجرين. كان ذلك غير متوقع مطلقاً، لكنه كان مناسباً جداً (فالناس لم يأكلوا منذ يومين) إنه لأمر لا يمكن حدوثه بالمصادفة.

هكذا إذن،- فكّر بوليبييف بشماتة، وهو يراقب من نافذة قمرته كيف يسكبون برتابة كميات كبيرة صفراء من الحبوب اللزجة في الدلاء بواسطة مغرفة (دلو واحد لكل عربة). القوميندانت الوحش الرهيب ليس في الواقع سوى راشٍ عادي.

لقد ملأت هذه الفكرة نفس مسؤول التموين بالسكينة والرضا، لا سيما وأنه استطاع، رغم كل شيء، أن يخفي قطعتين رائعتين من لحم الغنم، وقرر أن يخلطهما غداً مع وجبة الحبوب من دون أن يعلم القوميندانت، فإيغناتوف لا يأكل جيداً في الفترة الأخيرة. ومن المشكوك فيه أن يلاحظ طعم اللحم في الحبوب التي صار يكرهها... في آخر يوم من أيام التوقف في ضواحي سفيردلوفسك، وقع في العربة الثامنة حادث صغير. القطار يقف هنا منذ أسبوع تقريباً. ومن الباب المفتوح بمقدار كف، يرى الوادي المسود الذي ما زالت تغطي بعض أماكنه بقايا الثلج الذائب، لكن العشب الأخضر النضر بدأ ينبت فيه (في الطريق وفي أثناء التوقف كانوا يسمحون بفتح باب العربة قليلاً، لكن، عند المرور في مناطق مأهولة كانوا يغلقون الباب بمزلاجين). وكان اللون الأخضر يزداد في كل يوم قوة، وسطوعاً، وانتشاراً.

طائر صغير أحمر خدعه توقف القطار طويلاً، ففكر أن يبني عشه تحت سطح العربة، غير بعيد عن نافذة زليخة- فراح ينقل بهمة الأغصان الصغيرة والقش، ويدس ذلك تحت سطح العربة دون كلل، وهو يصدر أصواتاً تعبر عن انفعاله.

- إذا استمر توقفنا أسبوعاً آخر، فسيكون ذلك كافياً كي يضع الطائر بيوضه في العش،- قال قسطنطين أرنولدوفيتش من دون أن ينصرف عن كتابه.

- أية بيوض؟ سنقبض على الطائر الآن!- ابتلع غوريلوف ريقه، واقترب من النافذة، محركاً أصابعه بوحشية، مقدّراً أنه سيقبض على الطائر بيده.

- تعالوا نتفرج قليلاً.- يقترب إيكونيكوف من النافذة زامّاً عينيه.

يعلو فجأة صوت ضربة، ويتساقط من أعلى الغبار والرمل والقش. قفز الطائر خائفاً وانطلق نحو السماء. إنها زليخة وقد ضربت بلوح طويل ومتين انتزعته من بين القضبان الحديدية في الباب، سقف العربة. ودّعت الطائر بعينيها ثم أعادت اللوح إلى مكانه، ونفضت الغبار عن يديها.

أطلق غوريلوف صيحة تنم على خيبة الأمل («ماذا تفعلين أيتها التترية الغبية؟») وارتمى على السرير: انتهى كل شيء- ضاع الغداء، وطار! يبدو أن إيكونيكوف ينظر باهتمام لأول مرة إلى زليخة.

- لقد فقدت العصفورة العش- ولن تضع البيض،- شرحت الأمر بإيجاز.- ستظل كل الصيف تائهة تبحث عن عش.

صعدت إلى سريرها في الطابق الثاني، فرأت أن أحد ألواح السقف انزاح قليلاً من مكانه وظهر شق ضيق ترى عبره رقعة من السماء. هذا عظيم، فمن غير المعقول أن يظل المرء ينظر عبر النافذة.

يتحرك القطار في المساء. وفي الليل يجتاز سلسلة جبال الأورال. وستنظر زليخة من خلال الشق في السقف إلى النجوم وتفكّر: هل سيطول سفرنا يا اللـه؟ إلى أين؟- وتسأل دقات العجلات. إلى أين؟ إلى أين؟ ثم تجيب، هي نفسها، نفسها: إلى هناك. إلى هناك. إلى هناك.

الجزء الرابع العودة

الهرب

- كلاب! انهضوا جميـــ... يعلو صوت مهتاج، نصف مخنوق من أسفل.

تطل زليخة من سريرها، وتحملق في الظلمة. ماذا هناك؟ يتناهى إلى السمع عبر ضجيج العجلات الرتيب- صوت صراع، وجئير مخنوق، وضرب قبضات يخبو تارة لاصطدامه بجسم ليّن، ويرن تارة لاصطدامه بجسم صلب. وعلى ضوء قطعة مائلة من القمر يتسلل من النافذة، يظهر عدد من الأشخاص يتكومون قرب المدفأة.

- سأدفنك يا كلب!...- تعلو من جديد صيحة تتحول إلى جئير.

الصوت يشبه صوت المشرف على العربة، بل ها هو ذا نفسه، غوريلوف،- إنه يرقد على الأرض، يداه مقيدتان خلف ظهره، وفمه مسدود بقطعة من القماش، وهو يتلوى كالدودة. فوقه- فلاحان متينا البنية، يتلذذان بضربه بقوة. ينتفض انتفاضة قوية، ينثني، ويقذف الاثنين بعيداً عنه، لكن رأسه يصطدم بزاوية المدفأة فيرقد هامداً.

لكن العربة لا تنام. الرجال والنساء على الأسرة يتبادلون نظرات ذات مغزى، ويقولون إنه يستحق ما حدث له، وراح بعضهم يزيد في شد وثاق المشرف الراقد بلا حراك، وبعضهم يسرع في جمع متاعه مضطرباً.

الفلاح الذي كان كثير الذرية وصار الآن وحيداً، يخرج من بين قضبان الباب المعدنية لوحاً خشبياً سميكاً وثقيلاً. يقترب من سرير زليخة. يستعدّ، ثم يضرب نفس المكان الذي ضربته هي صباحاً لتخيف الطائر ذا الصدر الأحمر.

- ماذا تفعل يا بن بلدي؟- تقول زليخة خائفة.

هو لا يجيبها، بل يضرب باللوح ثانية، وثالثة، يضبط الضربات على إيقاع دقات العجلات، كي لا يسمع صوتها. يتسع الشق فوق رأسه، يتثاءب، لم تعد الفتحة الآن شقاً ضيقاً بل لساناً عريضاً من نجوم السماء يطل عبر السقف.

يمد الفلاح يده باللوح إلى زليخة- أمسكيه قليلاً!- ثم يقفز فوق السرير، يقف على ركبتيه، ويضغط بكتفيه البارزيّ العضلات، السقف الذي صار مطواعاً- يطقطق شيء ما ويصدر صريراً، ويندفع الهواء الطازج في الفتحة، يلطم وجه زليخة. يرفع الفلاح نفسه مستعيناً بيديه ويختفي في الأعلى.

- أو- أو- أو-!- يعوي غوريلوف الراقد على الأرض، وقد استعاد وعيه وراح يغرس عينيه في زليخة.

يطل وجه الفلاح على العربة من فتحة السقف الممتلئة بالنجوم، وهو يبتسم لأول مرة بعد شهور.

- هيا؟- يقول للمحتشدين في الأسفل. ويمد لهم يده الطويلة البارزة العظام.

أخذ المهجّرون يمسكون بتلك اليد واحداً بعد الآخر، يقفزون إلى سرير زليخة ثم يحشرون أنفسهم في فتحة السقف. الرجال والنساء والفتيان يختفون في الأعلى بسرعة ومهارة. امرأة بدينة تعلق في الفتحة التي بدت أضيق من أن تتسع لها، لكنهم في الأسفل مستعجلون، يتزاحمون، يدفعونها كي يأتي دورهم- وينتهي الأمر بأن تعبر الفتحة بشكل ما، ممزقة ثوبها وجلدها، تاركة على حروف الفتحة الحادة خيوطاً وقطعاً من الثوب.

- أو- أو- أو-أو! أو- أو- أو- أو-أو! يجأر غوريلوف بصوت مخيف ويلطم بجسده حديد المدفأة.

- وأنت يا أختي؟- يتردد الصوت في أذنها تماماً: الفلاح ينظر إلى زليخة من الفتحة وقد رفع حاجبيه محرضاً.

أتهرب؟ أتترك العربة التي قضت فيها أسابيع كثيرة طويلة؟ أتترك السرير الذي دفأته بجسدها، وتشبع برائحتها؟ والبروفيسور اللطيف الذي لا يعرف الحقد، والسيدة الطيبة إيزابيلا؟ أتعصي أمر إيغناتوف القاسي وجنوده الصارمين المشرّعين بنادقهم، ورؤساء المحطات الغاضبين؟ أتخالف مصيرها نفسه؟

تهز رأسها، لا، لن أغادر. اللـه معكم.

- أنت قوية- تستطيعين!- يمدّ الفلاح يده ويدعوها بإلحاح. تنظر طويلاً بشك إلى الكف العريضة المغطاة بآثار الندوب المنتفخة. ثم تخفض بصرها.

- حسناً، لك ما تشائين.

يُسمع وقع الخطا فوق السطح. ويظهر في النافذة كيف تسقط الظلال الطويلة عن سطح العربة وتطير إلى جانب الطريق، وتمتد سرباً طويلاً أسود يختفي في الغابة. وهذا كل شيء.

تنظر زليخة حولها: العربة شبه فارغة. ذهب جميع الفلاحين تقريباً، لم يبق سوى اثنين، كبيري السن، عاجزين (عانقا طويلاً ابنهما أو حفيدهما، يودعانه، وما زالا حتى الآن يجلسان على السرير وينظران بعيون ثابتة ذابلة إلى الفتحة في السقف، التي اختفى فيها الفتى) وعدد من النساء الوحيدات.

الذين «كانوا» لينينغراديين في غالبيتهم بقوا، ولم يهرب غير طالبتين فتيتين. ظلت إيزابيلا جالسة على السرير تضغط بقوة يد زوجها. وراح إيكونيكوف ينظر مبتسماً، حالماً إلى لمعان النجوم في فتحة السقف الممزقة الحواف، ويهمس قائلاً لسبب غير معروف: «شكراً، شكراً». أما البروفيسور ليبييه الجالس طول هذا الوقت إلى جانب زليخة فيردّ ظهره إلى الخلف متنهداً بارتياح.

- الحرية كالسعادة،- يتمتم تحت أنفه،- مؤذية لبعضهم، ونافعة لبعضهم الآخر.

- غوته؟- يقول قسطنطين أرنولد وفيتش منتعشاً على المقعد المجاور.

- نوفاليس،- يتدخل إيكونيكوف مصححاً.

- لا، أرجو المعذرة، إنه غوته بحسب علمي.

- لا أقبل بذلك. إنه، بالتأكيد، نوفاليس.

-أو-أو-أو- يصرخ غوريلوف الراقد على الأرض، الذي لم يفكر أحد حتى الآن بفك وثاقه.

تدرك زليخة فجأة أنها ما زالت تحمل بيديها ذلك اللوح،- ترميه على الأرض. وفي الفتحة الواسعة في السقف يرتعش نثار النجوم.

عظيمة هي البلاد التي تعيش فيها زليخة. عظيمة وحمراء كدم الثور. زليخة تقف أمام خارطة تغطي الجدار كله، وقد امتدت فوقها بقعة حمراء عملاقة تشبه شبحاً ضخماً منتفخ البطن.- إنه الاتحاد السوفييتي. لقد رأت ذات مرة مثل هذا الشبح- على لوحة إعلان تحريضية في يولباش. منصوركا- الفجلة شرح لها اللوحة قائلاً: هذا هو وطننا الغالي من المحيط إلى المحيط. زليخة لم تفهم آنذاك أين تلك البحار- المحيطات، لكنها تذكّرت ذلك الشبح، فقد كان مضحكاً جداً- ذا لحية، وكفّ ذات مخالب في وسطه. أما الآن، على هذا الجدار المرتفع، فيبدو، فعلاً، كبيراً لا يستطيع شخصان أن يحيطا به، ناهيك عن زليخة: وعلى جسده، الذي تغطيه الغابات، تمتد عروق الأنهار الزرقاء متعرجة (ترى هل بينها نهر تشيشما الحبيب؟)، وتظهر المدن والبلدات نقاطاً سوداء كالشامات. تمدّ زليخة أصابعها إلى سطح الخريطة اللامع، لكن الوقت لا يسعفها فتلمسه،- صوت إيغناتوف الصارم يفاجئها كضربة سوط:

- هل صحيح أنك ساعدتهم في الهرب؟

تبعد زليخة يدها عن الخريطة. إيغناتوف يقف أمام النافذة المفتوحة على الليل، يدخن ووجهه إلى الشارع. والضوء الأصفر لمصباح الكيروسين الذي على الطاولة، يضيء سترته المشدودة على الكتفين والحزامين المتقاطعين على صدره.

- لا تعاندي،- يتابع كلامه.- فقد رأوك.

الليل خلف النافذة مخملي دافئ.

- ولماذا بقيت أنت؟

لا بد أن غوريلوف، هذا الروح الحاقدة، قد حرص على سكب حقده في تقريره. لم يفكّر أحد بفك وثاقه. فظل مقيداً هكذا كالقربان في عيد الأضحى، طول الليل، حتى وصول القطار إلى بيشما. وفي النهار، في الموقف في بيشما، انكشف كل شيء. جاء إيغناتوف في جولته التفقدية إلى العربة، وحين رأى تلك الفتحة في السقف تقلص وجهه وشحب- هرع الجميع يطقطقون بكعوبهم، ويصرخون. وضعوا غوريلوف في جهة، تحت الحراسة، ووضعوا الآخرين تحت الحراسة في الجهة الأخرى. سدّوا الفتحة في السقف بسرعة. لكن البحث عن الفارين كان دون جدوى. هم لم يطعموا الباقين في العربة طبعاً، فقد كانوا منشغلين بأمور أكثر أهمية. في المساء أخذوا من العربة ليبييه أولاً، ثم إيزابيلا، وقسطنطين أرنولدوفيتش وشخصاً آخر. أخذوهم ثم أعادوهم. إيكونيكوف قال إنهم استجوبوهم. أما إيزابيلا فأجابته قائلة: يا عزيزي إيليا بتروفيتش، هل يمكن أن نسمي ذلك استجواباً؟! وضحكت بمرح.

في الليل أيقظوا زليخة من نومها واقتادوها إلى هنا. الغرفة كبيرة يرتفع عالياً في العتمة سقفها الذي يتدلى منه عنكبوت برونزي ضخم- هو الهيكل العظمي لثريا كانت جميلة في يوم من الأيام. أما الجدران التي كانت مغطاة بدهان أبيض

مزهّر، فزال لونها وظهر لون القرميد الغامق عارياً. وفي الغرفة كرسيان أسودان من طرازين مختلفين تساقط الدهان عن ظهريهما المحنيين، وفي وسطها طاولة موبيليا كبيرة أحد جوانبها محروق، مرفوعة على رزمة من الكتب بدل القوائم، وثمة خزينة وثائق صارمة في الزاوية وفوقها صورة ذلك الرجل الذكي المشورب نفسها، التي رأتها زليخة على ميناء ساعة برج ديرقازان. زليخة تسرها رؤيته: عيناه نصف مغمضتين بأبوية، تنظران إليها بمودة، وكأنهما تهدئانها، وتحميانها من إيغناتوف الغاضب إلى درجة غير معقولة.

يلتفت إيغناتوف إلى زليخة. العينان سوداوان جداً والجلد يبدو مشدوداً على كل عظمة من عظام وجهه.

- ما بالك؟ هل تلعبين معنا لعبة الصمت؟ خمسون نفساً هربوا من عندنا، تسربوا من القطار- وأنت تلعبين لعبة الصمت؟!

في أصابعه يتنفس بصيص نار من سيجارة (لفّ). يقترب من الطاولة، ويغرس عقب السيجارة بحدة في صحن خشبي صغير ممتلئ بأعقاب السجائر. الصحن يقرقع، ينقلب، يقع على الأرض- تطير أعقاب السجائر في كل مكان. يصدر إيغناتوف فحيحاً- يا للشيطان!- ويبدأ بجمعها. تسرع زليخة بالجلوس إلى جانبه. لا يجوز أن يجمع الرجل النفايات عن الأرض بينما تكتفي المرأة بالنظر إليه!

أعقاب السجائر باردة، صغيرة كالديدان. تتساقط رماداً، وتفوح منها رائحة الدخان البارد. أما إيغناتوف فكان يفوح دفئاً.

- أنت مهددة بالمعتقل يا غبية،- صوته قريب جداً منها.- أو بالمشنقة. أتعرفين ما المشنقة؟

ترفع زليخة عينيها. هنا، تحت الطاولة يسود الظلام تماماً، وعينا إيغناتوف تلتمعان بالسواد في محجريهما كفحمتين.

- أنا لا أفهم اللغة الروسية جيداً،- تقول أخيراً.

الأصابع الصلبة الدافئة تضغط على ذقنها.

- أنت تكذبين!- يقول إيغناتوف بصوت كالفحيح.- أنت تفهمين كل شيء، لكنك لا تريدين أن تقولي شيئاً. هيا، تكلمي! هل اتفقتم على الهرب معاً؟ إلى أين أرادوا الذهاب؟ قولي!

ذقنها تؤلمها.

- أنا لا أعرف شيئاً. رأيت ما رآه الآخرون، وسمعت ما سمعه الآخرون.

وجه إيغناتوف بفتحتي عينيه السوداوين، يقترب من أذنها، وتحس بأنفاسه على خدها.

- يا لك من امرأة تترية عنيدة... زليخة- أليس هذا اسمك؟

تلتفت نحوه بوجهها.

- ليتني هربت معهم. أنا الآن أشعر بالندم.

- الحرس!- يعلو الصوت المنفعل لرئيس قسم العمليات في بيشما- أين اختفى الحرس؟

وقع أقدام الحرس يعلو مسرعاً، خائفاً، وقد اندلقوا في المكان كما تندلق حبات البطاطا من دلو.

تفلت أصابع إيغناتوف ذقنها- تشعر بجلدها يحترق كما لو لسعته نار. ينهض إيغناتوف من تحت الطاولة، ويصلح وضع سترته.

- هذا نحن، فلا تقلق.

تنهض زليخة في إثره، وتضع صحن أعقاب السجائر على الطاولة. يداها- سوداوان وكأنها كانت تطحن فحماً.

حارس فتي في وجهه حبوب، ينزل بندقيته ويتنهد بارتياح. ينظر إلى زليخة وهو يكبت ضحكه: على خديها وذقنها خطوط طويلة داكنة من الرماد. يقع نظره على نظرة رئيس قسم العمليات الصارمة، فتغيب عن وجهه الضحكة ويتراجع نحو المخرج، ثم يخرج ويغلق الباب وراءه. ويلتفت إيغناتوف إلى زليخة مرتكباً أيضاً.

- حسناً، هل حققت معها؟- يسأل الرئيس.

هو رجل قصير القامة، متين البنية. يداه كبيرتان، وكفاه كبيران وكأنه سرقهما من شخص آخر. إيغناتوف يقف صامتاً، ينفض الرماد عن يده.

- أرى أنك حققت معها،- يقول مبتسماً، وهو ينظر ساخراً إلى وجه زليخة المقلّم.

يأخذ ورقة بيضاء عن الطاولة، وينظر إلى وجهيها- الورقة فارغة.

- وكتبت المحضر أيضاً،- يتابع بمودة وهو يدعك الورقة بيديه.- لقد قلت لك يا إيغناتوف أن التحقيق ليس أمراً بسيطاً. يمكنك أن تقول إنه فن. الأمر يتطلب خبرة. مهارة!... كفاك قول أنا، أنا.... أنا أيضاً لي شوارب!

يبدو أن الورقة كانت من نوع يطقطق كثيراً، أو أن كف الرئيس قاسية جداً، فالورقة كانت تطقطق في يديه بصوت مرتفع ومشبع كالثلج الطريّ.

- هاك ما سأقول- يكوّر الورقة.- اتركها لي، سأتحادث معها. يمكنك أن تعدّ ذلك نقلاً لضرورة التحقيق.

يأخذ إيغناتوف قبعته عن حافة المكتب، يعتمرها ويمشي ببطء نحو المخرج. تودعه زليخة ببصرها محتارة: ما هذا؟ ولماذا؟

يبسط الرئيس يده على طولها ويرمي الكرة الورقية في سطل قرب الباب. يجلس إلى المكتب، يفتح الدرج العلوي، ويخرج بحركة معتادة، دون أن ينظر إلى

الدرج، رزمة من الورق، والريش، ودواة حبر. يصفّر لحناً مرحاً، وهو يعلّق يديه بالقفل، ويطقطق أصابعه الطويلة القوية.

يتوقف إيغناتوف عند الباب، ينظر إلى الكرة الورقية التي تتنطط في قاع سطل النفايات، ثم يلتفت نحو الرئيس.

- هي لا تعرف إلى أين ذهبوا،- يقول.

- أهذا ما همست به لك هنا تحت الطاولة؟- يرمي الرئيس إيغناتوف بنظرة عبر الغرفة.

- إنها لن تنفعك أيها الرفيق، فليس لديها ما تقوله.- يعود إيغناتوف إلى داخل الغرفة.

يسند الرئيس ظهره إلى ظهر المقعد- يصر الكرسي صريراً طويلاً متقطعاً، وكأنه يوشك أن ينكسر،- وهو ينظر باهتمام إلى زليخة وإيغناتوف، كما لو كان يراهما لأول مرة، ثم يتابع طقطقة أصابعه.

- هكذا إذن- شاي على عرقسوس! سأزعل منك يا إيغناتوف الجميع عندي يتكلمون. حتى الخرسان.

- أنا سآخذها معي.

- غريب هذا الكلام!- يحرر الرئيس يديه أخيراً، ويضرب بهما وجه الطاولة- غفل عن هرب عربة كاملة، ولم يفطن لذلك إلا بعد نصف يوم. وعليّ أنا أن أعالج الأمر، أبحث عن الفارين في التايغا، أقبض عليهم! لقد انتشروا وذابوا في القرى- والمحطات الصغيرة. ويقال لي- أركض، الهث حتى يتدلى لسانك من فمك، تعرّق،- ثم قدّم تقريرك واشرح لماذا لم تقبض عليهم! أما هو فيأخذ مني الشاهد رقم واحد! أليس هذا ما يحدث؟

- عملي هو نقل الناس، وعملك هو القبض عليهم.

- ما بالك تنقلهم بهذا الشكل السيء يا إيغناتوف؟ موّت نصفهم في الطريق، وغفلت عن هرب منظم، وها أنتذا الآن لا تريد أن تساعد التحقيق، وتأخذ الشاهد. هل تظن أن الأمر سيمر بسلام؟

- أنا المسؤول عن أخطائي، إذا سئلت. لكني لست مسؤولاً أمامك. إيغناتوف يشير برأسه إلى زليخة: هيا بنا! فتنقل الأخيرة نظرها إلى الرئيس الذي تضرج وجهه بالحمرة.

- سيسألونك يا إيغناتوف، سيسألونك!- يصرخ الرئيس.- وقريباً جداً! أنا لن أحميك- سأقول لهم كيف دافعت عن امرأة كولاك!

يصلح إغناتوف قبعته، يستدير على كعبيه، ويغادر الغرفة: زليخة تهرول خلفه خائفة.

يحمل إيغناتوف سراجاً في يده الممدودة ويمشي بسرعة فوق السكة. التترية الصغيرة من ركاب العربة الثامنة تركض خلفه- تخطو بيسر فيكاد لا يسمع وقع خطواتها. وخلف الاثنين يسير على القضبان حارس محدثاً ضجة.

إيغناتوف نفسه كان يفهم أنهم سيسألونه حتماً. كيف تراهم عبّروا عن ذلك صباحاً في الإدارة؟ لقد قالوا له: «سنستوضح كل شيء حين تعود». من الواضح أنهم يريدونه أن ينهي القضية أولاً، وبعد ذلك يمكن أن ينزعوا اللحاء عن جذع الشجرة. حسناً، هيّا افعلوا، حققوا، لكنه لن يبقى ساكتاً. سيقول كيف يقتلون الناس جوعاً في الطريق، وكيف يأخذونهم ويجيئون بهم في المحطات المؤقتة وكأن لعنة قد حلت عليهم. ثلاثة أشهر في الطريق دون أن نتجاوز الأورال. أين يحدث مثل هذا؟ نحن، لو سرنا على الأقدام لوصلنا بسرعة أكبر.

إن ما حدث خسارة للوقت. خمسون رأساً- صحيح أنهم من الكولاك- لكن المرء يأسف عليهم، فهم قوة عمل رغم كل شيء، كان بإمكانهم قطع الأشجار في

الغابة، أو إنشاء مبني ما. إن أي عمل يقومون به أفضل من التعفن في الوديان. وها نحن اليوم أمام خمسين شخصاً آخر- تفو...

لا، إنه مسؤول عن الفرار، الفرار ذنبه، نعم ذنبه، هو لا ينكر أنه غفل عنهم. لقد كان مشرف العربة مجرباً («لا تقلق أيها المواطن الرئيس، الشعب عندنا هادئ، مسيحيون حالمون، ومثقفون متعفنون- فما الذي تتوقع أن يفعلوه؟»)- غير أنهم خدعوه على الرغم من ذلك. لكن، دعونا نفكر: لو أوصلناهم إلى المكان المحدد بشكل أسرع، لما حدث أي هرب. لا تظنوا أني أحاول رفع الذنب عني، لكني أرجوكم أن تأخذوا بالحسبان أسباب ما حدث. في أثناء ثلاثة أشهر من السفر يمكن أن تنشأ في رأس أي كان، أفكار شريرة، ويمكن أن يجد الوقت اللازم لتنفيذها. هذه هي الحقيقة أيها الأخوة.

ماذا تراني سأقول إذا سألوني لماذا أخذت الشاهدة من التحقيق؟- لماذا أخذتَ هذه المرأة الضئيلة الحجم، ذات الاسم الرنان: زليخة؟ بماذا سأجيبهم؟... يتعثر قدما إيغناتوف بعلبة معدنية، فيركلها مستمتعاً، فتطير العلبة إل الأمام ويعلو صوت ارتطامها بقضبان السكة.

وصلا إلى الموقف، ولكن إيجاد قطارهما في العتمة لم يكن سهلاً، فحولهما الكثير من القطارات، عربات شحن بضائع حادة الزوايا سوداء، وصهاريج حمراء مستطيلة هي عربات شحن الوقود، التي يسمع منها أحياناً كلام بصوت خافت، وغناء في أحيان أخرى. كان إيغناتوف يرفع تارة ضوء السراج الشاحب ويقرأ أرقام العربات. ثلاثة ظلال طويلة تكبر تارة وتطير إلى الجدران، وتهبط تارة إلى الأرض فتتبدد على قضبان السكة.

تعلو من الخلف صرخة الحارس الخائفة: «هيه، أنت، ماذا دهاك؟» يلتفت إيغناتوف. التترية الضئيلة تقف مواربة بشكل ما، تمسك بطنها وقد ردّت رأسها إلى الخلف، ثم تبدأ فجأة بالسقوط على الأرض ببطء.

الحارس يوجه نحوها بندقيته بغباء: «قفي! قفي، ألا تسمعين!» تسقط المرأة، ترقد على الأرض بسهولة، وانضباط وكأنها تثني نفسها نصفين.

يجلس إيغناتوف إلى جانبها. يداها متجمدتان برداً، عيناها مغلقتان وظل رموشها يغطي نصف وجهها. الحارس ما يزال واقفاً، مصوباً نحوها بندقيته بغباء.

- أغلق فمك،- أمره إيغناتوف. وأبعد بندقيتك يا غبي.

يعلّق الحارس البندقية على كتفه.

- هل أغمي عليها من الجوع؟- يسأل.

- احملها،- يأمره إيغناتوف.- نحن لن نقف هنا نحرسها حتى تستيقظ أياً كان سبب إغمائها.

يحاول الحارس أن يرفع المرأة، لكنه يجد صعوبة في ذلك، فيسقط رأسها على قضيب السكة محدثاً صوتاً. يشتمه إيغناتوف- يا للأهبل!- ويحملها هو نفسه.

- ضع يدها حول عنقي،- يأمر الحارس.

يتابعان السير. الحارس الآن يركض في المقدمة، يضيء الطريق، وإيغناتوف يحمل الجسد الصغير. يا لخفة وزنها! كيف هذا...

تصحو زليخة قليلاً، تطوق رقبته، ويشعر بأصابعها الباردة على خده.

لقد أرسلوا في طلب الطبيب الآن (إيغناتوف لم يرد الانتظار حتى الصباح)، أنهضوه من فراشه، وجاؤوا به. كان يتوخوخ وينقل ساقيه البدينتين بشكل مضحك (مع أنه ما يزال فتياً- سنه أكبر بقليل من سن إيغناتوف)، دخل إلى العربة ورأى زليخة التي استعادت وعيها، في ضوء مصباح الكيروسين، عضّ على شفته السفلى التي تدلت بتكاسل، وداعب خصلة الشعر الطويلة المسرحة على صلعته.

- القلب سليم،- يقول بلا مبالاة،- والرئتان أيضاً. والبشرة نظيفة.

- ماذا أصابها إذن؟- إيغناتوف يقف إلى جانبه في العربة، مستنداً بظهره إلى الباب المغلق، وهو يدخن سيجارة.

من الأسرّة تنظر إليه عيون نحو عشرة أشخاص، هم من بقي بعد هرب المهجّرين (لم يرسلوا أحداً إلى العربة الثامنة ليحل محلّ الفارين فقد كانوا مشغولين بأمور أخرى).

- لا تقلق يا رفيق،- يتثاءب الطبيب بكسل ويضع أدواته البسيطة في حقيبة يد نحيلة.- هذا ليس تيفوس، ولا جرب، ولا زحار. نحن لن نرسل الرتل إلى الحجر الصحي.

يحني إيغناتوف رأسه بالموافقة ويلقي بعقب السيجارة بارتياح في المدفأة الباردة (فقد كفّوا عن تموين العربات بالفحم منذ نهاية نيسان، زاعمين أن الجو صار دافئاً، والعربات ليست بيوتاً للراحة).

سبب الإغماء يمكن أن يكون أي شيء،- يتابع الطبيب متمتماً وكأنه يخاطب نفسه، وهو يتجه نحو الباب- نقص الأوكسجين، الجوع، وماذا أيضاً؟! الأوعية الدموية.

- أو الحمل،- ارتفع صوت واضح من عمق أحد الأسرّة.

التفت الطبيب مندهشاً، ورفع مصباح الكيروسين. بعض الوجوه العابسة ذات اللحى النامية المتسخة تطل عليه ملتمعة العيون. كثير منها مر بين يديه في الأشهر الأخيرة- لكنه لا يتذكّرها، فقد اندمجت كلها في صورة مرهقة، داكنة، واحدة. غير أن أحد الوجوه التي في العربة بدا وكأنه يذكّره بأحدهم، أو بواحد من معارفة القدماء... إنه يعرفه إلى حدّ جعله يقرّب منه المصباح أكثر، فأكثر. أنف حاد

كمنقار، عينان باردتان ساخرتان، انحناء حاد لجبين مرتفع عريض، تحيط به خصلة فضية مشعثة من الشعر. لا، هذا غير معقول... ما هذا الذي يراه؟!

- البروفيسور!- يصيح الطبيب.- أهذا أنت؟

لا يمكنك التأكد من توتر الغدد الصدرية وتلال مونتغمري- يقول ليبييه بصوت مسيطر واضح كصوت محاضر في قاعة كبيرة.- حاول، على الأقل، أن تفحص وضع الغدد اللعابية.

الطبيب ينظر إلى البروفيسور.

- وولف كارلوفيتش! ماذا جاء بك...

- جرّب أيضاً أن تضغط على أسفل البطن.- يتابع.- تقديري أنها حامل في الأسبوع الثامن عشر.

أنهى ليبييه كلامه، ووجه نظرة ثابتة طويلة إلى الطبيب، الذي مسح شفته العليا المبللة، ثم جلس على المقعد إلى جانب زليخة الخائفة، وراح يتلمس فكها السفلي.

- تنفسي،- يأمرها بصوت منخفض.

تهز رأسها وتتنفس بصوت مرتفع، وبوتيرة سريعة ولا تتوقف.

- زليخة يا عزيزتي،- تجلس إلى جانبها إيزابيلا، تمسك يدها.- يكرر الطبيب طلبه.

- لقد قلت: تنفسي!- يقول بلهجة غاضبة.

تتنفس زليخة، ثم تحبس نفسها. الطبيب يبلع ريقه، ثم يضع كفه على بطنها. وينظر إلى البروفيسور نظرة ذات مغزى.

- هناك تضخم في الرحم.

ليبييه يضحك بصوت مرتفع يوحي بالظفر، وتلمع أسنانه في الظلمة.

- سأضع لك علامة «غير مقبول»، يا تشيرنوف. لقد نبهتك وأنت في السنة الأولى إلى أنك لن تكون طبيباً يجيد التشخيص!

تدمدم زليخة وهي لا تفهم ما يجري: ماذا عليّ أن أفعل؟

قولي للزبونة أن تتنفس.- يقول ليبييه ويردّ ظهره إلى الخلف في السرير، مسروراً، دون أن يتوقف عن الضحك.

تتنفس زليخة متوترة.

- أيها البروفيسور، كيف أنت...- يقرب الطبيب المصباح من عمق السرير حيث اختبأ ليبييه محاولاً رؤية وجهه.

- ستتسلم دفتر علاماتك في مكتب العمادة يا تشيرنوف،- يجيب البروفيسور الذي كان يتدثر بمعطف سميك، وراح يتراجع أكثر، فأكثر نحو الجدار.- فليس لديّ الآن وقت للحديث معك.

- وولف كارلوفيتش،- يلح الطبيب وهو يحرك المصباح فوق السرير،- نحن نعدّك.. أنت بالنسبة إلينا...

- لا وقت لديّ يا تشيرنوف،- صوته يكاد لا يصل من العمق،- لا وقت لديّ. مصباح الطبيب يضيء تلة تتحرك من الثياب عند الجدار البعيد، ثم تجمد في مكانها.

زليخة تعوي ككلبة بصوت منخفض وهي تعض بأسنانها طرف منديل وتنظر إلى أعلى بعينين جامدتين. إيزابيلا الجالسة إلى جانبها تدلك يديها الممدودتين بمحاذاة جسدها مضمومتي القبضتين.

يهز تشيرنوف رأسه هزات خفيفة، وكأنه يتخلص من شبح، ويضغط حقيبته إلى صدره ثم يغادر العربة. يقفز إلى الأرض مستنداً إلى ذراع إيغناتوف الممدودة له، ويلاحظ أن عيني هذا الأخير صارمتان، متوترتان.

- أؤكد لك أيها الرفيق القومينداانت أن الأمر ليس خطيراً،- يقول الطبيب بصوت متوتر قليلاً (ما أرقّ قلوب هؤلاء القومينداانات الجدد!) ما هذا؟

يخرج من جيبه منديلاً ويمسح خدّ إيغناتوف الذي ارتسمت عليه أربعة خطوط سوداء طويلة وكأنها أثر يد صغيرة.

حامل؟ نعم، هي كانت دائماً تطلب الطعام- لكنهم لم يطعموها. صحيح أن بطنها قد ثقل قليلاً في الفترة الأخيرة- لكنها ظنت أن سبب ذلك هو التقدم في العمر. وتوقفت أيام النزف الحمراء أيضاً- فظنت أن سبب ذلك هو المعاناة. لكنها لم تفكر بالحمل... مرحى يا مرتضى- لقد خدعت الموت. هو يرقد في القبر منذ زمن،- وبذرته حية، تنمو في بطنها. وها هي ذي عاشت نصف العمر المقدر لها في الرحم.

أهي بنت مرة أخرى؟ طبعاً، إنها لن تكون غير ذلك. ترى ماذا قالت أويريخا؟ «لن تنجبي لهذا العالم غير البنات». لا، هي لم تقل ذلك. هي قالت: إنها لا تنجب لهذا العالم غير البنات، وحتى هؤلاء- لا يعشن.

وهل ستلقى هذه المصير نفسه؟... سيكون لها المصير نفسه طبعاً. هذه سترحل عنها أيضاً بعيد ولادتها، حتى قبل أن تزول عن بشرتها الرقيقة حمرة الولادة، حتى أن تمتلئ عيناها الصغيرتان بالمعنى، حتى قبل أن يبتسم فمها لأول مرة.

تنظر زليخة إلى عتمة السقف. أفكارها تجري مع طرقات العجلات. خلف ألواح الجدران الخشبية تمر ليلة من ليالي أيار الدافئة. تهتز العربة الخفيفة نصف

الخالية اهتزازاً واسعاً، غير عادي، وكأنها سرير طفل، الجميع الآن نيام- إيزابيلا الطيبة التي ظلت تدلك يدها حتى منتصف الليل، والبروفيسور الأبله الذي نظر إليها طويلاً بعينيه المشرقتين الفرحتين. ليتها تنام هي أيضاً- لكن النوم يجافيها.

هل يحق لها أن تطلب من اللـه أن تعيش طفلتها حتى تقف على قدميها؟ حتى تمشي خطواتها الأولى على الأقل، قبل أن تترك هذا العالم؟ أم أن هذا الطلب سيكون وقاحة كبيرة؟ لا أحد بجانبها كي تطلب منه النصح- لا مرتضى، ولا حضرة الملا. يا إلهي، قل لي أنت، هل يجوز لي أن أطلب منك ذلك؟ أنا لا أطلب أكثر من ذلك، لا أجرؤ، لكن اسمح لي بهذا على الأقل.

وهنا تظهر لها فكرة تعترض مجرى أفكارها: ترى كيف سيكون حالك حين تفقدين طفلك، بعد أن يقوم بخطوته الأولى، إذا سمح له الرب القدير بذلك؟ أليس الأفضل لك أن تفقديه فوراً، قبل أن تألفي وجوده، وتتعلقي به؟ تذكّري كم حزنت لوفاة طفلتك الأولى التي منحها اللـه الحياة شهراً كاملاً. وكيف كان حزنك أقل لوفاة الثانية التي لم تعش سوى أسبوعين، ثم كيف صار أقل عند وفاة الثالثة التي لم تعش سوى سبعة أيام، وتذكري كيف ودعت بعينين لم تبللهما الدموع البنت الرابعة التي ماتت فور ولادتها.

شمسة- فيروزة، تنادي طرقات العجلات. خالدة- زبيدة، ثم تكرر الطرقات نداءها: شمسة- فيروزة. خالدة-زبيدة.

أليس الأفضل أن يتم الأمر فوراً؟ ماما كانت ستقول إن هذه الأفكار آثمة. لا شيء يحدث إلا بإذن اللـه، ولا يحق لنا نحن أن نناقش ما هو الأفضل ومتى يجب أن يكون. لكنك لا تستطيعين أن تقطعي رأسك بيدك. إنه يفكّر، ويفكّر ويمتلئ بالأفكار كما تمتلئ شباك الصياد بالأسماك.

أليس من الممكن ألاّ أنجب أحداً؟ قد يحدث مثل هذا، النسوة كن يتهامسن حول ذلك قرب البئر. يعيش الجنين في الرحم، يكبر قليلاً، وبعد ذلك ينفصل عن المكان الذي هو فيه قبل الأوان، ويخرج من الجسد مجرد كتلة من الدم في سراويل المرأة.

أوبيريخا ليست بالقرب منها لذا ليس هناك من يتنبأ لها بمجرى الأحداث. وهل معرفة ما سيحدث مسبقاً أمر جيد؟ إن هذه المعرفة لن تؤدي إلّا إلى عذاب الانتظار. وماذا إذا لم تعرف؟ إن هذا سيؤدي أيضاً إلى عذاب، لكنه سيكون عذاب عدم المعرفة، كما هي حالها الآن. لقد تعبت، تعبت من العذاب. عذاب الجوع، عذاب إقناع جوفك الجائع بالصبر. وعذاب البطن بسبب الأكل الرديء، والعذاب بسبب القمل، والغباء، والموت والألم السائد في كل مكان، ومعاناة الخوف والقلق من حدوث ما هو أسوأ. والأبشع من كل شيء، هو معاناة الخجل الدائم.

كانت تخجل دائماً: حين تشم الرائحة الكثيفة الصادرة عن جسمها بسبب عدم الاستحمام، وحين تنزلق عيون الجنود في أثناء التفتيش اليومي، على رأسها المكشوف وضفائرها بلا مبالاة، وحين تجلس أمام الجميع خلف الستارة القماشية للمرحاض، وحين تلتصق في الليالي بالبروفيسور النائم علّها تحصل على شيء من الدفء، لقد كادت تحترق خجلاً مساء البارحة حين لمسها طبيب غريب بأصابعه المنتفخة اللامبالية. أما حين أعلن على مسمع من الجميع عن حبلها- فصاحت: وا خجلتاه! وا خجلتاه! وا خجلتاه! إنها مضطرة إلى حمل عارها أمام الجميع... إن هذه هي المرة الأولى في الحياة التي لا تستطيع أن تخفي فيها سرها خلف أسوار بيت زوجها المرتفعة. هي ستنمّي في بطنها المعروض دون رحمة أمام أعين الجميع، جنيناً سيهجرها فور ولادته.

يا اللـه، متى سأصل إلى نهاية رحلتي؟ ألا تستطيع بقدرتك العالية أن تنهيها؟ تدس زليخة وجهها في معطفها القصير المطوي، الموضوع تحت رأسها إلى جانب

الوسادة. جبينها يصطدم بجسم حاد، صلب. تقلب جيبة المعطف فتجد قطعة السكر التي تحجّرت تقريباً! إنها القطعة نفسها التي أعطاها لها مرتضى. لقد نسيتها، لكن ها هي ذي هنا الآن ولم تختف: الكريستالات البيضاء الكبيرة تلتمع، تشع عند الأطراف، وتفوح منها رائحة حادة، قوية كما كانت في الشتاء. لقد حملت زليخة معها، في جيبها، الموت أسابيع طويلة- والحق أنها حملته كي تجده في هذه الدقيقة المرة في حياتها، إذ، ما هذا، إذا لم يكن استجابة لدعائها الحار؟

تقرّب زليخة السكر من وجهها. هل تقضمه قطعة قطعة، أم تحاول مصّه قطعة واحدة؟ هل سيفعل السم فعله فوراً أم بعد بعض الوقت؟ وهل سيؤلمها ذلك؟ طيّب، وما الفرق...

- سكر؟ mein Gott، من أين؟

عينا البروفيسور فرحتان- مندهشتان- وقريبتان جداً. لقد استيقظ وهو ينظر الآن إلى زليخة وقد نهض في فراشه مستنداً إلى كوعيه. خصلات شعره التي كالإكليل، تبدو فضية في ضوء القمر. زليخة لا تجيب عن سؤاله، بل تضغط السكر في قبضتها- فتنغرس أطرافه الحادة في جلدها.

- كليه، يجب أن تأكليه حتماً! يهمس ليبييه منفعلاً.- ولكن لا تفكري بأن تريه لأحد، ولا سيما غوريلوف- سينتزعه منك.- يضع سبابته على شفتيه.- أما أنا... فقد أردت، لو تعرفين... أن أهتم...- يتجه البروفيسور بعينيه نحو بطنها، يزمهما، ينكمش، وأخيراً يحزم أمره.- أن أعرف كيف حاله؟

- حال من؟

- الجنين، طبعاً.

- إنه أنثى، بنت. عائلتنا تنقرض، وأنا لا أستطيع أن أنجب غير البنات.

- من قال لك هذا؟- ليبييه يجلس بحدة، يتملكه الغضب، فيكاد رأسه أن يصطدم بالسقف، ويظل يتأفف طويلاً، وهو ينظر إلى بطن زليخة بثبات: كانت نظرته في البداية تعبّر عن عدم الرضا، ثم تجولت إلى الشك، وأخيراً- انقلبت إلى فرح.- لا تصدقيهم!- يصرخ برضا ثم يغرق في الضحك وهو يشير بيده.- لا تصدقيهم!

العجلات ترسل طرقات عالية، تطغى على الحديث. شمسة- فيروزة. خالدة- زبيدة.

- هل تظن أن قلبه صار ينبض الآن؟

- أنت تسألين!- البروفيسور يغص بغضبه.- إنه ينبض منذ شهرين.

يتوخوخ في ارتباك كسائر العجائز وهو يستدير في السرير. ينحني مقرباً أذنه من بطنها وكأنه يسمع النبضات الساخنة المختفية في داخله، لكنه لا يجرؤ على أن يلمسه. تضع زليخة يدها على خصلات شعر البروفيسور الأشيب، وتضغط رأسه على بطنها. ويتراجع الخجل. رجل غريب يلمس بوجهه جسدها، يشم رائحته- لكنها لا تشعر بالخجل. هي فقط تريد أن تعرف ماذا هناك، في داخلها.

يستمع ليبييه طويلاً، باهتمام، مغمضاً عينيه. ثم يرفع رأسه -وجهه لين القسمات، حالم،- يحني رأسه لها في صمت- كل شيء على ما يرام،- كلي السكر،- يذكرها وهو يعود إلى مكانه.- كليه الآن دون إبطاء... نام سريعاً، واضعاً يديه تحت رأسه، رافعاً وجهه الباسم نحو السقف- وكأنه يتأمل النجوم.

تعيد زليخة السكر إلى جيبها. الآن، صار موتها- حلواً، رقيق الرائحة، متخفياً بشكل عادي جداً لقطعة سكر حقيقية ترقد ملتصقة بها تماماً، وقد أكسبها هذا الكثير من الهدوء والاطمئنان. إنها الآن تستطيع في أية دقيقة، وبناء على رغبتها، أن تستقبل موتها، شاكرة اللـه الذي سمع دعاءها واستجاب له.

القطار يسير فوق جسر طويل من الحديد الصب فوق نهير تلتمع قطع منه بضوء القمر، وهذا ما جعل طرقات العجلات تدوي بشكل متميز: دا- دا، دا- دا، دا- دا...

إن سفرهم سوف يطول، ولن يصلوا إلى المكان المحدد لهم إلا في أوائل شهر آب.

يلان، يوشالا، توغوليم...

في تيومن يوجهون القطار نحو الشرق، إلى توبولسك. ثم يغيرون رأيهم فجأة، فيديرونه، ويوجهونه نحو الجنوب.

فاغاي، كاراسول، إيشيم...

سيرسلون نزلاء جدداً إلى العربة الثامنة. ويظل غوريلوف المشرف فيها، ويظل يهدد ويخيف الجميع أكثر من السابق خشية أن يتكرر الهرب، وسعياً إلى استعادة سمعته التي اهتزت.

مانغوت. أومسك...

بطن زليخة يكبر بسرعة. والجنين يتحرك قبل أن يغادر القطار ضواحي مانغوت، وسرعان ما أحست زليخة لأول مرة بعد أومسك، بقدم صغيرة بكعب صغير منتفخ بشكل يثير الشفقة، تحت جلد بطنها المشدود.

كالاتشينسك، بارابينسك، كارغات...

في شهر حزيران يتحسن وضع الطعام (كانت القطارات المسافرة إلى هذا العمق في سيبيريا قليلة، وهذا ما سهّل لإيغناتوف تحصيل طعام أفضل)، وسيعود الخبز إلى الظهور في حصص طعام المهجّرين.

تشوليم، نوفوسيبيرسك...

لكن عدد الموتى لن يتناقص بل سيزداد- سيؤثر في الناس الجوع العام- والإرهاق بسبب طول الطريق. فيبدأ في نصف العربات انتشار التيفوس الذي سيزهق مئة وخمسين نفساً.

يورغا، أنجيرو- سودجينسك-، مارينسك...

مجموع من مات في ستة أشهر من السفر ثلاثمئة وثمانية وتسعون رأساً، لا يدخل في هذا الرقم عدد الفارين طبعاً.

تيسول، كاشتان، بوغوتول، آتشينسك...

عند الاقتراب من كراسنويارسك، سيلاحظ إيغناتوف وهو يشطب بقطعة من قلم الرصاص أسماء بعض من ماتوا من القوائم التي في المصنف الموسوم بعنوان «القضية»، أنه لا يرى، حين ينظر إلى جملة الأسماء المطبوعة في المصنف، الأسطر والحروف، بل يرى الوجوه.

لا أحد كان يعرف أن هذا اليوم هو آخر يوم يسافرون فيه بالقطار. العجلات تطرطق، وشمس آب الحادة تحرق الوجوه عبر نوافذ العربة. وإيكونيكوف يسلّي إيزابيلا. لقد كان يمر بفترة من تلك الفترات النادرة التي يطل فيها، عبر عبوسه المعتاد، شيء ما طازج، طفلي مشاكس، الأمر الذي يجعله سريعاً وحيوياً، وحتى لاهياً. في مثل هذه الحالة كانت زليخة تعجب به تقريباً. هي لم تكن تفهم أي شيء من تلك النكات التي راحت إيزابلا تضحك لها من الأعماق، ويطلق قسطنطين أرنولدوفيتش المهذب ضحكات متقطعة مكبوتة لدى سماعها، لكنها كانت تسمتمتع بوجودها بالقرب من أناس مرحين باسمين، وتحرص على ألاّ يفوتها ذلك. أما أولئك الذين كانوا لينينغراديين، فلم يحاولوا أن يتجنبوا هذه المرأة الهادئة الصموت.

في كف إيليا بيتروفيتش- قطعة خبز رقيقة حملها منذ الصباح.

- ضعوا المزيد!- يقول محركاً أصابعه بنفاد صبر.

عيناه معصوبتان بقميص أحدهم، وكأنه طفل يلعب الاستغماية. تضع إيزابيلا في كف الفنان قطعة خبز أخرى.

- ضعوا أكثر!- يكرر طلبه.- عيب أن تبخلوا على الفن!

يقدّم قسطنطين أرنولدوفيتش قطعة الخبز الخاصة به إلى إيكونيكوف فيهمهم الأخير راضياً ويبدأ يفتت الخبز بأصابعه الطويلة.

زليخة تنظر بأسف وعدم رضا، فهي لم تكن لتعطي قطعة خبزها بأي ثمن. قد يكون الأمر مفهوماً إذا طلبوا ذلك من أجل قضية هامة، لكنه لن يكون مفهوماً أبداً أن يطلبوا الخبز لمجرد اللهو، فها هو ذا فتات الخبز يتساقط على الأرض فلا يجمعه أحد.

يلين الخبز بين أصابع إيليا بتروفيتش المرنة، ويتحول إلى كتلة رمادية طيّعة- تندعك، وتندعك، وإذا بها تتحول تدريجياً... أتراها تتحول إلى دمية تجسد رأس أحدهم؟

بصر إيزابيلا وقسطنطين أرنولدوفيتش متنبه، يراقب كيف ينمو تحت هالة الشعر حاجبان صلبان، ووجه جانبي كوجه النسر، وتنعقف شوارب كثّة، وتبرز ذقن مفلطحة...

- Mon Dieux،- تقول إيزابيلا بصوت منخفض ورزين.

- هذا عمل خارق،- يهمس قسطنطين أرنولدوفيتش. إنه ببساطة عمل خارق...

- آها؟!- يصرخ إيليا بتروفيتش بلهجة ظفر، وينزع العصابة عن عينيه. في يده- رأس صغير حيّ تماماً: رأس يلقي نظرات نفّاذة، ثابتة، وعلى شفتيه ترتسم نصف ابتسامة ينم على الذكاء.

- لقد حصلت على وسام راية العمل الحمراء منذ فترة وجيزة،- يقول الفنان متنهداً.- تسعة عشر رأساً بالبرونز. - سبعة رؤوس بالمرمر. رأسان بالزمّرد.

- ورأس بالخبز،- يضيف قسطنطين أرنولدوفيتش.

زليخة تنظر طويلاً إلى الرأس المنحوت من الخبز وقد بدا لها أنها رأت هذا الوجه الذكي الصارم صرامة أبوية-، ذا النظرة المعبرة عن الطيبة. لقد صاغ الفنان صوغاً جيداً وجه إنسان طيب، لكنها، مع ذلك، تأسف لهدر الخبز...

يمد إيليا بتروفيتش التمثال نحوها.

- أنت بهذا الشكل، تعطيني الخبز كله،- تقول وهي تهز رأسها.

- إنه لا يعطيه لك يا عزيزتي،- تقول إيزابيلا وهي تشير بعينيها إلى بطن زليخة المحدب بشدة،- بل له.

- لها،- تصحح زليخة كلام إيزابيلا،- إنها بنت.

تأخذ الرأس المصنوع من الخبز وتقضم نصفه حتى الشاربين بشراهة، فيطلق قسطنطين أرنولدوفيتش فجأة صفيراً حاداً ملتفتاً إلى الوراء. وراءه- كانت تلتمع بالفضول عينا غوريلوف ويرتعش خيشوماه في اضطراب. يبدو أنه أراد التنصت على الحديث (بعد الفرار الشهير صار غوريلوف ذا طبع متوحش تماماً- يتشمم كل شيء، ينبش كل شيء، يبحث عن أي شيء كي يكتب بذلك تقريراً لإيغناتوف)- لكنه لم ينجح.

- أنت يا غوريلوف روح جاهلة!- يحجب قسطنطين إرنولدوفيتش زليخة التي ما زالت تلوك الخبز، بكتفيه الضيقين، الصغيرين المدببين،- هل تعلم أن صاحبنا إيليا بتروفيتش هو من بنى ديكورات بالية «البلشفي في مارييبنكا»؟

- نحن لا نكنس بذيولنا مسارح الباليه. وأنت أيضاً، كما أرى، لم تعد قادراً على فعل ذلك الآن.

يمسك غوريلوف غاضباً كفّ قسطنطين أرنولدوفيتش ويبعده: «هيّا، دعني أنظر». لكن لم يجد ما يستحق النظر: امرأة حبلى تمضغ طعاماً يملأ فمها، وتلملم بشفتيها فتات الخبز عن كفها، إلا أنه شعر في داخله بأن في الأمر شيئاً ما غامضاً. يزفر غوريلوف الهواء عبر أنفه بشكل يوحي بالإحباط، ويلقي نظرة عبر النافذة. تلوح له هناك أبنية رمادية عالية لمحطة قطارات جديدة كتب على واجهتها القرميدية بأحرف كبيرة.

- كراسنويارسك،- يقرأ أحدهم العبارة المكتوبة بصوت مسموع.

يبدو أن هناك توقفاً جديداً أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأقل. عجلات القطار التي تطرطق وكأنها تسافر إلى نهاية العالم... تتوقف وتجمد. في الخارج- نباح كلاب متقطع. لماذا ياترى؟ ينزاح باب العربة جانياً يرافقه عواء مديد، وصوت مرتفع حاد، وصرخة كالعواء تصدر أمراً: «خروووج!»

ماذا؟ كيف؟ هل الأمر موجه إلينا؟ هل وصلنا؟ هذا مستحيل... ممكن. هيا يا بيلا، ممكن... اجمعي متاعنا، متاعنا! أسرع يا إيليا بتروفيتش، لا تتباطأ... ساعد زليخة يا بروفيسور... أنا لم أزر كراسنويارسك في حياتي... ما رأيكم، هل سيتركوننا هنا، أم سينقلوننا إلى مكان أبعد؟ أين اختفى كتابي؟... أتراهم يريدون، ببساطة، مجرد نقلنا إلى قطار آخر؟

الحشد القلق يندلق من العربة فوق اللوح الممدود كدرب بين العربة والأرض. زليخة تسير في آخر المجموعة، تحمل بإحدى يديها صرّة متاعها، وتمسك بالثانية بطنها الكبير الشامخ بحدة نحو الأعلى. لم يلحظ أحد، بسبب الفوضى التي سادت التجمع، أن قبعة إيزابيلا التي ما زالت ريشتها الطاووسية تشع ساطعة بلون أخضر زمردي، بقيت ترقد تحت المقاعد.

استقبلهم جنود كثيرون، مع كل واحد من اثنين منهم كلب كبير يرتجف انفعالاً وينبح بصوت أجش، وقد بلغ صوت النباح حداً من الارتفاع جعل التحادث مستحيلاً.

كان إيغناتوف يراقب من بعيد نزول المهجّرين، حاملاً تحت إبطيه المصنف المعهود «القضية» لقد بهت لون المصنف وابيض في خلال هذه الرحلة التي طالت شهوراً، وغطت وجهه الحكومي الأختام والخطوط الزرقاء، والتواريخ المكتوبة باللون البنفسجي، والتواقيع بالقلم الرصاص و(الشخبطات). إنه مصنف هام يستحق التقدير. سيسلمه الآن مع المهجّرين إلى أحد المفوضين المحليين- لكن المصنف سيظل، على الأغلب، يظهر في أحلامه ليلاً، يفتح فمه ويرمي في وجهه محتواه البسيط: ورقتان رقيقتان كاد حبر الكتابة عليهما ينمحي، مملوءتان بعمودين كثيفين من الأسماء والكنى التي شطب منها أربعمئة بخط سميك متعرج بالقلم الرصاص. لا بأس، سيحلم بذلك ليلتين أو ثلاث- وينتهي الأمر، فالبعيد عن العين يسلوه القلب.

ما أعلى صوت نباح الكلاب.

- أنتم تستقبلوننا بالاحتفالات،- قال إيغناتوف للجندي الذي خف للقائه:

- نحن نستقبل الجميع بهذه الطريقة،- قال الجندي باعتزاز.- بالموسيقا كما يقال: أهلاً وسهلاً بكم في سيبيريا!

يبتسم بفرح، الأسنان في فمه حديدية، كلها حديدية.

معجم الكلمات التترية المستخدمة في الرواية

البارجة

رفض رئيس المهمات الخاصة في جهاز أمن كراسنويارسك كوزنيتس زينوفي رفضاً قاطعاً أن يستلم المهجّرين من إيغناتوف.

- هاك البارجة،- قال له.- وهاك نهر ينيسي. خذ جماعتك إلى حيث يجب.

- في التكليف الذي معي مكتوب بالأسود على الأبيض أن «أسلّم المهجّرين إلى جهاز الأمن المحلي»، يقول إيغناتوف غاضباً.

- افركْ عينيك! اقرأ ما كتب في السطر الأعلى: «إيصال المهجرين إلى المكان المحدد». إيصالهم أولاً، ثم تسليمهم. حسناً، أوصلهم لا تتقاعس. استلم قيادة البارجة وانطلق إلى أنغارا. وبعد يومين سنلتقي هناك- وأتسلم مهجّريك.

- لكن أين يقع هذا المكان المحدد؟! في التايغا، بين قرني الشيطان؟

أنا مكلف بنقلهم في القطارات فقط! نقلتهم إليك مجتازاً نصف مساحة البلاد، وقضيت في ذلك ستة أشهر متنقلاً فوق قضبان السكة الحديد! أما أنت، فترفض حتى استقبالهم في مدينتك. إن هذا ليس أسلوبنا في التعامل، هذا ليس أسلوباً سوفييتياً.

- أريد- لا أريد... أنا، قد لا أكون تمنيت شيئاً منذ فصل الشتاء، سوى أن أشبع نوماً!- قال كوزنيتس، وهو يبصق بصوت عال بصقة سميكة بين قدميه، وينظر إلى مكان ما جانباً. أما عيناه فكانتا حمراوين، نصف ناعستين.- أتظن أنك الوحيد الرقيق والجميل في سيبيريا كلها؟ أنا ألتقي في كل أسبوع بدزينة من هذه البوارج. وأحياناً بدزينتين. من أين سآتي بمرافقين لكل هؤلاء؟ الأمر، إذن، هكذا يا إيغناتوف. أنا، بما أني الأقدم رتبة، آمرك أن تذهب إلى المرفأ، فتحصل على كمية

محددة من المهجرين- أنت تعرف العدد اللازم من الرؤوس، فتنقلها إلى المكان المخصص لإنشاء مجمّع سكني- عمالي في المستقبل.

- أنا لم أصبح تحت إمرتك بعد!

- اعتبر إذن أنك صرت في إمرتي، أم أنك تحتاج ورقة مختومة تنص على ذلك؟ أنا أستطيع الحصول عليها بسرعة، لكن عليك بعد ذلك أن تتحمل، يا يمامتي... يرفع كوزنيتس نحو إيغناتوف عينين حمراوين بحدقتين سوداوين.

يدق إيغناتوف ركبتيه بكفيه: لقد علق! يخلع قبعته عن رأسه، يمسح جبينه الذي بلله العرق- الحر جهنمي. عبثاً يسمونها سيبيريا.

كانا يقفان على ضفة مرتفعة حادة الانحدار. من هنا يرى كل شيء وكأنه على راحة اليد. قبة السماء الزرقاء تنعكس في مرآة النهر العريضة المشوبة بحمرة خفيفة. مياه نهر ينيسي- معتمة، كثيفة، كسولة. في البعيد تنتصب الضفة عموداً أخضر. ومن موقف السفن في الانحناءة الجانبية، تبرز مواقف القوارب كعظام الأصابع. ثمة حركة نشطة قرب أحد المواقف: الناس يتجمعون والكلاب تنبح باستمرار، ويتصايح الحراس، وتلتمع في ضوء الشمس أسنة الحراب. إنهم يحمّلون المهجّرين في بارجة صغيرة منتفخة البطن.

يخرج كوزنيتس من جيب سترته علبة سجائر:

- هاك سيجارة، هذا أفضل.

إيغناتوف يرفض في البداية، ثم يدخن من دون رغبة. لدى كوزنيتس سجائر جيدة، غالية الثمن.

- خسارتك كبيرة- أربعمئة رأس. هل كنت تموّتهم...

- لو أنهم أطعموهم بشكل أفضل- لما مات هذا العدد!

عبثاً دخّن. دخان السيجارة العطر يقف الآن في حلقه، يضايقه.

- وهل حدث عندك فرار في الرتل؟- يغمز كوزنيتس بعينه فجأة ويكتم ضحكة قصيرة في ثنايا شاربه الأسطواني الأسود.- ومع ذلك يحاول أن يعلمني ما هو سوفييتي، وما هو ليس كذلك...

يرمي إيغناتوف السيجارة التي لم ينه تدخينها من فوق الجرف.

- ها- ها- يقول كوزنيتس مؤنباً.- رويدك، لا تنفعل. الكولاك كثيرون، لن نعاني من نقص عددهم. إنهم هنا سيفلحون الأرض ويزرعون القمح،- يشير برأسه إلى الرتل الطويل للعساكر الذين يحملون إلى البارجة رزماً من الرفوش، والمناشير والفؤوس. وصناديق ممتلئة بالأدوات المتنوعة.- صندوق أدوات العمل كبير عندهم كما ترى. وسيتوالدون بأسرع مما تتصور.

الأدوات المشحونة على سطح البارجة كثيرة فعلاً، وقد كان هناك أيضاً زوج من عربات النقل المتينة ذات العجلات الخشبية («هل سأسرج الوعول؟ وفي التايغا...»- تساءل إيغناتوف في سره مكتئباً). النثريات والأكياس المملوءة بالأطعمة، والقدور- كل ذلك ينضدونه على السطح المستوي، ويلفونه بأغطية مشمّعة، ويحزمونه بالحبال. كانوا يعملون بانسجام وبشكل معتاد. هنا، على السطح، - حراس يحملون بنادق مشهرة. من هنا لا يخطئ الرامي هدفه في حال إطلاق النار. هناك من يلوح بيديه مصدراً الأوامر. والباقون يتجولون، يتأملون من أعلى، المهجّرين المحتشدين في الأسفل. إنهم يدفعون الناس نحو الأسفل، فيزحفون كالنمل على الدرب ويختفون، يختفون في مستودع السفينة، يلاحقهم من الضفة نباح الكلاب الحاد المتقطع. يا للكلاب السافلة المهتاجة! أتراهم يطعمونها لحم بشر...

- ما بالك؟ هل أنت متلهف للعودة؟- يقول كوزنيتس وقد لاحظ نظرة إيغناتوف العابسة.- نعم،، الحياة عندنا قاسية. لا تخف، حين تصل بمهجّريك إلى المكان المحدد سأتركك تعود إلى بيتك، فتندس في حضن زوجتك الدافئ.

- أنا لست متزوجاً- قال إيغناتوف بجفاء.

اتضح في أثناء تحميل البارجة أنها لا تتسع لجميع المهجّرين. حشروا ثلاثمئة رأس في مستودع البارجة فضاق بهم المكان- لقد خالفوا بذلك كل التعليمات والقواعد، وتجاوزوا كثيراً الحد المسموح به (غاصت البارجة أكثر مما يجب تحت وطأة الحمل)، ومع ذلك بقي عدد من المهجّرين في الخارج.

اقترح كوزنيتس إبقاء المتقدمين كثيراً في السن والعجزة على سطح البارجة (العجوز لن يقفز عن سطح البارجة)، لكن إيغناتوف رفض ذلك بعناد لا مسوّغ له، معلناً أن فراراً واحداً يكفيه. وغد هذا الكوزنيتس رغم كل شيء، فهو كان يعرف أن بارجة واحدة لا تكفي، أتراه أمل أن يحشر الجميع في واحدة؟ أم أنه أمل أن يوافق إيغناتوف بسبب قلة خبرته أو رقة مشاعره، على نقل الناس على سطح البارجة في الهواء الطلق.

اقتربت البارجة من الموقف. بارجة ثانية، استندت بوجهها المفلطح إلى الرصيف- وراحت تنتظر صعود المجموعة التالية، وهي من المجرمين المساجين كما وضّح كوزنيتس. الحراس أنفسهم كانوا، كما تدل أصوات نباح الكلاب الكثيرة، ينتظرون غير بعيد على الضفة التالية، أن تغادر بارجة إيغناتوف.

- ما بالك؟ هل أنت نائم؟- صاح رئيس الميناء بصوت أجش في وجه إيغناتوف.- هيا ارحل! لقد نظم الدور عندي هنا أحد أنصار تروتسكي...

- اخرس، صاح به إيغناتوف.- وأنت أيضاً- اخرس (الكلام هذه المرة موجه إلى كوزنيتس). افعلوا ما تشاؤون، أما أنا فلن أنقل الناس في الهواء الطلق، ما دمت

أنا المسؤول عنهم.

- فليأخذك الشيطان،- قال كوزنيتس وهو يطوح بيده.- أعطني الزيادات التي عندك، أحملها بسفينة الجرّ. وخذ البارجة بأقصى سرعة، خذها بحيث لا تراها عيني.

انتقوا «الزيادات» من الأشد ضعفاً، المتعبين غير القادرين على الهرب. كان كوزنيتس نفسه يشير بإصبعه إلى من يجب أخذه- أخذ الكثيرين من «بقايا» اللينينغراديين، وبعض الفلاحين الشيّاب. اقتادوهم إلى صندوق سفينة كوزنيتس الواسع، وحشروهم في المستودع المخصص لحفظ السمك. غداً في الليل، يجب أن يغادر كوزنيتس بالسفينة ليلحق ببارجة إيغناتوف في نهر أنغارا. وقد طلب من إيغناتوف أن يعطيه عنصراً موثوقاً به من عنده يستطيع أن يراقب القطيع كله، ويقدم تقارير عما يمكن أن يحدث، فالرحلة ستستغرق ثلاثة أيام يمكن أن يقع فيها ما ليس بالحسبان. ضحك إيغناتوف ضحكة مكتومة وأعطاه غوريلوف.

- تريدني أن أنقل الناس؟- سأنقلهم،- أعلن كوزنيتس،- ولكن على مسؤوليتك يا إيغناتوف. أنت المسؤول عنهم في أثناء الرحلة- تذكر ذلك.

جبان.

أما مصنف «القضية» فتسلمه كوزنيتس على كل حال- أخذه ليقرأه في هذه الفترة. وقد أحس إيغناتوف بالراحة وكأن حجراً انزاح عن صدره، وهو يضع المصنف بين يدي كوزنيتس المسمرّتين.

انطلقوا أخيراً. سارت البارجة الذاتية الحركة كخيارة سوداء كبيرة في خط صارم يقسم مجرى نهر ينيسي إلى نصفين. كانت تزحف بتثاقل، وبطء، متأثرة بحملها الزائد. محركها يشخر وينفخ، ويبصق بين الفينة والأخرى، دخاناً كثيفاً من مدخنته الضخمة المقلّمة. والأمواج تتراكض على جانبيها كشوارب مستقيمة بيضاء.

كان اسم البارجة «كلارا». الأحرف الطويلة رسمت ذات يوم بعناية على أنفها المستدير. غير أن دهانها قد سقط عنها منذ زمن بعيد، وغطى مكانه الصدأ، فبات هذا الاسم الألماني الرنان ممحياً يكاد لا يرى على خاصرة البارجة الرمادية الداكنة. ومنذ فترة غير بعيدة قرر أحدهم أن يمنحها كنيته- فكتب في أسفل جانبها بحروف متعرّجة مشوهة: «تسيبكين». لكن هذه الحروف انمحت أيضاً، مسحتها الأمواج فاختفت تقريباً.

قام إيغناتوف، قبل كل شيء، بالتأكد من سلامة الأبواب الضخمة الممتدة على طول البارجة، وسلامة أبواب المستودع الذي اقتيد إليه المهجّرون: أبواب في مقدمة البارجة، وأخرى في مؤخرتها. الأبواب التي في المقدمة مغلقة بإحكام منذ زمن بعيد لعدم الحاجة إليها- فقد كانوا يدخلون سجناء الأشغال الشاقة والمنفيين قبل عام سبعة عشر، وكذلك المعتقلين والمهجرين الآن، ويخرجونهم من بوابات المؤخرة فقط. وهذا سلوك صحيح؛ فكلما قلّت الأبواب، قلّ القلق. تفقد إيغناتوف ألواح الباب السميكة ونكش بأظافره المسامير نصف الصدئة التي تثبتت بها، واختبر متانة القضبان الحديدية المتشابكة التي تغلق أعلاه. وجدها جيّدة ومتينة. لا يمكن خلعها من الداخل. لكنه عيّن عليه حارساً زيادة في الحذر.

حين اقترب من البوابات الخلفية صدمت أنفه رائحة بول ذكوري حادة قوية. لقد كانت هذه الرائحة تفوح في كل مكان على سطح البارجة، تحيط بها كالغيمة، لكنها هنا، قرب البوابات، بدت أكثر حدة وتخريشاً،- هي تنطلق من المستودع، الذي اتحدت فيه مع روائح أجيال كثيرة من المحكومين بالأشغال الشاقة والمجرمين. وكانت آخر ذكرى من تلك الأجيال، كانت تذكاراً لم تصنعه يد. الكثير من أبناء تلك الأجيال لم يعد موجوداً،- تحول إلى رماد، لكن الرائحة بقيت.

لم يكتف بتعيين حارس واحد عند البوابات الخلفية، بل عيّن اثنين. فتحة الباب المربعة مغلقة من الداخل بشبكة فولاذية متينة: قضبان ثخينة غائصة في

الجدار تثبت الشبكة فتمنع اهتزازها أو خلعها. وفوقها- أبواب حديدية مغلقة بمزاليج سميكة سماكة اليد. إنه تصميم ناجح. يمكن أن يحتجز المرء دببة هنا، ناهيك عن احتجاز أناس أضعفهم السفر شهوراً طويلة.

- وهذا- لماذا لم تغلقوه؟- يلاحظ إيغناتوف أن على أحد الأبواب قفل عنابر كبير نصف مفتوح.

- لم نؤمر بذلك،- أجاب متكاسلاً حارس أرهقه الحر.- يقولون إنه لا ينغلق جيداً، يحتاج إلى تصليح.

هذا إهمال كامل، يأخذ إيغناتوف القفل بيده- من ثقب القفل يبرز مفتاح يديره إلى هذه الجهة، ثم إلى تلك- المفتاح يطقطق طائعاً وهو يدور. يعلّق القفل على الباب ويقفله. الحال الآن جيدة تماماً، ولن يستطيع النفاذ حتى الفأر. أما المفتاح- فإلى الجيب.

سمع أصواتاً، الناس في المستودع يضجون، يدقون الجدران بقبضاتهم.

- أيها الرئيس!- يتناهى الصوت إما من وراء الباب، وإما من تحت الألواح الخشبية.- نحن ننقلي يا رئيس!

- ليس هناك هواء نتنفسه!

- ليتك تفتح لنا الباب- فنتنفس قليلاً!

- لقد انطبخنا تماماً!

يرفع إيغناتوف ياقة سترته. الجو حار فعلاً، وهو يشتهي لو يستطيع أن يغطّ رأسه بمياه ينيسي.

- لا تفتحوا الأبواب،- يأمر الحراس.- تستطيعون فتح النوافذ الصغيرة.

عند سطح السفينة تماماً يمتد صف من فتحات التهوية المغلقة بإحكام.

يركل الحارس بمقدمة جزمته هذه الطاقات فتنفتح واحدة بعد أخرى. وتنبعث منها التنهدات، والشهقات، والشتائم.

- هل أعطيتموهم ماء؟

- لم نؤمر بذلك،- يقول الحارس هازّاً كتفيه.

- اسقوهم مرة في كل ساعة.

ماعاد ينقصني إلا أن أميت بعضهم عطشاً في آخر يوم من الرحلة.

الآن صار بإمكان إيغناتوف أن يتفحص المكان بمزيد من الانتباه. يتابع جولته. فوق سطح البارجة كوخان خشبيان واطئان مسقوفان بسطح مستو. في الكوخين يجلس الحراس ويحفظ الطعام. وعلى السطح أدوات مختلفة، قاربان وجهاهما إلى أسفل، وكعكات من رزم الحبال. وهناك أيضاً عدد من الحراس يتجولون على السطح- ظلالهم الزرقاء الغامقة تتراقص على الأمواج بمحاذاة جدران البارجة، ويتناهى إلى السمع صرير الألواح الحاد فوق الرأس من جراء خطوهم. هنا كل شيء يرسل صريراً: سطح البارجة (الألواح مشققة، تتحرك تحت الأقدام كما لو كانت حية)، وجدران الكوخين (نخرتها الزيزان في بعض الأماكن واسودت أماكن أخرى منها بسبب العفن)، والممرات الجافة، وتئن بصوت منخفض الأفاريز التي غطاها الصدأ الأحمر، فلا يظهر لونها الأبيض إلا في أماكن نادرة منها. إن الاستناد إلى مثل هذه الأفاريز مخيف، إذا لمستها، ستترك على يدك أثراً سميكاً أحمر داكناً.

- هذه البارجة من أيام جدي،- يقول بحار حافي القدمين وهو يمر بقربه راكضاً.

- جدك، إذن.- يشير إيغناتوف بذقنه.

كان الارتجاج يزداد تحت أقدامه كلما ازداد اقتراباً من قسم الماكينات. الحرارة تتدفق من الباب المائل المفتوح على مصراعيه، وتسمع قعقعة المعدن الرتيبة-

ها هي ذي غرفة المحركات، مكان في الأسفل يتنفس ألسنة لهب متسارعة في الظلمة- ووقادان تلتمع بغضب فتحات عيونهما البيضاء، وفتحتا فميهما الواسعتين: «امتد البحر فسيحاً أً- أً- أً...»

كان المحرك يعمل بصوت مرتفع، لكن صوته كان يغص وينقطع أحياناً.

- هل عندكم ميكانيكي؟

- لا حاجة لنا به،- يقول البحار مبتسماً.- منذ زمن قال جدي: إن «كلارا» فتاة مشاكسة، لن يستطيع أي ميكانيكي أن يجعلها تعمل إذا تمردت.

عظيم، برميل جيد، لا عيب فيه...

سرعان ما أبلغوه أن حال المرأة الحامل التي في المستودع قد ساءت، فسمح إيغناتوف بإخراجها إلى سطح البارجة. اقترب وراح يتأمل كيف يخرجون زليخة المصفرة الشاحبة إلى الهواء الطلق، ويجلسونها في ظل أحد الكوخين. نحل وجهها، وبدا أنها ازدادت نحولاً في خلال الأشهر الماضية. صار حاجباها ورموشها أكثر كثافة، وأكثر سواداً، أما عيناها فأحيطتا بلون أزرق غامق، ولم يبق على حاله في وجهها غير هاتين العينين.

عجباً، لقد بقيت حية. المرأة البدينة من ركاب العربة السادسة، ذات الشامة الحمراء على خدها، ماتت حين كان الرتل قرب بحيرة شوتشيا، لم تنجها من الموت بنيتها، ولم تنقذها قوة الحياة التي يتنفسها جسدها. زوجة الملا المتينة البنية، المحبة للقطط، لم تحتمل مشقة الرحلة فماتت في ضواحي فاغايم. أما هذه فما تزال حية، وهي، بالإضافة إلى ذلك، تحمل جنيناً. عجباً، من أين تستمد روحها القدرة على الصمود...

لماذا لم يتركها آنذاك للمحقق في بيشما؟ لم يستطع إيغناتوف أن يجيب نفسه عن هذا السؤال. الصحيح أنه للسبب نفسه، هرب عن طريق السلّم

الاحتياطي من المفوض الذي لا يعرفه في مكتب باكييف. لقد ارتجف قلبه، وانطلق يسبق عقله- وهذا ما جعله يرتكب الأخطاء. فلو أنه فكّر جيداً لما كان هرب، ولما كان أخذ هذه الفتاة من عند المحقق. ما علاقته بها؟ في الحقيقة، لا شيء. لم يستطع إيغناتوف حتى أن يتذكّر وجه زوجها رغم أنه حاول كثيراً أن يتذكّره، وكان بعد كل محاولة يغضب من عجزه. ترى لماذا كان يعذّب نفسه؟ إذا كان عليه أن يتذكّر كل أولئك الذين هاجموه بالبلطات والشوكات المعدنية، فلن تكفيه حياته لفعل ذلك. إن رأسه ممتلئ بفرقة كاملة غير هذا. مصنف «القضية» يضم عدة مئات من الأرواح. يا للشيطان. إنه يتمنى أن تنمحي من ذاكرته كل هذه الوجوه، لكن ذلك لا يحدث. طيّب، سيقودهم إلى أنغارا، ويسلمهم لكوزنيتس- وكفى. سينساهم، بمرور الوقت سينساهم حتماً.

- هل تأمر بحراستها؟- يشير الجندي إلى زليخة: بطنها مكوم كالجبل أمامها، وهي تسنده بيديها الاثنتين، تصلح جلستها، وتتنفس بصعوبة.

يطوح إيغناتوف بيده، ويصرف الجندي: مثل هذه إلى أين يمكن أن تذهب؟ يتذكر فجأة كيف حملها على ذراعيه: كانت خفيفة الوزن، نحيلة، وكأنها ليست امرأة، بل طفلة. نستاسيا شيء آخر: جسد ممتلئ، مرن، يتلوى، يترجرج، يثير الرغبة في عصره، ودعكه، وتقليبه. أما إيلونا فعندها شيء آخر: الليونة، والرقة، والكسل، والطواعية، لكن ذلك كله شيء واحد- إنه جسد المرأة. غير أن هذه مجرد هواء. أتساءل ما الذي جعلك تخاف آنذاك فترسل من يحضر الطبيب ليلاً؟ الأمر واضح- خفت أن تموت، هذا بالضبط ما جعلك تعطف عليها.

لكنها ستموت في المنفى على كل حال. التايغا، الحشرات، العمل... هي لن تستطيع التحمل، لا. قواها آخذة في النفاذ، هذا ظاهر في عينيها. لقد عرف إيغناتوف منذ فترة قريبة كيف يميز من خلال العينين من مازال يملك القوة، ممن أخذت قوته في الانتهاء. كان يتأمل النزلاء في أثناء جولته ويخمن أن هذا

سيسلم الروح قريباً، فقد جمدت عينه تماماً وماتت: أما هذا فسيعيش، وهذا أيضاً. كان، بالمناسبة، يحزر. إنه، بكلمة واحدة، تحول إلى منجمة. تفو، أنا نفسي أشعر بالقرف. هذا ما تفعله الرحلة الطويلة بالإنسان...

تلتفت زليخة، ترفع نحو إيغناتوف عينين مرهقتين. نظرتها نفذت في روحه. لقد عانى من هاتين العينين الخضراوين ما عاناه، حتى من دون ذلك- إن ما تركتاه في نفسه يشبه الجرح في القلب.

- لا تفكّري في أن تنجبي طفلاً في بارجتي- يقول لها بلهجة صارمة، ثم يتمتم تحت أنفه.

سأسلمها إلى كوزنيتس- ولتلد آنذاك إذا شاءت.

لقد تركوا زليخة على سطح السفينة. ظلت جالسة هناك طول النهار، مسندة ظهرها إلى جدار الكوخ، ناظرة إلى التلال الخضراء السابحة بمحاذاة السلسلة الجبلية، وإلى المسننات غير المنتظمة التي شكلتها أشجار الصنوبر البري والسرو. الغابات الكثيفة معتمة هنا. إنها عموماً ليست غابات بل كتل خضراء. حمل الحارس إليها صرتها من المستودع، وتدثرت في الليل بمعطفها الشتوي السميك- الليالي كانت باردة، رطبة رغم أن الزمن كان شهر آب.

حمل زليخة كان ثقيلاً- صار بطنها كبيراً، يصعب حمله، ساقاها حديديتان، محدودتا الحركة. نما الجنين قلقاً: مرّة يدور كالمروحة، ومرة يرفس بكل قوته، ويغرس ساقيه في جدار بطنها في مرة ثالثة. يبدو أنه كان يشبه أخته الكبرى- شمسية كانت مشاكسة أيضاً وكثيرة الحركة. وقد يكون سبب سلوكه، ببساطة، الجوع. هي نفسها نحلت كثيراً في هذه الأشهر- كما في عصر المجاعة الكبرى في العام الحادي والعشرين، حتى أن أصابعها صارت أرفع، وانمطّ جلدها، وضعفت. أما الجنين- فماذا يمكن أن يقال عنه؟!

كانت كثيراً ما تنظر إلى البطن الملفوف بإحكام بقماش الزنار، وتتخيل كيف أن الفتاة الصغيرة التي في داخله تجعّد أنفها الذي لا يزيد حجمه على حجم ظفر خنصرها، وتفتح فمها الصغير،- فيمتلئ صدرها على الفور بالحليب، ويثقل ثدياها، كأنهما جسد رجل قبيل لقاء حبيبته، وتظهر على القماش نقطتان مستديرتان، داكنتان. الجنين ما يزال في الشهر السابع، ولكن الحليب صار جاهزاً في صدرها. لقد حدث معها ذلك ذات يوم، حين كانت تنتظر ولادة زبيدة.

حاولت زليخة أن تمنع نفسها من التفكير ببناتها، لكنها أخفقت. «شمسية- فيروزة، خالدة- زبيدة»- هذا ما كانت مياه النهر ترددده في هسهستها عند جوانب البارجة. شمسية!- يصرخ نورس بصوت حاد في السماء. فيروزة!- يرد عليه نورس آخر. خالدة! زبيدة!- تصرخ طيور أخرى.

أتعبها الصراع مع هذه الحالة. وأتعبها الجوع، وأتعبها السفر إلى مكان مجهول سفراً مستمراً. ليبييه، وإيزابيلا، وقسطنطين أرنولدوفيتش الصارم، والفنان إيليا بتروفيتش الذي لا تحبه لكنها ألفته، وحتى غوريلوف الذي تنفر منه- كل هؤلاء اقتادهم في المرفأ عنصر ذو سلطة، أسود الشاربين من عناصر الفصائل الحمراء، ومن غير المحتمل أن تراهم زليخة مرة أخرى. هم الآن سيظلون في الماضي، متحولين إلى ذكريات شفافة مثل مرتضى وأوبيريخا. يا إلهي كم أتعبها فقد الناس القريبين منها، والعيش في الخوف من الفراق، والانتظار الدائم لموت طفل في زمن قريب، أو موتها هي نفسها. إنها، عموماً- تعبت من العيش.

عزاؤها الوحيد وسلوانها يكمن في جيب ثوبها. تذكرت زليخة بامتنان تلك اللحظة التي ظهر لها فيها الموت في عربة القطار على وقع طرقات العجلات الرتيب- كان يرقد في راحتها على شكل قطعة من السكر، ثقيلة، حادة الحواف، ظلت منذ ذلك الحين قريبة منه كصديق صدوق أو أم متفانية. كانت زليخة في أصعب الدقائق تتلمس في ثنايا ملابسها القطعة الأمل- فتشعر بالراحة. يبدو أن

هذا كان فعلاً موتها الوحيد، الخاص، المرسل من السماء- وأن الجميع ما عداه لا يعنون لها شيئاً، يتجاوزونها، يطيرون جانباً، يجنون، ويموتون- بعضهم بسبب المرض، وبعضهم بسبب الجوع: يرقدون على جوانب الطرق، يودّع عربتهم بأعين جامدة أموات من قطارات أخرى لم يستطع زملاؤهم أن يدفنوهم: حين سمع عدد من الأشخاص عن الفرار الجريء في ضواحي بيشما، أرادوا أن يكرروه، فاكتشف أمرهم وقتلوا رمياً بالرصاص في مكانهم قرب العربات. أما زليخة فعاشت رغم ذلك. وإذن، فقد كان مقدراً لها أن تموت هذه الميتة بالضبط- ميتة صغيرة، حلوة، رقيقة، جذابة، برائحة مرة لشيء ما. ربما كان من الخطأ أنها لم تأكل السكر آنذاك في القطار- لو أنها فعلت لارتاحت منذ زمن، ها هي ذي تقرر الآن أنها ستأكلها حين تشعر بالعجز. الأفضل طبعاً أن تفعل ذلك قبل ولادة الطفل، لكي يغفو الاثنان معاً من دون أن يفترقا...

تفتح زليخة عينيها. في غبش الصباح الوردي الرقيق. تبدو الأشياء المحيطة كلها زلقة، طيّارة. طائر نورس كبير أبيض الصدر يجلس على الإفريز، ينظر إليها بعينين كزرين لامعين من الكهرمان، لا تطرفان. ومن ورائه في ضباب الصباح القطني المتحرك تتلامح حدود الضفاف البعيدة. المحرك صامت، والبارجة تشق طريقها مع التيار في صمت. الأمواج الصغيرة تلامس جوانب السفينة بود. وفجأة يعلو صوت صادر من مقدمة المركب: «هيا!»

النورس يفرد جناحيه من دون صوت تقريباً ويذوب في الضباب. وتنظر زليخة من وراء جدار الكوخ. في مقدمة المركب إيغناتوف متعرياً حتى الخصر، يرشه أحد البحارة بماء النهر من أحد الدلاء. إيغناتوف يضحك، يهز رأسه المبلل بالماء،- يتناثر الماء في كل الجهات. يمسح بكفيه أذنيه، وكتفيه المنتفخين بعضلاتهما، وضلوعه الحادة. ابتسامته جميلة على كل حال، بيضاء كالسكّر. وعلى ظهره، تحت لوح الكتف- ندبة عميقة.

عاموا يوماً مع جريان ينيسي إلى أسفل، وفي الصباح دخلوا مجرى أنغارا، واتجهوا صعوداً مع التيار. اليوم كان حاراً، شديد الرطوبة. أرهقهم الحر في منتصف النهار. إيغناتوف يجلس على كعكة مجدولة من رزم الحبال، مسنداً ظهره إلى ألواح الجدار الخضراء الخشبية. ومن تحت حافة القبعة فوق حاجبيه يرى سطوح الروابي الخضراء المشوبة بالزرقة والخدود الصخرية للمنحدرات.

وبقع شمسية صغيرة تلتمع على الماء حارة وكأنها حراشف من لهب.

أخيراً- لم يبق الكثير. إنه الآن يستعد ليعد الدقائق الباقية لحين رؤيته في البعيد النقطة الحمراء- العلم فوق قارب الجر: عند ذاك سيسلم كوزنيتس الناس رأساً، رأساً كي لا يعذب نفسه بقراءة القوائم (وكي لا ينظر إلى تلك الوجوه، إذ ما الحاجة إلى رؤيتها ثانية؟) وحينها سينفض عن كفيه ما علق بهما ويتنهد بارتياح للمرة الأولى بعد نصف عام: انتهى كل شيء يا كوزنيتس، والمسؤول الآن- هو أنت. فلتظهر لك الآن هذه الوجوه الملتحية في الليالي. أما أنا فد اكتفيت. أنا أريد عملاً أكثر بساطة ووضوحاً: محاربة الأعداء وقتلهم إن وجدوا، من دون شفقة، وحماية الأصدقاء إن وجدوا. أما أن يستمر الأمر هكذا مع الأعداء- حمايتهم، وإطعامهم والإشفاق عليهم ومداواتهم- فلا، اسمحوا لي بعدم فعل ذلك... واتركوني أذهب إلى بيتي، إلى بيتي! سأشبع نوماً في القطار، ثم أذهب من المحطة مباشرة إلى باكييف، فأقدم له تقريري، وفي المساء إلى نستاسيا، إليها، إلى تلك الحبيبة، القريبة، الدافئة. هكذا فكّر من دون أن يخطر في باله أن يكون قد ظهر لديها في خلال نصف العام الماضي صديق آخر، فهو إذا كان قد ظهر، سيختفي، وإيغناتوف سيعالج هذا الأمر سريعاً. وسيكون من الواجب أيضاً أن يجد الوقت لزيارة إيلونا، فلقاؤه الأخير معها كان سيئاً...

البحار الحافي القدمين يعمل بالقرب منه، يصلح الدرب الخشبي الملطخ ببقع العفن السوداء.

- هل كنت من قبل في أنغارا؟ يسأله.

يتكاسل -فلا يرد،-الجو حار جداً، والنوم لذيذ جذاب على وقع طرطقة العجلات الرتيب. «لقد كنت محقاً يا صديقي باكييف،- يعترف إيغناتوف في أول دقيقة.- آه، لم يكن هذا العمل سهلاً- ليس سهلاً أن تعمل مربية في قطار...»

- لقد قالها جدي من قبل،- لا يتوقف البحار عن الكلام،- ليس على سطح الأرض مكان أجمل من أنغارا. وليس هناك ما هو أشد غدراً منه أيضاً.

إيغناتوف يكتفي في ردّه بحركة خفيفة من حاجبه، وهو يتابع حديثه في سره، عن التفتيش في مكتب باكييف فيقول: «أنا لم أشك لحظة في أنهم سيطلقون سراحك سريعاً، فتركتك آنذاك وغادرت». وسيضحك الاثنان من ذلك، ويربت كل منهما على كتف الآخر...

أنغارا- إنه يشبه...- البحار، الذي حمّسه اهتمام القائد الغريب، يترك عمله، ويلتفت نحو إيغناتوف متابعاً حديثه... الأم بالنسبة لبعضهم، والأخت بالنسبة لبعضهم الآخر، والخالة، امرأة الأب، لبعضهم الثالث. وقد يكون، عموماً،- قبراً لآخرين.

يسند إيغناتوف ذقنه إلى صدره. من المفترض أن يقدّم هدية لنستاسيا لقاء انتظارها الطويل. قد يقدم لها منديلاً، أو، ترى ماذا تحب النساء... يتدلى رأسه على كتفه، تهدهده الاهتزازات الخفيفة للبارجة، فينام.

- جدي نفسه، غرق هنا،- ينهي البحار حكايته.- آها. لم ينفعه أنه كان يسبح كالسمكة.

البرق يقطع السماء عرضانياً عبر الأفق كله، والغيوم البنفسجية يحتك بعضها ببعض، وهي تتنفس سواداً. قصف الرعد- مدوٍّ ومنخفض، ولا مطر.

يبدو أن العاصفة نشأت فوراً، وبشكل مفاجئ. انتزعت هبة ريح القبعة عن رأس إيغناتوف فاستيقظ واندفع يلتقطها، نظر- وأماه! الأفق يهتز، والأمواج تتقاذف الزبد، النوارس تخترق الهواء كالسهام، والبحارة يتحركون كقطط بذيول مبلولة. لا صراخ يسمع- ريح.

- أيها الرفيق قائد البارجة!- يصرخ في أذنه حارس نبق إلى جانبه.- هذا هناك...

يشير بإصبعه إلى المؤخرة في صمت، وهو ينتقي الكلمات. الباب الحديدي في المؤخرة يكاد ينخلع تحت الضربات يا إيغناتوف.

- افتحووووا الباب!- يصرخون من الداخل.- افتحووووا!

- أهذا عصيان؟ ينتفض إيغناتوف. تريدون أن تشعلوا ثورة ضدي يا سفلة؟!

بحركة واحدة يخرج مسدسه من جرابه، ويصوب الحراس بنادقهم نحو الباب ويلقمّونها.

- كلاب!- تسمع الصيحات من المستودع.- سنغرق، افتحوا! هل تغرقوننا عمداً؟! كلاب كلاب! المياه تسربت إلى هنا! المياه! آ-آ-آ-!

- كفى،- يقول إيغناتوف بصوت كالفحيح.- لن تخدعوني. هيا- تراجعوا يا أوغاد! سأطلق النار!

صوت بوق البارجة واطئ ومتدحرج كالرعد. ينتشر فوق سطح الماء ويسيل. ما الأمر؟ لماذا تطلقون البوق يا شياطين؟ يندفع إيغناتوف نحو قمرة القيادة. الركض صعب- سطح البارجة يتمايل تحت القدمين، والألواح الخشبية تتمزق، وتلطم المياه الوجوه.

قمرة القيادة خالية. والمقود يدور مسعوراً.

- ما هذا؟- يصرخ إيغناتوف في وجه بحار يمر بقربه راكضاً.

- نحن نغرق!- يصرخ البحار في رده عليه.- ألا ترى ذلك؟

كيف نغرق؟ هل معنى هذا أن أولئك الذين في المستودع لا يكذبون؟

عن السطح المائل يسقط صندوق أدوات مصدراً ضجيجاً، ويتشقق لكنه لا يتطاير قطعاً. هو يصفر ويدور متدحرجاً على السطح بالقرب من إيغناتوف، ثم يختفي في الماء، وفي الوقت نفسه تسقط من الأعلى كالمطر، كحبات البرد- أشرطة، وأوتاد حديدية، ورفوش... وتلتمع أنصال بلطات، إيغناتوف يحتمي بصعوبة بالجدار، ولولا ذلك لقطع رأسه (على الطاير!)، تزعق المناجل، وتسقط الشوكات المعدنية في الماء مصدرة أنيناً رفيعاً، وترن المسامير مخترقة الخشب وتقفز العربات المعدنية في الماء وعجلاتها تدور. ويطير، يطير في أنغارا كل المخزون المادي، إلى الشيطان وشياطينه الصغار.

يميل سطح البارجة ويميل. ويقف الأفق فجأة على جنبه، ويلتصق جنبه الآخر بالسماء. وتغوص مؤخرة البارجة وترتفع إلى الأعلى سحنتها الغبية.

- اقفز!- يعلو صوت في المقدمة.- اذهب! ستسحبك معها! هناك- عدد من البحارة والوقادين يقفزون إلى أنغارا بسرعة كالضفادع.

كيف يقفز؟ وهؤلاء الذين في المستودع؟ يتلمس إيغناتوف المفتاح في جيبه، يخرجه. يهرع إلى الأسفل في المؤخرة. يمشي الحراس للقائه.

- مكانكم!- يصرخ إيغناتوف.

لم يسمعوا الصوت- جدار الريح يسد فمه.

الحراس يلقون البنادق في الماء، ويقفزون وراءها، ثم يختفون بين الأمواج. لقد ترك الكلاب أماكن عملهم! ينزع آخر الحرس عن أحد المسامير دولاب إنقاذ مدهون باللونين الأحمر والأبيض يرميه في أنغارا، يصرخ بصوت حاد، ثم يرسم على صدره شارة الصليب ويلقي بنفسه إلى الماء.

يرتعد سطح البارجة في يأس، فيسقط إيغناتوف أرضاً، يمسك ببعض النتوءات، يطير المفتاح من يده وهو يرن فوق الألواح. يزحف إيغناتوف نحوه على صدره، يغطيه به. ها هو ذا، حبيبي! يضعه في فمه- لن تفلت مني الآن. يتابع الزحف إلى أسفل نحو المؤخرة مستعيناً بيديه. في الأعلى يتأوه شيء جبار، يسقط بقوة مصدراً رنيناً، يرفع إيغناتوف عينيه: الشراع المشمع العملاق يرتطم بالسطح، وحباله مشرعة نحو السماء وكأنها أذرع في دعاء.

إلى المستودع، إلى المستودع يا إيغناتوف! أطلق سراح هؤلاء الكولاك، أطلق سراحهم جميعاً، فليذهبوا إلى الشيطان. أتراني عبثاً نقلت....

في الفراغ بين الكوخين، في الجهة المقابلة من سطح البارجة يلحظ المرأة الحامل. المرأة تتمسك بأحد الأفاريز وتحملق بإيغناتوف. إنه بعيد عنها ولا تستطيع الوصول إليه.

- اقفزي!- يصيح بها، وهو يخرج المفتاح من فمه ويحاول أن يطغى صوته على صوت الريح.- اقفزي في الماء يا غبية! ستغرقين في البارجة!

ترتفع موجة كبيرة فوق مقدمة البارجة ثم تهوي على سطحها. ينكشف المشهد- لا وجود للمرأة، ولا للإفريز. لا شيء سوى بقايا أوتاد صدئة.

تابع الزحف يا إيغناتوف! تلك كانت امرأة واحدة. وأنت عليك أن تطلق سراح نساء كثيرات.

يلاحظ وهو يزحف نحو باب المؤخرة أن الماء يندفع عبر طاقات التهوية المفتوحة. أصابع أحدهم تمتد إلى الفتحة تحاول التشبث بها، لكن الموجة تسحب تلك الأصابع وتعيدها إلى الداخل.

- هم- هم- هم- هم!- بمئات الأصوات يصرخ سطح البارجة تحت إيغناتوف. إنه يحس بصدره الضربات في الأسفل- أحدهم يحاول أن يخلع أحد الألواح.

- أ-آ- آ- آ-!- يعلو الأنين تحت الألواح.

يقصف الرعد فيصم الآذان. كتلة كثيفة من المطر تسقط من أعلى، فتضغطه إلى سطح البارجة. يزحف إيغناتوف نحو الباب- كل شيء يصبح مبلولاً وزلقاً بسبب المطر. الآن، الآن، سأطلق سراحكم يا سفلة، لا تصرخوا.

في تلك اللحظة التي يمسك فيها بقبضة أحد الأبواب، ينشق شيء ما مصدراً صوتاً عالياً فظيعاً- وتشرع البارجة بالغوص تحت الماء.

استطاع إيغناتوف أن يظل ضاماً أصابعه، متحكماً بيده، ممسكاً بالمفتاح. لكنه لم يستطع أن يأخذ نفساً عميقاً. الماء بدأ يملأ أذنيه، وأنفه، وعينيه. يغوص إيغناتوف في أنغارا- «كلارا» تسحبه خلفها.

يدس المفتاح في ثقب القفل- أين أنتِ يا فتحة القفل؟ تك! تك! تلمّسها! وجدها! لكنها صدئة لا تستجيب. يدير المفتاح في القفل بقوة، لكن «كلارا» تدور ببطء، وتواصل الغرق.

هيا يا إيغناتوف، هيا! الماء يحرّك شعره، ويحرق عينيه، ويتسلل إلى فمه.

نجحت! دار القفل! يشد إليه الباب، ينفتح ببطء كالنائم، خلف الباب شبكة. يا للشيطان! عشرات الأيدي تمتد عبرها نحو إيغناتوف، تتشبث بالقضبان، تهزها. الماء يتدفق عبر الشبكة إلى الداخل بسرعة ومن دون توقف. والبارجة تبتلع الماء بسرعة- وبقفزة سريعة، ثقيلة تغوص إلى أسفل. «كلارا» تغرق.

قبضة الباب تنزلق من بين الأصابع. ويحاول إيغناتوف اللحاق بها، يمدّ يده، يشد عضلاته، غير أن سيل الماء يدفعه جانباً. وعبر كتلة الماء الخضراء يرى خلف الشبكة عيوناً وأفواهاً مفتوحة.

- آ- آ- آ- آ!- يصرخون بصوت خافت صراخاً مخيفاً، فتطوق إيغناتوف آلاف الفقاعات الكبيرة، تنزلق على جسده، تلعق صدره، ورقبته ووجهه.

- آ-آ- آ- آ! الصراخ في كل فقاعة.

تمتد عشرات الأيدي، تمتد نحوه عبر الشبكة، وهي تحرّك أصابعها، تتلوى، وتذهب أعمق، فأعمق، ثم تختفي في الخضرة الداكنة.

يدور الماء بإيغناتوف، يقذفه إلى الجهات المختلفة، وأخيراً- يلفظه إلى السطح.

- آ- آ- آ- آ! يصرخ في وجه السماء الواطئة التي تتحرك فيها غيوم مهوّشة. -آ- آ- آ- آ! آ- آ- آ-!

المطر ينسكب في الفم المفتوح.

- إي- إي! - تجيب النوارس.

تجرف كتلة الماء زليخة إلى مكان ما في الأسفل. الخضرة الكثيفة تعوم في العينين، تزداد ثقلاً وتسودّ. ورذاذ الفقاعات البيضاء يدور في المكان، ويلطم الوجوه. كزت على أسنانها- لا تتنفسي، اجمدي.

ثمة ضوء بعيد يتراقص، بلوح تارة من أسفل، وتارة من جنب. ويبتعد. قوامات داكنة كبيرة تسبح في البعيد- إما إلى الأعلى، وإما إلى أسفل. حطام؟ بشر؟ أسماك؟

ضمت يديها إلى صدرها، وثنت ساقيها، وعقدت ضفيرتيها حول عنقها. كل شيء بإذنك أيها الرب القادر على كل شيء.

شيء ما يقلّبها، يدعكها، يصدم خاصرتها بجسم صلب.

لقد استجاب اللـه لدعائك وقرر أن يقطع رحلتك في الحياة- ستنتهين هنا، في مياه أنغارا.

بسم اللـه الرحمن الرحيم...

الفم يمتلئ بالماء- طعم مرّ وصرير في الأسنان.

الحمد للـه ربّ...

هي أما ابتلعت أو تقيأت ذلك الماء. جسدها يرتعش، يرقص.

العالمين... العالمين... العا...

الجسد يرتعش آخر مرة ثم يجمد. واليدان تتدليان كحبلين، والساقان تنفرجان. الضفائر تنشد إلى أعلى وتتمايل ببطء كأعشاب الماء. زليخة تغرق- وجهها إلى أسفل، ضفائرها إلى أعلى، تغوص، تغوص، تصل إلى القاع. تضع قدميها في الوحل الناعم، مثيرة حولها غيمة سوداء طويلة تتمدد في كسل. ثم تغوص بطتا ساقيها، وركبتاها، وبطنها.

يستيقظ الجنين بحدة، فجأة. يرفس بقدميه مرة، فثانية، وثالثة. يحرك يديه، يدير رأسه، ينثني. بطن زليخة يهتز- كعبا الجنين يرفسانه من الداخل.

يرتجف ساقا زليخة رداً على ذلك. يهتزان ثانية، فثالثة. تندفعان إلى أعلى. تنغلقان وتنفرجان. ويداها تنغلقان وتنفرجان.

تطفو زليخة من غيمة الوحل المضطربة الراجفة، متجهة نجو الارتجاجات المضيئة عبر الكتلة الخضراء- أعلى، فأعلى، فأعلى.

تحرك يديها وساقيها بقوة أكبر- تصعد أسرع. سيل مرن، بارد يحملها ويأخذها معه.

جدار أبيض يعشى له البصر يضرب عينيها. زليخة تزيح الماء بيديها، تصرخ، تسعل، تشعر بألم في حنجرتها- من أنفها حتى جدار الحنجرة نفسه. الريح تلفح وجهها وأذنيها- وتعلو صيحات طيور النورس وتأوهات الأمواج. ويصطدم طرف عينها قطعة سماء زرقاء غامقة. أتراها نجت حقاً؟

الماء يفور من حولها ويتلاطم، وينزلق من بين الأصابع. ليس هناك من شيء تستطيع التشبث به. زليخة لا تتقن السباحة، ساقاها ينشدّان مجدداً نحو

الأسفل. هل ستغوص إلى القاع ثانية؟ الأفق يغرق مجدداً، ورأسها يغوص تحت الماء. يا اللـه...

تشد ضفائرها إلى أعلى.

- تمددي فوق الماء!- هذا الصوت ليس غريباً.- اجعلي بطنك إلى أعلى! إنه إيغناتوف!

تحاول زليخة أن تستدير، أن تمسكه بيديها، أن تتشبث بشيء ما.

- ستغرقينني!- يدفعها إيغناتوف عنه، لكنه لا يفلت ضفائرها.- تمددي واهدئي يا غبية!

هي تسعل، تنوح، تكاد لا تسمع. لكنها تحاول أن تجعل بطنها متجهاً إلى أعلى؛ تتمدد فوق الماء، فيرتفع بطنها فوق الأمواج كأنه جزيرة. الأمواج تلطم وجهها، والمطر ينسكب فوقها.

- صالبي ساقيك ويديك على شكل نجمة!- على شكل نجمة، ألم تسمعي!- وجه إيغناتوف في مكان قريب جداً، لكنها لا تستطيع أن تحدد أين.- نعم هكذا! أحسنت يا غبية.

زليخة تصلح وضع يديها وساقيها، تتأرجح... تتملكها رغبة لا تقاوم بالسعال، لكنها تتمالك نفسها. تتنفس بصوت مرتفع، يشبه البكاء. ليت الهواء يكفيها للتنفس، ليته يكفيها.

- أنا أمسك بك، أمسكك، الصوت قريب.- أمسك ضفائرك.

هدأ الطفل في بطنها، لم يعد يعيق حركتها. وراحت الأمواج تهدأ تدريجياً وتصبح أصغر. وانزلق البرق إلى ما وراء الأفق، وأخذت تتسع وتنمو بقعة السماء الزرقاء- وتبددت السحب في مختلف الاتجاهات.

- هل أنت هنا؟- زليخة تخاف أن تدير رأسها كي لا تبتلع المزيد من الماء.

- هنا،- يقول الصوت القريب.- فإلى أين يمكن أن أهرب منك الآن؟! لقد أراد إيغناتوف السباحة إلى الضفة الأخرى، غير أن زليخة لم تستطع ذلك، وهكذا ظلا يتأرجحان في وسط النهر يجرفهما التيار. بعد عوم استمر ساعتين تقريباً انتشلوهما راجفين. وقد ازرقت شفاههما زرقة يشوبها السواد. قارب كوزنيتس النشيط انطلق للقاء «كلارا» في الموعد المحدد، لكنه لم يصل إليها وهي حية. لم ينج من البارجة سوى زليخة وإيغناتوف وعدد قليل من البحارة، وكذلك البحار الحافي القدمين الذي كان يتحدث عن جده أيضاً. يبدو أن أجله لم يحن بعد.

حين أرقدوهم جميعاً خائري القوى، راعشين من البرد، على سطح القارب، وطلبوا منهم أن يخلعوا ملابسهم المبلولة لتجفيفها، دست زليخة يدها في جيب ثوبها بحثاً عن قطعة السكر. لم يخرج في يدها سوى حفنة من سائل أبيض سميك، فردت أصابعها فتسلل من بينها السائل في الحال. وضعت يدها على حافة القارب- فسالت نقاط السائل الأبيض العكر في أنغارا.

السماغون يترجرج عذباً، نشيطاً- وهو ينصب مهسهساً من زجاجة خضراء منتفخة البطن، في كأس معدنية معوجة، وإيغناتوف يقف في وسط القمرة عارياً ملتفاً بكيس ثبته بيده على صدره: رأسه ما يزال مبتلاً وقد علقت به أعشاب الماء، وهو ينظر بثبات إلى جريان السائل الشحيح العكر. لم ينتظر حتى تسقط آخر نقطة من عنق الزجاجة، بل أمسك بالكأس ودلقه في حلقه. الكحول يحرق حنجرته، ويؤلم معدته، ويتسلل موجة بطيئة دافئة إلى رأسه. فتنفجر في عينيه على الفور شرارات خضراء. هذا السماغون قويّ جيد. يتنفس طويلاً في هدوء، ثم يرفع بصره نحو كوزنيتس. عينا هذا الأخير غاضبتان كلبيتان وفمه مزموم كخيط.

- لقد كانت قوية، مثل...- يضم إيغناتوف الكيس في قبضتيه، مؤلمة... مثل...

يأخذ كوزنيتس الكأس من يد إيغناتوف، ويملؤه مجدداً.

- أنا لا أستطيع!

- اشرب!

حافة الكأس المعدنية تصدر صوتاً وهي ترتطم بأسنان إيغناتوف القوية- إنه يتشبث بالكأس ويشرب. السماغون يتصب في داخله بسهولة ودون عوائق، وكأنه الزبدة. الشرارات الخضراء في عينيه تعوم، تسيل، تغري. وما العيب في سكرة شيطانية؟ وهو لم يسكر طول حياته سكرة حقيقية، سكرة اسودت لها الدنيا،... يبعد إيغناتوف الكأس عن فمه آسفاً، ويطلق زفرة. رموش عينيه تثقل، وتنغلق.

- والآن- اسمع.- صوت كوزنيتس صارم وكأنه يتمزق.- أنا لا يحق لي أن أعود بجماعتك.

- آ- يفتح إيغناتوف جفونه بصعوبة.

كوزنيتس يرتجف، يكبر، يتضاعف. لم تعد له عينان شريرتان ثابتتان، بل أربعة عيون مغروسة في إيغناتوف.

- سأضع كل من نجا في مكانه وأتركه.

- أ- أين؟

- في لحيتي! سنبحث عن المكان المناسب.

- آ...

ينظر إيغناتوف عبر الزجاج المتسخ. هناك على الضفة البعيدة تهتز في الريح ذؤابات أشجار سرو تمتد إلى ما لا نهاية وراء الأفق.

- انتظر يا كوزنيتس...- لا يستطيع إيغناتوف أن يلتقط نظرة كوزنيتس بأي حال من الأحوال- فلدى هذا الشيطان الغاضب الكثير من العيون في التايغا؟ من دون

متـ...متاع؟

- لديّ أمر،- يجيب كوزنيتس بلهجة قاطعة كالبلطة.

الكيس يكاد يقع عن صدر إيغناتوف، يمسك به ويلفه على جسده من جديد.

- سيموتون،- يقول بصوت منخفض.

يغدو مسموعاً كيف يهدر محرك القارب بصوت مرتفع.

- هذا المركز السكاني مهم، افهم!- كوزنيتس الذي كان مضاعفاً يعود فيصبح واحداً.

- أنتم تريدون أن تضعوا نقطة على الخريطة، أليس كذلك؟ يمسك إيغناتوف عنق الزجاجة الرفيع كي يصب منها قليلاً في كأسه الفارغ- أتريدون تدجين ضفتي أنغارا العظيم؟ ولا يهمكم موت الناس، فسيولد غيرهم؟!

يمسك كوزنيتس الزجاجة من بطنها المنتفخ- ويمنع إيغناتوف من أخذها:

- اخرس!- كوزنيتس يجذبه إليه.- من أغرق البارجة؟

- البارجة مثقوبة! مثقوبة- مثل قرمتك!

- وعربات قطارك هل كانت مثقوبة أيضاً؟ نصف الناس سقطوا ميتين في الطريق، ونصفهم هرب... ألا يحتمل أن يكون المثقوب يداك يا إيغناتوف؟ أم لعل المثقوب رأسك؟

- أنا نقلتهم عبر البلاد كلها!- يقول إيغناتوف بصوت متحشرج وهو يحاول أن يفك أصابع كوزنيتس المتينة عن الزجاجة الملساء.- نصف عام سافرت بهم على قضبان السكة الحديدية، كي أوصلهم إليك، إلى سحنتك. وها أنتذا تقرر على الفور أن ترميهم في التايغا! أن تتركهم طعاماً للذئاب!

- لا، يا يمامتي، أنت ستطعمهم، يهمس في أذنه مباشرة بصوت كالفحيح ترافقه زفرة حارة.- لأنك ستبقى معهم قوميندانتاً.

تنزلق الزجاجة- تبقى في يد كوزنيتس. يتوخوخ، يضبط أنفاسه ويمسح جبينه المبلل.

- هذا سيكون مؤقتاً طبعاً،- قال من دون أن ينظر إلى إيغناتوف، وراح يصب له بسخاء يشوبه الغضب، السماغون في كأسه.- أم تراك تأمرني بأن أعتني، أنا، بعاجزيك؟ من دسّ لي نحو عشرين عجوزاً في مستودع قاربي؟ ألست أنت من فعل ذلك؟ لو أنك نقلتهم على سطح البارجة، لما كان بيننا الآن هذا الحديث. أما والحال هكذا... فأنت من حضّر الشراب. وأنت من سيشربه. أقم معهم أسبوعاً من الزمن احرسهم إلى حين أجيء بمجموعة جديدة وقوميندانت جديد.

الزجاجة تحط من جديد على الطاولة مصدرة صوتاً ثقيلاً.

- من أنت يا كوزنيتس؟- صوت إيغناتوف مخنخن وكأنه أصيب بزكام.

يسقط الكيس على الأرض- ويظل إيغناتوف عارياً كما ولدته أمه. فيرميه كوزنيتس بنظرة صارمة.

- ما قلته لك هو أمر يا عنصر المهمات الخاصة إيغناتوف.

يرمي على الطاولة مصنف «القضية» الرمادي المعروف ويغادر. أما إيغناتوف فيمسك الكأس بيديه الاثنتين ويصب السماغون في جوفه وتسري البرودة على خديه، وعنقه، وصدره العاري.

- علب كبريت، ملح. أدوات متنوعة.

كوزنيتس يجلس القرفصاء، يفتح الأكياس والصرر التي على الأرض، ويدس فيها إصبعه الصلب، إلى جانبه يقف إيغناتوف وهو يترنح قليلاً. زيه الرسمي نصف رطب ومدعوك (يبدو أنهم عصروه جيداً وفردوه للريح). سترته مزررة بشكل معوج، لكنه

لا يلحظ ذلك. يتناهى إلى سمعه من بعيد صوت كوزنيتس، وكأنه يأتي من الضفة الأخرى. الشرارات الخضراء تستمر في العوم أمام عينيه- تحجب الأفق البعيد في التلال اللامتناهية المسننة بتيجان أشجار السرو، ومياه أنغارا الرمادية الداكنة، وقارب الجر الذي يتهادى فوقها، والقارب الخشبي الذي ينتظر فيه جنديان قرب الضفة.

- مناشير، سكاكين، قدور.- ينظر كوزنيتس إلى وجه إيغناتوف الناعس وجفونه نصف المغلقة.- ستطبخون حساء السمك اليوم.

تتحرك ذكرى ضعيفة في الذاكرة.

- وماذا عن لحم الطيور؟!- يشير إيغناتوف إلى أعلى بإصبعه المتمايل.- ماذا عن لحم الطيور والشمبانيا؟

- هذا ممكن،- ينهض كوزنيتس وينفض ما علق بركبتيه. اعذرني، أنا لن أترك لك أطعمة. ستتدبرون أمركم بأنفسكم. هاك- يركل بقدمه كيس صغير ممتلئ، يقرقع شيء ما بداخله.- هنا رصاص يكفي لاصطياد كل وحوش التايغا. ويكفي أيضاً لتأديب جماعتك إذا عصوا الأوامر. وهذه- يأخذ من يد أحد الجنود زجاجة ثقيلة، ممتلئة تقريباً،- لك، كي لا تبقى حزيناً في الأماسي.

إيغناتوف عرف الزجاجة- إنها تلك الزجاجة الحبيبة الخضراء نفسها! يبتسم، يعانق زجاجها البارد- السائل يترجرج في داخلها واعداً. أوه، شكراً لك يا أخي... يدس كوزنيتس مصنف «القضية» الرمادي بين إيغناتوف والزجاجة.

حسناً،- يقول له،- اصمد أيها القومينداننت. سأرسل لك دعماً بسرعة. انتظر.

ينحني إيغناتوف ويضع الزجاجة ببطء وعناية على الأرض- وكأنه يحاذر أن يندلق السائل الثمين. ويسقط المصنف بقربها.

- انـ.. انتظر- لسانه يتعثر وكأنه ليس منه. لقد أردت أن أسألـ... أسألك...

يجلّس قامته، يتلفت. لا يجد كوزنيتس. لا يرى سوى مجذافين يلتمعان بعيداً، والقارب يتجه نحو سفينة الجر.

- إلى أين؟- يهمس إيغناتوف مندهشاً.- إلى أين تذهب يا كوزنيتس؟ يرفعون القارب إلى سفينة الجر. يخطو إيغناتوف خطوة غير متوازنة، تصطدم ساقه بشيء ما- على قطعة قماش مبتلة وضعت مناشير طويلة رفيعة بقبضة واحدة. هل هذه مناشير؟ أبهذه الأدوات الضعيفة سننشر حطب الغابة؟

- إلى أين أنت ذاهب يا كوزنيتس؟ إيغناتوف يرفع يده، يلوح بها، يسير خطوتين بمحاذاة الضفة.

سفينة الجر تطلق بوقها مودعة- صوت البوق مرتفع وممطوط. يعطس ويشخر المحرك، ثم يطقطق برتابة- تدور سفينة الجر مغيرة اتجاهها.

- إلى أين تذهب؟- يرفع إيغناتوف صوته وهو يواصل الركض في إثرها- إلى أين؟! قف!

سفينة الجر تبتعد، يصغر حجمها.

- قف!- يخوض إيغناتوف في الماء.- إلى أين؟!

أصابعه تتلمس من تلقاء نفسها جراب المسدس، وتنتزعه. موجة باردة تنسل إلى جزمته- إيغناتوف يخوض في الماء حتى ركبتيه، ثم حتى خصره.

- إلى أين جئت بنا يا كلب؟ إلى أين؟!

- ...نعم!... نعم!... نعم!- يردد الصدى، ويطير في أنغارا محاولاً اللحاق بسفينة الجر التي تبدو كنقطة زرقاء شرعت تختفي وتذوب في الأفق.

- إلى أين؟ أين ن ن؟! إلى أين ن ن؟!

يضغط إيغناتوف الزناد. يدوي الطلق دوياً ثقيلاً متدحرجاً.

في الخلف أحدهم يشهق خائفاً. على الضفة يقف المهجّرون متلاصقين يعانقون صرر متاعهم الصغيرة. وجوههم الذابلة المسودّة تنظر في خوف إلى إيغناتوف: عينا زليخة الحبلى الكبيرتان عابستين- تتأملان الفلاحين الحائرين، المذهولين والذين «كانوا» لينينغراديين، وغوريلوف.

يرمي إيغناتوف مسدسه في الماء عاجزاً، ويرفع نظره إلى السماء، فيطير نحوه من السحابة السوداء شيء ضئيل أبيض- إنه الثلج.

الجزء الثالث

العيش في التايغا

ثلاثون

انكشف أنغارا من فوق النتوء الصخري، وكأنه في راحة اليد. صدر الضفة اليسرى الأخضر الوثير انتفج كقالب (كاتو) نضج في الموقد، وانعكس أشعة خضراء في مرآة النهر الرصاصية اللون. الماء رقعة عريضة ثقيلة كسولة تتلوى في المكان وتغيب في زرقة الأفق متجهة إلى ينيسي، إلى حيث ذهبت قبل فترة وجيزة سفينة كوزنيتسن.

الضفة اليمنى، التي تجمع عليها المهجّرون، تنبسط واطئة ومستوية قرب الماء، ثم ترتفع تلة صغيرة لتنمو كتلة ضخمة من الروابي، تزيد اتساعها كتل من النتوءات الصخرية. على واحد من تك النتوءات يقف إيغناتوف، يتأمل التايغا التي انبسطت في الأسفل.

المعسكر لا يرى من هنا- إنه في مكان ما عميق في الأسفل، في ثنيات الرابية.

في هذه اللحظة إيغناتوف لا يرغب في رؤية أحد. لقد كان حتى الآن ينظر إلى الأمر وكأنه يحدث مع غيره: من هذا الذي يخوض بملابسه في الماء وهو ينفض عن شعره ندف الثلج- أهو حقاً هو نفسه؟ من يصدر الأوامر «أشعلوا النار. اقطعوا أغصاناً لبناء عرزال. ولا خطوة خارج المعسكر- يا سفلة!» ثم يذهب للصيد في التايغا- أهو حقاً هو نفسه؟ من يهيم في دروب الوحوش، وتتكسر تحت أقدامه الأغصان اليابسة، ويتسلق الصخور التي نمت عليها الطحالب وجفت الأعشاب- أهو حقاً هو نفسه؟

ها هو ذا يجلس على حجر سخّنته الشمس، ويزمّ عينيه. ثيابه التي ما زالت مبللة تشعر، عبر البرودة، بدفء الحجر الذي سخن. وحفنة خشنة من الطحالب تخز كفه. لقد حان وقت طنين البعوض عند الأذن، غير أن الريح تنفخ البعوض

بعيداً، فيختفي الطنين ويذوب في الأفق. تطير إلى خيشوميه طراوة الماء الكثير، ورائحة التايغا الحادة- أشجار السرو، والصنوبر البري، والأشجار العريضة الأوراق، والأعشاب العطرة المتنوعة. نعم، هذه هي الحقيقة: إنه هو، إيفان إيغناتوف، - هنا، في سيبيريا. أغرق ثلاثمئة نفس عدوة في أنغارا. وبقي قوميندانتاً على حفنة من أنصاف الأحياء المعادين للسلطة السوفييتية، بلا طعام وبلا جنود يأتمرون بأمره، وعليه أن يعيش وينتظر مجيء البارجة التالية.

لنفترض أنه لم يغرقهم، بل حاول أن يساعدهم. - «حاول» كلمة يستخدمها الضعفاء، بحسب رأي باكييف. الشيوعي لا يحاول، بل يفعل. - نعم، أنا لم أستطع إنقاذهم، لم أستطع! بذلت جهدي، خرجت من جلدي، وكدت، أنا نفسي، أن أغرق. - لكني لم أغرق! أما هم فغرقوا جميعاً. إنهم الآن طعام للسمك في القاع. - ترى، أكان من الأفضل أن أغرق معهم؟! لكن، من هم حتى أغرق معهم؟! إنهم كولاك، مستغلون، عبء على السلطة السوفييتية- أعداء. والأدهى أنهم كانوا بحسب رأي كوزنيتس، سيتكاثرون لو بقوا أحياء، - أتراك تريد أن تطمس ذنبك بأقوال الآخرين؟ وأقوال من- أقوال كوزنيتس، ابن الكلـ...

أفكار سيئة، تنغرس كالمسامير في عقله فتمزقه أجزاء. يخلع إيغناتوف قبعته، يلمّ شعره في كفه، يشده، وكأنه يريد أن يقتلعه عن رأسه، ثم يصدر أمراً لنفسه: ليبق الشعر مكانه! ولتنشغل اليدان بالعمل، والساقان- بالمشي. يجب عليه أن يرهق جسده، ينهكه، يميته، كي يكف عن التفكير، أو- يفكر في أمور أخرى.

ينظر إلى حافة الأفق الرمادية- الزرقاء، التي غسلها المطر. البارجة الثانية ستأتي من هناك. لكن متى؟ لقد وعده كوزنيتس بأن يرسلها سريعاً. بارجته قضت في الطريق إلى هنا ثلاثة أيام، سفينة كوزنيتس كانت أسرع، واجتازت المسافة في يوم واحد. فإذا افترضنا أنه سيحتاج يوماً في طريق العودة، ويوماً أو يومين لقضاء

الأعمال المكتبية وتحميل البارجة الجديدة، وثلاثة أيام للوصول إلى حيث إيغناتوف، سيكون مجموع الأيام التي نحتاجها أسبوعاً.

يجب أن نصمد أسبوعاً.

وماذا إذا تباطأ كوزنيتس؟ نعم، إن هذا السافل لن يستعجل الأمور. ومن المحتمل تماماً أن تتأخر المساعدة أسبوعاً ونصف الأسبوع أو أسبوعين، أي حتى نهاية شهر آب. والثلج بدأ يهطل هنا منذ اليوم، وكأن الفصل هنا ليس الصيف أبداً، بل خريف مكتمل بارد.

كم تراهم ابتعدوا عن كراسنويارسك؟ لقد أبحروا في ينيسي يومين نحو الأسفل- اجتازوا فيهما ثلاثمئة كيلومتر وأكثر. ثم أبحروا صعوداً في أنغارا مدة يوم كامل تقريباً- فاجتازوا مئة كيلومتر أخرى. المجموع- أربعمئة كيلومتر.

أربعمئة كيلو متر من الماء تفصل بينه وبين كوزنيتس. و- بحر التايغا الذي لا ضفاف له. لقد لاحظ إيغناتوف، حين كانوا يبحرون في ينيسي، بلدات نادرة على ضفافه (وكان يتساءل دائماً أهي قرى مأهولة أم مهجورة؟)، أما هنا، على ضفاف أنغارا، فلم ير أية قرية. هنا، لا وجود للناس.

يصنع بسبابته وإبهامه دائرة، وينقف بحقد صرصاراً يزحف على الحجر الأملس- فيطير الصرصار في الهاوية. ينهض إيغناتوف، ويصلح وضع سترته التي ما زالت أطرافها مبتلة. لماذا، إذن، خضت في الماء يا غبي؟ لقد بللت نفسك عبثاً. كان عليك أن تفكر من قبل، وأنت في سفينة الجر، فتمسك بتلابيب هذا الوغد كوزنيتس، بعنقه، بشعره- ولا تتركه، لا تتركه مهما كلف الأمر. ليتك تركتهم يا إيغناتوف يقيدونه، ويضعونه تحت الحراسة، ويقودونه إلى كراسنويارسك، ثم يطلبون صلاحيات إضافية- إن أي شيء سيكون أفضل مما نحن فيه الآن.

- أسبوع، - يقول إيغناتوف بصرامة مخاطباً الهوة تحته ومهدداً بإصبعه. - سأنتظر أسبوعاً كاملاً، ليس أكثر. فانتبهي.

الهوة تبقى صامتة.

طيور الحجل هنا بدينة وغبية. إنها تحملق بإيغناتوف بعيونها الكبيرة المستديرة السوداء المطلة من تحت حواجبها الحمراء الثخينة، ولا تطير. يقترب منها فيصبح على بعد خطوات ويطلق النار عليها من قرب. تنفجر الأجساد اللينة نوافير من الريش الأسود وتتحرك الأجنحة متأخرة، وتتدلى أعراف الرؤوس الصغيرة في العشب. وتتطاول من الأشجار المجاورة رؤوس طيور فضولية: نريد أن نعرف ما حدث، ماذا حدث؟ نحن أيضاً نريد أن نرى، ونحن... إيغناتوف اصطاد ستة طيور- بعدد الطلقات في مخزن مسدسه، ربطها من أعناقها بحبل وجده مصادفة في جيبه- فتشكلت لديه ربطتان وازنتان، ثم قفل عائداً إلى الضفة.

لقد حفظ طريق المعسكر جيداً. هو لن يضيع إذا لم يذهب عميقاً في الحرج (ها هو ذا أنغارا، إلى جانبه، في كل مكان)، لكن من المكن أن يخطئ الطريق. لذلك احتفظ في ذاكرته بكل علاماته، كررها همساً تحت أنفه كما لو كانت مربوطة بخيط- والآن، راح في طريق العودة، يجمعها في كبة في الاتجاه المعاكس: يهبط عن النتوء الصخري في الدرب الحجري بين صخور وردية تارة، وبيضاء- خضراء تارة أخرى بسبب الطحالب الجعداء التي غطتها، ويسير حتى فتحة تبدو صلعاء، بعد ذلك يجتاز حرج صنوبر بري، ثم يمشي في فسحة حجرية كبيرة، مستوية، مغطاة، بأعشاب غير كثيفة، - نحو منحدر حاد بين شموع أشجار الصنوبر البري الحمراء، وأغصان أشجار السرو- يهبط إلى أسفل، يهبط كثيراً، إلى فسحة صغيرة مستديرة، نمت عليها في وقت ما شجرة بتولا ضخمة، تحولت الآن إلى بقايا شجرة حرقتها الصاعقة، ومنها- بمحاذاة جدول بارد صاخب- ينزل أكثر، نحو أنغارا، إلى منطقة صخرية كبيرة تشبه دبّاً نائماً- يجتاز الجدول ويمضي عميقاً

في الغابة، إلى أن تطل عليه فسحة ضوء- وتظهر الضفة حيث تجمعت حفنة المهاجرين.

يشق إيغناتوف طريقه في التايغا. خطواته تصدر صوتاً عالياً. في جزمته ماء- يقفز من فوق الجدول فيفقد توازنه ويسقط في الجدول. في كل يد ربطة ثقيلة من الطيور التي اصطادها. سيكون العشاء حافلاً. هاكم، أيها المواطنون الأعداء، كلوا. ستتغذون الأسبوع كله بلحم الحجل، فتعوضون جوع الطريق.

لم يلحظ كيف حلّ المساء. مساء بني كثيف غطى التايغا فجأة، على غير توقع. واشتد البرد بسرعة، وصمتت الطيور التي كانت لا مبالية في النهار، وهبطت في الحال أصوات ليلية حزينة وبعيدة. الأصوات كلها- حفيف الأوراق، وهمس الروائح: وطقطقة الأغصان في مهب الريح- صارت أقرب، وأكثر رنيناً. حتى تكسّر العيدان الجافة تحت الأقدام، تحول إلى صرير مرتفع.

شيء ما كبير، ليّن، مشرق، يمرّ وهو يصفر بالقرب من رأسه ويلطم وجهه بأجنحته. وفي المعدة مغص بارد مقرف، والأنفاس تتجمد. إنها الحياة. هذا ما يفهمه إيغناتوف متأخراً فيرتاح ويسرع في المشي. تتناهى من قلب الغابة طقطقة ما، وصيحات بصوت رفيع، وتنهدات تعبر عن الدهشة. ويتناهى من مكان بعيد هدير مخملي.

أين المعسكر؟! هو يجب أن يكون هنا، ينظر إلى الأشجار. أشجار سرو، سرو، سرو... وفجأة تخطر في باله فكرة مجنونة، يخرج إلى الضفة التي يعرفها، فلا يجد أحداً هناك. لا وجود لأي إنسان، الكل ماتوا. ماذا لو أن الجميع فجأة- زليخة الخضراء العينين، والمساكين «الذين كانوا»، والانتهازي غوريلوف- غرقوا هناك في وسط أنغارا، مع البارجة؟ ماذا لو لم يبق حياً غير إيغناتوف؟ أو أنهم رموه هنا على الضفة الخالية؟

ينتقل من المشي إلى الركض. شيء ما يصم الآذان يصر تحت قدميه، شيء ما يتسلل إلى عينيه، ويلطم خديه. قدمه تسقط في حفرة، وتتشبث قدمه الأخرى بالحافة. يكاد يقع، يصمد بصعوبة، يركض بسرعة أكبر. يضع كوعيه أمام صدره كي يحمي وجهه من الأغصان التي تصادفه. وفجأة تصبح طيور الحجل عبئاً ثقيلاً وكبيراً، وكأنها انتفخت في أثناء سيره.

أخيراً- يرتعش لسان لهب برتقالي بين جذوع الأشجار. قفزتان، ويصل إيغناتوف اللاهث الذي يدق قلبه بسرعة إما بسبب الركض السريع، وإما بسبب الخوف، إلى الفسحة قرب الضفة. ها هم الناس، لم يغادروا إلى أي مكان- بعضهم يبني كوخاً تحت أغصان شجرة سرو ضخمة، وبعضهم يجلس قرب النار. إيغناتوف يعدّل خطوته ويهدئ أنفاسه المضطربة. يقترب على مهل من النساء الجالسات القرفصاء قرب النار، ويرمي عند أقدامهن بلا مبالاة طيور الحجل التي ما زالت أجسادها دافئة.

في أثناء انشغال النساء في تحضير العشاء، يقرر إيغناتوف أن ينهي التعامل الضروري وغير الممتع مع القضية، والأصح أن ينهي التعامل مع «القضية»- المصنف الرمادي المهترئ الذي تغطي سطحه أختام بنفسجية متسخة حادة الزوايا، وحواشي تحتفظ في دواخلها بكل التاريخ المر للرحلة التي دامت أشهراً كثيرة. يجب شطب جميع الذين ماتوا.

يأخذ المصنف، ويجلس قرب النار. يتخيل كيف سيرميه في النار فيشتعل على الفور ملوحاً بأوراقه كأنه حيّ، ثم يتجعد ويسودّ، ويتجمع، ويذوب في ألسنة اللهب الصفراء، ويتحول إلى دخان خفيف يختفي في السماء السوداء. وهكذا لن يختفي أثره فقط بل ستختفي أيضاً حتى رائحته...

لا يجوز. هنا يجب أن يسود النظام ما دام هو القومينداننت، وما دامت بين يديه قائمة دقيقة بأسماء جميع المقيمين في المعسكر، أم أن الأفضل أن

نسميهم معتقلين؟ لكن أي معتقلين هم، إذا كان كل حرسهم قوميندانت بسراويل مبلولة ومسدس وحيد؟ إنه، لذلك، يقرر أن يبقي لهم تسميتهم السابقة: المهجّرين.

يخرج بعصا جمرتين من النار، وينتظر حتى تبردان. يمسك بطرف الجمرة الطويلة، المتينة، الثخينة الملمس. يلتقط أنفاسه ويفتح المصنف بحزم: أربع ورقات مدعوكات، مصفرّات بفعل الزمن، انطبعت عليها آثار رمادية، وبقع داكنة خلفتها الأصابع التي تناقلتها. الأوراق مجعّدة في بعض الأماكن التي وقع عليها الماء أو الثلج، واهترأت زواياها وتشققت. الورقة الخامسة أكثر متانة ونظافة، لسبب ما، -«بقايا» اللينينغراديين. ثمانمئة اسم منثورة في الأوراق على أعمدة معوجة، متراقصة بلا مبالاة. ومثلها تميل وتتراكض بمرح خطوط قلم الرصاص السوداء التي تطمس أكثر من نصف الكنى المكتوبة. إن هذه الأوراق تذكّر في نصف الظلمة قرب النار، بمنشفة مطرّزة برسوم دقيقة.

بدأ بأسهل الأمور- باللينينغراديين. لقد شطب، منذ زمن بعيد اسمين من بين الخمسة عشر اسماً في القائمة، شطبهما في بداية طريق السفر، أما البقية فلا داعي لشطبهم، فهم كلهم هنا. إن هذه «البقايا» التي فرضت عليه منذ بداية الرحلة- حقيقة مدهشة!- فقد أظهرت قدرة استثنائية على الحياة. الأمر، مع الإنسان الذي يلغي انتماءه لطبقة، واضح تماماً. غوريلوف مثلاً، يتكيف مع أي وضع، يتلوّن بأي لون، يتقرب ممن له مصلحة في التقرب منه، يمتصه، يقضم حنجرته، يعيش. لكن الأمر مختلف مع الإنتيليجينسيا! إنها مهذبة، بشكل غير معقول، وتكون جريئة في كلامها في حالات نادرة، لكنها، في سلوكها، - هادئة، ذابلة، مستسلمة، تستحق الشفقة، وهي تملك القدرة على الحياة، على عكس الكثير من الفلاحين الذين لا يتحملون المرض والجوع. هؤلاء هم «من كانوا بشراً». لقد انخدع كوزنيتس أيضاً بمظهرهم الشاحب، فحملهم معه في سفينة

الجر بوصفهم الأكثر إعياء، وعجزاً، والأقل قدرة على الهرب. عموماً، لقد حالف الحظ لينينغراد.

يمر إيغناتوف بعينيه سريعاً على الكنى، مطابقاً بينها وبين الوجوه من حوله.

إيكونيكوف، إيليا بتروفيتش. ها هو ذا يجر غصن شجرة سرو معوجاً أصلع تقريباً (إلى أين تحمله يا غبي! مثل هذا الغصن لا يصلح لبناء العرزال- وهو لن يحمي من المطر). يبدو أنه لا يفهم، وأنه غير معتاد على العمل، وغير قادر عليه، وأنه ضعيف البنية والإرادة. مثل هذا لا يتركونه يشترك في السباقات، وهو أعجز من أن يشعل تمرداً- إنه امرؤ غير خطير.

لقد كتب غوريلوف في تقريره أن إيكونيكوف فنان مشهور، رسم صورة لينين لنشرها في الإعلانات، عجيب هذا الأمر. رسم إعلانات ثورية. وانتهى هنا. لا بد أن لذلك سبباً.

سوملينسكي، قسطنطين أرنولدوفيتش، عجوز هادئ، لا يعرف الحقد، يتحرك بنشاط أمام أحد العرزالات، ويلوح بيديه- يبذل جهده، (برافو)، أيها الجد. هو عالم، لكن لا قيمة لذلك. - إنه إما جغرافي، وإما عالم زراعة. الفائدة المنتظرة منه قليلة طبعاً، لكن حماسته تعجب إيغناتوف، وتدفئ روحه. هذا أيضاً امرؤ غير خطير.

برجوستوفسكايا- سوملينسكايا، إيزابيلا ليوبولدوفنا (يا لاسم أبيها وكنيته من هدية!)، زوجته. هي تجلس إلى جانب إيغناتوف قرب النار، تحاول نتف ريش الطير- الأصابع النحيلة ذات البشرة المشدودة الجافة نصف الشفافة، تتشبث سلامياتها بريش طيور الحجل العنيد جداً- قد تموت جوعاً، قبل أن تتم هذه العجوز عملها. إنها امرأة متعالية، متطلبة في كل حركة من حركاتها، ذات لسان غير منضبط. لقد اشتكى غوريلوف من شتمها للسلطة، لكنه لم يستطع أن يقول

بأية كلمات بالضبط، - لأنها كانت تستخدم الفرنسية في نقدها. إنها ذكية، وذات حيلة. لكن هذه الكوبرا العجوز لم تكن تملك شيئاً غير الذكاء، وحدة اللسان، ولذلك- هي ليست خطيرة.

غوريلوف، فاسيلي كوزميتش، وجد لنفسه عصا طويلة يلوح بها كأنها سوط، يقود بناء العرزالات الثلاثة في وقت واحد- يتنقل من ورشة إلى ورشة، يركل برجله، يصيح بصوت مرتفع يرن في الآذان. لقد استطاع هذا السافل أن ينصب نفسه رئيساً. هنا كل شيء واضح. إنه نموذج منفّر إلى أقصى حد، مقرف إلى أقصى حد، لو قابله إيغناتوف في الحياة العادية لسحقه بكل سرور. أما هنا فعليه أن يتعامل معه. كان إيغناتوف يستدعي في أثناء الرحلة المشرفين على العربات إلى قمرته، فيسألهم عن أمزجة الناس، وقد كان غوريلوف أكثرهم ظهوراً وأمهرهم في تقديم التقارير. كان هذا الكلب يعدّ نفسه عبداً للشخصية الأقوى. فما دمت أنت في السلطة وفي يدك مسدس- سيظل يلعق يدك، ويلوّح بذيله لاستعطافك، أما إذا ضعفت لدقيقة، فسيعضك وقد يقضم حنجرتك. إنه خطير.

هكذا، بالتدريج، وصل إيغناتوف إلى آخر قائمة اللينينغراديين. بعضهم معلمون، وبعضهم أساتذة جامعة، وعامل مطبعة، وموظف في مصرف، ومهندسان في أحد المصانع، أو ميكانيكيان، وربة منزل، وزوج من الناس ليس لديهما عمل محدد (متطفلان- قرحة في جسد المجتمع)، وبينهم عرائس مثل عارضة الأزياء التي ورد اسمها في القائمة. إنهم، عموماً، كومة من الحطام، عجائز، غبار التاريخ. ليس بينهم من يتصف بالخطورة، غير غوريلوف.

المهمة الآن أكثر تعقيداً: يجب دراسة أوضاع الكولاك الذين نزعت أملاكهم. في البداية يجب العثور في القائمة على أسماء جميع الأحياء، وبعد ذلك شطب أسماء الموتى.

على بعد خطوتين من إيغناتوف تجلس التترية الصغيرة زليخة على ركبتيها وهي تتعامل مع طيور الحجل التي اصطادها. هو يجد اسمها في القائمة، فيرسم حوله دائرة بالفحم. الخط الذي رسمه جاء عريضاً، ثخيناً، أسود كثيفاً، كحاجبيها. إنه، آنذاك، في الماء، تأمل وجهها جيداً. لا، لم يتأمله- درسه، حفظه عن ظهر قلب. كان طول الوقت، ينظر إليها- هل ما تزال حية؟ هل تتنفس؟ هل أرهقت كثيراً؟ لم يستطع أن يتركها تموت، فقد بدت له حياتها الكفارة الوحيدة عن كل الميتين. حين رأى كيف حملوها إلى السفينة ووضعوها على سطحها، شعر فجأة بتعب شديد- يقارب الموت: ولم يبق في رأسه إلا أمر واحد: لقد أنقذها، أنقذها، خلّصها من الغرق، قادها، سحبها... أتراها ستقدر له ذلك؟- تخطر في باله فكرة شريرة. هو ترك ثلاثمئة يغرقون وأنقذ واحدة- يا له من منقذ يستحق الإطراء! فليترك ذلك كله، يأمر إيغناتوف نفسه كالعادة بلهجة تنم على الإرهاق. ليترك ذلك كله ويتابع العمل.

ها هو ذا أفديي بوغار، ذو اليد الواحدة، العاجز، يعمل وبهمة- ينضد الأغصان بمهارة على سطح العرزال، ويقول شيئاً ما للآخرين، ويشير بإصبعه. هيه، هذا هو من يدير ورشة البناء حقاً! إنهم يستمعون لنصائحه، ويحنون رؤوسهم بالموافقة. يبدو أنه رجل عملي. عيناه نفاذتان، تلتقطان أدق الأشياء، يخفضهما دائماً في حضرة إيغناتوف وكأنه يخشى أن يرى فيهما هذا الأخير شيئاً ما. إن هذا الرجل يمكن أن يكون خطيراً. مثله يطيعه الآخرون، ولا يقلل من دوره كونه بيد واحدة.

في مكان قريب يتكوم لوقا تشيندیكوف، الشوفاشي ذو اللحية الحمراء. إنه لا يلفت النظر، يبدو كله معوجاً، قبيحاً إلى حد يثير اليأس. لقد فقد في أثناء الرحلة أسرته كلها، واختلطت عليه الأمور إلى درجة مميتة، وفقد قدراته كلها. وتملكه الضياع. إنه ما يزال حتى الآن يلتفت مستوحشاً وكأنه لا يعرف أين هو. تشيندیكوف إنسان محطم وغير خطير.

غير بعيد تتلوى لحية موسى- الحجي يونوسوف البيضاء، وهو إنسان نحيل مصقول كالعصا. في بداية الرحلة كانت على رأسه عمامة بيضاء بياضاً يعشى له البصر، لكنها اختفت فيما بعد في مكان ما، أو أنه جرى تحويلها إلى خرق.. تخيل إيغناتوف منظر الحجي وهو ينشر غصن السرو وعلى رأسه عمامته المشرقة، فضحك. لقد كان وجه يونوسوف دائماً مضيئاً، حالماً، فهو لم يكن يفكر بما هو دنيوي، بل بما هو أبدي. وهذا صحيح، وهذا ما يجعله حجياً وإنساناً غير خطير.

ليلى غابييرييدزه، جورجية بدينة تشكو من ضيق التنفس...

حين ينظر إيغناتوف إلى وجهها يتذكّر بالاسم الذين يعملون في المعسكر. يجدهم في القائمة ويرسم دوائر بالفحم حول أسمائهم. هناك إلى جانب اللينينغراديين- تسعة وعشرون شخصاً. روس، وتتار، واثنان من الشوفاش، وثلاثة موردفينيين، وفتاة ماريسية، وأوكراني، وجورجية، وألماني فقد عقله باسم رنان هو وولف كارلوفيتش ليبييه. إنهم، بكلمة واحدة، أممية كاملة. البقية يجب شطبها. كان يحرص، وهو يمرر الفحم على الأوراق المهترئة، على ألّا ينظر إلى الكنى. وأخيراً تترك أصابعه السوداء التي تكاد تكون مخملية، دوائر عريضة الخطوط على الأوراق.

بعد أن ينتهي إيغناتوف من «القضية»، ينهض بقفزة واحدة عن جذع الشجرة، ويخطو مسرعاً نحو الضفة. إنه يريد أن يغسل يديه بأقصى سرعة، يريد أن يستنشق هواء نهرياً بارداً. وهو يريد كثيراً أن يدخن.

راحت زليخة تنتف ريش الطائر بملقط من خشب سرو حاد الطرف (الأفضل لو أنها استخدمت السكين، غير أن السكينين كانتا مشغولتين ببناء العرزالات). ملقط السرو يستطيع أيضاً أن يعمل. لقد كانت ماما على حق حين قالت: المهم في أي عمل هو اليدان والرأس. كانت تمسك بقوة ملقط السرو في كفها، وتنتف الريش بحركات سريعة عن جسم الطائر اللين المطواع، وتضغطه بين الملقط

الخشب وإبهامها: في البداية تنتف الريشات الطويلة والقاسية المتينة، ثم الريشات الأصغر والألين. أما الزغب فلم يكن قد برد، لذلك كان نتفه أكمل وأسهل.

إلى جانبها جلست إيزابيلا. الجماعة تركت الاثنتان- الحبلى والعجوز الأكبر سناً- قرب النار وقادتين وطباختين. أما البقية فراحوا يبنون العرزالات، ويكملون بناء المعسكر.

- زليخة، يا عزيزتي، أخشى ألّا أستطيع مجاراتك. - قالت إيزابيلا وهي تنظر بدهشة إلى حركة الملقط الخشب الذي كان يلوح سريعاً ثم يذوب تقريباً في الهواء.

- الأفضل أن تجمعي الريش. - تقول زليخة. - سنحتاجه.

لقد سرّها أنها تستطيع أن تؤدي هذا العمل بشكل أفضل من أداء الآخرين، فجميل أن يكون المرء مفيداً. من المخجل أن تجلس ببساطة قرب النار، تلقمها حطباً، في الوقت الذي يعمل فيه الآخرون. لكن الذهاب إلى حرج السرو وجلب الحطب إلى المعسكر، صار صعباً عليها- الجنين يتحرك باستمرار، وينتفض، وقد ضعف ساقاها كثيراً وبات جبينها يتعرق. لقد شعرت مرة أو مرتين بمغص في أسفل بطنها، توجعت، وأنّت، وتقلّبت- وبدأت تصلي، ظناً منها أن وقت الولادة قد حان، لكن تبين لها أخيراً أنه لم يحن بعد.

هدية مرتضى، السكر المسموم ذاب في أنغارا، فهي، إذن، ستلد أياً كان شكل ولادتها. إنها ستصمد، إذا أراد اللـه أن تلد طفلاً ميتاً. فإرادة العليّ القدير تكون أحياناً عجيبة لا يدركها العقل الدنيوي. المعجزة أبقتها حية- فهي الوحيدة التي نجت من بين كل رفاقها في البارجة القاتلة، الإرادة الإلهيّة فعلت أكثر من ذلك،

أرسلت لإنقاذها قاتل زوجها. عضو الفصائل الحمراء المتعالي، الخطر، إيغناتوف. أليس من المحتمل أن القدر يريدها أن تبقى حية؟

حين كادت زليخة أن تختنق بالسعال وأنفاسها، دفعها شيء ما من أعماق الماء إلى السطح، وفي دوامة الأمواج والرذاذ المجنونة، لاح إلى جانبها فجأة وجه إيغناتوف الصارم، فأحست بسعادة كبيرة لم تشعر بمثلها في حياتها. هي لم تفرح أبداً بزوجها مثل هذا الفرح، فليغفر لها المرحوم مرتضى هذه الأفكار. لقد فكّرت أن باستطاعة إيغناتوف أن يتجاوزها من دون أن يلحظها، أو من دون أن يرغب في إنقاذها، - لكن ها هو ذا إلى جانبها، يساعدها، ويهدئ من روعها. هي لم تكن لتدهش لو أنه شدها من ضفائرها إلى أسفل وأغرقها، غير أنه أمسكها، أمسكها بقوة، وراح يقول شيئاً ما، بل راح يمزح. وحين اتضح أنها لا تستطيع السباحة إلى الضفة، لم يشتمها، ولم يتركها، بل أنقذها.

لو تبين لها أن المنقذ إنسان جيد لوجب عليها أن تركع أمامه على ركبتيها وتغمر يده بالقبل. ولو أن مرتضى كان حياً لقدّم لهذا الشخص هدايا قيمة، ولو أن حضرة الملا كان حياً لطلبت منه أن يقيم صلاة شكر تقديراً لهذا المنقذ. لكن أياً من هذه (اللوات) لم يتحقق. إنها وحيدة في مواجهة هذا الإيغناتوف الصارم الذي يصعب اختراقه. ها هي ذي تجلس قرب النار، ترسم شيئاً ما بالفحم على الورق، تعبس، تكزّ على فكيها. ما تريد زليخة أن تقوله ببساطة هو «شكراً» لكنها لا تجرؤ على أن تقطع حبل أفكاره. أما هو فسريعاً سيتنهد بحدة وغضب ويصفق دفتي المصنف ويغادر إلى الضفة.

تشكّ اللحم المنظف في عصا طويلة وتحرق ما تبقى من ريشه فوق النار. وحين تشرع في تقطيع اللحم يكون الظلام قد ساد تماماً ويكون المهجّرون قد أنهوا أعمالهم، فراحوا واحداً بعد آخر يجلسون حول النار ينتظرون العشاء، فاتحين خياشيمهم بلهفة لاستنشاق رائحة الزغب المحترق الشهية.

بنوا تحت أغصان السرو ثلاثة عرزالات: كانت الأغصان الكبيرة في الأشجار حوامل رئيسية مدّوا فوقها بشكل عرضاني أغصاناً بأوراق عريضة من أشجار الحناء- الأغصان الأصغر مدوها أرضية لها.

أحدهم اقترح أن ترش الحناء داخل العرزالات وأن تفرش بأغصان البتولا، ورزم الأعشاب- وذلك لكي تكون الأرضية أكثر ليناً، لكن الناس ما عادوا يملكون القوة والوقت اللازمين لفعل ذلك. أعدّوا الحطب لليل، وجلبوا القش والأغصان الجافة التي سقطت من الأشجار الميتة. لم تكن لديهم فؤوس، فاضطروا إلى قطع الأغصان الكبيرة بالمناشير. كانت قبضات هذه المناشير تزعق بصوت مرتفع، وتلتوي، وتهتز بشدة، وتفلت من الأيدي غير الخبيرة- كان العمل بها غير مريح، لكنهم تغلبوا على ذلك بشكل ما، وقطعوا الخشب. لقد جلبوا من الحرج قبل حلول الظلام، جذوع الأشجار الساقطة ونضدوها حول النار. والآن يجلس الجميع متلاصقين مسندين أكتافهم الباردة بعضها إلى بعض، يتدفؤون، يطلقون من أفواههم غيمات منفوشة كبيرة من البخار- في المساء يزداد البرد.

في وسط النار، على صخرتين مصقولتين ينطلق البخار من سطل كبير منتفخ البطن- السطل ينتظر اللحم. زليخة ترمي في الماء الغالي قطعاً كبيرة من لحم الطير- فتنتشر فوق النار رائحة طعام منزلية مريحة، وتطير إلى أعلى، في السماء المخملية السوداء المزدانة بنجوم كالخرز.

- ما أجمل هذه الإضاءة، - يقول إيليا بتروفيتش بصوت منخفض مادّاً نحو النار البرتقالية ذراعين مصابين بخدوش طرية- إنها إبداع رمبراندتي خالص.

- هذا لحم، - يصحح قوله غوريلوف بلهجة ودية على غير توقع، ويغمز بعينيه المعسولتين المثبتتين أبداً على السطل ومرقه. - إنه لحم.

البقية ظلوا صامتين، تلتمع في الظلمة عيونهم الغائرة، وتتوهج في ضوء الشرر الوجوه الذابلة بقسماتها الحادة الزوايا. تسقط زليخة في القدر حفنة ملح، وتحرك الطبيخ من وقت لآخر بعصا طويلة. الحساء سيكون مدهناً، دسماً. المعدة تنبض متوقعة الطعام. هي لم تأكل اللحم نصف عام- وهي مستعدة لأكله نيئاً، والآن مباشرة بعد إخراجه من المرق الغالي بيديها العاريتين. يبدو أن الجالسين من حولها، يعيشون الحالة نفسها. اللعاب يملأ الفم، ويليّن اللسان. العصا ترتطم بجدار الدلو. وتطقطق الأغصان الصغيرة في النار. وفي مكان غير بعيد يعلو عواء مديد.

- هل هي الذئاب؟- يسأل أحد أبناء المدن.

- على الضفة الأخرى، - يجيبه قروي.

يسمع صوت خطوات- ينبثق من الظلمة إيغناتوف. يفسح الناس له الطريق، ويحررون له مكاناً. قبل قليل بدا أنهم يجلسون متلاصقين، متكاتفين، وحين جاء القومينداننت وجلس على جذع شجرة- بدا كل ما حوله فارغاً، كقبضة مفرودة الأصابع.

يجلس إيغناتوف ويخرج من جيبه أشياء رنانة يفردها على راحة يده- طلقات.

- هذه، - يقول وكأنه يتابع حديثاً بدأه منذ زمن، ويأخذ بإصبعين طلقة مستديرة تلمع كالذهب في ضوء النار- لمن يحاول الهرب.

يضعها في مخزن المسدس- الطلقة تستقر بسهولة، مصدرة رنيناً لطيفاً يشبه القبلة.

- وهذه، - يرفع طلقة أخرى، - لمن سيشجع على الثورة المضادة. تدخل الطلقة الثانية مخزن المسدس.

- وهذه، - يضع أربع طلقات أخرى، لمن يعصى أوامري.

يفتل المسدس، فيصدر صريراً معدنياً رتيباً، يسمع بوضوح من خلال هسهسة النار.

- هل ما قلته واضح للجميع؟

الحساء يغلي ويفيض عبر حواف السطل. يجب تحريكه، لكن زليخة تخشى أن تقطع خطاب القوميندانت بالحركات الحادة للعصا.

- واحد، واحد، عدّ- يأمر إيغناتوف.

- واحد!- يجيب غوريلوف بنشاط، وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا الأمر.

- اثنان- يصيح آخر. - ثلاثة... أربعة...

فلاحون كثيرون لا يجيدون العدّ، يساعدهم المدنيون، يعدّون بدلاً منهم، يخطئون في العدّ، يعيدونه من جديد. وأخيراً ينجحون في تنفيذ الأمر.

- أيها المواطن الرئيس!- يقفز غوريلوف من مكانه مبرزاً صدره، غارساً أصابع يده في شعره المهوش. - عدد عناصر فصيل المهجّرين تسعة وعشرون إنساناً...

- دع الأمر لي!- يقول إيغناتوف عابساً (يزعل غوريلوف ويلقي بنفسه على جذع الشجرة حيث كان يجلس). «تسعة وعشرون رأساً، إذن» يقول وهو يتأمل الوجوه الناحلة التي تملؤها الثنيات والتجاعيد الصغيرة والكبيرة، وتغطي الدمامل والحفر خدودها.

- لماذا؟- تقول إيزابيلا بصوت منخفض. - نحن وإياك- ثلاثون أيها المواطن الرئيس.

تخفض زليخة عينيها بسرعة متوقعة صرخة أو ملاحظة على الأقل. ويسود من جديد فوق النار هدوء تقطعه هسهسة الشرر الحار وطقطقته.

حين تجرأت ورفعت بصرها كان إيغناتوف مستمراً في النظر إلى إيزابيلا. الحمد للـه، يبدو أن الأمر مرّ على خير. تتنهد زليخة في صمت وتنهض، تسحب العصا كي تحرك المرق في السطل. في هذه اللحظة يستيقظ الجنين في بطنها ويبدأ يمزقها من الداخل. تريد أن تصرخ، لكن الهواء هرب من صدرها إلى مكان ما، وتقلصت حنجرتها وانغلقت- فلم تعد تستطيع الشهيق أو الزفير. تجثو على ركبتيها، تقع متكومة. النجوم تقفز في عينيها، ترقص أمام وجهها.

- هيا نبدأ... لنتكاثر، - يأتي صوت غوريلوف حائراً ومن مكان بعيد جداً.

- سخّنوا ماء!- يقول إيغناتوف بلهجة قلقة.

- أظن أنّ من الأفضل أن يتركنا الرجال وحدنا، - تقول إيزابيلا.

- سنموت من دون النار. لماذا نغادر؟ هل تعتقدين أننا لم نر امرأة تلد...

ثم تسمع أصوات أخرى وصيحات، لكنها تعوم، تعوم نحو البعيد، تتداخل وتضيع. أما النجوم فراحت، فعلى العكس، تكبر، وتقترب، وتصدر طقطقة حادة، أم أن النار هي التي تطقطق؟ نعم، نعم، إنها النار! إنها تلتهب فتحرق العينين- تغمض عينيها وتطير، شاقة طريقها في العتمة العميقة الصامتة.

Chapter 24

الولادة

عاش وولف كارلوفيتش في بيضة.

هي نمت من تلقاء نفسها، سنوات كثيرة، ربما عشرات السنين وهو يرهق نفسه بالعدّ: الوقت لا يسري في البيضة ولذا لا قيمة له.

إنه يذكر كيف التمعت ذؤابة مرحة لأول مرة فوق صلعته إما على شكل هالة، أو على شكل مظلة. لقد حدث هذا بعد انقلاب أكتوبر بوقت قصير. آنذاك خرج البروفيسور ليبييه، إلى سوق يوم الأحد، فتح بصعوبة فردة باب جامعة قازان الثقيل المصنوع من خشب السنديان، المغطى بدهان لماع (البواب بزيه المقلم بالأزرق- الأخضر غائب عن المدخل الرئيسي منذ عدة أسابيع- وهذا يحدث لأول مرة منذ افتتاح هذه المؤسسة التعليمية في عام ألف وثمانمئة وأربعة)، فرأى عبر غابة من الأعمدة البيضاء حشداً من الناس يركضون، يصرخون، ويسقطون أرضاً- يطاردهم فرسان يطلقون عليهم النار عن قرب. هو لم يستطع أن يعرف هل كان هؤلاء الفرسان ثواراً جدداً يضعون ربطات حمراء على أكمامهم، أم أنهم، ببساطة، من رجال العصابات الذين كثروا في قازان بمرور الوقت. غير أن أولئك الذين كانوا يتلقون الضربات كانوا من أبناء المدينة: امرأة بمنديل مقلم على شكل مربعات، تحمل سلة (السلة وقعت وتدحرج منها البيض على الرصيف وتكسّر قطعاً نجمية صفراء)، وامرأة بثوب خليع مطرز بالتول، وعدد من التلاميذ ذوي القامات غير المتناسقة يرتدون الزي الأخضر، وفقير يصطحب كلباً ربطه بحبل (الكلب اخترقته رصاصة من جنب إلى جنب)، لكن الفقير ظل يجر جسد الكلب الميت ويرفض أن يتركه)...

لم يتسع الوقت لوولف كارلوفيتش كي يعود فيحتمي بجدران الجامعة- فالحشد بات يركض بجانبه وهو يصرخ باستمرار. أطلقت المرأة ذات الثوب المطرز صرخة مسرحية وفردت يديها معانقة أحد الأعمدة وراحت تنزلق عليه ببطء نحو الأسفل. لقد كان باستطاعة وولف كارلوفيتش أن يلمسها بيده فقد كانت قريبة جداً منه، وهذا ما جعله يشتمّ رائحة العطور النفاذة المختلطة برائحة عرق الجسد الخفيفة المرة إلى حد ما. الحشد والفرسان الذين يطاردونه انطلقوا مسرعين نحو الكرملين6، أما المرأة فظلت تطوق العمود وتزحف إلى أسفل، تاركة على العمود، الذي كان يوماً أبيض كالثلج. فصار الآن خيطاً طويلاً لامعاً من الدم الأحمر، مغطى بشبكة عنكبوتية من الشقوق والخدوش التي أحدثتها الطلقات.

اندفع البروفيسور نحوها، قلبها، ونظر إلى وجهها. عرفها: إنها مريضته التي أجرى لها عملاً جراحياً منذ فترة وجيزة- استأصل المرارة. أسرع يجس النبض، لكنه فهم من تزجج عينيها أنها ميتة. رحماكم، - كيف ميتة؟ وماذا عن العملية المعقدة التي استمرت خمس ساعات؟ إنها سادس عملية استئصال لورم في حياته، وقد كانت عملية موفقة، وخالية من التعقيدات. هي امرأة كانت تحلم بأن تنجب أطفالاً، ذكوراً حتماً. وزوجها كان يريد ذلك. حين أخرجوها من مشفى الجامعة أرسل تعبيراً عن الشكر، باقة من زهور البنفسج ضخمة إلى حد غير معقول، (الأمر الذي اضطر العاملين إلى وضعها في الشرفة كي لا تدير رائحتها الرؤوس في القسم كله).

وها هي ذي نفسها، ترقد الآن، تفوح منها رائحة البنفسج، لكنها ميتة.

أخرج وولف كارلوفيتش من جيب صدريته منديلاً وراح يمسح البقعة الحمراء الطويلة عن العمود. البقعة لم تنمسح- بل صارت تكبر تحت ضغط حركات يديه القويتين المتدربتين على الجراحة. وسرعان ما ظهر أناس حملوا الجثث الملقاة

على الرصيف وأخذوا البروفيسور معهم. أما هو فظل يفكّر: لقد ماتت تلك المرأة، طيّب، إعادتها إلى الحياة مستحيلة، لكن ألا يمكن على الأقل، مسح تلك البقعة؟

في صباح اليوم التالي اقترب من الجامعة وهو يتساءل: أتراهم مسحوها أم لا؟ فتبين له أنهم كانوا مشغولين بأمور أخرى. لقد ظلت هذه البقعة كجرح مفتوح على العمود الأبيض بعد يوم، وبعد يومين. غيّر طريقه- صار يدور مشياً مسافة طويلة، يسير إلى الجامعة من الجهة المقابلة، صاعداً من ريبنوريادنايا. لكن البقعة سخرت من البروفيسور- بدت وكأنها اجتازت العمود زحفاً وقفزت إلى عينيه، بسطت ذراعيها تمنعه من الوصول إلى المبنى، ورائحة الدم والموت تفوح منها وهي تصرخ: أنا ما زلت هنا!

حاول ليبييه أن يقنع المسؤول الاقتصادي في الجامعة بضرورة دهن العمود باللون الأبيض. لكن المسؤول اكتفى بضحكة ساخرة غير طيبة وهزّ رأسه: الحرب ليس الوقت المفضل للإصلاح. ذهب إلى رئيس الجامعة وبرهن له أن الدم على وجه حرم المعرفة يدنس الفكرة السامية للثقافة. سمعه دورميدونتوف شارد الذهن، هازّاً رأسه من دون تركيز. وفي اليوم التالي أغلق المدخل الرئيسي، وواجهت البروفيسورات والطلبة لوحة كتب عليها: «الجامعة مغلقة مؤقتاً، حتى إشعار آخر». وولف كارلوفيتش لم ير أبداً رئيس الجامعة بعد ذلك اليوم. أما البقعة فظلت على حالها.

مساء ذات يوم لم يتمالك نفسه، فسرق من عند غرونيا دلواً وممسحة مبلولة، وذهب إلى المبنى المغلق محاولاً أن يغسل البقعة بالماء والصابون. لكن الدم تجذّر كلياً في بياض العمود، في خلال الفترة الماضية- شحبت البقعة، لكنها لم تختف. غضب وولف كارلوفيتش غضباً عظيماً وفي لحظة يأس وعجز قذفها بالدلو الثقيل. ارتطم الطرف الحاد في جسم العمود الأملس، فحطّم قطعة من سطحه بحجم راحة اليد، راسماً على السطح الأبيض شقوقاً حادة الأطراف كأشعة البرق.

في هذه اللحظة ظهرت لأول مرة- البيضة. التمعت فوق البروفيسور التماعاً لطيفاً متموجاً كنصف هالة رقيقة بحجم مصفاة غرونيا التي تبرّد فيها القريشة. إنها، وهي المشرقة، الخفيفة، المريحة بدرجة استثنائية، كانت تغريه بأن يقيسها كقبعة. ليبييه المهتم بها لا يعترض أو يرفض بل سمح لنفسه أن يمطّ رقبته بشكل يكاد لا يلحظ- فأحست البيضة بذلك واقتربت، وحطّت على رأسه. الدفء اللين اندلق من القشرة إلى الخدين، فالذقن، فالنقرة، ومضى أبعد من ذلك إلى الرقبة، والصدر، والساقين. وفجأة أحس البروفيسور بسكينة نفاذة، وإشراق، وكأنه عاد إلى حضن أمه، وكأن الحرب لم تكن- لا في الشارع القريب، ولا في البلاد، ولا في أي مكان في العالم. لم يكن لديه خوف، ولم يكن لديه حتى حزن.

البيضة كانت شفافة تقريباً، يشوبها بعض الفرح، فعبر جدرانها الشفافة الممتدة حتى الذقن، رأى وولف كارلوفيتش ساحة الجامعة، اللامعة بالنظافة تحت أشعة الشمس الذهبية، والطلبة السائرين على مهل، الذين يبتسمون له باحترام، والأعمدة الملتمعة ببياض صاف، المصقولة تماماً. أما البقعة الدموية فلم يكن لها وجود.

mein Gott- همس وولف كارلوفيتش ممتناً واتجه إلى بيته، حاملاً البيضة بحذر على رأسه.

في مرتين كادت البيضة أن تسقط، لكن البروفيسور تعلم بالتدريج كيف يحفظ توازنه: كان في كلّ مرة تهب فيها الريح، يستجمع إرادته- فتظل البيضة على رأسه: كانت تقرأ أفكاره، وأحياناً رغباته.

وقد اتضح أن البيضة ذكية ذكاء خارقاً: تصدر أصواتاً وصوراً تسر البروفيسور، وتحجب تماماً كل ما يمكن أن يسبب له أي قدر من القلق مهما ضؤل. وهكذا سارت الحياة على غير توقع.

- لديك اليوم مزاج مرح، - قالت غرونيا لاهثة وهي تمسح الأرض في الممر بشمع من بقايا ما قبل الانقلاب.

- إنه الربيع!- قال البروفيسور وهو يبتسم ابتسامة مغناجاً ذات مغزى، ويمنع نفسه من ضربها على مؤخرتها المرفوعة بحدة إلى أعلى (هو لم يسمح لنفسه أبداً بممارسة ذلك مع الخدم، لكن فورة الدم هي ما جعلته يفكر بالأمر فجأة).

- اليوم ذبحوا ثلاثة آخرين على شاطئ البحيرة، هل سمعت بذلك؟ يا إلهي، الأمر لك في كل شيء، - رسمت غرونيا على صدرها شارة الصليب، من دون أن ترفع وجهها المصطبغ بالحمرة عن الأرضية المدهونة بالزيت، اللامعة لمعاناً ثقيلاً.

- نعم، نعم، إنه يوم رائع، - تمتم ليبييه وهو يعود إلى مكتبه.

الجيران الذين فقدوا عقولهم من الخوف، والمظاهرات المستمرة في الشوارع، وفصائل المقاتلين التي لا حصر لها في المدينة، وتبادل إطلاق النار، والحرائق الليلية، وازدياد جرائم القتل على شاطئ البحيرة السوداء، وتبادل سيطرة البيلوتشيخيين، والفرسان الحمر على المدينة، والبؤس والفقر اللذان انهالا على المدينة من كل الشقوق والمنافذ- كل ذلك لم يعد يخيفه أو يوتّر أعصابه، لأنه لم يعد يراه.

حين، بحسب المعتاد ووفق قرار مجلس السوفييت في آب عام ثمانية عشر «حول القبول في المرحلة الجامعية العليا» تدفق على الجامعة التي افتتحت أخيراً، بدلاً من الطلاب الوقحين المضجرين بقبعاتهم الخضراء المحيكة (على الموضة)، آلاف العمال والفلاحين الشباب والمتقدمين في السن إلى حد ما، من الجنسين، ومعظمهم ممن لم يحصل على التعليم الابتدائي والمتوسط، والأدق، من الأميين، لم يدهش البروفيسور أبداً. مشى في القاعة التي غصت

بالمستمعين الجدد الذين كانوا يتمخطون بصخب ويسرحون شعورهم مصدرين أصواتاً. شق طريقه إلى اللوح وهو يدوس على الأحذية والجزمات والأقدام العارية، وسلال الأطعمة والصرر. وقف عند اللوح، وابتسم ابتسامة قصيرة وبدأ يتحدث عن التغيرات الدورية في مقاسات رحم المرأة.

عندما أدخلوا بدلاً من الفحص الفردي التقليدي الذي لم يألفه الطلاب الحمر، طريقة الامتحان الجماعي، لم يرتعش حاجب وولف كارلوفيتش دهشة، استقبل بلطف ممثل المجموعة الطلابية، الذي قدّم لليبييه، مرتبكاً، خجلاً، رزمة من الدفاتر الامتحانية، وتمتم بإجابة غير مفهومة على السؤال الامتحاني، خالطاً بين المفاهيم. وراح البروفيسور يهز رأسه مشجعاً، ثم وضع علامة «مقبول» على الدفاتر الامتحانية كلها، فطريقة الامتحان الجماعي تفترض أن يتم امتحان طالب واحد، وتوضع علامة جماعية لكل عناصر المجموعة.

الزملاء- من كانوا يجلسون في الصف الأول، والبروفيسورات العاديون والممتازون اختلطوا في ذلك الوقت في كتلة إنسانية واحدة خائفة، متخلين عن الألقاب والدرجات متخذين أسماً لا وجه له، هو «الكادر التدريسي»، - منذهلين من التغيرات التي أصابته. وسرعان ما زحفت في الجامعة إشاعات تزعم أن البروفيسور ليبييه- سأحاول تلطيف العبارة- «مريض الأعصاب». لكن حالة البروفيسور ليبييه العصبية كانت أخر همّ رؤساء الجامعة الذين تعاقبوا في تلك الفترة بسرعة وفروسية ثورية حقيقية.

لم يُقلق ليبييه الرؤساء والبروفيسورات، فهو، ببساطة، لم يكن يلحظهم، والفضل في ذلك للبيضة. ففي الاجتماعات العامة التي كانت تحدث نادراً لم يكن يلتقي إلا بمن يرغب بلقائه: في الصالة الكبيرة في الجامعة التي تلتمع أرضيتها التماع المرآة في ضوء آلاف الشموع، ظل رئيس الجامعة دورميدونتوف يبتسم له من سدة الرئاسة بود كالمعتاد، وظل زملاؤه الملتحون يحيونه من أماكنهم في

الصف الأول برزانة، وكان جلالة الإمبراطور يزم عينيه بحنان أبوي وهو جالس في أريكته الحمراء المذهبة. فقد كان يدلل هذه المؤسسة التعليمية المحترمة بزياراته الكثيرة لها. هنا يجب القول: إن البروفيسور ليبييه كان الوحيد الذي بقي يعمل في جامعة قازان الإمبراطورية، فقد انتقل جميع زملائه منذ زمن، للعمل في جامعة قازان الحكومية.

هكذا كانت تلك البيضة.

فقد حدث أن امتنع البروفيسور بسببها عن الممارسة التطبيقية للطب، إذ تبين أن البيضة والطب التطبيقي لا يمكن أن يجتمعا مطلقاً. كان إلقاء المحاضرات ومناقشة أعراض المرض أمراً ممكناً وقشرة البيضة على الرأس، أما فحص المريض فكان يتطلب حتماً خلع تلك القشرة: فعبر جدران العواطف السميكة لم يكن البروفيسور يرى المرض، بل يتأمل الزبون الممتلئ صحة وعافية.

حاول وولف كارلوفيتش في البداية أن يحفظ التوازن: صار يخلع قشرة البيضة لدقيقة أو دقيقتين في أثناء فحص المريض، ثم يعود فيرتديها بسرعة، ثم يخلعها ثانية عند تكرار الفحص... وصار يجري العمليات من دون القشرة، الأمر الذي كان يسبب له عذاباً حقيقياً- إن نفسية وولف كارلوفيتش التي عرفت الدلال، كانت تعاني من تك العبارات التي تبدو عادية في حديث المساعدين أو الطلبة المراقبين في أثناء إجراء العملية. وهكذا انقلب بصورة مدهشة الاختصاص الذي كان من قبل يمنحه المتعة والحماسة، وصار على غير المتوقع، سبباً في الألم والمعاناة.

وسرعان ما أحس وولف كارلوفيتش بأن هذا التغيير والتبديل لا يعجب البيضة. فبعد جولة معتادة في المشفى، وخلع القشرة عن رأس البروفيسور واعتمارها مرات عديدة، صارت القشرة عكرة، واكتسى إشراقها ملامح الحزن

والخمول. وذات يوم، بعد العملية انتاب ليبييه الخوف حين لاحظ فوق السطح المصقول شعيرات تشقق رفيعة، غير أن خوفه كان عبثاً- فما إن اعتمر البيضة ولم يخلعها أياماً عدة، حتى التحمت الشقوق. لكن المشكلة كانت واضحة: لقد وضعته البيضة أمام اختيار.

وقام البروفيسور بالاختيار لصالح البيضة، فتوقف عن ممارسة الطب التطبيقي في المشفى، وكفّ عن استقبال المرضى في البيت. وبعد بعض الوقت غادر المنبر الجامعي من دون أدنى أسف- فلم يعد التدريس يشعره بالبهجة التي يشعره بها تأمل العالم المثالي عبر القشرة المنقذة. وعلى سبيل الشكر ساعدت البيضة وولف كارلوفيتش بمسح كل ما هو مكدّر ليس في الوقت الحاضر، بل في الماضي أيضاً. وتم تنظيف الذاكرة من كل ما هو مريض ومزعج، وصار الماضي مشرقاً وصحواً كما هو الحاضر. وظل هو، في تصوره الشخصي، بروفيسوراً محترماً، وجراحاً تطبيقياً ناجحاً ومطلوباً: لقد كان دائماً غارقاً في قناعات مفرحة، ومتخيلاً أن آخر عملية ناجحة أجراها كانت البارحة، وأنه سيلقي محاضرته التالية يوم غد.

لم يلاحظ وولف كارلوفيتش حتى التغيرات التي طرأت على شقته: القادمون للسكن معه، الصاخبون، المدعّمون بذرية كثيرة العدد، واختفاء القسم الأكبر من الأدوات الفضية العائلية والأثاث، وفقدان التدفئة شتاء، وانقطاع الغاز. هو عاش لا يغادر مكتب أبيه، موجهاً بقايا دفء روحه القليلة نحو صديقه المحبوب المتفاني، ورفيقه المخلص الوحيد- البيضة الغالية.

كان أحياناً يستيقظ في الليالي خائفاً- أتراها ضاعت؟ لا، البيضة لم تضع. إنها، على العكس، كانت تنمو وتقوى تدريجياً، ملتصقة أكثر بصاحبها، متداخلة معه: من الذروة المصقولة إلى حد كاف، نمت جدران أكثر تماسكاً ومتانة، تحمي وولف كارلوفيتش من العالم المحيط به- تحميه، في البداية- حتى الصدر، ثم حتى الخصر. يبدو أن البيضة يجب أن تنمو سريعاً بطول جسده كله ثمّ تنغلق.

البروفيسور لا يعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك، لكنه يظن أن السعادة المطلقة ستحل.

بالمناسبة، كانت تحدث نادراً، رغم كل شيء، لحظات تجبر ليبييه... ليس على نزع، لا، بل على إخراج نهاية أنفه من تحت قشرة البيضة، والنظر بعين واحدة إلى العالم الحقيقي. جرس صغير قلق كان يرن أحياناً بصوت منفعل رفيع في زاوية وعيه. وكان البروفيسور يتلفت مندهشاً، يخرج رأسه من تحت قبة البيضة الكبيرة، المتينة، إلى العالم المحيط، وكأنه سلحفاة تستيقظ: ما هذا؟ ماذا حدث؟ وكان الجرس العنيد يدعوه إلى زيارة المرضى- يلقي ليبييه نظرة سريعة فيرى مريضاً، فيخاف ويدس رأسه فوراً معيداً إياه إلى مكانه. لكن عقله اليقظ ينجح في صوغ التشخيص الأولي، أو يطرح فرضية أو اثنتين ويشرع يحرّك مراكز التفكير... «قف!»- يأمر البروفيسور نفسه، ويحرص عل دفن ذكريات هذه اللحظات بأسرع ما يمكن، خلف بوابات الذاكرة. لقد كان يتمنى أن ينتزع هذا الجرس الكريه الذي يحرمه الهدوء من رأسه، لكنه لم يكن يعرف مكان وجوده. عموماً، صار رنين الجرس أكثر ندرة بمرور الزمن- وكان هناك أمل في أن يصمت سريعاً إلى الأبد.

كان كل من البيضة والبروفيسور سعيداً بالآخر، وقد جرت حياتهما المشتركة في هدوء وانتظام- كما تجري نحو جيب الطاولة لا تحيد، كرة بيلياردو وجّهتها يد خبيرة، وفجأة- تصطدم بضربة عصا بيلياردو صلبة! زيارة غير لطيفة من سيدة في حالة انفعال، تشكو، على ما يبدو من العقم. لقد أعطى هذا الحدث وجودهما المشترك اتجاهاً مختلفاً- فصارت حياة وولف كارلوفيتش بشكل مفاجئ، أكثر غنى وتنوعاً، ولكن هذا لم يجعلها أقل متعة. فالبروفيسور الذي أرهقته حياة العزلة قليلاً، استمتع بالتغيرات التي كان يتأملها عبر جدران البيضة المتينة الشفافة، التي وصلت آنذاك في تمددها إلى الركبتين.

أرسلوا من الجامعة سيارة فارهة يلتمع دهانها الأسود وقبضات أبوابها المصنوعة من الكروم. صالون تلك السيارة كان ليّن الملمس إلى حد مذهل. وسيرها انسيابياً وسريعاً في الوقت نفسه.

مبنى جامعة قازان الامبراطورية بحد ذاته تعرض في أثناء غياب وولف كارلوفيتش عنه إلى تعديلات مهمة، ولم يعد بالإمكان التعرف عليه. غير أن عين البروفيسور الخبيرة عرفت في الخطوط الحادة للتصميم المعماري الجديد، بقايا التفاصيل والأشكال القديمة الحبيبة كثيراً إلى قلبه: انعطافة درج المدخل الرئيسي، وصورة النسر ذي الرأسين نصف الممحية على الجدار، وغطاء الأرضية الاحتفالي الملون، والثريا- الكريستال التي يلمحها المرء من فتحة الباب.

الطلاب الذين صاروا الآن يلازمونه في كل مكان، كانوا مهذبين دائماً وقليلي الكلام. إن هذا التواضع والصمت، قد أثّرا فيه أكثر من أي شيء آخر (لا يمكن مقارنة هؤلاء بسابقيهم الكثيري الكلام، المستعدين لطرح وجهة نظرهم في أي أمر من الأمور مهما ضؤل، أو خوض نقاش في مسألة من أتفه المسائل). وقد أدهشه تركيزهم العملي: كان الطلبة يسرعون على الدرجات المرمرية وفي الممرات الطويلة بهمة واندفاع وكأنهم يوشكون على الانفجار لكثرة ما امتلأت به نفوسهم من الجاذبية نحو المعرفة. وقد اتضح أنهم استبدلوا بالسترات الطلابية الخضراء السترات الرمادية المطرزة عرضانياً على الصدر والمزينة بعرى عريضة يعلّق عليها الطلاب شارات تميزهم (يبدو أن هذا يتعلق بالسنة الدراسية أو بمقدار النجاح). وصار رمادياً أيضاً الزي الرسمي للبروفيسورات. وعلى كل حال، لم يلم أحد وولف كارلوفيتش بسبب زيه الأزرق القديم، وهذا الأمر جعله ممتناً جداً للإدارة الجديدة.

تعرّف على رئيس الجامعة في اليوم الأول. اسمه بوتيكلين، مظهره بسيط نوعاً ما، وهو مباشر جداً في وعوده، لكنه جذاب، وهذا أمر لا يمكن إنكاره. أضف إلى

ذلك أنه كان مناصراً كبيراً للعنصر الألماني وقد أجرى مع ليبييه محادثات طويلة حول السياسة الألمانية والاقتصاد الألماني، وعلى أساسها تقارب كثيراً معه، وأسف حقاً لمغادرته الجدران المضيافة لـalma mater حيث استدعى الواجب البروفيسور لترؤس المشفى العسكري.

نقلوه إلى المشفى الملاصق للكرملين نفسه عبر حي فوسكريسينسكايا، فلاح في نافذة السيارة المنحدر نحو البحيرة السوداء، وطرف بيته. إنه سعيد الحظ جداً بوجود غرونيا عنده، هذا ما خطر في بال ليبييه وهو يتنهد مرة بعد مرة. إنها ستعتني بالشقة في أثناء انشغاله بالقضايا الحكومية الهامة.

عن الأهمية الكبيرة، بل الاستراتيجية للمشفى الذي أوكلت إليه إدارته، حدّثه ضابط في أثناء جولتهما الطويلة في ممرات المشفى التي لا نهاية لها. «أرجو ألا تقلق أيها السيد الضابط، - قال له وولف كارلوفيتش. - سأفعل كل ما أستطيع». وحقق ما وعد به: انتقل فوراً للإقامة في أحد أقسام المشفى، كي لا يضيع الوقت في الذهاب إلى البيت، وكان يظل أياماً بطولها في غرفة العمليات من دون أن يسأل نفسه من يحارب الآن، وضد من؟!- فهذا الأمر لم يكن يهمه كثيراً. لقد كان عمله إجراء العمليات وإنقاذ الناس من هوة الموت، وعدم السماح للحياة بمغادرة أجسادهم الضعيفة التي مزقتها طلقات المدافع. وولف كارلوفيتش كان يحارب في صف الحياة.

البروفيسور الذي كان يكره التعبير الصريح عن الإعجاب، والرياء، صار مضطراً إلى تحمل النظرات المعجبة لإحدى الممرضات- إنها كثيراً ما كانت تنظر إليه نظرات طويلة مكشوفة، فيرى كيف كان يتسع في أثناء ذلك في أعماق عينيها الخضراوين البؤبؤ الأسود. من المحتمل أنها كانت مغرمة به. وهذا أمر ليس فيه ما يدعو إلى الاستغراب- فالمساعدات والممرضات كثيراً ما يقعن في حب الجراحين في أثناء إجراء العمليات. إن الوجود لفترات طويلة معاً، جبيناً إلى جبين

عملياً، والتوتر الأقصى للقوى الجسدية والروحية- كل ذلك يستدعي عند الفرقة الجراحية هبات عاطفية، قوية، ساطعة، غير منضبطة، يمكن ببساطة أن يعدّها القلب الفتي غير المجرب، مشاعر عميقة.

سرعان ما قررت القيادة أن تنقل المشفى إلى الخطوط الخلفية، أما ليبييه فيعينوه مديراً لقطار النقل، فوافق على ذلك وهو يرتعش انفعالاً واعتزازاً. وضعوا تحت رعايته أربع عشرة عربة. خمس منها تضم المصابين إصابات بالغة، وست للإصابات المتوسطة والخفيفة، وعربة- غرفة عمليات، وأخرى للخدمات، وعربة- صيدلية تضم أيضاً مستودع أطعمة. أما العاملون والحرس فشغلوا عربة مستقلة. ليبييه لم يكن يقيم في مقصورته إلا نادراً، كان ينام نوماً متقطعاً، والأدق، أنه كان يرتمي على الفراش وينسى نفسه في نوم كنوم الأموات، - لقد كان العمل يأخذ منه أربعاً وعشرين ساعة. كان يعمل كشيطان. وكان يحترق في عمله.

اندفع القطار في الغابات المغبرّة، وفي السهوب التي احترقت حتى ترمّدت، وعبر الأنهار- فوق الجسور التي يتصاعد منها الدخان، الجسور التي كانت تنفجر بعد اجتيازها. وكان وولف كارلوفيتش بوجهه الذي غطاه الهباب الأسود وشعره المنبوش يتجول كشيطان مجنح في العربات، مصدراً الأوامر، وموبخاً الممرضين المهملين، ومقدماً النصائح للأطباء المناوبين، ومشجعاً المرضى. كان يدخل إلى غرفة العمليات كالعاصفة، كالبرق- فيتنهد الأطباء في ارتياح، ويبتسم الممرضون، ويكف المرضى عن الصراخ، والممرضة ذات العينين الخضراوين ترفع نحوه عيني غزال تفيضان عاطفة.

لقد لاحظ منذ زمن أنها حامل. الجرس الحقير استدعاه ذات يوم برنين منفر إلى العالم الحقيقي، فأدركت عين البروفيسور الخبيرة في وجه الممرضة علائم أمومة مستقبلية ما زالت غير مرئية للآخرين.

ليبييه أخبر بذلك حتى طالبه غير المتميز تشيرنوف الذي زاره ذات مرة لاحقاً بالقطار، كي يتقدم للامتحان- الحديث مع تشيرنوف لم يمتّعه البروفيسور لم يكن يحب الطلاب الذين لا يرى في أعينهم الاستعداد للانخراط مثله في علم الطب، بنفس حرارة العاطفة ونكران الذات.

ذات يوم استولى الجيش المعادي على القطار، فبارك البروفيسور بيده الأبوية الكادحة لعدة عشرات من الرجال والنساء هربهم من الأسر، وطلب منهم البحث عن القوات الصديقة، وتسليمها تقريراً كتبه بخط يده يرجو فيه تحريرهم. سارت العملية بنجاح، وتم سريعاً انتزاع القطار من يد الأعداء. وسالت من عين وولف كارلوفيتش الشحيحة دمعة حين انطلق القطار المحرر مجدداً فوق السكة للقاء الأخطار والمغامرات.

آنذاك لاحظ أن البيضة صارت تكبر في أثناء هذه الرحلة المجيدة بسرعة لا مثيل لها، ازدادت سماكة جدرانها، وصارت متينة تستطيع، أغلب الظن، أن تصدّ ضربة. شفافيتها اكتسبت ظلاً قوياً مرحاً بما فيه الكفاية، يعدّل قليلاً النظر من الجانبين، ويزيد في سطوع الإضاءة وقوتها. وصارت البيضة تلامس الأرض تقريباً، فغطت وولف كارلوفيتش كله حتى الكعبين، - وصار سماع نداء الجرس من تحتها أمراً صعباً للغاية. كان البروفيسور يفكّر بقلق، في كل ليلة قبل النوم، بذلك الصباح الذي يستيقظ فيه فيجد جدران البيضة قد انغلقت تحت قدميه.

كانت المواقف في الحرب تتقلب في هذه الأثناء، فقد كلّفوا البروفيسور البطل، الذي أظهر أنه يستحق المجد العسكري، بمهمة جديدة هي قيادة أسطول صغير في مياه البحار الشرقية الصفراء العكرة.

- أنا لست أدميرالاً، أنا مجرد بروفيسور في علوم الطب، - اعترض بصوت ذابل، والبرودة تسري في جسده، بسبب توقعه لمهام ضخمة، يخافها ويتمناها في الوقت نفسه. - أنا حتى لا أجيد الرماية.

- لا أحد غيرك يستطيع القيام بهذه المهمة، - أجابه الضابط، زاماً عينيه الرماديتين بحركة تنم على الاحترام، ومشيراً بيد قوية إلى السلم المؤدي إلى ظهر السفينة.

درجات السلم اللامعة التي صقلتها آلاف الأقدام، تقود إلى سطح سفينة ضخمة بيضاء كالثلج، تخترق بياضها سبطانات المدافع الفولاذية. أشار الضابط بقفازه فعزفت أوركسترا من مئة بوق نحاسي، لحناً حماسياً على الضفة: جوقة من ثلاثمئة كلب منتقى، التقطت اللحن فنبحت معاً بصوت مؤثر، ارتعدت له روح وولف كارلوفيتش، فحسم أمره، خطا نحو السلم وصعد عليه إلى أعلى وسط تصفيق الحشد الذي بقي على الضفة تصفيقاً يصم الآذان. وفجأة أدرك، بعد أن صعد إلى السفينة، أنه لا بد من إطلاق النار من مدافع السفينة على هؤلاء الناس الذين صفقوا له بحماسة.

- انتظر، - دمدم مخاطباً الضابط الذي كان يتبعه خطوة خطوة، - إن كل شيء يسير بسرعة كبيرة...

- بسرعة، يا بروفيسور، بسرعة!- قال وهو يبتسم كاشفاً عن أسنان سكرية، ثم أصدر أمراً:- نار!

- دعنا نلتقط أنفاسنا، - يحاول وولف كارلوفيتش كسب الوقت، وهو يتراجع.

- نار! يكرر الضابط أمره.

- انظر، الساعة ترن، - يسعى ليبييه إلى صرف انتباه الضابط العنيد.

- نار! صاح الضابط بصوت مرتفع ارتفاع صوت حمار في سوق يوم الأحد.

- أطلق النار- فتنغلق أخيراً بيضتك الشيطانيّة! ألست أنت من أراد ذلك؟

غير أنَّ السّاعة رنّت بالفعل.

لم يكن ذلك رنين الساعة، فالذي رن كان جرس البروفيسور. لقد ابتهج ليبيبيه لأول مرة للجرس غير المرغوب فيه عادة. جلس القرفصاء، رفع قبة البيضة الثقيلة كصخرة، وأخرج رأسه تاركاً السفينة، والضابط والناس المستمرين بتصفيقهم الحاد في داخل القشرة.

ليته يملك ثانيتين يلتقط فيهما أنفاسه. قلبه يدق كطبل، وبشرته باردة. الدنيا ليل، ونار برتقالية تهسهس، والناس يروحون ويجيئون في المكان.

- لقد بدأنا... نتكاثر. تمتم أحدهم.

- سخّنوا ماء!- يصيح آخر.

- أرى من الأفضل أن يتركنا الرجال- يردد صوت نسوي.

- سنموت من دون النار- يقول صوت ذكوري غليظ. - أتظنين أننا لم نر امرأة تلد!...

الولّادة راقدة، متجهة بوجهها إلى السماء، تئن بصوت خافت. أنينها رديء. وولف كارلوفيتش يفهم أنها منهكة. ستفقد وعيها سريعاً. يجب على المرأة في بداية الولادة أن تصرخ بغضب، من روحها. ليتهم يعطونها بعض النشادر الآن، تحت الأنف.

قبة البيضة الثقيلة، الدافئة، تضغط على ظهره. تهزه قليلاً- تدعوه للعودة إلى الداخل. الآن، يقول البروفيسور في سره، الآن. أريد فقط أن أطلب منهم إعطاءها النشادر ونقلها إلى المشفى فوراً.

تنهض الولّادة بجذعها مستندة إلى كوعيها، وتستدير بوجهها بعينين مفتوحتين على اتساعهما نحو النار، وكأنها تبحث عن شيء ما، ثم ترقد على ظهرها من جديد. نعم، إنها نفس ممرضة القطار المغرمة ذات العينين الخضراوين! ما الذي جاء بها إلى هنا، إلى الغابة، يحيط بها أناس غرباء؟ بل كيف

وصل وولف كارلوفيتش نفسه إلى هنا؟ إنه لأمر غير مفهوم. لقد آن الوقت، آن الوقت للعودة إلى البيت، إلى البيضة...

شرع يرفع بيده حافة القبة المنقذة الثقيلة كي يغطس في الداخل، وفجأة خطرت في باله فكرة: لقد كانت تبحث بعينيها عني! يجمد وولف كارلوفيتش متردداً، ثم يلقي نظرة أخرى على المرأة، ويشعر أنه بدأ يغضب.

الولّادة تئن من جديد- بصوت خافت جداً يرافقه شخير. ساقاها يتحركان على الأرض وكأنهما يبحثان عن سند، أما بطنها فكبير، ينتفض بحدة، متسع قليلاً في أساسه: يبدو أن الجنين يتمدد عرضانياً، وهي، في هذه الحالة، لن تلد ولادة طبيعية.

- فلتذهبوا إلى الشيطان!- يصرخ ليبييه بصوت مرتفع واضح.

- انقلوها إلى المشفى حالاً! ما بالكم؟ ألا تدركون خطورة الوضع؟!

عشر عيون تحملق به مندهشة، وكأنه يقول شيئاً بلغة أجنبية، لا يعرفونها، أو يوقوق بلغة الطير.

- لن نذهب إلى أي مكان، - يلفظ هذه العبارة بحذر، مقطعاً، مقطعاً رجل طويل القامة يرتدي زياً عسكرياً، يذكّر بشدة بالضابط الذي كان مع البروفيسور في البيضة. - المشفى هنا.

- هل هذا مشفى؟! ما هذا الكلام...

ينهض وولف كارلوفيتش وهو يلتفت مستاء. وتظل البيضة يتيمة، معلقة، في الهواء خلفه. لكن البروفيسور في فورة استيائه لا يلحظ ذلك.

ما هذا، أهو حقاً مشفى؟! إنه لم ير من قبل أبداً مشفى بلا سقف، بلا جدران، العاملون فيه يرتدون ثياباً ممزقة، وهم جهلة لا يعرفون حتى كيف يمددون ولّادة في وضع صحيح، وغرفة عمليات مضاءة بلهب النار بدلاً من الضوء الساطع

للمصباح الغازي. ولكن... لقد قضى وقتاً طويلاً في البيضة، من المحتمل أن تكون الأخلاق خارجها قد تغيّرت في خلاله، فصار الناس أكثر خشونة وبدائية. إن سلوك العسكري الطويل القامة لا يدلّ على أنه كان يخدعه أو يمزح، فاللحظة ليست مناسبة لذلك. وإن المكان هو مشفى، مهما بدا الأمر غير معقول عند النظرة الأولى، - إنه، أغلب الظن، مشفى حقيقي...

البيضة طارت إليه من الخلف ولمست ظهره بمودة: أنا هنا، أنا أنتظر. الولّادة تئن بصوت خافت، ويسقط رأسها على جنب، ويسيل من فمها خيط من اللعاب. هذا يشير إلى حالة سيئة جداً. يبعد وولف كارلوفيتش البيضة بحركة حادة من كتفه: بعد قليل، أنا الآن مشغول.

- لماذا تسود الظلمة غرفة العمليات؟- يسأل بصرامة العجوز الملتحي، ذو القميص الممزق، الواقف إلى جانبه.

الناس من حوله صامتون، مستمرون في الحملقة به بعيون مذهولة. هؤلاء ليسوا عاملين صحيين، بل أناس لا يعرف إلا الشيطان ما عملهم...

- لقد طلبت إنارة غرفة العمليات!- يأمر وولف كارلوفيتش بصوت أعلى وأشد قسوة.

ممرضة متقدمة في السن، بتسريحة عالية، ترمي في النار على عجل رزمة من أغصان السرو الصغيرة. يرتفع عمود من الشرر ويصبح الجو أكثر ضوءاً وحرارة. الحمد للـه على وجود واحد فهيم في هذه المجموعة. يرفع البروفيسور أكمام سترته بسرعة ويلتفت إلى تلك الأخت حصراً:

- يديّ.

تنظر إليه مندهشة ثم تقدم له دلو الماء الذي كان يسخن على النار يساعدونها، يرفعون الدلو إلى أعلى، يصبون الماء بعناية على يدي البروفيسور.

ليبييه يفرك كفّاً بكفّ بعصبية. لا صابون، ولا معقم... في الواقع، الشيطان يعلم ما هذا...

- تعقيم.

يصبون على يديه سائلاً عكراً تفوح منه بشدة رائحة الكحول، من زجاجة منتفخة البطن.

- النشادر، - يقول من فوق كتفه، وهو يغسل كفيه جيداً في السائل السخي الرائحة. - ضمادات، الكثير من الضمادات، قطن، ماء دافئ، ماء ساخن، دبابيس، ومشدات. ساقا الولّادة تتجهان حصراً نحو الضوء. ليغادر غرفة العمليات من ليس له شغل.

ماذا أفعل هنا؟- سؤال كئيب يدور في مكان ما من أطراف وعيه. غرفة عمليات، ولّادة، ضمادات- أشياء غبية. ها هي ذي البيضة أتعبها الانتظار- إنها تصفر نافدة الصبر، لكن وولف كارلوفيتش مشغول جداً، ولا يستطيع الإصغاء إلى كل أفكاره. إنه حين يقف أمام طاولة العمليات، لا يسمع إلا جسد المريض، ويديه.

إنه الآن يقف على ركبتيه أمام المرأة الممددة على الأرض. أصابعه تسخن، تمتلئ إحساساً بالفرح والمرونة. يداه تفعلان كل شيء تلقائياً، قبل أن يصدر إليهما أمره الذهني بفعل ذلك. إنهما ترقدان على جبل البطن الحي النابض: اليد اليمنى- على الانتفاخ الصلب لرأس الجنين، واليسرى- على ساقيه المتحركتين باستمرار. الجنين في وضع عرضاني، يا للشيطان! يجب إخراجه قبل أن يتمزق الرحم. من مكان ما في الذاكرة يطفو دعاء نسيه منذ زمن بعيد: «هل يحق لي؟- لا يحق لي أن أتخلى عن المحاولة».

ينتابه فرح مفاجئ، وحماسة شبابية. لكنه يتلقى في الوقت نفسه رشقة ماء صقيعي: أنا لم أمارس العمل الجراحي منذ زمن بعيد. منذ كم سنة يا ترى؟-

خمس؟ عشر سنوات؟ يا إلهي، كم أضعت من وقت...

البيضة التي أهملت طويلاً تحكّ ظهره بإلحاح، والبروفيسور يبعدها بحركة من كتفه. هو لا يهتم بمن يدعوه أياً كان، لكنه يرجوه أن يؤجل دعونه الآن. يزيح كومة التنورات، يباعد، دون مقاومة تذكر، بين ساقي الولّادة الأبيضين بياض الورق. الأمر كما توقع تماماً، الرحم المفتوح ممتلئ. الفتحة الكبيرة الداكنة تبدو في ضوء النار الساطع، كالفم المفتوح، - وهي جاهزة للفظ الجنين. والطفل يتخبط في الداخل، لا يعرف كيف يستدير ويخرج من بطن الأم.

يضع ليبييه يده في الفتحة الدافئة اللزجة- يضع في البداية أصبعين، ثم كفه كلها. المرأة تسترد وعيها، وتئن. يُلبس كفّه جسد الفتحة، كما لو كان يُلبس دمية قفازاً، ويغوص في الرحم. يتلمس شيئاً ليناً، مرناً، ممتلئاً- إنه كيس الماء الذي يحمي الجنين. من حسن الحظ أنه سليم، - هذا يعني أن الجنين ما زال في الماء، وما زال تحريكه ممكناً، الآن يجب عليه...

شعر بشيء يلكزه بقوة وإلحاح عند منبت رقبته بين كتفيه، وعلى طول عموده الفقري. ينظر بطرف عينه عبر كتفه- إنها البيضة المشؤومة. يبعدها بحركة حادة من كتفه: لقد طلبت التأجيل! الآن يجب أن أفتح الكيس... يعقف سبابته ويخدش سطحه بحركة حادة، يغمر يده في الحال سائل دافئ كثيف الملمس. إنه الماء المحيط بالجنين. لقد تم تمزيق الكيس. أصابع ليبييه تلمس جسماً حريرياً لزجاً يتحرك- إنه الطفل. وقد حان وقت إخراجه. حسناً يا عزيزي، أين ساقك الصغيرة؟...

شيء ما يمسك وولف كارلوفيتش من الخلف، بلين وقوة في الوقت نفسه. يلتفت. إنها البيضة رفعت فوق الأرض قبتها، وأدارت وجهها نحو ليبييه، ثم التصقت بظهره كمصاصة ضخمة تنتفض، تريد امتصاصه. هو لا يستطيع اقتلاعها ورميها بعيداً- فيداه مشغولتان... يحرك ظهره وكتفيه حركات عريضة

وكأنه ينفض عن عنقه وحشاً مفترساً يتشبث به. فتصدر البيضة دوياً خافتاً غامضاً، إن فيها شيء يصرخ، يصفر، ينوح. لديّ وقت، يفكر ليبييه. لديّ وقت.

حسناً، أين هي الساق؟ الأصابع تتلمس الكف الصفيرة ذات الأصابع الصغيرة المنتفخة- أربعة في جهة، وواحدة في الجهة الأخرى- إنها اليد. أريد الساق يا صغير! أعطني ساقك!...

ليبييه يحس كيف يزداد شدّ البيضة له في كل ثانية. أطرافها الدافئة اللزجة تحيط بكتفيه وعنقه، وتستقر فوق نقرته. المهم أن ينجح في إخراج الجنين. حين سيتحرر الوليد تماماً من رحم الأم، سيكون بمقدور أية ممرضة. مهما بلغ جهلها، أن تنهي الأمر بسلام- فتقطع حبل السرّة، وتحرص على تنظيف الرحم. المهم هو سحب الطفل.

كف أخرى. الأصابع الخمسة الصغيرة في هذه الكف تتوضع في جهة واحدة. (برافو) يا صغير! شكراً لك. والآن دعنا نعرف أهي الساق العلوية أم السفلية. أنا بحاجة لتلك العلوية تحديداً لكي لا تعلق ذقنك بحافة قناة الرحم حين أسحبك إلى الخارج...

حافة البيضة تتوضع على جبين وولف كارلوفيتش، وتزحف نحو عينيه، تلامس حاجبيه. يزمّ عينيه، ويشعر بكتلة زلقة تسيل على رموشه الملتصقة، فيتابع عمله لمساً. أيتها البيضة الغبية، هل ظننت أن عيني أذكى من يدي؟

أصابع ليبييه تزحف على الساق الصغيرة الطفلية نحو الأعلى، تصل إلى البطن الصغير المنتفخ. هي إذن الساق السفلية. هات الساق الأخرى يا فتى...

سيطرت البيضة كلياً على رأس ليبييه- أحاطت به كأنها جورب سميك. يشعر البروفيسور في فمه وأنفه بسائل لزج دافئ- رائحته عفنة ثقيلة، وبخفقان رتيب

ناجم من نبض جدران البيضة في الأذنين. ويحس بأطرافها تزحف نحو الرقبة، «لقد قررت خنقي بسبب خيانتي لها». هذا ما يفهمه متأخراً.

كانت يده في هذه الأثناء تتلمس الساق الثانية. هذه هي الساق التي نحتاجها، الساق العلوية، سنسحب الجنين بواسطتها. يضع ليبييه إبهامه بمحاذاة ردف الجنين، ويمسك الساق بالأصابع الأربعة الأخرى. لنشدّ الآن- لنسحب. هيا يا صغير، اعمل- اقلب نقرتك إلى أعلى وانزلق خارجاً...

حواف البيضة تصل إلى جوزة حلق البروفيسور، وتتوتر فجأة، تمتلئ قوة، تتحجر، وكأنها تريد أن تفصل رأس ليبييه عن جسده. إنه ما زال يحتاج بضع ثوان...

إحدى ساقي الطفل- تلك التي يمسك بها كف ليبييه بقوة، - صارت خارجاً، الثانية تخرج تلقائياً، وتقع مباشرة في يده الأخرى. يتقلب الجنين، حركة نحو الأسفل، خروج حتى زاويتي الكتفين. خروج اليد الأولى، ثم الثانية... ثم الرأس.

حنجرته تؤلمه، وتظلم الدنيا في عينيه، وفي دماغه تشتعل على التوالي وتنطفئ في الحال، مصابيح صغيرة. ها قد انتهى كل شيء، يقول وولف كارلوفيتش في سره، وهو يضغط بين كفيه الجسد الطفلي الزلق. لقد نجحت.

في تلك اللحظة التي بدأت فيها حواف البيضة تتقلص بسرعة وقوة يفتح الوليد فمه لأول مرة ويصرخ. إنه يصرخ بقوة تُسمع حتى البروفيسور الذي ضعف وشرع يختنق بمحتويات البيضة. الصرخة تعلو، وترن، وتمتلئ قوة- والبيضة تنفجر فجأة على رأس ليبييه، وكأنها بالون مطاطيّ منفوخ. نثرات من القشرة، ونتف من الغشاء الشفاف، وقطع من لب البيضة، تطايرت رذاذاً ثقيلاً في كل الجهات. وولف كارلوفيتش يسعل ويشخر، ويستنشق الهواء استنشاقاً يرافقه صفير. رئتاه تتنفسان مجدداً، وعيناه تريان، وأذناه تسمعان. أخذ كفايته من

الهواء ثم تلفت يبحث بعينيه عن نتف البيضة المنفجرة- فلم يجد شيئاً. كان يحمل بين يديه طفلاً وليداً يصرخ بأعلى ما يستطيع...

مشى وولف كارلوفيتش هابطاً إلى أنغارا. السماء كالحبر، تشوبها في الشرق زرقة خفيفة يخالطها لون وردي شاحب- سيبزغ الفجر قريباً. الموجة الليلية السوداء تهسهس بصوت خافت، تهمس. وفي الرأس فراغ ووضوح يثير الإعجاب، الجسد- خفيف، فتيّ. الأذنان- كأذني الوحش البري تميزان أكثر الأصوات خفوتاً: حفيف الصخور تحت الأقدام، ارتطام ذيل السمكة بالماء في مكان ما في وسط النهر، ضجة أشجار السرو في الغابة، صوت الخفاش الحاد. وإلى الخياشيم تنفذ روائح الماء الكثير، والعشب المبلول، والأرض، والنار.

يجلس ليبييه قرب الماء ويغسل يديه، فيرى ببصره الذي ازداد حدة، أو يخمن تخميناً كيف ينغسل عن الأصابع الدم الداكن الكثيف ويذهب في الماء غير الشفاف. يفرك البروفيسور كفيه بقوة، إلى أن تبيضا بياضاً صقيعياً. يسمع حفيفاً قريباً جداً. إلى جانبه، على الصخور يجلس القومينداننت.

- ماذا هناك؟- يسأل.

- وليد ذكر، رغم كل شيء!- يقول ليبييه وهو يضغط أواخر المقاطع، رافعاً إلى أعلى إصبعه الطويل الحاد.

إيغناتوف يزفر زفيراً متقطعاً، وينكس قبعته فوق وجهه.

- تصوّر، - يقول وولف كارلوفيتش بنشاط وسرعة، وطلاقة... يوسف! تصور فقط، أن ذلك يحدث هنا، في هذا المنأى الشيطاني- يوسف وزليخة، كيف تجدهما، ها؟!

ينظر إلى وجه القومينداننت الذي أخفته القبعة، ثم يسعل مرتبكاً.

- قل لي، - إيغناوف يرفع القبعة، ثم يسعل مرتبكاً. ويضع وجهه في مواجهة النسيم الذي يكاد يكون ساكناً، - لولاك لأصابها... لولاك لما...

على الضفة المقابلة يعوي ذئب بصوت أصم.

- هل تفكر كثيراً بأسلوب: «ماذا سيحدث لو أن؟»- ليبييه يهز كفيه فيتساقط رذاذ غير مرئي من أصابعه في الماء الأسود

- لا.

- أحسنت، - وولف كارلوفيتش ينهض، ينظر إلى يديه اللتين تبدوان بيضاوين في الظلمة. - الموجود هو فقط، الموجود. هو فقط، الموجود.

يمشي عائداً إلى المعسكر. يلتفت وهو على المنحدر:

- نحن هناك، تركنا لك حساء. اذهب وكل.

حين صعد إيغناتوف فوق التلة، لم ير ساهراً يغالب النعاس قرب النار غير الوقاد المناوب- البقية كلهم توزعوا على العرزالات وناموا. ولم يلاحظ رائحة اللحم الذي ما زال ساخناً، المتسربة من الدلو. أخرج من بين مجموعة أشياء المصنف الرمادي، فتحه، وفي زاوية خالية كتب بالفحم، بخط مائل وبحروف كبيرة: يوسف.

Chapter 26

الشتاء الأوّل

استيقظ إيغناتوف بعد ساعة وفي ذهنه فكرة مفادها أنه يجب أن يحفر ملجأ تحت الأرض. الجميع ما زالوا نياماً، ومن العرزالات يتناهى صوت الشخير، وأنين بعضهم الناعس. ومن أشجار الحرج تعلو أصوات الطيور غير الصبورة وهي تشعر باقتراب طلوع الفجر، وعلى الضفة يهسهس الموج في كسل. وحين فهم إيغناتوف أن النوم قد غادره دون عودة، قرر النزول إلى النهر ليغسل وجهه ويديه.

«سيتدبرون أمرهم في العرزالات أسبوعاً، ولن يذوبوا، - يقنع نفسه وهو جالس على الصخور قرب الضفة، يفرك وجهه بعنف ويغسله بمياه أنغارا الصقيعية. - ليبن لهم كوزنيتس حين يأتي، قصراً من طابقين إذا شاء، لكن من دوني!»

وماذا لو اضطررنا «للبقاء» أسبوعين؟ أو أكثر من أسبوعين؟ الطبيعة هنا لا تعترف بالتقويم السنوي، فهي قد تأتيك بالشتاء في شهر أيلول.

يتأمل سطح أنغارا المصقول كالمرآة، وهو يتنفس بشكل يكاد لا يلحظ ضباب الصباح. السماء الزرقاء الشفافة تضيء في الأفق الشرقي مبشرة بطلوع الشمس. سيكون اليوم حاراً، شديد القيظ. الهدوء يسود المكان إلى حد يجعل صوت سقوط نقاط الماء عن وجه إيغناتوف مسموعاً. يخفض بصره ناظراً إلى الماء، فتطالعه سحنة عابسة، غير حليقة، بعينين تحيط بهما دائرتان سوداوان. ستنمو لحيته سريعاً فيغدو كالمهجرين، يضرب بكفه صورته في الماء، فتنقسم إلى قطع صغيرة تعوم في دوائر.

يأخذ إيغناتوف قبعته التي وضعها على إحدى الصخور، ويعتمرها. يجب أن يبدؤوا حفر الملجأ اليوم. من غير المعقول أن يظلوا أسبوعاً بلا عمل.

يتفحص الموقع بنظرة ناقدة، وكأنه يراه لأول مرة. في ذلك المكان الذي نزل فيه المهجرون، يقوم نهر أنغارا بالتفافة انسيابية، وتشكل ضفته التي تبدو وكأنها مندفعة إلى الأمام، رأساً عريضاً من البر على حافة جرف. الأرض عند الماء طينية، مرصوصة، مخلوطة بكثافة بالصخور والحصى. وهي تنبسط في البداية، واطئة، ثم ترتفع لتصبح تلاً فسيحاً، هو الذي بني عليه المعسكر الحالي. إنه مكان جيد، واختيار صحيح، ليس ملاصقاً للنهر (برودة النهر لا تصل إلى العرزالات)، لكنه مع ذلك، قريب من أنغارا، ولا يحتاج المرء إلى الذهاب بعيداً طلباً للماء. ليس فيه ما يزعج سوى المنحدر الرملي الحاد من التل إلى الضفة. يجب أن نبني على المنحدر درجاً حجرياً، يقرر إيغناتوف في سره.

التل نفسه واسع جداً، يمكن أن تبنى عليه قرية كاملة، وجهها نحو النهر، وظهرها محاط بغابة سرو كأنها الجدار. كانت ذؤابات الأشجار ترتفع عالياً، فتتسلق الغابة الرابية المرتفعة. وفي مكان ما، لا يرى من الضفة، يبرز النتوء الذي كان إيغناتوف يقف عليه البارحة وهو يتفحص المنطقة بنظره. فوق التلة التي تغطيها أعشاب وشجيرات ترتفع حتى الخصر، تنتشر عدة أشجار سرو كثيرة الأغصان، وكأنها كانت تحاول الهرب من الغابة إلى النهر، لكنها جمدت هناك. وتحت ثلاث منها توضعت العرزالات تلالاً كبيرة خضراء. اثنان منها فقدا التوازن ومالا على جنبيهما فبدأ سقفاهما المتداعيان بالتساقط، عرزال واحد ظل متوازناً صامداً (هو ذلك الذي بناه ذو اليد الواحدة، يقول إيغناتوف في سره).

قرب النار تجمعت الأدوات والأشياء التي تركها كوزنيتس في كومة غير منتظمة. يبدو أن كوزنيتس ترك لهم كل ما كان في سفينة الجر- بقايا مؤونته، وغير ذلك من زيادات تركها الآخرون: علبة ثقاب كبيرة استهلك الكثير من عيدانها (تجب حمايتهم، - بقاؤهم من دون نار- كارثة)، وكيس ونصف الكيس من الملح (يمكن تمليح حيوانات التايغا كلها، وسمك أنغارا أيضاً)، وربطة من الشباك المتداخلة،

مع كلّابات متنوعة، وحبال، وفوّاشات، وأسلاك شائكة لم يعرف إيغناتوف لماذا تستخدم، ومجموعة وفيرة من المناشير الرقيقة ذات القبضة الواحدة (ليتهم يرغمونك، أنت نفسك يا كوزنيتس، على تقطيع الحطب بهذه المناشير!)، وزوج من سكاكين الصيادين المتينة، وقدور مسودّة بهباب الفحم، وعدد من الدلاء، وبكرة من الحبال المجدولة، وزجاجة سماغون نصف فارغة، وكيس ثقيل من طلقات المسدس. وهذا كل شيء. طيّب، شكراً على هذا العطاء، يقول إيغناتوف في سره وينكس قبعته حتى حاجبيه.

يجب أن يكون الملجأ كبيراً، واسعاً- مكاناً واحداً يتسع للجميع، ليكن مزدحماً، فالازدحام يبعث الدفء، كما أن رؤية كل فرد للآخرين إلى جانبه، تزيد في اطمئنانه. يجب تعيين أفديي رئيساً لورشة البناء، وغوريلوف- مسؤولاً عن حفظ النظام، وتشغيل القسم الأكبر من الناس في البناء، وإرسال القسم الأصغر منهم مرة كل يوم. إلى الغابة لجلب الحطب. ويجب تعيين وقّاد دائم، فلا يجوز أن تنطفئ النار بأي حال من الأحوال. على الجميع أن يعملوا- الرجال، والنساء، بغض النظر عن العمر. الراحة ممنوعة إلا في الفرص، والذهاب كيفياً إلى الغابة ممنوع. الانتقادات والشكاوى وغير ذلك من الأحاديث المؤذية يجب أن تتوقف في الحال، وكل مخالفة للنظام يجب أن تعاقب بالحرمان من الطعام. إيغناتوف نفسه سيذهب في الصباح للصيد، يصطاد ما يستطيع من طيور الحجل، ويتفحص، في الوقت نفسه، التايغا بانتباه أكبر. سيأخذ معه كيس الطلقات- فقد قرر أن يخبئه في الغابة كي لا تخطر في بال أحد من المهجّرين أفكار رديئة.

يخرج المسدس من جرابه، ويدق بقبضته على الدلو الموجود قرب النار: استيقاظ- يا أبناء الكلب! هيا إلى العمل! صوت المعدن المرتفع يرن كالناقوس فوق الفسحة النائمة. تصمت الطيور في الغابة. وترتعش العرزالات، تعج بالناس

كبيوت النمل، - يخرج منها المهجرون، يتدافعون، يتلفتون مستوحشين، خائفين.

هو ذا إيغناتوف! لا مجال للدلال عنده.

أظهر أفديي فهماً ومهارة مدهشين في عمله، فبنى الملجأ وكأنه طول حياته يمارس هذا العمل. أخذ كل الرجال إلى الغابة لجلب جذوع الأشجار لتقطيعها. وأبقى النساء عنده للقيام بالأعمال المتفرقة. (وقد عين زليخة، من دون نقاش، وقّادة وطباخة لا بديل لها- وذلك حتى يشتد عود الطفل الوليد). ثم حدّد أفديي المكان المناسب ووضع في زواياه أربعة أوتاد عالية- بعد أن قاس المسافة بدقة بوساطة حبل، وهكذا حصل على مستطيل رسم أضلاعه بعصاة وقال: هذا هو الأساس.

قصّوا الأعشاب بعناية، ووضعوها جانباً (قد تنفع). وبدؤوا الحفر- حفروا بالعصي، والحجارة، وبالأيدي، كلّ حفر بما تيسر له. وحين رأى أفديي أن الأمر لا يسير بشكل جيد، اقترح أن ينزعوا أنصال المناشير ذات القصبة الواحدة، ويستخدموها في حفر الأرض، وقد أدى ذلك إلى زيادة السرعة في العمل: البعض كان يحفر وينبش، والبعض الآخر كان يملأ التراب المبلول بالدلاء ويرميه إلى الخارج. وقد استطاعوا أن يحفروا في يومين حفرة عمقها يخفي قامة أفديي المعتدلة كلها، فلا تظهر فوق الأرض حتى صلعته اللامعة.

تسلح أفديي بحجر انتقاه بنفسه وربطه بحبل وراح يحف به جدران الحفرة ويسويها، وكان يسوي بعض الأماكن براحة يده. «العقها بلسانك أيضاً»- قال إيغناتوف في سره غاضباً، وهو يطالب الجميع بالإسراع في العمل، يستعجلهم، ويطلق الشتائم- كان يخشى المطر، الذي يمكن أن يوقف العمل ويغرق الحفرة. لكن الأيام ما زالت حتى الآن جافة، دافئة، والطقس لا يعيق العمل.

كان الرجال يلعنون وحيد اليد، لكنهم كانوا، مع ذلك، يتدبرون أمورهم فيحضّرون جذوع الأشجار وينقلونها إلى المعسكر. الأقوى بينهم كانوا يقطعون الأشجار، والأضعف كانوا ينظفون الجذوع من الأغصان، وينزعون عنها لحاءها. بعد نحو يومين ظهرت في أيديهم جميعاً العقد، والبقع الحمراء، والخدوش، وصاروا يشكون من آلام لا تطاق في الظهر والكتفين.

انزلوا الجذوع إلى الحفرة وشرعوا ببناء الجدران: وضعوا الجذوع الغليظة بشكل أفقي ووضعوا فوقها حتى السقف الأغصان الطويلة-«ملابسها»، ولكي لا يتسرب التراب من شقوق «الملابس» دعّموها من الخارج بأغصان السرو.

- الحمّالات، نقاط الارتكاز، السقالات، السنّادات... - يتمتم إيكونيكوف تحت أنفه، وهو يطرق بقوة جذعاً بحجر ثقيل محاولاً تثبيته في الأرض. - عجباً! كم اغتنى معجمي اللغوي!

- المهم- هو الخبرة، - يقول قسطنطين أرنولدوفيتش الواقف إلى جانبه لاهثاً، وهو يضع أغصان سرو شائكة في الفراغ ما بين «الملابس» والجدار الترابي. - المهم كم اغتنت تجربتك العملية يا زميل! فرسم الغيوم والمساحات الخضراء تزييناً لقصر من قصور الثقافة- أمر، وبناء بيت حقيقي- أمر آخر مختلف تماماً ألا توافقني الرأي؟

- بيت؟ إيكونيكوف ينظر إلى دودة ثخينة برز نصفها من الأرض. - ما هذا الذي تقوله؟!

- ولكنك تنوي العيش هنا، - يقول قسطنطين أرنولدوفيتش وهو يلهث قليلاً، ويمسح بيده العرق عن جبينه، ويرفع بصره مستفسراً، وفي لحيته الضيقة التي نمت في خلال نصف عام، تلتمع أوراق السرو الإبرية الخضراء. - أم ماذا؟

غرس نقاط ارتكاز لدعم الجسر الحامل للسقف كان عملاً صعباً، استغرق وقتاً طويلاً لم يكن متوقعاً- التربة صارت متراصة، صخرية، واستعصى الوصول بالحفر التي ستغرس فيها الأعمدة، إلى العمق المطلوب. وطالب إيغناتوف الذي أخافته السحب الزاحفة من الشمال، أن يواصلوا العمل، ويغرسوا الأعمدة في الحفر غير العميقة التي حفروها، غير أن أفديي أظهر هنا صلابة غير متوقعة. «أظن أني توليت حفر ملجأ لا حفر قبر، - قال وهو يمسد بيده الوحيدة لحيته الصغيرة القليلة الشعر، وينظر من تحت حاجبيه إلى القومينداننت. - إذا أردت أن تدفننا أيها القوميسار، فهاك الحفرة- إنها جاهزة ولا داعي إلى مواصلة الكدح هنا». تراجع إيغناتوف، وتم بصعوبة حفر الجور إلى العمق المطلوب، فوضعت الأعتدة وثبتت، ودعمت بالحجارة.

وضعوا فوق الأعمدة الجسر الحامل للسقف، وهو جذع طويل ثبتوه بالحبال، وألبسوه ألواحاً من الخشب مدّوها عرضانياً، ودعموا نقاط التقائها بجدران الحفرة بالحجارة تمتيناً لها، ثم قرروا أن يفرشوا أرضية السقف بأغصان السرو المأخوذة من العرزالات التي أصبحت نصف منهارة. فرشوا أغصان السرو فوق الألواح الخشبية وصاروا يرشون فوقها التراب ويدهنونها بالطين (أضاع أفديي نصف يوم في البحث حتى وجد الطين المناسب- الأسود السميك، اللزج الملمس).

بعث ظهور الطين في نفوس بعض البناة نشاطاً غير عادي، فإيكونيكوف الذي كان من قبل محبطاً، صار، فجأة، مرحاً ومنفعلاً، تلتمع عيناه، وهو يسند رأسه بين الفينة والأخرى، إلى كتف قسطنطين أرنولدوفيتش الذي سرت إليه عدوى مرحه، ويريه شيئاً ما في يده. فينفجر الاثنان في نوبات ضحك صاخب منفلت. وقد حاول غوريلوف لكنه أخفق في اكتشاف سبب هذا المرح، ففي كل مرة كان يقترب فيها منهما، لم يكن يرى في يد إيكونيكوف سوى قطع صغيرة من الطين.

فرشوا سطح الملجأ بطبقتين من الأعشاب البرية الطويلة الساق، إحداهما جذورها إلى الأعلى، والثانية جذورها إلى أسفل. والآن صار الناظر إلى الملجأ من بعيد يراه على شكل رابية طويلة مثلثية الشكل.

في هذه الليلة بات الجميع أول مرة في الملجأ نصف الجاهز- العرزالات لم تعد موجودة، نومهم كان رديئاً وبردوا كثيراً، إما بسبب رطوبة أرض الملجأ المنخفضة جداً وغير المغطاة بشيء، وإما لأن الخريف كان يزحف بعناد مقترباً يوماً بعد يوم. في الصباح انتاب السعال كثيرين. الجورجية ذات الاسم الارستقراطي «ليلى» أصابتها حمى. فتقرر بناء الموقد، وعدم الانتظار حتى الانتهاء من بناء الملجأ. أرسلوا النساء إلى الضفة لتحضير الأحجار الكبيرة المناسبة لذلك. أما وولف كارلوفيتش فطلب الإذن من إيغناتوف للذهاب إلى الغابة وجمع الأعشاب الدوائية. نظر إيغناتوف زاماً عينيه إلى البروفيسور الشاحب الوجه، ذي الزي السخيف الممزق في بعض الأماكن ومنحه الإذن.

نما الموقد الحجري غير المتناسق في وسط الملجأ إناء سحرياً، مصباح علاء الدين الذي يلبي رغبة واحدة هي الأهم- منح الدفء. ودعمت الجماعة في الوقت نفسه، المنحدر المؤدي إلى النهر، بصخور كبيرة مستوية فصار الذهاب لإحضار الماء مريحاً. «أفاريزه من ذهب، ودرجاته من مرمر...» - صار غوريلوف يغني في كل مرة ينزل فيها إلى أنغارا، واضعاً حتماً يديه في جيبيه، شامخاً بذقنه، مائلاً قليلاً برأسه.

بعد يومين آخرين تطلب الأمر إغلاق جداري الملجأ المطلين على الجهتين الأمامية والخلفية، وفرش الأرضية، وتجهيز أماكن النوم. وما إن أنهوا حفر أقنية لتصريف المياه بمحاذاة أضلاع سقف الملجأ، حتى انهمر المطر.

عموماً، جلس المهجّرون الذين ألف بعضهم بعضاً في الملجأ المظلم الذي ما زال رطباً («بعد يومين سيسخن من الداخل ويجف»- بهذا وعدهم أفديي). لم

يشعروا بالدفء، ولكنهم لم يعانوا من البرد الشديد أيضاً. لم يتسع الوقت لهم اليوم ليأكلوا، لو مرة واحدة، ولكن لحم الحجل كان يغلي في الدلو فوق الموقد. وجوههم اسمرّت في الشمس، ولوحتها الريح، وغطتها الحبوب التي سببها عقص البعوض. بعضهم خارت قواه فنام، واضعاً رأسه على كتف جاره، وبعضهم ثبّت نظره على الدلو وما فيه من حساء. الموقد كان يهدر، وتتصاعد قوية مع الدخان رائحة اللحم نصف النيئ، والأعشاب التي جمعها البروفيسور. ويتكوم كل العفش البسيط- الأدوات، والدلاء، والأواني، والصرر، - في الزاوية. وتسمع عبر طاقات السمع المتروكة في جدران واجهتي الملجأ، الطقطقة العالية لحبات المطر الكبيرة.

- ما أسعدنا بكوننا تحت سقف، - قالت إيزابيلا بصوت مرتفع. - وبالكبريت، والملح، وغير ذلك... شكراً لك يا أفديي. أنت، ببساطة، أنقذتنا.

رقد إيغناتوف في مكانه الذي جهزوه له بعيداً قليلاً عن البقية، وراح يفكّر عابساً بأنهم لم يحضّروا القدر الكافي من الحطب. الحطب الموجود لا يكفي إلا لليل. وسيضطرون للذهاب إلى الغابة تحت المطر، إذا ظل الطقس سيئاً حتى الصباح.

انتهى اليوم السابع لوجودهم على ضفة النهر.

ولد.

هذه أول مرة في حياتها تنجب فيها ولداً- صغيراً، مصطبغاً كله بالحمرة، وكل ما فيه يدل على أنه ولد قبل أن يكتمل حمله. حين ناولها البروفيسور المولود الجديد المبلول، الزلق، الذي ما يزال دمها يغطيه، وضعته تحت قميصها وضغطته إلى صدرها، ثم ألصقت وجهها بيافوخه اللين كالخبز- فأحست بنبضات قلبه السريعة على شفتيها. المكان اللين في الجمجمة عند الأطفال الرضع يكون في

العادة صغيراً بحجم قطعة نقدية معدنية. أما عند هذا الجنين فكان ضخماً ودافئاً، ينبض بقوة وسرعة.

لقد أدركت في الحال، قبل أن تميّز وجه الطفل في الظلمة وأحست أنه جميل جداً، رموشه متلاصقة تحيط بها كتل آخذة في الجفاف من إفرازات الخلايا، وعيناه نصف عمياوين، وخيشوماه منتفخان نحو الأعلى، وله غمازتان دائمتان على جانبي فمه المفتوح، وأذناه مدعوكتان ورقيقتان، وأصابع متلاصقة من دون أظافر- وكل ذلك جميل إلى حد يثير الرجفة في البطن، إلى حد يبعث القشعريرة.

تأملته في الفجر بشكل أفضل. له رأس كبير، وقبضته ذكورية، وساقاه صغيرتان، معوجتان كساقي الضفدع، أصابع يديه أثخن من أصابع الضفدع بقليل. والبطن مستدير كبيضة. والعظام الصغيرة الرفيعة تبرز في بعض الأماكن بقوة يبدو معها أنها يمكن أن تنكسر عند لمسها لمسة ينقصها الحذر. والبشرة حمراء ساطعة تتخللها عروق سماوية اللون، وزرقاء مرمرية، رقيقة، لطيفة الملمس كورقة في تاج وردة، يغطيها في بعض الأماكن زغب طويل رفيع غامق اللون يكاد لا يلحظ. إنه الطفل الأجمل بين الذين ولدتهم، وهو، إلى جانب ذلك، ما يزال حياً.

لقد قررت زليخة أن تحمله هكذا، على صدرها- تحت القميص، ملاصقاً لجسدها العاري. هي في الليلة الأولى لم تنم. كانت تارة تضغطه بكل قوتها، إلى جسدها- وتارة تخاف أن تضغطه بقوة زائدة، فترخي يديها. وكانت أحياناً تفتح ياقة القميص كي تمكّن ابنها من تنشق الهواء الطازج- وأحياناً تغلقها إذا بدا لها الهواء بارداً. أحست في الصباح بأنها نضرة وقوية، وكأن الولادة وساعات السهاد قبل الفجر لم تكن، - وأن باستطاعتها أن تظل عاماً جالسة هكذا، تدفئ الجسد الصغير بدفئها، وتسمع تنفسه الضعيف الذي يكاد لا يسمع. في الصباح تكيفت مع الوضع، فوضعت رأس المولود بين الثديين المملوئين حليباً، ومددت جسده

الصغير على بطنها وغطته بقطعة قماش. وهكذا صار باستطاعتها أن تتحرك، وأن تمارس أعمالها- فالولد معها دائماً. كانت تحني رأسها كثيراً نحو الأزرار المفكوكة على الصدر، وتنظر عبر قبة القميص المفتوحة، وتصغي. الطفل يتنفس.

كانت تطعم الطفل مرات كثيرة وبكميات قليلة. الحليب في صدرها كثير والحمد للـه، والثديان ممتلئان، يكاد ينفر منهما. كان الثديان يمتلئان أحياناً فيتحجرا، ويعاني كتفاها من ثقلهما- حينذاك لم تكن تنتظر حتى يستيقظ الطفل، بل كانت تدس حلمة الثدي الممتلئ البيضاء في فمه، فيحرك الصغير شفتيه من دون أن يفتح عينيه الناعستين، ويشرع في الرضاعة. حين يجوع كان يرضع بسرعة ولهفة، وهو يئن- أما الثدي فيخف امتلاؤه، وينكمش، ويضعف شاكراً، ويرتاح.

حين كان الطفل يبول، وتشعر زليخة بالسائل الدافئ على بطنها، كانت تفرح: هذا الإنسان عاش، وجسده الصغير قام بعمله. وتشعر أنها مستعدة لتقبيل حتى هذه البقعة التي على ثوبها، والنتوء الوردي البارز -العضو الذكري- بين ساقي ابنها الصغيرين.

كانت، كما في الماضي، ترغب في الأكل كثيراً. وقد أهدتهم الغابة الكثير من اللحم الدسم. حين رأت فوق التلة قامة إيغناتوف المديدة وفي يده ربطة ملونة من الطيور التي اصطادها، تباطأت كي لا تصرخ أو تركض وتقبل يديه: الطعام وصل! الطعام! وراحت تنتف ريش الطيور منفعلة، تمزقها، تكبح سيلان اللعاب في فمها: ترمي قطع الطير في الماء الغالي وتملحها، ثم تحرك النار وتخاطبها: اشتعلي بحرارة أكبر، بقوة أكبر، بسرعة أكبر.

أراد غوريلوف أن يتولى هنا أيضاً توزيع الطعام، لكن إيغناتوف ألقى عليه نظرة عابسة وأشار إلى زليخة: لتقم هي بالتوزيع. صبت الحساء الجاهز من الدلو الكبير في طاسات أصغر جحماً، وجلس المهجّرون في عدة مجموعات، أخذوا قطع لحم

الطيور الساخنة، الحارقة، بأيديهم، مزقوها بأسنانهم، وتلطخت وجوههم الباسمة بالدهن والهباب. أنهوا التعامل مع اللحم، فانتقلوا إلى شرب الحساء من الطاسات بملاعق صنعوها من الخشب. تركوا لزليخة حصتين، فلم تعترض بل أكلتهما بسرعة، ممتنة- شعرت بأن اللحمة حين سقطت في جوفها ملأت على الفور دمها بالقوة، وصدرها بالحليب. هي لم تكن تحب أحشاء الطير، وجلد الحجل المكسو من الداخل بطبقة دهنية سميكة، لكنها أكلت ذلك كله لكي يكون حليبها غنياً بالدهن، يشبع الرضيع.

لقد كفّت عن التفكير بكل شيء لا صلة له بابنها، بمرتضى الذي بقي في مكان ما، بعيد في الحياة الماضية (ناسية أن الوليد هو ثمرة ما بذره)، وأوبيريخا ونبوءاتها المخيفة، وقبور البنات. هي لم تعد تفكر بالمكان الذي رمتها في الأقدار، ولا بما سيحدث غداً. المهم بالنسبة إليها، هو فقط اليوم الحاضر، الدقيقة الحالية فقط- أنفاس الطفل وهمهمته الخافتة على صدرها، وثقل جسده الصغير ودفئه على بطنها، وكفّت حتى عن الخوف من أنها قد تستيقظ صباح يوم فلا تسمع عبر قبة قميصها أنفاس الطفل الضعيفة. كانت تعرف أنه إذا انقطعت حياة الطفل، فإن حياتها ستنتهي في اللحظة ذاتها. هذه المعرفة كانت تشد أزرها، وتملؤها قوة، وشجاعة لم تكن تعرفها.

صارت صلواتها نادرة وسريعة، كما لو كانت تؤديها في الأوقات المتاحة بين أعمالها. إنها تخاف أن تعترف بأن فكرة آثمة، فظيعة سكنت رأسها: ماذا لو أن العزيز القدير انشغل فجأة بقضايا أخرى جعلته ينساهم- ينسى ثلاثين رأساً من الناس الممزقي الثياب في أعماق المجاهل السيبيرية؟ ماذا لو أشاح ببصره الصارم فترة قصيرة عن المهجّرين- فأضاعهم في فضاءات التايغا اللانهائية؟ أو أنهم، وهذا ممكن أيضاً، أبحروا إلى أماكن بعيدة، عند حافة العالم، لا تصل إليها نظرة العزيز الجبار لعدم حاجته إليها. إن هذه الفكرة منحتها أملاً غريباً مجنوناً:

أليس من المحتمل أن يغفل عنهم الرب الذي أخذ منها بناتها الأربع وينوي أن يأخذ منها مولودها الخامس؟ أليس من المحتمل أن يغفل وينسى هذه الحفنة البائسة من الكائنات المعذبة المرهقة؟ إنها لا تستطيع أن تترك الصلاة كلياً (تخاف!) لكنها كانت تحرص على تلاوة الصلاة بصوت خافت، همساً، وأحياناً تكتفي بالتمتمة بينها وبين نفسها- علّها بذلك لا تلفت انتباه صاحب القدرة العليّة.

المدهش أنها كانت سعيدة في هذه الأيام- سعادة طيّارة، غير متماسكة وغامضة. جسدها يبرد في الليل، وفي النهار تعاني من الحر، وتعاني من عقص البعوض، ومطالبة المعدة بالطعام، أما روحها فكانت تغني، وقلبها يدق مردداً اسماً واحداً: يوسف.

لم يعد كوزنيتس- لا بعد أسبوع من نزول المهجّرين إلى الضفة، ولا بعد أسبوعين.

كان إيغناتوف يذهب إلى النتوء الصخري كل صباح، يشتم نفسه، غير أنه لم يكن قادراً على فعل شيء- والوقت يمضي. يتشبث بيديه بالأماكن الخشنة البارزة في الكتلة الحجرية التي غطتها الطحالب الخضراء، ويتسلقها صاعداً إلى القمة- يفعل ذلك بسرعة في الأيام الجافة الصاحية، وفي الأيام الماطرة العابسة يتصرف بحذر، فكثيراً ما كانت قدمه تنزلق فوق الحجارة المبلولة. كان يقف في الذروة مثبتاً بصره على حافة السماء، حيث يتحد النهر والسماء ويسيل كل منهما في الآخر. ينظر وينتظر. ثم يستدير بحدة ويذهب إلى الصيد.

لم يكن لما يجري تفسير. ترى، هل واجه القارب كارثة وغرق في مياه أنغارا لاحقاً بـ«كلارا»؟ أم أن كوزنيتس أصيب بالتيفوس، ويرقد الآن على سرير في مشفى يتصبب عرقاً وهو غائب عن الوعي؟ أم أن كوزنيتس (هذه الفرضية تعجب

إيفيغناتوف أكثر من غيرها)، عدوّ للسلطة السوفييتية، اكتشف، فوضعوه تحت الحراسة ثم سجنوه؟ أو أنهم قتلوه في نهاية المطاف؟

كان يبدو له أحياناً، وهو فوق القمة، أنه يميز في الأفق الأزرق- السماوي، نقطة هي القارب. وأحياناً كان في الأماسي، وهو راقد في مقصورته المستقلة في الملجأ، يقفز من سريره فجأة، ويركض إلى الضفة- لأنّه سمع هدير محرك، وأصوات بعض الناس. لقد كان في دقائق كهذه مستعداً لأن يسامح كوزنيتس على أيام الانتظار الطويلة، وجوع وبرد الأسابيع الماضية- سيعانقه، ويربت على كتفه: «لقد انتظرناك طويلاً يا أخي». لكن لحظة الانفعال تمرّ- والنقطة التي في الأفق تتبدد وتذوب في الزرقة السماوية أو في الفضاء المائي الواسع: هدير المحرك يتحول على سطح الماء إلى وقوقة بطّ، والأصوات- إلى هسهسة أمواج.

لا بد أن المهجّرين رأوا قلقه وخمّنوا أسبابه، لكنهم لم يسألوه عن شيء. النذل غوريلوف هو فقط من اهتم ذات يوم، فزمّ جفونه وهو ينظر إلى إيغناتوف نظرة تآمرية بعينيه الكالميكيتين: «أيها المواطن الرئيس، هل تظن أن القارب سينقل لدعمنا نساء؟ فليس لدينا في المعسكر غير العجائز، وليس هناك من يمكن للرجل أن يقضي معها نزهة في الغابة». لم يجب إيغناتوف على هذا الكلام الذي يرفع الكلفة- واكتفى بإلقاء نظرة باردة عليه. «لديكم، - قال في سره مصححاً، - لديكم أنتم ليس سوى العجائز». لقد شبع هذا الحيوان لحماً، وعليك الآن أن تقدم له النساء، وكأن كل ما عدا ذلك- موجود، ومرض، ومحبوب. هو سمع ذات يوم أحدهم يقول في الغابة: «لقد حان وقت العودة إلى البيت». لفت القول انتباهه. أحقاً أن هناك من يعدّ هذا المكان الضيق، الخانق، المعوج، الشبيه بجحر الخلد المنتفخ- بيتاً؟ لقد اعتادوه بسرعة، واستسلموا. أما هو فلم يستطع، ومع كل يوم من أيام الانتظار كان كرهه لكوزنيتس يزداد قوة. غضبه راح يتصاعد،

أصم، عكراً، فشرع يطلق نار مسدسه على القبرات وطيور الحجل شبه الصماء: هاكم، موتوا يا سفلة!

سرعان ما عرفت طيور التايغا أنه وحش، وعرفت أن صوت الطلقات يعني الموت القريب، فصارت تحذره، صارت ما أن تسمع خطواته حتى تفرد أجنحتها السوداء، وتتقافز ثم تطير. غدا الحصول على الطعام أمراً أكثر صعوبة، فقد انتهى زمن الصيد السهل، وحل زمن الصيد الحقيقي.

إيغناتوف لم يمارس الصيد في حياته. «لقد قمت بحملة صيد على جماعة دينيكين، - قال يمازح نفسه عابساً وهو يجوب الحرج بحثاً عن وحش يصلح لطبخه طعاماً، - وعلى البيلوتشيخيين، وعلى البصمتشيين، أما على الحيوانات البرية فلم أقم بحملة صيد أبداً». إنه الآن يهيم في الغابة النهارات كلها، ماداً يده إلى الأمام بالمسدس الملقّم، باحثاً بعينيه عن هدف يؤكل. كانت تلتمع بين الشجيرات الظهور المقلمة لقوارض العشب، وتلوح السناجب المتوترة الشهباء بين الأغصان، وتتواثب بين قدميه فئران من شتى الأنواع، وطيور لا يعرفها من قبل، رمادية وصفراء ذات أعراف صغيرة تطير صاعدة- هابطة على الأشجار. هذه الكائنات الضئيلة لا تستحق إضاعة الطلقات يقول في سره. إنه يريد صيداً أضخم وأدسم- غزالاً، أو سرباً من الحجل. لكن خطوته كانت ثقيلة جداً ووقعها عالي الصوت- ولذا فهو لم يصادف حيوانات كبيرة الحجم في طريقه. أما احتمال أن يلتقي بوحش أقوى منه- دب أو ثور بري، - فكان إيغناتوف يفكر فيه وبرد خفيف يسري في قلبه، فهو لم يكن يعرف هل تخرق طلقة مسدسه الصغيرة جلد الوحش السميك أم لا. وفي المساء، حين كانت عيناه تزوغان بسبب التوتر المستمر، وتشكو ساقاه وتئنان، كان في العادة، بعد عدد من الطلقات الطائشة، ينجح في اصطياد حجل أو سنجابين. وكان الحظ يحالفه أحياناً: فقد خرج ذات يوم إلى شاطئ بحيرة في الغابة مخفية في ثنايا التلال، وهناك اصطاد عدداً من

النموس الصغيرة (لحمها كان طرياً ودسماً إلى درجة مدهشة)، وفي مرة ثانية اصطاد بطتين كانتا تطيران فوق التايغا. غير أن قائمة طعام المهجّرين كانت تزداد فقراً في كل يوم.

في مساء آخر يوم من أيام صيف عام ألف وتسعمئة وثلاثين (قسطنطين أرنولدوفيتش ابتكر (روزنامة) على شكل قطعة خشب علقها على الجدار، يرسم عليها في كل يوم فرضة صغيرة تكون قصيرة في الأيام العادية، وأكثر طولاً في أيام العطل، وفي نهاية الشهر تكون الفرضة أطول من الفرض الأخرى كلها، وهكذا عرف المهجّرون أن اليوم هو آخر أيام شهر آب)، بعد عشاء فقير من لحم ومرق جرذ أعرج راحوا يناقشون في الملجأ مسألة الطعام.

كان إيغناتوف راقداً على سريره وقد تهدلت رموشه تعباً، وراحت تتكسر وتتناثر أمام عينيه جلود السناجب النارية، وأوراق السرو الإبرية الراعشة الصغيرة، وتعرجات أغصان أشجار الصنوبر البري في بقع ضوء الشمس، وهو يصغي نصف نائم إلى الحديث الذي كان المهجّرين يتبادلونه بصوت خافت.

لم يكن بينهم صيادون (حتى لو كانوا، قال إيغناتوف في سره وهو يكتم ضحكة ساخرة، لما حصلوا على سلاح ناري)، لكن كان بينهم صياد سمك- ضعيف البنية كمراهق، مدعوك كله، ممحي الملامح كبروة صابون، أحمر اللحية، فمه بلا أسنان، واسمه لوقا. وضعوا أمامه الأدوات التي تركها كوزنيتس، وسألوه إن كان يستطيع اصطياد السمك غداً. لوقا لا يتكلم الروسية بشكل جيد، لكنه فهم فوراً ما يطلبون منه. «يجب أن أرى النهر، - أجاب بصوت كصوت تشقق الحطب في النار، من دون أن ينظر إلى كومة السنانير والأدوات على الأرض، - أن أسمعه، أتحدث إليه، ثم أنتظر. إن أعطاني- سيكون سمك، وإن لم يعطني- لن يكون سمك».

أرسلوا الدبلوماسي قسطنطين أرنولدوفيتش إلى مقصورة إيغناتوف ليطلب من القومينداانت إعفاء لوقا من العمل مع المجموعة كي يتمكن من صيد السمك

(أوامر إيغناتوف تقضي بأن يعمل المهجّرون من الصباح حتى المساء بتحضير الحطب، وتمنعهم من التخلف أو الغياب لأي سبب).

- ليكن، - قال إيغناتوف وهو مغمض العينين، ومن دون أن ينتظر ريثما ينتقي قسطنطين أرنولدوفيتش الكلمات، ويعبّر عن طلب الجماعة، - ليذهب، أمنحه يومين لفعل ذلك. أما إذا لم يحضر السمك، فسأجعله يقطّع الحطب في الليالي، حتى يعوّض فترة غيابه.

جهّز لوقا في اليوم التالي السنارات وحضّر الطعوم. ذهب إلى الضفة وتحدث مع أنغارا. وفي المساء أحضر إلى المعسكر سطلاً تتنطط فيه بين أوراق الشجر الخضراء المخملية، أجساد بلون الفضة لسمكات وازنة. كان ذلك في وقت مناسب جداً، فإيغناتوف عاد في هذا اليوم خالي الوفاض لأول مرة.

استقبلهم أيلول بالشمس التي لوّنت الروابي باللونين الأصفر والأحمر. وازرقت السماء، فبدت الألوان النارية للأرض أشد حرارة ومرحاً. وتتالت الأيام رنانة، جافة، والليالي باردة، وطويلة، وشتوية حقاً.

وهجمت حشرات السكّيت.

لم يكن هناك سبيل للخلاص منها. البعوض والقمل اللذان ظنّهما المهجّرون، حتى هذا الوقت، عقاباً قاسياً من التايغا لأنهم دخلوا أرضها، أخليا المكان لإخوتهما الأصغر سناً. طار السكّيت كالغيمة، كالضباب، فملأ التايغا، والفسحة، والضفة، والملجأ، وتسلل تحت الملابس، وتغلغل في ثنيات البشرة، وفي الأنف، والفم، والآذان، والشعر، والعيون، صار المهجّرون يأكلونه مع الطعام (طعمه حلو كطعم الفاكهة)، ويتنفسونه مع الهواء، بل صار هو الهواء نفسه.

يستطيع المرء الهرب من القمل، والبعوض- يقتله. لكن كيف يتخلص من حشرة السكيت التي لا يتجاوز حجمها حجم ذرة رمل؟ الناس تورموا من العقص

(قبلاً كانت عقصة السكيت كبيرة تتسبب بنزف دموي)، وكادوا يفقدون صوابهم من إحساسهم المستمر بالحكة في أجسادهم، فكان من يملك القوة منهم، يهرش بيديه ورجليه، ويركض على الضفة كالمجنون (عند الركض تخفف الريح الإحساس بالحكة)، وبعضهم يغسل يديه ورجليه المدماة بماء أنغارا الصقيعي، وبعضهم الثالث يسعل سعالاً متواصلاً وتحمرّ عيناه، وهو يغمر نفسه بدخان النار الذي يحميه قليلاً من الحشرات. توقف العمل، فما من أحد كان بمقدوره أن يفكّر بالذهاب إلى عمق الغابة التي تنطلق منها أسراب الحشرات لإحضار الحطب أو الصيد.

«لو ذهب لأكلوه حياً»، قال إيغناتوف في سره وهو يغمس يديه المتورمتين، المحمرتين احمراراً شديداً في نقاط عدة، في الماء الشفاف والبارد إلى حد المستحيل. فتخدرت يداه، إما من البرد، أو من عقص السكيت. وأحس بأن أحداً يقف خلفه. التفت ليرى ليبييه: شفتاه منتفختان ومتدليتان كشفتي الجمل، وعيناه صغيرتان بسبب تورم أجفانه.

- نحتاج إلى قطران شجرة البتولا، - قال ليبييه، - فهو طارد حشرات معروف، لكني لا أعرف طريقة تحضيره. هو يباع عادة في الصيدليات في قوارير زجاجية سعر الواحدة منها اثنان وثلاثون كوبيكاً.

الفلاحون كانوا يعرفون طريقة التحضير، فاندفعوا فوراً للبدء بالعمل، نزعوا أوراق أشجار البتولا القريبة كلها، وضعوها في قدر، غطوه بدلو، أوقدوا تحته النار وتركوه عرضة للدخان والنار فترة طويلة، حتى غروب الشمس. فحصلوا على سائل كثيف كالعسل، وأسود كلياً، خلطوه بالماء ودهنوا به أجسادهم من الرأس حتى القدم، فصاروا كالزنوج، لا يلتمع فيهم باللون الأبيض سوى عيونهم وأسنانهم. كان أكثر المناظر طرافة منظر الحجي المحترم الذي رفض أن يدهن لحيته بالقطران مثل

بقية الرجال، فالتمعت كعلم أبيض في وجهه الأسود اللامع كجزمة سوداء جرى حفّها بسخاء بالشمع.

انسحبت الحشرات واستطاعوا النوم ليلاً.

نظراً لرقة بشرة يوسف، نصح ليبييه زليخة أن تخلط القطران بحليبها، فصارت منذ ذلك اليوم تطلق على وولف كارلوفيتش اسم «الدكتور».

بدأ إيغناتوف، بعد انقضاء أكثر من نصف شهر أيلول، يفكّر في إرسال بعثة إلى كراسنويارسك.

لقد اعتاد المهجّرون في خلال الشهر الماضي الحياة في الملجأ وتكيفوا معها. وجفّ الملجأ الذي لم تكن نار الموقد تنطفئ فيه، وانشوت جدرانه. وجهزوا حول الملجأ، بناء على نصيحة أفديي، مصاطب مرفوعة على حجارة، نضدوا عليها الحطب على شكل أبراج عالية، اقترح بعضهم تغطيتها بأوراق الشجر، لكن أفديي منعهم قائلاً: سيتعفن الحطب إن فعلتم.

في كل صباح، قبل شروق الشمس، يدق إيغناتوف بمسدسه على قاع دلو فارغ- يوقظ المعسكر للعمل، فيتوجه المهجّرون الناعسون وهم يتأففون ويسعلون، لجلب الحطب تحت رقابة غوريلوف- حدد إيغناتوف الحصة اليومية التي يجب أن ينجزها كل منهم- وما من أحد كان يجرؤ على العودة إلى المعسكر قبل أن يحقق المطلوب منه. لقد حاولوا ذات يوم عدم تنفيذ ذلك محتجين بالطقس البارد الماطر- لم ينطق إيغناتوف بكلمة، بل حمل الدلو وفيه العشاء الذي أعدته زليخة، وقذف محتواه في أنغارا. منذ ذلك الحين صار الجميع يحضرون الحصص المطلوبة منهم بالكامل. كان الناس يعودون عادة في المساء إلى المعسكر زاحفين، مرهقين، يكاد الإعياء يقتلهم، بعد أن يحضّروا الكمية المطلوبة من الحطب والأعشاب الجافة، بل كانوا لا يعودون أحياناً إلا في الليل.

وكانت أكوام الحطب تنمو حول الملجأ كالفطور، لكن إيغناتوف كان يرى دائماً أن ما جمعوه قليل، قليل، ويجب حتماً جمع المزيد.

«نحن نجمع الحطب بكثرة وكأننا سنتغذى به طول الشتاء»، كلمات قالتها إيزابيلا وسمعها إيغناتوف ذات مرة. العجوز الشمطاء تلمح إلى عدم وجود أية أطعمة احتياطية عندهم، قال في سره. وكيف يتوفر الاحتياطي ما دامت الأفواه الثلاثون تأكل ما ينجح في اصطياده بمسدسه، وما ينجح لوقا بصيده بسنانيره؟ فكّر إيغناتوف ثم أمر لوقا بأن يقسم صيده منذ اليوم إلى نصفين: نصف يعطيه لطبخ حساء السمك، وقسم يجففه ويخزنه، وقد حاول الناس الاعتراض على نقص كمية الطعام قائلين: «نحن من قبل هذا نعيش في جوع!»- لكن النقاش مع القومينداانت لا يجدي.

طلبت النساء عدة مرات أن يعملن في جمع الثمار البرية، ففي أثناء عملهن في جمع الحطب كن يصادفن في الغابة شجيرات التوت البري والديس، ويقعن على عناقيد برتقالية اللون من الكرز البري. وقد أكد قسطنطين أرنولدوفيتش وجود أنواع أخرى من الثمار، لكن إيغناتوف كان عنيداً في رفضه الاستجابة لطلبهن، فهذه الثمار لا تسد الجوع ويضيع في جمعها يوم العمل الذي يمكن أن يحضّر المرء فيه كمية كبيرة من الحطب!

الذين كانوا لا يعملون في جمع الحطب هم فقط صياد السمك لوقا وزليخة، وأحياناً ليبييه الذي كان يذهب لجمع الأعشاب (بعد قصة قطران البتولا صار إيغناتوف يعامله بدفء، ويسمح له بالذهاب لجمع الأعشاب)، أما بقية أفراد الجماعة فكانوا يعملون في جمع الحطب كل يوم. وقد تكلم إيليا بتروفيتش ذات يوم عن أنه في زمن الإمبريالية العفنة، في روسيا القيصرية النائمة كانت هناك أيام عطلة للعمال، لكن إيغناتوف قطع الطريق على هذه الديماغوجية دون إبطاء قائلاً: «في الشتاء، حين تهب العواصف الثلجية ستحدثنا عن الإمبريالية».

الحطب، الحطب... منظر أكوام الحطب الصغيرة الموزعة على المصاطب، كانت تبهج إيغناتوف فوق العادة. وكذلك كانت تفعل ربطات السمك المجفف التي كانت تزداد قليلاً قليلاً- (في الأيام المشمسة كانت زليخة تعلقها لتجف في الهواء، وفي الأيام الماطرة تدخلها إلى الملجأ). لكن الملابس كانت تقلقه.

كثيرون من الكولاك الذين نزعت أملاكهم استطاعوا أن يحتفظوا في الطريق بالملابس الشتوية التي حملوها معهم من منازلهم، وقد رأى إيغناتوف عند بعضهم أحذية من اللباد، - وعباءات من الفرو. أما اللينينغراديون فلم يكن لديهم ملابس، ففي صرر متاعهم أشياء لا فائدة فيها: معاطف خريفية رقيقة ذات أزرار مستديرة لامعة، وقبعات لينة ذات بطانة حريرية بألوان فاقعة، وشالات ناعمة متموجة الألوان، وقفازات مخملية أو صوفية.

إيغناتوف نفسه لا يملك سوى غيار واحد من الألبسة- هو ذاك الذي يرتديه، وهو زيّ صيفي لضابط في إدارة المهمات الخاصة- قميص وجاكيت، وسراويل رقيقة، وحذاء بعنق، وقبعة مستديرة طبعاً. لذلك راح يتتبع بقلق متزايد حركة السحب الطويلة السوداء في الأفق، فقد كانت تعد بالمطر والثلج. لقد ظهرت هذه السحب منذ فترة وجيزة، قدمت من الشمال، ظلت عدة أيام تقوم بحركة دورانية في السماء، وها هي ذي الآن تتمدد صافية في السماء من جميع الجهات. برد الجو، وحين ذابت آخر قطعة صافية من السماء في الأطراف المهوشة للسحب الواطئة أدرك إيغناتوف أن كوزنيتس لن يأتي.

أحس إيغناتوف بسبب هذه الأفكار، بالصقيع يغلف روحه، وبالدوار في رأسه الذي ارتفعت حرارته، وامتلأ غضباً. كفى معاناة، أمر نفسه، كفى. يجب ألّا أفكر إلا بما يجب أن أفعل.

هل أرسل بعثة؟ من غير المعقول أن نقضي الشتاء هنا. هل أرسل إلى كراسنويارسك اثنين من الرجال يتقنان الحوار (غوريلوف ولوقا مثلاً) ؟ نصنع لهما

قارباً- ونتركهما يبحران في نهر أنغارا- أمنّا، ثم في نهر ينيسي- أبينا. أربعمئة كيلو متر، ثلاثة أرباعها إبحار إلى الأعلى مع التيار، في الصقيع والمطر، ومن دون مخزون من الطعام... لا، لن يصلا.

وماذا لو وصلا؟ ماذا سيقولان هناك؟ نحن اثنان من الكولاك الذين نزعت أملاكهم، نفتنا السلطة السوفييتية إلى أنغارا، لكن قومينداننتنا المؤقت، الطيب القلب، أعطانا قارباً وتركنا نبحر إلى كراسنويارسك في نزهة- وهو ينتظر بفارغ صبر وصول بديل له، كي يعود إلى بلده...

لن يصل رسولاه إلى كراسنويارسك- سيهربان، هو يفهم ذلك، حتى لو عيّن غوريلوف رقيباً عليهما. غوريلوف نفسه سيقترح عليهما الهرب. إنه يبدو مطيعاً ومتحمساً تحت سلطة إيغناتوف ومسدسه- لكنه، عند أول مناسبة سيهرب دون أن تطرف له عين.

أيذهب هو في هذه المهمة ويترك المهجّرين هنا؟ هذه الفكرة أسوأ من سابقتها، فهو سيعود ومعه كوزنيتس إلى معسكر خال: الفلاحون كلهم سيهربون، واللينينغراديين سيموتون في خلال وقت الرحلة.

وهكذا لن يكون جيداً لا هذا، ولا ذاك. وسيكون هو، إيغناتوف مسؤولاً، فهو القومينداننت. لقد ارتكب من الأخطاء ما يكفي ثلاثة وأكثر. وسيُسأل أمام الحزب والرفاق ويعاقب بصرامة على نقص أعداد المهجّرين بالموت، وعلى الفرار الذي حدث، وعلى غرق «كلارا». إن عليه، مهما كانت الأحوال، أن يظل قابعاً هنا ينتظر كوزنيتس أو الشيطان نفسه، لكي يبرئ نفسه بالأفعال لا بالأقوال.

لكن فكرة أخرى كانت تحوم في قاع وعيه، فتشعره، لسبب ما، بالارتباك: إن من واجبه إنقاذهم. لقد رأى مرات كثيرة في منامه أنه يغرق ثانية، ويغوص في المياه الباردة العكرة، فتلاقيه من العمق المظلم مئات الأيدي التي تمتد وتنمو

مزيحة بأصابعها البيضاء الطويلة أعشاب الماء وهي تصرخ: أنقذني، أنقذني... كان يستيقظ بحدة، يجلس في السرير، ويمسح عنقه المبلل بالعرق. وتظل كلمة «أنقذني» هذه طول النهار تتحرك وتتدحرج في رأسه. وها هي ذي تقول له همساً: «إنه هو نفسه يخاف أن يعترف برغبته الشديدة في أن ينقذ الأعداء، وأن ظلوا حتماً سالمين حتى وصول بارجة جديدة، وأن يظلوا جميعاً أحياء لا ينقص منهم فرد، وإنه لا يريد ذلك من أجلهم، ولا من أجل كوزنيتس، ولا من أجل محاكمته القادمة على الأخطاء التي ارتكبها، بل من أجل نفسه، وهذا هو سبب ارتباكه».

ينتقي إيغناتوف عصا وازنة، يقرع بها الجذوع الحمراء ذات الحراشف لأشجار الصنوبر البري التي تمر بقربه مسرعة، ثم يلوح بها ويرميها في قلب الحرج، متخيلاً أنها ستسقط على رأس كوزنيتس- على يافوخه تماماً، فتشرق روحه ويرتاح...

في المساء هطل أول ثلج- لم يكن نتفاً صغيرة كتلك التي هطلت عليهم من السماء في أول أيام حياتهم على الضفة، بل كان ثلجاً حقيقياً، يتساقط ندفاً كبيرة منتفخة. وفي الليل حلّت نوبات الصقيع، وفي قيعان الدلاء التي تركت في الخارج إهمالاً، التمع الجليد كزجاج رقيق، أما المكانس المجدولة من أغصان السرو فغطتها طبقة من ذرات جليدية.

لم يكن ممكناً أن يشاهد المرء خروج المهجّرين إلى العمل صباحاً، من دون أن يضحك، فقد ارتدى كل منهم جميع ما عنده من ثياب. الفلاحون لفّوا أنفسهم بالشالات وتدثروا بعباءات من الفراء بلا أكمام، أما أبناء المدن- فارتدوا المعاطف المقلمة التي كانت دارجة يوماً ما، ولبسوا ما عندهم من قفازات وشالات متنوعة، واعتمروا طواقي مدعوكة إلى درجة مستحيلة، وقبعات مثنية الحواف. واعتمرت ليلى الجورجية البدينة قبعة مستديرة كالقدر مزينة بخرز زجاجي ملون، وغطت أنفها بمنديل (بوال) بدا كرقعة قماش. وأظهر قسطنطين أرنولدوفيتش للعالم

قبعة كالفطيرة مدعوكة قليلاً من كثرة النقل، وهي محيكة من فراء مصقول جداً، ورقيق جداً، لونه كلون القهوة الثقيلة مع مربى الخوخ. واكتشفت إيزابيلا أنها فقدت قبعتها الزمردية ذات الريشة، الأمر الذي أزعلها كثيراً، واضطرها إلى تغطية رأسها بشال مهترئ، ظهرت الثقوب في أماكن عدة منه. وكان في أيديهم جميعاً مناشير متماثلة بقبضة واحدة.

أعطى أحد الفلاحين إيغناتوف سترة جلدية قديمة مهترئة الأكمام (هذه السترة تركها ابنه الذي هرب منه من العربة الثامنة المشؤومة). كانت السترة ضيقة عند الكتفين، واليدان تبرزان بشدة خارج الأكمام، لكنها كانت تدفئ، وإيغنانتوف الذي عبّر في الأيام الأخيرة صراحة عن شعوره بالبرد، وشرع يضع خفية تحت قميصه العشب والأوراق الجافة، لم يرفض الهدية.

في هذا اليوم مشى إيغناتوف كالعادة في التايغا يبحثُ عن صيد، وكان يفكر في صيد دب: سيترك لحمه ليملحوه، أما جلده فسيصنع منه لباساً. لقد وعده الفلاحون بالمساعدة- سينظفون الجلد، وينقعونه، ويدقونه جيداً، فوجود معطف زيادة في الشتاء ليس ضاراً. وإذا كان الدب كبيراً فسيكون من الممكن أن نحصل من جلده على قبعتين من الفراء أيضاً...

كان عليه أن يعمل بسرعة- فالدب قد ينام في السبات الشتوي، لذلك قضى إيغناتوف ثلاثة أيام يحفر في التايغا الحفرة اللازمة، غير عابئ بالفقاعات الدامية التي ملأت كفيه. وقد عرض عليه الفلاحون المساعدة فرفض («والحطب، الحطب من سيقطعه؟!»). سوّى جدران الحفرة بأوراق الشجر الملساء، ووضع في وسطها وتداً حاد الرأس، ثم غطى الحفرة بالقش وأوراق الشجر، ونثر العشب فوقها، وراح ينتظر. لكن الدب لم يأت.

ألقى في الحفرة مرتين أو ثلاث، بعض الطعوم المغرية- سنجاباً اصطاده، أو نصف طائر حجل. كان الطعم يختفي من الحفرة، ففي صباح اليوم التالي يستولي

عليه أحد الجرذان أو الجقلان ويعيث فساداً في القش الذي موّه به إيغناتوف الحفرة بعناية. ويظل الدب غائباً لا يتكرم بالمجيء. ويظل إيغناتوف يطل بين الحين والآخر على الحفرة يتفقدها، لكنه ملّ فيما بعد فتركها. لم يأسف لعمله، بل أسف على الأيام الثلاثة التي ضاعت دون جدوى، أسف كثيراً لذلك.

في أواخر شهر تشرين الأول استقر الثلج نهائياً في التايغا، وحلّ الشتاء.

تقرر أن يعملوا في نوبتين: في الصباح الباكر، في الزرقة الكثيفة التي تخالطها العتمة، يذهب فريق لقطع الأشجار في الغابة، بعد أن يرتدي كل ما في الملجأ من ثياب دافئة، ويعود في منتصف النهار، فيخلع ملابسه المبللة بالعرق ويجففها بسرعة ثم يعطيها للنوبة الثانية التي تعمل حتى وقت متأخر، حتى تبزغ النجوم.

وقد أمر إيغناتوف أن يقوم الناس في أثناء وجودهم في الملجأ، بصناعة السلال. وكان ذلك أسهل على العاملين في النوبة المسائية: كانوا يستيقظون على منبه إيغناتوف الذي لا يتغير (قرع المسدس على قعر الدلو)، فيبدؤون في ضفر السلال وهم جالسون في أماكنهم. أما العاملون في النوبة الأولى فكانوا بعد أن يعملوا قرابة خمس ساعات في الهواء الطلق، يعودون مرهقين، يرتمون على أسرتهم، وينامون. أما إيغناتوف فكان في هذا الوقت يتدبر أموره في التايغا، لذلك أمر غوريلوف بأن يوقظ هؤلاء النوّم الكسالى، ويحرم من العشاء من يعصي الأمر. وكان العشاء وجبة الطعام الوحيدة في المعسكر. امتلأ الملجأ، الذي بطبيعة الحال كان ضيقا، بالسلال الكبيرة والمتوسطة والصغيرة. وحين، ذات يوم، سأل المهجّرون القوميندانت بحذر عما إذا كان ما ضفروه من السلال كافياً، أجابهم بأنه كاف، وأن عليهم الآن أن يضفروا عربات نقل صغيرة وأحذية للسير فوق الثلج، وحين أجابوه بالصمت، صاح بهم: «الشتاء على الأبواب- فكيف ستذهبون لجلب الحطب يا سفلة؟!»

قرروا أنه غاضب جداً، فاستسلموا.

بعضهم مرض، عانوا طويلاً من الحمى، وكانوا يسعلون باستمرار في الليل فيمنعون الآخرين من النوم. وراح ليبييه يسقيهم مغليّ أعشاب كريه الرائحة. لكن حين كانت تلوح في عيني المريض ملامح الراحة، ويكف العرق عن تغطية جبينه، ويذهب هو بنفسه من دون مساعدة، إلى المرحاض المبني عند «مدخل» الملجأ، كان إيغناتوف يأمره فوراً بالذهاب إلى العمل.

«هذا كفر، - قالت إزابيلا حين أجبر ذات صباح قسطنطين أرنولدوفيتش الشاحب اللون بسبب الحمى التي عانى منها، على الخروج مع الجميع إلى الغابة المغطاة بالجليد، لتقطيع الحطب- أنت تقتلنا». -«كلما نقص عدد الأفواه- ازدادت راحة الباقين»- أجابها إيغناتوف.

إيغناتوف كان يرى أحياناً في عيون هؤلاء الكبار في السن، الناحلين الذين أرهقهم الجوع والمعاناة، شيئاً يشبه الكره الجبان، ولولا وجود المسدس في يده لكان من المحتمل أن يحاول هؤلاء الناس قتله.

ازدادت حياة إيغناتوف في بداية الشتاء تعقيداً من جهة لم تكن متوقعة أبداً. ذهب في ذلك اليوم من المعسكر إلى مكان قريب جداً. كان يراقب العمل في الفسحة حيث كان المهجّرون يقضون يوم العمل المفروض عليهم (يقطعون الأشجار، ويمددونها أرضاً، وينظفونها من الأغصان الصغيرة واللحاء، ثم يقطّعونها حطباً ويحمّلونها في الزحافات وينقلونها إلى المعسكر. يضعون الأغصان الكبيرة في رزم، والعيدان الصغيرة- في السلال، ولحاء شجر الصنوبر البري، والعفص، والحناء- في سلال خاصة). ثم ذهب إلى المكان الذي اعتاد الصيد فيه. ما زالت تسمع في القريب أصوات قاطعي الأشجار، وزعيق المناشير ذات القبضة الواحدة، وصوت سقوط الشجر، وفجأة- خشخشة بين الشجيرات، وارتعاش في الأغصان: يبدو أن بين الشجيرات وحش كبير.

جمد إيغناتوف، وببطء، ببطء شديد مدّ يده إلى المسدس، أصابعه تنسحب فوق جرابه، من دون صوت، كأنها الظل. وأخيراً، يشعر في يده بثقل السلاح وبرودته. الشجيرة تستمر بالارتعاش الرتيب وكأن أحدهم يشدها من الجهة الأخرى. فيصرّ غصنها تحت الكف الثقيل. أهو الدب؟ تكرّم، إذن، وجاء يزورنا. لقد حفرنا له الحفرة، ووضعنا له الطعوم المغرية، لكنه جاء باختياره، غير مدعو، ليتذوق طعم هذه الشجيرات...

هل يطلق النار عليه الآن من دون أن يراه؟ الطلقة قد تجرحه، لكنها لن تقتله. الوحش إما أن يتنمّر فيمزقه، وإما أن يخاف ويهرب- عند ذلك لن يستطيع اللحاق به. يجب أن ينتظر إلى أن يُظهر الحيوان سحنته. عندئذ يمكن إطلاق النار على نقطة ضعفه- فمه المفتوح، أو عينه- وتكون الإصابة مؤكدة.

ارتعاش الشجيرة يقترب. أعرج القدمين يقترب، يرمي نفسه بنفسه بين يديه. إيغناتوف يرفع المسدس ويضع فوقه يده الثانية- يستعد للضغط على الزناد. لا يجوز أن يفعل ذلك الآن لأن الدب سيسمع لكنه، في اللحظة التي سيظهر فيها أنف الدب، سيضغط على الزناد ويطلق النار على وجه الوحش، على وجهه.

تبتلع الحنجرة التي جفت كتلة ثقيلة بطيئة الحركة من اللعاب، صوت ابتلاعه للعابه يبدو له عالياً يصم الآذان. تهتز الشجيرة من جديد اهتزازاً شديداً وتخرج منها زليخة. يجأر إيغناتوف جأرة قصيرة، غاضبة، ويهوي بيده التي تحمل المسدس إلى أسفل، ويبدو للحظة وكأنه يبحث عن هواء يتنفسه.

- كدت أن أقتلك، هل تدركين ذلك؟!

يطير زوج خائف من الغربان عن الشجرة ويرتفع عالياً نحو قمم أشجار السرو. وتنكمش زليخة، تغطي بكفيها الفستان المنتفخ عند بطنها، وتحملق فيه خائفة.

- هكذا إذن! نحن نتفهّم وضعك تماماً، فنتركك في المطبخ، ونكلفك بمراقبة النار، وأنت تتنزهين في الغابة؟!

- أردت جمع بعض الثمار البرية أو الجوز، - تقول همساً. - الرغبة في الطعام شديدة.

- الرغبة في الطعام شديدة عند الجميع!- يصرخ إيغناتوف بصوت أسمع، على الأغلب، ما بعد الغابة.

- أنا لا أطلب ذلك لنفسي، - تقول وهي تواصل التراجع فيرتطم ظهرها بشجرة بتولا عجوز جذعها متشقق تغطيه بقع سوداء. - أنا أطلبه له.

تخفض عينيها وتنظر إلى قمة الرأس الصغير السوداء التي ظهر قسم منها على صدرها. يخطو إيغناتوف مقترباً منها، يقرّب وجهه، ويحني قامته. إنه ما زال يتنفس بصعوبة وبصوت مسموع.

- يجب أن تطيعيني طاعة مطلقة، - آمرك أن تجلسي في المعسكر- تجلسين في المعسكر. آمرك أن تذهبي لجمع الثمار البرية- تذهبين لجمع الثمار البرية. هل فهمت؟

الطفل على صدر زليخة يصرخ فجأة، ويتحرك، ويتململ قلقاً. ومن شق الثوب تظهر للحظة ثم تختفي كفه الصغيرة المجعدة وأصابعها المنمنمة المثنية.

- انظر، إنه يطلب الحليب مجدداً، - تفك زليخة أزرار الفستان على صدرها. - اذهب من هنا. سأرضعه.

إيغناتوف الغاضب يظل واقفاً في مكانه. والطفل يبكي مستاء، يحرك أنفه ويبحث في كل الاتجاهات بفم مفتوح.

- اذهب، - قالت له مجدداً، - النظر حرام.

إيغناتوف لا يتحرك، ينظر إلى صدرها مباشرة. الطفل يبكي بأعلى صوته، يبكي بمرارة وزعل، ووجهه المجعد الصغير يتقلص. تخرج زليخة من فتحة ثوبها ثدياً ثقيلاً وتضع حلمته المنتفخة التي تنفر منها نقاط الحليب راعشة، في فم الطفل، فينقطع البكاء على الفور- الولد يرضع بشراهة، وهو يئن تلذذاً، ويبسط ويقلص بسرعة خديه الصغيرين الورديين المرنين، اللذين يسيل فوقهما الحليب مخلوطاً بالدموع التي لما تجف.

ثدي هذه المرأة صغير، مستدير، مصقول كتفاحة. إيغناتوف ينظر باستمرار إلى هذا الثدي. يتحرك في بطنه شيء ما دافئ، وكبير، وبطيء. يقولون إن حليب المرأة حلو المذاق... يتراجع خطوة. يدس المسدس في جرابه، ويغلقه، ثم يتجه نحو الغابة، وبعد خطوتين يلتفت إليها:

- حين تنتهين من إرضاعه- اذهبي إلى المعسكر، فالدببة تبحث عن الطعام أيضاً.

يسير مبتعداً في الدرب الذي صار مطروقاً بين أشجار السرو. أمام عينيه: يد صغيرة تغوص في فتحة الثوب، تخرج الثدي المرن، المستدير، الحليبي البياض، الذي تظهر عليه عروق الدم الزرقاء، وتتوهج حلمته الراعشة بحليب، كثيف كثمرة كبيرة حمراء داكنة.

ليس سهلاً أن يظل الرجل نصف عام من دون امرأة.

منذ ذلك اليوم صار إيغناتوف يتحاشى النظر إلى زليخة. لم يكن ذلك سهلاً في الملجأ الضيق. حين كانت عيونهما تلتقي، كان يشعر مجدداً بحركة ذلك الشيء الدافئ في بطنه فيشيح عنها ببصره في الحال.

أخذ إيغناتوف لنفسه أفضل حذاء للمشي على الثلج جدلته المجموعة. لقد جدل المهجّرون عشرات الأزواج من هذه الأحذية، غير أن هذا الحذاء الذي جدلته

الأصابع المعوجة ليانيبا- المرأة الماريكية الصموت، ذات الوجه البني تماماً، والعينين الصغيرتين الضائعتين بين حاجبيها المشعثي الشعر، وتجاعيد وجهها العميقة- كان أفضلها: كان مريحاً للقدم، ولا ينخلع عنها عند السير في الثلج اللزج، ولا يسمح للثلج باختراقه. انتعله إيغناتوف منذ ثلاثة أشهر، فبدأ نسيجه يتراخى. أراد إيغناتوف أن يطلب من الماريكية صنع زوج جديد، لكن المرأة كانت راقدة في السرير منذ عدة أسابيع بسبب المرض.

الأحذية التي كان يحضّرها الفلاحون الآخرون كانت ثقيلة ومربكة: هي كانت صالحة للمسافات القصيرة، كالخروج لجلب الحطب، لكنها لم تكن صالحة لنزهات الصيد الطويلة والسريعة. وكانت الأحذية التي يصنعها اللينينغراديون مشوهة إلى حد يصعب معه معرفة أنها أحذية للمشي على الثلج، فمنظرها كان يذكر بأشكال غريبة من المكانس، أو السلال التي أخفق صانعوها في ضفرها. «سوبريماتيزم»، قال ذات يوم إيكونيكوف وهو يتأمل الشكل المشعث المجدول الذي صنعته يداه قبل قليل. غوريلوف المتحمس أراد أن يرمي السوبريماتيزم خارج الملجأ، لكن إيغناتوف منعه- وأمره أن يعلقه تحت السقف (لم يعد هناك مكان على الأرض)...

إيغناتوف ينقّل حذاء المشي على الثلج الذي ينتعله فوق الثلج الصلب. يصغي لصوت خطواته. سماء كانون الثاني رمادية وباردة. السحب الداكنة ذات الأرضية البيضاء معلقة في السماء، ساكنة، تطل من خلالها شمس الغروب الذهبية. لقد حان وقت العودة.

هو اليوم لم يصطد شيئاً.

لم يتعلم إيغناتوف في خلال الأشهر التي قضاها في التايغا كيف يكون صياداً. صار يمشي بهدوء، وسمعه صار حاداً، ورصاصه صائباً. وصار يميّز على الثلج الآثار وكأنه يقرأ فيها رسائل تركتها الوحوش: الآثار الطويلة والنادرة- آثار الأرانب، والآثار

الأكبر والأثقل- آثار النموس، والآثار الخفيفة- العريضة- آثار السناجب. وكان يشعر بالوحش، - يمدّ يده إلى الأمام بالمسدس، ويضغط الزناد قبل أن يدرك رأسه أن الطريدة ظهرت بين الشجيرات. لكنه لم يستطع أن يحب الصيد حباً حقيقياً. كان يعجبه أن يلاحق ويطلق النار، لكن الهدف الذي يحبه مختلف. إنه هدف مكشوف ومفهوم. في المعركة ترى العدو فتطلق عليه النار، أو تلحق به وتضربه بالسيف. كل شيء بسيط، وواضح. أما في الصيد فالأمر معقد. كان يتخيل أحياناً أن وحوش الغابة تخرج من جحورها، ولا تحاول الاختباء، أو تناور، أو تمحو آثارها، بل تقفز في صفوف منتظمة في الحقل الشاسع، وهو يأتيها على حصانه من الخلف، يلقّم مسدسه ويطلق النار- يصيبها واحداً بعد آخر، واحداً بعد آخر. ذلك هو الصيد الحقيقي. أما هذا...

قدره في الصيد كان قاسياً، ونادراً ما كان يدخل السرور إلى قلبه. أكبر فرحة منحها له القدر كانت «الوعل» طبعاً. حدث هذا في كانون الأول، عشية عيد رأس السنة. آنذاك مرّ إيغناتوف مصادفة على الحفرة المنسية، التي حفرها للدب في الخريف- فرأى أن وحشاً ما وقع فيها. توقع أن يكون الصيد كبيراً، نظر إلى داخل الحفرة: وحش كبير لونه رمادي غامق يرقد هناك متعباً، ترتجف ارتجافاً طفيفاً قوائمه المشعثة الوبر، التي تنتهي بحوافر طويلة كالأصابع. الوتد الحاد الرأس الظاهر في الأعلى تطوقه أمعاؤه الحمراء الداكنة التي ما زال البخار يتصاعد منها ضعيفاً. آنذاك هرع إيغناتوف إلى المعسكر. وصل لاهثاً، بعينين متوحشتين. فأخاف الجميع. جمع الفلاحين، والعربات، والمشاعل المصنوعة يدوياً- وعاد سريعاً يرافقه الجميع إلى الغابة. كان إيغناتوف يخاف أن تأتي الذئاب قبلهم منجذبة برائحة اللحم، لكنهم لم يجدوا في الحفرة غير قط بري عبث كثيراً وكشّر بشراسة وغضب حين رآهم كاشفاً عن أسنانه الملطخة بدم الوعل. قتله

إيغناتوف، ثم نقلوا اللحم كله إلى الملجأ. وظلوا يتغذون به طول أسبوع، مستقبلين بذلك رأس السنة الجديدة.

بعد ذلك لم يقع شيء في الحفرة. يبدو أن هذا الوعل بدد كل حصة إيغناتوف من التوفيق- فمنذ ذلك اليوم صارت الطرائد التي يصطادها ضئيلة وغير جدية. الشكر للوقا الذي أنقذ الموقف.

غطى الجليد أنغارا من أوائل تشرين الثاني، ففتح الفلاحون بإشراف لوقا عشر فتحات كبيرة فيه، ومنذ ذلك الحين صار لوقا يقضي أياماً بطولها فوق سطح النهر المتجمد، كان يجيء بأسماك عريضة نحاسية اللون، ومصقولة كالصحون، وأخرى منقطة ببقع خضراء ولها وجه غاضب، وأسماك لم يعرف مثلها إيغناتوف من قبل، تشع كاللؤلؤ، وعلى ظهرها المدهن زعنف له شكل معين كبير.

مرض لوقا منذ فترة قريبة. كثيرون مرضوا بعد عيد رأس السنة- الوحيد الذي ظل صامداً كان إيغناتوف- واضطروا إلى إلغاء نظام الخروج في نوبتين لجلب الحطب- صاروا يعملون الآن في نوبة واحدة، الأصحاء فقط (الأدق أن نقول: الذين ليسوا مريضين جداً). وقد أعفى إيغناتوف مضطراً البروفيسور ليبييه أيضاً من العمل الإلزامي، فلا بد من وجود من يعتني بالمرضى. اضطرهم مرض لوقا إلى أكل احتياطي السمك. لم يكفهم السمك المجفف فترة طويلة، فقد أكلوا في يومين كل ما حضروه في الخريف. والأمل صار الآن معقوداً على إيغناتوف.

يمشي في الثلج. تنساب إلى جانبه أشجار السرو المستندة بأغصانها العريضة إلى أكوام الثلج، المائلة نحو الأرض بأذرعها الراقدة على وسائد ثلجية. تنتفخ الشجيرات بشدة كتلاً بيضاء، وتلوح جذوع أشجار الصنوبر البري الذهبية المغطاة بطبقة كثيفة من الجليد. ينزل نحو الفسحة التي يعرفها، الفسحة التي في زاويتها شجرة بتولا عملاقة متفحمة، يعبر الجدول المتجمدة مياهه فوق الحصى

المحصور بكتل من الصخر صقلتها الرياح. المعسكر صار قريباً، ثمة رائحة مرة-حلوة لدخانه تلامس خيشوميه.

في ضوء الغروب الشحيح يرى بين الأشجار عمودين عاليين علّقت عليهما جمجمتان رماديتان تصدران صوتاً كلما هزتهما الريح. الجمجمة الأولى كبيرة وطويلة، بأنف معقوف متوحش، وأسنان ضخمة مصقولة، وجذور قرون متينة تنمو مباشرة من محجري العينين البيضاوين- إنه الوعل. والجمجمة الثانية صغيرة وكروية كحبة البطاطا، في وجهها ثقب قبيح هو الأنف، ولها فكّان بارزان إلى الأمام، ينطبق أحدهما على الآخر بشدة- إنه القط البري. لقد علّق لوقا الجمجمتين كي يخيف بهما الأرواح الشريرة في الغابة. وقد أراد إيغناتوف أن ينزع هاتين العلامتين المعبرتين تعبيراً صارخاً عن الثورة المضادة، لكنه، حين رأى عيون الفلاحين ترجوه أن يتركهما، بصق وتركهما. قال في سره: ليت هاتين الجمجمتين تخيفان الأمراض. كانت الجمجمتان المعلّقتان تودعان إيغناتوف في الصباح وهو ذاهب للصيد، وتتتبعان بثقوب عيونهما السوداء أثره، ثم تستقبلانه في المساء ناظرتين بلا مبالاة إلى يديه: ماذا اصطاد؟ هل جاء بطعام للناس؟ أم أن وقت الموت قد حان؟

يشيح إيغناتوف ببصره عن نظرة الجمجمتين ويمر بجانبهما عابساً، مسرعاً إلى الملجأ. كان عادة يعدّ، وهو يسير، أكوام الحطب المستديرة التي تملأ الساحة كأنها الفطور، لقد نقصت في الشهر الأخير، وبدأ المهجرون يستهلكون الحطب الاحتياطي. كانت التايغا تغطي بعواصف الثلج المكان أحياناً- تظل تعوي عدة أيام فوق الملجأ، تغني، وتصرخ في مدخنة الموقد: الثلج يطير فوق الأرض سيلاً كثيفاً، حاجباً الشمس فوق الرؤوس. في طقس كهذا يكون الخروج إلى الغابة مستحيلاً لأنه يعني الموت. كانوا لا يذهبون حتى إلى مصاطب الحطب، إلا وهم مربوطون بحبل إلى باب الملجأ. كانوا يبحثون عن الحطب باللمس، خائضين في الثلج حتى

الخصر، ويعودون إلى الملجأ بشد الحبل المربوط طرفه بباب الملجأ، أما طرفه الثاني فمعقود حول خصر الشخص الذي خرج. وحين حلّ في المهجّرين المرض اضطروا إلى عدم الخروج حتى في الطقس الجيد، إلى الغابة، لإحضار الكميات المعتادة من الحطب، وصار احتياطي الحطب يذوب بسرعة أكبر.

يغرس حذاءه في كومة الثلج عند المدخل، ويجثو على ركبتيه، ويزحف إلى داخل الملجأ. الباب الخارجي المجدول من أغصان البتولا والمدعم بالصمغ والطين، راقد على الأرض، يجب رفعه وحشره في الشق الذي أحدثه سقوطه. يجد إيغناتوف نفسه في عتبة الملجأ. ينزل على درجات المدخل الترابية، ويخلع ما تدثر به (المعطف الجلدي وجلد الوعل). ويغوص في فضاء الملجأ الممتلئ بهواء ثقيل ودافئ، وبرائحة الأعشاب، والسمك، ولحاء الشجر، وأوارق السرو الإبرية، والدخان، والأحجار المشوية بالنار، وأصوات السعال، والأحاديث بصوت خافت.

لقد عاد إلى بيته.

الأصوات الذابلة المنبعثة من مكان ما في العمق، تهدأ على الفور. اللهب المشتعل ساطعاً فوق قدر الماء، ينير بضوء غير منتظم الوجوه العابسة التي ترتسم بوضوح زوايا قسماتها وثنيات تجاعيدها، وعشرات العيون تعلّق نظراتها على إيغناتوف، وعلى يديه الخاليتين.

هو لا ينظر إليهم، يمضي إلى مقصورته، يخرج من تحت المخدة المصنوعة يدوياً من ورق الشجر، كيس الطلقات الذي نقص محتواه كثيراً في خلال فصل الشتاء، (مع بداية فصل الشتاء كفّ عن تخبئة الكيس في الغابة، وصار يبقيه عنده، تحت رأسه). يلقّم المسدس، ومن دون أن يخلع جزمته الملفوفة بقطع من جلد الوعل، يتمدد واضعاً يده التي تحمل المسدس تحت رأسه. يغمض عينيه وهو ما يزال يشعر بنظراتهم المصوبة نحوه.

كان في مثل هذه الدقائق يشعر عادة بدفقات من الغضب، ويرغب في أن يلوح بمسدسه ويصيح: «لماذا تحملقون فيّ أيها السفلة؟!» لكنه لا يجد اليوم القوة لفعل ذلك. لقد هبط عليه التعب هبوطاً ثقيلاً مثيراً للأعصاب. إنه بحاجة لأن يجفف جزمته، وثيابه، ويشرب شيئاً ساخناً، حتى لو كان ماء، ليملأ بطنه الخالي الذي يمغصه. الآن، يقول إيغناتوف في سره، الآن، الآن...

- حسناً، سنأكل حساء الملح، - تأخذ إيزابيلا ملعقة من كيس الملح المنتفخ، وتصبها في القدر الذي غلى ماؤه منذ زمن. يتعكر الماء الشفاف، ثم يبيض، كما لو كان قد خلط بالحليب، يصدر هسيساً، وبعد لحظة يعود شفافاً من جديد. حساء الملح جاهز.

قلة من يحبون ذلك الحساء، بل إن الأغلبية لم تنهض من أماكنها، وبعضهم أدار وجهه نحو الحائط. لم يجلس إلى الطاولة سوى قسطنطين أرنولدوفيتش وإيكونيكوف.

ينظر قسطنطين أرنولدوفيتش طويلاً إلى ملعقته ذات القبضة الصدفية، ثم يبتسم فجأة.

- أشعر فجأة أني في شارع فوش. مساء السبت. صحن من الحلزون، وكأس مونتراشيه...

- ومع ذلك فإن أفضل أنواع الحلزون، - يقاطعه ويستلم الحديث إيكونيكوف، وهو يشرق حساء الملح بشهية واضحة، - موجود في ريو دي فوجيرار. هذا أمر لا نقاش فيه؟

- يا عزيزي إيليا بتروفيتش! من أين لك أن تعرف؟ لقد كنت آنذاك صغيراً جداً، لم تر شيئاً غير رسوماتك. من المدهش أن تكون خرجت إلى أي مكان من مدينتك مونمارتر.

تقول إيزابيلا وهي تضحك وتدق بملعقتها على حافة القدر، وكأنها تنفض عنها قطع اللحمة المدهنة العالقة به، وقطع الليمون الشفافة، وحبّات الزيتون الأسود الصغيرة.

يتكوّم غوريلوف إلى جانبهما، يخرج ملعقته، يلعقها، ينظر بوحشية إلى المتحاورين، فينقطع الحديث.

زليخة تلصق وجهها برأس يوسف. لقد عاد إيغناتوف خالي اليدين مرة ثانية. لا عشاء اليوم- وإذن، لن يكون في ثدييها حليب. بالمناسبة، تدفقات الحليب صارت الآن شحيحة حتى بعد العشاء.

صار الحليب يتناقص في منتصف الشتاء، فظنت في البداية أن السبب هو قلة الطعام، لكن حين ظلوا في كانون الثاني أسبوعاً كاملاً يأكلون حتى الشبع من لحم الوعل المدهن الفواح الرائحة، وظل الحليب في صدرها شحيحاً، أدركت أن الحليب أخذ ينتهي، فصارت تطعم ابنها اللحم والسمك. البطاطا والخبز أفضل طبعاً، ولكن من أين نأتي بهما... كانت تلفّ قطعة اللحم أو السمك بقطعة قماش وتدس اللفافة في الفرجة الصغيرة بين الفكين الخاليين من الأسنان- في البداية كان يوسف يبصق ما يدخل في فمه، بعد ذلك تعرّف على المذاق وشرع يمتص ما تقدمه أمه. لم يكن يحب المذاق المالح، فيبكي، لذلك لم تكن زليخة تقدم له السمك المجفف. وحين واجهتهم عدة أيام من الجوع الكامل، حاولت أن تسلق له بعض ثمار العفص الباقية على الأغصان، لكن هذا الطعام النباتي سبب للولد إسهالاً بلون زمردي أخضر، فوبخها الدكتور ليبييه وشتمها بأقذع الشتائم (هي لا تعرف أنه يستطيع أن يصرخ بصوت مخيف ومرتفع إلى هذا الحد).

بعد رأس السنة ازدادت الأمراض وألغى إيغناتوف الخروج الصعب إلى الغابة مرتين في اليوم لجلب الحطب: مهجّرون كثيرون صاروا الآن يبقون في الملجأ، وكانت إيزابيلا تحل في أحيان كثيرة قرب الموقد محل زليخة- فتستطيع هذه أن ترقد ساكنة متجهة بنظرتها المتعبة إلى طفلها النائم ومصغية إلى تنفسه الهادئ الرتيب. دقائق نوم يوسف صارت متعة لها، في حين كانت تزداد حدة ومرارة دقائق استيقاظ طفلها، وبكاؤه الحاد وهو يطلب الطعام طول الوقت.

لقد أرادت أن تراه واقفاً على قدميه. عقدت حاجبيها وتخيلت يوسف حين يكبر- ساقاه المعوجتان النحيلتان صارتا متينتين، مشدودتين، بعضلات مرنة فتية، وعلى أصابعه الصغيرة نمت أظافر وردية مستديرة، وتغطى رأسه بشعر كثيف غامق اللون- يخطو في الملجأ للقائها، ينقل قدميه الصغيرتين متمايلاً كالبطة- يمشي. أتراها تعيش حتى ذلك الوقت؟ وهل يبقى هو حياً؟

كانت زليخة لكثرة تفكيرها بابنها تنسى في أحيان كثيرة بطنها الذي يؤلمها- ففي أحشائها مغص دائم، وهي تشعر من حين لآخر، بالضعف وتخشى كثيراً أن تمرض، إذ من الذي سيعتني بيوسف في هذه الحال؟ الحياة الماضية- فضاءات يولباش، ومرتضى المخيف، وأوبيريخا الشريرة، والسفر الطويل في العربة الخشبية المغلقة التي تفوح بروائح مئات الناس- قد ذهبت بعيداً جداً، واختفت وراء منعطفات حادة، فغدت كحلم نصف منسي، وذكرى غير واضحة المعالم. هل كل هذا حدث معها؟ إن حياتها الآن هي التقاط نظرة مطمئنة من الدكتور «أمور يوسف جيدة، فلا تقلقي يا زليخة» وانتظار عودة إيغناتوف من الصيد، ولوقا من صيد السمك «اللحم! اليوم سنأكل لحماً»، والالتفاف كالخاتم حول ابنها النائم في السرير واستنشاق، استنشاق رائحته اللطيفة...

في الملجأ يسود السكون. المهجّرون رقدوا للنوم جنباً إلى جنب: قسطنطين أرنولدوفيتش وإيزابيلا رقدا متعانقين يتوخوخان ويشخران بصوت رفيع،

وإيكونيكوف غرق في نوم عصبي ثقيل، وغوريلوف يتمدد بلا حراك كالميت، وإيغناتوف في مقصورته المستقلة.

يوسف يتحرك، يحرك في نومه أنفه- يبحث عنها. لقد كفّت زليخة منذ زمن غير بعيد عن حمله على جسدها فاعتاد على العيش وحده غير محاط من كل الجهات بدفء أمه ورائحتها. لكنه كان كلما اقتربت منه، يسعى، كما في الماضي، إلى الاحتكاك بها وإلصاق جسده كله بجلدها. وها هو ذا الآن، وجد أمه بوجهه، فدسه في صدرها، داعكاً أنفه. رقد ساكناً دقيقة، ثم أخرى، ثم تململ، وحرك شفتيه- لقد اشتم رائحة الحليب، وسيستيقظ.

سيئن، ويتوخوخ، ويبتلع ريقه مرة أو مرتين، ثم ينفلت في بكاء جائع يطلب الطعام. فتدغدغه زليخة بحنان، ثم تأخذه بين ذراعيها. تعلق أصابعه في عرى قبة قميصها، فتسرع في فتحها، وتخرج ثديها اللين، الخفيف الوزن، وتدسه في فم الطفل المفتوح بشراهة. يرضع يوسف الحلمة الذابلة في عجلة ثم يبصق- لا حليب. يبكي بصوت أعلى، أحدهم يسعل في سرير بعيد، وآخر يتقلّب وهو يئن، ثم يتمتم بكلام غير مفهوم.

تنقل زليخة يوسف إلى ذراعها الأخرى وتلقمه ثديها الثاني- يصمت الولد برهة، وهو يمتص بعصبية الثدي الثاني بنيرته التي بلا أسنان: «كم هذا مؤلم!- تلاحظ بدهشة وفرح. - أيمكن أن يكون هذا سنه الأول؟» لا يتسنى لها أن تكمل فكرتها- فيوسف يلفظ الثدي الذي خدعه برائحته التي يألفها، ويجهش ببكاء متواصل بصوت مرتفع. وجهه الصغير يتضرج بالحمرة في لحظة، وقبضتاه الصغيرتان تضربان الهواء.

تقفز واقفة، تحني ظهرها كي لا يصطدم رأسها بأكوام الريش المتدلية من السقف، والسلال، والصرر، وربطات العفص، وغير ذلك من النثريات، وتشرع تهدهد يوسف.

أحياناً كانت تنجح في هدهدته، وأرجحته، وإقناعه بالهمس، - فينام من دون طعام، مانحاً زليخة عدة ساعات تعيش فيها من دون بكاء. وحاولت ذات يوم أن تؤرجح يوسف فوضعته في سلة كبيرة مدلاة من السقف، فرفض رفضاً قاطعاً أن ينام وحده، فهو يريد أن يكون دائماً بين ذراعي أمه.

تضغط بشفتيها رأسه الصغير الساخن المبلل بالعرق. وتدندن في أذنه الصغيرة الرقيقة أغاني قبل النوم نصف المنسية، وتهمس له وتحادثه. تؤرجحه- برقة وانسياب في البداية، ثم أقوى، وأكثر حدة، وأطول مسافة. وتضع في فمه الصغير مصاصة قماشية من صنعها- فيبصقها ويتابع صراخه. بين شفتيه المنفرجتين انفراجة واسعة، والمزرقتين قليلاً نتيجة التوتر، ترى جيداً نيرة أسنانه الصغيرة الوردية الداكنة الملتمعة باللعاب- النيرة ملساء تماماً، ليس عليها أي سن. لقد بلغ يوسف من العمر نصف عام تقريباً، ولكن أسنانه لم تنبت.

تهز زليخة الجسد الصغير المتوتر، المنحني كالقوس. بكاؤه رفيع حاد، ومرتفع يؤلم الأذن. الناس يتقلبون في مراقدهم، يتنهدون، لكنهم يستمرون في النوم- لقد اعتادوا ذلك.

تأخذ ملعقة نسيها أحدهم بعد العشاء، تغرف بها من قاع القدر نقطتين من حساء الملح، وتدس الملعقة في فم يوسف، فيقطب مستاء، ويبصق ويغص بالصراخ. صوته صار متعباً، تتخلله حشرجة، المكان اللين في عنقه ينبض بسرعة وقوة وكأنه يوشك أن ينفجر.

ظهر زليخة يؤلمها. تضع الجسد الصغير الذي يصرخ بأعلى صوته على السرير وتجلس إلى جانبه. تسند رأسها إلى ركبتيها، وتسد أذنيها، ولكن الصوت لا يخف، وكأن بكاء الطفل قد سكن رأسها. في دقائق كهذه كان يبدو لزليخة أحياناً أن يوسف لو رحل عنها يوم ولادته لكان ذلك أفضل.

لاحظت بطرف عينها حركة خفيفة في وسط الملجأ- وكأن ريحاً هبت فحركت الظلال الطويلة الهاربة من بوابة الموقد، فتمايلت وتململت. ترفع زليخة رأسها. فترى عند الموقد تماماً، فوق مقعد معوج مصنوع من بقايا شجرة صنوبر بري عجوز، أوبيريخا جالسة مسندة كوعيها إلى ركبتيها الحادتين المتباعدتين.

ألسنة لهب النار الأصفر تنعكس على جبينها الشاحب، وتسري إلى خديها الذين تغطيهما العقد، ثم تسقط في وهدات الفم والعينين. وجدائلها رفيعة مشعثة تتدلى كالحبال نحو أرضية الملجأ. القرطان- الهلالان بذهبهما الكامد يتدليان من شحمتي أذنيها المجعدتين ويتمايلان تمايلاً يكاد لا يلحظ، فينعكس بريقهما على الجدران المعتمة والأسرّة، وأجساد الناس، الذين يتقلّبون وقد غلبهم النعاس.

تخلط أوبيريخا طويلاً بقايا حساء الملح، ثم تنفض آثاره عن الملعقة بعناية، وتضعها على حافة القدر.

- ابني لم يكن يبكي هكذا، - تقول بهدوء. - لم يكن يبكي هكذا.

نقاط بيضاء من حساء الملح تسيل عن أطراف الملعقة وتسقط في القدر مجدداً محدثة صوتاً. «ترى، كيف أسمع صوتها- عبر هذا البكاء؟» تتساءل زليخة مندهشة.

يوسف مستمر كما في السابق، في الصراخ والشخير وهو على ذراعها. ورعشة خفيفة تسري في جسده الصغير المتوتر، وتنسكب بسرعة زرقة كثيفة في شفتيه.

تستمر النقاط في التساقط من الملعقة في القدر- نقاط كبيرة، ممطوطة، ثقيلة. كل نقطة تشبه ضربة مطرقة. إنها لم تعد ترن- صارت تقصف بصوت عال طمس صوت ابنها.

تقترب زليخة من القدر، تأخذ الملعقة، تضغط قبضتها بيدها، وتضرب بحرف الملعقة الحاد وسط الإصبع الوسطى في يدها الأخرى. ينفر من الجرح الصغير العميق نصف الدائري- كالهلال، سائل كثيف، داكن، أحمر كالعقيق. تعود إلى السرير وتضع إصبعها في فم الولد، تشعر كيف تنطبق نيرته الساخنة فوراً، وتعض الإصبع. يرضع يوسف بشره وهو يئن، ثم يشرع يهدأ بالتدريج. إنه ما زال يتنفس بسرعة، وما زالت يداه ترتجفان بين وقت وآخر، لكنه لم يعد يصرخ- يأكل بشكل عملي، ويتوخوخ، كما كان يأكل حليبها سابقاً.

زليخة تتأمل كيف تزول الزرقة عن شفتيه الصغيرتين، وكيف يتورد خداه، وكيف تسترخي عيناه بهدوء وتمتلئان تدريجياً بنعاس مرهق، شبعان، وكيف تظهر بين الوقت والآخر فقاعات حمراء مرنة على زاويتي فمه الصغير، فتنفجر ثم تسري جداول متعرجة نحو ذقنه.

هي لا تشعر بالألم مطلقاً.

ترفع بصرها فلا تجد أحداً قرب الموقد.

حلّ الربيع على غير توقع، مفاجئاً، رناناً، صاخباً، فوّاحاً. فاقتحمت طاقات الملجأ المسدودة بقطع من الأشياء القديمة المهترئة، زقزقة الطيور التي لا تهدأ، تدعو إيغناتوف إلى مكان ما، تشاكسه، وأخيراً تتحول إلى فكرة ثقيلة واضحة: يجب الذهاب إلى الصيد.

يفتح إيغناتوف أجفانه. لقد صار جسده في الفترة الأخيرة خفيفاً كما لو أنه بلا عظام. صار لسبب ما، يشعر بصعوبة في حمل ذلك الجسد، وصار يجد صعوبة حتى في التفكير. رأسه- فارغ ومصقول كورقة، وأفكاره صارت أيضاً بلا وزن، طيّارة، كظلال أو كرائحة، - لا يستطيع الإمساك بها، أو مواصلتها إلى النهاية. لذا فإن

هذه الفكرة الصباحية التي تتحرك كسمكة كسولة، بطيئة، في رأسه، تبدو له مهمة جداً وضرورية: يجب أن ينهض ويذهب للصيد.

البارحة لم يذهب إلى أي مكان، ظل طول النهار راقداً في مقصورته يرتاح. صخب الطيور العنيد أيقظه الآن، أقلقه، أرغمه على أن يأمل من جديد: ماذا إذا استطعت اصطياد أحد هذه الطيور؟ يجب أن أنهض حالاً وأذهب للصيد.

ينزل إيغناتوف ساقيه عن السرير- على الأرض تصرّ قشرة الجليد (الماء منذ زمن يجري في الملجأ فور ذوبان الثلج). يجد المسدس تحت الوسادة، يفتش طويلاً في الكيس، يتلمس الطلقات: إنها آخر ما لديه. ماذا قال كوزنيتس وهو يغادرهم؟ هل قال إنها تكفي لقتل كل وحوش التايغا؟ الواقع يقول: إنها لا تكفي. هذا مضحك- يجب أن يضحك ويقهقه من أعماقه لهذه النكتة الموفقة، لكنه، لسبب ما، لا يجد القوة اللازمة لذلك. سنضحك فيما بعد، حين نعود من الصيد. لكن من المهم ألّا أنساها- أعني النكتة. يرمي إيغناتوف الكيس الفارغ بعيداً ويفتح بصعوبة مخزن المسدس. يضع فيه الطلقات. في الفترة الأخيرة صار التعامل مع المسدس صعباً أيضاً- إنه ثقيل جداً، ثقيل كتلك الفكرة التي لا تغادر رأسه: يجب الذهاب للصيد حتماً والعودة بطريدة.

أسند يديه إلى حافة السرير ونهض واقفاً على قدميه. رأسه انتابه الدوار، والهواء هرب من رئتيه إلى مكان ما. يقف مسنداً يديه بشكل عمودي على الطاولة الخشبية، وينتظر أن تكفّ الجدران عن الاهتزاز. ثم يسير بعد أن اعتدل بصره وتنفسه، نحو الباب.

على الأسرّة يرقد المهجّرون في مجموعات متراصة متعانقة. إنهم لا يتحركون. قد يكونون نياماً. أمر المناوبين أن يتفقدوا الناس في الصباحات، وأمرهم، إذا ما وجدوا جثة- أن يحملوها إلى الخارج فوراً. أظن أن علينا أن نزيد نوبات التفتيش، فنجعلها مرتين في اليوم.

تتحرك بضعف قرب الموقد كومة صغيرة من الملابس العتيقة- غوريلوف يتنحنح ويلقي في النار قطعة حطب بين الفينة والأخرى- هو اليوم مناوب. والحطب قليل، فكل ما بقي من كومات الحطب العالية التي كانت منضدة على المصاطب لا يكفي لأكثر من نصف يوم. في الفترة الأخيرة صاروا يقتصدون في حرق الحطب، فيحرقون إلى جانبه السلال وأحذية المشي على الجليد التي جدلوها في الخريف. حرقوا حتى سوبريماتيزم إيكونيكوف، بعد أن سلخ عنه لحاء البتولا الذي يغلفه (طحنوا اللحاء وغلوه وشربوه). لكن الحطب، مع ذلك، كان يتناقص بسرعة- وكأنه يذوب. «وفي الليل سنموت»، فكرة تدور في الرؤوس فلا تبالي بها.

كل شيء مدون على الرزنامة التي اخترعها قسطنطين أرنولدوفيتش وعلقها على جذع عند المدخل: نصف آب، وأيلول، وتشرين أول، وتشرين الثاني، وكانون الأول، وكانون الثاني، وحتى شباط، كل هذه الشهور مدونة بيد ثابتة عنيدة. لكن التدوين في الرزنامة صار منذ شهر آذار غير منتظم، ولم يعد مرئياً بوضوح، ومع حلول نيسان اختفى التدوين تماماً. وهو لم يعد الآن مهماً- فأغلب الظن أن شهر نيسان قد انتهى.

يمشي إيغناتوف متدثراً بجلد الوعل القاسي كقشرة الخشب، لقد قطعوا هذا الجلد دون رحمة بالسكين- أخذوا منه قطعاً من أماكن مختلفة، وسلقوها طويلاً، ومع ذلك لم يستطيعوا أكلها لقسوتها الشديدة. لكنهم أكلوا القرنين، والحناء المفروشة فوق الأسرة لجعلها أكثر طراوة، والأعشاب الطبية التي حضّرها ليبييه.

يرتطم إيغناتوف في الظلمة بالباب الخارجي، يدفعه وينسلّ خارجاً- من الشق الذي انفتح يهب هواء طازج ويُسمع رنين نقاط الماء المتساقطة. أمام عينيه- فسحة واسعة، يتنفس التراب الأسود في بعض أماكنها، ويغطي الثلج بعض أماكنها الأخرى، وفيها دوائر سوداء هي بقايا مصاطب الحطب المبنية من حجارة

النهر، وهناك غابة في البعيد، هادئة، وشفافة: جذوع رمادية لأشجار سرو جرّحها الشتاء، وأغصان من أشجار البتولا مقلمة بالأبيض والأسود يغطيها زغب رقيق- أغصان مطرزة بالأحمر من الشجيرات.

رائحة الأرض الكثيفة تصيب الرأس بدوار. إيغناتوف ما يزال يجلس القرفصاء عند مدخل الملجأ، إنه يرتاح ويتأمل عبر جفونه نصف المغمضة أنغارا المسودّ في الوادي. هو لم يتكشف إلا قبل بضعة أيام. لقد ظل مخيفاً كل الشتاء، يتورم بالجليد صاعداً باتجاه التلة. بعض أجزاء منه صارت بعد ذلك تلتمع، وتجري بقعاً كبيرة رمادية تتراقص في الشمس- غير أنها انهارت فجأة، وتحطمت وعامت قطعاً ذات زوايا حادة بيضاء بياضاً يعشى له البصر. «تكذبين- لن تنالي مني»، قال إيغناتوف في سره حينذاك، وهو ينظر إلى الجريان السريع، المخيف لقطع الجليد في النهر المنفلت الذي ابتلع الجليد كله وهدأ الآن، وكمد لونه. لقد صار الآن أزرق، لامعاً، كما كان في الصيف الماضي.

راح إيغناتوف ينقّل قدميه في جزمته التي فقدت كل شكلها، ممسكاً المسدس بيده في وضعية الاستعداد، ويمشي في التايغا باحثاً عن صيد، وخلفه تطل من فوق الأوتاد جماجم رفيقيه القديمين الوعل والقط البري، واثنين من الجقلان، والجرذ ذي الجبين المسطح.

من هنا ينطلق صخب الطيور، من الأعلى، فعند تصالب الأغصان الرفيعة التي نمت عليها البراعم، وتلك التي سقطت عنها الأوراق الإبرية فعرّتها، شيء ما يرن، ويغني، ويصخب. يرفع إيغناتوف رأسه: نقاط زرقاء وحمراء، وصفراء- تتمايل، وتتقافز، وتطير. الطيور في مكان عال جداً- تصعب رؤيتها والوصول إليها. أما البراعم فيجب قطفها في طريق العودة وأخذها للعشاء.

يتحرك إيغناتوف ببطء مستعيناً بجذوع الأشجار وأغصانها، متحاشياً كومات الثلج الذائبة على جانبي طريقه، والبرك الملأى بماء راكد أسود. يتقدم في عمق

الغابة. قدماه تقودانه تلقائياً وهو يطيعهما ويمشي.

يجتاز بشكل ما الجدول الذي ظهر منذ فترة قريبة، وهو الآن يجري فوق الحجارة مصدراً خريراً عالياً، ويصعد فوق الأرض الرمادية المغطاة بأكوام من العفص المتساقط في العام الماضي، وبين جذوع أشجار الصنوبر البري اللامعة بلون ناري أحمر. تناديه التايغا، توحي له بأن الطريدة ستظهر قريباً، قريباً.

يسند ظهره إلى شجرة عجوز عالية وهو يتنفس بصوت مسموع، صدره يخفق، ساقاه تنثنيان، لا تقويان على حمله. لقد فقدتا القدرة على السير طويلاً. هو مشى بعيداً. أتراه يستطيع العودة؟ يغمض عينيه. ضجيج الطيور يتسبب بطنين لا يطاق في أذنيه. يبدو أن التايغا تخدعه، تغريه، ولن تتركه يعود.

فجأة، يسمع خشخشة قريبة جداً. على غصن قرب وجهه تماماً- سنجاب نحيل، رمادي اللون، متسخ، بعنق نحيل وخدين أصفرين، وأذنين طويلتين كأذني لص- إنه لحم! ينظر إليه بعينين بنيتين لامعتين- ثم (هوب) !- يتسلق جذع الشجرة إلى الأعلى. يمدّ إيغناتوف إلى الأعلى يده الراعشة، مصوّباً مسدسه الذي غدا في الحال ثقيلاً ثقل (بود) من الحبوب. يلوح ذيل السنجاب في أعلى الشجرة ساخراً، يشاكسه- يذوب بين الأغصان الخشنة وسهام أشعة الشمس، ويختفي. وبضربة من ذيل السنجاب تشرع السماء تدور أسرع، فأسرع، تتبعها في الدوران ذؤابات الأشجار والغيوم.

يزمّ إيغناتوف عينيه، ويدلّي رأسه. هل يجب أن يعود؟ في الأمام ينادونه، يصرخون، يعدونه بالطيور. يغمض جفونه نصف إغماضة، ويخفض بصره. يكفّ عن النظر إلى السماء المجنونة، يمشي إلى الأمام، يتعثر بجذر شجرة صنوبر بري، يقع، كيف لم يدرك من قبل أ-ن الزحف أسهل من المشي؟ يمضي قدماً على أربع، لا ينظر إلا إلى الأرض.

في مكان قريب جداً بين كتلة متشابكة من جذور أشجار الصنوبر، يلوح له ظهر بلون وردي- فاتح، ويلمع زوج من الأعين الفضولية- ويقفز بهمة إلى مكان ما عصفور شوك. هذا، إذن، من كان يغني طول النهار، طول الوقت! هذا من أغرى إيغناتوف بالمجيء إلى هنا! يصوب مسدسه نحوه بيده الراعشة (هوب) !- طار. يلاحقه ببصره، يرى السماء تدور كما في السابق، فيخفض بصره بسرعة.

وفجأة يدرك أنه يزحف طول الوقت على النتوء الصخري. هو لم يأت إلى هذا المكان منذ الخريف. القمة قريبة. ليت هذه السماء الشيطانية تكفّ لحظة عن الدوران... يستجمع إيغناتوف قواه ويتابع الزحف إلى أعلى.

يلاحظ من بعيد، على القمة نفسها، في قطعة من الأرض بين الصخور تدفئها الشمس، أعشاباً نضرة نامية، خضراء خضرة يعشى لها البصر، تتخللها نجوم من زهور صفراء فاقعة. يشدّ عضلاته، ويزحف إلى الأمام كحية، يقع وجهه على العشب، يقطعه بأسنانه، ويمضغه. يهمهم متلذذاً- الطعم الرائع يملأ فمه، ينساب في عروقه، ويشعل رأسه كنبيذ طازج. إنها السعادة! المعدة ترتجف بقوة وعناد.

الخضرة الزمردية غير الممضوغة جيداً، المخلوطة بأوراق الزهور الصفراء، وعصارة المعدة اللزجة، كل ذلك ينسكب على العشب. إيغناتوف يتقيأ، يسعل مرتعشاً، يدق الأرض بقبضة مسدسه- يتقيأ كل شيء حتى آخر عشبة. يتنفس بصعوبة، يرمي وجهه في الوحل، في العشب الذي رفضته معدته، ويدرك أنها النهاية- لن يصل إلى البيت، فقدْ فقدَ قواه كلها.

لم يطعم المهجّرين ولم ينقذهم.

يبذل جهداً وهو يقرّب إلى وجهه جسم المسدس الثقيل البارد، يدسّ سبطانته الطويلة في فمه، تعض أسنانه الحديد، ويخدش سقف فمه مؤشر التسديد

الصلب. «سفلة»- هذه كانت آخر كلمة خطرت في باله.

وفجأة يشعر بأن السماء في الأعلى كفّت عن الدوران. يرفع عينيه وينظر إلى البعيد. فوق مياه أنغارا الزرقاء الساطعة، يرى بوضوح بقعة بنية طويلة داكنة. إنها بارجة، وإلى جانبها سفينة جر تبدو كنقطة سوداء منتفخة.

Chapter 28

البلدة

يقفز زينوفي كوزنيتس من القارب. رشقات كبيرة باردة من الماء تسقط على جزمته المتينة المنظفة بالشمع بعناية- ثم ترتد عنها وتسقط في أنغارا من جديد. يلقي نظرة صاحب بيت على البلاج الصخري والرابية التي ترتفع خلفه، ويمشي غير مسرع على الضفة. بعده، ترتطم بالأرض أنوف قوارب أخرى مصدرة فحيحاً، وتطقطق المجاذيف، وتقرقع السلاسل، وتعلو صيحات الحرس مخلوطة بأصوات الجماعة الخجولة.

- إلى أين؟! إلى أين أنت ذاهب؟! ارمهم قرب الماء، وسيتدبرون أمرهم بأنفسهم.

- قفوا يا كلاب! قفوا رتلاً! استووا! أفضل!

- لا تبك يا فانو، لقد وصلنا، انظر...

- أيها الرفيق كوزنيتس! هل تريدني أن أصفهم في نسق، أم أتركهم يقفون هكذا، كيفياً؟

- لقد ظننت أننا نسافر إلى بلدة حقيقية فيها ناس. ولكن هنا...

- القوائم، القوائم، أين هي؟!

- اعددهم رأساً، رأساً يا أرتيوخين! لا تتذاكى أيها الحاسوب...

تصمت الأصوات فجأة. ويلتفت كوزنيتس نصف التفاتة متعالية نحو الصمت المتوتر السائد خلفه.

قامة سوداء غريبة تهبط من فوق التلة مترنحة، تجثو بين الفينة والأخرى وكأنها ترقص بساقين لا تنثنيان جيداً. إنها قامة إنسان. ملابسه مشوشة

ومتسخة ومهترئة، فقدت لونها، وحذاؤه جزمة فقدت شكلها، مغلفة بشيء ما، وعلى صدره يتصالب شال نسائي انمحت رسومه، والشعر على رأسه يشبه عرف الطير، ولحيته كالليفة. كان يمشي ببطء وصعوبة. وسرعان ما توضح مظهر وجهه الملطخ بالوحل، وعينيه الجاحظتين المتوحشتين تماماً، والمسدس الذي يحمله بيده المتوترة الممدودة إلى أمام.

يغمض كوزنيتس عينيه البنيتين نصف إغماضة. أهذا وهم؟ أم أنه...

إيغناتوف يمشي، لا يرى أمامه غير هدف واحد هو سحنة كوزنيتس البيضاء المستديرة وكأنها رسمت بفرجار، وشقّا عينيه المفتوحين على اتساعهما دهشة، وعينيه اللتين تعبران عن الطيبة والشبع. السماء السافلة تدور من جديد محاولة جره إليها في عدوها السريع، لكن إيغناتوف لا يستلم، بل ينقّل قدميه بعناد. يطول، يطول كثيراً زمن اقتراب السحنة المستديرة منه، ويتمتم بشيء ما على عجل صوت كوزنيتس الذي يأتيه من بعيد، إما من الغابة، وإما من تحت الماء.

- كيف حالك هنا يا يمامتي؟ أين جماعتك؟ هل ما زالوا أحياء؟ يا لهم من شياطين، ها؟ لقد اندلعت عندنا أحداث آنذاك... الكولاك هجموا علينا أرتالاً... لم يكن لدينا وقت للتفكير بك، أرجو المعذرة...

وأخيراً صارت السحنة قريبة جداً. إيغناتوف يريد أن يقول شيئاً، لكن الكلمات تهرب من ذاكرته، يجأر ويصوب المسدس الراعش إلى صدر كوزنيتس العريض. الزناد- ثقيل، مشدود، وكأنه ثابت لا يتحرك. يكز على أسنانه، ويستجمع إرادته، وما تبقى لديه من قوة، ويوجه ذلك كله إلى سبابته. يضغط على الزناد- فيصدر المسدس صوتاً جافاً.

تضحك سحنة كوزنيتس، وتضيق عيناه:

- من يذكر الماضي- يصيبه، كما يقال...

يبلع إيغناتوف ريقه ويضغط الزناد مرة ثانية- فيصدر المسدس الصوت الجاف نفسه.

- كفاك زعلاً يا إيغناتوف، - يقول كوزنيتس وهو يقهقه. - الحياة الجديدة كلها تبدأ عندك الآن. انظر إلى هذه المجموعة التي أتيتك بها- إنها قامات تستطيع أن تستخدمها للفلاحة...

يدا أحدهم تأخذ المسدس بحذر من أصابع إيغناتوف الممسكة به. وابتسامة كوزنيتس تنداح، تذوب في ضوء الشمس الساطع إلى حد لا يطاق. وتقوم السماء بدورة أخيرة ثم تغطي إيغناتوف وكأنها لحاف...

أول ما رآه حين استيقظ كان وجه كوزنيتس المستدير المسرور. أنّ كما لو أن ألماً أصابه، أما كوزنيتس فربّت على يده وقال: لا بأس يا أخي، ستستعيد صحتك سريعاً. لقد ظللت نائماً طول يومين. استيقظت البارحة لفترة قصيرة، أكلت كل ما عندي من شوكولا الضباط- ثم عدت إلى النوم. هل أنت فعلاً لا تذكر شيئاً؟ يهز إيغناتوف رأسه بالنفي، وينهض بجذعه مستنداً إلى كوعيه. إنه يرقد فوق بعض الأكياس تحت مظلة من المشمع قرب شجرة سرو كبيرة، ومغطى بمعطف شتوي سميك. ومن كل الجهات يعلو زعيق المناشير، وصوت الفؤوس، ودقات المطارق، وصخب شديد.

- أين أنا؟ يسأل.

- أنت في المكان نفسه، - يضحك كوزنيتس (كفاك ضحكاً، أيها السحنة المشوربة)، الجالس على قطعة من جذع شجرة إلى جانبه، يكتب بقلم الرصاص شيئاً ما.

- وأين جماعتي؟

- أمواتك أحياء، فلا تقلق. جميعهم أحياء. هؤلاء الشياطين ليسوا من النوع الذي يموت بسهولة! أنا لم أر في حياتي ناحلين إلى هذا الحد. لقد أبقيناهم هذه الفترة في الملجأ خوفاً عليهم من الرياح الباردة.

يرتد إيغناتوف فيرقد على ظهره من جديد. ليته يرقد هكذا إلى الأبد: ينظر إلى الحركة الكسولة لأوراق الحناء فوق رأسه، ويشمّ رائحة صمغ السرو، وأصوات الناس المنهمكين في العمل. يتلمس بكفه أطراف الأكياس المنتفخة التي يرقد فوقها.

- ما هذا؟

- مخزون الأغذية. لفظ كوزنيتس ذلك ببساطة وكأنه يتحدث عن الماء أو الهواء.

يتقلب إيغناتوف على جنبه بحركة سريعة فيصبح على الأرض. يتلمس بيدين ضعيفتين ربطات الأكياس، يشدها، يسحبها نحوه- فينفتح كيس منها، في داخله حبوب طويلة، حادة الرأس، رمادية- متسخة تغطيها قشور فضية. يدس يده في عمق الكيس البارد، فيخرج كفه ممتلئة بحبوب تلمس خيشوميه برائحة حادة وبعض الغبار: إنه القمح.

- وأنت أسأت بنا الظن!- كوزنيتس يلقي على إيغناتوف نظرة أبوية، كنظرة أب إلى طفله المعجب بدمية صغيرة جديدة. - الأفضل أن تنظر إلى ما حولك. انظر إلى ما حولك.

يتغلب إيغناتوف على ضعفه ويجلس إلى جانب الأكياس (هو لا يستطيع التمدد فوق الخبز)، يسند ظهره إلى جذع شجرة سرو دبق بسبب الصمغ، ويتأمل ما حوله. لقد تغير المعسكر في الأيام الماضية. الملجأ ما زال في مكانه، ومن مدخنته يتصاعد متلوياً شريط رفيع من الدخان، («لقد أشعلوا الموقد»، - يقول

متنهداً بارتياح. - شكراً لهم على ذلك)، ومن حوله تغلي الحياة. أناس لا يعرفهم- مئة؟ أكثر من مئة؟- منهمكون في العمل، يتراكضون، يجرّون قطعاً متساوية من الخشب ذات لون أصفر كلون الخوخ، يقطعون الجذوع بفؤوسهم، يدقون الخشب بمطارقهم. وعلى الأرض تجمعت بسخاء نشارة الخشب ونثاره، وقطع من لحاء الشجر، ومن الخشب، وفي الهواء علقت رائحة صمغ كثيفة إلى حد يمكن معه غرفها بملعقة. في المكان نحو عشرة من العناصر يرتدون بزات رمادية ويحملون البنادق- إنهم يراقبون العمل، يطالبون بالسرعة في أدائه، ويصرخون. وفي وسط التلة تنمو أساسات ثلاثة أبنية واسعة وطويلة ستكون برّاكات في المستقبل.

حول النار يحوم زوجان من النساء، وتتصاعد رائحة دسمة في دلوين يغليان فوق النار.

تحت السرو حيث يجلس إيغناتوف وكوزنيتس، - كومة من الصناديق والعلب والأكياس، ورزم من الرفوش والشوكات المعدنية، والسلال الكبيرة، والدلاء، والقدور- آها، إنه المخزون المادي.

- عظيم، - لم يستطع إيغناتوف إلا أن يقول هذا، - أنت هنا... تصرفت بشكل رائع.

- وكيف لا!- يحرك كوزنيتس ذقنه الرومانية القوية حركة ذات مغزى. - من كنت أنا من قبل؟ كنت وظيفة حماية! وأنت؟ وظيفة مرافقة! والآن، أنا وأنت معاً شخصان مسؤولان. الكولاك كلهم الآن- جماعتنا. يا يمامتي.

هكذا عرف إيغناتوف أن كل القرى العمالية التي أنشئت منذ عام ألف وتسعمئة وواحد وثلاثين من أجل إقامة الكولاك الذين نزعت أملاكهم، وتربيتهم تربية عمالية، قد وضعت تحت إدارة حكومية حزبية خاصة ودخلت في نظام (غولاك) الذي أنشئ منذ نصف عام، ولكنه قدّم نفسه نظاماً ناجحاً ومؤثراً، وقد ألقيت الآن

على عاتق هذه الإدارة الفتية الناجحة مسؤولية مراقبة المهجّرين وتوزيعهم، وخدمة معيشتهم، وتشغيلهم.

- ونحن، أنا وأنت يا إيغناتوف لن نلطخ وجهينا بالوحل. سنتصرف، سنعلم المستغلين العمل البروليتاري، وسنريهم ما هي الحياة السوفييتية الحقيقية. هناك، عند الغابة، - سنبني مستشفى ميدانياً، وإلى جانب البراكات- مطعماً، وفوق التلة- مقراً للقوميندانت- قال كوزنيتس وهو يلقي نظرة طويلة ثابتة على إيغناتوف.

- متى سأعود إلى موطني؟- إيغناتوف يطوف بعينيه على النهر، فلا يجد غير قارب كوزنيتس يترجح في المرسى غير بعيد عن الضفة. يبدو أن البارجة قد غادرت فوراً بعد أن أفرغت حملها من الناس.

- سأغادر اليوم مساء. - يقول كوزنيتس وهو يضع القلم الرصاص في المصنف الجلدي القاسي، ويشد حزامه على خصره بقوة- لقد طال جلوسي معك.

إيغناتوف يشعر كيف ينضغط فكاه، واحد على الآخر، ببطء وقوة مؤلمة، وكأن الفكين يوشكان أن يتحطما- ويتفجر الألم في صدغيه.

- نحن، - يقول من بين أسنانه بعد دقيقة صمت. - نحن سنغادر في المساء.

- وهل تنوي الذهاب بعيداً؟- يسأله كوزنيتس بهدوء ولهجة مسالمة، وكأنه يناقش معه ذهابهما معاً لجمع الثمار.

- إلى بيتي- يقول إيغناتوف بصوت كالفحيح. - أنوي العودة إلى بيتي، يا صاحب السحنة الضاحكة.

- آها، اذهب إلى هناك، فعندكم الآن في قازان أشد الأوقات سخونة. إنهم يكتشفون في كل يوم منظمة سرية لمجموعة مخربين، أو مناشفة، أو جواسيس ألمان أو إنكليز، أو الشيطان يعلم ماذا. لقد بدأت هذه الحالة في الربيع الماضي

وهكذا استمرت... ثلاثون في السجن من أعضاء اللجنة المركزية وحدها، فقد تبين أنهم سفلة باعوا أنفسهم. ولم تسلم الإدارة من الاعتقالات فقد سجنوا عندكم جميع العاملين في الإدارة الحكومية الحزبية يا إيغناتوف، - ولست أدري من بقي فيها ليقوم بالعمل. لقد نشروا حول هذه المسألة مقالة في «البرافدا» عنوانها «الأفعى هيدرا التترية».

- أنت تكذب يا كلب!

- حسناً، سآتيك بالجريدة- كوزنيتس لا يغضب، بل يظل ودوداً أيضاً. - سأقضي المساء كله في المكتبة، سأجلس هناك ولن أضن بالوقت، سأجد الجريدة، وأنت ستقرؤها.

أنت تكذب، يقول إيغناتوف في سره، تكذب، تكذب... وتنبسط أمام عينيه في هذه الأثناء صورة مكتب باكييف، والجنديين صاحبي النظرات المتوترة عند المدخل، والقامة الرمادية التي تقلب أكوام الأوراق على الطاولة. أيمكن ألّا يكونوا قد أطلقوا سراح باكييف؟ أيمكن أن يكون هو الأفعى؟ هذا غباء، هراء، هذيان.

- لكنك لن تستطيع الوصول إلى هناك، - يقول كوزنيتس. - أنا رأيت قضيتك. إنها، ببساطة، أسطورة لليل، اسمها «ألف ليلة وليلة»: الوفيات الكثيرة في القطار، والفرار المنظم لخمسين شخصاً، واختفاء شاهد مهم عن التحقيق (هو لم يكن شاهداً عادياً بل كان شاهداً من الكولاك، لاحظ ذلك!) فكّر يا إيغناتوف! فالأمر لم يقف عند هذا الحد!- هناك تقديم الرشوة لموظف، رئيس محطة قطارات. لقد بالغت في جهودك- ولن يستطيع غيرك اللحاق بك.

ضرب إيغناتوف الأرض بقبضة يده، وأغمض عينيه. كوزنيتس محق، هو محق في كل ما قاله.

- ... وهكذا، كي لا تقع يا يمامتي في المشاكل، سنعيّنك هنا، ونعطيك إقامة في هذا المكان. ستحتمي مبدئياً بظهري العريض، وتكفّر عن ذنوبك. وما أن يمضي عامان حتى تكون أنت قومينداناً محترماً، رجلاً مهماً، تطرح عليهم مشاريع لم يحلموا بها، كادحاً سيبيرياً! منذا الذي سيجرؤ على التعرض لك حينذاك... - ينهض كوزنيتس، يصلح وضع حزامه، ويعلق المحفظة الجلدية على خصره- هيا بنا. سأعطيك الوثائق، وأعرّفك بالناس. لكن عليك في البداية أن تغتسل، وترتدي ملابس نظيفة، وإلا فإن العاملين معك سيخافون منك ويعدّونك وحش غابة في هيئة إنسان.

- وما حاجتك إليّ؟ يسأله إيغناتوف متألماً وهو يتأمل من أسفل إلى أعلى قامة كوزنيتس القوية.

- نحتاج إلى ناس. عدد القرى المبنية في التايغا سيبلغ المئة قريباً. لمن نتركها؟ من نأتمن عليها؟ وهم سيسألونني أنا عنها. من الواضح يا إيغناتوف أنك رجل فكر حتى أظافرك، لذلك أسلّمك مئتي نفس وأنا مطمئن. لقد أطعمت جماعتك نصف الأموات شتاء وستعرف كيف تطعم هؤلاء.

- ومن أين لك أن تعرف؟- ينهض إيغناتوف ببطء معتمداً بيده على الجذع الدبق بالصمغ الأبيض الذي يسيل منه. - أليس من المحتمل أن أكون الأفعى الأسطورية هيدرا؟

ساقاه ما زالتا ضعيفتين ترتجفان، لكن صار باستطاعته أن يقف، ويمشي.

- أنت إنسان جاهل يا إيغناتوف. لدى الأفعى هيدرا رؤوس كثيرة لا يمكن إحصاؤها. أنت يمكن أن تكون رأساً واحداً من رؤوسها، أما أن تكون هيدرا كلها فلا. يجب أن تعرف مثل هذه الأمور.

ومع ذلك، جلب له كوزنيتس الجريدة. ظهر بعد شهر، في بداية الصيف. رأى إيغناتوف جيداً من النافذة، قامة القارب الأسود الطويلة وهوائييه اللذين يبدوان كشاربين لحيوان مفترس ومصابيحه الشبيهة بعيون جاحظة كبيرة، وقد ارتسم فجأة على مرآة الماء الزرقاء الداكنة. كان مقر القومينداندت مبنياً على أعلى نقطة في التلة، ومن هذا المكان يرى المرء جيداً البلدة، وشريط الضفة العريض، ونهر أنغارا نفسه.

«لن أذهب لاستقباله» قال إيغناتوف في سره، ووضع بسرعة على الطاولة التي صنعها بيده من صندوق خبز مجفف قلبه على قفاه، سمكات مجففة وطاسة علقت على جوانبها بقايا طبق الحبوب المطبوخ يوم أمس، موحياً بذلك أنه كان يتناول الغداء. وراح يراقب من وراء فتحة النافذة (الأطر لم توضع بعد وكذلك الزجاج، وقد وعدوا بوضعها والزجاج في أواسط الصيف) كيف وقفت السفينة بسرعة في المرسى وكأنها في بيتها، وألقت بالمرساة على الضفة، ثم أنزلت في الماء قارباً خشبياً صغيراً.

ركضت قامة لم يعرفها لأول وهلة نحو القارب بسرعة وحماسة، وكأنها حجر طار من تحت قدم، - إنها قامة غوريلوف. هو يسرع كي تراه عيون الرئاسة، تاركاً المكان الموكل إليه (إتمام بناء المشفى الميداني). إنه يستحق على فعلته السجن في زنزانة منفردة يومين أو ثلاثة، لكن ليس في هذه البلدة سجن انفرادي.

خاض غوريلوف في الماء من دون أن يخلع حذاءه، أمسك بمقدمة القارب الحادة، وشدّه نحو الضفة، وهو يقول شيئاً ما على عجل، ويهز رأسه الكلبي المشعث هزات خفيفة، ويميل بعموده الفقري تارة إلى هذه الجهة، وتارة إلى تلك- عارضاً خدماته. لم تصغ الرئاسة لما يقول- نزلت إلى الأرض، ورمت الحبل لغوريلوف، ومشت إلى مقر القومينداندت.

جلس إيغناتوف إلى الطاولة، وضع على قطعة خبز مجفف نصف رطبة، سمكة قاسية الملمس عليها خطوط ملح بيضاء. لم يتسع له الوقت ليقضمها فقد فتح كوزنيتس الباب بحدة، دون أن يقرعه. ودخل بسرعة وكأنه يدخل إلى بيته. نظر إلى إيغناتوف الذي جمد وفي يده قطعة التوست، ورمى أمامه على الطاولة الجريدة المطوية أربع طيّات. اقرأ، قال له، ريثما أرى ما عندك هنا، لا تقلق. هيا.

ورقة الجريدة مهترئة الأطراف، مصفرّة إلى حد الاسوداد، مشققة الثنيات يأخذها إيغناتوف بحذر، كأنها حيوان مائي زلق، يفتحها. في الزاوية العليا اليمينية- الختم البنفسجي لمكتبة مدينة كراسنويارسك؛ وفي جانبها ثقبان مشرومان، وكأن أحدهم انتزع الجريدة من مجموعة في مصنف. قلبه يدق ببرود وصوت منخفض- لم يخدعه كوزنيتس في حديثه عن المكتبة.

على الصفحة الأولى مقالة افتتاحية- خطاب كالينين حول أبطال التصنيع. بعد ذلك رسالة جماعية من عاملات النسيج الباريسيات: نداء لعاملات الاتحاد السوفييتي لإحاطة مقاتلي الجيش السوفييتي بحب ورعاية متميزين، وطلب من العاطلين عن العمل الألمان بإعدام المخربين الذين يعطلون البناء الاشتراكي في سيبيريا السوفييتية... يقلّب إيغناتوف الورق الذي يخشخش ويصدر صريراً، وتفوح منه رائحة غبار حلوة. «الخطة الخمسية في أربعة أعوام!»، «لننتج المزيد من الفولاذ!» «الشوندر السكري- أفضل رعاية!». وفي الزوايا ملاحظات المراسلين، ورسائل من الريف، وقصيدة عن التراموای...

وفجأة- على عرض الورقة تتلاحق حروف كبيرة مائلة: «لقد ضبطوا الهيدرا». تظهر أمامه مجموعة كاملة من الصور، وجوه لا يعرفها، وأخرى يحس بأنه رآها (أليس من المحتمل أن يكون التقى بها في الممرات؟) ويظهر أمامه وجه باكييف صارماً، منتصراً؛ بلا نظارة، ولذا تبدو نظرته طفلية إلى حد ما، وحالمة وعلى صدره يلتمع كالفضة وسام الراية الحمراء. لقد وضع باكييف هذه الصورة على بطاقته

الحزبية. المقالة طويلة وتفصيلية تملأ الصفحة، وهي مكتوبة بخط ناعم. وفي الزاوية رسم يصور يداً جبارة تضغط عنق عجوز بعينين جاحظتين مجنونتين، على رأسها عشرات الحيّات بدلاً من الشعر، رقبتها رفيعة جداً ومتهدلة، تكاد تنقصف، أما الحيّات فغاضبة كالشياطين، تهاجم اليد التي تمسك بها، وتحاول أن تعضها.

يمسّد إيغناتوف حنجرته- فيشعر فجأة بحكة.

معنى ذلك أن باكييف أرسله في تلك المهمة عن عمد. نعم، إن هذا واضح جداً الآن. ماذا قال آنذاك؟ قال: «أنا انتقيتك أيها الصديق... «ماذا؟ لقد أراد إنقاذه، هذا هو ما أراده، أن يسحبه من تحت الضربة، ويرسله بعيداً. الغريب في الأمر أنه كان في الفترة الأخيرة يمشي وكأنه غاطس في الماء، - لقد كان يعرف، كان يعرف، ولم يهرب- ظل جالساً في مكتبه، ينضد الأوراق، وينتظر.

وضع إيغناتوف رأسه بين يديه. ميشكا، يا ميشكا... أين أنت الآن؟

تحملق فيه من فوق الطاولة (الهيدرا) نصف المخنوقة.

الباب الجديد ينفتح على مصراعيه وتظهر فيه ابتسامة كوزنيتس العريضة.

- حسناً، - قال له، - أيها الرفيق القومينداتت. برافو! المطعم عندك كالقصر. والمشفى أيضاً، يتسع حتى للجميع دفعة واحدة. أنت تبني الحياة للمستغلين. وقد حان وقت الحديث عن أيام العمل.

إن مطعماً كالذي بنيته يستحق منهم عملاً مضاعفاً.

يصلح إيغناتوف وضع الجريدة بكفه، ويضيف على طعامه سمكتين أخريين:

- اجلس يا رئيس.

- ظننت أنك لن تدعوني للجلوس، - قال كوزنيتس مازحاً وهو يجلس. تغوص يده في الحقيبة الجلدية التي على خصره، يخرج منها زجاجة طويلة، ضيقة،

شفافة.

- لم يجيئونا بالكؤوس بعد، - يقول إيغناتوف، وهو يقطع فوق الجريدة السمكات القاسية كالخشب. - سنشرب من الزجاجة.

كوزنيتس يطوح بيده- لا تهتم لذلك! - يفتح الزجاجة ويستنشق متلذذاً الرائحة عبر عنق الزجاجة الضيق. إيغناتوف يقطّع بسكين عوجاء، صنعها من بقايا منشار بقبضة واحدة، جسد السمكات وعظامها- مباشرة فوق صورة الهيدرا الخائفة، فيقع حدّ السكين بين حين وآخر على الجريدة- يقطع الهيدرا، يجزئها، يطحنها.

بلغ في حزيران عام واحد وثلاثين عدد سكان البلدة التي ما زالت بلا اسم، مئة وستة وخمسين مهجّراً بمن في ذلك العجائز الذين عاشوا أول شتاء، مضافاً إليهم عشرة من الحرس والقومينداانت.

عاشوا في ثلاث برّاكات (بدت لهم البراكات واسعة جداً ومضيئة بعد الضيق الذي عانوه في الملجأ). الجدران مصنوعة من قطع طويلة مستوية من الخشب، والأبواب مركبة على مفصّلات. ووعدوهم بإحضار مواقد معدنية من المدينة. كان لكل فرد مكانه الخاص الذي ينام فيه، وقد فرشت الأماكن كلها بأغصان الشجر وغطيت بالملابس. وضعوا في إحدى البراكات النساء والأطفال، ووضعوا في الاثنتين الأخريين الرجال. أما الحرس فوضعوهم في بناء صغير شيّدوه إلى جانب إحدى البراكات. وخصصوا للقومينداانت، حسب الأصول، منزلاً مستقلاً في مقر الإدارة.

كانوا يأكلون (في ريستوراتسيون) كما كان يقول قسطنطين أرنولدوفيتش: هم ما زالوا يحضرون الطعام على النار، لكن طعامهم صار أكثر تهذيباً، يجلسون في صفوف منتظمة، إلى موائد صفراء صفرة بهيجة، تفوح منها رائحة صمغ الصنوبر البري، وفي مكان مسقوف. كانوا يأكلون حساء السمك (جمعوا تحت إمرة لوقا

فرقة صيد سمك من ثلاثة أشخاص)، وفي مرات أقل، يأكلون من الصيد البري (كان إيغناتوف يسمح لفتيان الحراسة بالتجول في التايغا لتحريك أجسادهم)، وفي حالات أكثر ندرة، كانوا يأكلون ما ينقلونه إليهم من المدينة كالحبوب والتوست والمعكرونة (كانت حصة الفرد قليلة، وكأنها مخصصة لطفل، لكنها كانت موجودة!) وكانوا أحياناً يحصلون على السكر، وقد حصلوا مرة على قطع من الشوكولا متصلبة كالحجر. كان الطعام يقدم مرتين في اليوم. في الغداء يحملونه في الدلاء إلى مكان العمل في الغابة، أما العشاء فكانوا يتناولونه في المطعم. كانوا ما يزالون يأكلون بملاعق من القواقع (جاؤوا بالصحون والكاسات، أما الملاعق فنسوا أن يضعوها مع بقية الأواني). السعادة ليست في الملاعق على كل حال!

المشفى الميداني الذي بنوه كبير، يتسع لعشرة أسرة. في القسم الأمامي- غرفة استقبال، وأسرة لفحص المرضى (الأسرة من طابق واحد-، ليبييه أصر على ذلك)، وفي القسم الخلفي غرفة صغيرة للعاملين. وفي هذه الغرفة أقام وولف كارلوفيتش. قدّم لكوزنيتس قائمة من مئتي بند- أنواع أدوية، وأدوات، طالباً شراءها. ضحك هذا الأخير وحمل إليه في الزيارة التالية حقيبة مسطحة بهت لونها، عليها رسمة صليب نصف ممحية، وفي قاعها شيء ما يتدحرج فيصدر صوتاً. صحيح أن ما فيها ليس المئتا بند، لكنه أفضل من لا شيء...

لقد قضى الاتفاق بين الإدارة الحكومية- الحزبية وقوميسار الشعب لشؤون الغابات بتسليم البلدة إلى هذا الأخير للاستفادة منها في صناعة الأخشاب، وبالضبط- في التحضير للعمل في الغابات، فكان المهجّرون يخرجون في كل صباح، على صيحات الحرس النشيطة لحضور التفقد الصباحي، ثم ينطلقون في التايغا.

كانوا يعملون جماعات- بمناشير ذات قبضتين- وبالفؤوس (المناشير الكريهة ذات القبضة الواحدة ظلت في الماضي)، وكان في كل جماعة ثلاثة أشخاص: اثنان يقطعان الشجرة ويسقطانها، والثالث يقوم بتنظيف الجذع من الأغصان والعقد ويجمعها في سلال، بعد ذلك كانوا ينشرون الجذع قطعاً بقياسين (ستة أمتار- للبناء، ومترين- للتدعيم). ثم يجمعون هذه القطع، ويتعاونون ثلاثتهم في نقلها بالعربة الزحافة إلى مكان قرب البلدة حيث ينضدونها.

وفي المساء يعودون. قلائل من كانوا ينفذون الحصص المطلوبة منهم (الحصة المطلوبة من كل فرد أربعة أمتار متراصة من الخشب)، النساء، عموماً، لم يكنّ ينفّذنها أبداً، لذلك كانوا ينقصون حصصهن من الغذاء. وكان القادمون الجدد يحتجون، أما كبار السن فمعظمهم كان يصمت مثل إيكونيكوف، وبعضهم يدمدم بينه وبين نفسه مثل قسطنطين أرنولدوفيتش. كانوا يشعرون دائماً بجوع لا يرحم، فيسرع كثيرون منهم بعد العشاء إلى التايغا ليجمعوا نباتات الفطر المتنوعة التي كانت تنمو بكثرة قرب البلدة، وكذلك الثمار البرية، وينبشوا جذور النباتات البصلية التي يذكّر طعمها بطعم البطاطا عند طبخها.

لم تكن الإدارة تعترض على ذلك. وصادف أن كان الحرس في البلدة مجموعة مرحة وحيوية، يصطادون تارة بعض الطيور كي يكون طعام العشاء دسماً، وتارة يقبضون على فتاة من جماعتهم بين الشجيرات، يتنشطون بمداعبتها. لقد كان هؤلاء الفتيان بسطاء ومن دون عقد. كانوا يضربون من يعصي الأوامر، وقد أطلقوا النار على أحدهم وقتلوه (إما لأنه حاول تنظيم فرار، وإما لسبب آخر غير معلن). وكانوا يخافون من القومينداتت (إنه صارم جداً)، أما الغابة فكانت تريح نفوسهم، ويتحررون فيها من القيود.

نصبوا في مركز البلدة لوحة للإعلان يضعون عليها إعلانات تحريضية تفوح منها رائحة دهانات حادة، يبدلونها من وقت لآخر وكانت مهمة هذه الإعلانات

التحريضية تسريع عملية إعادة تربية الطبقة المستغلة. خلاصة القول عموماً هي أن الحياة كانت تنبني.

أعطوا زليخة ويوسف سريراً في الطابق السفلي بعيداً عن المدخل، لا تصل إليه تيارت الهواء من الباب الذي كان يفتح باستمرار. وإلى جانبها كان سرير إيزابيلا، وبعده سرير الجدة يانيبا، ثم أسرة عدد من اللينينغراديين (لقد حرصت العجائز على البقاء معاً قدر الإمكان). أما ليلى الجورجية فقد اختارت سريراً في الطابق العلوي رغم تقدمها في السن ووزنها، فاضطروا إلى أن يثبتوا على حافة سريرها لوحين متينين من الخشب كي تصعد عليهما إلى الطابق الثاني وكأنها تصعد سلّماً.

أبقوا زليخة الماهرة السريعة، تعمل في المطبخ، وجعلوا عليها رئيساً رجلاً من الجدد لم يصبح بعد عجوزاً، لكن قوامه كان جافاً كقشرة الخشب، وظهره محني إلى حد الحدب، ومنظره يوحي بالشهامة الشديدة، كان حليقاً في يوم من الأيام، غير أن شعراً أسود غير كثف نما الآن على رأسه، اسمه أشكينازي. كان صموتاً، عيناه ذابلتان، خائفتان، نصف مغمضتين، ولحيته طليقة، أما نقرته فيبدو وكأنه حلقها خصيصاً من أجل من يرغب في القبض على عنقه.

يقال إنه كان طباخاً ممتازاً في يوم ما.

لم يكن أشكينازي يدير أحاديث طويلة مع زليخة، بل يكتفي بالعبارات القصيرة أو الحركات في حديثه معها: وكانت تخافه قليلاً، فهو واحد من القلائل الذين جاؤوا إلى البلدة نتيجة قرار بتغيير عقوبتهم، ولولا ذلك لكان الآن يقبع في السجن أو المعتقل مع اللصوص والمجرمين الحقيقيين. لم تكن زليخة تعرف جريمته، لكنها كانت، من باب الاحتياط، تحرص على تلبية طلباته بسرعة وإتقان، وعدم إغضابه. لقد كان العمل معه، ممتعاً بوجه عام، فهو يجيد عمله، ويتعامل مع زليخة باعتدال ومن دون استفزاز.

في البداية ألقى نظرة سلبية على اليد المشوهة لمساعدته الجديدة متسائلاً عما إذا كانت ستعيقها في العمل. كانت نهايات الأصابع الخمسة في يد زليخة اليسرى مغطاة بندوب خفيفة قصيرة ومعوجة شبيهة بالفواصل في الكتابة. «أدخلت يدي في المطحنة»، - قالت تشرح الأمر لرئيسها الجديد من دون أن تنتظر سؤاله. أما هو فغيّر نظرته السلبية تجاهها حين رأى مهارتها في التعامل مع الطيور والسمك، وهدأت نفسه.

أدار الاثنان أعمال مطبخ البلدة كلها: اشكينازي كان «الميتر»، بحسب تعبير قسطنطين أرنولدوفيتش، وزليخة تخدم بين يديه: تغسل، تنظف، تنتف الريش، تنظف أحشاء الطيور والسمك، تقسم، تقطّع، تبرش، تكشط، تغسل ثانية. وكانت، بالإضافة إلى ذلك، تحمل الغداء إلى الغابة، تحمل في إحدى يديها الدلو وفيه الحساء والطعام، وفي اليد الأخرى- الماء للشرب، وتنطلق إلى أول تجمع للعمال- توزع الطعام وتعود. تحمل وجبة جديدة وتمضي إلى تجمع العمال الثاني- توزع الطعام وتعود لتحمل وجبة ثالثة إلى التجمع الثالث... وهكذا. وعندما تنتهي من المرور على الجميع وإطعامهم، يحين وقت تحضير العشاء. وفي المساء كانت تزحف إلى مكانها منهكة القوى، ترتمي فوق مرقدها وهي تفكّر بأنها سعيدة الحظ بعملها في المطبخ.

في زمن الجوع الشتوي الذي لم تكن زليخة تحب أو حتى تريد أن تتذكره، كان يوسف ينمو ببطء، بل لعله لم يكن ينمو أبداً. شعره كان ضعيفاً وقليلاً، وبشرته شاحبة، وأظافره شفافة ومتقصفة كجناح النحلة، وأسنانه لم يظهر أيّ منها. وكانت حركته قليلة، ومن دون رغبة، وكأنه يريد الاحتفاظ بقوته، ونظرته دائماً ناعسة ومتأففة، وهو لم يكن قادراً على الجلوس- شكراً للرب لكونه ظل حياً. أما في الصيف، فحين ظهرت الشمس ووجد الطعام، صار فجأة يعوّض ما فاته- ينمو بسرعة، ويأكل كثيراً كالكبار (أشكينازي لاحظ أن زليخة تطعمه كثيراً فلم يعترض

بل صار يدير ظهره). وصار يبتسم فتلوح تحت سطح نيرته مسطحات أسنان عريضة ومتينة تشق طريقها للظهور. وتعلم الجلوس، والزحف سريعاً كالصرصار، واسودّ الشعر على رأسه وتجعد، ونمت ساقاه، وذراعاه، بل اكتسبت يداه ورجلاه بدانة طفلية خفيفة، لكنه لم يكن يرغب في الوقوف والمشي، رغم أن عمره تجاوز السنة.

كان يوسف متعلقاً بأمه تعلقاً مرضياً غير معقول. حين تعمل في المطبخ تشعر بيديه الصغيرتين الكثيرتي الحركة تمسكان ذيل ثوبها. كان يتسلل تحت الطاولة، يتلمس أمه ثم يعود إلى مكانه. وكانت، حين تخرج لعمل شيء ما في الفناء، أو تذهب إلى النهر لجلب الماء، تعرف أنه سيبحث عنها، فتسرع في العودة، لاهثة، يبللها العرق فتجده جالساً في العتبة يبكي بصوت مرتفع، ويدهن بدموعه الغزيرة وجهه بيديه المتسختين.

في البداية صارت تأخذه معها حين تذهب لتوزيع الطعام في التايغا. أرهقها ذلك، إذ كان عليها أن تحمل إلى هنا وهناك دلوين ممتلئين طعاماً، وطفلاً وازناً عمره تجاوز السنة. وقد تبين لها أن هذا ليس بالأمر السهل، بل إنه مستحيل عملياً. أضف إلى ذلك أن البعوض كان ينقض في الحرج على يوسف فيجفوه النوم طويلاً بعد ذلك، بسبب العقصات التي تغطي بشرته الرقيقة.

في المرة الأولى التي تركته فيها فترة طويلة في المطبخ تألم قلبها. وبعد ساعات وزعت فيها طعام الغداء على جميع سكان البلدة، هرعت إليه بقلب يخفق بشدة، فتحت باب المطبخ، المطبخ يسوده الهدوء. اندفعت تبحث عن ابنها- فوجدته نائماً على الطاولة، يدس وجهه الذي ورّمته الدموع، في الثنية البيضاء لقطعة القماش التي تمسح بها عادة غطاء الطاولة. فصارت منذ ذلك الحين، تترك له منديلها، إذ من الأفضل أن يدس وجهه فيه، بحسب رأيها. وقد اضطرها هذا إلى البقاء برأس مكشوف.

في الفترة الأخيرة صارت زليخة تقوم بأعمال كثيرة كانت قبل تعدّها مخجلة وغير جائزة.

صارت تصلي نادراً وعلى عجل، وقد اقتنعت في زمن الجوع الذي عانوا منه قبل فترة وجيزة، بأن اللـه لا يراهم ولا يسمعهم، فلو أن العليّ القدير سمع دعاء واحداً من الأدعية الممزوجة بالبكاء التي أرسلتها زليخة إليه في ذلك الشتاء القاسي لما تركها، هي ويوسف، من دون رعايته ورحمته. ذلك يعني أن نظرة الرب السامية لم تشمل هذا المكان النائي المعزول. في البداية أخافها العيش من دون الاهتمام الدائم والرقابة الدائمة للعين التي ترى كل شيء، وشعرت باليتم، لكنها اعتادت على ذلك فيما بعد، وسلمت بالأمر، إلا أنها ظلت بحكم العادة ترسل أحياناً إلى السماء صلوات قصيرة وعجلى، وكأنها ترسل رسائل قصيرة من أماكن بعيدة ومعزولة، لا تثق بأنها ستصل إلى العنوان المرسلة إليه.

كانت تدخل إلى قلب الحرج وحدها وتظل هناك طويلاً. لقد أدركت أن هذا المكان دغل حقيقي عابس، أصم، لا تخترقه العواصف، منذ اليوم الأول حين ركضت في الطريق الذي تحده أشجار السرو إلى مكان اقتلاع الأشجار، حاملة الطعام إلى الحطابين، وبطنها يملؤه صقيع الخوف. كانت تعرف أن الصلوات تفقد تأثيرها في الدغل، لذلك لم تضع وقتها في الصلاة- تمرّ كالظل بين الأشجار غير عابئة بالأغصان الصغيرة التي تلطم وجهها، كازّة على الفكين، جاحظة العينين من الخوف، وهي لا تفكر إلا بأن ابنها ينتظرها في البلدة، وهي، لذلك، ملزمة بالعودة. لقد بقيت حية، لم يلحق بها الدغل أي أذى، وتشجعت سريعاً فلم تعد تركض، بل صارت تمشي مشياً، فتلحظ تارة شجيرة كرز بري أسود تلوح لها بين شجيرات الحناء ذات اللون الأشهب، وتارة، طائراً أصفر يتسلق غصن شجرة سرو مسرعاً إلى مكان ما، وترى، في تارة ثالثة، وعلاً عملاقاً ينساب بين جذوع الصنوبر البري الحمراء، وعلى رأسه تاج من القرون المتشابكة العريضة، - وفهمت أن الدغل

رؤوف بها، لا يغضب من اقتحامها له. وحين رأت بالقرب من قرمة شجرة تغطيها الطحالب حبات من الكرز الأسود (قطفتها بامتنان، وخبأتها في جيب قميصها ليوسف، واطمأنت روحها فالدغل قد قبلها.

هي لم تكن تعرف الأرواح المحلية، ولم تكن تعرف كيف تخاطبها أو تعبر لها عن احترامها، لذلك كان كل ما تفعله هو أن تحييها في سرها، وهي تدخل الدغل أو تهبط إلى النهر، - وهذا كل شيء. من المحتمل أن تكون هنا أيضاً في الغابة أو في النهر أرواح شريرة تطوف في متاهات الغابة بحثاً عمّن ضلوا طريقهم، أو في كائنات منفّرة تزحف من تحت الأرض حين تشتم رائحة اللحم الآدمي، وأخرى مبلولة أبداً تسكن الأحواض المائية، تشدُّ إنساناً إلى قاع النهر، لكن زليخة لم تصادف أياً من هؤلاء في الدغل- ربما لأن الأرواح لا تعيش عموماً في هذه الأطراف من الكون، أو ربما لأن حياتها أهدأ وأكثر سلاماً من غابات يولباش. لقد كان ممكناً أن تحاول إطعامها، كي لا تقوم بأي عمل مزعج يذكّر بها، بل ترضى وتتحول فيما بعد إلى عنصر حماية لها. لكن زليخة لم تستطع حتى أن تفكر بإعطاء أي طعام- سواء أكان بقايا حبوب مطبوخة، أو جلد سمك مسلوق، أو غضاريف طرية من لحم الحجل- إلى غير ابنها.

لم تعد تذكر زوجها وحماتها وبناتها يومياً- هي لا تجد القوة اللازمة لذلك، فكل ما تبقى لها من قوة أعطته ليوسف، لقد بدا لها أن من الغباء وعدم الحكمة إضاعة دقائق الحياة الثمينة في تذكّر الموتى- الأفضل إهداؤها للكائن الحي الصغير الذي ينتظر بلهفة طول اليوم أن تدلـله ماما أو تبتسم له.

كانت تعمل الأيام بطولها جنباً إلى جنب، مع رجل غريب (كانت في أحيان كثيرة تحتك كتفاً بكتف مع أشكينازي، بل تتلامس أيديهما- فقاعة الطعام كانت ضيقة).

كل ما علمتها ماما مما كان يعد صحيحاً وضرورياً في حياتها نصف المنسية في بيت زوجها، وما كان جوهرها وأساسها، ومضمونها- تفتت، وتناثر، وانهار. القواعد اخترقت، والقوانين انقلبت إلى ضدها، فظهرت بدلاً منها قواعد جديدة واكتشفت قوانين جديدة.

ومع ذلك، لم تنخسف الأرض وتنفتح هوة بلا قرار تحت قدميها، ولم تندفع نحوها صاعقة عقابية من السماء، ولم يلفها شياطين الدغل بشباكهم العنكبوتية اللزجة، كما أن الناس لم يلاحظوا هذه الآثام التي ارتكبتها- ولم يكونوا مهتمين بأمرها.

أضف إلى ذلك أن زليخة كانت في كل مساء تحمل طعام العشاء إلى مكتب القوميندانت.

كان المهجّرون والحراس يتناولون العشاء معاً في المطعم: العاملون يأكلون على موائدهم، والحرس على موائدهم. أما إيغناتوف فكان دائماً يأكل وحيداً في مكتبه. كان نادراً ما يتناول الغداء (يأكل قطعتي توست أو قطعة من الخبز)، أما العشاء فكان يطلب أن يجيئوه به وفيراً وساخناً.

كانت زليخة تسخن في قدر صغير ما تبقى من حساء الغداء، وتضع في صحن كبير أدسم وأكبر قطع السمك، أو تغرف الحبوب التي تكون في قاع الدلو أكثر كثافة، ثم تضع ذلك كله على لوح خشبي عريض وتحمله من المطبخ صاعدة فوق التلة إلى بيت صغير مرتب، هو البيت الوحيد الذي زججت نوافذه. الطريق إلى الأعلى طويلة تستغرق وقتاً، وزليخة كانت تمشي فيها ببطء تلتقط أنفاسها، وتنقّل رجليها بحذر. أتراها لم تكن تعرف ماذا يجري؟! لا، كانت تعرف، كانت تعرف ماذا يجري، وتعرف ماذا يخبئ لها المستقبل...

في البداية بدا وكأن إيغناتوف لا يراها عموماً. كانت تدخل بعد أن تطرق الباب متهيبة، وقبل أن تسمع أية كلمة ردأ على طرقها، تضع الطعام له على الطاولة مستعجلة، وهي تشعر بأن الهواء في هذا المكان كثيف وكثير وكأنه ماء وليس هواء. ثم تخرج من الباب عائدة، فتطير بارتياح في الطريق إلى أسفل، وهي تتنفس بعمق، مدركة أنها لسبب لا تدريه حبست أنفاسها في مقر القوميندانت، وكأنها كانت غاطسة في الماء. كان القوميندانت في أثناء ذلك الوقت كله، يقف قرب النافذة ووجهه إلى الشارع، أو يرقد في سريره مغمض العينين، لا يكتفي بعدم الالتفات، بل لا يحاول حتى تحريك جفنه.

لكنه ذات يوم نظر فجأة- كانت نظرته ثقيلة ونفّاذة. لقد شعرت بهذه النظرة من دون أن ترفع بصرها. «هل كل شيء على ما يرام؟- سألته. - هل الملح في الطعام كاف؟» لم يجبها إيغناتوف، بل ظل ينظر إليها. انسلت خارجة، وراحت تلتقط أنفاسها. شعرت وهي تمشي نزولاً في الدرب، بتلك النظرة على رقبتها، في منبت شعرها. فصارت، حين تأتي إلى إغناتوف، تضع منديلاً على رأسها. أما هو فصار ينظر إليها. وهذا ما جعل الهواء أكثر من ماء، جعله- عسلاً. وكانت زليخة تسيل مع هذا العسل: تتوتر عضلاتها كلها، وتنشد عروقها، لكن ذلك يحدث ببطء وكأنها نائمة. هي لم تكن قادرة على التحرك بسرعة أكبر حتى لو شب حريق. تخرج من الباب مرهقة وعطشى وكأنها كانت تقطّع حطباً.

كانت تعرف ماذا يجري: كان مرتضى ينظر إليها هكذا- قبل أعوام كثيرة، حين دخلت زليخة الصبية بيته زوجة. إن قاتل زوجها ينظر إليها نظرة زوجها.

كان عليها ألا تذهب إلى إيغناتوف، وأن تتجنب الوقوع تحت نظره. لكن كيف يمكنها ألا تذهب؟!- هي لن تطلب من أشكينازي أن يحمل له الصحون... ظلّت تذهب: تصعد الدرب ببطء، تفتح الباب الثقيل، تأخذ نفساً عميقاً، وتغوص في العسل الكثيف الجذاب. تشعر كيف تتحول تدريجياً هي نفسها، هي كلها إلى

عسل: يداها اللتان تضعان القدر على الطاولة، وكأنهما تسيلان معه، وساقاها اللتان تمشيان على الأرض وكأنهما التصقتا بها، ورأسها الذي كان يريد إخراجها بعيداً عن هذا المكان، لكنه لان وانصهر وذاب تحت المنديل المعقود عقدة متينة تحت ذقنها.

قاتل زوجها ينظر إليها نظرة زوجها- وهي تحولت إلى عسل. وهذا ما جعلها تتعذب وتتضايق، وتخجل خجلاً فظيعاً، وكأن كل خجلها في الماضي والحاضر اتحدا في شعور واحد استوعب كل ما لم ينل نصيبه من الخجل في هذا العام المجنون: الليالي الكثيرة التي قضتها جنباً إلى جنب مع أناس غرباء، مع رجال غرباء- في السجن وفي عتمة عربة القطار، وفي الحبل أمام عيون الناس من الشهر الأول حتى الولادة. ولكي تهرب بشكل ما من هذا الخجل، وتتغلب على هذه الأفكار، كانت زليخة تتخيل خيمة كبيرة سوداء، من جلود الغنم السميكة غير المصنعة جيداً، وتتخيل أن هذه الخيمة السميكة تغطي مقر القومينداانت إيغناتوف، تنسدل الستارة- فيبقى كل ما هو جسدي، ومخجل، وقبيح، هناك في الداخل. تقفز زليخة على ظهر جواد كبير وتلكزه بكعبيها لكزة قوية وتنطلق به بعيداً من دون أن تلتفت.

جاء قسطنطين أرنولدوفيتش إلى مبنى القومينداانت بعد حلول الظلام، حين هدأت البلدة ونامت بعد تناول العشاء. طرق الباب طرقاً خفيفاً، فترة طويلة، وحين لم يتلق جواباً، طاف حول البناء، وأخيراً، نظر من النافذة إلى الداخل، ففوجئ بوجه القومينداانت الصارم وبين أسنانه سيجارة (لف) ثخينة مشتعلة. كان القومينداانت جالساً يدخن على حافة النافذة.

- حسناً، ماذا تريد؟

- أيها المواطن القومينداانت. - سوملينسكي لفظ هذه العبارة بصوت هامس يبدو أنه هيأه طويلاً وبعناية في حلقه، ولذا رنّت كلمة مواطن ممطوطة «مو- ا- ا-

ط- طن». - أيها المواطن القوميندانت، للمهجّرين عندك طلب.

- ما هو؟

قسطنطين أرنولدوفيتش يصلح هندامه، يشد على صدره سترته المتسخة التي عقدت كل أزرارها.

- بلدتنا لا اسم لها.

- ما الذي ليس لها؟ إيغناتوف لا يفهم قصده على الفور.

- ليس لها اسم، ليس لها ما تنادى به. البلدة موجودة، أما اسمها فغير موجود. نحن نعيش في مكان غير محدد على الخارطة، وغير مسمى كمكان مأهول. قد ينتهي وجوده غداً، لكنه اليوم موجود. ونحن موجودون فيه أيضاً. ونحن نريد أن يكون لموطننا اسم.

- ألا تريدون أنابيب ماء ساخن أيضاً؟

- لا، لا نريد أنابيب ماء ساخن، - يجيب سوملينسكي بجدية. - الاسم لا يتطلب أية نفقات مادية. سيطلقون على البلدة اسماً على كل حال، سيحدث هذا عاجلاً أو آجلاً. وهكذا، نحن... هم- هم- هم... أول الساكنين فيها ونريد أن يكون لنا الحق في تسميتها.

يسحب إيغناتوف نفساً من سيجارته، فيتوهج اللون البرتقالي المحيط بطرفها- تلتمع للحظة قسمات وجه قسطنطين أرنولدوفيتش ثم تختفي في الظلمة مجدداً، وتبقى فقط عيناه تلتمعان فيها (سوملينسكي أضاع نظارته في الغابة في الخريف- واضطر إلى تدبر أمره من دونها، وصارت عيناه منذ ذلك الحين تبدوان، وقد فقدتا إطارهما الذهبي المألوف، نفّاذتين أكثر من اللازم، بل ووقحتين).

- وماذا تريد أن تسمى... هذا كله؟

يبتسم قسطنطين أرنولدوفيتش مرتبكاً، ويهز برأسه لسبب ما.

- فيلا، يقول في النهاية بلهجة المنتصر.

- ماذا؟!

- افهمني، - سوملينسكي يسرع فجأة في الكلام، - هذا الاسم هو نحت أخذ فيه الحرف الأول من أربعة أسماء: وولف، إيفان، لوقا، وأفديي، فكانت كلمة «فيلا». الاسم بسيط كما ترى!

هو يعرف الثلاثة، لكن من إيفان؟ لا، لا يوجد بين كبار السن من يحمل اسم إيفان، إيغناتوف متأكد من ذلك. يطلق دخان سيجارته في العتمة حيث يسمع صوت أنفاس قسطنطين أرنولدوفيتش القلقة.

- الأشخاص الأربعة الذين أنقذوا حياتنا في هذا الشتاء، يستحقون أن نسمي البلدة باسمهم. ألا تعتقد ذلك؟

في مكان ما في أنغارا تتراقص سمكة كبيرة الحجم.

- ثمة أمر آخر... - يمشي قسطنطين أرنولدوفيتش خطوة أخرى مقترباً من النافذة، ويعقد يديه على صدره. - إنهم لا يعرفون أننا نريد... هم- هم -هم... أن نخلدهم، لا وولف كارلوفيتش، ولا أفديي، ولا لوقا. أنت الوحيد الذي عرف بذلك الآن.

كيف عرف المهجّرون أن اسمه إيفان؟ هم لم ينادوه أبداً إلا بعبارة «المواطن القومينداننت»، الوحيد الذي يناديه أحياناً بعبارة «الرفيق إيغناتوف» هو غوريلوف. وما معنى أن تسمى بلدة عمالية باسمه؟! الشيطان وحده يعلم... يضغط إيغناتوف عقب السيجارة بحجر مسطح على حافة النافذة، ويرميه في العتمة.

- لا، يقول له.

- نحن نقترح رسمياً تفسيراً آخر للاسم مختلفاً تماماً!- يقفز سوملينسكي نحو النافذة، ويتمسك كفاه الجافان بإطارها. - نحن نفهم كل شيء. لا تشغل بالك... سنخبرهم أننا نسمي هذه البلدة تشريفاً لها باسم فلاديمير إيليتش لينين- في- لا!

يضحك ضحكة مكتومة وهو يفرك يديه مبتهجاً.

- لا، يقول إيغناتوف. لن تكون هناك أية فلل.

- عظيم!- يقول «هذا الذي كان» مبتهجاً وكأنه سمع تأييداً لكلامه. - نحن أيضاً فكرنا أنك لن توافق! وحضّرنا اسماً احتياطياً أكثر... هم- هم- هم... اسماً أكثر محافظة.

- اذهب ونم يا سوملينسكي. - يقول إيغناتوف وهو يمسك بدفة النافذة المفتوحة.

- سيم روك!- صاح قسطنطين أرنولدوفيتش بحماسة وعلى عجل، في وجه النافذة المنغلقة. - لأن عدد أيديكم أنتم الأربعة سبعة. دعنا نسمي البلدة هكذا- ولن يعرف أحدٌ السر في ذلك. أتسمعني؟ أضف إلى ذلك أن الاسم رنان بل قد يعدّ فريداً أيضاً.

تنغلق النافذة مصدرة صوتاً. وعبر سماكة الزجاج يظهر كيف أن قامة نحيلة متهدلة الكتفين تهرول في الدرب نحو الأسفل، ذاهبة إلى البلدة.

... يبدو كما لو أن سوملينسكي كان ينظر في الماء. فبعد نحو أسبوعين، وفي أثناء جولة تفقدية عادية قال كوزنيتس لإيغناتوف في مجرى الحديث:

- نريد أن نعطي لبلدتكم اسماً، أيها القومينداانت. أنت الآن ستكون- أنغارا- اثنا عشر. هذا ما سنرسمه على الخريطة.

- نحن عندنا اسم لبلدتنا، - قال إيغناتوف محتجاً على غير توقع. - لم يكن عندنا ما نفعله في الملجأ شتاء- فابتكرنا الاسم.

- أحقاً ما تقول؟! ولماذا ظللت صامتاً؟

- بلا سبب. لكن، أنت لم تسأل أيضاً.

- وكيف تريدنا الآن أن نسميكم؟- نظرة كوزنيتس يقظة، ونفّاذة.

- سيم روك8، - أجابه إيغناتوف بعد برهة صمت.

- اسم معقد. أليس قسيساً من اقترح عليكم هذا الاسم؟

- ماذا تقوووول؟!

- أقول ما قلت! الاسم الذي اخترتموه تفوح منه رائحة الأوهام الدينية، هذه هي المسألة. سيرافيمات بستة أجنحة، وغير ذلك من الظواهر.

- أنت غبي يا كوزنيتس، مع أنك الرئيس. - السكان لم ينتقلوا إلى التخاطب بالأسماء إلا منذ فترة وجيزة، أما في أثناء نقاشنا حول الاسم فكانوا يخاطبون بعضهم بعضاً بالكنى. إن المجموعة التي عندي كلها من التتار، ما عدا قلة من الشوفاشيين الذين لم يروا في حياتهم قسيساً حياً، ناهيك عن سيرافيمك.

- فلتذهب إلى الشيطان، - قال كوزنيتس ملوحاً بيده. - وليكن اسم بلدتك سيم روك!

وهكذا بقي الاسم الذي ابتكره سوملينسكي حياً، وطار على الأوراق عبر المحطات الإدارية المختلفة. والقائمة الشاملة الطويلة جداً التي تضم أسماء المواقع المأهولة المشكلة حديثاً (وعدد هذه المواقع في منطقة سيبيريا الشرقية بلغ حينذاك قرابة المئة) تضمنت هذا الاسم الذي قدّم لتثبيته إلى رئيس اللجنة المنطقية للحزب في أركوتسك. غير أن ضاربة الآلة الكاتبة المتقلبة

المزاج، المستاءة إلى حد كبير لأنها لم تستطع البارحة أن تشتري «فيزوناً» بثلاث روبلات من تاجر سوق سوداء، ارتكبت خطأ في طباعة اسم البلدة فكتبته كلمة واحدة متصلة. حين تمّ تثبيت الأسماء التي في القائمة، عدّ عامل المطبعة أن الفصل بين جزئي الاسم مجرد خطأ مطبعي، صححه، وطبع اسم البلدة مع بعض التغيير الذي لم يسئ إلى جمال وقعه، فصار سيمروك، وهكذا ثبت في جميع الفهارس والخرائط.

لقد حدث هذا لأول مرة في أواخر شهر تموز. زليخة لم تفهم آنذاك شيئاً. كل ما فعلته هو أنها حملت إلى المطبخ دلوين ممتلئين ماء، وجرّتهما إلى الطاولة التي انحنى فوقها أشكينازي مفكراً في كيفية التعامل مع سمكات بلون اللؤلؤ ترقد كالمروحة على الطاولة.

يوسف الذي كان ينتظر أمه عند الباب، اندفع نحوها على أربع كأنه وحش بري، - وفجأة سقط على الأرض، راقداً بلا حراك وكأن أحدهم قتله بالرصاص. هرعت إليه أمه، تحمله، تهزه. وجهه أبيض شاحب، شفتاه مزرقتان يخالط زرقتهما لون حبري أسود، وهو لا يتنفس. صاح بها أشكينازي: «إلى المشفى، أسرعي!»، فحملت في لحظة الجسد الصغير البارد، الراقد بلا حراك، وطارت.

كان ليبييه يفحص عجوزاً شرع جلده، لشدة نحوله، يتساقط قطعاً كلحاء شجرة صنوبر بري. مددت زليخة الطفل على الطاولة بين العجوز والدكتور. تشبثت بليبييه، وهي تنوح ولا تستطيع تفسير شيء مما حدث. فحص الطبيب الطفل، سمع دقات قلبه، عبس، وحقنه بدواء رائحته حادة، من أنبوب زجاجي طويل ورفيع كالإصبع.

- الحمد للـه، - قال ليبييه، - على أنهم جاؤوا في الشهر الماضي بالدواء والحقن.

بعد دقيقة استيقظ يوسف وهو يرفرف بعينيه مغالباً النعاس. أما زليخة فكانت تنوح ولا تجد في نفسها القدرة على الهدوء وضبط النفس.

- كفى بكاء الآن... - يقول وولف كارلوفيتش وهو يلتقط أنفاسه (هو أيضاً فكّ بكلة ياقته، وشرب نصف كأس من الماء). - لكن عليك إذا عادت إليه الحالة نفسها، أن تجيئيني به حالاً.

حملت يوسف عائدة إلى المطبخ، تمشي في البلدة وكل ما حولها يترنح، أما هي فتضغط ابنها إلى جسدها، لا تشبع من ضمه. راحت تنظف السمك، لكن عينيها كانتا تنجذبان دائماً إلى تحت الطاولة حيث زحف يوسف. كانت في كل دقيقة تقرفص لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام، وأنه لم يقع مرة ثانية. أما هو فتكوّر في المكان- ونام. زحفت إليه زليخة وأصغت لتتأكد من أنه يتنفس. «لو كان الأمر لي لتركتك في البيت، يا زليخة، لكن هذا قد لا يعجب الإدارة»، - قال لها أشكينازي بلهجة تشبه الاعتذار، وكانت هذه أطول عبارة يقولها لها طول فترة عملهما معاً.

تكررت الحالة بعد عدة أسابيع. حدث ذلك مساء حين ذهبت زليخة ويوسف للنوم، فحملته من جديد إلى الطبيب الذي أعطاه حقنة ثانية.

لم تعد تنام في الليل. كيف تنام والحالة يمكن أن تحدث ليلاً؟ كانت ترقد إلى جانب ابنها، تسمع أنفاسه- وتحرسه. وصار ذهابها بالغداء إلى العمال في الغابة عذاباً. تركض زليخة في الدرب والدلاء مملوءة بالطعام، وتفكّر: ماذا لو جاءته الحالة الآن؟ أو بعد دقيقة؟ أو بعد دقيقتين؟ أشكينازي لا يلاحظ شيئاً، إنه لا ينظر إلى ما هو أبعد من طاولة التوزيع. كما لو أن يوسف يظل دائماً تحت الطاولة. تركض في كل مرة يبللها العرق وقلبها يكاد يتمزق من عناء الركض، تندفع تحت الطاولة لتتأكد من أنه ما يزال حياً. صار أداؤها لأعمالها في المطبخ سيئاً. وباتت

تخشى أن يشكوها أشكينازي، فيرسلوها من المطبخ إلى العمل الجماعي. لكن أشكينازي الذي تبين أنه يحمل قلباً طيباً، تحملها في صمت.

ومع ذلك عادت الحالة فحدثت ليلاً في شهر آب. حملقت زليخة في العتمة بعينين مفتوحتين وسمعت تنفس يوسف الذي بدا وكأنه يترجح فوق الموج: شهيق- زفير، شهيق- زفير، أعلى- أخفض، أعلى- أخفض. تعب الأسابيع الأخيرة جرّها من ساقيها إلى مكان ما، في عمق نوم أسود. أغمضت جفونها قليلاً- بعذوبة واسترخاء- وغاصت فيه كلها حتى رأسها. الماء يهدهدها، يتهامس وإياها، وفجأة يظهر إلى جانبها وجه إيغناتوف هادئاً، ودوداً. أعطيني يدك، يقول، هيا، ستغرقين في العسل. تنظر، فإذا، كل ما حولها أصفر كالذهب. تمدّ طرف لسانها- هذا صحيح، إنه العسل. أيقظها ذلك. لعاب حلو وكثيف يملأ فمها. وأصوات تنفس الجيران وشخيرهم وتقلبهم في أسرّتهم تصلها، لكنها ليست هنا، بل في مكان بعيد. الجو بقربها هادئ ومريح.

يوسف- لا يتنفس.

تهزه. لا، إنه لا يتنفس. حملته وهرعت إلى المشفى، حافية، منبوشة الشعر. القمر مستدير في السماء كأنه قطعة نقد معدنية، والريح تهب من أنغارا تدفع تحت الأقدام ثمار العفص، والعيدان، والحصى، والتراب- لكنها لا ترى شيئاً. في البداية، دقت على النافذة الأمامية حتى كادت أن تحطم زجاجها (في هذا الوقت كانوا قد ركّبوا زجاج نوافذ المشفى) - لم يجب أحد. فطنت، فأسرعت تدور حول المبنى، لتصل إلى القسم السكني.

خرج إليها ليبييه من نومه، مشعث الشعر، بسروال داخلي رقّ إلى حد الشفافية من طول الاستعمال. أضاء مصباح الكيروسين، وأخذ الطفل إلى سريره. أرنبة أنف يوسف، وجبينه، ويداه، كل ذلك كان بارداً كالجليد. تنفس بعد الحقنة،

وتوخوخ، وبكى، ثم هدأ بين ذراعي أمه وعاد إلى النوم. أما زليخة نفسها فكانت يداها ترتجفان ارتجافاً شديداً سيئاً، حتى أن الطفل كاد يسقط من بين يديها.

- ضعي الطفل من يدك، - قال لها ليبييه همساً. - واهدئي.

تضع يوسف على وسادة الدكتور (وهي عباءة مقلوبة على قفاها).

رجلاها تتقصفان، لا تحملانها. تجلس- ركبتاها على بساط مدّ حديثاً، وجسدها فوق السرير، ووجهها متجه إلى أصابع طفلها التي شرع الدفء يسري فيها.

- لقد نجحنا هذه المرة أيضاً، يمدّ ليبييه يده لها بكأس من الماء. - أحسنت إذ لاحظت حاله في الوقت المناسب، فلو تأخرت بضع دقائق...

زليخة تمسك يد الدكتور المتجعدة التي تغطيها آثار بثور بنية اللون. وتمدّ شفتها نحوها. ينسكب بعض الماء من الكأس على الأرض.

- كفّي عن هذا فوراً!- يقول غاضباً وهو يسحب يده. - الأفضل لك أن تشربي!

تأخذ الكأس بيدها. أسنانها الراعشة تطرق حافة الكأس بشدة وصوت مرتفع- تخاف أن يوقظ الطرق يوسف، فتترك الماء قائلة: سأشرب فيما بعد.

- دكتور، - تهمس زليخة وهي ما تزال جاثية على ركبتيها (وتتساءل في سرها مندهشة: هل شفتاها هما المتكلم حقاً؟) - اسمح لنا أن نقيم في المشفى- أنا ويوسف. أنا لا أحتمل أن يصيبه مكروه. لا تطردنا، اسمح لنا بالبقاء هنا. أنقذنا. وأنا سأقوم بأي عمل تطلبه- سأغسل الملابس، وأنظف البيت، وأجمع لك الثمار البرية. وأستطيع أن أساعدك في العناية بالمرضى إذا لزم الأمر. كل ما أطلبه هو أن يكون يوسف في الليالي هنا، قريباً منك.

- أقيما قدر ما تريدان. - يهز الدكتور كتفيه. - إذا لم يعترض القومينداانت على ذلك.

- بعد نصف ساعة نقلت زليخة متاعها البسيط إلى المشفى. تم الأمر بسرعة حتى أن يوسف لم يستيقظ- بل ظلّ نائماً بهدوء على وسادة الدكتور المحشوة بالفرو طول الليل، حتى حلول الصباح.

ذهب ليبييه شخصياً إلى القومينداانت، دون أن ينتظر أن توجه الأسئلة إليه. شرح الأمر موضحاً أن المريض يحتاج إلى علاج مديد، وأن هذا الوضع لن يؤثر بأي حال من الأحوال على إنتاجية عمل زليخة فالييفا. نظر إليه إيغناتوف نظرة عابسة وغير ودودة، لكنه لم يعترض.

خصصوا لزليخة ويوسف مكاناً عزلوه بستارة. فبدا جو المشفى المشبع بروح الكربون، والكحول، والأعشاب الطبية، جواً نقياً وطازجاً بعد جو البرّاكة الخانق. كانت زليخة تحمل يوسف تحت إبطها في الصباح وتسرع إلى المطعم، وفي المساء تعود مسرعة، فتقوم بتنظيف المشفى بدلاً من ذهابها، كالعادة، إلى الغابة لجمع الثمار البرية. تغسل وتنظف الأرض والجدران والطاولات، والمقاعد والنوافذ، والأسرة (حتى تلك التي ظلت فارغة) - كانت تحارب كل ما ليس صحياً، ثم تنتقل إلى القسم السكني- تنظف البسط، والموقد الحجري الكبير، وتشطف المدخل، وتعيد غسل ملابس الدكتور كلها في أنغارا، كما تعلمت أن تغلي في قدر صغير الضمادات والأدوات الطبية البسيطة لتعقيمها.

- لا تجهدي نفسك، أرجوك!- صاح ليبييه وهو يرفع نحو السقف الواطئ ذراعيه الجافين الطويلين. - اذهبي ونامي، فذلك أفضل!

كانا يتناوبان الجلوس إلى سرير يوسف، فيقضي كل منهما نصف ليلة بقربه. وكان ليبييه يؤكد أن نومه، هو نفسه، قصير وعجائزي ولذا لا يجد صعوبة في المناوبة ليلاً. لو أن أي شخص آخر حلّ مكانه لما استطاعت زليخة أن تنام. لكنها كانت تثق بالدكتور لذلك كانت تتمدد وتغرق في ظلام النوم بلا أفكار وبلا منامات.

وقد اقترح عليها الدكتور نفسه أن يجيء بيوسف من المطعم إلى المشفى في فترة غيابها في الغابة، فقبلت زليخة اقتراحه شاكرة.

وحين أدخلوا إلى المشفى رجلاً أصفر كالليمون يسعل سعالاً شديداً دائماً وتحت عينيه دوائر سوداء، أمرهما وولف كارلوفيتش بالانتقال إلى غرفته في القسم السكني. ترددت زليخة، إذ ماذا يمكن أن يقول الناس؟- لكنها حين التقى بصرها بنظرة الدكتور الصارمة، حملت ابنها على عجل إلى القسم الخلفي في المشفى، الذي يفصله عن القسم الأمامي باب ثقيل.

حدث ذلك في أواخر الصيف، حين بدأ العام الثاني من إقامة المهجّرين في البلدة.

تضع زليخة قدر الضمادات في الموقد المشتعل. هي دائماً تغسل وتفضّ الضمادات في مياه أنغارا الجارية، فتتخشب يداها وتؤلمانها، - وهذا يجعل متعتها أكبر حين تضع القدر إلى جنب الموقد الساخن، حيث تشعر من جديد بسيلان الدم في عروق يدها، وتحس بالجلد في أطراف أصابعها. النار تطقطق تحت قاع القدر الذي يغطيه الهباب الأسود، وتلتهم ما يلقى فيها من عيدان وقش، أما زليخة فتسرع، ريثما يغلي الماء، إلى الفناء فتحضر الحطب- تعقيم الضمادات يتطلب غليها فترة وجيزة، غير أن زليخة كانت تحب أن تغليها طويلاً حتى تبيض تماماً.

يوسف يلهو على الأرض- يزحف، يلعب بالدمى المصنوعة من الطين، لقد صنع هذه الدمى إيكونيكوف: صنع في البداية جسم طفل بدين، منتفخ البطن بشفتين منتفختين وكأنهما مقلوبتان، ثم صنع طائراً منفوش الريش بساقين يغطيهما الزغب وجناحين مضحكين غير صالحين للطيران، وصنع سمكة كبيرة بعينين وقحتين جاحظتين وفك سفلي بارز بعناد. كانت الدمى جيدة- لم تكن كبيرة جداً، ولم تكن صغيرة جداً (كل دمية منها كانت تستقر بسهولة وارتياح في كف الطفل

الصغيرة)، ولم تكن ثقيلة الوزن، والأهم من ذلك أنها كانت تبدو وكأنها حية. ثمة ميزة أخرى هامة للغاية اتسمت بها وهي أن سيقانها وأجنحتها وملابسها التي يحطمها يوسف، كانت تمتلك قدرة النمو من جديد حين يزور إيكونيكوف المشفى لقضاء غرض من أغراضه.

زليخة تسرع إلى الفناء ما دام ابنها منشغلاً بتدافع الجبينين الطينيين السريعي العطب، للخصمين اللدودين أبداً، الطير والسمكة، ولن يلاحظ غيابها. ينفتح الباب من تلقاء نفسه قبل لحظة من لمس زليخة لقبضته، وتظهر في فتحته عبر أشعة الشمس التي تغمر وجهها، قامة طويلة، داكنة، في ثوب فضفاض طويل حتى الكعبين، يحركه الهواء، تدق أرضية العتبة بعصا معوجة.

أوبيريخا.

تدخل إلى الغرفة. تتشمّم المكان بأنفها، يرتعش خيشوماها، تنشق الهواء بشدة.

- ثمة رائحة ما، - تقول.

تقفز زليخة إلى الخلف، تخفي وراء ظهرها يوسف الذي يلعب على الأرض. الطفل يزحف ويتمتم تحت أنفه بكلام ما، ويضغط بيده الصغيرة بقوة السمكة المتراجعة بسرعة أمام هجمة الطائر- وكأنه لا يلاحظ شيئاً، وحماتها تتقدم، تستنشق رائحة الجو بصخب، وتبعثر بعصاها ما يقع في طريقها من أشياء وكأنها تراها بوضوح: هنا، كرسي مقلوب يتدحرج، وهناك سطل فارغ يقرقع، وتطير عن الطاولة إلى الأرض صحون طينية فارغة.

- أشم رائحة- تكرر بصوت مرتفع ملحاح.

في الغرفة تفوح بقوة رائحة حجارة الموقد المحماة، والضمادات المغلية، وينتشر دخان قليل صادر عن قطع الحطب الجافة، تفوح منه رائحة الخشب

الطري. وتطوف في الجو رائحة تكاد لا تلحظ، هي رائحة الكربون والكحول، وتنساب من رزم الأعشاب الثخينة المدلاة من السقف رائحة الزهور اللذيذة.

تقترب العجوز. زليخة ترى محجري عينيها المسطحين الأبيضين، المحاطين بغمامة زرقاء خفيفة كبشرة سمكة مجففة حديثاً، وتغطيهما شبكة سميكة من العروق الحمراء المعقدة، وترى المفرق المسرّح بعناية فوق منتصف جبينها تماماً، والشعر اللين النادر جداً الذي له لون الغبار، والمجدول في ضفيرتين طويلتين نحيلتين.

تنشق أوبيريخا الهواء بقوة فيصطفق خيشوماها، وتمد طرف عصاتها إلى ذيل فستان زليخة، ترفعه كاشفة ساقيها العاريتين اللتين التمعتا في الغرفة نصف المعتمة (زليخة خاطت من سراويلها لفّافات للطفل منذ الخريف الماضي). تضحك العجوز ساخرة- زاوية فمها ترتفع إلى أعلى وتغرق في ثنيات تجاعيد وجهها العميقة.

- لقد وجدت، - تقول، - رائحة الفاحشة- يا قحبة.

لم يطلق أحد من قبل أبداً هذه الشتيمة بحق زليخة. إنها تشعر بحرارة خانقة تصعد من صدرها إلى رقبتها ثم إلى خدها، فجبينها، وتصل إلى قمة رأسها.

- نعم!-تكرر أوبيريخا بصوت أعلى. - قحبة من تفكّر في الليالي بالرجل الروسي إيفان قاتل ولدي مرتضى...

زليخة تهز رأسها بالنفي، تغمض عينيها. لا تدري كيف ترد!

- ... وتعيش مع رجل ألماني من غير دينها اسمه وولف!

- أنا بحاجة لأن أربي ابني، - تهمس زليخة التي جف حلقها، - يجب أن أمكّنه من الوقوف على قدميه. هو الآن في الثانية من العمر، لكنه لا يمشي، بل حتى لا يستطيع الوقوف. إنه حفيدك على كل حال.

تتنحى خطوة، كاشفة لأوبريخا الطفل الجالس على الأرض، وكأن العجوز تستطيع، فعلاً، أن تراه. ويستمر يوسف في اللعب وكأن شيئاً لم يحدث: السمكة والطائر متحدان تتشبث بهما يداه الصغيرتان، وهما يهاجمان معاً الدمية المنتفخة البطن التي بقيت وحيدة وقد فقدت إحدى يديها.

تسحب أوبيريخا العكاز بقرف عن زليخة وكأنه تلوث بشيء دنس.

- أنت نسيت قوانين الشريعة وقوانين الناس. لقد قلت لمرتضى: هذه المرأة غير صالحة، قذرة روحاً وجسداً.

- لقد مات مرتضى، وأنا لي الحق في أن أتزوج مرة ثانية!

- ... أمام الناس كلهم- تنام مع رجل غريب تحت سقف واحد! ترى، من تكون بعد هذه الفعلة؟ تكون قحبة!- تبصق العجوز بصوت مرتفع بصقة كبيرة بين قدميها.

- سأكون زوجة الدكتور الشرعية!

- فاحشة، قحبة! قحبة!- أوبيريخا تهز رأسها هزات خفيفة، فيرن القرطان الوازنان المعلقان بأذنيها رنيناً خفيفاً.

- أقسم!- زليخة تعصر رأسها، ترفع يدها، تدافع بها عن نفسها. حين تنزلها- لا تجد أحداً إلى جانبها. يوسف يلهو بسلام، منهمكاً في طرق الدمى الطينية بعضها ببعض. والحطب يهسهس محترقاً في الموقد، والماء الغالي يبقبق بصوت مرتفع، ويتناثر بعضه خارج القدر فيرسل فحيحاً وهو يتبخر فوق جمرات النار. تجلس زليخة على الأرض إلى جانب ابنها، تغطي وجهها بكفيها، وتنوح بصوت منخفض كالجراء.

في آخر أيام الصيف تكون الغيوم بيضاء، لونها متموج كلون التفاح، ويكون أنغارا أزرق، زرقته عميقة داكنة مشوبة بالسواد، وهي تخترق سماكة الماء لا سيما

في الأيام الدافئة والمشمسة، ويكون الحرّ خفيفاً، وجافاً، وخريفياً.

تمشي زليخة في الدرب في الغابة، على ظهرها شال لفت به يوسف، وفي إحدى يديها سلة، وفي الأخرى عود جاف، تحت قدميها تصر الأوراق الإبرية الحمراء والأوراق الأوائل التي أسقطها الخريف عن الأشجار وأكسبها صفرة مرضية. الشكر لأشكينازي الذي سمح لها اليوم بالذهاب إلى التايغا لجمع الثمار من أجل تحضير منقوع الفواكه (الكومبوت) - صار الظلام يهبط مبكراً في الأماسي ولم يعد الذهاب إلى الغابة بعد العشاء مجدياً. لقد مارس الميتر بعض الحيلة: لم يكن (الكومبوت) ضرورياً، فاليوم ليس يوم عيد، وهم لا ينتظرون زيارة تقوم بها الرئاسة. لكن أشكينازي أشفق عليها فقرر أن يمنحها يوم عطلة. هو يرى أنها مرهقة في الفترة الأخيرة، تنام قليلاً، وتعمل عمل ثلاثة رجال.

تخاف زليخة أن تذهب بعيداً عن البلدة (فقد يقع شي ما ليوسف)، تتجه إلى مكان وجود شجيرات الكرز البري الأسود الذي تعرفه في حرج الصنوبر البري. تشق طريقها فوق الصخور الكبيرة الملساء، وتجتاز الجدول ذا الخرير الصاخب (تسميه في سرها- تشيشما)، وتواصل مشيها بمحاذاته حتى سفح تلة صخرية كبيرة، حيث امتدت فسحة واسعة مشرقة (تسميها في سرها- الفسحة المستديرة). هنا، تحت حماية شجر بتولا ضخمة معمرة حرقتها الصاعقة، ومجموعة من أشجار الصنوبر البري ذوات الجذوع الحمراء، يختبئ مكان غني بالثمار البرية. عناقيد كبيرة من الكرز الأسود تنمو بسخاء كأنها نجوم في سماء ليلة صافية: اجلس، واقطف. الثمرة- ثقيلة، بنفسجية اللون، تبدو من الأعلى وكأنها مغطاة بمخمل أزرق، تتلمسها، فيبقى أثر اللمسة داكناً على جنبها المستدير، وهي ممتلئة بالعصير، حلوة الطعم، عسلية المذاق. زليخة أكلت حتى شبعت وأطعمت يوسف الذي راح يبتسم فتلتمع أسنانه التي صبغتها الثمار بلون الحبر، مستمتعاً بمذاق الثمار ومبتهجاً لأن أمه خصته بالرعاية كل هذا الوقت، ولم تغادر.

- كفى يا حبيبي، - تقول زليخة وهي تمسح ذقنه الملطخة بالعصير الأحمر اللزج، - لقد شبعنا لعباً وحان وقت العمل.

تفرش الشال في ظل أشجار الصنوبر وتجلس يوسف عليه. تغطي شعرها بمنديل كي لا تصاب بضربة شمس، وتبدأ تزحف حول الشجيرات، تجمع الثمر. السلة كبيرة، عميقة، وهي تستطيع، إذا بذلت جهدها، أن تملأها بالثمار.

يوسف يتمتم بشيء ما، يحادث الزهور (هو لم يتعلم بعد أي كلمة، وما ينطق به مجرد كلمات من ابتكاره). هو يحب أن يحادث الزهور ويتأملها. زليخة خافت في البداية وتساءلت: أتراه سينمو غبياً؟ لكن عيني ابنها الصغيرتين ذكيتان، تعبران عن غنى فكري، فقررت أنه سيتكلم بمرور الوقت. إنها ستحبه حتى لو نشأ أخرس، ستطعمه، وتنميه، ما يهمها هو فقط أن يقف على قدميه ويبدأ المشي...

تمد يديها محاولة الوصول إلى الثمار التي احمرت تحت أشعة الشمس، تزيح بأصابعها الأغصان الشائكة الرفيعة لنبتات الكرز الأسود البري ذات الأوراق الخضراء المستديرة. وفجأة ترى في الخضرة اللامعة بسطوع جزمة سوداء جديدة، محفوفة بالشمع إلى حد اللمعان كالمرآة. الجزمة قريبة جداً يمكن أن تلمسها بيدها. ترفع زليخة نظرها ببطء: من الفتحات الضيقة بين الأغصان يبرز ساقان عريضان لبنطال رمادي، وذيل قميص بني، مشدود على الخصر بحزام أحمر، ويدان، في إحداهما بندقية صيد سبطانتها سوداء، وإلى الأعلى من ذلك يظهر جيبان على الصدر يغطي فتحتيهما غطاءان وفي الوسط بينهما سير جلدي رفيع لتعليق جراب المسدس. وفوق هذا المكان بقليل أزرار تلتمع وتمتد حتى الياقة المغلقة إغلاقاً تاماً. وعلى الياقة شارتان من قماش بنفسجي، ويبرز كتفان عريضان، وفي مكان ما في العالي البعيد، تحت قبة السماء- وجه تظلله قبعة دائرية زرقاء، مزنرة بشريط أحمر ناري ينظر إليها. إنه إيغناتوف.

تهسهس الأوراق الإبرية لشجرة الصنوبر البري فوق رأسه وتصدر أنيناً خفيفاً في مواجهة النسيم. وأزيز الزيزان يصخب في العشب ثقيلاً، يصم الآذان. والنحل يطن في الفسحة، يتأوه، متنقلاً من زهرة إلى زهرة.

يسند إيغناتوف بندقيته إلى جذع شجرة أحمر ساطع وكأنه مغمور بضوء الشمس، ويرمي قبعته على العشب، يفك الزر العلوي في قميصه، ثم الذي يليه، فالذي يليه. يفك الحزام والجناد الذي على الصدر، وذاك الملتف حول الخصر، ثم ينزع قميصه عبر رأسه.

زليخة تتراجع إلى الخلف وهي على حالها جالسة القرفصاء. من حولها تتمايل السيقان الجافة لأعشاب الخريف البرية، وتصخب كالخشخاشة بذورها الناضجة.

يمشي نحوها خطوة، يقرفص- وجهه الذي في السماء يهوي نحوها بسرعة إلى أن يصبح قربها تماماً. يمد يده- كفه الكبيرة الطويلة تقوم برحلة لا نهاية لها، وتلمس أخيراً ذقنها. تشد أصابعه عقدة منديلها- القماش السميك المعقود يستجيب بسهولة، فينفك، وينسدل بمحاذاة خديها، كاشفاً رأسها. يمسك إيغناتوف بكلتا يديه طرفي جديلتيها ويشدهما إليه. زليخة تمسك بكفيها جديلتيها، وتشدهما نحوها، لا تستسلم. يغرس أصابعه ببطء في شعرها، فتتخلخل الضفيرتان، وتنفلشان.

- أنا أنتظرك كل ليلة، - يقول لها.

تفوح منه رائحة جفاف ودفء وتبغ.

- لا تنتظر.

ليتها تنزع أصابعه عن شعرها- ذلك صعب، فهي قوية ودافئة كما كانت يومذاك في الغابة، في يولباش.

- أنت امرأة. أنت تحتاجين رجلاً.

وجهه ناعم، صقيل، التجاعيد رفيعة كالشعيرات، على جبينه أثر أحمر يكاد لا يلحظ، خلّفته القبعة.

- عندي رجل، لقد وجدت رجلاً.

العينان رماديتان فاتحتان على خلفية خضراء تتوسطهما حدقتان سوداوان.

- من هو؟

أنفاسه سريعة كأنفاس طفل.

- زوجي الشرعي- لقد تزوجت الدكتور البارحة.

- أنت تكذبين.

وجهه يقابل وجهها، زليخة تغمض عينيها، تضغط بساقيها شيئاً ما، وتدفعه عنها، تتدحرج على الأرض، تنهض، تمسك البندقية المسنودة إلى جذع الشجرة، وتصوبها إلى إيغناتوف.

- إنه زوجي أمام اللـه والناس، - تقول وهي تشير له بسبطانة البندقية أن يبتعد. - وأنا- زوجته.

- أنزلي البندقية يا مجنونة، - يصيح بها من بين العشب. - فقد تنطلق خطأ.

- أنا زوجة مخلصة!

- أنزلي فوهة البندقية، أقول لك.

- وأنت، كفّ عن اللحاق بي إلى الغابة!

زليخة تزم عينيها، تسدد فوهة البندقية على إيغناتوف بيد غير خبيرة- نهاية السبطانة السوداء الرفيعة ترتعش، وتميل من جهة إلى جهة، يستلقي إيغناتوف على ظهره بين الأعشاب الطويلة وهو يتأوه.

- مجنونة، يا لك من مجنونة...

أخيراً تستطيع أن تمسك السبطانة الراعشة وتثبت نهاية إبرتها مقابل فرضة التسديد. تحرك السبطانة ببطء ناظرة عبر الفرضة: العالم يبدو مختلفاً، أكثر وضوحاً، وأكثر سطوعاً، وأكثر تحدّباً. العشب أكثر خضرة وكثافة فوق ذلك المكان الذي يرقد فيه إيغناتوف على ظهره، والفراشات المتمايلة فوق الفسحة، أكبر وأجمل، وكذلك الزيزان الواقفة على السنابل- زليخة تميز حتى الرسم العنكبوتي الذي على أجنحتها الشفافة، والأغشية البهيجة المحدبة فوق عيونها الصغيرة. بعد كل ذلك- نقرة يوسف: شحمتا أذنيه الورديتين مطرزتان بعروق مرمرية متداخلة، ونقطة عرق ثقيلة تتدحرج ببطء من تحت شعره الأسود المتموج على رقبته البيضاء، وأبعد منها- مثلث مشعث بني: سحنة دب.

الدب يقف على تلة في طرف الفسحة- دب ضخم، لامع، ينظر إلى يوسف بطرف عينه، أنفه الرطب، المفلطح يرتجف، وفي شدقه المفتوح يلتمع نابان سفليان كأنهما إصبعان متورمان.

- إيفان، كيف يتم إطلاق النار؟

تشعر كما لو أنهم حشوا حنجرتها رملاً.

- هل قررت قتلي؟- ينهض إيغناتوف عن العشب غاضباً، يلتفت فيرى الدب.

- اسحبي المغلاق أولاً، يقول همساً.

أصابعها الرطبة تنزلق على الحديد البارد اللزج. أين هذا الغطاء؟ الدب يهمهم بصوت منخفض، ناظراً تارة إلى الطفل الراقد أمامه، وتارة إلى زليخة وإيغناتوف الجامدين غير بعيد عنه. أما يوسف فظل ينظر إلى الوحش باستمرار.

تشد زليخة مغلاق البندقية إلى جسدها فيصدر صوتاً. يجأر الدب بصوت أقوى، ويقف على قائمتيه الخلفيتين، فينتصب كتلة ضخمة مشعثة جبارة، ويظهر

واضحاً كرشه الأبيض المتهدل المقلم بخطوط رمادية غير منتظمة، وصدره البارز إلى الأمام كبرميل، ومخالبة الشبيهة بالمناجل على أطراف كفيه الطويلين المتدليين حتى الأرض تقريباً. يجأر الوحش، ويلوح لسانه الأسود- الوردي بين أسنانه الكبيرة الصفراء، فيزقزق يوسف مبتهجاً، ويقف على قدميه أيضاً.

تضغط زليخة الزناد- فيدوي الطلق الناري، ويرتطم أخمص البندقية بكتفها بشدة ويدفعها إلى الوراء. تصدم أنفها رائحة البارود الحادة، وتسمع صرخة ابنها الخائف القصيرة التي تشبه صرخة طائر.

يمشي الدب خطوة نحو يوسف، ثم ثانية، فثالثة... ويهوي على الأرض- ينزاح العشب أمواجاً خضراء عريضة على الجانبين. تتحرك الجثة الشعثاء بعض الوقت ككتلة بنية ضخمة ثم تهمد. يدير يوسف وجهه نحو أمه حائراً، ثم يلتفت ثانية إلى الوحش.

- هس، س، س... - يضع إيغناتوف يديه على أصابعها التي جمدت فوق جسم البندقية، ويشرع يحركها إصبعاً، إصبعاً- هكذا، جيد... أحسنت...

يحرر السلاح أخيراً من قبضتها، ويضعه جانباً. زليخة لا تلاحظ ذلك: إنها تنظر كيف يقف يوسف على قدميه مترنحاً قليلاً وهو يمشي على ساقيه المعوجتين نحو الدب الميت. خطوة أولى، ثانية، ثالثة...

عين الدب اللامعة يغطيها غشاء عكر، ومن خلف أسنانه الصفراء تسيل رغوة شاحبة كثيفة. يقترب يوسف يدق بكفه جبين الدب غير الصقيل مصدراً صوتاً، يمسك أذنيه المشعرتين ويشدهما، يلتفت إلى أمه ويقهقه ضاحكاً من أعماقه وهو يقف بثبات على ساقيه.

Chapter 30

إنسان جيد

- اذهبي، - يتغلب إيغناتوف على أنفاسه المتسارعة، ويتمدد على ظهره، في جسده - فراغ مرهق.

- ماذا حدث يا فان؟- تسأل أغلايا وهي تصلح ثوبها المدعوك وتجلس على حافة السرير.

- اذهبي.

تستمر قليلاً في النظر إليه، وهي تتلمس بكلات جواربها (بشرة ردفيها تلوح كالزبدة بين ثنيات القماش الصوفي الأسود)، تتفحصها متسائلة: أتراها انفكّت؟- لا، لم تنفك، ثم تنهض وتمشي بقدميها اللينتين من دون ضجة، تذهب إلى المغسلة المعدنية، حيث عُلّقت بين الألواح الخشبية قطعة من مرآة.

- أنت تفقد عقلك يا فانيا، - تصلح وضع سالفيها القصيرين الأحمرين اللذين يكادان لا يغطيان أذنيها- جنونك يزداد يوماً بعد يوم. يتلمس إيغناتوف، وهو ما يزال في سريره، حذاءها الثقيل الرجالي، ذي الكعب الثخين، والأنف المربع، - يحمله، يلوّح بفردته ويقذفها فيصيب ظهرها، في ذلك المكان الذي ترتسم فيه تحت القماش على لوح الكتف المرمري المستدير بقعة خلْقية كثمرة داكنة مغرية. تصرخ أغلايا وتتراجع خائفة.

- لقد أمرتك أن تخرجي!- يقول لها وهو يقذفها بفردة الحذاء الثانية.

- أنت حقاً مجنون!- تحمل أغلايا حذاءها وتخرج مسرعة.

يمد إيغناتوف يده إلى أسفل، تحت السرير، يخرج زجاجة طويلة ضيقة العنق- ما زال في قعرها سائل عكر، أصفر، لكنه قليل، قرابة إصبع، أو إصبع ونصف.

- أين؟!- يسأل مخاطباً السقف، متعباً، وكأنه يكرر السؤال للمرة العاشرة. - غوريلوف، أيها الكلب... أين؟!

يسقط عن السرير متعثراً باللحاف المتكوّم، والوسائد المدعوكة وساقيه. ينهض بصعوبة مستنداً إلى الجدار، يمشي نحو الباب، يفتحه- تصدم وجهه ريح باردة برودة قاسية (صيف عام ثمانية وثلاثين كان بارداً). في الأسفل ترقد سيمروك- في الوسط- ثلاث برّاكات عريضة، طويلة، تشغل كل ساحة البلدة تقريباً، ونحو عشرين بناء بحجم أصغر تجمعت حولها مشكلة ما يشبه زقاقاً معوجاً. وثمة طباخ صغير الحجم بمريول أبيض، يدق بمطرقة لوحاً معدنياً- الأصوات الحادة الراعشة تطير فوق التلة، وتتدحرج إلى البعيد، إلى ما بعد أنغارا، إلى التايغا، وتسرع القامات الصغيرة من جميع أنحاء سيمروك إلى المطعم- لتناول العشاء.

يقف إيغناتوف بثيابه الداخلية في مدخل بيته وهو يهز بيده الزجاجة الفارغة، ويصرخ من مقر القوميندانت المرتفع في سماء البلدة المسائي:

- أين؟! غوريلوف، سأقتلك! أين؟!

يهرع من مكان ما، من خلف إحدى الزوايا، غوريلوف لاهثاً، يحمل زجاجة ثانية، يضمها إلى صدره بعناية- يترجرج في داخلها بتثاقل سائل بلون رمادي مشوب بصفرة برتقالية، ويطلق الكثير من الفقاعات بسبب الارتجاج.

- هاك!- يضع حمله على درج المدخل وهو يتنفس من فم مفتوح كالكلاب.

ينحني إيغناتوف مترنحاً، يرمي الزجاجة الفارغة، ويرفع الملأى، ويعود إلى البيت وقد نجا بمعجزة من التعثر بالعتبة.

- ... أطروحتي للماجستير كانت. - منذ عام تسعمئة وستة في ميونيخ، - مخصصة لنظرية التغذي بالجودار. لقد كنت أنظر إلى عملي كبحث نظري له

أهمية استراتيجية، أكثر من كونه ذا أهمية عملية ملموسة. ترى، هل كان بإمكاني آنذاك أن أتصور أني سأضطر، أنا نفسي، أن أزرع هذا النوع من القمح؟- يهز قسطنطين أرنولدوفيتش رغيفاً أسود يضغطه بكف جافة مقصّفة الأظافر. - وأن أتخيّل خبزاً صنع منه؟

في كل مكان طرق سريع رتيب للملاعق المعدنية: المهجّرون يتناولون العشاء جالسين إلى موائد خشبية طويلة، صقلتها بمرور الأعوام أكواعهم وأكفهم إلى حد أكسبها نعومة منزلية ممتعة تقريباً. مئتا فم تمضغ بسرعة ولا تضيع الوقت بالكلام. لقد وسعوا المطعم منذ عدة أعوام- بنوا صالة ثانية أطول وأعرض من الصالة الأولى، ومع ذلك لم يكن المكان قادراً على استيعاب أربعمئة شخص- لذا صار السيمروكيون يأكلون الآن على دفعتين بالتناوب.

مائدة الحرس كبيرة، يتم تبديل غطائها المقلم بغطاء آخر نظيف، وقد بقيت في مكانها غير بعيد عن مكان توزيع الطعام. هنا كانوا يأكلون على مهل مستمتعين بمذاق الطعام البسيط اللائق. في الزاوية، على طرف المائدة، يشغل غوريلوف مكاناً صغيراً، يتناول فيه طعامه وهو مستعد للتحرك عند أول نداء. لا أحد من الحرس يذكر متى، وبأمر من صار يأكل معهم، لكنهم لم يطردوه، تحمّلوه، لأنه ما دام قد جلس في هذا المكان، فمعنى ذلك أن لجلوسه سبباً.

- وأنتم تعدّون هذا كله- إيكونيكوف يشير إلى الجالسين من حوله بملعقة حديدية ممسوحة الأطراف وكأن أحدهم عضها من الجانبين، وذراعها ملفوف بقطعة ضماد، - ثمناً معقولاً لما تسمونه إمكانية زراعة القمح؟

يحتسي الطعام من الصحن بعصبية، يلوكه، يخرج من فمه بأصابعه الملوثة بالمرق حسكة سمك رقيقة معوجة.

- لا، الكلام يدور على غير ذلك تماماً! سوملينسكي يتململ في مقعده، ويفرك قطعة خبز في كفه. - لنأخذك أنت، يا إيليا بتروفيتش مثالاً، ما القيّم حقاً الذي أنجزته وأنت حر؟ ثلاثة وعشرون تمثالاً مشوراً؟

بل أربعة وعشرين، تصحح إيزابيلا وهي تميل الصحن بعناية وتجمع بقايا الأوراق الرمادية المطبوخة في المرق الرمادي العكر.

- وكان بمقدورك أن تضاعف هذا العدد!- قسطنطين أرنولدوفيتش يضرب الطاولة بكفه بقوة.

ينهض غوريلوف عن طاولة الحرس، يتأمل المطعم بادي القلق: ما هذه الضجة؟

تربت إيزابيلا على يد زوجها بود.

- أما هنا... - الزوج لا يستطيع أن يهدأ، إنه يتكلم بسرعة وصوت مرتفع. أنت رفائيل! ميكيل أنجيلو! أنت لا تزيّن نادياً- هل، أنت نفسك، تفهم هذا؟

- بالمناسبة يا يمامتي إيليا بتروفيتش!- إيزابيلا تضغط بقوة يد زوجها ضغطة ذات مغزى. - لقد وعدت أن ترينا...

جرس الإنذار المعلق عند باب المطعم، وهو عبارة عن قرص معدني كبير، يئن فجأة نتيجة ضربة قوية، ويترنح، ويهتز تحت ضربات متلاحقة بالمسدس. يتبادل الناس النظرات، يضعون الملاعق من أيديهم، وينهضون كالمعتاد، عن الطاولات خافضي الرؤوس، وينزع أحدهم القبعة عن رأسه. ويدخل القومينداننت- ببنطال غولف مدعوك، متسخ، ارتداه كيفما اتفق فوق سرواله الداخلي- وفوقه قميص داخلي ممسوك بحمالتين متصالبتين مشدودتين، وعلى رأسه قبعة من شعر كستنائي غامق يشوبه بياض خفيف، تظلل حاجبيه، وعظام خدين حادة، تحيط بها لحية كفرشاة غير مستوية.

- قيام!- يصرخ القومينداانت بصوت مدوّ، يبدو وكأنه، هو نفسه، ترنح قليلاً من شدته. - إلى العمل: ل-ل-ل! لا مجال عندي لإضاعة الوقت!

يسرع إليه غوريلوف من وراء طاولته، وهو يمسح يديه على عجل بسترة المراقب البنية الرسمية.

- لقد أنهوا عملهم أيها الرفيق القومينداانت!- يقول وهو يقف بارز الصدر ويداه مسبلتان على جنبيه.

يطوف إيغناتوف بنظرة عكرة على الرؤوس المنحنية، والصحون المئتين التي ما زالت على الطاولة وفيها بقايا الطعام.

- تلتهمون الطعام يا سفلة- يقول بمرارة.

- هكذا بالضبط أيها الرفيق القومينداانت!- يجيب غوريلوف بصوت رنان وحاد إلى درجة تجرح الأذن.

- يا حشرات لا تشبع، - صوت إيغناتوف خافت متعب. - نطعمكم، نطعمكم... ولا نعرف متى ستشبعون...

- لقد جاعوا أيها الرفيق القومينداانت! هم نفّذوا الخطة!

- الخطة... حاجبا إيغناتوف يرتفعان بلطف، فوق جبينه المغطى بالتجاعيد. - وكيف؟

- نفّذوا أكثر من المطلوب بنحو عشرة بالمئة!

- هذا جيد، - يمشي إيغناتوف بين صفوف الموائد، يتأمل الوجوه العابسة والشفاه المزمومة، والعيون المطرقة، والخدود البارزة. - جيد جداً.

يربت بيد غير واثقة على صدر متهدل لرجل نحيل، محني الظهر، ذي شعر قصير وأذنين كبيرتين بارزتين كآذان الأطفال، ثم يأخذ طبقاً عن الطاولة فيه سائل تسبح

فيه كتلة رمادية- خضراء، ويسكبه على رأسه.

- الخطة- ضرورية!- ينحني إيغناتوف من ارتفاع قامته العملاقة فوق الرجل النحيل، وينظر نظرة ألفة إلى العينين الخائفتين نصف المغمضتين، ويهمس في الأذنين اللتين انسكب عليهما الطعام. - من دون خطة- لا يمكن تحقيق أي هدف! يهز رأسه مؤكداً ذلك بحزم. - ويدق على الصحن بمسدسه- الدقات أخفض وأضعف صوتاً من تلك التي تصدر عن طبق الإنذار.

تسيل على وجه النحيل الخضرة بالتناوب مع رؤوس السمك، وإيغناتوف يهز رأسه في رضا، ويهدد بفوهة مسدسه الآخرين وكأنه يهددهم بإصبعه: إياكم ومشاكستي! يستدير، ويتجه ببطء نحو الباب، وقبل أن يغادر يقذف طبق الإنذار بمسدسه: هكذا- أفضل!

حين هدأ وقع خطواته راح المهجّرون يجلسون واحداً بعد الآخر، يمسكون الملاعق في صمت، ويتابعون الأكل. صوت طبق الإنذار الراعش معلق في الهواء، ويتسلل إلى الأذنين. ينزع النحيل الطبق عن رأسه. هو ما زال واقفاً يتنفس، ويمسح بكمه وجهه الملطخ. يلمس أحدهم كتفه بحذر:

- هاك، - الطباخ أشكينازي العابس كالعادة يعطيه طبقاً آخر مملوءاً بحساء كثيف، يبدو أنه مأخوذ من قاع القدر- خذ يا زاسيكا، هذه حصة إضافية لك.

- إن قوميندانتنا من حيث الجوهر إنسان غير سيئ، - ينحني قسطنطين أرنولدوفيتش فوق الطاولة، نحو إيكونيكوف- إنه أخلاقي على طريقته، إن لديه مبادئه وإن كان هو نفسه لا يعيها تماماً، كما أن لديه ميلاً إلى العدالة لا شك فيه.

- إنه إنسان جيد- تقطع إيزابيلا كلامه- لكنه يعاني كثيراً.

في عام اثنين وثلاثين صاروا يظهرون له وجوهاً، فلسبب ما تذكر قبل النوم كيف رأى زليخة لأول مرة- كانت تجلس متكومة في عربة كبيرة ملتفة بمنديل سميك، وعباءة لا قياس لها. وفجأة- يلتمع في الذاكرة وجه زوجها: حاجبان عظماهما بارزان، يتجمعان على جبينه، وأنف بخيشومين واسعين سميكين، وذقن بطبقتين. رأى ذلك بوضوح وكأنه يتأمل صورة فوتوغرافية. لم يعر ذلك أهمية. نام. وإذا بذلك يأتيه في الحلم: ينظر إلى إيغناتوف في صمت، فتوقظه نظرته، ينقلب إيغناتوف على جنبه الآخر مستاء، لكن الزوج يأتيه في المنام ثانية ولا يغادر.

منذ ذلك اليوم صار المقتولون يأتونه في الليالي وينظرون إليه. وكان إيغناتوف كلما نظر إلى أحد ضيوف الليل هؤلاء، يتذكر بألم أين؟ ومتى؟ وكيف؟ فيستيقظ بسبب توتر ذاكرته ويشرع في اليقظة، وهو يقلّب الوسادة مرات ومرات واضعاً خده على وجهها البارد، يتذكر: هذا- في ضواحي شيموردان في شتاء عام ثلاثين، - وهذا-في وادي فارزوبسكي، في ضواحي دوشامبيه، في عام اثنين وعشرين، وهذا- في سيفياغي في عام عشرين.

لقد قتل كثيرين في تبادل إطلاق النار وفي المعارك من دون أن يرى وجوههم- لكن هؤلاء كانوا يأتون أيضاً وينظرون. الأمر الغريب هو أنه كان لا يستطيع التعرف عليهم إلا في المنام- هذا من استدارة رأسه، وهذا، من شكل نقرته، وهذا من عرض كتفيه، وهذا من طريقته في الضرب بالسيف. كان يتذكر الجميع ابتداء من أولهم في عام ثمانية عشر. جميعهم بلا استثناء كانوا أعداء صريحين، حاقدين، خطرين: دينيكينيين، وبيلوتشيخيين، وبسماجيين، وكولاك. لا أحد منهم يستحق الشفقة، يقول في سره، مهدئاً نفسه، لو رأيته الآن لقتلته مرة ثانية من دون أن يرف لي جفن. هكذا كان يهدئ نفسه، - غير أنّه صار لا ينام تقريباً.

إن هذه الأحلام الصامتة الغريبة التي كانت وجوه منسية منذ زمن بعيد، وجوه لا يعرفها عموماً، تنظر إليه فيها بصمت ولا مبالاة، لا تطلب شيئاً، ولا ترغب في قول شيء، صارت أشد إيلاماً له من كابوس غرق «كلارا» (إيغناتوف لم يعد يراه في الأعوام الأخيرة). لم يعد يساعده على النوم العمل المضني أياماً متتالية، ولا جسد امرأة يدفئ خاصرته. السماغون كان يساعده أحياناً.

لذلك ابتهج إيغناتوف لقدوم كوزنيتس غير المتوقع- كان الشرب معه أكثر متعة من الشرب وحيداً أو مع غوريلوف الذي كان يزداد عاماً بعد عام، وقاحة، ونذالة.

- زي-ي-ي- نا!- صاح باسطاً ذراعيه وهو مازال في مدخل مقر القومينداانت، حين رأى قارب الرئاسة الأسود الطويل وراء التلة.

- هيه، أنت، إذن، كنت تنتظر قدومي يا يمامتي، - قال كوزنيتس مازحاً وهو يقفز إلى الضفة، مقيّماً بدقة رائحة السكر المنبعثة من أنفاس إيغناتوف، والسواد الفحمي تحت عينيه.

كان كوزنيتس يأتي للتفتيش بانتظام، مرة كل شهر ونصف أو شهرين، يتجوّلان، كما يقتضي الواجب، في سيمروك، وفي ورشة العمل في الغابة، ثم يذهبان إلى مقر القومينداانت-«ليجلسا». كانا يجلسان «جلسة أصولية» تستمر أحياناً يومين أو ثلاثة أيام. غوريلوف لم يكن يشاركهما في الجلسات، لكنه كان يقدم مساعدات شاملة: كان هو نفسه يجيء بالطعام من المطعم (كان أشكينازي يخرج تحت إشرافه الشخصي ما خبأه في خزائنه لمثل هذه المناسبة من السمك المدخن، ويطبخ الطيور المصطادة حديثاً في الغابة ويتبلها بالأعشاب، ويعدُّ الأشربة والعصائر، ويأمر بإعداد مقشات التدليك وتحضير الحمام (الحمام بنوه في العام الماضي في مكان بعيد عن البلدة، عند المنعطف، وكانوا يستحمون بالتناوب- الرجال في يوم الأحد، والنساء في يوم الأحد التالي)، وكان يجبر النساء على

تنظيف قارب كوزنيتس الواقف في المرسى الصغير، إلى درجة اللمعان. كل شيء كان يدل على أن الجلسات ستكون حميمية هذه المرة- غوريلوف تصبب عرقاً وهو يجر عن الضفة حقيبة كوزنيتس الثقيلة كأنها الحجر التي يرن فيها شيء ما رنيناً أصم ثميناً ويبقبق (كان كوزنيتس، عادة، يحضر معه شراباً يشتريه، فهو ينفر من السماغون المحلي).

مشيا على الضفة، وتفحصا المنحدرات الممتلئة بالناس، والغاصة بغرسات يناهز طولها طول قامة الإنسان. ألقيا نظرة على مبنى المدرسة الذي أنشئ حديثاً (الدروس يجب أن تبدأ في أيلول)، تأملوا السهب المفلوح (تجربة زراعة القمح نجحت وتقرر اقتطاع جزء من التايغا لزراعته). تبادلا النظرات بارتياح وتساءلا: ألم يحن وقت الجلسة؟ وذهبا.

أحاديثهما على الطاولة كانت دافئة، ومن القلب. إيغناتوف كان يعرف أن كوزنيتس بشاربه الأسود اللامع الملتف الذاهب من أنفه إلى خده، يتذكر كل ما يقوله في صحوه وسكره أو حتى حين يفقد وعيه من شدة السكر، لكنه لم يكن يخاف ذلك- فلم يكن لديه ما يخفيه. كانت كل ذنوب إيغناتوف راقدة عند كوزنيتس على راحة كفه العريضة القاسية كلوح خشبي. - إن في الشرب مع إنسان ليس لديك، ولا يمكن أن يكون لديك ما تخفيه عنه، على الرغم من أنه قد يكون لديه أسرار، - شيء جذاب، شيء متميز من فرح يشوبه الانتقام. ليتوتر كوزنيتس، وليتحفظ في كلامه، وليمسك لسانه، وليحذر من أن يثرثر بما لا يريد البوح به. أما هو، إيغناتوف، فيجلس إلى الطاولة مرتاحاً، مبتهجاً، وكأنه يظهر للجميع روحه عارية.

- من أين؟ يأخذ كوزنيتس عن الطاولة التي مدّت عليها الزبادي والأطباق والكؤوس والقدور والصواني، حبّة لفت صغيرة بحجم قبضة طفل لها ذيل أخضر، طويل ومنتفج كأنه الشهاب.

- عندي هنا أحدهم... مهندس زراعي، قال إيغناتوف وهو يبلع ما في فمه بنفاد صبر، ويصب الفودكا الموسكوفية رنانة في كأسين زجاجيين شفافين، تلتمع في الضوء أضلاعهما الحادة.

كانا يشربان في طاسات عادية، لكن كوزنيتس أحضر معه هذه المرة كؤوساً زجاجية، يبدو أنه أراد أن يستمتع بالشرب على الطريقة المدنية. اللصاقة الخضراء خضرة شبيهة بالبراعم الأولى لأوراق الشجر، الملصقة على جنب الزجاجة، تعد بمتعة نقية بدرجة خمسين بالمئة، مضمونة ومختومة بخاتم صناعة المواد الكحولية في الاتحاد السوفييتي. وأخيراً قرعا كأسيهما. وتبين أن حبّة اللفت كانت مناسبة جداً مع الفودكا- حادة قليلاً، ريّانة، تشوبها مرارة لطيفة.

- لنعتبر اجتماعنا مفتوحاً. - يأكل كوزنيتس حبّة اللفت كلها وذيلها الأخضر أيضاً، ويحرك أصابعه الثخينة فوق الكأسين: هيا، أسرع واملأها ثانية. - انتبه يا فانيا، النقطة الأولى هي نمو الكولاك. إنه وحش أسطوري اقض عليه.

ما صاروا يسمونه «نمو الكولاك» هو الإثراء السريع للفلاحين المهجّرين. إن هؤلاء الذين أبعدوا آلاف الكيلومترات عن أوطانهم، أفاقوا بعد ستة- ثمانية أعوام من الصدمة وتكيفوا قليلاً مع غربتهم، واستطاعوا، حتى هنا، أن يجنوا كوبيكاً إضافياً يوفرونه، ثم يشترون به متاعاً للبيت، بل ربما ماشية. باختصار: إن الطبقة الفلاحية التي نهبت تماماً، عادت فاكتسبت صفة الكولاك من جديد، الأمر الذي لم يكن مسموحاً به أبداً. لذلك اتخذ في المواقع الحكومية العليا قرار حكيم: وقف هذا النمو فوراً، ومعاقبة المسؤولين عنه، وتنظيم الكولاك الذين أظهروا أنهم لم يتخلصوا من نزعتهم الفردية حتى في المنفى، في كولخوزات. وانتشرت موجة معاقبة الذين لم يمنعوا عودة ظاهرة الكولاك، في صفوف قوميسارية الشعب للشؤون الداخلية، بما في ذلك المراكز العليا فيها، وانصبت في التيار العام للاعتقالات في العامين سبعة وثلاثين وثمانية وثلاثين.

انتهيا من مناقشة المسألة بسرعة، حتى قبل أن تفرغ الزجاجة الأولى من الشراب- لم يكن في هذه المسألة تعقيد، فكل شيء واضح: منع إنشاء أبنية خاصة (بعض النشطاء في سيمروك بنوا لأنفسهم بيوتاً صغيرة متينة، انتقلوا إليها من البراكات وبنوا أسراً)، وإلقاء محاضرة توضيحية في الاجتماع العام يتم فيها التحذير من عودة الكولاك.

- أوه، سنفعل ذلك... - يعد إيغناتوف اللصاقة الخضراء وهو يحاول خدش طرفها بظفره. - أوه، سنحذرهم...

موضوع النقطة الثانية في الاجتماع في مقر القومينداندت في سيمروك، ينتج عضوياً من موضوع النقطة الأولى وهو تنظيم المزارع الجماعية المحلية.

في كانون الثاني عام اثنين وثلاثين صدر قرار مجلس العمل والدفاع في الاتحاد السوفييتي «حول البذار للمهجّرين» الذي بموجبه جرى تزويد البلدات العمالية بانتظام بالبذار كي تنتج ما يكفيها من القمح والحبوب الأخرى. وأعطيت سيمروك البذار أيضاً: بذار الذرة، والشعير، والقمح، وحتى الحبوب المحبة للطقس الحار التي لا تكفي شمس سيبيريا الشحيحة لنضجها. سوملينسكي الذي أخذ على عاتقه دور المهندس الزراعي، كان يقوم بهذا الدور بشكل جيد جداً، زد على ذلك أنه تجرأ في العامين الأخيرين، بعد أن نال موافقة حذرة من إيغناتوف، وطلب من المركز تزويده ببذور إضافية (وتسمية أنواع محددة منها، يا له من وقح!): وهكذا ظهر في البلدة اللفت، والجزر، والبصل، والفجل (وها هو ذا قسطنطين أرنولدوفيتش ينادي منذ عامين بفكرة زراعة البطيخ، لكن إيغناتوف منعه من أن يضيف إلى قائمة طلباته بذور البطيخ- خاف أن يسخروا منه). لا يمكن القول إن المواسم كانت وفيرة، ولكنها كانت تعوض نفقات العمل: صاروا في البلدة يأكلون خبزهم، وفي أحيان نادرة الخضار التي ينتجونها. لم يكن القمح الناتج الثاني الذي ينوي سوملينسكي أن يزرع فيه مواسم شتوية.

... فرغت الزجاجة الثانية. وأُكلت حبات اللفت كلها، وحبات الفجل الصغيرة كالحمص والحامضة المذاق، وأُكل العشاء الذي أحضره غوريلوف (شرحات سمك مقلية طريّة ساخنة ما زال الزيت يقطر منها)، وتم تدخين عشر وأكثر من سجائر كوزنيتس الغالية الثمن، وشع مصباح الكيروسين بضوء أصفر ليموني عبر دخان أزرق كثيف، والنقاش في هذه المسألة لم ينته، فقد أراد كوزنيتس ألّا يكتفي كولخوز سيمروك بتموين البلدة بمنتجاته، بل أن يرسلها أيضاً إلى الوطن الكبير.

- وما الذي يمكن أن أرسله إليك؟!- يهز إيغناتوف في وجه كوزنيتس المضرج بالحمرة أوراق البصل الخضراء خضرة شاحبة يشوبها البياض. - إن كل ما عندي من هذه الخضار لا يكفي لأكثر من عشاء واحد، وقليلاً ما ينضج القمح! نعمل عاماً لنأكل شهراً! أربعمئة فم يطلبون الطعام!

- يجب أن تحاول!- ينتزع كوزنيتس من يد إيغناتوف البصلة، ويدسها في فمه الواسع، ويطحنها بأسنانه. - لماذا برأيك يا يمامتي، ننشئ الكولخوز، - ألكي تأكل سحنتك وحدها اللفت؟ أنت عندك أربعمئة زوج من الأيدي! اعمل، إذن، لو سمحت، وتقاسم مع الدولة نتاج عملك!

أرسلا في طلب سوملينسكي، فجاء راكضاً مشعث الشعر بسبب النوم، مرتدياً سترة فوق قميصه الداخلي. صبوا له شراباً في أحد الكؤوس، لكن قسطنطين أرنولدوفيتش رفض أن يشرب، وظل واقفاً أمام الطاولة، خائفاً، مجعّد الخدّين، منتصب شعر الرأس. حين فهم فحوى المسألة، راح يفكّر، قطب حاجبيه، ومسّد لحيته الطويلة، النادرة الشعر، التي صارت مع الأعوام، تشبه تماماً لحية تيس.

- ولم لا نرسل، - يقول، - نحن نستطيع ذلك.

دق إيغناتوف بيديه وجه الطاولة في أسى: أنا أدافع عن هؤلاء الأغبياء، وهم يلفون حول أعناقهم حبل المشنقة... يقول ذلك في سره ويلقي برأسه على

الطاولة- لقد تعب من الكلام. أما كوزنيتس فقهقه ضاحكاً: برافو يا عمّ، أحب أمثالك!

- لكن، - تابع سوملينسكي، - هناك عدة شروط حتمية.

يثني أصابعه الحادة: أن لا يقل عدد العاملين في الكولخوز عن خمسة عشر رجلاً أقوياء، ماهرين، وأن يكون عملهم دائماً، وليس كما يعملون الآن على أسس اجتماعية وتطوعية في أيام العطل، - هذا أولاً. ومخصصاتنا من البذار- يجب أن تتطابق تماماً والطلبات المسبقة التي أدققها أنا شخصياً، وأن يكون لنا الحق في رفض المتعفن والفاسد إن وجد كما حدث في عام أربع وثلاثين، - هذا ثانياً. وأن تقدم لنا أدوات عمل معدنية، فالعمل بالأدوات الخشبية يعذبنا، ونحن نعمل أحياناً بالحجارة كالناس البدائيين، نحن نطالب بمخول ورفوش ومجارف، وفؤوس، ومذار من مختلف القياسات، أنا سأضع قائمة بذلك. وهذا ثالثاً. إنَّ الأدوات الزراعية بند مستقل. ونحن نحتاج أيضاً إلى أشياء كثيرة سأشير إليها في فقرة خاصة، كي لا يحدث خطأ، - هذا رابعاً. القوة الحيوانية ضرورية أيضاً، خمسة ثيران أو أكثر فمن دونها لا نستطيع أن نفلح الأرض، يمكن تأجيل إرسالها إلى الربيع القادم، موعد بدء الزراعة، - خامساً. والآن جاء وقت الحديث عن السماد.

يستمع كوزنيتس- رقبته الحمراء بطبيعتها تزداد اصطباغاً بحمرة داكنة. وحين ينتهي سوملينسكي من جمع أصابع يده الواحدة في كفه المعروقة، ويشرع في ثني أصابع اليد الثانية، يفقد كوزنيتس صبره:

- من أنت، - ينطق بصوت كالفحيح، - من أنت حتى تفرض عليّ، أنا زينوفيا كوزنيتس، شروطاً؟

يخفض قسطنطين أرنولدوفيتش قبضته وينكمش.

- أنا، على ما أظن، لا أحد، - يقول. - وقد كنت في وقت ما رئيس قسم علم النباتات التطبيقي في معهد بحوث الهندسة الزراعية، هذا المعهد موجود في لينينغراد. وفي زمن قديم جداً، إذا جاز القول، في الحياة الماضية- كنت عضو اللجنة العلمية في وزارة الزراعة وأملاك الدولة- هذا كان في بيتربورغ قبل أن يتغير اسمها.

- لست أنت من يفرض عليّ الشروط، بل أنا من سيفرض الشروط يا وزير الأعمال الزراعية. آمرك أن تنهض أنت بمفردك بالكلخوز من دون رجال أقوياء وماهرين، ومن دون ثيران. ستفلح الأرض بعضوك الذكري لا بالآلات المعدنية.

- أنت تستطيع أن تأمرني- يقول سوملينسكي مطرق الرأس، - لكنك لن تستطيع أن تأمر الحبوب، على ما أظن.

يرفع إيغناتوف رأسه الثقيل المتيبس عن الطاولة.

- هيا بنا نشرب يا زينا. أما هذا، - يتلمس بصعوبة بنظره الغائم قامة قسطنطين أرنولدوفيتش الناحلة التي يبدو وكأنها تبخرت فوق الأرض يلفها دخان السجائر، - فلنطرده من هنا، وليقدم لنا كل شيء مكتوباً.

كوزنيتس يتنفس بصخب، يقذف إلى فمه ورقة بقدونس يمررها على أسنانه.

- هيا بنا نشرب، - يلح إيغناتوف، ويدق الطاولة بكفه، - هيا نشرب!

- هيا، - يوافق كوزنيتس أخيراً، وهو يرفع الكأس وينظر مباشرة إلى سوملينسكي الشاحب، - نخب الكولخوز المقبل، نخب أن يتفتح زهرة اشتراكية فاخرة- وفي أسرع وقت. حسناً، أيها الوزير، أنا أقبل شروطك. لكن إذا تبين أنك تخدعني... تبادلا قرع كأسيهما، وبينما كانا يشربان اختفى سوملينسكي وراء الباب في صمت. هكذا وضعت بداية إنشاء كولخوز سيمروك، وانتهت بنجاح مناقشة النقطة الثانية في جدول أعمال اليوم، وقد جاوز الوقت منتصف الليل.

النقطة الثالثة في جدول الأعمال كانت مهمة إلى حد تطلب منهما الانتقال إلى حمام البخار لمناقشتها. أخذا معهما الفودكا. برّداها في دلو ملأه بماء أنغارا الصقيعي. أما عنوان هذه النقطة فهو العمل الاستخباري- الأمني الذي كان سيئاً للغاية عند إيغناتوف، يتطلب الإصلاح دون إبطاء.

- من تريدني أن أجند كمخبرين- الدببة؟ تساءل إيغناتوف بتثاقل، بينما كان كوزنيتس يدلك له ظهره بإخلاص بمقشة من أغصان البتولا نقعت بالماء الغالي.

- وحتى الوعول ذوات القرون، - يقول كوزنيتس لاهثاً، والهواء الألماسي الكثيف يرتعش غمامة حول جسده العملاق- وسمّ لي في الحال خمسة مخبرين.

حين كان إيغناتوف يقود الرتل كان يستدعي بانتظام مسؤولي العربات- للحديث معهم. لكن التحدث مع الناس والإصغاء إلى كلامهم شيء- وشيء آخر تماماً أن تكتب ملاحظاتك وترسلها إلى المركز، وأنت تعلم أن ورقتك ستوضع في مصنف «موضوع» المراقبة، وستبقى هناك طويلاً، وعلى الأغلب، إلى الأبد، متجاوزة عمر «الموضوع» وعمر من يراقبه.

تدلّكا حتى العظم، وركضا إلى أنغارا عاريين ليغوصا فيه- صرخا وهما يخوضان في الماء الصقيعي، فأخافا من حولهما كل السمك الساهر ليلاً، تخبطا في الماء لاهيين ثم هرعا إلى حمام البخار من جديد- طلباً للدفء.

- افهمني يا زينا، يا أخي... - يقول إيغناتوف وهو يحاول أن يصب الفودكا في كأسين خشبيين صغيرين، فلا ينجح (نسيا إحضار الكأسين معهما، وتكاسلا فلم يعودا لإحضارهما)، -... أبعدني عن تجنيد المخبـ... المخبرين...

يشرب كوزنيتس من الكأس، ويقضم ورقة بتولا بنية داكنة التصقت بجبين إيغناتوف، ثم يبصق ذيلها.

- انتبه يا فانيا، يجب أن تسير الأمور هكذا.

يركل الباب بقدمه- فيهب صقيع ليلي من الخارج، وفي السماء الزرقاء المعتمة يترنح القمر هلالاً أصفر بلون الزبدة. يصفر صفرة قصيرة منزلية الطابع، وكأنه ينادي كلبه. بعد دقيقة يظهر في فتحة الباب وجه غوريلوف المنفعل.

- النسوة، - يقول، - يجلسن الآن في مدخل القومينداندانية- ينتظرن. إحداهن سمراء والثانية بيضاء، كما في المرة الماضية. إذا أردتما أن آتي بهما إلى هنا، مراني فقط...

كوزنيتس يستدعي غوريلوف بإصبعه، فيحشر الأخير نفسه بحذر في غرفة الحمام الضيقة التي غصت بروائح الدخان، والحجارة المحماة، وأوراق البتولا، والفودكا، وجسدي الرجلين المتينين. يشيح ببصره عن الأجزاء الحساسة في جسد الرئاسة العارية، ولا ينظر إلا إلى الوجه الأحمر اللامع الغارق في العرق.

- كيف ينادو... - يصدر كوزنيتس بإصبعيه فقسة في الهواء.

- غوريلوف!

- لماذا أنت هنا في هذا المجمع السكني تبترد يا غوريلوف، بدلاً من أن تكون في المعتقل تقضي سنوات حكمك؟ إن المعتقل يبكي بدموع حارة تنهمر بلا توقف حزناً على فراقك.

- أنا لم أحكم بجريمة، - ينكمش غوريلوف خائفاً، ويتراجع نحو الباب، - أنا حكمت فقط بسبب انتمائي الطبقي...

- لقد حالفك الحظ يا كلب، - يبتسم كوزنيتس، يصب في الكأس الصغير بعض الفودكا ويقدمه لغوريلوف- يحني الأخير رأسه بحذر وامتنان، ويشرب، يلسع السائل الحار حنجرته- لو كنت أنا مكانهم لتهمتك بجريمة وقتلتك... حسناً، لا تجبن. الأفضل أن تخبرني من عندكم في سيمروك ينشر العداء للسلطة السوفيتيية؟

غوريلوف يضحك في سره، ينظر بطرف عينه متشككاً من وراء الكأس: أتراهم يختبرونه؟

- إنهم كثر.

- أوه!- يرفع كوزنيتس إصبعه إلى أعلى بحركة ذات مغزى. - وهل تستطيع أن تكتب لنا أسماءهم؟

- أنا لست أمياً.

- وهل هناك من يمكن أن يساعدك، يدلك على ما لم تلحظه أنت بنفسك، من أمور أو أشخاص، أو رسائل؟

- سنجد- وكيف لا نجد؟!- غوريلوف يبتسم بنصف فمه، وكأنه ما زال لا يثق بأن القيادة تتوجه إليه بمثل هذا الطلب المهم.

- عظيم!- يقول كوزنيتس وهو يشير بحركة ملكية من يده، - اذهب الآن، يمكنك الانصراف!

ثم يلقي نظرة انتصار على إيغناتوف المتهالك قرب الجدار: هه، ما رأيك؟ ها قد تم بسرعة البرق تجنيد مخبر بمجرد القيام بخطوتين، بل بخطوة ونصف.

- أنا، الآن، فوراً! أستطيع الآن!- غوريلوف تكاد تمزقه المعلومات المهمة التي يريد حتماً أن ينقلها بحجمها الكامل إلى الرئاسة الراضية عنه في هذه اللحظة المضطربة. - إنه يريدها أن ترى الأهم! إن هذا السافل لم ينم بعد! أنا أعرف ذلك!

- من؟- يسأل إيغناتوف وهو يلقي على غوريلوف نظرة ثقيلة من تحت جفونه المغمضة.

- إيكونيكوف! يقولون إن عنده في النادي أشياء!...

- هاتِ- أرنا ما عنده، - ينهض كوزنيتس، يترنح قليلاً، وهو يعقد حول خصره المتورد، البارز العضلات، شرشفاً أبيض فيصبح على الفور شبيهاً بباتريس الروماني القديم في سجون كاراكلّا.

بنوا النادي قبل خمسة أعوام تنفيذاً لقرار الجهات العليا بضرورة تنظيم دورات تثقيفية في الأمور المعاشية والفكرية التي يجب أن تتكون منها حياة الفلاحين الذين تتم إعادة تربيتهم. لقد كان إيغناتوف يفضل أن تبذل هذه القوة العاملة في توسيع المشفى أو في بناء مستودعات، لكن الأمر أمر، وتنفيذاً للأمر بني النادي.

لا بد من الاعتراف بصدق أن البناء لم يكن جميلاً- كان بناء عالياً قائم الزوايا، لا يتسع لأكثر من مئتي شخص. في البداية صاروا يعقدون فيه الاجتماعات العامة، غير أن النمو المتسارع لسكان سيمروك جعلهم ينقلون الاجتماعات العامة، إلى الساحة، قرب لوحة الإعلانات، وظل النادي معظم الوقت خالياً. وقد اقترح إيغناتوف أن يحولوا النادي إلى مدرسة، أو في أسوأ الأحوال إلى مستودع. لكن كوزنيتس أصر على موقفه: يجب أن يكون النادي موجوداً كوحدة مستقلة في البلدة. ففي البلدات العمالية الأخرى تعمل في النوادي حلقات المناضلين ضد المعتقدات الدينية، وجمعيات «لتسقط الأمية»، وحتى جمعيات تطوير استخدام السيارات وتحسين الطرق، التي يرمز لها بكلمة «أوتوستريت»، - وجود مثل هذه الجمعيات في سيمروك سيكون مفيداً. «هذا لن يكون أبداً»، - قال إيغناتوف في سره، وهو يتخيل لوقا بذقنه الحمراء يستمع باهتمام إلى تقرير حول «شهر العناية بالطرقات» في تركستان، أو المرأة يانيبا تمشي في صفوف المناضلين ضد المعتقدات الدينية، - «لا، الأفضل أن يظلوا يعملون في الغابة».

قرار تزيين النادي بالشعارات اتخذ منذ فترة وجيزة. لقد ازداد في هذه المدة الأخيرة اهتمام المركز بالدعاية للشعارات، واكتسب هذا العمل أهمية كبيرة، مع أنه اقتصر على إرسال إعلانات ساطعة ملفوفة على شكل أسطوانات، تطل من

هذه الإعلانات على المشاهدين عاملات كولخوز جعداوات، يقدن بيد جرارات فولاذية، ويشرن باليد الأخرى بإلحاح وبحركة ذات مغزى إلى مكان ما (كان قسطنطين أرنولدوفيتش يتنهد حالماً ويمرر إصبعه على الجانب المرسوم بعناية لجرار تتحرك عجلاته على مسننات، وهو يشرح آلية عمل الجرار غير المعقدة للفلاحين الذين لم يروا في حياتهم حصاناً حديدياً، وتطل قامات رجالية ونسائية، تتجه بأنظارها إلى طفل محمرّ الخدين، يصوت بنعم بيديه الصغيرتين المنتفختين «للطفولة البهيجة السعيدة» التي يعيشها (كان عام ثمانية وثلاثين بالنسبة إلى سيمروك عام انعطاف في المجال الديموغرافي- ففي هذا العام تفوقت، لأول مرة منذ تأسيس البلدة، نسبة الولادات على نسبة الوفيات، يبدو أن من بين الأسباب التي أدت إلى ذلك، التأثير القوي للشعارات التي تضمنتها الإعلانات)، وتطل من الإعلانات وجوه الكومسموليين المحمرّة التي لوحتها الشمس، وهم يمشون وقد ارتفعت نحوهم أكف يملؤها الرجاء (في نشرة حكومية في عام اثنين وثلاثين منع تشكيل أفواج طلائعية من أبناء المهجّرين، وفي عام ستة وثلاثين، على العكس من ذلك، سمح بتشكيل تلك الأفواج بل عدّوا أن تشكيلها أمر مرغوب فيه جداً، واقتُرح أن يُشكل من الطلائعيين الجدد أعضاء منظمة الكومسومول9 في المستقبل. وقد جاءهم من المركز، لسبب غير مفهوم، رزمة من الدعايات لحديقة حيوانات موسكو «ثمن بطاقة الدخول عشرون كوبيكاً فقط!»، وثلاثة إعلانات عن معاطف فراء من إنتاج «اتحاد تجارة الفراء»، غير أنهم لم يعلّقوا هذه الإعلانات في لوحة الإعلان.

وفجأة، يأتي أمر بتزيين أماكن التنزه والتسلية بإعلانات الدعاية، وبكثافة. ولم يكن في سيمروك إلا مكان واحد من هذه الأماكن هو النادي. فتقرر تزيينه. وقد أراد إيغناتوف في البداية الاكتفاء بالإعلانات التي عرفوها من قبل، وحبلين من الكتابات الرنانة، لكن كوزنيتس تذكّر فسأله: أليس لديك رسام كان سابقاً من

المشاهير؟ دعه، إذن، يتصبب عرقاً، وهو يرسم لنا شيئاً مختلفاً. لقد كان كوزنيتس يعرف أن تفتيشاً من موسكو سيهبط عليهم في وقت ما، ولم يكن يشك في أن المفتشين سيقدرون عالياً الأسلوب الإبداعي الذي استُخدم فيه العمل الدعائي البسيط لتزيين مكان ثقافي عام في بلدة سيبيرية نائية.

أحضر كوزنيتس بنفسه من كراسنويارسك قماش اللوحات والألوان، وبرميلاً صغيراً من محلول (السكيبيدار). وراح إيكونيكوف يتفحص الكنوز التي هبطت عليه بأصابع جافة، راعشة بسبب التوتر، خشنة بسبب العمل في الغابة، وفي لحظة إلهام إبداعي تساءل فجأة: «ماذا لو زيّنا السقف بالرسوم؟» نظر إليه كوزنيتس بعدم رضا: «أتعني كما في الكنيسة؟»-«بل كما في المتروبوليتين!»

الرسم هو الرسم. أحضروا ألواح الخشب المضغوط10 وغطوا السقف. «ليتهم، بدلاً من هذا العبث، جاؤوا بالمزيد من الدواء أو الأطعمة»، - قال إيغناتوف في سره وهو يتأمل كيف يتجول إيكونيكوف متفكّراً، بين الأخشاب المكدسة في مبنى النادي الخالي وهو يعبر باستمرار عن سخطه على مساعديه الذين يسمّرون «بفظاظة» ألواح الخشب المضغوط الرقيقة إلى خشب السقف، أما هم فما كانوا يفهمون كيف يمكن أن يكون الدق بالمطرقة «لطيفاً» و«ليناً»، لذلك كانوا ينظرون بشك إلى الفنان- المجنون ويتبادلون نظرات ذات مغزى.

كان إيليا بتروفيتش يتجول متململاً، يرهقه شعور كبير ومعقد، خليط من الإلهام، والشوق والحماسة الشبابية التي نسيها منذ زمن بعيد، والاندفاع، ورقة موجعة تجاه الرسمة التي لم ترسم بعد، بل حتى لم تكتمل صورتها في ذهنه. قبل أسبوع لم يكن، وهو يكمل قطع جذع شجرة الصنوبر البري الحادية عشرة في يومه، أو وهو يجر بحبل رزمة الجذوع إلى مكان تقطيعها، قادراً أن يتخيل أنه سيقف هكذا رافعاً وجهه نحو السقف- الذي تحول إلى قماش لوحة بلا حدود، فراحت ترتسم له على ألواح الخشب المضغوط الصفراء، الوجوه، والمدن،

والبلدان، والعصور، والحياة الإنسانية كلها- منذ نشأتها حتى الآفاق الشفافة المستقبلية.

- يجب أن يكون الحض والتحريض بسيطاً ومفهوماً، - يقول إيغناتوف. - ومن دون فذلكات، وإلّا.

في خلال أسبوع من المعاناة الإبداعية، ذبل وجه إيليا بتروفيتش، وازداد أنفه النحيل حدة مكسباً وجه صاحبه شبهاً بطائر كبير عابس المنظر، وشعت في عينيه نار غير مألوفة. كان يقضي النهارات والليالي راقداً على السقالات الخشبية التي صنعها، تحت السقف يبيض ألواح الخشب المضغوط ولا ينقطع للنوم أو لتناول الطعام إلا نادراً. كان، بإذن من القومينداتت، ينام في مكانه، في النادي، وقد كفّ عن شرب السماغون (أحد المهجّرين تعلّم تقطير الشراب من الثمار البرية، وكان إيكونيكوف ينضم إلى مجلسه أحياناً). وأنفق في خمسة أيام مخزون الشهر كله من الشمع (العمل ليلاً كان أكثر متعة وحدة)، ثم انتقل أخيراً إلى الرسم.

في البداية صار إيغناتوف يمر على النادي يومياً لمراقبة العمل الإبداعي، وقد أدرك مندهشاً أن إنجازه ليس أمراً سهلاً، فبعد شهر من بداية العمل لم يظهر على السقف سوى أنه قسّم إلى مربعات صغيرة، ورسمت عليه خطوط غير مفهومة، وغطيت أجزاء منه ببقع ملونة لا يعرف الهدف منها.

- هل ستنجزون العمل قريباً؟- سأل إيغناتوف إيكونيكوف بلهجة اليائس.

- سأحاول إنجازه عشية أعياد تشرين الثاني، - وعده الأخير.

كان ذلك والربيع في أوجه، لذا بصق إيغناتوف بأسى وكفّ عن زيارة النادي لتفقد العمل. لقد سمع أن إيكونيكوف كان حين يتحرر لدقائق من عمله يتسلى-

يرسم على قطع قماش اللوحات الموجودة تحت تصرفه، لوحات تخصه- لكنه لم يعر ذلك اهتماماً خاصاً. وسيتضح فيما بعد أنه كان مخطئاً.

طُرق الباب طرقاً عنيفاً اهتزت له السقالة تحت إيكونيكوف وكادت تسقط.

- أنا قادم!- صاح وهو ينزل على الحبل، فقدمه لم تجد السلم من شدة التوتر.

لقد نسي الشمعة في الأعلى، وهي الآن تشتعل تحت السقف مباشرة مضيئة كفاً كبيرة رسمت لنصفها أصابع رفائيلية طويلة، ومرسلة إلى جميع الجهات ظلالاً سوداء حادة الزوايا، هي ظلال السقالات التي تجمعت في الأعلى بشكل يبعث الخوف، وظلّ حامل اللوحات (صنعه إيكونيكوف من أغصان الشجر)، وظلّ إيليا بتروفيتش نفسه الذي راح يركض مضطرباً نحو الباب الخارجي. لمس مزلاج الباب أخيراً وسحبه، فانفتح الباب على مصراعيه بقوة كادت تخلعه من مكانه.

- استقبل الضيوف!- علا صوت من زرقة الليل.

تدحرج إلى الداخل غوريلوف حاملاً مصباح كيروسين بيده الممدودة، ومضيئاً المكان خدمة لأناس يسيرون خلفه. كان خلفه اثنان يرتديان ملابس غريبة ووجهاهما مضرجان بحمرة شديدة، جعلت إيكونيكوف لا يعرفهما من اللحظة الأولى، وهما القومينداتت إيغناتوف مرتدياً قميصاً داخلياً، جافياً، شعره مبلل، ومشعث، وقد التصقت على جبينه ورقتا بتولا، وإلى جانبه الرئيس القادم من المركز كوزنيتس، لا يرتدي من ملابسه المعهودة سوى الجزمة التي انتعلها على ساقين عاريين يغطيهما شعر أسود مجعّد، أما جسده فملفوف بشرشف أبيض رطب، وفوقه، لسبب ما، جراب مسدس أحمر مما يحمله الضباط. وكان الاثنان يحملان كأسين كبيرين خشبيين، يتبادلان قرعهما بين حين وآخر. إيكونيكوف يفهم من ذلك أنهما سكرانان حتى الثمالة.

- حسناً؟- يسأل كوزنيتس بلهجة تهديد متكلفة وهو يحك خصلات شعر كشعر الحملان، نامية على صدره الواسع كالشراع. - ماذا عندكم هنا؟ هيا قدموا ما عندكم!

يركض غوريلوف كالفأر بين السقالات، وتهتز الظلال على الجدران في رقصة جماعية غير منتظمة.

- أشعر، - يتمتم، - أشعر أنها يجب أن تكون هنا... - وفجأة يصرخ:- وجدتها!

يسرع إليه إيغناتوف وكوزنيتس استجابة لصوته، وهما يتعثران ببعض الجسور المتصالبة، ويسقطان أرضاً بعض الألواح والأدوات.

في البقعة الصفراء لمصباح الكيروسين- عدة قطع من قماش اللوحات تستند في فوضى إلى الجدار، وعلى حافة النافذة: أزقة ضيقة ومصابيح بكريستالات صفراء ضخمة، ومقاه تشغل طاولاتها الأرصفة الضيقة، ومنازل من ثلاثة طوابق تحيط بها الخضرة والزهور، طوابقها الأولى تلتف بستائر حمراء تتدلى كالتنانير فوق مخازن خضراء ومخابز وقصور مهيبة سطوحها مغطاة بقشرة خضراء زمردية نبيلة، ونهر تحده ضفاف رملية رمادية وجسور فولاذية.

يقرب غوريلوف المصباح بشدة من إحدى اللوحات، يتشمم دهانها الزيتي السميك الجاف اللامع ويحاول نكشه بظفره.

- ها هي ذي، - يهمس، - اللوحة الشرسة المعادية للسلطة السوفيتيية عداء خالصاً! إنها التعبير الحقيقي عن ذلك العداء!

في اللوحة برج طويل مثلثي ضيق مشغول من حديد على خلفية سلسلة خضراء من الروابي تمتد حتى الأفق.

- هم. م. م؟ يقرب كوزنيتس وجهه من البرج، يحرك أنفه الرئاسي من رأس البرج حتى أساسه المرفوع على قوائم قصيرة، ثم على العكس: لا بد من الاعتراف

بأن مظهر هذا البناء برجوازي إلى حد كبير.

- أنت سافل وتيس!- ينفجر غوريلوف بالصراخ ممسكاً بسترة إيكونيكوف. - لقد أعفيناه من العمل، وجئناه بالألوان، وأحضرنا له من (السكيبيدار) وحده برميلاً! فماذا فعل؟! من الغد ستذهب للعمل في الغابة! وستنجز حصة ونصف يا وغد!

- اتركه!- يطوح إيغناتوف يده بحركة عريضة ويدق بالكأس صدر غوريلوف: أمسكه، - يبذل جهداً ويركز نظرته على اللوحة، ثم ينقل بصره إلى إيكونيكوف المنكمش في الظل. - ما هذا؟- يسأله بصرامة وهو يضغط اللوحة بإصبعه الصلب.

ينظر إيكونيكوف إلى ظفر إيغناتوف القاسي الذي خدش رأس برج إيفل المرتفع في سماء باريس الزرقاء الشفافة.

- هذا... - هو يشعر كيف تضعف، وتتخدر، وتتفتت رملاً ساقاه، ويهبط ما بداخله إلى الأسفل، إلى الأرض، - هذه... موسكو.

تنغرس فيه ثلاثة أزواج من العيون التي عكّرها الكحول.

- موسكو. -يكرر قوله بحنجرة جافة. مبنى قوميسارية الشعب للصناعات الثقيلة.

تقفز العيون من جديد غلى اللوحة، محاولة أن تجد على الأضلاع الحديدية للبرج أية كتابات أو علائم دالة.

- انظروا هنا- في الأسفل- أترون؟- هذه هي الأبنية الإدارية، وهذا نهر ياوزا. وفي الخلفية- سوكولنيكي، والروابي البعيدة هي جزيرة لوسين.

يطلق إيغناتوف بصوت مرتفع زفرة يشوبها صفير، ثم ينظر إلى غوريلوف الذي شعر بساقيه تهبطان وتنثنيان من شدة الارتباك، والخوف فجلس على ركبتيه

فاغراً فمه.

أخذ كوزنيتس المصباح من غوريلوف وأضاء لوحة أخرى: على خلفية شارع يضج بالحركة تمتد أجنحة حمراء وساطعة لطاحونة هواء كبيرة.

- هل هذه موسكو أيضاً؟- يسأله.

- نعم، نعم، طبعاً. أنا أرسم من الذاكرة. لديّ ذاكرة- محترفة، تكاد تكون فوتوغرافية... - ساقا إيكونيكوف صارتا تشعران تدريجياً بالأرض، وشرعت أحشاؤه تعود إلى أماكنها، يدير اللوحة قليلاً، (مولان- روج) تشع بكل أطياف اللون الأحمر، من الأحمر الناري إلى اللون الزهري. - هذه سريتينكا، غير بعيد عن الكرملين. أما الطاحونة الحمراء فرمز انتصار الثورة- لقد بنوها في عام سبعة وعشرين، بمناسبة الذكرى العاشرة. أما في هذه... - يجر إلى دائرة الضوء لوحة أخرى، فعند تقاطع الأشعة الخضراء والرمادية للشوارع المشجرة والأحياء المأهولة يرتفع فوق المدينة الحرف الموحي «ن»، إنه قوس النصر، -... ثم بوابة نيكيتين التي تقع مباشرة بعد بولفار تفيرسكي، إلى اليسار قليلاً. هناك ألقى لينين خطاباً في عام سبعة عشر، أتذكر ذلك؟... هل زرت موسكو؟

- نحن لينينغراديون، - يقول غوريلوف بحقد وبصوت منخفض.

- لينينغراديون!- يشده إيغناتوف من سترته، فلا يقوى على البقاء واقفاً، يهوي على الأرض ويجره معه، - يتشقق جزء من السقالات، ويترنح ثم يسقط غامراً الاثنين بقطع من الخشب. يتراجع إيكونيكوف خائفاً، وهو يتأمل كيف يتعارك الجسدان على الأرض ويجأران. أما كوزنيتس، فيسند يديه إلى ركبتيه كي لا يقع، ويقهقه محركاً رأسه الأسود وهو يشخر شخيراً متقطعاً.

إيغناتوف يخرج أولاً من تحت الركام- يزحف على بطنه، لأنه لا يقوى على النهوض.

- هيا نذهب من هنا يا زينا، -يتمتم، - غوريلوف غبي... نحن أضعنا وقتنا سدى. - يمد يده إلى طاسة الحمام المرمية على الأرض، يتأملها مندهشاً. - أليس لدينا ما نشربه؟

ومن الخلف يجيء متعثراً بين الحطام من كان السبب في كل ما حدث.

- كيف ليس عندنا؟!- يصرخ متحمساً، - اسأل إيكونيكوف فقد يكون عنده بعض المخزون الاحتياطي!

وقد وجدوا فعلاً عند إيكونيكوف مخزوناً احتياطياً غير قليل من السماغون. شربوا في الحال بالطاسات: نسي كوزنيتس نفوره من المنتج الكحولي المحلي، وابتهج إيغناتوف حين أحس في فمه بمذاق الثمار البرية الحاد الذي اعتاد عليه. جلسوا على الأرض يتأملون بقع الرسمات المقبلة التي تلوح على السقف. كانت البقع تترنح وترقص رقصة بسيطة معبرة- قد تكون التانغو أو الفوكستروت.

أنت سترسم لي لوحات دعاية، - قال كوزنيتس وهو يتنفس بحرارة في أذن إيكونيكوف روائح الفودكا والسمك المقلي، والسماغون، - لوحات تثير رعشة المشاهد! تنفذ إلى عموده الفقري! تصل حتى كعبيه! هل فهمت؟

أحنى إيكونيكوف رأسه بخنوع: وكيف لا أفهم؟!

اختفى التعب الذي كان يستولي عليهم بعد أن شربوا السماغون. وشعر إيغناتوف أن فرحاً قوياً، ساطعاً يتصاعد من مكان ما عميق في داخله. شعر برغبة في الضحك. كانت الأشياء كلها مضحكة: خطوط السقالات في النادي نصف المعتم، وسحنة إيكونيكوف، وأنفه المتدلي، والثقب الذي تشكل من كثرة الاستعمال في سترة غوريلوف الرسمية، والشرشف الملتف حول كرش كوزنيتس، والذي يكاد ينزلق عنه في كل لحظة فيعري العورة الرئاسية المهيبة... قفز واقفاً،

ترنّح، لكنه تماسك وظل واقفاً- فرد ذراعيه وصاح: ما أجمل هذه الحال، يا زينا- ا- ا - ا!

زينا ينهض، يدس بحركة ملكية طرف الشرشف الفالت تحت جراب المسدس، ويمشي نحو المخرج، مزيحاً من طريقه شيئاً ثقيلاً، له رنين- قد يكون صندوقاً أو دلواً.

- إلى الأمام- م - م- م!- يصيح. - هور- ر- را أيها الرفاق! يخرج المسدس من جرابه ويرفعه إلى أعلى، يضرب الباب بجزمته فينخلع. يتبعه إيغناتوف وغوريلوف.

السماء صارت زرقاء دخانية، الوقت قبيل الفجر، والنجوم تنطفئ بسرعة، واحدة بعد أخرى. إيغناتوف يركض في المقدمة خلف ظهر القائد، وهو يشعر كيف ينتشر الفرح في جسده ويكبر. الأرض تعلو وتهبط كالنابض تحت قدميه، تقذفه فيطير إلى الأمام بسهولة وسرعة. هذا كان يحدث معه دائماً عند الهجوم. منذا الذي يجبن ويختبئ في الملاجئ- أليسوا البيض؟ أليسوا البسماجيين ذوي العيون الضيقة؟ هو لا يعرف لماذا لا يحمل في يده مسدساً أو سيفاً. يلتقط عن الأرض غصناً رماه أحدهم. يلوّح به- السيف يصفر وهو يقطع الهواء.

- عاشت الثورة!- يصيح بملء حنجرته. - عاش الجيش الأحمـ... يطلق كوزنيتس النار. الصدى ينساب كقصف الرعد فوق النهر، ويتدحرج. ثمة منازل في الأمام تطل من نوافذها وجوه شوهها الخوف، آها، لقد خاف الكلاب!

- أيها الأعداء!- يصرخ كوزنيتس. - سأقتلكم جميعاً!

- سأقطعكم بالسيف!- يسانده إيغناتوف، ويشرع يضرب كل ما حوله.

إنهم يندفعون- إلى أين؟... أصوات بعضهم ترتفع عالياً، تخترق الآذان، والناس يهربون في جميع الجهات. إيغناتوف يقطع بضرباته جسماً أبيض، ليناً (الهواء يمتلئ بالزغب، وفتات العشب، والغبار)، وجسماً خشبياً صلباً (السيف الذي في

يده ينكسر لسبب ما، لكنه يجد سيفاً جديداً)، وجسماً بشرياً مرناً (أحدهم يصرخ، يطلق الشتائم، وينوح).

وفجأة يجدون أنفسهم في الشارع من جديد، أما الأعداء، فهاهم في الأمام، يقفزون متفرقين، يهربون صارخين، هؤلاء الكلاب يركضون بسرعة، ولن يستطيعوا اللحاق بهم. كوزنيتس يطلق النار مرة ثانية في إثرهم، ثم مرة ثالثة. ثم أخرى- تصبح الصرخات أكثر يأساً، وتتحول إلى زعيق. وفجأة يسقط كوزنيتس على الأرض، إما لأن طلقة انطلقت من الجهة المقابلة فأصابته، وإما لأنه، ببساطة، تعثر فوقع أرضاً.

إيغناتوف، الراكض خلفه، يتعثر بالجسد الكبير، ويسقط إلى جانبه على الأرض- وجهه يندس في شيء لين كالعجين، يغوص فيه (أهو طين؟)، رأسه يتشقق، ينفجر ألماً، والفرح يختفي في الحال، يتبخر وكأنه لم يكن، وتعود من جديد فتملأ صدره الكآبة المقرفة التي يعرفها. ينظر إلى السيف الذي في يده: إنه ليس سيفاً، بل عصا، يرميها جانباً، يمسح بكفه الوحل عن وجهه. يزحف نحو جسد كوزنيتس الممدد غير بعيد. حركته ثقيلة، جسده لزج، وكأن أحدهم غيّره.

- زينا، - يهمس إيغناتوف فتطقطق ذرات الطين بوضوح بين أسنانه، - دعني أرحل! أنا لا أستطيع الاستمرار في العيش هنا، أتسمعني؟ لا أستطيع.

كوزنيتس يشخر فيرتفع صدره ذو الشعر المشعث نحو السماء.

Chapter 32

الطائر الملك

تفتح زليخة عينيها. شعاع الشمس يخترق قماش الستارة الشيت المهترئ، ويزحف على منحنيات الجدار المبني من جذوع الأشجار، وعلى الوسادة القطنية الملوّنة التي تنبق من وجهها الذيول السوداء لريش طيور الحجل، ثم يزحف إلى أذن يوسف الرقيقة الوردية. تمد يدها في هدوء وتزيح قماش الستارة: طفلها سيظل نائماً لفترة طويلة، أما هي فقد حان وقت استيقاظها- لقد طلع الفجر.

تحرر يدها بحذر من تحت رأسه، وتنزل قدميها الحافيتين على الأرض التي بردت في الليل، ثم تفرد على الوسادة منديلها، فقد يفعلها ابنها. ويستيقظ، حينذاك سيحرك وجهه، فيقع أنفه على رائحتها، فيعود وينام قليلاً. تنزع سترتها عن المسمار الذي علّقتها عليه، ومخزن الطلقات، والبندقية، من دون أن تلتفت، ثم تدفع الباب فتفتحه- يتدفق إلى الغرفة صخب الطيور وضجة الريح- أما هي فتنزلق خارجة في هدوء. تلبس في المدخل حذاءها الجلدي (المرأة يانيبا خاطته لها من جلد الوعل)، وتضفر جدائلها على عجل، ثم تنطلق إلى الغابة.

من بين كل أفراد مجموعة الصيد- وعددهم صار حتى ذلك الحين خمسة أفراد- كانت زليخة أول من يذهب إلى التايغا. «طريدتك ما زالت تنام وترى أحلاماً، فلماذا تصرين على الخروج في هذا الوقت المبكر؟!»- يلومها لوقا الأحمر اللحية (كانا يلتقيان أحياناً، حيث يكون هو عائداً من صيد السمك ليلاً، إلى البلدة، وتكون هي خارجة من البلدة للصيد). هي لم تكن تنزعج من لومه، بل كانت تكتفي في ردها عليه بالابتسام في صمت، فهي تعرف أن طريدتها لن تهرب منها إلى أي مكان.

هي تتذكر بدفء الدب الأول الذي قتلته آنذاك في العام واحد وثلاثين، في الفسحة الدائرية، فلولاه لظلت حتى الآن تجهل أن بصرها حاد، ويدها قوية. لم يبق الآن من ذلك الدب سوى جمجمة صفراء- رمادية معلقة على الوتد، وهي تزورها من حين لآخر، تمسّدها وتشكرها.

جمعية سيمروك بدأت آنذاك، قبل سبع سنوات. وحين فكرت زليخة بترك العمل في المطعم، حاول أشكينازي ثنيها عن ذلك، بل أطلق الشتائم وهو يسألها «من أين ستأتين بالطعام لطفلك؟!»، غير أنها حملت له في المساء طائري حجل لتحضير طعام العشاء. أخذ منها الطريدتين وكف عن محاولات إقناعها بالبقاء في المطعم.

في الربيع والصيف كانت تجيء من التايغا بطيور الحجل السمينة، وطيور الإوز الوازنة، الطويلة الرقاب، وحالفها الحظ مرتين أو ثلاث باصطياد غزال، بل اصطادت ذات مرة وعلاً سيبيرياً، كانت تنصب للأرانب شراكاً من الأسلاك، وللثعالب فخاخاً (جلبوها من المركز بناء على طلب الجمعية). وكانت تصطاد السنجاب والكولونوك، وفي أحيان نادرة، السوبول للحصول على الفراء، لكنها لم تكن تذهب لاصطياد هذه الحيوانات إلا في الشتاء حين تتغطى جلودها بفراء كثيف.

في الصيف كانت بضاعة جمعية الصيد تذهب غالباً لسد حاجات البلدة: يأكلون لحم الطير، ويحمّصون في الشمس الريش والوبر ثم يصنعون من ذلك الوسائد والأغطية. ولا يرسلون إلى المركز، واتحاد جمعيات الصيد، سوى جلود حيوانات (البوبر)، حتى ذلك لم يكن يحدث كثيراً، فمنطقة سيمروك لا يكثر فيها هذا الحيوان.

أما في الشتاء فالوضع مختلف. الشتاء فترة نشاط أعظمي، يأخذ فيها المركز كل ما تحصل عليه الجمعية من الفراء- بدءاً من فراء السناجب العادي، حتى فراء حيوانات السوبول النادرة التي يضطر الصياد إلى مطاردتها يومين أو ثلاثة أيام.

كانوا في المركز يدفعون ثمن ما يشترونه بواسطة حوالات في الغالب، وفي أحيان نادرة بالدفع المباشر جزء كبير من هذا الثمن كان يذهب إلى ميزانية البلدة، ويذهب جزء منه على دفع الضرائب وما شابه ذلك (زادوا على ضرائب الدولة خمسة، بالمئة ضريبة بلدية، وكذلك دفع فوائد قروض البلدة)، ويأخذ الصياد ما يتبقى. وهكذا ظلت زليخة سبع سنوات تكسب مالاً.

قالوا إن الاستعانة بالكلاب في الصيد تجعله أفضل، لكن اقتناء الكلاب كان ممنوعاً عن المهجّرين-«تجنباً للمخاطر»، بل إنهم لم يكونوا يسمحون لهم باقتناء السلاح الناري إلا لأن الصيد (بالنقيفات) والشراك لا ينجح عموماً. بنادق سيمروك الخمس كانت في عهدة القومينداندانية، وكان ممنوعاً بصرامة أن تسلم للصيادين إلا في موسم الصيد، في عمق فصل الخريف، وكان على الصيادين أن يسلموها إلى القومينداندانت في بداية الربيع، لكن إيغناتوف لم يظهر في هذه المسألة الصرامة الضرورية: كان الصيادون يزودون البلدة باللحمة في الصيف، فتأكل سيمروك وتشبع في الأشهر الثلاثة الدافئة تعويضاً عن شتاء الجوع الطويل الذي كان في كل مرة يهلك بكل بساطة ربع، وأحياناً ثلث، سكان البلدة. أغلبيتهم من الجدد الذين لم يتكيفوا بعد مع المناخ المحلي.

كانوا، هم أنفسهم، يعالجون الجلود- في البداية كانوا يعملون فرادى، ثم اتحدوا وسلّموا الأمر كله إلى المرأة يانيبا: الفائدة من عمل هذه المرأة التي صارت نصف عمياء، في غسيل الجلود قليلة، غير أنها كانت تستطيع أن تعمل بيديها، من دون الاستعانة بالبصر، في فرد الجلود وغليها وتجفيفها وتسريح وبرها، وعلى هذا الأساس عدّوا أنهم في الجمعية خمسة أشخاص ونصف: خمسة هم الصيادون والنصف هي يانيبا.

زليخة نفسها كانت عضواً تام العضوية في الجمعية، وكانت بالإضافة إلى ذلك، مسجلة كممرضة بنصف دوام في المشفى. وهكذا ينتج أنها لم تكن عاملة واحدة

بل عاملة ونصف بالتمام. وقد شرح ليبييه الأمر: هي يجب أن تكون مسجلة على الورق في عمل نظامي في فترة الصيف. غير أنها لم تكن تهتم كثيراً بهذا الجانب البيروقراطي للعمل، يجب- يعني يجب.

كان الأمر أكثر تعقيداً بالنسبة إلى أعضاء الجمعية الآخرين. لم تكن كثيرة تلك الأماكن التي يمكن أن تسجل فيها صياداً يقضي نهاراته كلها في التايغا، فتسجيله عاملاً في ورشة قطع الأشجار يعني أوتوماتيكيا زيادة كمية الإنتاج في الخطة التي كانوا يلاقون صعوبة كبيرة في تنفيذها (وأحياناً لا ينفذونها). احتالوا قدر ما يستطيعون، فجعلوا أحد أعضاء الجمعية مساعداً لمحاسب البلدة، وآخر- مراقب إنتاج. لم يشاؤوا إضافة المزيد من الأيدي إلى العمل في المطعم- ملاك العاملين في المطبخ كان مراقباً بانتباه منعاً لتضخمه. لم يكن تسجيل هؤلاء كعاملين خداعاً بالمعنى الدقيق، فقد حاول الصيادون، ولو جزئياً، تغطية تسجيلهم كعاملين بنصف دوام، وكان العمل الإضافي الذي يقومون به معقولاً يتماشى وإمكانية بقائهم أحراراً كأعضاء في الجمعية. وقد أغمض كوزنيتس عينيه بمودة عن هذه المخالفات غير الصريحة (مشكلة الصيادين حلّت بالطريقة نفسها في سائر البلدات العمالية الأخرى)، ولكنه لم يغفل إمكانية تذكير إيغناتوف بقوله له: أنا أعرف عنك كل شيء يا يمامتي، وأرى ما في داخلك كما أرى ما في هذا الكأس، وأنت «نفسك تعرف ما فيه».

زليخة كانت تنفذ العمل الإضافي المكلفة به بإخلاص. تعود من التايغا قبل حلول الظلام، وتقوم، قبل العشاء بتنظيف المشفى، تغسل أرضه، وتمسح، وتعقم... كما أنها تعلمت كيف تضمد، وكيف تعالج الجراح، وحتى كيف تحقن بالإبر الطويلة الحادة الخصاوي المغطاة بالشعر. في البدء لم يهتم ليبييه بذلك وطلب منها أن تذهب للنوم «قد تخذلك ساقاك من شدة التعب يا زليخة!» ثم كفّ عن ذلك- المشفى يكبر، ومن دون مساعدة نسائية لا تمكن متابعة العمل.

لقد خذلتها ساقاها بالفعل، لكن فيما بعد، في الليل، بعد أن تم تنظيف الأرض، وتعقيم الأدوات، وغلي الأغطية والشراشف، وتضميد المرضى وإطعامهم.

ظلت تعيش، هي وابنها، كما في السابق، في المشفى مع ليبييه. نوبات الارتعاش التي كانت تنتاب يوسف وتخيف زليخة زالت، والمناوبات الليلية عند سريره توقفت تدريجياً. لكن ليبييه لم يطردهما، بل إنه، أكثر من ذلك، بدا مسروراً لوجودهما في جناح العمل في المشفى، أما هو فكان لا يقيم في جناح المشفى السكني إلا قليلاً، وذلك فقط حين يذهب للنوم.

المبيت في غرفة صغيرة، مريحة لها مدفأتها الخاصة كان إنقاذاً. ففي البرّاكات العامة الباردة التي تنفخ فيها الرياح، لم يمرض الأطفال فحسب، بل مرض الكبار أيضاً. وزليخة التي تقبلت الهدية بامتنان كانت في كل يوم تعمل حتى الإعياء حاملة في يدها الممسحة والدلو، دافعة بذلك ثمن سعادتها في المشفى.

فكرت بداية أنها زوجة ذلك الرجل الغريب أمام السماء والناس ما دامت تعيش معه تحت سقف واحد. والزوجة ملزمة بدفع الدين، وإلا فكيف ستسير الأمور؟ كانت في كل مساء، بعد أن تنيم ابنها، تنسل من السرير بشكل غير ملحوظ، فتغتسل بعناية وتجلس، والبرد يسري في بطنها سرياناً مؤلماً، تنتظر الدكتور على مقعد قرب الموقد. أما هو فيأتي بعد منتصف الليل يكاد يقتله التعب، يلتهم على عجل ما ترك له من طعام، ثم يتكوم في سريره. «لا تنتظريني في كل مساء يا زليخة، - يقول لها مؤنباً بلسان متلعثم، - أنا ما زلت أستطيع تدبر أمر عشائي»، ثم يغفو مباشرة. زليخة تتنهد بارتياح ثم تختفي وراء الستارة- ذاهبة إلى ابنها. لكنها تعود في اليوم التالي فتجلس قرب الموقد وتنتظر من جديد.

وذات يوم، بعد أن ارتمى، كالعادة، على الفراش من دون أن يخلع حذاءه، أدرك فجأة سبب سهراتها المسائية. جلس بحركة حادة في السرير، ونظر إلى زليخة الجالسة قرب الموقد بضفائرها المجدولة بعناية، وعينيها المطرقتين أرضاً.

- اقتربي يا زليخة.

تقترب منه- وجهها أبيض، شفتاها مطبقتان، وعيناها تنظران إلى الأرض.

- اجلسي إلى جانبي...

تجلس على طرف الفراش وقد حبست أنفاسها.

- ... وتأمليني.

ترفع نحوه عينيها ببطء وكأنها ترفع ثقلاً.

- أنت لست مدينة لي بشيء.

تنظر إليه بخوف وهي لا تفهم شيئاً.

- لست مدينة بشيء مطلقاً. هل تسمعينني؟

تضغط ضفيرتيها على شفتيها، ولا تدري أين تهرب بعينيها.

- آمرك أن تطفئي الضوء فوراً وتنامي، وأن تكفّي عن انتظاري. لا تنتظريني أبداً! هل هذا واضح؟

تهز رأسها في انحناءة صغيرة- وفجأة تشرع تتنفس بصوت مسموع وقد بدا عليها الإجهاد.

- إذا رأيتك مرة ثانية- سأطردك إلى البرّاكات. سأبقي يوسف عندي، أما أنت فسأطردك إلى جدة الشيطان!

اندفعت زليخة، حتى قبل أن ينهي كلامه، نحو مصباح الكيروسين، نفخت على شعلته وذابت في العتمة. هكذا تم حلّ مسألة العلاقة بينهما نهائياً، وبلا عودة.

رقدت زليخة في الظلمة فاتحة عينيها على اتساعهما، متدثرة بلحاف، وجلدها يضج بدقات قلبها العالية. ظلت فترة طويلة مسهدة يعذبها سؤال: أتراها لا تقع

في الإثم وهي تستمر في الحياة تحت سقف واحد مع الدكتور، لا كزوج لها، بل كرجل غريب عنها؟ ماذا سيقول الناس؟ ألن تعاقبها السماء؟ السماء صامتة، يبدو أنها راضية عن هذه الحالة. والناس عاملوها كما يجب بوصفها ممرضة تقيم في المشفى، فماذا في ذلك؟ وجدت فرصة عمل جيدة، حالفها الحظ. إيزابيلا، التي لم تستطع أن تكتم عنها مخاوفها، اكتفت بالضحك وقالت: «ما هذا الذي تقولين يا بنيتي! الآثام عندنا هنا- شيء آخر تماماً».

زليخة تمشي في الغابة. الأشجار تصدح بصوت الطيور، والشمس التي استيقظت تخترق أغصان السرو فتشع أوراقها الإبرية كالذهب. الحذاء الجلدي يقفز سريعاً فوق الصخور عبر نهر تشيشما، يركض في الدرب الضيق بمحاذاة أشجار الصنوبر البري الحمراء، يجتاز الفسحة الدائرية، ويمر بقرب شجرة البتولا المتفحمة، ويغوص في عمق الغابة التايوجية حيث تعيش أسمن الحيوانات البرية وأطيبها مذاقاً.

هنا، في محيط من أشجار السرو ذات اللون الأخضر المشوب بالزرقة، يجب ألّا يخطو المرء، بل ينزلق من دون ضجة، وهو يكاد لا يلمس الأرض، فلا يدوس العشب، ولا يكسّر الأغصان الصغيرة، ولا ترتطم قدمه بثمار العفص، ولا يترك خلفه أثراً، أو حتى رائحة: يذوب في الهواء البارد، في طنين البعوض، في شعاع الشمس. زليخة تتقن ذلك، جسدها مطواع ورشيق، حركاتها سريعة ودقيقة، هي نفسها كالوحش البري، كالطير، كحركة الريح، تسري بين أذرع أشجار السرو، وتمرق من بين الشجيرات والأعشاب الطويلة الساق.

ترتدي زليخة سترة رمادية مقلمة واسعة جداً عند الكتفين، تركها أحد أولئك الذين غادروا إلى العالم الآخر من القادمين الجدد، سترة تدفئها في الأيام الباردة، وتحميها من حرّ الشمس حين يشتد. على أزرارها اللامعة، الزرقاء الغامقة، التي ثبّتها بقوة، بخيوط متينة، مالكها السابق، تصطف حروف صغيرة غير

مفهومة:Lucien Lelong. Paris، وعلى بطانتها التي كانت فيروزية في يوم من الأيام، ترتسم أزهار (ليلي) تكاد لا ترى. إنها سترة جيدة تذكّر زليخة بقفاطين الضيوف الذين كانوا يجيئون من قازان البعيدة لزيارة والدها.

السلاح ثقيل بارد، يلتصق بظهرها، لكنه، عند اللزوم، يقفز إلى يديها تلقائياً، يسدد، ولا يخطئ الهدف أبداً. «هل سلاحك مسحور؟» يسألها أعضاء جمعية الصيادين بلهجة نصف مازحة، نصف حاسدة. زليخة تلتزم الصمت، فهي لا تعرف كيف تفهمهم أن الذي يفعل ذلك ليس السلاح أبداً، بل أجزاء من جسدها كاليد أو العين، إنها حين تصوب سبطانة بندقيتها الطويلة، مسندة أخمصها إلى كتفها، وتزمّ عينيها ناظرة عبر فرضة التسديد- تتحد بالسلاح، يصبح السلاح جزءاً منها. كانت تشعر بالبندقية كيف تتوتر في انتظار خروج الطلقة وتحس كيف تجمد الطلقات استعداداً للانطلاق من السبطانة، وكل منها موت رصاصي صغير، فتضغط على الزناد بحركة انسيابية، ودودة وغير مستعجلة.

لقد أدركت منذ زمن أنها إذا لم تصطد ببندقيتها هذا السنجاب أو الطائر، فإن مفترساً آخر، ثعلباً أو جقلاً، سيقتلهما في اليوم التالي. وبعد شهر أو سنة سيقع هذا المفترس نفسه في المرض أو الهرم، فيصبح غنيمة للديدان، ويذوب في الأرض، يغذي الأشجار بالعصائر، فتنمو عليها أوراق جديدة، وثمار تصبح غذاء لأبناء السنجاب المقتول أو الطائر الذبيح. زليخة لم تدرك ذلك كله من تلقاء نفسها، بل علمها إياه قلب الغابة.

كان الموت هنا في كل مكان، لكنه موت بسيط، مفهوم، حكيم على طريقته، بل عادل أيضاً. تتساقط عن الشجر الأوراق والإبر، وتتقصف تحت أقدام الدب الثقيلة الشجيرات وتجف، وتصبح الأعشاب غنيمة للغزال، أما هو نفسه فيصبح غنيمة لقطيع من الذئاب. لقد كان الموت مرتبطاً ارتباطاً لصيقاً بالحياة، مجدولاً معها، لا ينفصم عنها- لذلك لم يكن مخيفاً. أضف إلى ذلك أن الحياة كانت تنتصر

دائماً في قلب الغابة. لقد كانت زليخة تعرف أن الربيع سيأتي، مهما كانت الحرائق التي تشعلها صواعق الخريف مخيفة، ومهما كان الشتاء قاسياً وبارداً، ومهما توحشت الحيوانات الجائعة، وأن الأشجار ستكتسي خضرة جديدة، وسيغطي العشب الحريري التراب الذي احترق واسودّ في زمن ما. لذلك لم تكن، وهي تقتل، تشعر بأنها قاسية، بل على العكس، كانت تشعر بأنها جزء من هذا العالم الكبير، القوي، ونقطة في بحر الأوراق الخضراء العطر.

منذ فترة وجيزة تذكرت القمح الذي خبؤوه في مقبرة يولباش بين قبور البنات، ففكّرت في سرها أنه من غير المعقول أن يكون كله قد ضاع، لا بد أن بعضه، وليكن حبات قليلة، نما بحلول الربيع مخترقاً الشقوق التي في التابوت الخشبي، أما بقيته فصارت، حتى لو تعفنت، طعاماً لأحياء جدد. وتخيلت سنابل القمح اللطيفة، تشق طريقها بين حواف القبور المائلة، تفوقها طولاً، تغطيها، تلفها فسرى الدفء في روحها وشعرت بالراحة. ومن يدري، فقد يكون روح المقبرة ما يزال يرعى بناتها.

هي لا تعرف هل توجد أرواح في الغابة أم لا. لقد اجتازت في سبعة أعوام تلالاً كثيرة، ووديااناً كثيرة، وعبرت الكثير من الجداول والأنهار لكنّها لم تلتق بأي روح. بل إنها كانت في بعض الأحيان تشعر للحظة أنها، هي نفسها، روح من تلك الأرواح...

كانت زليخة تتفقد في البداية الشباك والأفخاخ في الدرب إلى تشيشما الذي علمته الحيوانات بقوائمها، الدرب الذي يمر بالقرب من شجرة السرو نصف المتعفنة حيث يكاد لا يلحظ أثر للأقدام على العشب (يبدو أن الحيوانات الصغيرة لم تكن تقفز من فوق جذع الشجرة، بل تدور حوله ركضاً)، ويكاد الدرب يختفي في حرج أشجار السرو، ضيقاً، كشق في جدار، ثم يمتد بمحاذاة البحيرة العميقة ذات المياه الصقيعية... زليخة تتفقد الأفخاخ مرتين في اليوم، مرة في الصباح، ومرة

في المساء، كي لا يقع الأرنب الذي في الشرك، في قبضة أحد الحيوانات المفترسة، ثم تصعد بمحاذاة مجرى نهر تشيشما، إلى الوديان المستنقعية، لترى أماكن تجمّع طيور البط التي تحبها. الرحلة ليست قصيرة، فهي يجب أن تسير مدة نصف نهار، تسير وهي تنظر بيقظة إلى ما حولها وتفكر (فكل ما تصادفه على الدرب، وفي الشجيرات، أو على أغصان السرو، يمكن أن يكون غنيمة). زليخة لم تفكر طول حياتها السابقة بيولباش، بقدر ما تفكّر بها الآن، في يوم واحد، وهي ذاهبة للصيد. لقد تذكرت في أعوام الصيد التي عاشتها حرة، حياتها كلها ودرستها بالتفصيل فترة، فترة، وأدركت منذ فترة وجيزة أن الحظ قد حالفها حين رماها القدر في هذا المكان، إنها هنا تقيم في حجرة في مشفى حكومي، وتعيش بين أناس لا تربطها بهم قرابة دم، وتتكلم بلغة غير لغتها الأم، وتصطاد كما يصطاد الرجل، وتعمل كثلاثة عمّال، ومع ذلك تشعر أنها في حال جيدة. هي لا تستطيع أن تزعم أنها سعيدة، لا. لكنها في حال جيدة.

ومع اقتراب منتصف النهار، حين لا يبقى لبلوغ مستنقعات المياه حيث يجتمع البط، سوى مشي نصف ساعة، تدخل أفكارها، عادة، في منعطف خطر. لقد تعبت وهي تمنع نفسها من التفكير في الأمر. غير أن السماح لنفسها بالتفكير فيه قد يقودها إلى وضع تخاف أن تتخيل نفسها فيه. تنقل زليخة البندقية من كتف إلى كتف. الأفكار ليست نهراً صغيراً يمكن أن تحتجزه وراء سد، لذلك تتركها تسيل، فتتذكر في أحيان كثيرة ذلك اليوم في الفسحة المستديرة، قبل سبعة أعوام. تتذكّر كيف ظهرت لها من خلف الشجيرة التي تغطيها الأعشاب جزمة رسمية سوداء، وكيف جلس إيغناتوف أمامها على الأرض ومدّ يده إلى منديلها... هي وقتها لم تخف منه، بل خافت من نفسها: خافت من تحولها كلها إلى عسل لحظة نظر إليها، وخافت سيلانها للقائه، وقد عمي بصرها، وصُمَّ سمعها، ونسيت كل شيء، حتى ابنها الذي كان يلعب بالقرب منها. إنها لم تصوب البندقية نحوه، بل نحو

خوفها، نحو الخوف من أن ترتكب الإثم مع قاتل زوجها. هي لم ترتكب الإثم- أنقذها الدب.

تركت المطعم بعد فترة قصيرة، وصار المساعد الجديد لأشكينازي يحمل طعام الغداء للقومينداانت. منذ ذلك اليوم كفّ إيغناتوف عن السعي للقائها. كل شيء مضى، بقي في الماضي- وكأنه لم يكن. ألا يمكن فعلاً، ألّا يكون قد حدث؟ ألا يمكن أن يكون مجرد وهم؟ لكنها كانت يوماً بعد يوم، من خلال عيني إيغناتوف المطرقتين، ترى أن ذلك حدث. وترى أنه حدث، من خلال ما تشعر به يعوم ويذوب في داخلها حين ترفع عينيها ناظرة إلى القومينداانية، وحين تفكر في ذلك كل يوم.

سرعان ما صار إيغناتوف يشرب، ويشرب كثيراً. زليخة كانت لا تطيق السكارى، ففكرت أن دواءها هو أن ترى القومينداانت سكران، غبياً، متوحشاً- فتنمحي من ذهنها الأفكار المعيبة كلها. لكن ذلك لم يحدث، فهي حين رأت وجه إيغناتوف متورماً، وعينيه حمراوين، لم تشعر بالنفور، بل أحست بالألم.

وحين انتقى لنفسه من مجموعة قدمت إلى البلدة مجدداً، صبية ذات شعر أحمر، قصير، وثديين مدببين، وعجيزة متينة مشدودة بقماش الفستان الضيق جداً، وصارت هذه الصبية «أغلايا» تتردد في الليل على القومينداانية بناء على إشارة من سيجارة إيغناتوف المشتعلة، قررت زليخة أن كل شيء قد انتهى أخيراً، ها هو ذا قد انتهى. ولكن هل انتهى حقاً؟ تسدد البندقية، وتطلق النار في فرجة بين أغصان السرو المتشابكة. طائر ملون صغير يسقط على الأرض، مرفرفاً بجناحيه رفرفة جاءت متأخرة.

انقضى النهار سريعاً وكان موفقاً: على خصرها تدلى جسد الطائر الملون إلى جانب بطتين (مكان تجمع البط لم يخذلها، فقد أهداها ذكر بط ذا لون زمردي غامق، وخدين أبيضين، وبطة سوداء سمينة)، وفي حقيبة ظهرها أرنب وقع في

الفخ. وها هي ذي تمشي في التايغا عائدة إلى البيت بخطى واسعة، لا تتخفى، تتكسر العيدان الصغيرة تحت أقدامها- لقد انتهى يوم الصيد. وحين تجتاز نهر تشيشما قافزة من صخرة إلى صخرة، تنفجر الشجيرات عند الضفة- يطير إليها شيء صغير، سريع الحركة. أهو وحش؟ لا، إنه يوسف!

تبسط زليخة ذراعيها. يطير إليها، وساقاه تلتمعان تحت سرواله القصير المرقع، تضمه بين ذراعيها، يضغط رأسه على صدرها، تسند وجهها إلى رأس ابنها، وتستنشق رائحة الدفء الحبيبة.

- لقد نهيتك عن انتظاري هنا يا حبيبي. التايغا مكان خطر. هو يزداد التصاقاً بصدرها، فلا يبقى ظاهراً منه غير نقرته، وصيوان أذنه. كانت تود أن توبخه بشدة لأنه خالف أمرها مرة جديدة، لكنها لا تستطيع، فهي نفسها مسرورة لأنه جاء، وأن لديهما هذا الوقت القصير الذي يستطيعان فيه أن يمشيا في الطريق معاً، باطمئنان، ومن دون عجلة، وكأن الأبد كله متاح لهما، ويستطيع كلّ منهما أن يلمس الآخر، وأن يصغيا وأن تصغي إلى حديث الطيور أو صمتها. فاليوم لن تتاح لهما دقائق غير هذه ينفردان فيها معاً، فزليخة ستقوم فور وصولها بتنظيف المستوصف، ويوسف سيساعدها فينقل الماء من أنغارا، ويحرق النفايات في الساحة.

- هل أنت شبعان؟

- لقد أطعمني الدكتور.

كان يوسف مثل أمه، يسمي ليبييه الدكتور.

يفرد يديه، ويترك أمه. سيبلغ الثامنة قريباً، قامته طويلة، طوله الآن يتجاوز كتف أمه (إذا استمر هكذا بالنمو السريع طولاً- فسيكون من الضروري إعادة وصلات أكمام السترة التي سبق قصها، وفرد ثنيتي البنطال ليستعيد طوله)، رأسه

مشعث الشعر، (زليخة لم تحلق شعره كلّه كما كانت العادة في يولباش- الشعر في الشتاء يدفئ كأنه قبعة ثانية)، أنفه حاد، وعيناه واسعتان. يبدو أنه ورث طوله وبنيته عن أبيه، أما وجهه فمن الواضح أنه يشبه وجه أمه.

يأخذ يوسف الحقيبة من أمه برزانة، ويعلّقها على كتفه، يحملها بين يديه، يجرها (إنه سيسرّ كثيراً لو استطاع حمل بندقية أمه، لكن زليخة لم تكن تسمح له بذلك)، أصابعه التي قضم أظافرها ملطخة باللونين الأصفر والأزرق.

- هل عدت إلى اللعب بالألوان من جديد؟

لقد صار في الفترة الأخيرة يتردد كثيراً على إيكونيكوف في النادي- ليرسم، فصارت تظهر في البيت قطع من الخشب المضغوط ذات زوايا حادة، تارة، وتارة، قطع من الورق تغطيها خطوط عريضة خلّفتها الأقلام، أما ثياب يوسف فراحت تتغطى بالتدريج ولكن بعناد، بلطخات من الزيت ورذاذ من الألوان الساطعة. لقد كان إيكونيكوف يرسم لوحاته الدعائية بألوان ثابتة لا تتأثر بمياه أنغارا الباردة- بل تبقى أبداً متوهجة على سرواله وقميصه المخيطين من بقايا فساتين قديمة، وعلى الحذاء الرجالي الكبير الذي ورثه عن أحد المهجّرين. لم تكن راضية عن هواية ابنها، لكنها لم تمنعه عن ممارستها، فأن يتلطخ بالألوان، أفضل في نظرها من أن يهيم وحيداً في التايغا. وقد أحس يوسف بمزاج أمه، لذلك لم يكن يحدثها كثيراً عن النادي.

- حدثيني يا ماما عن سيمروغ.

- لقد حدثتك عنه ألف مرة.

- حدثيني للمرة الأولى بعد الألف.

زليخة تروي لابنها من جديد كل ما سمعته في طفولتها من والديها، من حكايات وأساطير عن (الشورالي) الطويلي الأذرع المشعثي الشعر، الذين

يدغدغون حتى الموت السائرين في الغابات في وقت متأخر، وعن (سو- آناسي) المائية التي لم تستطع طول مئة عام أن تمشط ضفائرها بالمشط الذهبي، وعن (يوخو) التي تتحول في النهار إلى فتاة رائعة تغري الفتيان، وتشرب في الليل عصارات الحياة التي فيهم، وعن التنانين (أجداخا) الذين يتنفسون ناراً، ويختبئون في قاع البئر، ويلتهمون النساء اللواتي يأتين ليتزودن بالماء، وعن (الديفوات) الأغبياء، الطماعين، الذين يسرقون العرائس، وعن جينكيزخان الجبار ذي العينين الضيقتين الذي احتل نصف العالم، وترك نصف العالم الآخر في خوف وقلق تحت حكم خليفته تيمور الأعرج، الذي دمّر تماماً مئة مدينة، وبنى بدلاً منها مدينة واحدة- هي مدينة سمرقند الرائعة التي تشرق في كل الطقوس النجوم الذهبية الكبيرة في سمائها الزرقاء أبداً... غير أن أحب القصص إلى يوسف كانت حكاية الطائر السحري سيمروغ.

- طيب، اسمع، - توافق زليخة. كان يا ماكان، كان في عالم الطيور طائر غير عادي- طائر سحري. الفرس والإوز بيكيون سموه سيمروك، والكازاخيون سموه ساموريك، والتتار سموه سيمروغ.

- هل سموه باسم بلدتنا؟

كان يوسف يطرح هذا السؤال في كل مرة، وكانت زليخة في كل مرة تجيبه:

- لا، يا حبيبي. هذا مجرد تشابه أسماء. أما الطائر فكان يعيش على قمة أعلى جبل.

- أعلى من النتوء الصخري الذي عندنا؟

- أعلى بكثير، يا يوسف، كان عالياً إلى درجة لا يصل فيها إليه راجل أو فارس. لا أحد كان يستطيع أن يرى سيمروغ- لا الوحش، ولا الطير، ولا الإنسان. كانوا فقط يعرفون أن ريشاته أجمل من شروقات وغروبات الأرض مجتمعة، لقد كان ذات

يوم يطير فوق بلاد الصين البعيدة فسقطت منه ريشة- فاكتست الصين كلها بريقاً، وتحول الصينيون إلى رسامين ماهرين. سيمروغ لم يكن طائراً جميلاً جمالاً خارقاً فقط، بل كان حكيماً أيضاً حكمته كالمحيط لا حدود لها.

- هل المحيط أعرض من أنغارا؟

- أعرض يا حبيبي... ذات يوم اجتمعت طيور الأرض كلها في مكان واحد كي تمرح معاً وتفرح بالحياة. غير أن احتفالها لم ينجح: راحت الببغاوات تتشاتم مع الحدآت، وتخاصمت الطواويس مع الغربان، والعصافير مع النسور...

- والقبرات؟- يلمس يوسف رأس القبرة المستدير الشبيه ببيضة، رأس القبّرة يترجح على خصر أمه.

- القبرات وطيور البط، - زليخة تدير رأس ذكر البط الميت ذي اللون الأسود المشوب بالأخضر نحو القبرة: يرتطم المنقاران بعضهما ببعض وكأن كل منهما ينقر الآخر.

يوسف يضحك بصوت رنان ضحكة متواصلة.

- وتصاعدت، بسبب هذه الخصومة العظيمة، ضجة هائلة طيّرت أوراق الشجر كلها، وأخافت الوحوش فالتجأت إلى جحورها. وظل (أودود) الحكيم ثلاثة أيام يلوح بجناحيه مهدئاً الطيور الصاخبة، إلى أن هدأت أخيراً وأعطته الكلمة.

«ليس مفيداً لنا أن نضيع وقتنا وجهودنا في الخصومات والمشاحنات، - قال لهم. - يجب أن ننتخب من بيننا ملكاً يقودنا، وينهي، بكلامه المطاع الخصومات كلها»، وافقته الطيور، ولكن السؤال الذي بقي هو: من سينتخبون رئيساً؟ اختلفوا من جديد، وكادوا يقتتلون، لكن أودود الحكيم أبلغهم قراره: «لنطر إلى سيمروغ، - اقترح عليهم، - ونطلب منه أن يكون ملكنا، فمن أجدر بالحكم منه وهو الأجمل والأكثر حكمة على سطح الأرض؟» أعجبت هذه الكلمات الطيور كثيراً، فاجتمع في

الحال فصيل كبير منها يرغب في الانطلاق بالرحلة. صعد السرب عالياً في السماء، واتجه إلى أعلى جبل في العالم، للبحث عن سيمروغ البهي.

- كان السرب ضخماً وأسود كالسحابة- يقول يوسف معلقاً.

كان يتابع باهتمام قصته التي يحبها ويحرص على ألّا يضيع منها أي جزء، فتضطر زليخة إلى إعادة روايتها كما تعلمتها عن أبيها في طفولتها، كلمة، كلمة.

- هذا صحيح، - تصحح روايتها. - السرب كان ضخماً وأسود كالسحابة، صعد عالياً في السماء واتجه إلى أعلى جبل في العالم للبحث عن سيمروغ البهي. طارت الطيور يوماً وليلة من دون توقف للنوم أو الأكل، باذلة أقصى جهدها، وأخيراً وصلت إلى سفح الجبل المنشود. هنا كان عليها ألّا تستخدم أجنحتها، وأن تصعد مشياً على تلك القمة التي لا يمكن بلوغها إلّا عبر المعاناة.

في البداية قادتها الدرب الجبلية إلى (وادي التيه) حيث ماتت تلك الطيور التي كان عزمها على بلوغ الهدف أقل مما يجب. ثم اجتازت الطيور (وادي الحب) حيث بقي من لم يبادله حبيبه الحب، راقداً يعاني. وفي (وادي المعرفة) رقدت الطيور التي لم تكن عقولها تحب المعرفة، ولم تكن قلوبها مفتوحة لما هو جديد.

يسير يوسف إلى جانبها لاهثاً، مجهداً (الأرنب الذي في الحقيبة ثقيل، يبدو أنه تغذى جيداً في الصيف). «كيف يمكن أن يفتح المرء قلبه للمعرفة؟- تفكر زليخة، - القلب- بيت المشاعر، لا بيت الأفكار». تصمت لحظة، ويوسف يلاحقها نافد الصبر:

- وماذا حدث يا ماما في الوادي الشرير، وادي اللامبالاة؟

- في وادي اللامبالاة الشرير، - تتابع زليخة، - وقع أكبر عدد من الطيور- كل الطيور التي لم تستطع أن تساوي في قلوبها بين الحزن والفرح، بين الحب والكره، بين الأصدقاء والأعداء، بين الأحياء والأموات.

لقد كان هذا المكان من الأسطورة، أصعب الأماكن على الفهم بالنسبة إلى زليخة، إذ كيف يمكن أن يساوي المرء بين الجيد والرديء؟ والأدهى من ذلك، كيف يمكنه أن يعد هذا الموقف صحيحاً؟ يهز يوسف رأسه هزات خفيفة تكاد لا تلحظ، على وقع خطاه، وكأنه يفهم كل شيء ويوافق على كل شيء.

- الطيور الباقية وقعت في (وادي العزلة)، حيث كل واحد عدّ نفسه كل شيء، وعدّ كل شيء نفسه. فرحت الطيور المجهدة حين تذوقت حلاوة العزلة. لكنها تسرّعت في ذلك!

- تسرّعت!- يؤكد يوسف ذلك همساً.

- وفي (وادي الضياع) الذي تهزه الصواعق، اختلط النهار والليل، ما كان وما لم يكن، وكل ما توصلت إليه الطيور بجهد جهيد وعبر رحلة طويلة دمره الإعصار، وساد في أرواحها الفراغ واليأس. وبدت لها الرحلة التي اجتازتها بلا جدوى، والحياة التي عاشتها- حياة ضائعة. طيور كثيرة وقعت صريعة هنا، ولم يبق حياً إلا ثلاثون طيراً هي الأكثر صموداً. لقد زحفت هذه الطيور المحترقة الريش، النازفة دماً، المتعبة حتى الموت، حتى آخر شبر، وهناك في (وادي الزهد) لم ينتظرها سوى الماء الصقيل اللامتناهي، وفوقه الصمت الأبدي. وبعد ذلك بدأت بلاد الأبدية التي يمنع الأحياء من دخولها.

يوسف وزليخة يمشيان، تصر تحت أقدامهما أوراق الشجر الجافة وثمار العفص التي تغطي الدرب. وفي الأمام، بين أغصان الأشجار يلوح ضوء- إنها البلدة. كان يوسف كلما اقتربا من البيت يزداد تباطؤاً في مشيه- هو يريد أن تنهي أمه الحكاية. وحين يرى جدران النادي، يتوقف ليسمع نهاية القصة في هدوء.

- وفهمت الطيور أنها وصلت إلى أرض سيمروغ، وأحست من خلال الفرح المتنامي في قلوبها باقترابه. عيونها كانت مغمضة بسبب الضوء الساطع الذي

غمر العالم، وحين فتحتها لم تر غير بعضها بعضاً. لقد أدركت الحقيقة في هذه اللحظة، أدركت أنها هي كلها سيمروغ. طير منها هو سيمروغ، وهي كلها معاً سيمروغ.

- كل طير منها، وكلها معاً، -يكرر يوسف وهو ينشق بأنفه ويمشي نحو البلدة.

حين ذهبت أمه إلى المشفى لتشطف الأرض، جلب الطيور التي اصطادتها اليوم، إلى المطبخ ليعطيها إلى أشكينازي. القبرة وذكر البط والبطة الأموات، قامت في يديه، من دون علمها، برحلة طويلة-ليس عبر البلدة التايوجية الصغيرة، الممتدة من بناء المشفى المائل، إلى المطبخ الصغير الذي تفوح منه روائح أحشاء السمك والحبوب المطبوخة، بل طارت فوق صحارى حمراء، ومحيطات زرقاء، وفوق غابات سوداء وفسحات تغطيها السنابل بذهبها، إلى سفوح سلسلة الجبال عند حافة العالم، وهناك تخلت عن أجنحتها المعتادة، ومضت ماشية (القبرة- منقّلة بسرعة ساقيها القصيرتين اللتين يغطيهما الريش، وذكر البط والبطة- باذلين ما يستطيعان من جهد، وهما يوقوقان، ويتمايلان بتثاقل على أقدامهما العريضة التي تغطيها الغلاصم)، عبر الوديان السبعة العريضة والمهلكة، إلى بيت الطائر الملك الأسطوري. لكن هذه الطيور الثلاثة لم تنجح في معرفة الحقيقة ورؤية بريق سيمروغ في بعضها بعض، فقد رأى أشكينازي عبر النافذة الطفل فأخذ الصيد منه وربّت على نقرته بمودة. انغلق باب المطبخ مصدراً صريراً، وبقيت ريشة زمردية الخضرة عالقة في الهواء.

Chapter 34

الملائكة الأربعة

العالم كان كبيراً وساطعاً. كان يبدأ عند العتبة الخشبية الرمادية اللماعة التي حفر فيها الصرصور فرضة غريبة الشكل، في الغرفة التي يتقاسمها يوسف وأمه مع الدكتور، ويمتد عبر الفناء الواسع الغارق في أمواج العشب النامي بكثرة، حيث تظهر جزر من الأعشاب الجافة التي داستها الأقدام، وفيها فؤوس ومناجل متروكة، وصخرة ترتفع كتلة واسعة يحيط بها سور مائل، وملابس وأغطية تلوح كالأشرعة تركت لتجف في الهواء، ويلتف حول البناء متجهاً نحو باب المشفى الذي تختفي وراءه مملكة الأرضيات التي نظفتها الأم حتى سطعت صفرتها، والشراشف البيضاء الباردة، والأدوات التي تلتمع التماعاً غير معقول، روائح الأدوية المرة.

وفي درب ممهد جيداً يمتد العالم من المشفى إلى البلدة. هنا ترتفع ثلاث برّاكات سوداء طويلة جداً، ولوحة إعلانات مدت أجنحتها العريضة التي التمعت عليها شعارات رنانة مكتوبة على قماش أطلس، وشيء ما يخشخش ويقرقع في مبنى المطبخ الغامض الغارق في روائح الطعام، ويطل باستيون القوميندانية العابسة، المنيع من أعلى التلة، وفي بقعة بعيدة نوعاً ما يلوح بين شجرات السرو الزرقاء النادي حيث يمارس الرسام إيليا بتروفيتش الذي تفوح منه رائحة الألوان، عمله ليلاً ونهاراً.

هنا كان عالم يوسف ينتهي- أمه كانت تمنعه أن يمشي في التايغا أبعد من ذلك. وكان يحرص على عدم إزعاجها، ويطيعها. لكنه كان يحس أحياناً أن انتظار عودتها من الصيد في الأماسي أمر لا يحتمل، فينطلق زاماً عينيه خوفاً، متجاوزاً النادي، ومتجاوزاً الأعمدة المموجة التي علقت عليها في صفوف طويلة الجماجم المتشققة (جماجم الوعول، والغزلان، والخنازير البرية، والنموس، وحتى جمجمة

أحد الدببة)، - متجهاً إلى الدرب التي تكاد لا تلحظ نحو نهر تشيشما الصاخب، كي يختبئ هناك تحت شجيرة راعشة في انتظار أن تلوح قامة أمه الرشيقة بين جذوع الشجر الحمراء.

هناك كان حدّ آخر للعالم هو أنغارا. كان يوسف يحب أن يجلس على الضفة ويتأمل عمقه المتغير: الماء الثقيل البارد يخفي في داخله كل ظلال الأزرق والرمادي، كما تحوي الغابة- كل ظلال الأخضر، والنار في الموقد- كل ظلال الأحمر والأصفر.

لقد كان العالم عظيماً إلى درجة يمكن معها أن يتعب الإنسان إذا اجتازه ركضاً من طرف إلى آخر، وساطعاً إلى حد كان يوسف يشعر معه أن الهواء لا يكفيه، وكان يغمض عينيه وكأنه يواجه نوراً يعشى له البصر.

في مكان بعيد، خلف ظهر التلال الجبارة، عالم آخر كانت تعيش فيه أمه وسائر أهل البلدة قبل أن يجيئوا إلى سيمروك. لقد حدثته أمه أن يولياش لم تكن تضم عشرة بيوت أو عشرين بيتاً، بل مئة كاملة من البيوت، وحجم كل بيت يضاهي حجم المستشفى. كان من الصعب عليه أن يتصور هذه البلدة العملاقة. والأصعب من ذلك كان، على الأرجح، تصور العيش فيها. تخرج للنزهة، ولك أن تحاول بعد ذلك، أن تجد بيتك بين مئة بيت! في شوارع يولباش كانت تطوف كائنات غريبة ومخيفة لا يعرفها يوسف إلا من خلال أحاديث أمه: «بقرات» تتدحرج برزانة مطنطنة بأجراس معدنية معلقة حول أعناقها (البقرات تذكّر من بعيد بالوعول، لكن قرونها معوجة وأثخن من قرون الوعول، ولها ذيول طويلة كالحبال)، و«عنزات» كثيرة الحركة، صاخبة تتقافز (حجمها ليس كبيراً لكنها مشعثة الشعر، قرونها طويلة تلامس ظهورها، ولحاها تلامس الأرض)، و«كلاب» غاضبة تكز على أسنانها، واقفة خلف الأسوار، (هي ذئاب مدجنة من النوع الذي يلعق كف سيده، ويمزق حنجرة الغريب). كان يوسف يشعر ببرودة تسري في

أحشائه، في كل مرة يسمع فيها أحاديث أمه عن وطنها، ويحس براحة داخلية عظيمة لأنها قررت في الوقت المناسب الانتقال من يولباش إلى سيمروك المريحة الهادئة!

يبدو أن لينينغراد الغامضة التي كانت إيزابيلا تسميها في أحيان كثيرة بيتربورغ، ويسميها إيليا بتروفيتش بيتروغراد، كانت أصغر من يولباش- فعدد البيوت فيها لم يذكره أو يعجب به أحد. غير أن هذه البيوت كلها كانت حجرية. لم تكن البيوت وحدها كذلك، فالشوارع والجسور، والأسوار على ضفتي النهر، وكل ما هو مبني في هذه المدينة كان من حجر الغرانيت والمرمر. وكان يوسف يشفق على اللينينغراديين المساكين الذين يضطرون إلى الإقامة في تلك المساكن الحجرية الباردة، الرطبة. كان يتخيل كيف ينسل قسطنطين أرنولدوفيتش وإيزابيلا، وأسنانهما تصطك، من سريريهما الحجريين في صباح لينينغرادي ضبابي، فيلتصق أحدهما بالآخر ويخرجان من البرّاكة الحجرية إلى ضفة الجدول الضيق «نيفا» المغطاة بالحجارة (نيفا، على حد علمه، أصفر من أنغارا، وأكبر من تشيشما)، ويحاولان أن يدفئا جسديهما بالمشي على الضفة بين كتل الأسود المرمرية، وتماثيل أبي الهول الغرانيتية (تماثيل لها وجوه بشر) ونصب تذكارية برونزية (دمى ضخمة بحجم إنسان، كتلك الدمى التي يصنعها أحياناً إيليا بتروفيتش من الطين)، وبالقرب من برّاكة «الإرميتاج» الخضراء كالعشب، والعالية، القوية كشجرة سرو، وبجانب برّاكة «الأدميرالية البحرية» الصفراء، التي تزين سطحها مسلة طويلة مستقيمة كشجرة صنوبر بري فتية، على رأسها الحاد قارب شراعي صغير، وبجانب برّاكة «البورصة» والأعمدة الخشبية الحمراء التي تتوهج على رأسها بلهب شاحب لا يدفئ، وفي ضوء شمس شحيحة تطل ضعيفة عبر الغيوم التي يتساقط منها مطر مائل بين الفينة والفينة.

من حسن الحظ أن هذين العالمين الباردين، الفظيعين، يولباش ولينينغراد- كانا بعيدين عن يوسف. إنهما موجودان، مثلاً، في تلك الأماكن حيث يعيش الطائر- الملك سيمروغ، والحوريات الرائعة الماكرة، و«أجداخا» الذين يتنفسون ناراً، والعملاقة الشرهة التي لا تشبع جلمافيز...

لقد رأى يوسف معجزة منذ فترة وجيزة. حدث ذلك في بداية الصيف. مساء، قبيل العشاء، طلب منه أشكينازي أن ينقل طبقاً من الحبوب إلى إيكونيكوف (كان هذا الأخير، منذ أن بدأ في رسم إعلانات الدعاية، يأكل في النادي في أغلب الأحيان، من دون الانقطاع عن عمله). وكان يوسف يخاف من الرسام الصموت العابس، لكنه أخذ العشاء من يدي الطباخ دون اعتراض ومضى إلى النادي. حمل يوسف الطبق الذي كان البخار يتصاعد منه، بحرص، مادًا ذراعيه إلى الأمام. وحين وصل إلى النادي دفع الباب بظهره، وحشر نفسه في فتحته، مشى خطوات في المدخل المظلم، ووجد نفسه أخيراً في فضاء النادي المضاء بنور الغروب الساطع.

الطبق الحار يحرق أصابعه، وفي أنفه رائحة الحبوب المطبوخة اللذيذة، لا سيما وأن الحبوب قد طبخت، على ما يبدو، بمرق اللحم الذي أضيف إليه بعض الدهن. ليته يؤدي مهمته بسرعة ويعود إلى المطبخ ليأخذ طبقه الخاص...

الرسام يقف محني الظهر قرب النافذة. يوسف ينشق بأنفه، لكن الرسام لا يسمعه، إنه يقف معوجاً قليلاً وكأنه ينحني إلى الأمام. يقترب منه يوسف وينظر من فوق كتفه، فيرى أمام إيكونيكوف، أغصاناً ثبتت كيفما اتفق على جدار بيت معوج، وعليها قطعة صغيرة مربعة من القماش، عرضها شبر ونصف الشبر، وارتفاعها شبر ونصف الشبر أيضاً. وعلى هذه القطعة من القماش لينينغراد: شارع عريض مثل أنغارا ينساب في فضاءات حجرية صارمة بين البيوت والحدائق اللامعة في ضباب الصباح الشفاف، ويقفز جسراً أخضر فوق نهر نيفا ثم يختفي على الضفة الأخرى، وبراعم زهور تختبئ في خضرة قباب المعابد، ومارة قليلون

يسرعون إلى مكان ما. وثمة موجة ترتطم بغرانيت الضفة الرمادي، فتحوم طيور طويلة الأجنحة فوق النهر. وتفوح رائحة الأوراق النضرة والحجارة المبتلة، والماء الكثير. وتسمع بوضوح صرخة-«إي! إي!»- يوسف لا يعرف هل الصارخ هو طائر نورس فوق أنغارا خلف النافذة، أم طائر نورس لينينغرادي، فما يراه على القماش ليس لوحة، بل نافذة تطل على لينينغراد. إنه يرى معجزة.

فجأة فقدت أصابعه القدرة على احتمال الحرارة، فسقط الطبق من بين يديه على الأرض، وقفزت الملعقة وتدحرجت ترن، وتنثر الحبوب في جميع الجهات. يوسف يقف مادًا ذراعيه إلى الأمام وأطراف أصابعه محمرة من لسع الحرارة، فاغراً فمه من الخوف، وفي أحشائه يدق قلبه الذي سرت إليه البرودة. جداول حساء الحبوب تقطر على ركبتيه العاريتين، وحذائه المربوط بحبلين إلى بطتي ساقيه، ثم تسرح فوق البساط إلى أسفل لتغوص في التراب.

- ها؟- إيكونيكوف يرفع الريشة عن قطعة القماش ويلتفت، عيناه صارمتان، حاجباه مشعثان، جانب وجهه جامد- يبعث الرهبة. وأخيراً، يقفز القلب الذي جن خوفاً إلى الحلق، ويترك يوسف مكانه راكضاً خلف الباب. في المطعم يصب أشكينازي ليوسف طبقاً ممتلئاً، كما للكبار «كل، يا مساعدي!» - الحساء يعلق في حلق يوسف، فيحاول أن يخرج خفية إلى الشارع ويأخذ الطبق إلى النادي، لكن غوريلوف، الرقيب الموجود في كل مكان، يسد عليه الطريق ويشده من أذنه شداً مؤلماً: «إلى أين أنت ذاهب يا قملة؟ هذا ممنوع!» وهكذا يضطر إلى أكل كل ما في الطبق من دون أن يشعر بلذة الطعم، وهو يغص بالحبوب الصغيرة الحجم والمطبوخة جيداً. لو أنهم أعطوه خبزاً لاستطاع أن يخفيه في عبه ويأخذه فيما بعد، لكنهم لم يوزعوا خبزاً في ذلك اليوم.

قضم يوسف أظافره وساط بقضيب شجيرات القرّيص في فناء المشفى، ومع ذلك، قرر بعد ساعتين أن يذهب إلى النادي ويعترف بذنبه. فليوبخه الرسام

الغاضب، وليعاقبه- إنه مستعد لكل ذلك.

الظلام يزداد كثافة، والباب يزداد صريره علواً، وتصبح الظلال أكثر طولاً وعجائبية وهي تنعكس على جدران النادي المبنية من جذوع الأشجار. ويشع في النافذة ضوء أصفر لمصباح كيروسين، واللوحة التي انتهى رسمها متروكة على حاملها لتجف. لكن إيكونيكوف نفسه ليس موجوداً.

يأخذ يوسف المصباح ويقترب أكثر من اللوحة. الضوء الدافئ ينساب على لطخ الألوان السميكة المشدودة: في كل لطخة تختلط وتلتف في أقنية صغيرة جداً ألوان مختلفة، لا يتكرر أي منها، وكلها تسيل ظلالاً، تنساب وتتنفس. يلمس يوسف بحذر بطرف إصبعه الملسوع نهر نيفا، فتترك اللمسة على النهر بقعة صغيرة مستديرة، وعلى الإصبع لطخة زرقاء باردة.

- حسناً، ما الذي تراه؟- إيكونيكوف دخل بشكل غير ملحوظ وهو يقف الآن عند الباب يتأمله.

يرتعد يوسف، ويسرع فيضع مصباح الكيروسين في مكانه. لقد وقعت- قال في سره- لن تستطيع الهرب، فالرسام قرب الباب وسيمسك بك.

- أنا أسألك: ماذا ترى في اللوحة؟

- أرى نهراً، - يجيب يوسف كما لو كان مرغماً، ثم يصحح على الفور. - نهر النيفا.

- وماذا أيضاً؟

- بيوتاً حجرية.

- وماذا؟

- ضفة النهر، وناساً، وأشجاراً، وطيور نورس، وفجراً.

- وماذا أيضاً؟

- ماذا أيضاً؟ يلقي يوسف على اللوحة نظرة متعبة: لا شيء، لا شيء آخر.

- طيب، اذهب، - إيكونيكوف يسمح له بالخروج. - أنا نفسي أعدت الآنية إلى المطبخ.

- أنا أردت أن أحضر لك حصتي... لكن غوريلوف منعني...

- اذهب ولا تقلق لذلك.

يأخذ إيكونيكوف الريشة ويطمس بعناية الأثر الذي خلّفه إصبع يوسف على الأمواج. عيناه تصبحان أكثر دفئاً، وكأن الشمس المشرقة فوق نيفا أدفأتهما.

- أرى أيضاً أن لينينغراد ليست باردة، - يقول يوسف وهو يخرج من الباب.

الرسام لا يلتفت.

في ذلك اليوم بدأت العلاقة بينهما تتوطد: في البدء صار يوسف يحمل لإيليا بتروفيتش طعام الغداء والعشاء، ثم صار يذهب إلى النادي من دون سبب، ليقضي فيه النهار كله. يغسل ريشات الرسم، وينظف حاملات الألوان، وأحياناً يجلس ببساطة، يتأمل عمل إيكونيكوف.

كان إيكونيكوف يقضي جزءاً كبيراً من الوقت في الأعلى، تحت السقف. يرقد على السقالات المصنوعة محلياً، ويخز بحدة، وكثرة، الخشب المضغوط بريشة حادة الرأس، وهو يدمدم تحت أنفه. وكان أحياناً ينزل إلى أسفل، شامخاً برأسه، يدور راكضاً يتأمل أعماله- تارة وهو عند الباب، وتارة، وهو قرب النافذة، أو وهو يقف في وسط المكان. وفي أثناء ذلك كانت ترتسم على وجهه علائم المعاناة، بينما تنتاب الحكة يديه الكبيرتين النحيلتين. بعد هذا الاستعراض كان إيليا بتروفيتش يلتقط المكشاط ويشرع يكشط بعصبية ألوان قطعة من الرسمة (في لحظات كهذه يجلس يوسف هادئاً، منحشراً في الزاوية خلف حامل اللوحة)، أو

يهمهم راضياً ويتابع الرسم (حينذاك يستطيع يوسف أن يتحرك بحرية وأن يصعد على السقالة كي يتأمل اللوحة من مسافة أقرب، ويستطيع حتى أن يطرح سؤالاً قد يخطر في باله).

في الأماسي ينزل إيكونيكوف إلى أسفل، يحرك الدم الذي تجمع في يديه ورجليه، يملأ بخلطة من الأعشاب غليوناً خشبياً، ويدخن. يضع على حامل اللوحات قطعة قماش جديدة، أو قطعة من الخشب المضغوط. أما يوسف فيحبس أنفاسه. الرسم سيبدأ الآن.

ريشة إيليا بتروفيتش الثخينة، رسمت في البدء عدة لطخات طويلة قاسمة فضاء اللوحة المقبلة إلى أجزاء، ثم غطت هذه الأجزاء بكثافة بالألوان المختلفة. صارت اللوحة شبيهة بخليط مشوش وغير مفهوم، وكأنها كومة من النفايات. غير أن هذا التجمع الفوضوي للطخ الألوان يكتسب بفضل اللمسات الحنون للريشة الرقيقة، انسجاماً ومعنى، يكونان في البداية غير ملحوظين تقريباً، ثم يظهران واضحين، ساطعين في صور نافرة-«النافذة تنفتح». أولاد بقبعات كبيرة سوداء، وسراويل ممزقة، يصطادون السمك على ضفة نهر «السين» الذي لا يعرفه يوسف. وسابحات شبه عاريات يتمددن مستمتعات بضوء الشمس فوق الحصى الألماسي على الشاطئ اللازوردي، وسفينة شراعية تعوم طائرة في نهر نيفا الكبير نحو «سهم فاسيليفسكي»، وجميلات نحاسيات يكرجن في رقصة جماعية في شوراع أورانينباوم الصحراوية...

المكان الذي انفتحت عليه هذه «النوافذ» أعمى يوسف، وسبب له الصمم. كان يجلس ساعات يتأمل تداخل الألوان، يصغي إليه، يشمه. العالم البعيد، الممتد خلف التلال، لم يكن أبداً بارداً وغير مريح، كانت تفوح منه رائحة الألوان الزيتية بحدة، ولكن كانت تشتم بوضوح، عبر هذه الرائحة القوية، رائحة العشب الربيعي، والصخور الحارة، والريح، والأوراق الجافة، والسمك الطازج.

وحين، ذات يوم، سأله إيليا بتروفيتش عما يريد أن يراه في اللوحة القادمة، أجابه يوسف من دون أن يفكر أنه يريد أن يرى البقرة. سعل إيكونيكوف وحك أنفه الطويل، ومرّغ قطعة الخشب المضغوط بالريشة مرتين أو ثلاث، فأطل منها على يوسف كائن ودود، واسع العينين، لين الملمس، ذو قرنين أصفرين منحنيين فوق رأسه الخشن الشعر. إنه كائن لا يخيف.

أريد عنزة، قال يوسف بصوت مبحوح. «شلوب- شلوب!» وظهرت قرب البقرة سحنة عنزة حادة الأنف، ذات قرون بيضاء بارزة، ولحية مضحكة.

أريد كلباً: قال يوسف بلهجة آمرة، فظهر كلب يلهث من سرعة الركض، وقد تدلى لسانه الوردي من فمه بمرح.

صمت يوسف، فلم يبق لديه ما يتمناه.

منذ ذلك اليوم بدأ إيليا بتروفيتش يرسم ليوسف. تأجل رسم الكاتدرائيات، وضفاف الأنهار، والجسور، والقصور، وحل زمن الدمى، والخضار والفواكه، والملابس، والأحذية، والأشياء المستخدمة يومياً، والحيوانات التي في حديقة الحيوانات.

هذه - تفاحة، ليمونة، بطيخة حمراء، بطيخة صفراء. وهذه- حبة بطاطا، فجلة، عرنوس ذرة، باذنجانة، حبة بندورة. وهذه- قبعة، أما إذا كانت كهذه فيسمونها (قلبق)، وهذه اسمها سومبريرو، وهذه- شابوكلياك. هذه- قفازات، الرجال يرتدون قفازات جلدية في الخريف فقط، أما النساء فيرتيدين القفازات على مدار العام: القفازات البيضاء المزركشة- حين يذهبن إلى المسرح أو في زيارة رسمية، أما القفازات التي بلا أصابع، فيرتدينها في البرد الشديد، ويرتدين القفازات المحيكة من الفراء في الشتاء...

انهمر العالم من قطع القماش وبقايا الخشب المضغوط بقوة ووفرة، مهدداً بإغراق يوسف. في الليل، في المنام صارت تزوره قطط ترتدي أحذية باليه فاخرة، ولقالق تحمل في حقائب جلدية صفراء معلقة في أعناقها أحرفاً مبعثرة، وسلاحف تأكل بشره وصوت مسموع مثلجات في كؤوس من الخبز، ونمور مقلمة تضرب بسحنها البليدة كرة جلدية كبيرة. وهؤلاء كلهم مصنوعون من لطخ ألوان خفيفة نافرة، ولذا هم خشنو الملمس إلى حد ما، أشكالهم حادة الزوايا، يلتمعون عند الحركة كمئات من النقاط البيضاء على أرضية معتمة، ورائحتهم لذيذة. يستيقظ يوسف متوتراً، يشعر بثقل في رأسه، وحرارة في أذنيه، وبرودة في أرنبة أنفه، ويحس بأن الألوان والصور التي استوعبها تملأ رأسه، وتمزقه من الداخل، وأن عليه أن يطلقها إلى الخارج من جديد بأية طريقة.

بعد فترة لم يستطع أن يتذكر ماذا رسم بالضبط في المرة الأولى. الأمر بدا وكأنه يحدث تلقائياً، فقد وجد وهو يتكوم في الزاوية، قطعة قلم رصاص راح يرسم بها خطوطاً على الأرض. كان ذلك يريحه- يبرّد رأسه ويشعره بالراحة. وقد زحفت الخطوط تدريجياً نحو النافذة، فملأت حافة النافذة، وجزءاً من الجدار. وذات يوم اكتشف على حامل اللوحات قطعة خشب مضغوط نظيفة وفرشاة، بدا وكأن أحدهم أعدّهما لنفسه ثم نسيهما. نظر إلى أعلى- إيكونيكوف الذي يتمدد، عادة، تحت السقف وأنفه متجه إلى لوحة الدعاية التي يشتغل عليها، لم ينتبه إليه، أمسك يوسف الريشة بحذر ولمس بها قطعة الخشب المضغوط، مررها على القطعة مخلفاً عليها شهاباً برتقالي اللون، ثم رسم شهاباً آخر، فآخر. وصار منذ ذلك اليوم يرسم بالزيت.

11 - *Qulle date sommes nous aujourd› hui?*

12 - *Le premier jullet mille neuf cent trente- huit, madame.*

13 - *Qu’est- ce que tu faisais aujourd’ hui?*

14- *Je dessinais, madame.*

15- *Et encore?*

16- *Je seulement dessinais, madame.*

يوسف وإيزابيلا يسيران على الضفة: هو يركل الحصى بأنف حذائه فتتساقط الحصوات رنانة في أنغارا، وإيزابيلا، كعادتها دائماً عند إعطاء الدروس، تمشي برزانة إلى جانبه، ويداها خلف ظهرها، وفي إحداها غصن شجرة بتولا.

17 - *Tu dessinais que, Usuf?*

- المحطة والقطارات، قطارات كثيرة، - هذه كلمات لم يتعلمها بعد، ولذلك كان يجيب باللغة الروسية. في البداية كان إيليا بتروفيتش نفسه يرسم، بعد ذلك صرت أعيد الرسم بعده.

تتوقف، تنظر إليه، وترسم بالقضيب على الأرضtrain.

- train -قطار.

إيزابيلا دائماً تلفظ الكلمات الجديدة بهدوء ووضوح، فتنغرس في ذاكرة يوسف. الحروف المعوجة المرسومة على الأرض الرطبة تظل أمام عينيه، حتى حين تمحوها الأمواج Gare- محطة. Wagon- عربةRail - سكة حديد. Chemin- رحلة. Destaination- المكان المقصود. Voyage- الرحلة. Partir- يسافر. Revenir- يعود. الكلمات الجديدة كثيرة اليوم، ويجب أن تكون في الدرس القادم قد حفظتها عن ظهر قلب.

- وإليك أيضاً هذا القول المأثور المتعلق بالموضوع-تقول إيزابيلا. - Partir, c’est mourir un peu- في السفر- قليل من الموت.

يوسف يعرف الآن الكثير من الأمثال الفرنسية المثيرة والدقيقة في إصابة هدفها، - يعرف أمثالاً عن الحب، والحرب، والملوك، والبحارة، والخواريف، والبيض المقلي. لكن هذا المثل حزين، ويبدو أنه ليس فرنسياً أبداً.

- ألا يوجد مثل آخر مرح؟

- أرجو المعذرة، أنا لم أرد قول ذلك. هاك مثلاً آخر:

-Pour atteindre son but il ne faut qu› aller لكي يصل الإنسان إلى هدفه يحتاج فقط إلى شيء واحد- أن يمشي. كلمات جميلة. يوسف يقرفص ويحرك إصبعه فوق رسوم الحروف التي انمحت نصف انمحاء في الموجات الزاحفة إلى الضفة:

...Partir, reven

أريد أن أرسم رجلاً متعباً يهيم، وهو يعض على شفتيه بعناد ويضغط في يده بقوة عكازاً، - يذهب بعيداً إما إلى المكان الذي يقصده، وإما يمشي عائداً إلى بيته... تداعب إيزابيلا خصلات شعره وتمضي مبتعدة عن الضفة، ومنهية فجأة الدرس قبل وقته المعتاد.

سرعان ما بدا لوولف كارلوفيتش أن الاهتمام بعلم الطب استيقظ عند يوسف. فيوسف الذي كان قبلاً لا يبالي بما يجري في المشفى في النهار، ولم يكن يذهب إلى هناك إلا في المساءات وبحكم الضرورة، كي يساعد أمه في أعمال التنظيف، بدأ يكثر فجأة من ظهوره في قاعة استقبال المرضى، يتبع ليبييه متسللاً في هدوء، ثم يقبع في زاوية- يجلس محملقاً بعينيه الواسعتين كعيني أمه، يتأمل المرضى وينشق بأنفه.

بحلول هذا الوقت كان المشفى قد كبر واتسع ليصبح بحجم برّاكتين (وقام ليبييه أخيراً، بقسم المكان إلى قسم نسائي، وقسم رجالي، وخصص غرفة صغيرة

جداً للمصابين بأمراض معدية) غرفة المعاينة ظلت في مكانها القديم، قرب النافذة، غير بعيد عن المدخل، وكانت في البداية معزولة بستارة، أما الآن فهي معزولة بجدار خشبي نقّال. في الغرفة أثاث ثابت انتقي بصرامة: كرسي، وسرير من خشب الصنوبر لفحص المرضى، ورف من صنع يدوي وضعت عليه الأدوات. وقد أضيف إلى هذا الأثاث في زمن غير بعيد طاولة- سرعان ما تحولت إلى المكان المفضل عند ليبييه. إنه الآن يدون المرضى في السجل وهو جالس إلى الطاولة. (كان من قبل يضطر إلى استخدام حافة النافذة كطاولة مكتب وهو يقف منحنياً فوقها).

السجل الرمادي الضخم كان، بحد ذاته، يبعث في نفوس المرضى الشعور بالاحترام العميق. وحين كان وولف كارلوفيتش يقلّب الصفحات السميكة، المصفرّة، التي لا تنثني بسهولة، والمملوءة كتابة بخطه المضطرب، كان هذا الاحترام ينمو ليصبح شعوراً بالهيبة. وكان فلاحو سيمروك يعظمونه ويعبرون عن احترامهم له بتسميته «طبيبنا».

كان الدكتور يستقبل المرضى في كل وقت. لم تكن للمشفى ساعات دوام محددة، أو أيام عطل، أو أعياد، وكانوا، إذا ما حدث شيء ليلاً، يطرقون نافذة بيته، فيسرع ليبييه وهو يغالب النعاس إلى قاعة استقبال المرضى، وهو يرتدي المريول الأبيض الذي حصل عليه منذ فترة قريبة (جاءه به كوزنيتس، اعترافاً بالجميل، إذ عالجه بسرية تامة من مرض جنسي). كان يعالج كل الأمراض: التيفوس، والزحار، والجرب، والأمراض الزهرية، وأمراض الجلد. وكان يخلع الأسنان، ويبتر الأيدي والأرجل المتمزقة في أثناء قلع الأشجار، ويولّد النساء، ويجري عمليات إجهاض (في البداية كان يفعل ذلك علناً، وبعد ذلك جاء في تعليمات عام ستة وثلاثين، أن ذلك يجب أن يتم في هدوء من دون إعلان). الأمر الوحيد الذي لم يستطع التغلب عليه هو ذلك المرض الأكثر انتشاراً «سوء التغذية

العام» (وضع مثل هذا التشخيص كان ممنوعاً، ولذا كان يطلق عليه في سجله اسماً مطاطاً: «نقص تروية في القلب والأوعية الدموية»).

وها هو ذا يوسف ذو السبع سنوات- طويل ونحيل كغصن أجرد، بارز الردفين، طويل الفخذين، كعمود طوبوغرافي لتقدير المسافات. لقد حرص وولف كارلوفيتش على إطعامه، (كان المرضى الممتنون يحملون للدكتور الكعك والثمار البرية، وأحياناً الجوز، أو أعشاب منكهة للحساء، أو جذور بعض الزهور التي اعتاد ليبييه على غليها وشربها بدلاً من القهوة)، وهكذا نما الجسم الفتي نمواً كبيراً، غير أن أطراف يوسف (يديه ورجليه) بقيت نحيلة كالعصيّ.

في ذلك اليوم جلس الفتى كعادته، قرب الجدار الحاجز هادئاً، لا يتحرك، وراح ينظر بعين لا ترفّ إلى المريض، وهو عجوز، محني الظهر، متجعد البشرة، كقشرة ثمرة مندرين مجففة. خلع العجوز ملابسه كلها، ما عدا سرواله الداخلي، وراح يعرض لليبييه مفاصله الناتئة كالدمامل التي شوهتها الالتهابات، فبدت كالأصابع المهشمة. وصف ليبييه للعجوز الكرز الأسود البري والديس وثماراً أخرى، ونصحه بأن يتناولها نيئة أو مطبوخة وبأكبر الكميات، كما نصحه أن يتناول في حالات الألم الشديد كأساً من السماغون (ما باليد حيلة، لقد كانوا مضطرين إلى استخدام السماغون، في كثير من الحالات، بوصفه وسيلة مجرّبة في تخفيف الألم)، ثم التفت إلى يوسف يخاطبه.

- هل تجد هذا مشوقاً؟ إنه arthritis، مرض العظام والمفاصل. ولتعلم أيها الفتى أن في جسم الإنسان أكثر من مئتي عظم، وكل عظم منها يمكن أن يلتهب ويغير شكله أو حجمه، وبسبب العجز...

شرع يوسف، دون أن يحيد ببصره المعجب عن الدكتور، يتلمس ركبتيه، وبطتي ساقيه، وأضلاعه.

- هاك هنا، - أمسك الدكتور ذراع يوسف النحيلة، - هذا عظم الزند، humerus، عظم الكتف costale, Clavicule...

أحس وولف كارلوفيتش فجأة بحرارته ترتفع: للحظة أحس بنفسه على منبر الجامعة، مصوبة نحوه مئات العيون الفتية اليقظة. سيطر على انفعاله بشكل ما وتابع حديثه. وأسرع في المساء إلى القومينداتت يطلب منه بعض اللوحات الدعائية التوجيهية «لتزيين أماكن خدمة السكان الطبية إيديولوجياً». حصل على طلبه وعاد إلى المشفى، وهو يرتعش من شدة التوتر المفاجئ، وضع على الطاولة الرياضيين النشيطين البارزي العضلات من الجنسين، وهما يحملان الرايات الحمراء باعتزاز، وتحييهما قيادة البلاد. ظل طول الليل يشتغل عليهما وهو يتوخوخ ويتمتم بكلمات لاتينية تارة، وألمانية تارة أخرى، ويرسم بالقلم الرصاص على الجسمين الممتلئين اللذين لوحتهما الشمس، ولا يهددهما مرض سوء التغذية، أو التهابات المفاصل. وفي الصباح كانت وسائل إيضاح علم التشريح جاهزة: الرياضيان، كما في السابق، يمشيان يحملان الأعلام، ويظهران للعالم أربعمئة وست عظمات بالتمام، - عظمات طويلة، وقصيرة، صقيلة، ومجعدة، - مئتين وثلاث عظمات لكل منهما.

قدّر يوسف عمل الدكتور عالياً، وراح يحرّك شفتيه بحماسة، فتعلّم في أسبوع أسماء العظام المعقدة، وصار يبحث في الوقت نفسه تحت جلده المشدود وفي جسده الذي بدا وكأنه مهيأ لهذا النوع من البحث، عن كل العظام التي كان من الممكن تلمّسها بدءاً من العظمة المدببة os nasal، حتى العظمة os coccygien التي تكاد تكون غير ملحوظة.

أعد وولف كارلوفيتش وسيلة الإيضاح الثانية التي كانت أجساد الرياضيين المدربة تعرض فيها بسهولة النظام العظمي- العضلي: الذي حفظه يوسف عن ظهر قلب.

وحين اقترح ليبييه، مدفوعاً بنجاحاته البيداغوجية، الانتقال إلى دراسة بنية الأجهزة الداخلية، رفض يوسف ذلك على غير توقع، وطلب السماح له بأن يستخدم الإعلانات المتبقية كأوراق للرسم، فوافق ليبييه الذي فقد حماسته، وانتقل يوسف من قاعة استقبال المرضى، إلى المهجع الذي يرقدون فيه، حيث راح يرسم المرضى الممددين على الأسرة، وقد انطفأ فجأة اهتمامه الشديد بالطب، وسرعان ما عاد يقضي الأيام بطولها في النادي عند إيكونيكوف، الأمر الذي جعل وولف كارلوفيتش يحس بخيبة أمل مرة. أما الكتابات الدقيقة المدونة فوق عضلات وعظام الرياضيين باللغة اللاتينية فظلت تطل من اللوحات المعلقة في المشفى، رافعة، ومدعمة سمعة دكتور سيمروك، العالية جداً حتى من دون ذلك.

ظل إيكونيكوف يرسم لوحات الدعاية والتوجيه نصف عام كاملاً، وقبل أن يسلّم عمله إلى الرئاسة التي فقدت بقايا صبرها، دعا الزوجين سوملينسكي إلى النادي لحضور «حفل الافتتاح». «وأخيراً!- قالت إيزابيلا مبتهجة. - فأنا لم أظهر في المجتمع منذ زمن».

كان من المتوقع أن يتم «الافتتاح» ليلاً، تحت ستار الظلام. لذلك أمضى إيكونيكوف، الذي نحل جسده في الفترة الأخيرة إلى حد مستحيل، والتهبت عيناه واحمرتا وأحاطت بهما ظلال سوداء، اليوم كله وهو يزيل السقالات شخصياً، لم يترك إلا سلّماً واحداً أسنده إلى الجدار، ثم أغلق الباب وقفله بالمفتاح، وتمدد على ظهره فوق الأرض وراح ينتظر الضيوف.

رقد في ظلمة المساء الخفيفة يتأمل الرسوم. مربع الضوء البرتقالي تسلل من النافذة وسقط في البداية على الأرض، ثم على الجدار، ثم اختفى تماماً. ساد الظلام، وعامت الخطوط التي على السقف وذابت في هواء الليل الكثيف، غير أن إيكونيكوف كان يراها بالوضوح نفسه الذي كان يراها فيه نهاراً، ولذلك لم يشعل المصباح.

غداً سيتم عرض لوحات الدعاية والتوجيه. سيأتي كوزنيتس، ويتفحصها بعينيه الوحشيتين، فيقرر ما إذا كانت تحمل محتوى «إيديولوجياً» كافياً، ويقرر ما إذا كان سيبقيها في النادي أو سيمزقها، ويرميها إلى الشيطان، ويحرقها، ويطرد الرسام نفسه من حياة سيمروك الهادئة، إلى المعتقل، أو إلى أبعد من ذلك. سيأتي غوريلوف، يتشمم كل شيء بشره باحثاً عما يمكن أن يدين الرسام، وسيجد حتماً ما يبحث عنه. غداً سيكون الفراق. سيترك هنا الرسوم، ودستتين من اللوحات التي تصور المدن (بعد زيارة الرئاسة الليلية الشهيرة، تجرأ وعلّق تلك اللوحات على جدران النادي)، وسيترك كومة من قطع الخشب المضغوط التي عليها لوحات ليوسف، والفراشي المحلية الصنع، ورفوف الدهانات والكشاطات المصنوعة من شفرات ذات حد واحد، وأنابيب ألوان نصف فارغة. سيترك هنا رائحة الزيت والنشادر، والأرق الليلي، والأحاديث المتبادلة مع يوسف الصغير، وبقع الألوان على الأصابع، وكل أفكاره، سيترك ذاته كلها. و- مرحباً بك في ورشة قطع الأشجار مجدداً، لقد انتظرناك طويلاً أيها المواطن إيكونيكوف.

في الزاوية، تحت كومة من النثريات زجاجة ثقيلة مخبأة، هل يفتحها؟ لا. ليس الآن. يؤسفه أن يضيع اللحظة.

هناك من يحاول فتح الباب بحذر- إنهما الزوجان سوملينسكي. يشعل إيكونيكوف فتيل مصباح الكيروسين ويذهب لملاقاة الضيوف- قسطنطين أرنولدوفيتش- في سترة جديدة (في سيمروك كانت مشكلة الملابس تحلّ ببساطة: الموتى يتركون ملابسهم للأحياء). وإيزابيلا بتسريحة شعر أنيقة تستند إلى ذراع زوجها.

Bonsoir، - تقول برزانة.

ثم تصرخ: من الجدار الخشن المبني من جذوع أشجار الصنوبر البري، ينظر إليها سان- لازار، وإلى جانبه ساكري- كير، والتويلري، وكونسيرجيري. تسير إيزابيلا

ببطء بمحاذاة الجدران وينساب إلى جوارها ظلها.

- بيلا، - سوملينسكي يقف قرب الجدار المقابل، مسبلاً يديه ولا يتحرك. - انظري- إنه فاسيليفسكي. في الصف السادس.

تلتفت إيزابيلا ببطء وتقترب ببروفيلها من اللوحة المربعة الصغيرة.

هنا الصف الثامن، - إيكونيكوف يقرب مصباح الكيروسين من اللوحة.

- إنه الصف السادس، يا يمامتي إيليا بتروفيتش، السادس. - إيزابيلا تمدّ يدها إلى البيوت الصفراء والرمادية بشرفاتها الطريفة الشكل، لكنها لا تلمسها، تمسّدها عن بعد في الهواء. - نحن عشنا هنا، بعد هذا المكان بقليل، هنا، في هذا البيت. يخرج إصبعها خارج حدود اللوحة، يزحف على خشب الجدار ويصطدم بعقدة قاسية.

تشغل لينينغراد في النادي جدارين. وباريس وبروفانس، ومناظر البحر الجدارين الآخرين، أما بقية العالم فممثّل تمثيلاً شحيحاً بمشهدين صغيرين ورسوم من الحياة اليومية، ومحشور في الزوايا. الزوجان سوملينسكي يتنقلان من فاسيليفسكي إلى سيتي، ومن ضفة إلى أنغليسكايا، ومن جسر ألكسندر الثالث إلى ترويتسكي، ومن جسر بانكوفسكي الصغير إلى جسر مينيال، ويصلان من سان- مارتين إلى قناة ليبياجيا الصغيرة، ويمران بعد ذلك بالقرب من ميخايلوفسكي إلى نهر نيفا...

- أنا لن أذهب من هنا إلى أي مكان، - تقول إيزابيلا أخيراً. - أنا، يا إيليا بتروفيتش سأعيش هنا- سنجد حلّاً، أخلط لك الألوان أو أشطف الأرض.

- نحن، منذ زمن بعيد، لم نخلط الألوان، فهي تباع جاهزة في أنابيب، وأنا أقيم هنا آخر يوم، فغداً سأسلم لوحات الدعاية والتوجيه و- finita la comedia.

انتبه الزوجان سوملينسكي فجأة، إلى أنهما لم يشاهدا تلك اللوحات- نحن لم نشاهد كل شيء بعد! هذا أمر سيئ جداً! أين بقية اللوحات يا مايسترو، أرنا إياها... يرفع إيكونيكوف فتيل مصباح الكيروسين إلى الحد الأقصى- فيعلو لسان لهب طويل مضيء تحت غطائه الزجاجي، يغمر المكان بضوء أصفر، - ويرفع المصباح إلى أعلى.

في الأعلى- قبة سماوية: زرقة شفافة، تعوم فيها بيسر غيوم كالريش. ويظهر في زوايا السقف الأربع أربعة أشخاص يرفعون أيديهم بتوتر إلى أعلى، وكأنهم يحاولون الوصول إلى شيء في المركز. وتحت أقدامهم، في مكان بعيد في الأسفل بقيت حقول تموج بسنابل القمح الذهبية الكثيفة، تتناثر فيها هياكل جرارات سوداء وغابات قصيرة العشب، تطير فوقها شرارات المناطيد، ودخان فبارك المدينة، ومظاهرات حاشدة تمتد فيا خطوط منحنية من الأعلام الحمراء. كل هذا العالم المأهول بكثافة، يمتد شريطاً ضيقاً حول مربّع السقف- كإطار ملوّن طريف، يحلّق في داخله، منطلقاً منه أربعة أبطال رئيسيون.

طبيب ذو شعر ذهبي ومعطف أبيض منشّى، ومقاتل قوي البنية يحمل بندقية، ومهندس زراعي بيده رزمة من سنابل القمح، وعلى كتفه مقياس تربة، وأم تحمل طفلاً على ذراعيها- هم جميعاً شبان أقوياء وجوههم صريحة وشجاعة، ومتوترة للغاية، وسعيهم واحد- هو الوصول إلى الهدف. وما الهدف؟ إنه ما هو موجود في مركز السقف- الفراغ.

- إنهم يسعون للوصول إلى ما ليس موجوداً، أليس كذلك؟

- لا، يا بيلا، يضع قسطنطين أرنولدوفيتش كفه الضيقة على شفته السفلى، ويمسّد ذقنه القليلة الشعر، - إنهم يسعون إلى الالتقاء بعضهم ببعض.

- إيليا بتروفيتش، - أين اللوحات المخصصة للدعاية والتوجيه؟

- ستكون، - أجابها بلهجة ساخرة. - لقد بقي تفصيل واحد لم أرسمه، وأظن أنني أستطيع إنجازه في الليل.

حين يغادر الزوجان سوملينسكي، يحرك السلم إلى وسط المكان، ويجلس على درجته السفلية وهو يفكر مبتسماً، ويعصر من الأنابيب على طبق الألوان كتلة سميكة، مستديرة لونها دموي- أحمر.

تر-ر-ر-ريسك! ينفتح الباب على مصراعيه، وتدخل منه إلى عتبة المكان قامة غوريلوف القصيرة- لا شك أن هذا الكلب كان يتجسس.

- هل نحن نخالف؟- يقول بصوت كالفحيح. - نعيش حياة ليلية؟ ونستقبل ضيوفاً؟

يتقدم إلى داخل النادي ببطء، وهو ينشق بأنفه بصوت مرتفع، ويطوف بعينيه على السقف، والسلم، وعلى قامة إيكونيكوف الجالس على درجته الأولى، في سكون. يتوقف أمامه، واضعاً يديه على خاصرتيه، ويحرّك ساهماً فكه السفلي الثقيل.

- قل للناظر إليك أيها المواطن الكلب إيكونيكوف، ما الذي كنت تتهامس حوله مع آل سوملينسكي.

- كنا نناقش لوحات الدعاية والتوجيه، - يرفع غوريلوف عينيه إلى السقف. - ومجمل الأفكار التي تتضمنها، وكفايتها أو عدم كفايتها لتحقيق أهداف توجيهية- تنويرية محددة، واحتمالات التفسير الذاتي لخصائصها من قبل بعض الشخصيات الفردية في نقطتنا المأهولة.

- أنت تك-ذ-ب... -غوريلوف يقرب وجهه وقد اتسع شقّا عينيه. - طيب، يا مدهّن، ستقع عندي في ورشة قطع الأشجار- وهناك سنتكلم، أم أنك تطمع في

البقاء في النادي؟ أو تطمع في أن تظل تمارس رسمك بدلاً من القيام بعمل شريف؟

إن كل شيء يدل على أنه سمع من مصدر ما أن إيكونيكوف كتب منذ مدة قريبة طلباً إلى القومينداتت يقترح فيه تأسيس جمعية رسم احترافية في سيمروك. وقد تضمن الطلب وصفاً تفصيلياً لنوع البضاعة التي ستنتجها هذه الجمعية «لوحات نوعية ممتازة مرسومة بالزيت ذات محتوى وطني وتوجيهي، وتعالج كل الموضوعات الممكنة بما في ذلك الموضوعات التاريخية»، أما مستهلك هذه البضاعة فهو «بيوت وقصور الثقافة، وقاعات المطالعة، والمكتبات، ودور السينما وما شابهها من أماكن تسلية الكادحين وتثقيفهم، وتنويرهم. وكذلك تضمن الطلب حساباً تقريبياً لدخل الجمعية المتوقع الذي بدا كبيراً نوعاً ما. وقد أجل إيغناتوف قراره في هذا الشأن إلى ما بعد استلام لوحات الدعاية والتوجيه.

إيكونيكوف يظل صامتاً، يعبث بطبق الألوان، وفجأة يخطف منه غوريلوف الريشة وبحركة تكاد تكون غير ملحوظة يغرسها تحت ضلوعه كسكين- وللحظة يبدو وكأن الذيل الخشبي الحاد قد اخترق الجلد. يتوجع إيكونيكوف ويمسك بالريشة محاولاً إبعادها عن جسده، غير أن غوريلوف يثبتها بقوة كما لو كانت كلّاباً فولاذياً علق بين ضلوعه.

- طبعاً، يمكن الخداع حتى في الجمعية... -يهمس في أذنه بلهجة حادة حامضية. - غير أن الذين يرسمون اللوحات عندنا للشعب السوفييتي هم الرسامون الموثوق بهم وليس المعادين أمثالك.

- أنا صنعت... أربعة وعشرين تمثالاً لرأس ستالين... - إيكونيكوف يلتصق بالسلم كحشرة صُبّرت بوخزة إبرة.

- أنت تريد أن تكون رساماً- برهن إذن، أنك تستحق ذلك! حدّد خيارك أيها الحقير، إما أن تكون معنا، وإما أن تكون غداً في ورشة قطع الأشجار.

- ماذا... تريد؟... - الريشة انغرست إما في الرئة، وإما في الحجاب الحاجز- ستثقبه الآن، فيصبح التنفس مستحيلاً.

- أكرر: عن ماذا كنت تتهامس مع آل سوملينسكي؟

- عن لينينغراد!

يتراجع غوريلوف خطوة: إيكونيكوف يسقط على الأرض وهو يتنفس تنفساً يشوبه الصفير، ويسعل دون توقف.

- هو ذا!- ينظر غوريلوف بنفور إلى الريشة التي في يده، يحطمها على ركبتيه، ويرميها في الظلمة- القطع الخشبية المهشمة تقرقع وهي ترتطم بالأرضية وتتدحرج في مختلف الاتجاهات. - ستكتب كيف حدث كل شيء، ومن سأل أو تكلم، ومم ضحكوا هناك، وماذا انتقد... انتقدوا، - يصحح وضع حزامه الذي مال على جنب، ويسوي وضع سترته الرسمية. - وستأتيني بالتقرير غداً. إذا جئتني به قبل تسليم اللوحات، ستكون لك جمعية الرسامين، أما إذا لم تفعل- فعليك أن تشحذ منشار قطع الأشجار، وأنا سأحرص على أن تكون خدمتك في وقت مناوبتي. هذا كل شيء. تستطيع الآن أن تنصرف يا كلب.

جزمة غوريلوف تطقطق متجهة نحو الباب ثم تختفي خلفه. إيكونيكوف ما يزال جاثياً على ركبتيه، يزحف في الزاوية. يبعثر الصناديق الفارغة وقطع الخشب المضغوط، والخرق- يجد الزجاجة المخبأة. ينزع بأسنانه سدادتها ويأخذ جرعتين طويلتين تصدران بقبقة في حلقه. يمشي بخطوات غير واثقة في الظلمة، يعود إلى حيث السلّم. يأخذ مصباح الكيروسين وطبق الألوان ويصعد نحو السقف. يجلس نحو دقيقتين على درجة السلم العليا، متأملاً الفضاء الأزرق غير المحدود،

الذي يتمدد فيه زغب غيوم شفافة. يغرف من طبق الألوان كتلة سخية ويلصقها بالسقف- فتنفجر على صفحة السماء لطخة ضخمة، حمراء قانية.

توجه كوزنيتس فور وصوله إلى النادي ليرى لوحات الدعاية والتوجيه. وقف في وسط النادي، وغرس بصره في السقف، يقف، يحرك حاجبيه، يحاول التعمق في الفهم. إيغناتوف إلى جانبه وقد انضم إليهما غوريلوف فوقف قرب الباب. وهو ينظر إلى الرئاسة بطرف عينه. إيكونيكوف نفسه هنا أيضاً، يسند الحائط، متعباً، يرهقه النعاس- فهو لم يستطع النوم في الليل، كانت يده تتلمس بين الفينة والأخرى خاصرته في مكان ما تحت ضلوعه، وكأنه يعاني من مغص في معدته، وكان حين يطول الصمت، يتدخل ليحرّك الموقف قليلاً.

- اسمحوا لي، - يقول، - بوصفي من رسم هذه اللوحة، أن اعرض رأيي بكلمتين... حول الفكرة الأساسية، أي...

الرئاسة تظل صامتة، تتنفس بصوت مرتفع.

- التوجيه والدعاية تعبير فني... صورة جامعة للمجتمع السوفييتي. - إيكونيكوف يرفع يده بالتسلسل مشيراً إلى القامات الناظرة إلى السماء. - المدافع عن الوطن- هو رمز القوات الباسلة. الأم والطفل- رمز لكل النساء السوفيات. المهندس الزراعي الأحمر.. إنه منتج القمح... يجسد العمل في الأرض، وما ينتج عنه من ازدهار لبلادنا، أما الطبيب- فيرمز إلى حماية الشعب من الأمراض، وكذلك كل الفكر العلمي السوفييتي.

يقف كوزنيتس على أصابع قدميه، ثم يرتد إلى الخلف مستنداً إلى كعبيه؛ جزمته ترسل صريراً.

- الجيش والشعب المسالم، والعلم والعمل في الأرض، يتجهون في اندفاعة واحدة إلى رمز الثورة، الراية الحمراء.

في مركز السقف، حيث كانت تتجلى البارحة زرقة السماء العالية، تتماوج راية حمراء عملاقة تشبه البساط الطائر. إنها راية عظيمة تبدو، بسبب كبرها، كأنها ستسقط الآن فتغطي كل الناس الذين يقفون تحتها رافعين رؤوسهم إلى أعلى. «يا عمال العالم- اتحدوا!»- عبارة تسيل في ثنياتها وازنة، مخيطة بخيوط سميكة من الذهب. الأربع قامات في زوايا اللوحة تبدو وكأنها قد صغرت حجماً في الحال، وراحت الآن تمد أيديها في اتجاه واحد- نحو العالم.

«اللوحة جميلة، - يقول إيغناتوف في سره مندهشاً، وهو يتأمل الوجوه الملهمة الواقفة تحته. - إنها صادقة، وحقيقية. لقد أحسن الرسام، ولم يخدعنا».

«ظل نصف عام وهو يرسم صور الناس الصغار، وفي ليلة واحدة رسم العلم- يا له من مراوغ، سافل»، - يقول غوريلوف في سره، لائماً نفسه بعد فوات الأوان.

- حسناً... - يقول كوزنيتس أخيراً. - عمل يستحق المديح. مثل هذا الرسام يمكن أن يؤتمن على جمعية رسامين محترفين.

قال ذلك وربت على ظهر إيكونيكوف المحني الذي احتفظ بتوازنه على ساقيه بصعوبة.

غادرت الرئاسة المكان، أما إيليا بتروفيتش فبقي في النادي، جلس على درجات السلم، وأطرق برأسه الذي حضنه بكفيه الملطخين بالألوان بكثافة، وظل هكذا فترة طويلة. وحين رفع رأسه أخيراً، واجهته هبة غير طبيعية، هبة حارة حمراء- إنها الراية.

كان هؤلاء ملائكة طبعاً. يوسف يعرف ذلك من أمه التي أخبرته أنهم يعيشون في أعالي القبة السماوية، يتغذون بأشعة الشمس، وأحياناً يقفون غير ملحوظين على أكتاف الناس ويدافعون عنهم في الكوارث، لكنهم لا يظهرون للعيان إلا نادراً لإبلاغ شيء ما هام جداً. أمه سمتهم (فيريشستا)، أي (ملائكة) باللغة الروسية.

وهذا ما سأل عنه إيليا بتروفيتش: هل ما رسمته على السقف ملائكة؟ ابتسم إيليا بتروفيتش وهو يجيب: هذا محتمل جداً.

ذات يوم، حين لم يكن إيكونيكوف في النادي، صعد يوسف على السقالة، وتفحص بدقة، وعن قرب، اللوحة المنتهية تقريباً. في البداية تمدد طويلاً، يتأمل الطبيب الأشقر الذي كان بدوره ينظر إلى يوسف. عينا الطبيب كانتا زرقاوين- حادتين، ساطعتين، وشعره منفوش كشعر الخروف. «إنه يشبه دكتورنا، - قال يوسف في سره. - لكنه فتي ومن دون صلعة».

بعد ذلك تأمل المهندس الزراعي. كان هذا أكثر شباباً، فتيّاً تماماً، حالماً، رقيقاً، خداه مخمليان، نظرته يقظة، لا يشبه أحداً- لم يكن في سيمروك من له مثل هذا الوجه الفرحان.

الأمر مختلف بالنسبة إلى المقاتل: عيناه صارمتان، عنيدتان، وفمه، حين يطبقه كالخيط- إنه نسخة طبق الأصل من القومينداانت. مدهش أن يتشابه الناس والملائكة إلى هذا الحد.

المرأة التي تحمل الطفل كانت خضراء العينين، ضفيرتاها السوداوان معقودتان على نقرتها: الطفل بين يديها صغير الحجم، نصف أعمى. يوسف لم يكن يعرف أن الأطفال يكونون صغاراً إلى هذا الحد حين يولدون. ترى هل سيصبح ابن الملائكة الوليد ملاكاً حين يكبر؟ لم يستطع أن يحسم هذا الأمر في ذهنه- قطع أفكاره قدوم إيكونيكوف.

- طيب، ما رأيك، - يسأله، - هل تأملت الرسوم؟ من هؤلاء برأيك؟

نزل يوسف عن السقالة، وأصلح هندامه بنشاط.

- إنهم، - يقول، - ملائكة طبعاً، ملائكة عاديون تماماً. هذا واضح للجميع. أتظنني صغيراً لا أستطيع أن أفهم هذه الأمور.

Chapter 36

الخيمة السوداء

جذع ضخم يقارب حجمه متراً ونصف متر مكعب، يدور أسطوانياً، أصفر، ينزلق عن السطح المائل إلى الماء. وفي هذه الأثناء يسرعون نحوه، يسندونه بأيديهم، ويدفعونه بعيداً عن الضفة، يخوضون في الماء أعمق فأعمق، إلى أن يبلغ ارتفاع الماء أعناقهم- ثم يتركونه. هناك، أنغارا نفسه سيمسك به ويسوقه. المعوّمون يقفون في القوارب حاملين قضباناً طويلة يصححون بها عوم جذوع الأشجار، ويجمعونها لتكون أقرب إلى مركز جريان النهر. يمسكون بالكلّابات الفولاذية التي في نهايات قضبانهم، الجذوع الخارجة عن المجموع، ويعيدونها إليه. وتمتد قافلة طويلة من الجذوع العائمة إلى أسفل، إلى مصب إنغارا- إلى المرفأ، يتبعها المعومون. هناك تنتظرها عند الرصيف البوارج: تلتقط الجذوع وتنقلها عبر نهر ينيسي إلى ماكلاكوفا حيث مجمع صناعة الأخشاب.

السيمروكيون ينقلون الأشجار المقطوعة بالتعويم في النهر حين يدخل أنغارا في حالة الاستقرار، ويهدأ (تعويم الأشجار المقطوعة في المياه العالية خطير، فقد تتصادم وتتحطم). كان قسم منهم يدحرج الجذوع إلى حافة السطح المائل، ويدفعها في الماء، وقسم يلاقيها في الأسفل، في الماء، وقسم ثالث مجرب وأكثر من غيره خبرة- يمضي بالجذوع العائمة إلى ماكلاكوف.

اليوم بدؤوا العمل قبل أن ينحسر الظلام، فامتلأ أنغارا بجذوع الأشجار ذات الظهور السوداء، وكأن سرباً من الأسماك العملاقة يتدافع في جدول صغير. وحين ستبلغ الشمس قبة السماء سيكون القسم الذي يدفع الجذوع إلى الماء عبر السطح المائل، مبلل الثياب بالعرق، بللاً يضاهي تقريباً بلل ثياب القسم الذي يخوض في الماء وهو يدفع الجذوع لتعوم في مجرى النهر، وسيكون قسم

المعوّمين قد اختفى عند المنعطف وهو يسوق الأشجار المقطوعة إلى نهر ينيسي.

- أيها المناوبون، حان وقت الغداء!

يتهالك الناس على الأرض. بعضهم ينظر إلى الجذوع المتبقية، وبعضهم- يراقب ظهور الجذوع الملتمعة وهي تبتعد عائمة في النهر، وبعض ثالث- يتأمل سماء تموز الصافية. ترن الملاعق، وتنتشر رائحة تبغ (الماخوركا) المصنوع محلياً. ومن أعلى السطح المائل يُرى بوضوح كيف يتم في مرفأ سيمروك في البعيد، صعود كوزنيتس الذي يكاد لا يقوى على الوقوف بسبب سكره الشديد إلى سفينته البنيّة اللامعة وكيف يتشبث به إيغناتوف نصف العاري مترنحاً، ويصيح ملوحاً بيديه، وكأنه يطالب بشيء، أو يريد أن يطلب شيئاً، أما غوريلوف فيمسك القومينداانت، متيحاً لكوزنيتس فرصة الإفلات منه والقفز إلى السفينة. «لا أستطيع!... أطلق سراحي!... لا أستطيع البقاء هنا فترة أطول!»- يتناهى إلى السمع صوت إيغناتوف اليائس.

- يا لهم من كلاب!- يقول بكراهية وصوت خافت أحد مدحرجي الجذوع عن السطح المائل.

حفلة الرقص وإطلاق النار على الناس الأحياء، التي أقيمت في سيمروك الليلة الماضية أطلق عليها الأهالي سريعاً اسم «الليلة الحمراء». من حسن الحظ أن أحداً لم يقتل في تلك الليلة، واقتصر الأمر على الجرحى.

انفصلت السفينة أخيراً عن رصيف الميناء، أطلق محركها أصواتاً كالسعال وهي تزيد سرعتها، وتتجاوز بحذر الجذوع، متجهة نحو المنعطف. غوريلوف يترك القومينداانت بحركة تشبه الاعتذار، يبسط ذراعيه، ثم يصالب كفيه على صدره. إيغناتوف لا يسمعه- يقفز إلى قارب صغير يتمايل قرب الرصيف، ويبدأ التجديف

محاولاً اللحاق بالسفينة. القارب صغير، خفيف، يطير بسرعة مع الأمواج، ويجرفه التيار إلى ذيل مجموعة ثقيلة من جذوع الأشجار.

- سيتمزق ويأخذه الشيطانّ- تقول أصوات لا مبالية في الحشد. - ستسحقه الجذوع.

الناس ترفع بصرها عن أطباق الطعام: بعضهم ينظر، ينهض في مكانه كي يرى ما يجري بشكل أفضل، وبعضهم يتابع الأكل بلا مبالاة. ويتناهى إلى السمع من بعيد، من القافلة، صوت تلاطم الجذوع عالياً، مخيفاً.

إيغناتوف يلاحظ الخطر بعد فوات الأوان، يجذّف بكل قوته، لكن ذلك لم يعد مجدياً- ينغرس القارب بالكتلة الضخمة المندفعة في وسط النهر. يحاول إزاحة الجذوع بمجذافه، لكن المجذاف ينكسر على الفور، بعد ثانيتين يبدو إيغناتوف كما لو كان يقرفص وتقصر قامته- ثم يغيب عن النظر القارب وإيغناتوف نفسه، ثمّ يلوح من جديد رأسه الكستنائي الغامق- وهذا كل شيء.

- مت أيها السافل، - يلفظ بصوت واضح شخص ضئيل الحجم يرتدي ثوباً ممزقاً إلى درجة غير معقولة- إنه زاسيكا.

وفجأة، ينفصل أحدهم عن السطح المائل ويندفع بلمح البصر إلى الماء، يدفع إلى مجرى النهر القارب المخصص للمعوّمين ويقفز إلى داخله، يجذّف محاولاً اللحاق بقافلة الجذوع، مستعملاً بقوة أحد الأوتاد المستخدمة في دفع الجذوع إلى الماء، ويغوص في خليط الجذوع والزبد- إنه لوقا. الناس فوق التلة يشاهدون كيف يقذفه التيار تارة إلى هنا، وتارة إلى هناك: إنه يخوض في أنغارا بوتده، واقفاً على ساقيه نصف المحنيين، النهر يجرفه بسرعة إلى أسفل، أما هو فيحاول بعناد الوصول إلى مكان ما في الجانب، يتشبث بالجذوع، يحشر نفسه بينها- متجهاً إلى ذلك المكان الذي لاح فيه رأس إيغناتوف المبلول لآخر مرة.

وفجأة، يرمي الوتد وينحني فوق الماء.

- هل وجدته؟!

ها هم الجميع يتركون الآن أطباق الطعام والملاعق والسيجارات اللف التي لم يدخنوها، ويهرعون إلى النهر، يحتشدون، ينظرون، يغوصون في الماء. يقفز عدد من القوارب في أنغارا، ويندفع راكبوها بمحاذاة الضفة نحو الأسفل مع التيار، مستعدين لملاقاة لوقا، ومساعدته في الخروج من بين كتلة الجذوع، يرمون له الحبال، يقتربون منه، ويصرخون...

- هيا! هيا!- يصرخ غوريلوف بأعلى صوته، وهو يخوض بجزمته في الماء الذي يغمر ساقيه حتى البطتين، ويهز بيأس رأسه الصغير الأحمر الشعر في وسط أنغارا.

يمسك لوقا بكلّابة وتده أحد الحبال التي رموها نحوه، فيسحبون قاربه بشكل ما إلى الضفة، ويصعدون به إلى مرسى الزوارق في سيمروك- القارب مدعوك وكأنه زورق من ورق، وقد غمر الماء نصفه. أما الماء نفسه فكان أحمر كثيفاً. وفي قاع القارب الذي كانت تبقبق فيه فقاعات دموية كبيرة يخالطها الزبد، كان إيغناتوف يرقد مصالباً ساقيه كالدمية...

استيقظ ليلاً كمن تلقى ضربة. جلس في السرير وسأل: أين أنا؟

الجبين معصوب بشدة بقبعة من الشاش، واليد اليمنى مثنية نحو الكتف، والساق اليسرى ثقيلة. ومن حوله، في ضوء القمر تبيض وسائد شاحبة، وهناك أناس ينشقون بأنوفهم. آه، نعم، إنه المشفى. يبدو أنه هنا منذ فترة طويلة، ربما تكون بضعة أيام، بضعة أسابيع، يستيقظ في كل ليلة ويظل يتعذب طويلاً وهو يسترد وعيه ويتذكر، بعد ذلك يتمدد ويغفو من جديد. تلوح أمامه وجوه- ليبييه وغوريلوف، والمرضى الآخرين. وتظهر أحياناً ملعقة في فمه- فيبلع طائعاً ماء بارداً

تارة، وتارة، خليطاً من طعام دافئ سائل ينساب إلى أسفل عبر حلقه، فتخطر في باله أفكار تشبهه- سائلة، يستدعي بعضها بعضاً...

غير أن الأمر اليوم مختلف تماماً: وضوح في الرأس: كل شيء فيه منسجم، وسريع، وواضح الملامح، وقوة الجسد- إنه قويّ بشكل غير متوقع. يمسك إيغناتوف بيده السليمة الضماد الذي يلامس الذقن، يشده، يفك عقده، يمزق الشاش حول رأسه ويخلع القبعة. ينزع عن الرأس زوجاً من قطع الشاش العالقة به، فيشعر بنسيم خفيف يهب لطيفاً من النافذة الصغيرة على الجمجمة الحليقة، يتلمس بشرته. إنه حر!

يستند إلى حافة السرير، يريد أن ينزل قدميه إلى الأرض. رجله اليمنى تستجيب بشكل ما وتخرج من تحت الغطاء، أما اليسرى فثقيلة لا يمكن رفعها، وهي ترسل ومضات من الألم. يزيح اللحاف. رجله ملفوفة بالشاش كما يلف الطفل باللفافة، ونصف قدمه غير موجود.

يتنفس بسرعة وعمق، ناظراً إلى ساقه المضمدة، ثم يشيح ببصره. يلاحظ عكازاً جديداً مسنداً إلى جانب السرير. من قبل لم يكن في سيمروك عكازات. هذا يعني أنهم صنعوه. فهل هذا العكاز له؟ يمسكه ويقذفه في الظلمة بكل قوته- تعلو ضجة، ويسمع صرير وتهشم قطع زجاجية، يرفع أحد المرضى رأسه ويدمدم، ثم يعود فيضع رأسه على الوسادة، ويسود الهدوء من جديد.

إيغناتوف يجلس ويصغي إلى تنفسه. ثم ينهض وثباً (ضلوعه تحرق جسده)، ويقفز على ساق واحدة إلى ذلك المكان الذي طار إليه العكاز- ها هو ذا مرمي قرب الجدار. ينحني ويرفعه. تفوح من العكاز بقوة رائحة صمغ الصنوبر البري، - هو قوي لم يتحطم إلى أجزاء: طرفه العلوي ملفوف بقماش كي يكون طرياً عند الاستعمال. وقد ثبت في طرفه السفلي كعب حذاء أحدهم، كي لا تصدر عنه طرقات عالية- لقد صنع بذكاء، وبإخلاص، صانعه يستحق الشكر على ذلك. يضع

إيغناتوف العكاز تحت إبطه ويتجه نحو المدخل. يعلو من خلفه وقع خطوات- إنه الدكتور وقد خرج من جناح السكن يستطلع سبب الضجة وهو يفرك عينيه مغالباً النعاس.

- إلى أين تمضي؟- يصرخ خلفه. - والجرح الذي في رأسك؟ والقطب؟ والكسور؟ وساقك؟

يضرب إيغناتوف باب المشفى فينفتح مرسلاً صريراً- ويخرج في الليل. يظل القوميندانت، بعد ذلك اليوم، في مسكنه، يصعد إليه ليبييه مرة في اليوم يفحصه، وفي الأماسي تبدل له زليخة الضمادات.

كانت تأتي مطرقة الرأس، تضع طست ماء حار على الطاولة، وإلى جانبه لفافات الضمادات المغسولة والمعقمة يوم أمس. وفي هذه الأثناء يكون إيغناتوف جالساً في السرير، ينظر، وينتظر؟

تبدأ بالرأس. لقد منع الدكتور القوميندانت منعاً باتاً من أن يخلع ضماد الرأس، فاعترض الأخير بصخب، ثم أطاع، بعد أن كفوا عن لف الضماد حول رأسه كالعمامة، وجعلوه عصبة مستديرة بسيطة.

كانت زليخة تضع يدها على نقرته الدافئة التي نما عليها الشعر الكستنائي بكثافة، تشوبه لمعات من الشيب، وتفكّ الضماد الطويل، ثم تمسح بخرقة مبللة دافئة الجلد الشاحب حول تعرجات القطب الطرية ذات اللون الأحمر الغامق، ثم تجففه تماماً، وتدهن القطب نفسها بسماغون ذي رائحة حادة وتغلفها بضماد نظيف.

بعد ذلك يأتي دور اليدين. تلهث من كثرة الشد، وهي تنزع بصعوبة عن جسد إيغناتوف الضخم والدافئ قميصه العنيد (هو لا يساعدها حتى في تحرير يده السليمة)، وترى كيف يتبدل تدريجياً لون الكدمات الزرقاء الكبيرة فتصبح أكثر

بياضاً وتزول، ويحل محلها جلد أبيض نظيف، تتذكر بطن مرتضى البارز، وكتفيه المشعرين، وجذعه الضخم الشبيه بشجرة، العريض الذي لا يمكن ضمه عند الكتفين، ولا يقل عن ذلك اتساعاً عند الخصر. إيغناتوف مختلف عنه في كل شيء: كتفاه حادان منفتحان، وقامته طويلة، وخصره ضيق. تنزع الضماد، وتغسل اليد الثقيلة المطواعة، المصابة بجرحين عميقين (تتقلص قسمات وجهه ألماً، لكنه يصبر)، وتغسل كل الكدمات واللطخات الزرقاء على الصدر، والضلوع، والظهر. وتحت لوح الكتف حيث تظهر ندبة عميقة، قديمة، كانت حين تراها تشيح ببصرها عنها وكأنها رأت سراً يجب ألّا تطلع عليه، ثمَّ تمسحها بخرقة جافة، وتعقمها بالسماغون، وتلفها بضماد جديد، ثم تلبسه القميص.

آخر ما كانت تعالجه هو ساقه. تضع الطست على الأرض قرب السرير، وتجثو على ركبتيها. تحرر القدم المبتورة من الشاش، وهي تشعر دون أن تلتفت، بنظرة إيغناتوف الثقيلة، ثم تغسلها، أما هو فيحبس أنفاسه، ويتوخوخ، ويعاني، ليس بسبب الألم، بل بسبب الغضب. تتذكر كيف كانت تغسل قدمي مرتضى، ساقاه لم تكونا ساقين- بل عمودين ضخمين، عريضين، وبدينين، أصابع قدميه مفلطحة، متباعدة الاتجاهات، قدماه فظتان من كثرة المشي، سوداوان، تكدست عليهما طبقات من الخلايا الجافة الميتة يمكن قشرها باليد وكأنها لحاء شجرة. أما ساقا إيغناتوف فطويلتان وضيقتان، وقدماه جافتان، ناعمتان، صلبتان. لا بد أن أصابع قدميه جميلة أيضاً. زليخة لا تعرف تلك الأصابع، فهي لم تر قدم القومينداانت السليمة.

كل ما عدا ذلك من جسده كانت تعرفه جيداً، وقد حفظته عن ظهر قلب، كانت تغسله، تجففه، تدهنه، تضمده.

وفي هذه الأثناء كان إيغناتوف يجلس صامتاً، مديراً وجهه نحوها. وقد بدا لها أنه كان يشمّ رائحتها. وبدا لها أيضاً أن الجو كله يعبق برائحة عسل قوية. الماء

الساخن، والضمادات، وحتى السماغون- كل ذلك رائحته عسل، حتى جسد إيغناتوف وشعره أيضاً.

يجب ألا ترفع بصرها عن الأرض، ألا تلمسه مرة إضافية، ألا تدير رأسها. يجب أن تجمع الشاش المتسخ، وتمسح الأرض حيث تجولت- وتغادر، تغادر هذا المكان، فتغسل خرق الضماد في مياه أنغارا الصقيعية، وتبرّد يديها، وخديها، وجبينها، وتضغط فكيها، وتزمّ عينيها، وتسدل أمام بصرها الذهني ستارة سوداء، بساطاً سميكاً يغطي القومينداندانية، وتقفز هاربة منه على ظهر جواد أصيل سريع، وغداً ستسخن ماء من جديد وتصعد في الدرب إلى أعلى- إلى هناك، حيث ينتظرها جالساً على السرير المرتب إيغناتوف.

هكذا عاشوا ما تبقى من الصيف، حتى الخريف.

في أيلول سمح الدكتور بنزع الضمادات. وكانت الجروح قد شفيت في أثناء ذلك الوقت، وصار لون ندوبها أبيض. اليوم ستذهب إلى القومينداندانية آخر مرة: ستنزع الضمادات عن يده ورأسه. ضماد قدمه سيبقى. لكن يدا إيغناتوف ستكونان سليمتين، ولذلك سيكون باستطاعته أن يغير ضماد قدمه بنفسه.

جاءت، كالمعتاد، عند الغروب، وهي تسند طست الماء الحار الثقيل إلى بطنها، طرقت الباب طرقاً خفيفاً بقدمها فانفتح. دخلت زليخة ووضعت الطست الذي يتصاعد منه بخار كثيف، على الطاولة. لكن إيغناتوف لم يكن في السرير- كان يقف عند حافة النافذة مسنداً ظهره إلى النافذة، ينظر إليها مباشرة من ارتفاع قامته العملاقة.

جئت لنزع الضمادات، تقول زليخة مخاطبة الطست الذي على الطاولة.

- انزعيها إذن.

تقترب زليخة من إيغناتوف: إنه طويل جداً، أطول من مرتضى على الأغلب. رأسه الملفوف بضماد أبيض كعمامة- يكاد يلامس السقف.

- لا أستطيع الوصول إلى الضماد.

- تستطيعين.

تقف على رؤوس أصابعها وتشد جسدها إلى أعلى، رادّة رأسها إلى الخلف، تتلمس بأصابعها نقرته المكسوة بالشعر التي تعرفها، تفك الضماد، وتشعر بارتفاع حرارة الجو في القومينداني وكأن أحدهم سخّنها.

- أصابعك باردة جداً- يلاحظ إيغناتوف.

وجهه قريب جداً. وهي تفك الضماد في صمت. نجحت في ذلك أخيراً- تسبل يديها، وتمشي إلى الطاولة، تطلق زفرة، تملأ يدها بقطعة من الشاش المعقم وتغمسها في الطست، في الماء الساخن، ثم تعود إلى إيغناتوف حاملة قطعة الشاش البيضاء التي تسيل منها نقاط الماء الساخن، ويتصاعد منها البخار.

- أنا لا أرى شيئاً.

- تعرَّفي المكان باللمس.

ترفع قطعة القماش إلى أعلى، وتضعها على رأسه الذي يغطيه شعر قصير، وتمررها على نقرته، النقاط الساخنة تسيل على يدها متجهة إلى أسفل، وأكمام ثوبها مبتلة. أما يداها فكانتا باردتين حقاً. ولا جدوى من استخدام الماء الساخن في غسل مكان الضماد.

كان إيفناتوف يرتدي قميصه فوق يده المضمدة، داساً يده السليمة فقط في كمه. وكان عادة يخلع حزامه قبل مجيء زليخة، لكنه لم يخلعه اليوم. وقد ظلت طويلاً تبذل جهدها محاولة فك قفله النحاسي. وأخيراً يسقط الحزام النحاسي على الأرض مصدراً صوتاً أصم. كانت غاضبة لذلك لم ترفع الحزام عن الأرض، بل

شدت قماش القميص السميك بحدة إلى أعلى، ونزعته عن الجسد الكبير الساكن.

- ستكسرين يدي الثانية- يقول إيغناتوف من دون أن يبتسم، ثم يتابع على الفور- ابقي هنا.

زليخة تفك بسرعة وغضب الضمادات الطويلة طولاً لا نهاية له، وهي تشعر بكفيها يسخنان بسرعة بسبب الغضب، يتوهجان، ينصهران، وتحس كيف تلفّها رائحة العسل الثقيلة، وتدفئها. ها هي ذي يد إيغناتوف المحررة من الضمادات. إنه يحرك أصابعه بحذر يرفع كفه ويضعه على رقبتها.

- ابقي هنا، - يكرر طلبه.

تتخلص من يده، وتجمع عن الأرض قطع الضماد كلها، وتحمل الطست ثم تركض نحو الباب متعثرة، فيتطاير رشاش الماء من الطست.

- ألن تغسلي الجروح؟- يصيح في إثرها.

تلتفت زليخة وترشق بالماء الساخن الذي في الطست الصدر الأبيض الخالي من الشعر.

... في هذه الليلة زليخة لا تستطيع أن تغفو، ترقد، تصغي للظلمة: لأنفاس ابنها المنتظمة عند كتفيها، وشخير الدكتور الرفيع في الزاوية، ودويّ الريح في الموقد، والحر، والجو الخانق.

تنهض، تشرب الماء من الطاسة بنهم، تضع سترتها على كتفيها وتنسل خارجة من الغرفة. الليلة صافية، كثيرة النجوم، والقمر يضيء كمصباح، ومن فمها يخرج بخار حليبي أبيض.

تنزل إلى شاطئ أنغارا، تتأمل طويلاً الدرب الزيتي- الأصفر الذي يتكسّر قطعاً فوق الأمواج، وتصغي إلى هسهسة الزبد على الشط، وإلى صياح أحدهم بعيداً

على الضفة الأخرى. تضفر جديلتيها بشدة أكبر وتلقيهما على ظهرها، وترشق وجهها بالماء البارد، ثم تقفل عائدة إلى البيت.

تلاحظ في الطريق، فوق الرابية، قرب القومينداانية نقطة حمراء مضيئة: إنه إيغناتوف يدخن. النقطة تكبر حجماً، وضوءها ينتفخ تارة، وتارة يضعف، ويشحب. يغمز كمنارة ضوئية- ينادي. وزليخة تلبي النداء.

إيغناتوف يلاحظها من بعيد- يكف عن التدخين. ويستغرق انطفاء النقطة الحمراء بين أصابعه وقتاً طويلاً جداً. هي تقف أمام المدخل، تنظر إلى إيغناتوف الجالس على الدرج، تمسك ضفيرتيها بيديها، تفك الأولى، ثم الثانية، هو يحرك يده فجأة- السيجارة اللف احترقت عن آخرها، وأحرقت أصابعه، ينهض مستعيناً بالعكاز، ويصعد إلى البيت.

الباب المفتوح يصرّ ودفتاه تهتزان على مفاصلهما. زليخة تصعد الدرج. تقف. ثم تمد يدها، تزيح الستارة الثقيلة اللينة الملمس التي تفوح منها رائحة جلد غنم حادة، وتخطو في داخل الخيمة السوداء.

الوقت في قلب الخيمة السوداء مقلوب ظهراً على بطن، لا يجري في خط مستقيم، بل يجري في خط جانبي، عرضاني. زليخة عامت فيه كالسمكة، كالموجة، - تذوب كلها تارة، وتارة تنبعث من جديد في حدود جسدها. كانت تغلق خلفها حيناً باب القومينداانية الذي يرسل صريراً، فتدرك بعد لحظتين أن الصبح قد طلع. وفي حين آخر، تضع كفها على ظهر إيغناتوف وتلصق وجهها بمنبت رقبته، فتشعر بالجريان الطويل اللانهائي للدقائق التي تقاس بنقاط نادرة، ترسل صوتاً وهي تسقط في الدلو من مقدمة المغسلة المعدنية بفاصل زمني يمتد أبداً بين النقطة والأخرى.

لم يكن في الخيمة السوداء مكان للذكريات والخوف، جلدها السميك يحمي زليخة حماية أكيدة من الماضي والمستقبل. هنا لم يكن غير اليوم، غير الآن. لقد كان هذا (الآن) كثيفاً ومحسوساً إلى حد جعل عيني زليخة تبتلان بالدموع.

- قولي أي شيء، لا تصمتي، - طالبها إيغناتوف وهو يقرّب وجهه. نظرت إلى العينين الرماديتين الصافيتين، ومررت إصبعها على الجبين المستوي الذي ترتسم عليه خطوط تجاعيد رقيقة، وعلى خديه الصقيلين البارزين، وذقنه.

- ما أجملك!

- وهل يقولون مثل هذا الكلام للرجال...

يبدو أنها لم تنم في هذا الخريف. تنيم ابنها، تقبل رأسه الدافئ و- تسرع خارجة من المشفى، تمشي صاعدة على الدرب، إلى حيث كانت الشعلة الحمراء الصغيرة تدعوها بإلحاح في كل مساء. في الليالي لم تكن تغمض لهما عين، لقد كانا دائماً يشعران بعدم كفاية زمن الليل. في الصباح- تسرع لرؤية ابنها النائم، وبعد ذلك تذهب للصيد. وفي المساء- تقوم بأعمال التنظيف في المشفى... لم يكن لدى زليخة وقت للنوم. وهي لم تكن ترغب فيه. قواها لم تضعف بل ازدادت، وفاضت: هي لم تكن تمشي، بل تطير، لم تكن تصطاد، بل تأخذ من التايغا ما يجب أن تأخذه، وتظل طول النهارات تنتظر قدوم الليل.

ذلك لم يكن يخجلها. كل ما علموه لها، وكل ما رسخ في وعيها منذ الطفولة، - تراجع، واختفى. وجرف الجديد الذي حلّ محله كل المخاوف، كما يجرف السيل الأوراق والعيدان الجافة التي تكدست على الأرض من العام الماضي.

«الزوجة- أرض زراعة، يزرع فيها الزوج بذور ذريته- هذا ما علمتها إياه أمها قبل أن ترسلها إلى بيت مرتضى. - الزارع يأتي إلى الأرض وقت يريد، يفلحها ما دامت لديه القوة لفعل ذلك. وليس من اللائق أن تعترض الأرض على زارعها». هي لم

تكن تعترض: كانت تكزّ على أسنانها وتحبس أنفاسها، وتصبر، لقد عاشت أعواماً كثيرة وهي لا تعرف أن الأمر يمكن أن يكون مختلفاً. غير أنها عرفت الآن.

الابن شعر بأن شيئاً ما قد تغير، فراح ينظر في عينيها، وصار ساهماً منغلقاً على نفسه، ينام طويلاً- يتقلب في الفراش، يستيقظ كثيراً، ويبدي تعلقاً شديداً بأمه. وكان، إلى جانب ذلك يزداد نضجاً، ويصبح أكثر جدية.

في هذا الخريف ذهب يوسف إلى المدرسة. كان في سيمروك ثمانية عشر طفلاً. جمعوهم كلهم في صف واحد، وأجلسوهم في صفين من المقاعد- صف الأطفال الأكبر سناً، وصف الأصغر سناً. كانوا يدرسون معاً. ولم يكن في المدرسة كلها سوى خمسة كتب (وكلها كتب حساب)، لكنها كانت طازجة جداً! ما زالت تطقطق إذا حاولت ثنيها، وتفوح منها رائحة حبر المطبعة اللذيذة. وكان المعلم رجل يدعى كيسليتسين، جاء في آخر دفعة من «الجدد»- وهو إما أكاديمي، وإما موظف كبير سابق في قوميسارية الشعب للتعليم. حين رأى يوسف، الذي كان قد تعلم القراءة على يد إيزابيلا، كنية المؤلف على غلاف الكتاب- يا. ز. كيسليتسين- اقترب مندهشاً من ياكوف زافيالوفيتش: «هل أنتما من عائلة واحدة؟»- نعم، - أجابه وهو يضحك ضحكة ساخرة غير مرحة، - نحن أبناء عمّ تماماً. يمكنك أن تقول». لقد فرحت زليخة بانشغال ولدها في المدرسة نهاراً، فهو هناك شبعان وفي رعاية تامة. وفي المساءات كانت تسأله وهو يساعدها في المشفى: هل تعجبك المدرسة؟ فيجيبها: «نعم، تعجبني جداً». طيب، إنه سيتعلم فيها القراءة والكتابة على الأقل، وهذا جيد.

ما يعذبها هو أنها الآن لا تمنح ابنها كل دفئها، وأن قبلاتها الليلية كانت أحرّ وأكثر من قبلاتها المسائية لابنها، وأنه قد يستيقظ في الليل فيجد نفسه وحيداً فيخاف، وأن سراً قد نشأ لديها تخفيه عنه. لذلك صارت تعانق يوسف عناقاً أقوى وأطول، وتكثر من تقبيله والتودد إليه. وكان هو أحياناً عندما يزداد ضغط ذراعي

أمه اللذين يعانقانه قوة، يفلت من بين يديها، ثم ينظر إليها من تحت جبينه نظرة اعتذار وكأنه يسألها: هل زعلت؟ فتكتفي أمه في جوابها له بالابتسام ابتسامة عريضة سعيدة.

يبدو أنهم في البلدة قد أحسوا بشيء ما. زليخة لم تفكر بما سيقوله الناس، فعلاقاتها بهم كانت محدودة ومقصورة على العجائز، فهي كانت تقضي النهارات في الغابة، وما كانت لتعرف أن بعضهم قد لاحظ علاقتها بإيغناتوف، لولا غوريلوف.

استوقفها غوريلوف ذات صباح وهي في طريقها إلى التايغا. لقد صار له في هذه الفترة بيت صغير (غوريلوف كان أول من بنى بيتاً في القطاع الخاص، واستطاع في خلال عامين أن يجهزه، ويبني سوراً حوله، ويزجج نوافذه)، وبنى عند البيت مصطبة كان يحب أن يرتاح عليها، ويراقب المارين بقربها من المهجرين.

كانت زليخة تسير في صباح خريفي رمادي معتم في سيمروك التي ما تزال نائمة، أما غوريلوف فكان جالساً قرب بيته يدخن، وقد بدا عليه أنه استيقظ في هذا الوقت المبكر من أجلها، وأنه ينتظرها.

- صباح الخير، يا جمعية! هل أنت ذاهبة إلى التايغا تنفيذاً للخطة؟

- أنا ذاهبة إلى هناك.

- اجلسي معي نتحادث- ثمة ما أريد بحثه معك.

- لا وقت لدي، الطريدة تنتظر. هيا قل ما تريد.

ينهض غوريلوف من جلسته (من تحت العباءة الملقاة على كتفيه، يلوح قميص داخلي متسخ، وسروال ضيق وساقان نحيلان كعودي كبريت محشوين في حذاء عالي العنق)، يطوف حول زليخة بمشيته البطيئة المتراقصة، يتأملها، كأنه يراها لأول مرة.

- لا بأس، - يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه، لقد اختار إيغناتوف لنفسه امرأة لا بأس بها. برافو. أنا ما كنت لألحظ هذا الحسن فوراً...

- ماذا تريد؟- تسأل وهي تشعر بالدم يتدفق إلى وجهها.

- منك- لا شيء، يا صبية، تابعي ممارسة غرامياتك. لكن مرّي بي أحياناً لنتكلم- على القومينداتت. إن له رأساً حامياً، وقد طلبت مني الرئاسة أن أراقبه. أما أنت، يا جمعية، فلا يجوز أن تتخاصمي مع الرئاسة أبداً، أنت نفسك تفهمين ذلك ما دمت تريدين أن تتابعي عملك في جمعية الصيادين، لا في ورشة قطع الأشجار.

يغرس غوريلوف فيها عينيه الضيقتين اللتين تبدوان وكأنهما مطبقتين، فترى لأول مرة لونهما: إنهما سوداوان سواداً مطلقاً.

تخرج أغلايا من المنزل بسرعة وهي ترتدي معطفاً قديماً سميكاً فوق قميص داخلي لونه (بيج)، قدماها في حذاء من دون جوارب، وخصلات شعرها الحمراء مبعثرة في مختلف الاتجاهات- تحمل لغوريلوف معطفاً قطنياً، تلقيه على كتفيه بحركة (بيتوتية) وتضم أطرافه على صدره: انتبه- لا تعرض نفسك للبرد! ثم تنظر إلى الاثنين نظرة تنم على الغيرة، وتندفع عائدة إلى البيت. أغلايا تعيش مع غوريلوف منذ عام تقريباً. هي لم تكن تفعل ذلك متخفية، إنها على العكس من ذلك، كانت تستغل كل مناسبة لتستعرض باعتزاز العلاقة بينهما أمام أهل البلدة.

تصلح زليخة وضع البندقية على كتفها وتغادر.

- ماذا قلت- هل ستمرين بي؟- يصيح غوريلوف في إثرها.

- لا!- تجيبه وهي تسرع في خطوها إسراعاً يشبه الركض.

- انتبهي، قد تندمين! أنت عندك ولد، هل نسيته؟

تلتفت، تنظر إلى غوريلوف باهتمام، نظرة طويلة. ثم تستدير إلى الجهة الأخرى- وسرعان ما يغيب ظهرها الضيق بين الأشجار.

... بعد يومين مشى غوريلوف يتنزه في الغابة. كان يحب أن يتنزه في أثناء يوم العمل: التوجيهات معطاة، والمناوبون يعملون ويعرقون، والأمتار المكعبة من جذوع الشجر التي تفوح منها رائحة الصمغ تسقط على الأرض محدثة ضجة، وتوضع في رزم- لذا يمكنه أن يبتعد قليلاً، ويتنفس بحرية أكبر، فأزيز المناشير تتسبب له بطنين في الرأس.

يمشي ببطء في التايغا الخريفية، وهو يضرب بقوة ثمار نبتات القريص الحمراء، بقضيب يحمله. إنهم، رغم كل شيء، لم يخطئوا في تكليفه بالعمل المخابراتي. إن لكوزنيتس عقل راجح، رأى على الفور ما يملكه من موهبة آخذة في الضياع. لم يمض أكثر من شهر على ذلك الحديث الشهير في الحمام، وها هو الآن الدهّان إيكونيكوف يجمع ملاحظاته المكتوبة بلغة رديئة وينسخها، ينسخها بخط تلميذ شديد العناية، وبدقة تقرير محاسب في دائرة، وها هو ذا الطباخ الصغير يتعرق من شدة التوتر، وهو يعيد رواية العبارات التي يقولها له أشكينازي في أثناء إعداد طعام الغداء، وكذلك ما يقوله أولئك الأميون الذين يمرون به في الأماسي للتهامس والحديث في أمور الحياة. كل شيء تحت السيطرة: العاملون في الغابة، والإداريون، حتى المطعم، والنادي. أما الباقي خارج السيطرة فهو فقط القومينداانت.

يضرب غوريلوف بالقضيب، وبأقوى ما يستطيع ذروة بيت من بيوت النمل- فيغلي البيت بالنمل المهتاج. لم يطلب منه أحد، طبعاً، أن يتجسس على إيغناتوف، هو نفسه أراد أن يهتم بذلك، فهل تراه ينجح؟ إن مجرد التفكير بأن امرأة كانت ترقد قبل ساعة تحت القومينداانت، وأنها مازالت دافئة بدفئه، وما زالت تفوح منها رائحته، ستروي له، هو القزم غوريلوف، كلمات القومينداانت،

يجعله يشعر بتقلصات لذيذة في بطنه. إن ما يزيد في متعته حين يضاجع أغلايا هو أنه يتخيل كيف كان إيغناتوف يمسد خصلات شعرها الكثيفة ذات اللون الذهبي المشوب بالحمرة، كيف كان يمرر يده على ظهرها المستدير ذي الشامة السوداء على لوح الكتف، ويرتمي بوجهه على رقبتها البيضاء اللينة، - فيشعر بالدفء في داخله، ويبتهج لأن ذلك كله قد صار الآن ملكه هو غوريلوف.

من المؤكد أن غوريلوف لن يكون بخير إذا أبلغت زليخة القوميندانت بالحديث الذي دار بينهما، لكنه كان واثقاً من أنها لن تفعل ذلك، فهي تخاف على حياة ابنها.

يرمي غوريلوف القضيب من يده ويجلس تحت شجرة صنوبر بري معوجة الساق. نسيم لطيف يكاد هسيسه لا يسمع يداعب وجهه، ويتناهى إلى سمعه من بعيد صرير المناشير، وصيحات العاملين- الوضع على ما يرام. يسمع صوت خشخشة في مكان قريب- سنجاب ارتدى ثوبه الشتوي الداكن اللون، الوافر الفراء، يقفز على الأرض، وهو يحرّك أذنيه الحادتين، يمد غوريلوف يده إلى جيب سترته، يخرج بقية سيجارة كان قد بدأ تدخينها في الصباح، يمسّدها، يصدر بلسانه صوتاً يدعو به الوحش الصغير. هاك، تفضل. يمد الوحش الصغير سحنته إلى الأمام، يقترب، ينشق بأنفه اللامع. غوريلوف يحاذر أن يخيفه، يخبئ يده الثانية خلف ظهره، ويتلمس عند جذع الشجرة حجراً وازناً يمسك به في كفه في وضع مريح.

السنجاب صار بقربه: عيناه الصغيرتان البنيتان تلتمعان، وأصابعه الصغيرة السوداء المجعدة تمتد نحو كف غوريلوف الصلبة. يضغط غوريلوف بقوة أكبر على الحجر المخبأ خلف ظهره، يحبس أنفاسه؛ اقترب، اقترب أكثر يا حبيبي، هيا... تدوي طلقة- وإذا بعيني السنجاب تتحولان إلى لطخة دموية داكنة ترقد هامدة على أوراق الشجر الإبرية البنية المرقشة.

للحظة بدا لغوريلوف أن الطلقة أصابته- ضاق نفسه. راح يزفر عبر حجرته الراعشة التي بدت كأنها مضغوطة بملزمة، محاولاً ابتلاع ريقه. إنه ما زال يحس بليونة السيجارة في إحدى يديه، وثقل الحجر البارد في اليد الأخرى، فتساءل مندهشاً: هل أنا سليم؟

خشخشة خفيفة بين الأغصان في طرف الفسحة- وتظهر من وراء أغصان الشجيرات نصف العارية قامة نحيلة، تقترب... يحس غوريلوف كيف تتدحرج من نقرته نقطة باردة كبيرة، نحو الأسفل، إلى رقبته، ثم وراء قبة قميصه، إلى عموده الفقري.

تعلق زليخة، وهي تمشي، البندقية على كتفيها، وتقترب منه. تجلس كالرجال مباعدة ما بين ركبتيها، وتأخذ الجسد الذي لا حياة فيه، تدس رأسه في عروة في حزام خصرها. تنظر إلى غوريلوف من أعلى إلى أسفل، مباشرة، ثم تشيح ببصرها وتغادر في اتجاه الغابة.

حين يهدأ في الحرج وقع الخطوات الذي يكاد لا يسمع، يدس غوريلوف عقب السيجارة في فمه، ويبحث بيد راعشة عن علبة كبريت في جيبه، يجدها، يشعل عود ثقاب بكعب حذائه- ينكسر العود، يرميه، ويبصق عقب السيجارة من فمه.

امرأة- أفعى. من كان يظن أنها كذلك! منظرها يوحي بأنها هادئة جداً. يسند ظهره إلى جذع شجرة الصنوبر البري الخشن، يتنهد بعمق، يغمض جفونه نصف إغماض. فليذهب إلى الشيطان هذا القومينداننت...

تأخر الثلج في بسط غطائه على الأرض، حدث ذلك أواخر تشرين الأول، فحوّل الخريف بسرعة، ودفعة واحدة، إلى شتاء. وارتدت الحيوانات الفراء الشتوي الوثير- إنها المرة الأولى التي يحل فيها هذا الفصل، فلا تبتهج زليخة بقدومه. هي لم تكن قادرة على الانفصال عن صدر إيغناتوف الدافئ، والانسلال من تحت يده الثقيلة،

والهرب في الصباح الأزرق البارد. كانت تخرج من القوميندانية كمن يعاني من جرح حيّ. لقد اختفت الفرحة التي تشعر بها حين كانت الزلاجات تنزلق بسرعة فوق الثلج، الريح الصقيعية تلطم وجهها، وحين كانت تلمح جلداً يكسوه الفراء بين أشجار الصنوبر البري. كانت الأيام الشتوية القصيرة تبدو لها طويلة كأنها سنين. تنتظر انتهاءها، تتحملها بكل طاقتها. وحين تحمرّ شمس الغروب، وتزداد كثافة الهواء، وتكتسي الظلال بلون بنفسجي- تسرع عائدة. تمشي إلى المشفى، هي، في الوقت نفسه، تسرع بعينيها إلى التلة، إلى المدخل العالي الذي يشتعل فيه، يتحرق شوقاً، بصيص نار صغيرة ساخنة.

في تلك الليلة قال لها إيغناتوف:

- عيشي معي.

رفعت وجهها عن جسده وعثرت على عينيه في العتمة.

- اجلبي الفتى وتعالي.

لم تقل شيئاً، أعادت رأسها إلى مكانه.

وفي الصباح هطل الثلج. الهطل كان قوياً وكثيفاً إلى حد أن الباب لم يعد ينفتح، والنوافذ طمرت بالأبيض، وراحت الريح تعوي في المدخنة عواء سرب من الذئاب. في مثل هذا الطقس لا يذهب العاملون في قطع الأشجار إلى التايغا لئلا تجرفهم العاصفة، ولا يذهب الصيادون أيضاً.

تلمس زليخة صدغ إيغناتوف بإصبعها:

- أشتهي أن أراك لو مرة في ضوء النهار.

إنها في الحقيقة تتمنى لو تتأمله نهاراً كاملاً.

- ليس هناك ما يستحق الرؤية، - يقول وهو يغطي وجهها بوجهه. - ستشبعين من رؤيتي. ما زال الوقت أمامك...

رفعت رأسها عن الوسادة، حين ساد الهدوء تماماً في الخارج: لا أصوات بشر، ولا طرقات مطارق، ولا رنين جرس الطعام- كأن كل شيء قد مات. عبر النافذة الصغيرة التي غطى الثلج نصفها، يتسلل ضوء ضعيف، أصفر، عكر. إيغناتوف ينام راقداً على ظهره، وهي تعيد تغطيته باللحاف الذي انزلق عنه.

حول البيت صرير حذر لخطوات أحدهم وهو يمشي بمحاذاة الجدار. أهو غوريلوف الكلب؟ هل عاد ثانية إلى شمشمة الأخبار؟ يلوح في النافذة قوام داكن اللون. تنسل زليخة من السرير دون ضجة، تضع المعطف السميك على كتفيها، وتخرج. ها هي ذي الآثار- إنها عميقة زرقاء، تمتد حول القومينداني وكأنها مسكوبة بمغرفة لسكب الحساء.

- كلب، دنس، - تقول زليخة بصوت عال وتنعطف خلف الزاوية. عند النافذة الخلفية، يقف شخص منحنياً إلى الأمام، ضاغطاً أنفه على الزجاج المتجمد، طويل القامة، كبير، يرتدي ملابس طويلة. ياقة ثوبه مرفوعة، وعلى رأسه قبعة طويلة من الفراء، ترتفع كأنها منارة.

أوبيريخا.

- أيتها العجوز الشمطاء، - تقترب زليخة من حماتها بحيث تستطيع لمسها بيدها لو أرادت. - هل عدت من جديد لتمصي دمي؟

بدا كأن الأخيرة سمعتها، فابتعدت بوجهها الشاحب عن الزجاج، والتفتت إلى زليخة: جبينها، عيناها، خداها- كل ذلك يغطيه ثلج أبيض كثيف كأنه الحوّار، لكنه ثلج لا يذوب، خيشوماها فقط كانا يتحركان كثقبين أسودين في قناع أبيض، يستنشقان الهواء ويلامسان الشفتين البنفسجتين.

- اذهبي. - تقول زليخة بغضب ووضوح. - انصرفي من هنا! القناع يكشف عن فتحة الفم، يتنفس الفم بخاراً كثيفاً منبوشاً، ويفحّ بصوت يكاد لا يسمع.

- سيعاقبك... - الإصبع الأعوج ذو الظفر الطويل المحني، يرتفع نحو السماء. - سيعاقبك على كل شيء...

- انقلعي من هنا!- زليخة تصرخ وهي تشعر كيف يسري في جسدها غضب شديد، رنان، وكيف تسخن جذور شعر رأسها، كيف يدق وينتفض قلبها بين ضلوعها. - لا تتجرئي وتعودي إليّ ثانية! هذه حياتي، وأنت ما عاد لك الحق بأن تأمريني! انقلعي! انقلعي!

تدير الحماة ظهرها، وتمشي مسرعة إلى الغابة، مستندة إلى عكاز طويل أعرج، حذاؤها اللباد الثقيل يصدر صريراً يصم الآذان، وهي تمشي فوق الثلج، تهتز على ظهرها ضفيرتاها البيضاوان، النحيلتان كخطين.

- أيتها الغولة!- زليخة ترمي في إثرها حفنة ثلج. - أنت مت منذ زمن بعيد! وابنك مات أيضاً!

أوبيريخا لا تلتفت، لكنها، وهي تمشي، ترفع مرة ثانية إصبعها النحيل مهددة، وتهزه مشيرة إلى أعلى. قامتها تصغر، ويختفي صرير الخطى وراء أشجار السرو السوداء الجذوع. زليخة ترفع عينيها- في أفق السماء الصارم، الأسود الذي تشوبه الزرقة، يشع بمهابة قمر نحاسي اللون، مستدير تماماً كقطعة عملة صكّت لتوها. أهو الليل؟ هل حلّ؟ هذا هو، إذن، سبب الهدوء السائد حولنا.

ويوسف هل ذهب للنوم؟ هل نام وحيداً؟ ركضت متعثرة والثلج يخترق حذاءها اللباد، تهرع إلى المستشفى يوسف ليس في سريره- وكذلك حذاءه اللباد، ومعطفه السميك، وزلاجاته: لقد خالف الابن الأمر مرة جديدة، وذهب ليستقبل أمه العائدة من الصيد، ولم يعد.

تحمل زليخة زلاجتها، تعود إلى القوميندانية، وتحرص على ألّا يصر الباب وهي تفتحه، تدخل، وتأخذ بندقية إيغناتوف الثقيلة المعلقة على الجدار، ثم تخرج من الخزانة الصغيرة علبة طلقات وازنة، تفكّر قليلاً، ثم تقرر أن تأخذ علبة ثانية. تلقي نظرة على إيغناتوف النائم بسلام، وتنسل خارجة.

في الثلج الأزرق الداكن يتعرج خطان رفيعان هما أثر زلاجة يوسف- تندفع متتبعة ذلك الأثر، مكررة ومدركة الطريق الذي سلكه: سار يوسف صعوداً من النادي، إلى نهاية البلدة، فنهر تشيشما المتجمد، ومشى بمحاذاة الضفة إلى المنعطف عند صخرة الدب، حيث كان، عادة، ينتظرها تحت إحدى الشجيرات، هنا توقف مدة طويلة- الآثار كثيفة وفي كل الاتجاهات في العراء: لقد كان ولدها يتجمد برداً في الليل قرب جدول في الغابة، وهو ينتظر أمه التي كانت في هذه الأثناء تسلّم نفسها لعشيقها في سرير مدعوك مشبع حتى البلل بالعرق الساخن.

يتجه الأثر بعد ذلك إلى قلب الغابة: يبدو أن يوسف قرر حين تأخرت أمه، أن يذهب لملاقاتها. زليخة تندفع متعقبة الأثر. الأشجار المغطاة بالأبيض تتكاثف حولها، تعيقها، والخطان الأسودان المرسومان في الثلج، اللذان لوّنهما ضوء القمر بالأصفر والأزرق، يمتدان أمام عينيها أبعد فأبعد، ويغوصان أعمق فأعمق في قلب الغابة.

- يوسف!- تصرخ في قلب الدغل، فتنفصل عن غصن عالٍ قطعة كبيرة من الثلج وتسقط على الأرض. - حبيبي! بنيّ!

يشحب أثر زلاجة يوسف- طمر الثلج أجزاء منه، فصار يظهر تارة، ويختفي تارة. ترى إلى أين تتجه الآن؟

- يوسف!

زليخة تطير إلى الأمام، وترتفع من تحت زلاجتها غيمة من الثلج.

- يوسف!

قمم أشجار السرو التي بلون الحبر تتمايل تحت قبة السماء، وتظهر ملتمعة بينها النجوم كشرارات ضخمة.

- يوسف!

الغابة تظل صامتة.

هذا هو عقابها، - على حياة غير شريفة ومن دون زواج مع رجل من غير دينها، هو قاتل زوجها، وتفضيلها له على دينها، وزوجها، وابنها. لقد كانت أوبيريخا على حق- السماء عاقبت زليخة.

راحت تغوص بين أكوام الثلج، وتشق طريقها بين الشجيرات التي تجمدت أغصانها، وتزحف بين جذوع أشجار البتولا الساقطة على الأرض، المغطاة بطبقة رقيقة من الجليد، تهيم في دغل من أشجار السرو، لا تعرف أي طريق تسلك. وفجأة تصطدم قدمها بقرمة شجرة، فتطير زليخة متدحرجة من فوق تلة حادة الانحدار، جارفة في سقوطها الثلج، وقد انكسرت زلاجتها. برد صلب، شائك يلطم وجهها، ويعمي عينيها، ويسد أذنيها وفمها. تمسح الثلج بيديها، وتخرج بعد جهد من قلب كومة الثلج، فترى أمامها قطعة من زلاجة محطمة، ليس زلاجتها، بل من زلاجة ابنها.

- يوسو-و-وف!

هي لم تعد تصرخ، إنها تعوي. وفي الأمام يعوي بعضهم جواباً لعوائها. تمشي والثلج يغمرها حتى الخصر، وهي تتعثر بالشجيرات الواطئة وحطام الزلاجة، فتصل إلى فسحة صغيرة تحاصرها الأشجار من كل الجهات.

هناك في حلقة ضيقة غير منتظمة تحيط بشجرة سرو عجوز عالية، ذات ذؤابة محنية، يجلس سرب رمادي من ذوات الأنوف الحادة، ينظر بثبات إلى أعلى. إنه

سرب ذئاب- تعاني جوع الشتاء، ضلوعها وظهورها منتصب شعرها كالريشة، - ترى زليخة، فتتلفت بسحناتها وتهرّ، لكنها لا تغادر أماكنها. أحدهم قفز عالياً فجأة، وكأن أحدهم قذفه، وينقضّ بأسنانه على الذؤابة الحادة لشجرة السرو، حيث تلوح نقطة داكنة صغيرة لا تتحرك.

زليخة تمشي إلى الذئاب بخطوات منتظمة كأنها آلية، وهي تلقم البندقية. بعض الذئاب ينهض ويتحرك ببطء نحوها: شفاه الذئاب ترتجف، وأشداقها تتهيأ، وهي تلوح بذيولها، وتطوقها. أحدها وهو ذو عينين صفراوين شفافتين وأذن مشرومة، ينفصل عن المجموع ويقفز أولاً.

تطلق النار، ثم تطلق، ثم تطلق. تلقم البندقية بسرعة، كما تتنفس: تطلق أيضاً، وأيضاً. تضع المخزن الثاني في البندقية وتطلق، وتطلق.

نباح، وزعيق حاد، وعواء حزين، وشخير، وذئب يحاول الفرار والاختباء في الغابة- هي لا تتركه يفعل ذلك. ذئب آخر يزحف مكسور الظهر، قوائمه ترتجف- تطلق عليه النار عن كثب، تقتله. نفدت الطلقات كلها عن آخرها. وحول أشجار السرو، على الثلج اللامع المسود بسبب الدم، تتمدد نصف دستة من جثث الذئاب تفوح منها رائحة البارود واللحم المحترق، والفرو المترمد، ويتصاعد الدخان من أحشائها المنفلشة. الهدوء يسود، وزليخة تجوس بين الجثث الهامدة، ماشية إلى شجرة السرو المعوجة.

- يوسف! حبيبي!- تقول بصوت رفيع.

يسقط من الأعلى جسم صغير، - وجه ساكن كوجوه الدمى، بحواجب ورموش تغطيها طبقة من الجليد الرقيق، وعينين مغمضتين بشدة، - مباشرة بين ذراعيها الممدودين...

أربعة أيام ويوسف يهذي، وحرارته مرتفعة. وزليخة جاثية على ركبتيها أمام سريره طول هذا الوقت، ممسكة بيده المتوهجة بالحرارة.

كانت تنام وهي في هذه الوضعية مسندة رأسها إلى كتفه.

ليبييه حاول أن يجرها لتنام على السرير المجاور، لكنه لم ينجح، فنفض يده من هذا الأمر، واكتفى بإسدال الستارة التي تفصل مكان يوسف عن بقية القاعة (قرر ألّا يرسلهما إلى البيت، بل يتركهما هنا في المستشفى ليبقيا دائماً تحت بصره).

أشكينازي كان يجلب لهما الطعام بنفسه، ينظر إلى زليخة الجاثية دون حركة إلى جانب سرير ابنها، ثم يضع بحذر طبق الطعام على حافة النافذة، ويأخذ طبق البارحة الباقي على حاله دون أن تمتد إلى الطعام فيه يد.

ترددت عليها إيزابيلا، التي كانت تدلك طويلاً، وبشدة، ظهرها- زليخة لم تكن تلاحظ ذلك. وزارها مرتين قسطنطين أرنولدوفيتش وحاول أن يحادثها: حكى لها شيئاً عن بذور البطيخ الأصفر الذي أرسلوه له، رغم كل شيء، من الأرض الكبيرة، وعن الأدوات الزراعية التي ستصل قريباً، وعن الثيران والأبقار التي وعدوا بإرسالها من أجل فلاحة الأرض («سأتعلم الفلاحة. تصوري فقط مظهري خلف المحراث يا زليخة!») - لكن محاولاته التحادث أخفقت.

إيكونيكوف زارها مرة واحدة، جثا إلى جانبها على ركبتيه، مدّ كفّه الراعشة الملطخة بالألوان إلى كتف يوسف. زليخة أزاحت يده واندفعت نحو ابنها تغطيه بجسدها. «لن أعطيه!- تجأر. - لن أعطيه لأحد!» ليبييه أخذ إيكونيكوف جانباً، ولم يسمح له بعد ذلك بدخول المشفى.

إيغناتوف كان يأتي كل يوم. زليخة كانت تتجاهله- وكأنها لم تكن تراه، وكانت لا تستمع إليه حين يكلمها. كان يقف طويلاً خلفها، ثم يغادر. في اليوم الرابع حين

صار جسد يوسف الصغير المتوهج، يبرد فجأة وينضح عرقاً غزيراً لزجاً، وصار فمه يزرقّ ببطء، لم يغادر إيغناتوف، بل جلس على السرير المجاور، ووضع عكازه إلى جانبه، ووجهه بين كفيه وجمد- إما أنه أغفى، وإما أنه كان غارقاً في أفكاره. جلس طويلاً.

- اذهب يا إيفان- تقول زليخة بهدوء فجأة، من دون أن تحيد ببصرها عن سرير ابنها. - أنا لن آتي إليك مجدداً.

- وإذن سآتي أنا، - قال وهو يرفع رأسه.

- أنا معاقبة. ألا ترى؟- تمسّد العظمتين البارزتين فوق خدي يوسف، وجفونه المغمضة.

- من عاقبك؟

تقترب من إيغناتوف، تضع العكاز بين يديه، ثم تشدّه محاولة إنهاضه عن السرير- يطاوعها وينهض. زليخة كانت قصيرة لا تبلغ كتفه حتى قبل أن ينهض، أما الآن فبدت ضئيلة الحجم تماماً وكأنها انكمشت على ذاتها.

- ليس مهماً من يكون، - أنا معاقبة، - قالت له وهي تدفعه بيديها الضعيفتين. - وهذا كل شيء. كل شيء.

ينحني إيغناتوف، يضغط كتفيها، يهزها- يبحث عن نظرتها، وأخيراً يجدها: عينا زليخة جامدتين، وكأنهما ميتتان. يفلتها من بين ذراعيه بحذر، يأخذ العكاز، ويمضي نحو المخرج مطقطقاً بعكازه.

حين تغيب الطرقات وراء الباب، تلتفت نحو ابنها: يوسف يجلس في السرير، شاحباً، جلد وجهه مشدود، عيناه كبيرتان تحيط بهما دوائر زرقاء غامقة.

- ماما، - يقول بصوت خافت رتيب. - لقد رأيت أحلاماً، أحلاماً كثيرة، كل ما رسمه إيليا بتروفيتش، - ولينينغراد، وباريس، أتعتقدين أني سأستطيع السفر إلى

هناك في يوم من الأيام؟

تسند زليخة ظهرها إلى الجدار، تنظر إلى ابنها بثبات، أما هو فينظر عبر النافذة- هناك كانت ندف الثلج الكبيرة تهطل دون توقف.

الجزء الرابع

العودة

الحرب

جاءت الحرب إلى سيمروك ترديداً لصدى صوت بعيد. قالوا إنها موجودة، لكنها هنا غير موجودة. الجرائد التي صاروا فجأة، يوصلونها بانتظام (رزمة واحدة كبيرة سميكة في الشهر)، تغص بالعناوين المتفجرة: «سنسحقهم...»، «سنحطمهم...»، «سننتصر...». كانت صفحات الجرائد تتناقص، لكن الجرائد نفسها كانت تزداد غضباً، وحدة، واندفاعاً. هم يعلقونها الآن على لوحة الإعلانات فيقف السيمروكيون هناك في الأماسي، يقربون رؤوسهم منها ويقرؤون، ثم يلتفتون إلى أنغارا، يتأملون النوارس الحائمة في السماء الصافية، ويتبادلون الأحاديث بصوت منخفض. لقد كان غريباً أن يعي المرء أن ما يحوم في مكان بعيد من السماء ليس الطير، بل الطائرات المعادية.

الرئاسة التي في المركز- زينوفيا كوزنيتس الذي رُفّع منذ فترة قريبة، إلى رتبة ضابط في أمن الدولة، كان في أثناء زياراته النادرة، يعقد اجتماعات يتحدث فيها عن الجبهات التي يخوض فيها الجيش الأحمر المعارك بشجاعة، وعن النجاحات التي حققها. وكان الناس يسمعونه في صمت. فقد كان من الصعب تصديق ما يقول، ولكن عدم تصديق ذلك كان مستحيلاً.

في الأشهر الأولى من الحرب لم يغادر سيمروك أحد من سكانها. كانت القوميندانيات في البلدات العمالية تعدّ قوائم بأسماء الذين بلغوا سن السوق للخدمة، لكن الأمر كان يقتصر على إعداد القوائم فقط.

أما المهجّرون فلم يكن يسمح لهم باقتناء السلاح، وإذن، فهم ممنوعون من الخدمة في الجيش طبعاً، حيث يتضاعف خطرهم مرات عديدة نتيجة تجمعهم وتنظيمهم. إن مسألة استدعائهم للخدمة العسكرية لم تطرح حتى في العام

واحد وأربعين- فقد كان واضحاً أن أعداء الشعب هؤلاء، إذا وصلوا إلى الجبهة سيفرون فوراً، ويلتحقون بالفاشيين، ويبدؤون القتال ضد وطنهم.

هكذا جرت الحرب، لكنها جرت بعيداً، في مكان آخر.

وفجأة فعلت الحرب ما كانت الدولة تخشاه كثيراً ولا تريده: رفعت الستارة الثقيلة التي كانت تفصل سيمروك عن بقية العالم.

فبعد أعوام طويلة من الحياة في جزيرة صغيرة جداً في أعماق التايغا، والعيش محرومين من التواصل مع الأرض الكبيرة، واقتصار حياتهم على تنفيذ الخطة الإنتاجية، أدرك المهجّرون فجأة أنهم جزء من بلاد عملاقة كثيرة السكان. وصارت تتردد أسماء مدن بعيدة- مينسك، بريست، فيلنوس، ريغا، كييف، فينّيتسا، لفوف، فيتيبسك، كيشنيوف، نوفغورود- وترن من فوق الخشبة الواطئة للمسرح في نادي سيمروك أغانٍ، تطير من صفحات كتب الجغرافيا في المدرسة، ومن الحكايات التي سمعوها في طفولتهم البعيدة. لقد أخافهم أن هذه المدن كلها سقطت في أيدي العدو، لكنهم شعروا في الوقت نفسه بعذوبة كون هذه المدن موجودة. إن واقعة نطق شفاه زينوفيا كوزنيتس السمينة بأسمائها، تؤكد أن هذه المدن موجودة طول الوقت وأنها كبرت، وتنظمت، واكتست بالخضرة، وازدهرت، وعاشت. إن شفاه كوزنيتس لم تكن تلفظ من قبل غير كلمات- الخطة، الخطة الخمسية، مؤشرات الإنتاج، المعدل، جبهة الإنتاج... أما الآن فهي تلفظ- كيرتش، ألوبكا، جانكوي، باختشيساراي، يفباتوري، أوديسا، سيمفيروبل، يالطا...

- لقد كدت أنسى أن في العالم مكاناً اسمه باختشيساراي، - يهمس قسطنطين أرنولدوفيتش في أذن إيكونيكوف.

- أستطيع أن أرسم لك نافورة الدموع هذه من الذاكرة- لقد عشت هناك شهرين أدرس جريان ماء النافورة على المرمر- أجابه الأخير.

- «جريان»- كلمة خطأ يا إيليا بتروفيتش، لا وجود لها.

- كيف لا وجود لها، وأنا التقطت «ذلك الجريان»؟

هم سمعوا بحصار لينينغراد من كوزنيتس، بعد شهر من حدوثه. فلم يقل بعضهم لبعضهم شيئاً- لم يكن لديهم ما يقال.

في ربيع عام اثنين وأربعين زارهم كوزنيتس فجأة كما هي عادته دائماً- هبط كالثلج على رؤوسهم، وقد اصطحب معه بارجة تغص بأناس مرهقين، بشرتهم زيتونية غامقة، وخدودهم بارزة- إنهم من أهالي القرم اليونانيين والتتار، هاك، استلم، يا إيفان سيرغييفيتش، مصيبة نزلت على رأسك. اتخذ الإجراءات الأمنية اللازمة- فهؤلاء، على كل حال، عناصر خطرة اجتماعياً، عددهم كبير، وهم من نوعية ممتازة. قال ذلك وضحك.

لقد هجّروا هؤلاء الكفرة من المناطق الجنوبية سلفاً، لم ينتظروا حتى يشغل المحتلون المنطقة وتتاح لهذه الشعوب والعشائر الصغيرة إمكانية الانتقال إلى صف العدوّ، - هجّروهم تجنباً «لحدوث ذلك» كما يقال.

طيّب، يونانيون- فليكونوا يونانيين. وليكونوا أسكيمو أو بابواساً، فإيغناتوف معتاد على ذلك. لقد عدّ، من باب الفضول، قوميات أهالي سيمروك، فوجد أن عددها تسع عشرة. وإذن، ستضاف إليها الآن قوميتان. أرسلوا سمر البشرة إلى البرّاكات الخالية كي يضعوا متاعهم، ثم اقتادوهم إلى التايغا، حيث ما زال أمام انتهاء الدوام نصف يوم من العمل. أوكل إيغناتوف شؤون هؤلاء إلى غوريلوف، فهو يتقن جيداً ترويض القادمين الجدد.

أما هما فجلسا في القومينداتية- ليقوما بالطقس المعتاد.

في الفترة الأخيرة لم يعد إيغناتوف يشرب كثيراً، لكن، من غير المقبول ألّا يشرب مع كوزنيتس، لأن ذلك سيعني أنه لا يحترم الرئاسة.

- عندي ما أريد قوله لك يا فانيا، - قال كوزنيتس وهو يصب الكحول الذي فاحت رائحته في كأسين مضلعين زجاجهما عكر.

إيغناتوف يزيح بكفه الفتات عن الطاولة، ويضع عليها ما تبقى من عشاء البارحة- خيار، وجزر، وبصل، وبقدونس وغيره من المنكهات الخضراء، وخبز، ويسدل الستائر على النوافذ. لكن كوزنيتس لم يستعجل طرق الموضوع، راح يدور حوله دورة واسعة: شرب في البداية نخب الانتصار القادم على الفاشية، ثم نخب الرفيق ستالين، فنخب شجاعة الجيش الأحمر، ونخب الجبهة الداخلية الباسلة «الجبهة الداخلية الجيدة، هي، يا يمامتي، نصف الانتصار!»

- ما الموضوع الذي تريد أن تبحثه معي يا زينا؟- يتذكر إيغناتوف ذلك حين بدأ رأسه يثقل كالمعتاد، ممتلئاً بأفكار كبيرة لا تتزحزح، ويخف جسده حتى يكاد يطير.

- آ- آ- آ-... - يبتسم كوزنيتس ويضع كفه البنية القوية على غرة إيغناتوف، ويشده إليه. - أنت لم تنسَ...

يلتقي جبيناهما فوق الطاولة ويتلامسان.

- ها أنذا أنظر إليك يا فانيا، - يصوب نحو إيغناتوف عيناً حمراء عكرة، - ولا تشبع عيني.

وجه كوزنيتس- قريب، وتظهر المسام العميقة واضحة على أنفه ذي العروق الزرقاء البارزة.

- كل ما عندك جيد. ثمانمئة نفس في قبضتك. أنت تنفذ الخطة دائماً. الكولخوز عندك يعمل وكذلك الجمعيات. خيار... - يأخذ عن الطاولة قطعة خيار كبيرة، -... حتى هذه هي الأطيب مذاقاً على شاطئ أنغارا. أنا أعرف!- يدس كوزنيتس قطعة الخيار في كومة الملح التي على الطاولة، ويقضمها بصوت

مسموع- يتطاير منها رذاذ يصيب إيغناتوف. - لقد كففت عن الشرب. لماذا كففت عن الشرب يا إيفان؟

لم يكن كوزنيتس يخجل من إظهار أنه يعرف عن حياة البلدة وقومياندانها أكثر مما يخبره به إيغناتوف.

- لقد شربت كفايتي، - أجابه وهو يمسح الرذاذ عن خديه.

- ولم تختر لنفسك امرأة، - يبتسم كوزنيتس بدهاء، وهو يهز الخيارة التي قضم جزءاً منها. - أنت تعيش عازباً منذ أن طردت غلاشكا.

لقد عرف كوزنيتس بلقاءاته القصيرة المنسية منذ حين، بحمراء الشعر أغلايا، ولكنه لم يعرف على ما يبدو بالحب الذي نشأ وانتهى بينه وبين زليخة.

الكف الثقيلة ما زالت تضغط عنق إيغناتوف.

- وهل هذا من اختصاصك؟ العلاقة بالنساء؟

- إيخ، لا!- كوزنيتس يقضم الخيارة بتلذذ، يأكلها، ويلصق عقبها على جبين إيغناتوف. - أنا أتكلم عليك يا بطل! لقد آن الأوان لترقية صف الضابط إلى ضابط، إلى ضابط مبتدئ في البداية.

إيغناتوف ينزع عقب الخيارة عن جبينه ويرميه بعيداً. ينظر مستغرباً إلى شعر حاجبي كوزنيتس الكثين، اللذين تكبر في تجعيدة عميقة بينهما نقطة عرق ثقيلة، إذ لم يسبق أن كلّمه كوزنيتس على الترفيع.

- هنا في الغابة الأمر سيان، سواء أكنت صف ضابط أم كنت ضابطاً...

- هل قررت أن تبقى هنا إلى الأبد؟- كوزنيتس يضحك ضحكة قصيرة تنم على دهاء، ويضيق عينيه الحادتين. - لقد كنت من قبل تريد الرحيل وألححت علي في طلب ذلك إلحاحاً كاد يخنقني.

- أردت ذلك.

- الشأن شأنك يا فتى. واعلم أنه من غير الجيد لمن سيصبح بعد دقائق مقدماً في أمن الدولة أن يتعفن في مرتبة قومميندانت. ها؟- كوزنيتس يطبق كفه على نقرة إيفناتوف. - لقد ملأت طلب ترقيتك: سجل نظيف، لا عيب فيه طول أعوام خدمتك، وإخلاص لمثل الوطن العليا. لكني لم أرسل هذا الطلب بعد.

- أنا لا أفهمك يا زينا. أنت غامض.

- وما الذي تريد أن تفهمه؟- يلعق كوزنيتس شفتيه- وللحظة يلوح لسانه الرمادي الداكن الذي تكسوه حبيبات بيضاء- إنها الحرب. الزمن الآن يا فانيا، زمن سريع، مضطرب، سرعته تصمّ الآذان. الرؤوس تطير. والنجوم تطير- حرير أحمر في إطار فضي- أساور تطوق أكمام سترات الأذكياء.

- أنت، لم ينقض أكثر من شهرين على... - إيغناتوف ينظر بطرف عينه إلى سترة كوزنيتس الرسمية المعلقة بعناية على ظهر الكرسي التي تلتمع على كميها شريطة حمراء عقيقية جديدة، تشير إلى ترفيعه لرتبة أعلى منذ فترة قريبة.

- أنا أحدثك عن الأمر نفسه يا يمامتي. كل شيء ممكن في هذا الزمن أتفهم؟! كل شيء! يمكن أن ترقّى في نصف عام إلى رتبة ملازم أول، وبعد عام- إلى رتبة نقيب. ما نحتاجه، أنا وأنت، هو فقط قضية لها ضجة، لها رنين... هل سمعت عن التمرد في قوميندانية بارغيبسكايا؟ عن اغتيال القوميندانت في ستاريا كليوكفا؟ لقد اعتقلوا نحو مئة من التآمرين. هذا ما نحتاجه نحن: المزيد من الناس مثيري المشاكل...

- عن أية تمردات، أو محاولات فرار، يا مجنون؟! إن من فر منذ زمن، يعود الآن من الأرض الكبيرة إلى البلدات العمالية مبتعداً عن الحرب، وعن الجيش.

- صدقت يا فانيا! الجميع يخافون من الفاشيين. لكن بعضهم ينتظر. ويحضّر للمحتلين استقبالاً حاراً مع الخبز والملح. نحن سنجد هؤلاء عندك في البلدة، فتكشف المؤامرة، ونقتل منظميها رمياً بالرصاص بحسب قوانين زمن الحرب، أما المتعاطفون معهم فسنرسلهم إلى المعسكرات وستعرف سيبيريا كلها بالأمر. ذلك سيكون للمهجّرين درساً يتعلمون منه «تجنب الوقوع في الخطأ»، وللقوميندانات الأخرين مثالاً يحتذى. أما أنا وأنت... - يدس كوزنيتس ظفره الرمادي الغامق تحت تفاحة عنقه، -... فتح ثقوب في الياقة لتعليق شارات الترفيع.

كان يتنفس بعمق، وحرارة، والعرق يسيل في جدولين لامعين من جبينه إلى جناحي أنفه، ثم يغوص في شعر شاربيه القاسي.

- أنت جننت يا زينا، تثرثر... وعيناك أعماهما السكر.

- لن يحقق أحد في الأمر. أنا سآخذ الأمر على مسؤوليتي. - كفه الممسكة بعنق إيغناتوف لم تعد كفاً، بل كماشة حديدية يبللها العرق. - أنت ستعدّ قوائم المشبوهين. ضع فيها كل من ضجرت منه، كلّ من يعيق عملك، ضع فيها هؤلاء الكلاب. أنا لن أتدخل، حتى لو وضعت غوريلوف، أنا أعرف الحب الذي بينكما. سنتخلص من الجميع، لا تقلق. القضية ستكون نظيفة تماماً، كريستالية. وسيكتبون عني وعنك حتى في الكتب المدرسية.

- مهلاً، هل تعني بذلك الناس في بلدتي؟

- ومن غيرهم يا فانيوشا؟- عينا كوزنيتس السوداوان المحاطتان بشبكة من العروق الحمراء، تلتمعان بلون أصفر- أنا لست فوجاً من النساء، ولا أستطيع أن ألد لك مئة متآمر. أما أنت، فعندك أناس كثيرون، ولن تصاب بالفقر. إذا كنت لا

تريد التخلي عن القدماء- خذ من الجدد، من الكفرة. إنهم لن يعيشوا هنا على كل حال، سيموتون في الشتاء.

يخفض إيغناتوف بصره ناظراً إلى شفتي كوزنيتس العريضتين المبللتين.

- ماذا تقول؟ تلفظ الشفتان.

- ارفع يدك- أنت تكاد تكسر رقبتي.

اليد المبللة الساخنة تترك الرقبة.

- ماذا تقول؟ تكرر الشفتان السؤال.

يأخذ إيغناتوف الزجاجة، يصب بقايا الكحول في الكأسين الفارغين، يغلق الزجاجة بالسدادة المعدنية ببطء فتصدر صريراً، ثم يضعها على الطاولة.

- أنا لم أتصور، - يقول، - أيها الرفيق الملازم، أنك ستمتحنني، أنا، من كان في الجيش الأحمر. كنت أظن أنك تثق بي انطلاقاً من صداقتنا القديمة.

- مهلاً يا إيفان! أنا أقول لك الحقيقة، أتسمعني؟ أنا فكرت بكل شيء، وحسبت حساباً لكل شيء. سننهي العمل كله في شهر، وبحلول الصيف سيكون كل منا قد حصل على الرتبة الجديدة. هيه، ما رأيك؟!

- هل تمثل هذه المسرحية مع القومينداناتكلهم، أم مع المختارين منهم؟

- لا تكن غبياً يا إيغناتوف! أنا أعاملك بإنسانية وأنت...

- يمكنك أن تبلغهم أن الوضع السياسي هادئ في بلدة سيمروك العمالية. وأن قومينداناتها، كما اتضح، صلب أخلاقياً، ولم يستجب للإغراءات.

يرفع إيغناتوف الكأس ببطء، ويسكبه في حلقه دون أن يقرعه بكأس كوزنيتس، ثم يمسح شفتيه ويجففهما تماماً. أما كوزنيتس فيتنفس بصعوبة، ويشخر

شخيراً متقطعاً. يصب الكحول من كأسه في حلقه ويقضم بصلة، ينهض وهو يواصل المضغ، يرتدي سترته ويقفل حزامه، وينكّس قبعته على جبينه.

- طيب، - يقول، - أيها القوميندانت. سأبلغهم ذلك، لكن، تذكّر، إن فكّرت بالتلاعب، أنك في قبضتي!

يحرك قبضته الضخمة المبللة الحمراء نحو أنف إيغناتوف: عظام بيضاء ضخمة، تغطيها العقد، يبصق بقايا البصلة على الأرض ويغادر.

كلمات كوزنيتس تحققت. المجموعة الجديدة التي جيء بها كانت ضعيفة صحياً. الدم الجنوبي الحار لم يتحمل صقيع سيبيريا- ففي بدايات البرد أصيب الكثيرون بالتهاب الرئة، ومشفى وولف كارلوفبتش، الذي جرى توسيعه قبل ذلك ليتسع إلى عشرين سريراً، لم يستطع أن يستوعب نصف المحتاجين للعلاج. لقد بذل ليبييه كل طاقته لكنه لم يتمكن من إنقاذ الجميع- واستقبلت مقبرة سيمروك في الشتاء خمسين قبراً جديداً.

الكفرة المتشابهون بسمرة البشرة، وكثافة الحاجبين، والشعر الأجعد، دفنوا أقاربهم بأشكال مختلفة: اليونانيون صنعوا من الأغصان الرفيعة صلباناً خشبية، والتتار- أهلة على قطع خشبية طويلة. وقد وضعت الصلبان والأهلة في المقبرة جنباً إلى جنب في صفوف متلاصقة متعرجة بين شواهد قبور أخرى.

وظهرت في «البرافدا» مقالة كبيرة حول المؤامرات الفاشية التي تم اكتشافها في البلدة العمالية- بيت- غورودوك في أنغارا. ونتيجة لهذه القضية الصاخبة تم تحطيم الهيكل العظمي للمتآمرين، بإعدامهم وعددهم عشرون شخصاً، أما عصابة المشاركين فحكم على كل فرد فيها بالشغل خمسة وعشرين عاماً في المعتقل بتهمة قيامه بنشاط معاد للسلطة السوفيتيية.

في الحادي عشر من نيسان عام اثنين وأربعين اتخذت لجنة الدولة للدفاع في الاتحاد السوفييتي، قراراً باستدعاء أبناء البلدات العمالية للخدمة العسكرية. وقد استدعي بموجب هذا القرار ستون ألفاً من الكولاك السابقين وأبناؤهم للالتحاق بالجيش الأحمر- فقد سمح لهم أخيراً أن يشاركوا في الدفاع عن الوطن. وقد رفعت أسماء الجنود الجدد في الجيش الأحمر، وأسماء عائلاتهم من قوائم المنفيين للعمل، ومنحوا جوازات سفر غير محددة الصلاحية. وهكذا انساب جدول صغير من البلدات العمالية إلى أرض الوطن الكبير، جدول قوامه المحررون من «المنفى الكولاكي».

في الصيف ظهر على لوحة الدعاية والتوجيه إعلان لافت جداً: امرأة بشعر نصف أشيب وملابس حمراء نارية تنهض بين مجموعة من الحراب، تنادي، وتدعو إلى الحرب بيد ممدودة، الشباب وكبار السن، وحتى المراهقين، وكل من يستطيع حمل السلاح. تدعوهم إلى الموت.

زليخة كانت في كل مرة بالقرب من هذا الإعلان، تجيب على نداء المرأة بنظرة عنيدة طويلة: لن أعطيك ابني.

المرأة كانت تشبه زليخة، حتى الشيب في شعرها المفرود كان كالشيب في شعر زليخة- خصلات بارزة- وهذا كان يربك زليخة، إذ تبدو وكأنها تحادث نفسها.

أجداد زليخة حاربوا قروناً في القوات الذهبية. وليس من الواضح كم ستطول الحرب مع ألمانيا، ويوسف سيبلغ الثانية عشرة قريباً. لقد أخبرتها إيزابيلا أنهم قد يسوقون إلى الجيش كل من يبلغ الثامنة عشرة، ويوسف سيبلغها بعد سنوات لا يتجاوز عددها أصابع اليد. ترى هل ستنتهي الحرب قبل ذلك؟

لقد طالت قامة يوسف كثيراً في العام الماضي. صار أطول من زليخة. اشتغل بائع خبز في مخزن أحد المخابز. إن الذين يصنعون خبزهم في البيوت باتوا قلة،

لذا كان الناس يصطفون في طابور أمام المخبز. زليخة كانت تحب أن تراقب ابنها وهو يقف وراء طاولة البيع العالية، ترن في يده القطع النقدية الصفراء. وهو يحاسب المشترين بسرعة كأنه يلعب. لم يكن يستخدم المحساب- بل يعتمد على الحساب الذهني دائماً. المخزن كان يبدأ العمل بعد الظهر، حين تعود النوبة الأولى من العاملين في الغابة (لقد فرضوا في البلدة من جديد نظام النوبتين-«لرفع إنتاجية العمل»). - ويكون دوام يوسف في المدرسة قد انتهى.

دراسة يوسف كانت جيدة، وكانوا في المدرسة يمدحونه، ونظراً لنجاحاته قبلوه عضواً في منظمة الطلائع، ومنذ ذلك الوقت ظلت تلتمع دائماً على صدره عقدة الفولار الأحمر النارية. كان يقوم بأعمال المنزل كالكبار- يقطع الحطب، ويصلح السور والسطح. وظل كالسابق يستغل كل إمكانية للحصول على وقت فراغ يذهب فيه إلى إيكونيكوف في النادي.

في الأعوام الأخيرة تراجعت حال إيكونيكوف بشدة- صار بديناً يكثر من الشراب. لقد تعلم المهجّرون كيف يصنعون السماغون ليس فقط من الكرز البري، بل أيضاً من شتى أنواع الثمار البرية حتى الحامضة منها، وكان إيكونيكوف واحداً من أشد الناس حباً لهذا النوع من السماغون. ظل إيليا بتروفيتش في النادي، وفي جمعية الرسامين المحترفين المكونة منه وحده. وبمساعدته صارت سيمروك تصدر إلى كراسنويارسك، إلى جانب الأخشاب، والفراء، والخضار، بضاعة متميزة، هي لوحات مرسومة بالألوان الزيتية، ومن نوعية متميزة جداً. حطابون متوردو الخدود، حاصدات قمح بارزات النهود، وطلائعيون شبعون، مستديرو الخدود، يمشون بعنفوان، أو يقفون يتفكرون، وأبصارهم تتأمل الأفق الخالي من الغيوم- كانت اللوحات تضم طلائعياً واحداً، أو اثنين، أو مجموعة كاملة- وكانت قصور الثقافة الريفية، حتى التي في المدينة، تشتري برغبة تلك اللوحات.

يوسف كان ينوي الانتساب إلى الجمعية حين يبلغ السادسة عشرة، أما الآن، فكان يمارس الرسم الحرّ. وكانت زليخة تخاف من تأثير إيكونيكوف السيئ على ابنها فيجعله يعتاد شرب السماغون. «أنا أقوى لقاح من بين كل اللقاحات المضادة للإدمان على الكحول»، قال لها إيليا بتروفيتش يطمئنها، حين لاحظ ذات يوم نظرتها الحذرة. وقد كان، على الأرجح، محقاً في كلامه.

ظلت زليخة، كما في السابق، تغار على يوسف من إيكونيكوف، غير أن هذه الغيرة خفّت بمرور الأعوام وانكمشت. لقد كان إيليا بتروفيتش الرجل الوحيد الذي ينظر إلى يوسف نظرة الأب، بعينين محبتين ممتلئتين اعتزازاً، وهذا ما جعلها تغفر حتى أنفاسه المشبعة برائحة السكر.

علاقة الابن بالدكتور ساءت، بل انعدمت: كان يوسف يعيش مع الدكتور ليبييه في بيت واحد، لكن في مستويين متوازيين لا يتقاطعان أبداً. أحدهما ما يكاد يفرك عينيه، ويشرب في الإفطار كأساً شاي الأعشاب، حتى ينسل من الباب الداخلي إلى المشفى- ولا يعود إلا بعد منتصف الليل لينام. والثاني لا يرى شيئاً أو أحداً حوله، يجمع في راحته فراشي الرسم التي صنعها بنفسه، ويسرع إلى النادي ثم إلى المدرسة، وبعد ذلك- إلى المخزن. وهكذا لم يكن لديهما وقت للالتقاء والتحدث في أي موضوع.

لقد انكشف سبب هذا الافتراق فيما بعد. فقد أبلغ ليبييه زليخة أنه تحدث ذات مرة مع يوسف جدياً- حديث الكبار- اقترح عليه أن يساعده في المشفى، وأن يتعرف على الطب، ووعده أن يتعلم الأسس في خلال عامين، وأن يعرف في خمس سنوات كل ما يعرفه خريجو كليات الطب. استمع يوسف إليه باهتمام، ثم شكره باحترام، ورفض اقتراحه، لأنه أراد أن يشتغل، حين يكبر، في مجال الرسم.

آلم هذا الرفض العاقل تماماً، والمعلل، وولف كارلوفيتش، لكنه لم يبد شيئاً من ذلك.

وذات مرة شكت زليخة لإيزابيلا أن ابنها الذي عاش اثني عشر عاماً في بيت واحد مع رجل محترم وذكي جداً مثل الدكتور، من دون أن يكتسب شيئاً: لا صفاته الشخصية، ولا نبل تصرفاته وسلوكه، ولا المهنة التي عرض عليه بسخاء أن يعلمه إياها. لقد كان يوسف وليبييه شخصين مختلفين، غير متشابهين، كل منهما غريب عن الآخر. «لا تقولي هذا يا عزيزتي!- قالت إيزابيلا مبتسمة. - ألم تري عيونهما؟ إن لهما النظرة نفسها- نظرة مشبعة بالعاطفة، بل يمكن القول إنها مسحورة».

كانت زليخة تنام مع يوسف في سرير واحد. وكان الفراش ضيقاً. الأمر الذي جعل نومهما غير مريح، كان يضع ساقيه الطويلتين الخاليتين من الشعر فوق أمه، تارة، ويدليهما إلى أسفل تارة أخرى. لم يكن بمقدوره أن ينام منفرداً، فهو لا يغفو إن لم يدس وجهه في عنقها، وإن لم يلتجئ إلى صدرها.

يبدو أن أحدهم كان يجيئها في المنام أحياناً، فتستيقظ محمومة وضفائرها مفككة لكثرة تقلّبها على الوسادة. وتذكر بشكل غير واضح تلك المنارة البعيدة المضيئة بأشعة حمراء كأنها وهج النار، تارة، وذيل الخيمة السوداء الذي تلوحه الريح تارة أخرى، وتتذكر في تارة ثالثة يدي أحدهم على كتفيها. فتحبس أنفاسها وتفتح عينيها فإذا هما يدا ابنها.

هي لم تستطع أبداً أن تغفر لنفسها تلك الليلة حين هرع يوسف إلى التايغا التي يغطيها الثلج باحثاً عنها. في البداية ظنت أن عقوبتها على فعلتها كانت مرض ابنها وآلام ارتفاع الحرارة والهذيان، وصراعه مع الموت، وانطفاءه البطيء على يديها في المشفى. فيما بعد فهمت أن عقابها الحقيقي بدأ بعد أن شفي يوسف، حيث صارت أفكارها ثقيلة الوطأة، غير مترابطة، ولا نهاية لها. كان ذنبها يبدو لها أحياناً كبيراً جداً وفظيعاً، إلى حد يجعلها تقبل التعذيب، وتتمنى أن تحل بها أي عقوبة حتى لو كانت الأقسى والأفظع.

لكن من الذي سيعاقبها؟ هذا ما لم تكن تعرفه. هنا، على حافة الكون، لا يوجد من يعاقب أو يكافئ: فنظرة العلي القدير لا تصل إلى ضفاف أنغارا، حتى الأرواح لا وجود لها في أدغال الغابات السيبيرية. لقد كان الناس هنا وحيدين تماماً، ينفرد كل منهم برفيقه.

استيقظ يوسف على صرير الباب وراء أمه التي انطلقت إلى التايغا في الفجر، تفلّتت بحذر من يديه وانزلقت تمشي في الغرفة دون ضجة، كانت تخاف أن توقظه وهي تهيئ نفسها للخروج. تظاهر بأنه ما يزال نائماً، فقد كان يريد أن يفعل ما يسرّها. وحين اختفى وقع خطواتها خلف الباب، قفز من السرير، فهو لا يريد أن ينام وحيداً.

... دفع بساقيه اللحاف، ومشى بقدميه الحافيتين إلى الطاولة، حيث تركت له أمه الفطور: قطعة خبز مغلفة بمنديل ورقي، وكأساً من الحليب (لقد جلبوا إلى البلدة نحو عشر عنزات منذ فترة قريبة، ولكن الحليب ظل، كما في السابق طعاماً فاخراً). يشرب الحليب دفعة واحدة، ويدس قطعة الخبز في فمه، يأخذ السترة المعلقة بمسمار على الجدار (السترة خاطتها له أمه من الزي القديم الرسمي للدكتور، ورقّعت بعض الأماكن المهترئة في قماشها الأزرق)، ثم يدس قدميه في حذائه وينطلق إلى الأمام.

الباب يرن منغلقاً خلفه. ويخطر في باله متأخراً أنه قد يكون صوت الباب أيقظ الدكتور! فهو نسي أن يتأكد من أن الدكتور ما زال في فراشه، أو أنه غادر إلى المشفى. حسناً، هذا الأمر ليس كارثة حتى لو أن صوت الباب أيقظه، لأنه لن يشكوه إلى أمه، فهو رجل طيب، مع أنه مضجر إلى حد مستحيل.

تركض قدما يوسف على درجات السلّم، وهو يمضغ قطعة الخبز، ويدفع البوابة بكتفه ثم ينطلق يعدو في الشارع: يجتاز المشفى هابطاً نحو الساحة المركزية حيث تلتمع بإعلانات الدعاية والتوجيه اللوحة الطويلة، ويبيض إلى جانبها

الخشب الطري لصالة القراءة التي افتتحت حديثاً بمحاذاة البيوت الصغيرة المحيطة بها من الجهات الأربع، - ثم في شارع لينين، إلى يمين ضفة النهر- (نما القطاع الخاص في الأعوام الأخيرة في سميروك، وملأت أبنيته كل السهل، بل زحفت إلى سفح التلة مقتطعةً جزءاً لا بأس به من التايغا)، يمضي بمحاذاة الأسوار، فيجتاز المخبز والمخزن، ومستودعات الكولخوز، والمنعطف المؤدي إلى الحقل حيث يسيطر قسطنطين أرنولدوفيتش سيطرة مطلقة، ويزرع إلى جانب القمح بطيخه الأصفر العملاق، - يسير حتى نهاية البلدة حيث يختبئ النادي تحت ظل أشجار السرو.

ليس مطلوباً منه أن يذهب إلى المدرسة- المدرسة الآن في العطلة الصيفية. وهو يستطيع أن يبقى حتى وقت الغداء هنا، عند إيكونيكوف... كل ما يتمناه أن يكون الرجل صاحياً... يوسف لم يكن يحب أن يشرب إيليا بتروفيتش منذ الصباح، لكن إيكونيكوف كان أحياناً يشرب القليل، كي يزداد نشاطاً- وفي هذه الحالة كان الرجل يستقبل تلميذه بفرح، باسطاً كفيه الملطخين بالألوان على اتساعهما، وهو يضحك كثيراً ويروي نكاتٍ طويلة ومعقدة لا يفهمها يوسف. لكن، مع ارتفاع الشمس فوق أنغارا، كانت أنفاس السكر الخفيفة التي تفوح من المعلم، تتحول إلى رائحة حادة لا تطاق، وتفرغ الزجاجة التي في زاوية النادي البعيدة خلف الصناديق والألواح من الشراب، أما إيليا بتروفيتش نفسه فيغدو بحلول وقت الغداء كامد اللون، عبوساً، وسرعان ما يغيب عن الوعي ويغفو في نوم ثقيل في مكانه فوق الصناديق.

الأفضل أن يشرب إيكونيكوف في المساء. حين يكون صاحياً في الصباح، يكون قليل المرح، قليل الكلام، يتنهد كثيراً، يحني ظهره، يحوم حول حامل اللوحات الذي صنعه بنفسه، ويحرّك فراشي الرسم باستمرار في طبق الألوان، لكن يظهر في

عينيه في هذه الأثناء شيء كان يوسف مستعداً لتأمله ساعات، بل لقد أراد ذات يوم أن يرسم أستاذه وهو يعمل، لكن الأستاذ لم يسمح له بذلك.

وقع خطوات على الأرض- يوسف يندفع إلى داخل النادي. إيه! كان عليه أن يقرع الباب أولاً- فالوقت مبكر. ومن المحتمل أن يكون إيليا بتروفيتش نائماً... لكن إيكونيكوف كان يقف مرتدياً قيصاً أبيض، وسترة رمادية غامقة- إما بسبب اتساخها، وإما بفعل الزمن- كل أزرارها مبكّلة، ومنتعلاً حذاء نظيفاً، وفي يده مطرقة صغيرة يدق بها في رتابة مسماراً في الجدار.

- ساعدني، - قال دون أن يلتفت.

يهرع يوسف إليه، يعطيه لوحة كانت على الأرض- إيكونيكوف يعلقها على المسمار الذي دقه.

- هكذا، - يقول وهو يطوف على النادي بنظرة متفحصة، ثم يكرر:- هكذا بالضبط!

لوحات إيكونيكوف التي كانت من قبل تزين جدران النادي الأربعة، جمعت الآن على جدار واحد. مونمارتر ونيفسكي، بريتشيستينكا وشارع لينين في سيمروك، بلاجات فياريدجيو وشواطئ يالطا، والسين، وياوزا، وأنغارا، وحتى أفضل عنزة في خطة الكولخوز الخمسية- كلها معلقة كومة واحدة، متلاصقة تغطي الجدار كله. أما الجدران الثلاثة الأخرى فعارية، تلتمع فيها يتيمةً رؤوس المسامير الخالية.

يوسف ينظر إلى إيليا بتروفيتش سائلاً نفسه: أتراه سكران؟ لا، إنه صاح تماماً.

يأخذ إيكونيكوف عن حافة النافذة رزمة ثخينة من ريش الرسم التي صنعها بنفسه (ريش رفيعة- من عظم السنجاب، ريش أثخن- من عظم الثعلب، الريش الأثخن من عظم الفهد)، يحزمها بحبل ثم يعيدها إلى مكانها فتصدر صوتاً:

- هذه لك فأنا لم أعد بحاجة إليها.

- هل ينفونك؟

- لا، إيكونيكوف يبتسم، فتتجعد تحت عينيه الأكياس المنتفخة، الشبيهة بتفاحات معصورات، وتتجمع في ثنيات كبيرة وصغيرة. - أنا نفسي سأغادر، أتتصور؟ أنا نفسي!

يوسف لا يصدق: المرء لا يستطيع من تلقاء نفسه أن يغادر إلى أي مكان. هذا ما يعرفه الجميع. أ تراه يستطيع؟

- إلى أين؟

يلف إيليا بتروفيتش على رقبته الرفيعة شالاً منسوجاً يدوياً من خيوط الصوف، وقد اهترأت بعض أماكنه حتى شفّت.

- هذا أتركه لما تمليه الأحداث.

- إلى الحرب؟

لا يجيبه إيكونيكوف، يربت على جيبيه بيديه، يخرج مفتاح النادي ويضعه في كفّ يوسف.

- وهذا لم أعد احتاجه أيضاً، - يمسك بكتفي يوسف وينظر في عينيه. - أنا أترك الجمعية في عهدتك.

- لكني ما زلت صغيراً، - يقول يوسف، - لم أبلغ سن الرشد.

- القوميندانت لن يعترض. هو بحاجة إلى مؤشرات إنتاج. والجمعية- وحدة إنتاجية كاملة! هو لا يريد أن يفقدها... حسناً، قم أنت بإدارتها من فضلك.

يسير إيليا بتروفيتش بمحاذاة الجدران، يتلمس برأس إصبعه رؤوس المسامير الملتمعة.

- ما زال هناك الكثير الذي يجب عمله، أليس كذلك؟

يوسف يندفع نحو معلمه، يضمه بين ذراعيه، يدس وجهه في روائح الألوان، والنشادر والقماش المغبّر، وتبغ الماخوركا، وبقايا سكر البارحة.

- ولماذا تغادر؟

يمسّد إيكونيكوف ظهر يوسف.

- لقد حلمت دائماً برؤية البلدان البعيدة. في طفولتي أردت أن أصبح بحاراً وأطوف حول العالم. أتدري؟- عينا إيليا بتروفيتش المزمومتين بدهاء تلتمعان قريباً جداً من وجه يوسف- سأكتب لك من باريس نفسها. اتفقنا؟

يوسف يكره كثيراً أن يحادثه الآخرون كما يحادثون الصغار- يبتعد عنه، يمسح عينيه ويقف صامتاً. يحمل إيكونيكوف صرّة ثخينة عن الأرض، يلقي بها على كتفه، وينطلق الاثنان إلى الضفة.

كان الوقت مبكراً، لكن على الرغم من ذلك اجتمع في وداع إيكونيكوف وفد كامل. جاءت إيزابيلا، بشرتها جفت في الأعوام الأخيرة ونحل جسمها، وبدت ملامح وجهها أكثر بروزاً من خلال بشرتها الجافة التي كأن أحدهم عالجها بدقة وحفّ ما علق بها. وجاء معها قسطنطين أرنولدوفيتش الذي لم يتغير بمرور السنين، لكن جلده ازداد تهدلاً، واكمدّ لون وجهه، وابيض شعره. وترك الدكتور ليبيبيه المشفى لفترة قصيرة. وفي مكان غير بعيد وقف القومينداانت مستنداً إلى عصاه، مستديراً نحو المجموعة نصف استدارة.

الصباح- رمادي، بارد. والريح تسوق فوق أنغارا سحباً رمادية غامقة، وتخترق ثياب المهجّرين. «هل سننطلق، أم لا أيها المواطنون؟- يعيد السؤال بحار يعاني من البرد بلهجة ملولة بعد أن كرره مرات عديدة: هو يقف يغمره الماء حتى ركبتيه، يمسك مقدمة سفينة تشقق طلاؤها، تترجح فوق الأمواج. ساقاه العاريتان ازرقتا بفعل البرد، أما هو فقد ارتدى سترة قطنية يظهر من تحتها

قميص داخلي رقيق. في السفينة يجلس غوريلوف عابساً وقد أدار أنفه الأحمر بعيداً عن الضفة وغطّس أذنيه عميقاً بين كتفيه، وهو يضم كيس متاعه المنتفخ. أغلايا التي عاشت معه حتى الآن ثلاث سنوات، تبعته إلى الضفة مودّعة «أنا الآن زوجة بالنسبة إليك، أليس كذلك؟» لكنه طردها، خشية أن يضعف نهائياً أمام دموع المرأة.

- لقد طلبت من غوريلوف أن يعتني بك قالت إيزابيلا وهي تشد عقد الشال الطويل طولاً لا نهائياً على عنق إيكونيكوف وتدسّ بعناية طرفيه تحت ياقة سترته التي ملّحها العرق.

- أخشى أن اضطر أنا إلى الاعتناء به، - يقول إيليا بتروفيتش وقد بدا عليه النشاط، وحتى المرح. - لقد خاف كثيراً حين تسلم ورقة التبليغ.

- ليس الجميع شجعاناً مثلك. - تنظر إيزابيلا إلى عينيه مباشرة، وتهز رأسها بأسى. - هل تعرف أنت على الأقل- لماذا؟

يبتسم إيكونيكوف ردّاً على سؤالها، ويغمض عينيه كالأطفال. هو الآن في حوالي الخمسين من العمر. وخلافاً لغوريلوف الذي استدعي للخدمة في الجيش بحسب سنّه وجملة مؤشرات أخرى (عدم وجود مخالفات أو عقوبات بحقه طيلة وجوده في المهجر، وتحقيقه نجاحات في العمل، وولاؤه للإدارة، وبلوغه درجة شاملة في إعادة التأهيل)، استدعي إيكونيكوف إلى الجبهة متطوعاً. درسوا قضيته طويلاً، وأعادوا دراستها، ثم أعادوا دراستها، وأخيراً، وافقوا مندهشين.

- طيب... - قسطنطين أرنولدوفيتش يمدّ يده الجافة المغطاة بجبال من العروق المعقدة. - طيب...

- مع من ستتناقش الآن؟- إيليا بتروفيتش يهز اليد الممدودة هزات خفيفة، ثم يسحب يده فجأة ويحضن سوملينسكي.

يربت كل منهما على ظهر صديقه بحذر، بحركة أنثوية، وكأنهما يخافان أن يؤلم أحدهما الآخر. يفترقان بسرعة، ويشيح كل منهما بوجهه مرتبكاً.

- احمِ نفسك، - ليبيبيه يمسك بمرفق إيكونيكوف.

- وداع جيد! صوت القوميندانت حاد ومتوتر. - نظمتم... إيليا بتروفيتش ينبش بسرعة وقوة شعر يوسف ويغمز بعينيه. يلتفت إلى إيغناتوف ويحييه بإحناءة طفيفة من رأسه، ثم يمشي إلى القارب- إنساناً غير متناسق، محني الظهر، متقدماً في السن، متعثر الخطى. يصعد إلى القارب مرتبكاً، قدماه تبللتا، وكاد كيس المتاع أن يسقط من يده. يجلس إلى جانب غوريلوف. يرفع كفه الكبير ملوحاً به لمودعيه (بدا واضحاً كم كان قوياً خروج ذراعيه من كمي سترته). وانفلت الشال عن رقبته وراح يرفرف في محب الريح.

- Mon Dieux، - تقول إيزابيلا، وهي تضغط ذقنها بأصابعها الطويلة. Mon Dieux.

يدفع البحار القارب إلى المياه العميقة، ويقفز إليه. وبعد ثانيتين تقريباً يعطس المحرك ثم يهدر، يتصاعد هديره، وها هو الآن يصيح بكل قوته. السفينة تستدير فتقطع الزبد المتلاطم فوق الموج، وتغادر. قسطنطين أرنولدوفيتش وإيزابيلا، وليبيبيه، يتابعونها بعيونهم. ويوسف يركض على الضفة ملوحاً بيديه. أما إيغناتوف فيغادر المكان من دون أن يلتفت.

الشكل المثلثي للقارب يصغر ويذوب. شيء ما، طويل وفاتح اللون- أتراه الشال؟- ينفصل عن القارب ويطير كنورس فوق الأمواج، ثم يسقط في أنغارا.

- إنهما أول اثنين من سكان بلدتنا يغادران إلى أرض الوطن الكبير، - قسطنطين أرنولدوفيتش يقول ذلك بصوت منخفض مشيحاً بوجهه جانباً وكأنه لا يتوجه بكلامه إلى أحد.

- أتراهما طائرا سنونو مبكران؟- يتساءل ليبيبيه موجهاً كلامه إلى الجهة نفسها.

تجمع إيزابيلا فمها الصغير في ثنيّات، ثم تردّ رأسها الأبيض تماماً إلى الخلف وتغادر الضفة في صمت.

Chapter 40

يوسف وزليخة

في يوم صاف من أيام أيار عام ستة وأربعين، حمل القارب الصغير، الأزرق، السريع، إلى جانب الرسائل والصحف التي ينقلها أسبوعياً إلى سيمروك، ثلاثة ركاب لم يستقبلهم أحد على الضفة، ولم يكن هناك من يدهش لكون أحدهم- عسكرياً متأنقاً، يرتدي بزة مكوية جيداً، وقد تعطر بماء الكولونية بسخاء. إنه فاسيلي غوريلوف بذاته.

هو يقفز من السفينة بحزم وعزم، ويمشي سريعاً بخطوات واسعة فوق ألواح خشب المرفأ التي تنوح ألماً تحت جزمته التي تصر صريراً شديداً وتلمع لمعاناً لا يطاق. وفي يده حقيبة صغيرة من جلد الخنزير تشع جوانبها المصقولة، بين الفينة والأخرى، بضوء ناري- أصفر كأنها احتوت في ذاتها ضوء الشمس كله.

أما الراكبان الآخران فيبدو أنهما كانا جداً وحفيداً، انسلا من المركب مرتبكين، وسارا في مرسى السفن ببطء يتلفتان مستغربين- يتأملان قيعان الزوارق المقلوبة الصقيلة اللامعة في ضوء الشمس، وأعلام شباك الصيادين العريضة التي ترفرف بكسل كلما حركتها الريح، والدرج العريض الصاعد بحدة من الضفة إلى الأعلى، والبيوت المتعددة الألوان المنتشرة فوق التلة العالية.

- أيها الرفيق، - ينادي الجد غوريلوف متهيباً، - نحن نبحث عن طبيب هذه البلدة. هل تعرفه؟

يلتفت غوريلوف نحو الجد، ملقياً عليه نظرة صارمة، كشرطي قبض على فتى مشاكس، ويدمدم: «لقد كثر السكان هنا، أتفهم...»، ثم يبصق من بين أسنانه المطبقة ويتابع السير على الضفة من دون أن يجيب. يتنهد الجد ويمسك يد الحفيد ويتبعه.

الضجة عالية في البلدة، والناس كثيرون- اليوم هو الأحد. في النوافذ المفتوحة على مصاريعها تتنفس الستائر نسيماً طازجاً، والأحواض تبيض بأزهار الياسمين. سرب من الفتيان الصاخبين يتقاذفون الكرة، يلقونها وسط سرب من الإوز الرمادي يسير متهادياً- يفحّ قائد السرب، ويمدّ رقبته الطويلة، يلامس الأرض، ثم يقفز إلى الأمام، لكن زوجاً من الكلاب المشعثة الشعر يندفع في هذه الأثناء من تحت البوابة وهو ينبح نباحاً يصم الآذان، فتفر الإوزات مبتعدة، والجو يعبق برائحة دخان حمام البخار، والأشجار المقلمة حديثاً، والحليب، والرقائق، ومن مكان ما يتناهى إلى السمع صوت آلة تسجيل رقيق تشوبه بحة، ينشد:

سعادتي وجدتها في صداقتنا

كل شيء لك- الحب والأحلام

سعادتي هي فرحة إزهار الربيع

كل هذا هو أنت يا حبيبي، كله أنت!

الجد والطفل يمشيان في البلدة. يتوقفان أحياناً ليسألا عن الطريق- امرأة تمد رأسها من النافذة لتنفض غبار المخدة في الشارع، تارة، وتارة، رجلاً ذا قامة رياضية، يحمل على كتفيه العاريين اللامعين بالعرق، طفلين صغيرين. يصلان أخيراً عند مفترق طرق إلى مبنى كبير لا يتسم بجمال المظهر، مؤلف من ثلاث برّاكات متلاصقة مختلفة: في المركز برّاكة قديمة كمد لونها بفعل الزمن؛ وإلى اليمين براكة فاتحة اللون، أكثر اتساعاً، وإلى اليسار بناء حديث جداً، ذو لون نحاسي أصفر تفوح منه بحدة رائحة الصنوبر البري. «المستشفى»- تقول العبارة المكتوبة بالأخضر في أعلاه.

يطرق الجد الباب متردداً، ثم يدخل دون أن ينتظر جواباً. في الغرفة الواسعة ذات الأرض النظيفة، تشع بهدوء ورقة وجوّ منعش، فوق الأسرة الفارغة، أغطية

بيضاء متماثلة، ويلتمع المعدن الصارم لأدوات مصفوفة بعناية على الطاولة، والنسيم يعبث بسجل كبير سميك ملئت صفحاته بخط ناعم، موضوع على الطاولة إلى جانب الأدوات.

- هل من أحد هنا؟

لا أحد. يدخل الجد، يجول في المكان ببطء، يتبعه الحفيد متعثراً في مشيه. ها هو ذا الفناء الخلفي: بوابة صغيرة، بساط مهترئ، وسرير عريض، جاف إلى درجة المستحيل، غرست فيه بلطة نصلها الصدئ حتى منتصفه، وتلوح على حبلين قطعتا قماش بهت لونهما.

- نهارك سعيد، يفتح العجوز الباب بحذر.

يلتقط صوت حركة فيمشي إلى الداخل محملقاً في ظلمة المكان. امرأة صغيرة الحجم، متقدمة في السن، وجهها شاحب تتخلله تجاعيد رفيعة، وعيناها متعبتان تحت قوسي حاجبيها، ولها ضفيرتان طويلتان سوداوان تتخللهما خصلات شعر بيضاء عريضة- تضع بعض الأشياء في منديل كبير مقلّم مطرّز بشناشيل طويلة.

- مرحباً يا سيدة الدار، - يخلع الجد قبعته التي فقدت شكلها، وينحني باحترام انحناءة كبيرة محيياً. - هل الطبيب الشهير يعيش هنا؟

- عاش، - تقول زليخة وهي تضع رزمة من الملابس والأغطية فوق رزمة. - حتى البارحة.

- هل مات؟

- أخذوه إلى المركز في ماكلاكوفا، - تحزم الرزمة بيديها الصغيرتين، القويتين قوة غير متوقعة. - يقولون إن المشفى هناك بلا مدير.

- أوه، يا لسوء حظي... - يهز ذقنه بحركة تنم على خيبة أمل، ويضع يده على رأس الفتى، ثم يضمه. - لقد ظللنا في الطريق أسبوعاً. حفيدي بحاجة إلى علاج.

- لقد وعدوا بإرسال طبيب جديد في خلال أيام. ابقيا، عيشا هنا مؤقتاً- انتظراه.

سيل مراجعي «الطبيب الشهير» نما عاماً بعد عام. وزليخة اعتادت أن ينام أقارب المرضى في المشفى.

- نحن نحتاجه هو حصراً، سنسافر إليه. قولي لي يا سيدة الدار... - يخفض الجد صوته، - هل هو صارم جداً؟ وهل سيستقبلنا أم لا؟ ألن يطردنا؟ إنه الآن يعمل في المركز...

- لن يطردكما، - زليخة تلقي عليه نظرة طويلة. - لن يترككما تغادران قبل أن يشفى حفيدك، حتى لو فكّرت بالهرب.

- سمعنا، سمعنا عنه ذلك....- في الحال يعوم وجه العجوز بابتسامة، ويتنهد بفرح وارتياح، ثم يسرع نحو المخرج وهو يعتمر قبعته. - هل أنت زوجته؟

- لا، - تجيب شاردة الذهن وأصابعها تتلمس عقدة المنديل... - أنا كنت مساعدته في العمل، ولكني سأضطر إلى الرحيل أيضاً.

يحييها الجد بحركة من رأسه تدل على أنه فهم ما قالته، ويودعها على عجل، يسرع بالمغادرة وهو يدفع الحفيد أمامه. كانا في طريق العودة من البلدة يركضان تقريباً- إنهما يودّان اللحاق بقارب البريد الذي لم يغادر بعد، تنطلق في إثرهما من إحدى النوافذ الواسعة المفتوحة، أنغام مديدة وحنونة من أكورديون:

يا سعادتي، انظري، شبابنا كيف يزهر

كم من الحب والمرح حولنا

يا سعادتي، من يغني هو الصبا

نحن الاثنين لا يمكن أن نفترق، يا زهرتي، يا صديقتي!

وصل الجد والحفيد إلى ماكلاكوفا في يومين، ووجدا مشفى المنطقة وفيه إنسان ضئيل الحجم كثير الحركة، بهالة فضية من الشعر تحيط برأس أصلع. وبعد يومين آخرين أجرى ذلك الرجل للطفل عملية جراحية وأبقاه شهراً في المشفى تحت المراقبة.

عند اقتراب نهاية فترة العلاج حاول الجد أن يعرف من الممرضة أفضل طريقة لشكر الطبيب الشهير- النقود، أم هدية عادية. «هو لن يقبل النقود. - أجابت الممرضة بلهجة واثقة، - أما القهوة فهو يشربها طول الوقت».

في المخزن المحلي قام الجد الذي كان يهز رأسه معبراً عن عدم ثقته بما يفعل، باستبدال كيس من الحبوب الغريبة ذات الملمس الزيتي، والرائحة الحادة، بكل ما لديه من قطع نقدية صفراء خبأها في ذيل ثوبه. حمل الحبوب إلى المشفى وهو يكاد يموت خوفاً من أن يكون اشترى غير ما كان مطلوباً. لكن الطبيب بعث الراحة في نفس الجد، إذ قبل الهدية وابتسم شاكراً، وراح يستنشق بتلذذ الرائحة المرة المنبعثة من الكيس. ترى من الذي لا يحب القهوة الجيدة؟

غوريلوف يسير على مهل (جزمته تلتمع بشكل لا يطاق) في بلدة سيمروك، يمشي في منتصف الشارع المركزي تماماً. صدره البارز بكبرياء، يحمل باعتزاز على السترة الرمادية ميدالية مستديرة صفراء لامعة. يده اليمنى تحمل حقيبة حمراء صغيرة باستخفاف وكأنه يستعرضها أمام طيور الدجاج والصيصان، أما يده اليسرى فتتلمس بين الحين والآخر صدغه المحلوق حلاقة ناعمة، بحركة دائرية وتمسّد الشعر القصير تحت الحافة البنفسجية للقبعة الزرقاء.

الستائر على النوافذ في الشارع المركزي ترتجف كأنها حية، وتلوح خلفها وجوه الناس المندهشين. الناس يخرجون من البيوت، يتحادثون، ويتابعون بأبصارهم القادم الجديد. أما غوريلوف فبدا كأنه لا يلاحظ الهياج الذي سببه ظهوره، فراح يتمشى على مهل نحو الساحة الرئيسية، حيث امتدت عرضانياً لوحة الأخبار السياسية، التي كانت صغيرة فصارت الآن تشبه سوراً طويلاً.

يضع الحقيبة الصغيرة بعناية على الأرض، وينظر إلى ظهر زاسيكا المحدب وهو يلصق على اللوحة عدداً جديداً من صحيفة «سيبيريا السوفييتية» التي تصدر بورقة واحدة راحت الريح تتلاعب بها (الورقة تغطي على اللوحة إعلاناً اسودّ بفعل المطر والثلج، يراقص فيه مقدم أسود الحاجبين فلاحة ممتلئة الجسم، بيضاء الأسنان، ويقودها مباشرة نحو عبارة فرح تقول: «لقد استردا سعادتهما»).

- الصحيفة مائلة، يا مُدهّن، - يقول له يصوت خافت ويدير وجهه بتكاسل. كمن يغالب النعاس، نحو أنغارا.

- أنا أرى أنها ليست مائلة أبداً، - زاسيكا يمسّد جيداً الطرف العلوي للصحيفة بأصابعه النحيلة من دون أن يلتفت، فتتساقط من تحته نقاط من الصمغ الأبيض. - ها، ما رأيك؟

تمسكه من عنقه يد صلبة وتدس وجهه في صفحة الجريدة التي تفوح منها بحدة رائحة حبر الطباعة.

- كيف تخاطب ضابط أمن بهذه اللهجة أيها السافل؟- يهمس غوريلوف في أذنه.

زاسيكا يغمض عينيه الخائفتين كعيني أرنب.

- الرفيق غوريلوف... - يقول بصوت أبح مندهش.

- أي رفيق أنا يا حقير... ها؟

- المواطن غوريلوف...

تلين القبضة الحديدية الممسكة برقبة زاسيكا، ثم تفلتها.

- لقد قلت لك إنها مائلة. - يصحح غوريلوف بعناية وضع الصحيفة التي تجمعت تحت وجه زاسيكا النحيل. - انقلع من هنا يا محتال.

ينفض عن كفيه ما علق بهما وينظر كيف راح زاسيكا يلطخ خديه بالصمغ، وهو يركض نزولاً في الشارع فيحيط به الفضوليون في الحال. بعد ذلك يضع غوريلوف أحد قدميه فوق الحقيبة، ويستند بكوعه إلى ركبته المرفوعة، ويجمد موجهاً نظره إلى أنغارا المنبسط في الأسفل.

تنفصل عن الحشد قامة أنثى، عقدت تحت ذقنها طرفي منديل صوفي بهت لونه، يغطي رأسها. إنها أغلايا تقترب ببطء من غوريلوف، لكنها لا تجرؤ على الاقتراب كثيراً، فتتوقف على بعد خطوات منه:

- أهذا أنت يا فاسا؟

هو لا يجيب. يخرج من جيبه الأيمن ساعة جيب ذهبية، يرفع غطاءها، فيسقط شعاع من الشرارات النارية على وجهه الذي لوحته الشمس «Augustin, Augustin, ach, mein lieber Augustin». - ترن الساعة بصوت يشبه الشكوى. ينظر باهتمام إلى مؤشر الساعة ثم يغلق غطاءها.

- هل تنتظر أحداً؟- أغلايا تقوم بخطوة مترددة إلى الأمام.

يلتقي غوريلوف معها بالنظرات أخيراً. لقد كبرت بالسن، وفقدت جمالها، وجهها تجعّد، خدّاها تهدّلا قليلاً، يداها تورمتا- تجعدتا، وتقصفت أظافرهما. هذه ليست أغلايا بل غلاشكا.

- لماذا لم تأت إلى البيت؟- غلاشكا تتقدم خطوة أخرى. - نحن لم نلتق منذ أربعة أعوام.

يخرج غوريلوف من جيبه الأيسر علبة سجائر معدنية (نسر أزرق- فضي يبسط جناحيه على غطاء العلبة الأبيض كالثلج)، ويدخن ببطء سيجارة طويلة ورفيعة. ينفث دخان سيجارته الرطب، الرمادي الداكن، على الوجه الأنثوي النحيل الذي شققت التجاعيد بعض الأماكن فيه.

- اسمعي ما أقول، يا قحبة، - يقول بهدوء وبلهجة عملية. - ما كان - كان. وانتهى! بيتي الآن في مكان آخر. سأستدعيك إذا أردت أن أدوسك. وحتى يحين ذلك- انقلعي! وراء در! أمام سر!

وجه غلاشكا يرتجف، وتغطيه تجاعيد كبيرة. عيناها تحملقان، تغطيهما دموع كبيرة لا تسقط، تهز كتفيها، تدير له ظهرها وتغادر، وهي مستمرة في التلفت محركة رأسها كالصيصان.

- اركضي!- يأمرها غوريلوف. - أسرعي!

تنطلق نزولاً في اشارع وقد تملكها بعض الخوف.

- وإياك أن تخاطبيني بصيغة المفرد، يا سافلة!

الصراخ المرتفع الحاد يلحق بغلاشكا، قدماها تخبطان الأرض بقوة فتثيران الغبار، وتتعثران فتسقط المرأة في صمت، ويجفف غوريلوف رقبته المتعرقة بمنديل أبيض ثم يدير ظهره.

- لقد صرت قاسياً... - يأتيه صوت خافت من مكان قريب.

إنه القومينداانت.

هو يقف في بداية الدرب المنحدر من القومينداانية، وقد علّق سترته على كتفيه، وفي يده عصا ثخينة في نهايتها عقدة. شعره الذي كان كثيفاً، وكستنائياً غامقاً، صار خفيفاً، ولونه (بيج)، وعيناه بدتا غائرتين في محجريهما داخل وجهه،

أما عظام خديه، فعلى العكس من ذلك، برزت إلى الخارج. وتوضعت الخطوط العميقة للتجاعيد وكأنها رسمت بقلم رصاص.

غوريلوف لا يجيب، ويستمر ينظر إلى النهر.

- ما بالك تصمت؟ ألم تعرفني؟- يقترب القومينداانت أكثر وهو يترنح ويعرج بشدة.

- وكيف لا أعرفك...

- لقد اغتنيت... - إيغناتوف يطوف حول غوريلوف وهو يصفر، متأملاً شارات الرتب الخضر على كتفيه والأساور القماشية على كمي سترته. - ملازم... ترى منذ متى يطوّعون المعتقلين السابقين في أجهزة الدولة؟

- لا تلطم وجهي بالماضي! أنا حاربت، بينما كنت أنت تحكّ كعوب النساء قرب الموقد.

- أنا سمعت عن بطولاتك في الحرب: أنت كنت عاملاً في المطبخ، وعنصر تموين في الخطوط الخلفية.

- وليكن ذلك! لقد ردّوا لي اعتباري- وأنت لم يعد بمقدورك أن تأمرني. - يمدّ غوريلوف يده إلى جيبه الداخلي ويخرج مستطيلاً ذا لون أحمر غامق كتبت عليه بخط جميل أحرف صفراء ضعيفة اللمعان- جواز سفر، يلوح به في الهواء، ثم يفتحه ويدسه تحت أنف القومينداانت: أرأيت؟

- أنا هنا آمر الجمع، - يقترب إيغناتوف، ويضع على مقدمة جزمة غوريلوف اللامعة العقدة التي في طرف عصاه. - وممنوع منذ العام الماضي قبول العاطلين عندنا، لذلك انصرف من هنا على متن السفينة القادمة.

يركل غوريلوف العصا فتسقط محدثة صوتاً. ويترنح القومينداانت فتسقط السترة عن كتفيه في الغبار.

- أنا أعرف مثلك يا إيغناتوف الأمر رقم مئتين وثمانية وأربعين على ثلاثة، وتاريخ الثامن من كانون الثاني عام خمسة وأربعين. - يدوس غوريلوف بحذائه سترة إيغناتوف- لذلك أسألك لمَ لا تنفذه؟

إيغناتوف الذي كان يقف مرتبكاً على ساق واحدة وقد انحنى نحو الأرض لالتقاط سترته جمد في وقفته.

- لماذا يطوف العاطلون أسراباً عندك في البلدة، -همسُ غوريلوف الرطب يلامس أذن إيغناتوف، - والمتخصصون يهاجرون إلى المدينة؟ أنت أهملت قيادة الناس، أيها القومينداانت، أواه، تركتهم على هواهم... - يرفع غوريلوف قدمه عن السترة أخيراً. - السفينة، قلت لي؟ حسناً، سوف أذهب لاستقبالها.

راح يخبط جزمته بالأرض نافضاً ما علق بها من غبار عكّر بريقها المرآتي، ثم التقط عن الأرض الحقيبة الصغيرة ذات اللون الأصفر الناري، ومشى متمايلاً عائداً إلى المرفأ- أما الناس المحتشدون في طرف الساحة فتفرقوا في مختلف الاتجاهات.

جمعت زليخة في صرر كل الأشياء التي يمكن أن تعدّها ملكاً لها: الملابس الصيفية والشتوية، وزوج من أغطية السرير واللحف والوسائد، وبعض الأواني ولوازم المطبخ والنثريات التي يحبها قلبها: عدد من مناديل المائدة طرّزتها بيدها، ودمى يوسف الطينية القديمة- الطفل العاري الذي فقد إلى الأبد أطرافه، والسمكة التي فقدت زعانفها وذيلها. القدور المصنوعة من الحديد الصب التي كانت تغلي فيها الضمادات، تركتها- سيحتاجها الطبيب الجديد، الساعة الجدارية التي تدق بصوت مرتفع واللوحة التي حفرت عليها بمسلة محمّاة عبارة «إلى دكتورنا الغالي من أهالي بلدة سيمروك في ذكرى ميلاده السبعين».

- تركتها أيضاً، فهم لم يهدوهما لها، وهي ليست من يحق له أخذهما.

ليبييه لم يأخذهما أيضاً. إنه لم يأخذ معه شيئاً- رحل هكذا، بالملابس التي عليه، ومعه حقيبة نصف فارغة تكاد تنمحي شارة الصليب الأحمر التي رسمت عليها ذات يوم.

ودّعا بعضهما بعضاً في صمت. هي كانت تقف في وسط الغرفة، مسبلة يديها على مريولها وهي لا تعرف ماذا يجب أن تفعل، وماذا يجب أن تقول. اقترب منها وولف كارلوفيتش، وقف إلى جانبها، أمسك يدها، وانحنى نحوها بشفتيه الجافتين. فرأت زليخة كيف خفت هالة الشعر الفضية الكثيفة التي كانت تحيط بصلعته، وكيف أن البشرة الرقيقة- الوردية التي كانت تغطي جمجمته في يوم الأيام صارت تغطيها لطخ رمادية وبنية كبيرة.

يوسف رافق ليبييه مودعاً حتى الميناء الصغير، أما هي فبقيت في البيت، وبدأت على الفور تجمع أشياءها. لقد اقترحوا عليها أن تقيم في المستشفى مع الدكتور الجديد أيضاً- وعدوها باقتطاع جزء من الصالة لها، وتعيينها ممرضة براتب كامل، لكنها رفضت وقررت العودة إلى البراكات.

البراكات لم تعد الآن براكات عموماً. صار اسمها مساكن جماعية. قسّموها في الداخل إلى غرف صغيرة، وقرروا أن يكون عدد الساكنين معاً في الغرفة الواحدة من ستة إلى ثمانية أشخاص على الأكثر، أما الأسرّة فظلت، كما في السابق، من طابقين، لكنها كانت مزودة بفرشات حقيقية، وأغطية، ووسائد وبعضها زوّد بشراشف ملونة. وقد عاش في المساكن الجماعية إما الجدد (في الفترة الأخيرة صار عدد القادمين الجدد قليلاً)، وإما أولئك الذين لجهلهم أو لكسلهم لم يتمكنوا من الحصول على بيتهم الخاص ومزرعتهم الصغيرة. لقد كانت تخشى أن يفرقوا بينها وبين ابنها: يوسف أتم في الصيف السنة السادسة عشرة من عمره، وقد أعطوه مكاناً وسريراً مستقلين في السكن الجماعي للذكور.

هو يعمل منذ أربعة أعوام في جمعية الرسامين. لوحات الجمعية ظلت كما في السابق: صور الكادحين في الحقول، والعمال المبرزين في صناعة الأخشاب، نشطاء الجبهة الكولخوزية، الكومسومولبين والطلائعيين، وأحياناً، لاعبي الجمباز. لقد لاحظوا في اتحاد المشترين أن أسلوب رسم الفنانين السيمروكيين تغير تغيراً حاداً منذ عدة سنوات، لكنهم لم يهتموا لذلك، فقد ظلّ أهل البلدة، كما في اللوحات القديمة، مستديري الوجوه، ولاعبو الجمباز- نشيطين، والأطفال- مبتسمين. وظلت أعمال الجمعية تلاقي إقبالاً.

في أوقات الفراغ، في الليالي، كان يوسف يرسم لذاته. زليخة لم تكن تفهم «لوحاته» هذه، ذوات الخطوط الحادة، والألوان المسعورة، وما فيها من صور غريبة، ومخيفة أحياناً. كانت صور قاطعي الأشجار، والطلائعيين تعجبها أكثر بكثير. أما هي نفسها فلم يرسمها يوسف أبداً.

كانا قليلاً ما يتحادثان. وقد أحست زليخة أن يوسف يفتقد الأحاديث مع إيزابيلا (ماتت إيزابيلا عام ثلاثة وأربعين مباشرة بعد إعلان كسر حصار لينينغراد)، ومع قسطنطين أرنولدوفيتش (لم يعش بعد زوجته سوى عام واحد). ورأت أنه ما يزال يشتاق إلى إيليا بتروفيتش (لم تصل من إيكونيكوف أية أخبار بعد ذهابه إلى الجبهة). بل لقد بدا لها البارحة أن يوسف اكتأب بقوة بعد سفر ليبييه، الذي لم تكن علاقته به على ما يرام من الانتظام.

هي لم تستطع أن تحلّ عنده محلّ أي منهم، وكانت تحس في الوقت نفسه أنه بات الآن أشد حاجة إليها من السابق، فهو، بعد أن فقد الناس الذين يحبهم قلبه، راح يوجه كل حرارة ذلك القلب الفتي نحو أمه. صار يريد أن يكلمها، أن يطرح عليها الأسئلة، ويحصل على إجابات، أن يناقش، يختلف، يقاطع، يهاجم، يدافع، يتشاجر في نهاية المطاف، - أما هي فلم تكن قادرة إلا على الصمت، والاستماع، وتمسيد شعره. كانت تصمت، وتصغي، وتمسد رأسه- وكان هو

يغضب، ويهرب منها، ثم يعود بعد بعض الوقت، مطرق الرأس، معتذراً، ودوداً، يضمها بين ذراعيه ضماً شديداً حتى تطقطق عظامها (كان أطول منها، وأقوى ممن هم في مثل سنه) - أما هي فلا تقول شيئاً، مكتفية بتمسيد رأسه. وهكذا عاشا.

بصيص النار الذي كان يناديها في الليالي من مدخل القومينداندانية، توقف، لأن إيغناتوف صار يدخن في داخل البيت.

يوسف لم يسرق الزورق، بل وُعد به، حين كان لوقا الأحمر ما يزال حياً. كان يوسف يساعد لوقا في أحيان كثيرة في إصلاح شقوقه، فيسدانها بالخرق، التي يغطيانها بصمغ لزج، ويتركانها حتى تجف، ثم يغطيانها بالصمغ من جديد. وكان العجوز يكافئه على ذلك فيأخذه معه لصيد السمك ليلاً: العجوز يصيد السمك، ويوسف يجلس إلى جانبه، ينظر ويتعلم. نهر أنغارا مختلف تماماً في الليل عنه في النهار- إنه هادئ، صامت، أمواجه تلامس جوانب الزورق برقة ولطف، وفي مرآة الماء السوداء تنعكس صفحة السماء التي تثقّبها مجموعات النجوم، والزورق يعوم، يتمايل خفيفاً بين قبتين من النجوم، كأنه في وسط العالم تماماً.

كان يوسف يحاول في الصباح أن يرسم من الذاكرة ما رآه ليلاً، لكنه لم يعجب في أية مرة بما يرسمه.

قال له لوقا: حين أموت سيصبح الزورق لك يا بني. وقد مات في الربيع. وفي الليل بينما كانوا في بيت لوقا الصغير يؤبنون رفيقهم العجوز المتوفى، ذهب يوسف إلى الضفة، أنزل الزورق في الماء، وانطلق به إلى المنعطف البعيد، خبأه بين الشجيرات، تحت النتوء الصخري، وربط مقدمته ربطاً متيناً بالحبال إلى الجذع الثخين لشجرة سرو عملاقة، أما الزورق نفسه فأغرقه في الماء كي لا يجف ويتشقق. هكذا علّمه لوقا.

كان بحاجة إلى الزورق- لأنه كان يفكر بالهرب.

في الجرائد المعلقة على لوحة الإعلان والتوجيه، كانت تظهر أحياناً ملاحظات، بل مقالات كاملة حول فرار المساجين من السجون والمعتقلات. وكانت جميعها تحمل نهاية واحدة- يتم القبض على الهاربين، ويلقون عقاباً صارماً.

يوسف كان يعرف أنهم لن يستطيعوا اعتقاله.

الأفضل، طبعاً، أن يهرب في الصيف، يعوم نزولاً مع جريان أنغارا حتى نهر ينيسي، هناك تصبح ماكلاكوفا قريبة، ومنها، بواسطة نقل عابرة، إلى كراسنويارسك، ثم يستقل القطار مسافراً إلى الغرب، يعبر الأورال، وموسكو- إلى لينينغراد، يذهب مباشرة إلى الشاطئ المقابل للجامعة، فيدخل عبر المبنى الطويل المهيب، ذي الأعمدة التي بلون الغبار المشوب بالصدأ، والتمثالين الصارمين لأبي الهول المنحوتين من الغرانيت الوردي، في مدخله- إلى معهد الرسم، إلى alma mater إيكونيكوف الشهيرة «ريبينكا». ومن المؤكد أنه سيصل إلى هناك في الوقت المناسب لإجراء فحص القبول، وقد قرر أن يأخذ معه لوحتين أو ثلاث (من تلك اللوحات التي أعجب بها إيليا بتروفيتش) ومصنفاً يضم مشاريع لوحات خططها بقلم الرصاص.

يوسف كان يعرف أنهم سيقبلونه حتماً.

إنه يستطيع أن يعيش في المعهد، في أية زاوية يحشرونه فيها- في غرفة عمال التنظيف، في المستودع، في البيت المخصص لكلب الحراسة. وهو يستطيع أن يكسب أجر مكان إقامته بالعمل في التنظيفات. ولقد كان لديه لمواجهة أسوأ الحالات ما وفّره، ووضعه في مخبأ سري مخفيّ جيداً عن عيني أمه، ملفوفاً في ورقة بيضاء بياض الثلج، مطوية أربع طيات، مكتوب عليها بخط قسطنطين أرنولدوفيتش بضعة أسطر قصيرة. سوملينسكي يخاطب في هذه

الأسطر إحداهن باسم أولينكا، يرسل إليها التحيات من مكان بعيد، ويطلب منها باسم سني الشباب أن تؤوي الفتى حامل الرسالة. وفي أعلى الصفحة- العنوان الذي تشع فيه كمنارة كلمات سحرية تهز الروح: «ضفة النهر - النافورة» إنها «ستفهم» الرسالة من دون توقيع- قال له قسطنطين أرنولدوفيتش وهو يعطيه الرسالة. وذلك قبل شهر من وفاته.

لم يكن لديه نقود يسافر بها. قالوا له إنه يستطيع، إذا حالفه الحظ، أن يعيش وينتقل في قطارات الشحن مدة تفوق الشهر ونصف الشهر.

ويوسف كان يعرف أن الحظ سيحالفه.

ولم تكن لديه وثائق أيضاً. كل وثائق أبناء المهجّرين محفوظة في خزانة القوميندانية. يوسف سيبلغ السادسة عشرة عما قريب، لكنهم لن يمنحوه بطاقة هوية: غالبية أهالي سيمروك يعيشون حتى الآن من دون بطاقات هوية- إنهم لا يحتاجونها. هذا كله لا قيمة له. المهم هو أن يصل إلى لينينغراد، يمشي إلى نهر نيفا، يقتحم المبنى تحت نظرات تمثالي أبي الهول المؤيدة، ويصعد الدرج طيراناً إلى قاعة لجنة المقابلة، فيضع على الطاولة أمام لجنة القبول أعماله: ها أنذا، كلّي... احكموا عليّ! Roi ou rien18.. ولا علاقة لكل ذلك ببطاقة الهوية...

لقد فكّر بالهرب منذ زمن، وقبل شهرين وقعت أحداث دفعته إلى استعجال ذلك، مخضعة كل أفكاره ورغباته لهوى واحد هو الهرب.

في ذلك اليوم نادى ميتريتش يوسف وهو في الشارع. وميتريتش هذا موظف عجوز يؤدي في سيمروك باقة من الأعمال والواجبات المتنوعة، فهو سكرتير، وإداري، وعامل أرشيف، وعامل بريد في الوقت نفسه.

- عندي لك رسالة، - قال مندهشاً وهو يبتسم بود، وظل فترة طويلة جداً يفتش في حقيبة كبيرة من القماش المشمع مخصصة لنقل الصحف، إلى أن

أخرج مثلثاً ورقياً أبيض، متسخاً، التقطه بأصابعه وهزه برقة وهو يتساءل: ترى كم من الوقت استغرق وصوله من الجبهة إلى هنا؟- أدار بيده الرسالة التي غطتها الأختام البريدية الدائرية والبيضاوية وقال: ليس أقل من عام.

أعطاه الرسالة أخيراً، ولم يغادر، بل ظل واقفاً إلى جانبه ينظر إليه باهتمام، وقد انتفخ حاجباه. لكن يوسف لم يفتح الرسالة أمامه، شكره، وركض إلى التايغا، إلى النتوء الصخري، بعيداً عن جميع الناس. وكان وهو يركض يفكّر، وقلبه ينتفض، وقد تحول المثلث الورقي بين يديه إلى جمرة تحرق أصابعه...

طار بين الأعشاب البرية، وجلس على صخرة وردية، ابتلع ريقه، ثم فتح كفه المتعرقة.

«مقاطعة كراسنويارسك، منطقة شمال نهر ينيسي. بلدة سيمروك العمالية على ضفة أنغارا. إلى يوسف فالييف».

فتح المغلف بحذر خشية أن يتمزق: لم يجد في الرسالة كلمات، في مركز الورقة- شمعة برج إيفيل (قلم فحم)، وعبارة صغيرة في الزاوية: ساحة النجمة، حزيران 1945 (الرقيب طلى كلمة باريس بالحبر الأسود، وأبقى كلمتي ساحة النجمة والتاريخ) ولا شيء غير ذلك.

أعاد طي المغلف بشكل ما- شعر فجأة بالخدر في أصابعه التي لم تعد تطيعه- دسّ الرسالة في عبه، وجلس طويلاً يتأمل نهر أنغارا الرصاصي اللون، الذي تحاصره من الجانبين خضرة التايغا الداكنة، وتطبق عليه من فوق سماء كأنها مقلاة مقلوبة.

قال في سره: سأهرب حتماً. كان يعرف أنه سيهرب، بل كان سيهرب اليوم، الآن، لولا أمر واحد كان يعيقه- أمه. إنها، بعد أن خرجت من جمعية الصيادين، تعبت بسرعة، انكسرت، هرمت، ضاعت تماماً بعد رحيل الدكتور، وصارت تنظر إليه

بعينين واسعتين، خائفة كطفلة، ولم يكن بمقدوره أن يتركها وهي على هذه الحال، كما أنه لم يعد قادراً على البقاء هنا.

أخفى رسالة إيكونيكوف في المخبأ السري نفسه، وبدا له في بعض الأحيان أن قلبه لا يخفق في صدره، بل هناك، في ذلك الشق البارد المعتم حيث ترقد رسالتان من شخصين قريبين إلى قلبه، متلاصقتين.

لم يكن يوسف يعرف كيف يحلّ معضلة أمه، - إنها، أغلب الظن، المسألة الوحيدة التي لم يكن يعرف لها حلّاً.

ها قد تم كل شيء: المتاع مجموع، والصرر محزّمة، وغداً صباحاً ستنتقل هي ويوسف إلى السكن الجماعي. غداً سينامان في سريرين منفصلين. الآن، في يوم الأحد الصافي هذا، تستطيع زليخة لآخر مرة أن تجلس في البيت الخالي، تودعه. تطوف في أرجاء المنزل سائلة نفسها: هل نسيت شيئاً ما؟ تنظر خلف الباب، وخلف الموقد، وفي الخزن، والأدراج، وعلى حواف النوافذ.

لوح خشبي واحد يصر تحت قدميها- اللوح المتطرف قرب النافذة. تحت مثل هذه النافذة خبأت هي ومرتضى- ربما قبل مئة عام، أو ربما في المنام، - المؤن كي لا تستولي عليها الفصائل الحمراء. تدوس زليخة على اللوح مرة أخرى: صرير رفيع ممتد يشبه صوت أحدهم. تقرفص، وتبتسم لنفسها وهي تمد أصابعها عبر الشق، تشد الخشب، يطاوعها، يرتفع قليلاً. المستطيل الأسود الصغير تحت اللوح الخشبي يتنفس في الظلمة برداً وتراباً رطباً. تمد يدها، تبحث، فتلتقط صرة قماشية صغيرة خفيفة. تفك رباطها، تزيح قطع القماش القديمة، وبعض القشور. في الصرة ورقتان غير متشابهتين: واحدة بيضاء كالثلج، والثانية صفراء متسخة، وقد تلاصقتا لطول وجودهما معاً. زليخة تفصل إحداهما عن الأخرى، وتفردهما. هي لا تستطيع أن تقرأ ما في الورقة الأولى ولا تعرف ما هذا البناء العجيب المصور في الثانية. ما فهمته هو فقط أن يوسف هو من خبأهما، وأنهما

سره الكبير الذي يخفيه حتى عن أمه، يحجبه عن أمه مؤقتاً ويحميه منها. الحروف الصغيرة كالخرز ذوات الذيول الطويلة المتموجة كأنها ترفرف في الريح، وهيكل البرج الذي يذكّر من بعيد بالمنارة، والرسمة والكتابة تصرخان بكلام ما، تدعوان إلى مكان ما. تلطم صدرها: لقد قرر ابنها الهرب.

تجلس زليخة بضع دقائق أخرى على الأرض ضامة في قبضتها الرسالتين المدعوكتين إلى صدرها، ثم تنهض وتركض إلى النادي. هي لا تذكر كيف ركضت. يبدو أنها طارت في لحظة، بقفزة واحدة، تمزق بجسدها الباب. يوسف في الداخل كالعادة، يقف قرب حامل اللوحات.

- لمَ أنت حافية يا أماه؟

- أنت! أنت... - أنفاسها متقطعة، ترمي في وجهه الرسالتين المدعوكتين ككرتين صغيرتين.

ينحني، يلتقطهما، يمسّدهما ببطء على صدره، ثم يدسهما في جيبه. لا يرفع عينيه، وجهه جامد، أبيض. وزليخة تفهم أن ما خمنته كان صحيحاً: لقد قرر ابنها أن يهرب، أن يتركها، يهجرها.

تصرخ بكلام ما، - وتنقض على الجدران تضربها- يتمزق قماش اللوحات تحت قبضتيها، تتكسر الأطر، ويسقط شيء ويتدحرج على الأرض، وتسقط هي نفسها أيضاً. تنكمش، تنتفض، تتلوى كالحية، تلطم جنبيها، يتردد نواح في داخلها: سيتركها، سيتركها... هي تفهم أنها لا تنوح في ذاتها، بل في يوسف الذي أحاط بها من كل الجهات. من حولها- جسده، يداه، ووجهه المتقلص، المبلل، إنهما يرقدان على الأرض، كتلة واحدة متماسكة حتى الموت.

- إلى أين ن- ن-ن؟ تصرخ نائحة في صدر يوسف. - إلى أين ستذهب؟ من دون وثائق، وحيداً... سيقبضون عليك...

- لن يقبضوا عليّ يا ماما.

- سيسجنونك... - تتشبث به وكأنها على وشك الغرق.

- لن يسجنوني.

- وأنا؟

يوسف يظل ساكتاً، يعانقها عناقاً مؤلماً.

- لن أستطيع العيش من دونك- زليخة تبحث بعينيها عن نظرته: سأموت من دونك يا يوسف. سأموت حالما تخطو الخطوة الأولى.

أنفاسه الرطبة تلفح رقبتها.

- سأموت، - تكرر زليخة بعناد. - سأموت، سأموت، سأموت!

يهمهم، يبتعد، ينفصل عنها، يزيح يديها المتشبثتين به، يتملص من عناقها.

- يوسف!- زليخة تلحق به.

يدها المتشنجة بأصابعها ذات النهايات الخشنة تنزلق على نقرته كأنها المشط، تسرّح خصلات شعره السوداء، وتمر على رقبته، تاركة خدوشاً حمراء، ثم تمسك ياقة قميصه- تريسك!- يندفع يوسف خارجاً من النادي بقميص ممزق الياقة.

- أنت لست ابني بعد الذي فعلت!- تصيح في إثره زليخة. - لست ابني! عيناها لا تبصران، أذناها لا تسمعان.

سيتركني. سيتركني.

تنهض مترنحة وتغادر المكان. الريح تلفح وجهها، والنوارس تصرخ، والغابة تضج، وتحت قدميها- تراب، وعشب، وحجارة، وجذوع أشجار. سيتركني، سيتركني.

العالم يجري أمام بصرها، يسيل جدولاً. هي لا ترى الأشكال أو الخطوط- أمام ناظريها تعوم الألوان فقط، تجري مبتعدة. وفجأة، تظهر في قلب سيل الألوان- صورة واضحة: قامة طويلة، داكنة. رأس مرفوع باعتزاز، كتفان ذكوريان عريضان، ذراعان طويلان يكادان أن يلامسا الركبتين، وثوب يلوّحه الهواء. وأنت هنا أيضاً أيتها الغولة!

زليخة تريد أن تدفع أوبيريخا بعيداً، ترفع يدها، لكنها بدلاً من ذلك، ترتمي، لسبب ما، على صدرها، تعانق جسدها القوي الذي تفوح منه رائحة لحاء الشجر أو التراب الطازج. تدس رأسها في شيء ما، دافئ، كثيف، بارز العضلات، حيّ، فتشعر بيدين قويتين على ظهرها، وعلى نقرتها، تطوقان جسدها كله. تتجمع الدموع في حلقها، وتلتف حبلاً حول حنجرتها- زليخة تبكي، غارسة وجهها في صدر حماتها، تبكي بكاء طويلاً عذباً. دموعها تنسكب بسخاء واندفاع كأنها لا تسيل من عينيها، بل من مكان ما في أعماق قلبها، تطاردها دقات قلبها الكثيرة المتوترة. بعد دقائق، وربما ساعات، بكت فيها كل ما لم تبكه في حياتها، تهدأ، تتمالك نفسها. نفسها ما زال يتردد سريعاً، وصدرها ما زال يعلو ويهبط منتفضاً، لكن الراحة المتعبة التي انتظرتها طويلاً بدأت تسري في جسدها.

- قولي يا ماما... - هي لا تفتح عينيها، ولا تبسط يديها، كأنها تخاف أن تتركها، - بل تستمر تهمس إما في كتف حماتها النحيل، وإما في منبت عنقها المتجعد. - وكل ما أرادت أن تسأل عنه هو: لماذا ذهبتِ في صباك إلى قلب الغابة؟

- كان ذلك منذ زمن بعيد، كنت بنتاً صغيرة غبية... بحثت عن الموت- كي أنقذ نفسي من حب شقي، - صدر العجوز الواسع، الصلب، يعلو ويهبط في زفرة شديدة طويلة- ذهبت إلى قلب الغابة فلم أجد الموت هناك.

تتنحى زليخة مندهشة، تحاول النظر إلى عيني حماتها. وجه العجوز بني غامق، بتجاعيد كبيرة ومتعرجة، بل إنه ليس وجهاً على الإطلاق- إنه لحاء شجرة. ما

تعانقه زليخة شجرة عجوز، معوجة، دائمة الخضرة. جذع الشجرة- فيه الكثير من العقد، ثخين لا يمكن تطويقه بالذراعين، تغطيه خطوط من الصمغ الفضي. جذور الشجرة- عقد، وأغصانها الطويلة الممتدة تنظر إلى أعلى مخترقة زرقة السماء، ترتعش عليها براعم أوراق الربيع المبكرة بأشعة زمردية خفيفة. تمسح زليخة عن وجهها قطع اللحاء والأوراق الإبرية، وتنطلق من التايغا في طريق العودة إلى البلدة.

إيغناتوف كان يعرف منذ زمن، أنهم سيعزلونه من منصبه. فبعد الحديث في عام اثنين وأربعين عن المؤامرة التي لم تحدث، بردت كثيراً علاقة كوزنيتس به، صارت زياراته نادرة، صار يرسل للتفتيش صبيانه، وما عاد يجالس إيغناتوف لتناول الشراب. كوزنيتس نفسه ترقّى في عمله إلى مستوى عقيد. وبات لا يعدّ إخفاء نفوره من إيغناتوف أمراً ضرورياً: في تاريخ إيغناتوف الوظيفي عقوبتان مسلكيتان، والثالثة، إن حدثت، ستعني حتماً عزله من منصبه الذي يشغله.

إيغناتوف الذي رقي في هذه الأثناء إلى رتبة ملازم (هو لم ينل الترقية نتيجة عمل شجاع قام به، بل نتيجة قيام قوميسارية الشعب للشؤون الداخلية بتحديد رتب العاملين في صفوفها وفق خطة جديدة)، بلغ منذ فترة وجيزة السادسة والأربعين، قضى منها ست عشرة سنة في سيمروك. هو لم يكن عجوزاً، لكن الشيب وخط نصف شعره، أضف إلى ذلك أنه كان أعرج، عابس الوجه، متجهماً بطبعه، ووحيداً. ظهور غوريلوف في القارب الصباحي، متجاوزاً بوقاحته كل الحدود (لم يتمالك ذلك الكلب نفسه، فسارع قبل الجميع ليتلذذ بسلطته، ويمارسها على مهل، مستمتعاً) كان يعني أمراً واحداً، هو عزل إيغناتوف، الذي قد يحدث في هذا اليوم.

يأخذ عن الطاولة سترته البنية الرسمية، ويبدأ تنظيف قماشها الرقيق بالريشة. حسناً، إذا أراد السفلة تسريحي، فليكن ذلك في احتفال رسمي. كان إيغناتوف في

الأعوام الأخيرة يرتدي، في أغلب الأحيان، ثياباً مدنية، لذلك احتفظ زيه الرسمي بمظهره، وكان تنظيفه سهلاً وسريعاً. السترة، والبنطال الغولف، والقبعة المستديرة- كل ذلك بدا أنيقاً، ساطعاً، نضراً، وهو معلّق على مسمار في وسط الجدار تماماً. يضع إيغناتوف على الأرض الجزمة الممسوحة بالشمع- فتكتسب اللوحة مظهرها النهائي، وكأنهم أفرغوه هو نفسه من الهواء ثم علّقوه ليراه الجمع- هو ذا قوميندانتنا، تأمّلوه.

ما يخيفه أكثر من أي شيء- هو أنه لا يريد السفر من هنا. ترى، كيف تعلّق في خلال ما مضى من أعوام، بهذه الأرض القاسية، غير الودودة؟ وبهذا النهر الخطر، الغدار المتقلب باستمرار، المتلون بظلال آلاف الألوان والروائح؟ وبهذه الغابات التي لا حدود لها، الممتدة إلى ما وراء الأفق؟ وهذه السماء الباردة التي تهديك الثلج في الصيف، والشمس في الشتاء؟ حتى أولئك الناس المتجهمين، في أغلب الأحيان، الأفظاظ، غير الجميلين، الذين يرتدون ثياباً رديئة، ويشتاقون إلى العودة إلى الأماكن التي جاؤوا منها، والذين يكونون أحياناً مثيرين للشفقة وغريبي الأطوار وغير واضحين، ومتنوعين جداً.

تخيل إيغناتوف نفسه عائداً إلى موطنه، يهتز على مقعد خشبي في عربة قطار، وهو يتأمل، عبر نافذة صغيرة متسخة، تبدل المشاهد الرتيبة المتشابهة، ثم ينزل على رصيف محطة قازان وقد أرهقته الرحلة التي استغرقت أياماً كثيرة، يمشي في الشوارع الخالية في المساء... إلى أين؟ إلى من؟ الآن لم يعد في حياته ميشكا باكييف؛ ولا أولئك الفتيات اللواتي عاش معهن مغامرات الشباب الخاطفة- لا بد أن إيلونا وناستاسيا قد تزوجتا منذ زمن، أما أولئك الذين كانوا تحت إمرته- بروكوبينكو، وسلافوتسكي وبقية (الشلة) فقد نسوه... لم تعد قازان موجودة في حياته.

أما سيمروك فموجودة.

يبدأ إيغناتوف بجمع أمتعته. لكن ماذا يجمع؟ هو يرتدي الألبسة المدنية التي عنده. أما المنظر الذي تطل عليه النافذة، فلا يستطيع لفّه على شكل أسطوانة ووضعه في حقيبة. ولا شيء يأخذه ما عدا ذلك- ليس عنده أثاث، بل ليس عنده حتى حقيبة. سيغادر هذا المكان خالي الوفاض كما جاء إليه. وروحه خاوية أيضاً، وكأنهم أفرغوها من كل شيء.

ولكي يشغل يديه بشيء ما تفحص الأوراق. ميشكا باكييف تفحص آنذاك الأوراق أيضاً. والآن جاء وقته هو، إيغناتوف. يفتح الخزنة الفولاذية الكبيرة. هنا، في الفتحات الباردة العميقة، على خمسة رفوف عالية متينة يتم الاحتفاظ بسيمروك كلها: الأطفال، والبالغين، والمتقدمين في السن، الأحياء، والأموات، حياتهم الشخصية، وعملهم، وآمالهم، وجرائمهم، وشقائهم، ونجاحاتهم، وعقوباتهم، ولاداتهم، ووفياتهم، أمراضهم، وخططهم الإنتاجية، ومؤشراتها الحقيقية- كل هذا يرقد مختوماً ومرتباً، ومصنفاً بعناية، وموزعاً في رزم، ومصنفات، وعلب مغلقة ومحزومة بحبال، ومجمّعة بلقّاطات، ومشبعة برائحة الحديد والحبر. يقلّب إيغناتوف بطاقات الهوية (بعض المهجّرين حصلوا على بطاقات هوية، غير أن الوثائق كانت تحفظ في القوميندانية تجنباً لحدوث أي خلل)، شهادات الميلاد (هو كتبها بخط يده)، والصور، وصور القادمين الجدد، والطلبات، وتقارير المخبرين، والتوصيف، والإعفاءات، وما حذفته الرقابة فلم يصل إلى الجهة المرسل إليها، والرسائل المدفونة إلى الأبد في مصنفات الأفراد...

ناس، ناس، ناس- مئات الوجوه أمامه. إنه هو من استقبلهم هنا، على حافة العالم، وساقهم إلى التايغا، وأماتهم في العمل المضني، كان يعتصر منهم ما تقرره الخطة، بيد حديدية، يسخر، يخيف، يفرض العقوبات. بنى لهم البيوت، أطعمهم، وحصّل لهم، رغم المصاعب، الأطعمة والبضائع التموينية، والأدوية، وحماهم من المركز. أبقاهم فأبقوه.

في زاوية الرف السفلي كان ثمة شيء غامض، صقيل. يجثو إيغناتوف على ركبتيه، يمد يده ويخرج ذلك الشيء. إنه مصنف «القضية» الذي كان رمادياً في يوم من الأيام وصار الآن داكناً، في زواياه أختام مستديرة بنية بهت لونها. يفتح المصنف. وهو ما يزال جاثياً على ركبتيه. الأوراق الرقيقة التي تفوح منها رائحة غبار الورق، المملوءة بكتابات بالقلم الرصاص والفحم. ثمة أسماء مكتوبة بخط عريض، وعلى إحداها كتب في الزاوية بخط مائل: يوسف. زوج من أوراق السرو الإبرية الحمراء الداكنة كان عالقاً بها.

يُقرع الباب. إيه، قال في سره، لم يتسع لي الوقت لأرتدي ملابسي، لقد وصلوا بسرعة. ينهض مستعجلاً، يرمي المصنف في الخزانة ويغلق بابها، يقف في وسط الغرفة، عاقداً يديه خلف ظهره.

- ادخل، - يقول بصوت واضح.

ينفتح الباب. إنها زليخة.

تسير ببطء في الصالة- شاحبة، غائرة الوجه، على رأسها عقدت منديلاً يلامس حاجبيها. تتوقف، ترفع نحوه عينين دامعتين تورّمت جفونهما واحمرّت من البكاء، ثم تخفضهما في الحال. تعلو عبر النافذة المفتوحة ضجة الريح، ويكاد لا يسمع حفيف أشجار السرو في التايغا.

يقف الاثنان صامتين.

- هل جئت تطلبين شيئاً؟- قال في نهاية المطاف.

تحني زليخة رأسها بالإيجاب. بشرتها تحولت بمرور الزمن من اللون الأبيض إلى اللون الأصفر الفاتح كلون الشمع، وظهرت على خديها تجاعيد طفيفة وكثيرة، على شكل خطوط رفيعة، أما حاجباها فبقيا، كما في السابق، كثيفين.

- دع ابني يسافر، يا إيفان، إنه بحاجة إلى ذلك.

- إلى أين؟

- إنه يريد أن يتعلم في المدينة. لا حياة له هنا معنا.

يضغط إيغناتوف أصابعه خلف ظهره ويكورها في قبضة.

- من دون بطاقة هوية؟ حتى إذا أعطيته بطاقة الهوية، ستكون هناك إشارة في الفقرة العاشرة، فمن سيأخذ للعمل أحد أبناء الكولاك؟

تطأطئ رأسها وكأنها تريد أن ترى شيئاً ما في الأسفل، تحت قدميها، فيجعل ذلك حجمها يزداد صغراً.

- دعه يسافر يا إيفان. أنا أعرف أنك تستطيع ذلك. أنا لم أطلب منك أي شيء أبداً.

- أما أنا فطلبت الكثير!- يستدير ويمشي نحو النافذة، واضعاً وجهه في مواجهة الريح. - مرات كثيرة أخطئ في عدها...

يصرّ السرير صريراً طويلاً شاكياً: زليخة جلست على حافته واضعة يديها على ركبتيها، ضاغطة رأسها على صدرها فلا يرى منه إلا أعلاه.

- خذ ما طلبته، إذا لم تكن قد غيّرت رأيك.

- أنا لم أرد هذا، يا زليخة. - ينظر إيغناتوف إلى سطح أنغارا الرمادي الذي يتموج فوقه زبد ضحل. - ليس هكذا.

- وأنا أيضاً- لا أريد هذا. لكن ابني- لا ذنب له...

يظهر من المنعطف، المستطيل البني المعروف- قارب كوزنيتس. الأمر ليس عادياً، فقد حضر بشخصه. هذا يعني أن العزل مؤكد.

- اذهبي يا زليخة، - يقول إيغناتوف وهو يراقب كيف يمضي القارب بسرعة نحو الضفة.

يزرّر سترته على صدره (قرر عدم ارتداء الزي الرسمي، فذلك سيكون تكريماً مبالغاً فيه). يسرح بأصابعه شعره الذي بات أقل كثافة. وحين عاد إلى الغرفة- لم يجد زليخة فيها.

دخل كوزنيتس ونظر إلى إيغناتوف المتجهم الواقف قرب النافذة، وإلى زيه الرسمي المعلق على الجدار، - وفهم كل شيء.

- كنت تنتظرني، - قال له.

لم يتكلم كلاماً لا لزوم له: فتح حقيبته، ووضع على الطاولة وثيقة، وإلى جانبها- زجاجة فودكا (مسطحة، وعليها لصاقة ذات لون ساطع- يبدو أنها غنيمة). إيغناتوف بدا كما لو أنه لا يرى الزجاجة، أما الوثيقة فأخذها ومرّ عليها بعينيه سريعاً: إعفاؤه من الوظيفة التي يشغلها، وحرمانه من الرتبة لأنه كان مخفقاً في عمله في الأجهزة، وهذا يحرمه الحق في رتبة الملازم الأول... ، ووضعه في الاحتياط بسبب عدم كفاءته في العمل...

- أين الكؤوس التي عندك؟- كوزنيتس يفتح سدادة الزجاجة بصعوبة (الإمبرياليون يجيدون الإغلاق!). يطوف بنظره على الغرفة.

يطوي إيغناتوف الورقة بأصابعه الباردة ويضعها في جيبه.

- لماذا أسرّح من الأجهزة؟- يقول. - عزلتني من القومينداندية- طيب! لكن لماذا تعزلني من الأجهزة؟

كوزنيتس لم يجد الكؤوس، يرمي السدادة على الأرض، ويقرب الزجاجة إلى إيغناتوف: أتشرب؟ لم يتلق جواباً، فحوّل فوهة الزجاجة إلى فمه. الجدول الصغير يدخل إلى شدقه المفتوح، طويلاً ومنتظماً، كأنه الحربة. ابتلع نحو ثلث ما في الزجاجة، ثم تنحنح، وهمهم، وهو يهز رأسه الأصلع.

- أنا لا أحتاجك يا فانيا في الأجهزة، لا هنا، ولا في أي مكان آخر.

سافل.

ينظر إيغناتوف إلى الوجه المبلل الذي تضرج بالحمرة في لحظة، وإلى الشاربين الرماديين اللذين تهدّلا فوق الشفة، وإلى الثنية الرخوة تحت الذقن الرومانية المتدلية فوق عرى ياقته.

ليتني أضرب الآن جمجمته بهذه الزجاجة نفسها، ثم أنقض بقبضتي ضرباً على وجهه المتورم وبطنه المنتفخ... ولكن، لا، فليس في القلب ذلك الحقد البارد المعتاد، ليس فيه ذلك الغضب، ولا ذلك الإقدام.

القلب فراغ

- لا مكان أذهب إليه من هنا يا زينا.

- ابق هنا- يجيب الأخير ببساطة. أنت تعرف أن بقاء العاطلين ممنوع، لكننا سنتدبر الأمر، سنجد لك عملاً في الغابة. هناك بيوت خالية- انتقل إلى إحداها. عش. اقتنِ امرأة في آخر عمرك.

- هل غوريلوف هو من سيحل محلي؟

كوزنيتس يدس فوهة الزجاجة في فمه من جديد. ويشرب. يمرر يده على صدره الضخم، كأنه يودع السائل المنصب من حنجرته، إلى أسفل بلعومه، ثم عبر صدره إلى بطنه. ويزفر بصوت مرتفع، زفرة تفوح منها رائحة السكر، وهو يحني رأسه بالإيجاب.

- إنه هنا من أهل البيت- ولن يخذلنا.

- سيجعل الجميع يعيشون في جحيم، - يقول إيغناتوف لنفسه وهو ينظر عبر النافذة شارد الذهن.

- سيحقق الانضباط والنظام!- يرفع كوزنيتس إصبعه السمينة إلى أعلى وهو ينظر بطرف عينه اللماعة. - أنت لن يمسّك، لا تخف. أنا سأتابع ذلك احتراماً لعلاقتنا الماضية. - يصب بقايا الفودكا في حلقه ويخبط الزجاجة على الطاولة فتحدث صوتاً، ثم ينهض، يوقع الكرسي أرضاً. - هيا يا إيغناتوف. - اجمع أشياءك في خمس دقائق، ثم سلّم القومينداانية لغوريلوف. - يقول ذلك ويغادر من دون وداع.

من النافذة يرى إيغناتوف غوريلوف يقف منتظراً عند المدخل (هذا الكلب كان يسترق السمع؟) يمسك بكوزنيتس الذي ثقلت حركته بسبب الفودكا، ويقوده في الدرب النازلة، مطوقاً بعناية خصره المترهل.

يفتح الخزانة ويخرج من رزمة شهادات ميلاد واحدة- يوسف فالييف، عام الولادة 1930. يرميها في فوهة المدفأة الباردة السوداء، ويشعل عود ثقاب- تشتعل الورقة بسرعة مرسلة لساناً صغيراً من اللهب الحار. يفكر برهة، ثم يرمي في النار مصنف «القضية» القديم.

وبينما كانت الأوراق تتحول ببطء إلى جمرات مترمدة، تختفي مطقطقة في اللهب البرتقالي، يأخذ ورقة شهادة ميلاد نظيفة، يغطس الريشة بالحبر ثم يكتب: يوسف إيغناتوف، عام الولادة 1930. الأم: زليخة فالييفا، فلاحة. الأب: إيفان إيغناتوف، جندي في الجيش الأحمر.

ختم الورقة ووضعها في جيبه، ثم وضع مفتاح القومينداانية على الطاولة وخرج.

الزي الرسمي النظيف بقي معلقاً على الجدار، وعلى الحافة الحمراء للقبعة شعاع شمس يدفئها، وفي الموقد تنكمش، وتتداخل، وتتلاصق، وتذوب في

الهباب الأسود الأسماء المنسية منذ زمن بعيد، وتحترق متحولة إلى رماد يطير عبر المدخنة.

تفتح زليخة عينيها. الشمس تغمر المكان، تعمي عينيها، ورأسها يكاد يتطاير أجزاء. ومن حولها في أشعة الشمس المنخرطة في رقصة جماعية، تتمايل هياكل أشجار تكاد لا تراها.

- هل تشعرين بسوء؟- ينحني يوسف فوقها ناظراً إلى وجهها. - أنا لن أسافر إلى أي مكان إذا كانت هذه رغبتك!

عينا ابنها واسعتان، خضراوان بكثافة- إنهما عيناها. عينا زليخة تطلان على زليخة من وجه ابنها. تهز رأسها، تبعده، في الغابة...

حين جاء إيغناتوف بوجه جامد كأنه الجليد، - وأعطاها شهادة ميلاد يوسف التي ما زالت تطقطق تفوح منها رائحة الورق الجديد والحبر الطازج، ارتبكت.

- دعيه يرحل بسرعة، - قال لها. - فوراً، الآن.

اندفعت زليخة تجمع بعض المتاع، وبعض الطعام.

- لا وقت لدينا، - وضع إيغناتوف يده على كتفها، - دعيه يذهب هكذا، بيدين فارغتين.

في الجيب الصدري الأيمن للسترة القديمة المهترئة ذات الأزرار المتنوعة، وضع يوسف الرسالتين اللتين كانتا في المخبأ، ووضع في الجيب الأيسر شهادة الميلاد الجديدة، ورزمة سميكة من القطع النقدية المدعوكة، أعطاها له إيغناتوف. زليخة لم تر في حياتها مثل هذه الكمية من النقود. لقد كان هذا كل ما حمله يوسف معه.

غادر إيغناتوف بسرعة، اختفى حتى قبل أن تقول له زليخة: شكراً. أما هي وابنها، فركضا عبر التايغا إلى النتوء الصخري الذي خبأ عنده قارب لوقا العتيق.

ركضا في الممرات بمحاذاة الحواكير المحاطة بالأسوار، وبجانب برّاكة النادي التي نمت الطحالب على جدرانها وانكمشت كما لو أن الزمن استنزف قواها، وبالقرب من حقول الكولخوز الواسعة التي بدأت تخضرّ فيها باستحياء أولى غرسات الزرع. لم يلحظ اختفاءهما أحد. الجماجم الصفراء الداكنة المتشققة، المعلقة على الأوتاد المعوجة، هي فقط من راح يتابعهما بنظرات ثابتة متفهمة من عيونها السوداء. إحدى هذه الجماجم- أكبرها، جمجمة الدب، - سقطت على الأرض منذ زمن، ودحرجتها العاصفة فانقسمت نصفين. وأنثى طير حمراء الرأس نسجت فيها عشاً، وهي الآن تجلس فيه فوق بيوضها، تتأمل بقلق، وتتابع ببصرها هذين الاثنين اللذين يمشيان مسرعين في قلب الغابة.

يوسف وزليخة يركضان منذ مدة، وأشجار السرو المعمرة تمد أذرعها، وتخز أكتافهما، وأيديهما وخدودهما، ويرن، يصخب، يهدر، تحت أقدامهما نهر تشيشما. والفسحة المستديرة تخدش سيقانهما بأعشابها النامية حتى الركب.

تقف زليخة لتلتقط أنفاسها، إنها تتنفس بصعوبة، تلتقط الهواء بفمها، أنفها وحلقها تخرّشا بسبب الركض السريع وهما يؤلمانها. بجانبها تسبح الشجيرات، وجذوع الأشجار، وتيجانها؛ وتلتمع الخضرة كالزمرد في ضوء الشمس، فتعشى عيناها وتتألم. الأرض تحت قدميها زلقة، وأوراق الشجر على الأرض تتموج خداعة، وتتكوم ثمرات العفص فيها كحجارة حادة الرؤوس، وتتوضع جذور الأشجار عقداً، تتشبث بالحذاء، الدرب الطينية الصاعدة حادة، قاسية- والمشي يؤلمها. تؤلمها ساقاها، يؤلمها ظهرها، يؤلمها صدرها، وحلقها وبطنها، وعيناها- يؤلمها جسدها كله.

- سأبقى إن قلت لي: لا تذهب، - يوسف يتوقف مرة ثانية باحثاً عن عينيها.

زليخة لا تستطيع أن تنظر إليه. تدفع ابنها كي يتابع السير: إلى أمام، إلى أعلى.

الضوء ساطع إلى حد لا يطاق، ولون جذوع أشجار الصنوبر البري الأحمر يشع متوهجاً. تهتز تحت قدمي زليخة الصخور الملساء، توشك أن توقعها أرضاً. الأسنان الدقيقة للأشواك المنتشرة في المنطقة الجافة تمزق ثوبها. ها هي، أخيراً قمة النتوء: زرقة أنغارا تشع حادة تؤلم العيون، والدرب إلى الأسفل تكاد لا تلحظ، هي أشبه بدرب تسلكها الوحوش إلى النهر، وعلى يوسف أن يجتازها.

- ماما.

ها هو ذا يقف أمامها- طويل القامة، غير متناسق، يحس بالذنب. تشيح ببصرها: اصمت يا ولدي، لا تزد ألمي.

- ماما.

يوسف يمد يديه، يريد أن يضمها مودعاً- هي تمنعه بحركة من كفها: لا تقترب! يمسك يديها، يضغطهما بيديه- تسحبهما زليخة وتدفعه نحو الأسفل: اذهب- أسرع، فوراً، الآن. تكز على أسنانها- تمسك ألمها بأسنانها كي لا ينفلت خارجاً.

يلقي عليها نظرة عاجزة، حائرة، ثم يخفض عينيه، ويتجه نحو المنحدر. يلتفت وهو يقف على حافته- أمه تضغط حنجرتها بكفها وتدير وجهها عنه. يطلق تنهيدة حادة- وينطلق من الرأس الصخري إلى أسفل في الطريق المتعرج بين الصخور، ينحدر فوق الحجارة الخشنة، ينقّل قدميه بسرعة، يطير. أنغارا يفتح له حضنه الأزرق الواسع، والسماء تقترب وتبتعد.

في الأسفل، عند الشجيرات التي على الشاطئ، يتوقف يوسف، يجد بعينيه قامة رفيعة تقف في الأعلى. - يلوح بيديه- أمه تقف ساكنة كعمود صخري، كشجرة، ضفيرتاها الطويلتان يلوّحهما الهواء، وقد بدا عليها أنها لم تكن تنظر إليه.

يندس بسرعة تحت الخضرة النامية قرب الماء، يحرر القارب من الحبل الذي ربط به، يثني ساقه ثم يفردها دافعاً القارب بها في الماء، فيلتقطه التيار على الفور ويحمله منطلقاً به إلى الأمام. يضع يوسف المجذافين في حلقتيهما، ويرشق وجهه المتوهج بالماء الصقيعي. يلتفت ويمد يده من جديد نحو القمة البعيدة- الأم، كما في السابق، لا تتحرك. لا شيء يتحرك سوى قماش ثوبها المهترئ الخفيف الذي تهزه الريح.

لم تستطع زليخة أن تكبت ألمها في داخلها، فانفلت الألم وأغرق ما حوله- ماء أنغارا الرجراج، وخضرة الضفاف والروابي، والرأس الصخري الذي تقف عليه زليخة، وقبة السماء الموشاة بزبد الغيوم البيضاء. والنوارس التي تقطع الهواء بشفرات أجنحتها- كل ذلك مؤلم، الريح التي تلوي رؤوس أشجار السرو المشعثة- تسبب الألم، مجذافا يوسف اللذان يقطعان مياه النهر ويحملانه إلى ما وراء الأفق، إلى نهر ينيسي- يسببان الألم. النظر إلى ذلك يؤلم. حتى التنفس- يؤلم. ليتها تغمض عينيها فلا ترى ولا تحس بشيء، ولكن...

هل الذي هناك، في وسط أنغارا، في قوقعة خشبية صغيرة هو يوسف؟ زليخة تحملق، تركّز نظرها الحاد كصيّاد. في الزورق يقف فتى يلوّح لها بيديه في يأس- شعره الأسود منبوش، أذناه في مهب الريح، يداه اللتان لوحتهما الشمس نحيلتان، هشّتان، ركبتاه العاريتان تغطيهما كدمات سوداء: يوسف ذو السبع سنوات، يرحل عنها، يبحر، يودعها. هي تصرخ، تمدّ يديها، تفرد كفّيها- يا ولدي! يلوّح لها، فتلوّح في ردّها عليه بيديها الاثنتين بقوة، فاردة ذراعيها بأوسع ما تستطيع، وباندفاع كأنها على وشك أن تطير... يبتعد الزورق، ويصغر- لكن عينيها تريان الفتى بشكل أفضل، أوضح، أكثر تحديداً. إنها ستظل تلوّح بيديها إلى أن يختفي وجهه الشاحب خلف التلة الكبيرة. وبعد ذلك ستظل تلوح طويلاً، ستلوّح طويلاً.

تسبل يديها أخيراً، وتشد بقوة عقدة المنديل حول رقبتها، ثم تدير ظهرها لأنغارا وتغادر الرأس الصخري.

تمشي زليخة من دون أن تلاحظ الزمن والطريق، محاولة ألا تتنفس كي لا يتضاعف ألمها. ترى في الفسحة المستديرة شخصاً يسير لملاقاتها، شخصاً أشيب، أعرج، يحمل عكازاً. يرى كل منهما الآخر فيتوقفا- هي في أحد طرفي الفسحة، وهو في الطرف الآخر.

فجأة يدرك الرجل أنه تقدم في السن، وفقد جدة بصره، فلم تعد عيناه قادرتين على رؤية التجاعيد في وجه زليخة، ولا الشيب في شعرها. أما هي فتشعر أن الألم الذي يملأ العالم لم يزل، لكنه منحها فرصة لالتقاط الأنفاس.

Chapter 42

معجم الكلمات التترية

المستخدمة في الرواية

حرف الألف:

آبيستاي- زوجة رجل الدين

الباستي- شخصية أنثوية أسطورية شريرة

أجداخا- التنين

آغا- لقب لمخاطبة الأكبر سناً باحترام

اللا- اللـه

اللاساكلاسي- ليحمني الرب القدير

أوبري كارتشاك- عجوز شريرة شيطانية، غولة، أوبيريخا

أورازا- عيد الفطر عند المسلمين

أوشكيروتشي- أصحاب كرامات، منجمون

أوليم- ولدي، بنيّ

إياسي- روح يسكن البيت

إيني- ماما

حرف الباء:

باسوكابكا إياسي- روح يسكن الحي.

بيتشورا- روح شريرة تسكن المنزل.

بيري- روح أسطوري على شكل فتاة.

حرف التاء:

تابان- مائدة طعام.

تاش- حجر- شاهدة قبر

تستيمال- منشفة طويلة مطرزة

تشارشاو- ستارة

تشكيل- تشكيل الحروف في الخط العربي

تور- مكان الصدارة في القاعة

توي- احتفال، عرس

تشيبا- معطف خريفي

تشيبيلديك- ستارة

تينكي- قطعة نقدية معدنية

حرف الجيم:

جالمافيز- عجوز أسطورية عملاقة، شرهة وآكلة لحوم بشر

جانيم- يا روحي

جيبيغيان تافيك- الدجاجة المبلولة

حرف الخاء:

خزريت- لقب يخاطب به رجل الدين، ينم على الاحترام

حرف الدال:

ديف- روح شريرة عملاقة

حرف الزاي:

زيرات إياسي- روح يسكن المقبرة

حرف السين:

ساندوغاش- لقب يطلق على الخيل معناه «بلبلي»

سوأناسي- كائن يعيش في الماء

سوبحان أللا- سبحان اللـه

سياكي- مقعد كبير، رف عريض

حرف الشين:

شورالي- الروح الذي يسكن الغابة.

حرف الفاء:

فيخيشي- قحبة

فيريشتي- ملاك

حرف الكاف:

كابلاو- لحاف

كاليم- مهر الزوجة

كامتشا- سوط

كوتا- حذاء منزلي من اللباد بعنق قصير

كوربان- أضحية

كوشتيلي- نوع من الحلوى

كولميك- ثوب، قميص

كيريش- المصارعة التترية.

كيز- كووو-«إلحق بالفتاة»- لعبة على ظهور الخيل

كيزيليك- مرتديلا من لحم الخيل

كيشتي- رفّ تحت السقف تنضد عليه أغطية الفراش (يوك)

كيوبيليك- (لقب للبقرة) - الفراشة

حرف اللام:

ليغان- طست

ليوكي- رف في الحمام

لياوخي- سجادة جدارية عليها كتابات مقدسة

حرف الميم:

ميخراب- محراب

حرف الياء:

يوخا- أفعى أسطورية لها شكل امرأة جميلة

Notes

[1←]

قبعة عسكرية منسوبة إلى بوديوني قائد الفرسان الحمر في الثورة- المترجم

[2←]

إقطاعي- المترجم

[3←]

آلة موسيقية كالأكورديون- المترجم

[4←]

الزعل- المترجم

[5←]

فندقكم «الغراند أوتيل» يترك انطباعاً في النّفس يا صديقي (بالفرنسيّة)

[6←]

ليس المقصود الكرملين في موسكو، فهذه الكلمة هنا، وحيثما ترد في الرواية، تعني «دار الحكومة» -المترجم

[7←]

لا تتخاصموا أيّها السادة! (بالفرنسيّة)

[8←]

سيم روك - كلمتان روسيتان معناهما «الأيدي السبعة»

[9←]

اتحاد الشباب اللينيني- المترجم

[10←]

الفانيرا- المترجم

[11←]

ما تاريخ اليوم؟ (باللغة الفرنسيّة)

[12←]

الأوّل من تموز عام ألف وتسعمئة وثمانية وثلاثون، يامدام

[13←]

ماذا فعلت اليوم؟ (بالفرنسية)

[14←]

رسمت يا مدام؟ (بالفرنسية)

[15←]

وماذا أيضاً؟ (بالفرنسية)

[16←]

رسمت فقط. (بالفرنسية)

[17←]

وماذا رسمت يا يوسف؟ (بالفرنسية)

[18←]

هل أنا ملك أم لا شيء (بالفرنسيّة)